تاريخ العصور الوسطى في أوروبة

الفترة الأولى

بين نهاية القرن الرابع والقرن الحادي عشر الميلاديين

تأليف

الدكتور صلاح مدني

دكتوراه دولة في التاريخ من جامعة باريز

أستاذ مساعد في تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب

إهـــــــداء ٢٠٠٧
مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
الإمارات العربية المتحدة



الفترة الأولى

بين نهاية القرن الرابع والقرن الحادي عشر الميلاديّين

تأليف

الدكتور صلاح مدني

دكتوراه دولة في التاريخ من جامعة باريز

أستاذ مساعد في تاريخ الأمة العربية والإسلام في كلية الآداب

١٣٩٢ – ١٣٩٣ هـ

١٩٧٢ – ١٩٧٣ م

مطبعة الانشاء بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنه توخياً لتسهيل دراسة التاريخ رأى الكثيرون تقسيمه الى عصور قديمة ووسطى وحديثة • كما ذهب بعض المؤرخين الى أبعد من ذلك بإيرادهم سنين محدّدة أو تواريخ دقيقة بدؤوا بها تلك الأقسام الثلاثة ، كما أوردوا أحداثاً هامة اعتبروها نهاية لتلك الأقسام نفسها • ومن قبيل ذلك بدؤهم العصور القديمة باختراع الإنسان الكتابة ثم جعلوا نهاية تلك العصور في سنة ٤٧٦ م وهي سنة قضاء البرابرة الجرمان على الإمبراطورية في غربي أوروبا • بمعنى جعلهم منطلق العصور الوسطى من نهاية القرن الخامس بينما حدّد بعض المؤرخين نهايتها في سنة ١٤٥٣ أي في عام احتـلال السلطان العثماني محمد الفاتح لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية • على حين ذكر آخرون وجوب إنهاء تلك العصور في نهاية القرن الخامس عشر حيث تمّت في فترة نصف القرن هذه أحداث جسام كنهاية حرب مائة العام بين إنكلترا وفرنسا وما تبعها من تصفية لرواسب النظام الإقطاعي الذي كان سائداً طيلة العصور الوسطى ، وكالاكتشافات الجغرافية التي فتحت في وجه الغربيين آفاقاً جديدة أدّت الى انتقال مركز الثقل في حياة أوروبا الاقتصادية من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الأطلسي • هذا الى جانب أحداث هامة أخرى لا مجال لذكرها في هذه المقدمة • ثم بدأ المؤرخون العصور الحديثة منذ مستهل القرن السادس عشر وحتى عصرنا الحالي • لكن الى أي مدى يمكننا الأخذ بهذا التقسيم وقبول الحدود الزمنية التي وضعوها له ؟

١ ــ إنه لمن المقطوع بصحته أن هذا التقسيم اعتباري صرف ولا يمكن تعميمه على جميع أنحاء العالم ولا على جميع شعوب هذا العالم ؛ وأن تقسيمهم هذا وانطلاقاً من الحوادث التي أوردوها لا ينطبق إلا على تاريخ أوروبا • بيد أنه وبما أننا ندرس في محاضراتنا هذه تاريخ العصور الوسطى في أوروبا فيمكن وإلى حدٍّ ما أن نقبل بتحديدهم لفترة العصور الوسطى ما بين نهاية القرن الخامس ونهاية القرن الخامس عشر الميلاديين •

٢ ــ إنهم ببدئهم تلك العصور القديمة والوسطى والحديثة بسنين محدّدة وبذكرهم أن تلك العصور نفسها انتهت عنـــد تواريخ أو سنين محدّدة (٤٧٦ للعصور القديمة و ١٤٥٣ أو ١٤٩٨ للوسطى •••) يجعلون لتلك العصور نقطة بداية مُحدّدة وهذا خطأً لأنه لا يمكن تحديد بدايات دقيقة لعصور تاريخية حيث ليس في التاريخ سنون حاسمة نبدأ بها عصراً جديداً أي مرحلة تطور جديدة تختلف عن السابقة اختلافا كليا وجوهريا •

ومع تسليمنا بوجاهة هذا الرأي القائل بوجوب بداية تاريخ العصور الوسطى منذ نهاية القرن الخامس لكننا لا نُسلّم بوجـوب تحديد سنة بالضبط وبصورة دقيقة لنبدأ بها تلك العصور من حيث أن هذا الانتقال من العصور القديمة إلى الوسطى هو نتيجة بدء التاريخ تطورا جديدا مغايرا لخط سير تطوره القديم • وبدهي أنه لا يصح تحديد سنة معينة أو ايراد حادث تاريخي مهما بلغت أهميته لنبدأ بهما تلك العصور لان أهم صفة للتطور هي الاستمرار • فالتطور التاريخي سلسلة كثيرة الحلقات يأخـــذ بعضها برقاب بعض • كذلك ليس من السهل أن نقول ان عصراً ما انتهى في السنة الفلانية وان عصرا آخر ابتدأ منذ ذاك ، وان مسيرة التاريخ أو تطوره توقفت عجلتها في سنة ٤٧٦ حيث انتهت العصور القديمة ، وأن تلك العصور استأنفت رحلتها عبر الزمن وباسم جديد هو العصور الوسطى الى أن توقفت مرة أخرى في سنة ١٤٥٣ أو في نهاية القرن نفسه ، ثم والت القافلة مسيرتها مجدداً مع أنه من المقطوع بصحته أن العصور التاريخية هي كلٌّ أو سلسلة متصلة الحلقات تتداخل حوادثها في بعضها بعضاً وأن

التقسيم الذي ابتدعه المؤرخون واتبعوه (وهو العصور القديمة والوسطى والحديثة) لم يكن إلا نشدانا لتسهيل دراسة التاريخ •

وإذا ما أردنا البقاء داخل الأطر العامة للعصور الوسطى وحدها نقول إن هذه العصور يمكن تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية •

الفترة الاولى : وهي تتألف من سبعة قرون (ما بين نهاية القرنين الرابع والحادي عشر) وقد غلب عليها اسم حقبة غـارات البرابرة عـلى أوروبا والشرق الأدنى وشمال أفريقيا • علماً أن تلك الغارات قد بدأت على أوروبا حتى منذ مطلع القرن الرابع • لكن الغارات التي كرثت أوروبا منذ ذاك والتي سنعرض أهم حوادثها اختلفت عن نظيراتها السابقة من حيث أن الغارات الجديدة أدّت في نهاية الأمر الى إقامة البرابرة المغيرين كيانات سياسية أو دولاً داخل إطار الامبراطورية الرومانية المتداعية والمنحلّة •

ولم يتمّ هذا التطور والتغيير الطارئين في يوم واحد • ولئن تمكن البرابرة من الإجهاز نهائيا على الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية وإقامة دولهم على أنقاضها فان القسم الشرقي من هذه الامبراطورية بقي صامداً في وجه المحاولات التي قام بها كل من البرابرة أنفسهم والعرب المسلمون بعدهم ثم الصليبيون أثناء الحملة الصليبية الرابعة • ولم تنهر مقاومة هـذا القسم إلا في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر على يد الأتراك العثمانيين • هذا مع ملاحظة أنه على الرغم من قضاء البرابرة على القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية في نهاية القرن الخامس فان القسم الشرقي من الامبراطورية نفسها وهو الذي صار يدعى بالامبراطورية الرومانية الشرقية والتي سيغلب عليها وطيلة العصور الوسطى اسم الدولة البيزنطية سيبقى مع ذلك وفياً لتقاليد ماضيه الروماني ، لا بل فإن أباطرته ولا سيما جستنيان العظيم حاول استرداد القسم الغربي من البرابرة ونجح ولو موقتـا في مشروعه الرامي الى إحياء الامبراطورية الرومانية •

أما الغارات التي سندرسها في هذه الفترة الأولى فهي التي بدأتها ومنذ منتصف القرن الرابع وبدون انقطاع شعوب بربرية كثيرة ولا سيما الشعوب

الجرمانية والسلاڤية والنورماندية ذات الأصل الاسكندنافي ، والبلغارية والآڤارية والمجرية . وقد هاجرت تلك الشعوب من تخوم آسيا الى أوروبا . لكن وبما أن بحثنا أو دراستنا لتاريخ العصور الوسطى ستكون مقتصرة على أوروبا فحسب لذلك رأينا عدم التعرّض في هذا البحث الى الفتوحات العربية الإسلامية التي أدت الى تحرير كل من جميع أجزاء سورية الطبيعية ومصر والمغرب العربي والأندلس من الحكم البيزنطي لأن هذا الموضوع متعلق بدراسة التاريخ العربي الإسلامي . كما وأنه لن تتعرض في بحثنا إلى علائق الخلافتين العربيتين الأموية والعباسية ، ولا إلى علائق الدويلات العربية الإسلامية في الشرق والغرب بالدولـة البيزنطية لأن ذلك متعلّق بدراسة التاريخ البيزنطي .

ولجميع ما ذكر فإن دراستنا لهذه الفترة الأولى ستكون منصبّة على انقضاض تلك الشعوب المغيرة على الامبراطورية الرومانية . وعلى الرغم من تعرّضنا في الفصل الأول من دراستنا هذه الى حالة الامبراطوريةالرومانية لدى بدء غارات البرابرة على ولاياتها في غربي ووسط أوروبا لكن تلك اللوحة التي صورنا فيها واقع هذه الامبراطورية آنذاك هي مقتضبة وموجزة.

الفترة الثانية : وهي تتألف من ثلاثة القرون الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر . وقد أضفى على أوروبا خـلالها طابع جديد يختلف بصورة كلية عن واقع هذه القارة في الفترة السابقة . وعبثاً ما حاول الغزاة البرابرة الذين كانوا انقضّوا على تلك القارة في سبعة القرون الماضية أن يشيدوا على أنقاض الامبراطورية الرومانية إمبراطوريات عديدة دائمة . لكن تلك الامبراطوريات الجديدة سرعان ما انهارت وشيكا . ولم يكتب البقاء والديمومة إلا لواحدة منها وهي التي صارت تعرف باسم الامبراطورية الجرمانية التي حاكى فيها مؤسسوها الامبراطورية الكارولنجية . ومع أن دعائم صرح هذه الامبراطورية كانت واهية فإنها بقيت متعثرة بخطاها وطيلة فترة طويلة .

وثمة امبراطورية ثانية شملت رقعتها المناطق الواقعة الى الجنوب الشرقي

من أوروبا وقسماً من آسيا الصغرى هي الامبراطورية البيزنطية التي كانت قد تأسست منذ القرن الرابع وهي آخر ما بقي من حطام وأنقاض الامبراطورية الرومانية القديمة . ونظرا لمناعة موقع عاصمتها القسطنطينية فقد أخفقت جميع جهود الأمويين الرامية الى القضاء عليها .

وعاشت الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة عليها عصر إفاقة زادت فيه قوتها . فلما أنزل السلاجقة بالدولة البيزنطية هزيمة نكراء في معركة ملاذكرد (سنة ١٠٧١ م) شعرت أوروبا أنه لم يعد بوسع الامبراطورية البيزنطية الصمود في وجه تلك القوات السلجوقية ومجابهتها . وبعد استنجاد الامبراطور البيزنطي بالحبر الأعظم (البابا) فإن دول أوروبا الغربية جميعها اشتركت في الحملات الصليبية التي كانت أولاها في سنة ١٠٩٦ . وقد تمكنت وطيلة فترة ما من استخلاص الأماكن المقدسة في فلسطين من الدويلات السلجوقية . وتأسست في ربوع سورية أربع إمارات صليبية هي : **الرّها** (أورفة) **وانطاكية، وطرابلس ، وبيت المقدس** . كما سيطر الصليبيون على الأجزاء الساحلية من سورية الى أن تمكن آل زنكي ومن بعدهم الأيوبيون ثم المماليك من تصفية الصليبيين من ربوع الشرق الأدنى بعد أن بقيت بقاياهم فيها ولا سيما في بعض المدن الساحلية وفي جزيرة قبرص زهاء قرنين .

لكن دول أوروبا لم تلبث أن تلقت على يد كل من الأتراك والمغول دروسا قاسية حيث ألحق بها هؤلاء وأولئك وخاصة بالنسبة الى دول أوروبا الشرقية هزائم كبرى . ويرى المؤرخون أن دول أوروبا الحديثة قد نشأت في خِضَمّ ذلك الصراع العنيف الذي احتدم بين الشرق والغرب . إذاً تميزت هذه الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر بظهور الدول القومية الكبرى في أوروبا .

وقد أدت القرون الأولى من العصور الوسطى الى حدوث تغييرات جذرية وجوهرية في خريطة أوروبا في الناحيتين السياسية والجنسية حيث تمّ خلالها اندثار معالم الأطر الرومانية القديمة وليس الانهيار التام والكلّي للمبادىء والأسس التي قام عليها القانون والحكم الرومانيين تلك المبادىء

التي كانت الامبراطورية الرومانية قد قامت عليها . وعلى الرغم من ان تلك المبادىء لم تتعتم أن غدت نسيا منسيا لكنها لم تلبث أن دبّت فيها الحياة من جديد في القرن الحادي عشر ولكن معالمها لم تعد واضحة كما كانت عليه حالها من قبل . وما زالت تلك المبادىء تزداد وضوحا وبصورة تدريجية حتى استردت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بهاءها ورواءها السابقين . ولم يقتصر هذا الإحياء على المبادىء السياسية الرومانية إنما شمل في الوقت نفسه مجالي الحياة الفكرية والحياة الفنية اليونانية والرومانية . لا بل صار ذلك الإحياء أو النهضة الفكرية والفنية من بين الصفات الرئيسية لتاريخ التطور الفكري في هذه الحقبة .

وعلى الرغم من ذلك الأحياء الذي شمل الزوايا السياسية والفكرية والفنية في الدول التي ظهرت في العصور الوسطى فان هذه الدول تختلف وبصورة جذرية عميقة عن الدولة الرومانية . هذا فضلا عن أنه لم يعد للحضارة التي اتصفت بها تلك الدول في القرن الثالث عشر والتي سادها الطابع المسيحي أوجه شبه كثيرة تربطها بالحضارة القديمة الوثنية . وبعد أن تمّ انتشار النصرانية في جميع بقاع أوروبا أخذ صرح حضارتها الجديدة يرتفع سامقاً في الجو .

الفترة الثالثة : وهي التي يدعوها المؤرخون عادة بنهاية العصور الوسطى . وقد غطّت هذه الفترة حقبة أربت على القرنين وتقع بين سنتي ١٢٨٥ ــ ١٤٩٢ وسنعالج فيها انهيار عالم العصور الوسطى ذلك الانهيار الطويل الأمد والذي استغرق قرابة القرن (١٢٨٥ ــ ١٣٨٠) ، والخلاف بين البابوية وبين الامبراطورية وانهيار سيطرة كل منهما في القرن الرابع عشر ، والحركات الدينية المنشقة .

وسنعالج أحوال كل من مملكتي فرنسا وإنكلترا قبيل حرب مائة العام ، كما سندرس وقائع تلك الحرب الضروس . وسنهتم كذلك بدراسة دول أوروبا الشرقية والوسطى في القرن الرابع عشر .

وسنعنى فضلا عن ذلك بدراسة حضارة القرن الرابع عشر ولا سيما

بالنسبة الى التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، وسنتعرض بايجاز الى تطور العلوم والفلسفة ، والحركة الإنسانية ثم تتعرض الى دراسة الفنين الواقعي والكلاسيكي القديم في غربي أوروبا .

وسنتعرض أخيراً الى الحوادث التي عجلت بانهيار العصور الوسطى ؛ حيث سندرس حركة انشقاق يوحنا هاس Jean Hus في بوهيميا عن الكنيسة الكاثوليكية والثورة الدينية في بوهيميا في النصف الأول من القرن الخامس عشر ثم ندرس انهيار الامبراطورية وردّ الفعل القومي في كل من بوهيميا والمجر في النصف الأول من القرن الخامس عشر . كما سنتعرض الى الدول الاسكندينافية في هذا القرن والى حالة الفوضى التي كرثت حوض البحر الأبيض المتوسط في الفترة ذاتها .

إننا سنتابع أيضا دراسة كل من فرنسا وإنكلترا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ودراسة الدول الإيطالية قبيل الحروب الإيطالية : مملكة نابولي والدولة البابوية وجمهوريات ودوقيات ايطاليا الشمالية .

ثم ننتقل الى دراسة حضارة هذا القرن بالنسبة الى الاتجاهات الاقتصادية الجديدة وحركة الاكتشافات الجغرافية ، والى دراسة عهد الإصلاح ثم التمهيد الى ظهور عصر النهضة .

تلكم هي الموضوعات التي ستتمّ معالجتها في هذا الكتاب والتي غطت أحد عشر قرناً . لكن لصعوبة إعطاء جميع هذه المادة الدسمة في جزء واحد رأينا لزاماً علينا تقسيم البحث الى جزأين ندرس في أولهما ما دعوناه بالفترة الأولى التي غطت حوادثها ما بين نهاية القرنين الرابع والحادي عشر ثم نعالج في ثانيهما حوادث الفترتين الثانية والثالثة اللتين دارت حوادثهما بين نهاية القرنين الحادي عشر والخامس عشر .

ونحن نتمنى أن نفي دراسة العصور الوسطى الصعبة ما هي بحاجة إليه من عناية والله من وراء القصد .

دمشق في ١١ شوال سنة ١٣٩٢ هـ

١٦ تشرين الثاني ١٩٧٢ م

الدكتور صلاح مدني

الفصل الأول

حالة الامبراطورية الرومـانية في مستهل القرن الرابع الميـلادي وعلاقـة البرابرة بهـا منذ منتصف هـذا القرن

كانت الإمبراطورية الرومانية في هذه الفترة الدولة العالمية الكبرى على الصعيدين السياسي والحضاري لأنها أقوى الدول وأعرقها حضارة وأوسعها رقعة . ويتمتع مواطنوها ورعاياها فيما عرف بالسلام الروماني فكانوا مطمئنين وهادئين ويحترمون القوانين . وغطت رقعة هذه الإمبراطورية جميع أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط ، بجزأيه الشرقي والغربي هذا فضلا عن أنها كانت تضم بريطانيا نفسها . ووصلت سلطتها في أفريقيا الشمالية حتى الصحراء الكبرى وفي مصر حتى النوبة وفي سورية حتى وادي الفرات .

ومن زاوية العصـور الوسطى فإن منطلقنا ليس دراسة الامبراطـورية الرومانية في حد ذاتها إنما دراسة عوامل ضعفها والمعاول التي دمّرت صرحها وقضت على وحدة أجزائها في ظل ذلك الكيان العام الذي هو الامبراطورية، بمعنى أنه ستقتصر عنايتنا فقط على دراسة العوامل التي أدت الى ضعف هذه الامبراطورية وبالتالي انهيارها . وقد بدأت عوامل الانحلال هـذه بالظهور وبوضوح تام منذ نهاية القرن الثالث ومستهل القرن الرابع . وكانت تلك العوامل ثنائية فمنها الداخلي ومنها الخارجي . ومن بين العوامـل الداخلية تحديد علاقتها بالديانة المسيحية على أسس جديدة فبعد ما عاناه المسيحيون في الامبراطورية وفي القرون الأولى من اضطهاد وتعذيب تطورت علائق الأباطرة الرومان بهؤلاء من مرسوم ميلان أو مرسوم التسامح الذي

سمح في سنة ٣١٣ بالمسيحية بين مجموعة الأديان القائمة في الامبراطورية ، الى الاعتراف بها ديانة رسمية وبدء اضهاد الوثنية ديانة الامبراطورية القديمة وما رافق ذلك من حوادث دامية استنفدت طاقات كثيرة من طاقات الامبراطورية وكانت هذه في أمسّ الحاجة إليها من أجل الصمود في وجه البرابرة الذين أخذوا منذئذ يطرقون أبواب حدودها . أما أهم عوامل الانحلال الخارجية فهي غارات البرابرة على الامبراطورية .

وقد غطت حوادث تلك الغارات التي كانت سلسلة طويلة الحلقات يأخذ بعضها برقاب بعض سبعة القرون الواقعة ما بين القرن الرابع الميلادي والقرن الحادي عشر . وقد انتهت آخر حلقة من حلقات غارات هؤلاء البرابرة على حوض البحر الأبيض المتوسط بانقضاض السلاجقة الأتراك على الخلافة العباسية في بغداد وعلى آسيا الصغرى التي لم يَعتَتّم هؤلاء السلاجقة أن أسسوا فيها دولة سلاجقة الروم كما استولوا على سورية .

وذكر المؤرخون أن أباطرة روما في هذه الفترة كانوا يشعرون بتردّي وضعف إمبراطوريتهم . ولئن أظهر بعض ضعافهم شيئا من عدم الاكتراث أو اللامبالاة بهذا الواقع الأليم فإن أباطرة آخرين كانوا لا ينون عن التفكير بالوسائل القمينة بإنهاض إمبراطوريتهم من كبوتها وإقالتها من عثرتها . ومما يصور لنا ذلك القلق الذي أقضّ على بعض الأباطرة المصلحين مضاجعهم أنهم أخذوا يفتشون يمنة ويسرة عن الحلول التي قد تساعد على إيجاد الدواء الناجع والفعّال لتلك الحالة . وهكذا فان الامبراطور دقلديانوس (حكم بين سنتي ٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) وهو من خيرة أباطرة هذه الفترة ، رأى أنه على الرغم مما لمدينة روما ، ذات العلاقة الوثيقة بأصول التاريخ الروماني ومراحله من أهمية ، فانها لم تعد تصلح كعاصمة لهذه الامبراطورية وذلك لما يشدّها الى تاريخ الامبراطورية في عهدها الوثني من صلات قوية ؛ كما لاحظ أنها لم تعد ذلك المركز الموّار بالحياة الذي يزوّد العاهل بالدعم العسكري والروحي ليمكنه من إدارة دفة البلاد وتسلّم مقاليد أمورها وشؤون الدولة . ولجميع ما ذكر وجد هذا الامبراطور الحلّ في نقل

عاصمته من روما الى إحدى المدن الامبراطورية في آسيا وهي نيقوميديا • لكن هذا الانتقال لم يحلّ المعضلة ولم يُجْدِ الامبراطور المصلح فتيلا فلم يمكّنه من معالجة الأخطار المحدقة بالامبراطورية ولا إيقاف عوامل الانحلال التي أخذت تفتك في كيانها •

أما خلفه قسطنطين (الذي حكم بين سنتي ٣٠٦ ــ ٣٣٧) فقد نقل بدوره العاصمة الامبراطورية من نيقوميديا الى بيزنطة التي صارت تعرف منذ ذاك باسم القسطنطينية • ولم يدخر هذا العاهل العظيم وسعا في محاولة إيقاف عوامل انحلال دولته ولو أنه لم يكن بأسعد حظاً من سلفه في هذا المجال لأن داء الامبراطورية كان عضالاً أعجز نطاسيّي الأطباء • هذا ولو أن هذا الامبراطور خلّد اسمه في طليعة المصلحين بمرسومه الذي أصدره في ميلانو سنة ٣١٣ ويعرف بمرسوم ميلانو أو مرسوم التسامح العام • وبموجبه سمح للديانة المسيحية بأن تكون في عداد الديانات المسموح بها داخل نطاق الامبراطورية مما أنقذ معتنقيها من التعذيب ومن الاضطهاد • وقد أكسب هذا المرسوم صاحبه شهرة واسعة فصار يلقب بقسطنطين الأكبر أو العظيم ، علماً أن الديانة الوثنية بقيت حتى صدور مرسوم ميلانو الآنف الذكر الديانة الرسمية الوحيدة بالنسبة الى جميع أنحاء الامبراطورية ، كما بقي الوثنيون حتى بعد صدور هذا المرسوم أوفر عددا وأعزّ نفرا ، واستمرت الوثنية طاغية وأكثر انتشارا في جميع رقعة الامبراطورية ولا سيما بالنسبة الى الهيئات الادارية العليا وذلك طوال القرن الرابع • فمرسوم التسامح أو مرسوم قسطنطين لم يجعل ، كما يرى بعضهم ، المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية انما احدى الديانات التي اعترفت بها الدولة رسميا ، وبين الحالتين فرق كبير • ومع ذلك فان مرسوم ميلانو ألغى التدابير لا بل القوانين المجحفة التي كان مسيحيو الامبراطورية يتعرضون من جرائها وفي ظل الأباطرة السابقين الى التعذيب والاضطهاد • فمرسوم ميلانو إذاً جعل الامبراطور قسطنطين يولي المسيحية نفس الرعاية والعطف اللذين كان يوليهما للديانات الأخرى بما فيها الوثنية • علماً أن هذا الامبراطور لم يلبث أن

اعتنق بنفسه النصرانية وذلك حوالي سنة ٣٢٣ ، وهذا برهان يساعد على ردّ الرأي الذي أدلى به بعض المؤرخين من أن قسطنطين كان يريد استخدام مرسوم التسامح كوسيلة سياسية تمكّنه من توطيد أو دعم حكمه المتداعي وذلك ليفوز بدعم العناصر المسيحية • ونرى في هذا الرأي مبالغة • فلئن كان من المسلم به أن إصدار قسطنطين المرسوم المعروف أثار عليه الوثنيين في طول الامبراطورية وعرضها ، وأن هؤلاء نظروا إليه منذ ذاك نظرتهم الى عدو لدود ، لكن من المقطوع بصحته كذلك أن المسيحيين في الامبراطورية لم يكونوا قد توصلوا بعد الى احتلال نفس المكانة أو الأهمية التي كانت للوثنيين في المجتمع الروماني •

احتدم الصراع بين المسيحية والوثنية (والأغرب أن اليهود أيّدوا الوثنيين في نضالهم ضد المسيحيين) لكن المسيحية أحرزت نصراً مؤزّراً وكتب لها النصر • وليس ذلك بغريب فهي دين سماوي ، بعد أن استمر النضال المرير الذي خاضته ضد الوثنية قرابة ثلاثة أرباع القرن حيث اعترف بالمسيحية في سنة ٣٩٤ أنها الديانة الرسمية الوحيدة للامبراطورية الرومانية •

أخذ قسطنطين ، وخاصة بعد أن اعتنق هو نفسه ذلك الدين السماوي ، تدخل في الأزمة الداخلية التي صدّعت وحدة صفوف المسيحيين في القرن الرابع نفسه وتتعلق بالاختلاف بين رجال الإكليروس المسيحي حول طبيعة السيد المسيح وألوهيته ومساواته تمام المساواة بالله في هذه الطبيعة الإلهية •

ومن الجدير بالذكر أن تلك المسألة الجدلية التي قسمت المسيحيين ومزّقت وحدتهم بدأت بالظهور في مدينة الإسكندرية في مصر وكانت هذه المدينة المصرية في ذلك الظرف الراهن أوثق صلة بالمسيحية من روما نفسها •

أما الخلاف الذي ذرّ قرنه بين رجال الدين المسيحي فمردّه الى أن رجلين من رجال الدين هما آثناسيوس Athanasius وآريوس Arius اختلفا بالنسبة الى طبيعة السيد المسيح وأزليته ومساواته بالله • فذكر أولهما

وهو آثناسيوس أن طبيعته قديمة وأزلية ، وأن ثمة مساواة تامة بينه وبين الله . ومذهب آثناسيوس هذا هو المذهب الملكاني ويعرف أتباعه بالكاثوليك . بينما قال آريوس نقيض ذلك ، وآريوس هذا هو مؤسس مذهب الطبيعة الواحدة أي المذهب المونوفيسيستي أو المذهب اليعقوبي وأتباعه هم الأرثوذكس .

ونشداناً الى حل هذا النزاع فقد عقد قسطنطين مجمعاً مسكونياً (أي عالمياً) في مدينة نيقيا في سنة ٣٢٥ م أجمعت كلمة أعضائه على أن مزاعم آريوس هي من الهرطقة وكفرية ، وأن القول الفصل هو رأي آثناسيوس . وصدر عن هذا المجمع قرار أطلق عليه اسم **« المذهب النيقي »** الذي أخذ يتطور حتى صار المذهب الكاثوليكي .

لم تقف الوثنية مكتوفة الايدي من ذلك النجاح الذي حققته المسيحية التي قطعت خطوات كبيرة بعد أن سُمح بها في عداد الديانات المعترف بها رسمياً ، وقامت بردّة عنيفة نشدت من ورائها أن تستردّ مكانتها السابقة وسيطرتها كدين رسمي (لنذكر أن مرسوم ميلانو لم يتعرض الى دين الدولة بمعنى أن الوثنية بقيت الدين الرسمي) . وطبيعي أن المسيحية وحتى بعد مرسوم قسطنطين لم تستطع في أول الامر أن تقف على قدم المساواة مع الوثنية . كما رغب أقطاب الوثنية في الامبراطورية أن يسترد مذهب عبادة الأباطرة ، وهو بمثابة الدين الرسمي للامبراطورية ، مكانته . لكن هذا المذهب لم يعد تطبيقه ممكناً بعد اعتناق قسطنطين نفسه النصرانية حوالي سنة ٣٢٣ لأنه لا يعقل أن يطلب من الرعايا (أي سكان الولايات خارج إيطاليا أن يعبدوه ، لأنه بموجب عبادة الاباطرة فان الامبراطور يعبد في حياته من قبل رعايا الامبراطورية في خارج ايطاليا بينما يعبد في إيطاليا نفسها وفي روما بالذات بعد وفاته) أن يعبدوه بعد أن صار هو نفسه معتنقاً لدين سماوي . ثم واتت الظروف الوثنيين في سنة ٣٦٠ وذلك أن الامبراطور جوليان الذي كان من قبل مسيحياً اذا به وتحت ضغط دهاقين الوثنية يعود الى حظيرتها ولذلك دعي بجوليان الصابىء .

بدأ الوثنيون في عهد هذا الامبراطور يتنفسون الصعداء لأن الاباطرة الذين سبقوه كانوا قد اعتنقوا المسيحية . وقد واتت الظروف الدعاية الوثنية التي ذكرت للشعب بأن المسيحيين منّوكم أن السلم والرخاء سيتوطدان في ربوع الدولة فيما لو سمح للمسيحية بأن تغدو بين الأديان المعترف بها في الامبراطورية فلم يتحقق شيء من ذلك . هذا فضلاً عن أن حياة قسطنطين نفسه لم تكن مثالية فهي مترعة بالغدر والخيانة . أفلم ينهه دينه الجديد عن أعمال كهذه ؟ ثمت لم تكد المسيحية تنتشر في ربوع الامبراطورية حتى سادها الانقسام الى آثناسيوسيين وآريوسيين وبعضهم يكفّر بعضاً . والى غير ذلك من الحجج التي استخدمها الوثنيون في الردّ على المسيحيين لا سيما وقد قويت شوكة الوثنيين في الظرف الراهن لنصرة وتأييد الامبراطور جوليان الصابيء لهم . لا بل فقد أصدر هذا الاخير من القوانين ما حدّ من انتشار المسيحية التي جرّدها من الحرية في القيام بالدعوة والتبشير ، كما اضطر دعاتها الى التستّر والتواري عن الانظار ، ومنع المسيحيين الرومان من أن توسد إليهم وظائف الدولة ، هـذا بالاضافة الى منعه قبول المسيحيين في معاهد التعليم الحكومية . لكن هذه الفورة أو النجاح الذي حققته الوثنية في عهد هذا الامبراطور كان آنياً وسرعان ما توقف إثر اغتيال جوليان الصابيء سنة ٣٦٣ فاستردت المسيحية أنفاسها ونشاطها ونهضتها ، ولو أنها تأثرت في الفترة التالية بفتور نشاطها والحدّ من انتشارها من جراء الانقسام الذي حدث بين صفوف أبنائها الى آثناسيوسيين وآريوسيين ، وزيادة على ذلك فان الوثنيين بقوا حجر عثرة في سبيل انتشارها .

ثم بدأ منذ حوالي منتصف القرن الرابع خطر القبائل الجرمانية والبرابرة بصورة عامة يزداد وضوحاً حيث أخـذت تلك العناصر تتسرب من ولايات الحدود الى داخل رقعة الامبراطورية . وسنعالج في الفصول القادمة حركاتها بشيء من التوسع والافاضة بينما نكتفي الآن بقولنا أن تلك الهجرات كانت من مظاهر ضعف الامبراطورية لاسيما وقد استمرت حوادثها وذيولها ونتائجها ما بين نهاية القرن الرابع والقرن الحادي عشر أي طيلة فترة أربت على سبعة القرون مما سنراه في حينه .

ولم يكن لأباطرة الرومان الذين تولوا بعـد جوليان وحتى سنة ٣٧٩ شأن يذكر فكانوا نكرات ولم يبذلوا أي جهـد لرءب الصدع ومعالجة الموقف بحنكة وتفكير سليم • أما في سنة ٣٧٩ فقد أوسد العرش الامبراطوري الى تاوداسيوس Théodosias وكان مسيحياً آثناسيوسياً وشديد التعصب على الآريوسيين وعلى الوثنيين بصورة خاصة • وكانت الوثنية قد تعرضت بعد جوليان الى ضربات هزت كيانها وأوشكت أن تقضي عليها • ولم يكفّ تاوداسيوس عن اضطهاد الآريوسيين والوثنيين على السواء ، كما كان شديد الحرص على تصفية الوثنية والقضاء عليها القضاء المبرم فأمكنه الحصول على قرار من مجلس شيوخ روما في سنة ٣٨٤ نزعت بموجبه بعض تماثيل الآلهة الوثنية من أبهاء المجلس • وكانت خاتمة المطاف في تلك السياسة الحازمة بإزاء الوثنية القرار الذي استصدره تاوداسيوس في سنة ٣٩٤ من مجلس الشيوخ نفسه والذي نصّ على أن تكون المسيحية « الآثناسيوسية » المذهب الرسمي للإمبراطورية الرومانية في جميع ولاياتها • ثم صدرت عدة قوانين أخرى متممة للقرار الاول وبموجبها حظرت العبادة الوثنية وألغي مذهب عبادة الاباطرة • وأدى ذلك الى إطلاق المسيحيين العنان لميلهم المكبوت للثأر من مضطهديهم السابقين يوم كانوا يلقون بهم الى السباع الضارية في حلبات المصارعة لتفترسهم فانتقم المسيحيون من أولئك الذين كانوا بالأمس جلاّديهم • كما قاموا بحملة عامة وفي جميع ربوع الامبراطورية من أجل تدمير المعابد الوثنية ، هذا ولو أنهم تمادوا كثيراً فدمّروا الشيء الكثير من التراث الفكري القديم من يوناني وروماني على اعتبار انه تراث وثني بجعلهم أمهات كتب وروائع هذا التراث طعمة للنيران ، لا بل حُرّمت قراءة تلك الكتب على اعتبار أنها من وضع مفكرين وثنيّين • واستمر هذا الحظر مفروضاً على تلك العلوم والآداب الوثنية طيلة العصور الوسطى ولم يعد رجال الفكر الى دراسة ذلك التراث الوثني إلا في عصر النهضة منذ نهاية القرن الخامس عشر •

وكما استطاع تاوداسيوس الإجهاز على الوثنية فقد ظن أن بمقدوره

وضع حلّ لتهديدات الجرمان المتزايدة للحدود الامبراطورية • وقام حلّه على السماح لبعض تلك القبائل التي كانت تنشد الاستقرار السلمي داخل نطاق الامبراطورية بالاستقرار في شبه جزيرة البلقان ظاناً أن عمله هـذا سيخفف الضغط المتزايد على الحدود الامبراطورية أو بالاحرى على ولايات الحدود • وكانت أولى عناصر الجرمان وصولاً الى شبه جزيرة البلقان شعب القوط • لكن أهالي البلقان استاؤوا من قرار هذا الامبراطور ولم يكرموا وفادة النازلين الجدد بأراضيهم ولم يمكنوهم من الاستقرار فيها • ونذكر على سبيل المثال أن الاهلين في إقليم سالانيك هبّوا هبة رجل واحد لمجابهة من قصد ربوعهم من القوط • وبعد أن ظنّ الامبراطور أنه تمكن من حلّ مشكلة الجرمان المغيرين على إمبراطوريته وبصورة سلمية فإذا بالاخبـار تصله أن أهل سالانيك حالوا بينه وبين وضع حلّه موضع التنفيذ • وكان الامبراطور موجوداً آنذاك في مدينة ميلانو بشمالي إيطاليا فوجه حملة تأديبية الى سالانيك تركت أثراً سيئاً لا في ربوع شبه جزيرة البلقان فحسب إنما في سائر أنحاء الامبراطورية فذكر خصومه ونشروا أنه يريد طرد رعاياه المسيحيين من أراضيهم لمصلحة غزاة برابرة وثنيين • ومما ضاعف من ذلك الأثر السيّء أن قائد الحملة التأديبية وجنوده لم يقصروا في أن يُنَكّلوا نكالاً أليماً بأهل سالانيك فأعملوا فيهم قتلاً وتعذيباً ، وفي ممتلكاتهم وثرواتهم سلباًونهباً وطردوا الباقين منبيوتهم وحقولهم ليقدموها الىالقوط•

بلغ استياء جميع سكان الامبراطورية مداه ، وقد تَبَنّى رجال الدين موقفاً صارماً وشديداً فانحازوا الى ضحايا انتقام الامبراطور وكان على رأس المستائين **القديس آمبرواز** أسقف ميـلانو نفسه الذي أعلن سخطه عـلى الامبراطور من أجل سياسته الخرقاء وموقفه الأرعن • وتعبيراً عن استيائه ، أو كما ذكر بعض المؤرخين عن احتجاجه ، فانه منع الامبراطور تاوداسيوس من مقابلته ورفض قبوله في كنيسة ميلانو • وتمسك هذا الاسقف بموقفه بدون أن تلين له قناة فلم ير تاوداسيوس مندوحة عن الاعتراف بخطئه وإعلان توبته وندمه واضطر الى الوقوف بين يدي الاسقفالسالف الذكر وقفة الرجل

المذنب الملتمس للغفران وكأنه مجرّد فرد عادي من عامة الشعب في حضرة راعي أبرشية ميلانو[1] •

ولهذا الحادث دلالة بالغة الخطورة والاهمية لأنها ستكون منطلقنا الى بحث كبير جداً ويشكل ركناً هاماً من أركان دراستنا لتاريخ العصور الوسطى من حيث أنه أعطانا فكرة عن ظهور سلطة دينية كنسية عليا ، وسيجد الأباطرة أنفسهم مجبرين على أن يحسبوا لها حساباً • لا بل فغداة ظهور البابوية كأعلى سلطة مسيحية فإن ثمة نزاعاً لم يلبث أن استعر بين من تولوا منصب الحبرية العظمى (البابوية) في روما وبين أباطرة الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة حول قضية السمو الذي ادعى الأحبار العظام أنه من حقهم مبرّرين ادعاءهم أن الاباطرة لا يعترف بشرعية حكمهم إلا ان تَوّجَهم الأحبار العظام • وقد غطت حوادث النزاع بين الباباوات والاباطرة معظم حوادث العصور الوسطى مما سنراه في حينه •

وقد حدثت وفاة تاودا سيوس في سنة ٣٩٥ واعتبرهــا المؤرخون من التواريخ الحاسمة بالنسبة الى تاريخ أوروبا في العصور الوسطى •

الامبراطورية الرومانية منذ وفاة تاوداسيوس في سنة ٣٩٥ وتقسيمها بين ولديه الى قسمين شرقي وغربي :

شغلت الامبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع رقعة كبيرة حيث كانت تملك جميع حوض البحر الابيض المتوسط وكانوا يدعونه « بحيرة رومانية » ؛ علماً أن حدودها في جهاتها الاربع كانت تتجاوز الاقاليم والمناطق ذات السواحل المطلة على هذا البحر في جزأي حوضــه الشرقي والغربي •

---

(١) راجع تفصيل ذلك في مجموعة التاريخ العام المطبوعة في باريز تحت اشراف الاستاذ غوستاف غلوتز G. Glotz ؛ المجلدات المخصصة لتاريخ العصور الوسطى (وهي عشرة مجلدات) ؛ المجلد/١ ؛ ج/١ ؛ ص ٥ ــ ٦ وعنوان هذا الجزء : مصائر الامبراطورية الرومانية في غربي أوروبا بين سنتين ٣٩٥ ــ ٨٨٨ م وهذا الجزء هو من تأليف الاساتذة الثــلاثة : فرديناند لوط Ferdinand Lot وكريستيان بفيستير Christian Pfister وفرانسوا ل. غانشوف François L. Ganshof طبعت هذه المجموعة بكاملها دار نشر المطبوعات الجامعية في فرنسا سنة ١٩٤٠ .

وشملت حدودها الشمالية مجرى نهري الـدانوب والراين ثم بحر المانش ووصلت حتى التلال الواقعة بين انكلترا واسكتلاندة بينما تاخمت حدودها الجنوبية الصحراء الكبرى والشلال الاول على نهر النيل • أما الحدود الشرقية فكانت عند بادية الشام بين سورية الطبيعية والحجاز ثم مجرى نهر الفرات ووصلت تلك الحدود في الشمال الشرقي وادي دجلة الاعلى والقوقاز وأرمينيا• واعتبر المحيط الاطلسي الحدود الغربية لتلك الامبراطورية •

وتؤلف الولايات الرومانية الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط وحدة جغرافية يسودها جنس ومناخ البحر الابيض المتوسط ، وثمة تشابه كبير في تضاريسها (سهل ساحلي ضيق وقد تلامس سفوح الجبال البحر وسلسلتا جبال غربية وشرقية وبينهما منخفض مما يجعل البحر وبنسبة كبيرة وسيلة المواصلات الرئيسية بين مختلف ولايات الامبراطورية المطـلة على هذا البحر) •

وبدهي أن تفتقر تلك الدولة العظمى أو العامة (الامبراطورية) وذات الرقعة الشاسعة الى التجانس والانسجام فعلى الرغم من غلبة جنس البحر الابيض المتوسط على سكانها فلم تلبث ولاياتها أن ضمت عناصر أخرى كثيرة تمثلت في أوروبا بالجرمان الشماليين وبالعناصر السلاڤية وببقـايا الهون (من آڤار وهنغاريين ـــ مجريّين ـــ) وبعناصر تركية وكلتية هـذا بينما تاخمت عناصر البربر على أطراف الصحراء الكبرى كلا من أفراد جنس البحر الابيض المتوسط وبعض الشماليين وخاصة الڤاندال • ولم يتضح أثر هؤلاء الڤاندال في ولايات أفريقيا الرومانية وخاصة نوميـديا وافريقيا وطرابلس إلا في النصف الثاني من القرن الخامس ، بينما وجد في سورية بقايا شعوب سامية قديمة من آراميين وكنعانيين (ومنهم الفينيقيون) وعبرانيين هـذا بالاضافة الى العرب الذين كانوا مستقرين في داخل سورية وخاصة في بادية الشام حيث الغساسنة على الحدود الفاصلة بين سورية والحجاز ، والتدمريون بين حدود بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين • وهكذا كان طبيعياً أن تفتقر هذه الامبراطورية الى التجانس التام بين سكان مختلف ولاياتها على الرغم من

غلبة عنصر البحر الابيض المتوسط عليهم .

كما افتقرت هذه الامبراطورية الى الوحدة اللغوية حيث تكلمت شعوبها مجموعة من اللغات الساميّة والحاميّة متمثلة بلغة قبائل البربر في أفريقيا واللاتينية والهيللينية الىجانبلغاتالعناصر الجرمانية والسلاقية والديموطيقية (في مصر) . وصفوة القول أن هذه الامبراطورية ، وعلى الرغم من حرص السلطة المركزية فيها على توحيد أنظمة الحكم ، وعلى الرغم من محاولة هذه السلطة أن تُسَوِّدَ فيها حضارتها وثقافتها وأن تربطها بشبكة من الطرق البرية المعبدة التي تقود على العموم الى روما والتي ما تزال آثارها باقية الى أيامنا هـــذه حيث تدعى الآن بالطرق الرومانية وهي أظهر ما تكون في منطقة جبل سمعان شمالي سورية ، فهذه الامبراطورية استمرت مفتقرة الى التجانس بين عناصر سكانها والى الوحدة اللغوية والوحدة القومية . ويمكن أن نعزو كل ذلك الى عاملين قويين هما : **سعة الامبراطورية ، وتباين اجناس وحضارة وثقافة مختلف اجزائها** . لاسيما وكان بين الاقطار التـــي خضعت لامبراطورية روما أقطار أعرق حضارة حتى من روما نفسها . ولئن سيطرت حضارة الرومان في الاجزاء الغربية من امبراطوريتهم فانه لم تتح لهم تلك السيطرة لا في مصر ولا في بلاد الشام ولا في بلاد الاغريق لأن حضـــارة هذه الاقطار أرفع مستوى من حضارة روما وباقي امبراطوريتها ؛ لا بل فان روما والحضارة الرومانية عامة اقتبست أشياء كثيرة عن هـــذه الحضارات الثـــلاث .

ولئن طغت الشخصية الرومانية على معظم ولايات الامبراطورية الرومانية الغربية فأنه على الرغم مما بذله الرومان من جهد **لرومنـــة الإغريقوالسوريين** والمصريين فانهم أخفقوا ولم تنصهر شعوب هذه الاقطار الثلاثة في بوتقة الرومان وبقيت محتفظة بذاتيتها وبأصالتها وبحضارتها وبلغاتها القوميةوكثيراً ما ثارت هذه المناطق على الحكم الروماني عند شعورها بزيادة الضغط عليها وبزيادة حرص السلطات العليا على **« رومنتها » وتمثلها** . لذلك كله بقيت بعض النزعات الانفصالية الاقليمية تنخر في جسم الامبراطورية الرومانية

التي لم تقم على أساس قومي •

ومما باعد بين مختلف عناصر هذه الامبراطورية أنه لم يكن ثمة وحدة دينية بين مختلف أجزائها • وكانت نتائج ذلك الاختلاف الديني أوضح ما تكون يوم كانت الوثنية دين الامبراطورية الرسمي • ومع أن جميع ولايات الامبراطورية كانت وثنية لكن وثنيتها مختلفة وتعبد آلهة متعددة وليس من وحدة دينية سوى ما فرضته السلطات الرومانية المركزية على الولايات من عبادة أباطرة روما وحتى في حياتهم •

وبقي هذا الاختلاف الديني العقائدي حتى بعد أن غدت المسيحية ديناً رسمياً للدولة منذ سنة ٣٩٤ م• وحتى قبل ظهور الاسلام فان المسيحية التي سيطرت على الجزء الغربي من الامبراطورية (باستثناء بعض دويلات الجرمان من قوط شرقيين وغربيين وفاندال الذين كانوا آريوسيين أي أرثوذكساً) هي مسيحية المذهب الآثناسيوسي أي الملكاني الكاثوليكي بينما سيطرت العقيدة الآريوسية ، الارثوذكسية اليعقوبية على الاجزاء الشرقية ولا سيما مصر وسورية وآسيا الصغرى ومعظم شبه جزيرة البلقان بمعنى أن جمهرة سكان الامبراطورية هم الارثوذكس • مع وجوب ملاحظة أن الدولة الرومانية قلما فرضت عقيدتها على الشعوب الخاضعة لحكمها فيما عدا فرضها عبادة الاباطرة الرومان يوم كانت روما ما تزال وثنية •

وفضلا عن جميع ما ذكر فان طابع المدنية والثقافة في الامبراطورية كان ثنائيا على الاقل • فالطابع العام لمدنية القسم الغربي من الامبراطورية بحاضرته روما كان لاتينيا وثقافته لاتينية • أما القسم الشرقي بحاضرته القسطنطينية فان الطابع المميز لمدنيته وثقافته هو المدنية اليونانية والثقافة الهيللينية مما أدى الى أن تتجه الثقافة في مدنية القسم الغربي من الامبراطورية الى العناية بنواحي التشريع والادارة والاهتمام بأنظمة الحكم ووضع مختلف المجموعات القانونية وتطبيق القوانين • بينما سيطر الاتجاه الروحي على القسم الشرقي ففيه مهبط الديانات السماوية التي انتشرت منه الى جميع بقاع العالم المتمدن •

وكان الحكم الممارس في الامبراطورية حكما مطلقا مستبداً ورغبات الاباطرة هي القانون الاسمى • وقد استعان الاباطرة في ممارستم الحكم سواء في حاضرة الامبراطورية أم في الولايات بطبقة من كبار الموظفين المحترفين • وقلما عبث الاباطرة بالقوانين المرعية وبالتقاليد وبالأعراف انما كانوا يحترمون وبصورة تامة تلك القوانين • وبدأ الاباطرة منذ فترات الاضطرابات وبعد اغتيال بعض الاباطرة يستخدمون موظفا كبيرا هو **الحاجب** ليحول بينهم وبين دخول الافراد ولاسيما من غير الموثوقين عليهم • لكن هذا الموظف عزل بين الاباطرة والشعب وبينهم وبين الحياة اليومية للشعب وللحكومة • وأول من لجأ الى هذا المنصب هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥) وقد هدف من ورائه رفع مكانة المنصب الامبراطوري في أعين أفراد الشعب الروماني بينما كان من السهل على أفراد هذا الشعب الدخول على رئيس الجمهورية الرومانية في العهد الجمهوري •

وأدخل هذه الامبراطور إصلاحا على ادارة الولايات بحرمانه حكامها من ممارسة أية سلطة على الجيش الذي جعل قادته مرتبطين بالامبراطور نفسه ومسؤولين أمامه مباشرة فساعد ذلك على ضبط ادارة الولايات وأبقى حكامها أدوات طيعة وسلسلة القياد بيد السلطة المركزية •

ومما أطال في عمر الامبراطورية بعد تحولها الى الديانة المسيحية : **القانون الروماني والكنيسة المسيحية** • وقد اعتبرت المسيحية منذئذ عاملا من العوامل الهامة التي ساعدت على وحدة الامبراطورية وبقاعها لاسيما في فترة بدأت فيها الاحداث السياسية والصعاب التي أحدقت بالامبراطورية تنذر بقرب وقوع الكارثة •

ومع ذلك فلا سبيل الى جحود الفوائد الكبرى التي جنتها الكنيسة من التنظيم الاداري في الامبراطورية حيث وجدت التقسيمات الادارية قائمة • وكما أن سكان الولايات يخضعون الى سلطة سياسية مركزية عليا مقرها روما فقد غدت هذه المدينة وفي الوقت نفسه مقراً لأعلى سلطة روحية مسيحية وهي الكرسي الاقدس الذي صار يشغله الاحبار العظام (البابوات)•

هذا فضلا عن افادة الكنيسة في دور نشوئها من دعوة الاباطرة الى عقد المجامع المسكونية وهي المجامع الدينية الكبرى التي تناقش فيها قضايا العقيدة والمذهب .

تلكم حال الامبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع . وقبل انصرام حبل هذا القرن نفسه قسمت ادارة الامبراطورية بين ابني الامبراطور تاوداسيوس ؛ وهما **هونوريوس** الذي أوسدت اليه ادارة الجزء الغربي ، **وآركاديوس** الذي آل اليه حكم القسم الشرقي منها . واعتبر المؤرخون هذا العمل اعترافا بواقع الامبراطورية الجديد وترسيخا للاتجاهين المميزين لحضارة وثقافة هذين القسمين . فلئن ساد الطابع اللاتيني القسم الغربي فان الطابع الهيلليني هو الذي سيطر على القسم الشرقي . أضف الى ذلك أن هذا التوزيع جعل تقسيم الامبراطورية حقيقة راهنة . وفي الواقع فان القسم الغربي الذي كان حصة هونوريوس لم يلبث الجرمان أن سيطروا عليه بعد أن بدأت غاراتهم عليه وشيكا . وقد أقام الجرمان في مختلف بقاع هذا الجزء دولهم المختلفة ، التي تمكنت إحداها وهي دولة القوط من القضاء نهائيا على القسم الغربي من الامبراطورية ، واستقرت هذه الدولة في الربع الاخير من القرن الخامس في ايطاليا . بينما عَمّر القسم الشرقي والذي صار يدعى بالامبراطورية الرومانية الشرقية أو بالدولة البيزنطية قرابة عشرة قرون أخرى ولم يقض عليه الا في سنة ١٤٥٣ على يد السلطان محمد الفاتح العثماني الذي استولى على القسطنطينية .

وثمة عوامل عديدة ساعدت الدولة البيزنطية على البقاء وطيلة هذه الفترة ونخصّ بالذكر منها مناعة القسطنطينية ، وأن نجاح حصارها يتطلب جهودا برية وبحرية في نفس الوقت . ثم لم يكن بين من هاجموها من أنجزوا الاستعداد الكفيل بالاستيلاء على تلك المدينة المنيعة مناعة طبيعية . وفضلا عن العاملين السالفي الذكر فان العناصر الجرمانية والسلافية المغيرة لم تكن تقصد القسطنطينية انما شبه جزيرة البلقان وأقاليم أوروبا الغربية . لا بل فان أباطرة بيزنطة كثيرا ما أغروا العناصر المغيرة بالتوجّه الى الغرب .

عالم البرابرة حوالي منتصف القرن الرابع وعلاقته بالامبراطورية الرومانية:

كانت الامبراطورية الرومانية حوالي منتصف القرن الرابع ضعيفة ولم تتمكن من البقاء الا بنتيجة ما كان لماضيها من نفوذ وسيطرة . وكان عالم البرابرة يتاخم ، وفي جميع المناطق حدود الامبراطورية . لابل فان هؤلاء البرابرة هزموا وفي أكثر من موقع حاميات الحدود وتمكنوا في أكثر من مرة وموقع من اجتياز تلك الحدود ، فالامبراطورية والحالة هذه كانت في وضعية صعبة جدا تنذر بوقوع الكوارث المقبلة . وذكر الاستاذ لويس هالفين بصدد ذلك ما نصه : « لقد ولّى الزمن الذي كان الرومان فيه يكتفون بالانتصار على عدة قبائل ، ولوثوقهم ولو بصورة موقتة من ممارسة سيادة متأرجحة غير ثابتة الدعائم فانهم كانوا ينشرون الذعر بين الاعداء ويفرقون جموعهم فتتمتع الامبراطورية بالهدوء والسلام طوال عدد من السنين . وأدرك البرابرة النازلون في جرمانيا بين شرقي الراين وشمالي الدانوب مدى قوتهم، وأخذت هجماتهم تترى وتزداد وصاروا طوال القرن الثالث وفي النصف الاول من القرن الرابع ينشرون الذعر في كل يوم أكثر من أمسه سواء بالنسبة الى وفرة عدد المهاجمين أم من جراء الانسجام المتزايد بين المقاتلة والذي كان يتيح لمجموعاتهم القبلية الجديدة الانتصارات والغنيمة »[1] .

ويمكن ردّ سبب عدم تمكّن البرابرة من الإجهاز على العالم القديم الروماني الى الفوضى التي كانت أشد عمقا بين صفوف البرابرة وفي بلادهم مما كانت عليه في الولايات الرومانية . وقد أغرت الانتصارات التي حققها البرابرة الاوائل في غاراتهم القبائل التي أتت بعدهم ، هذا علاوة عن أن هذه القبائل الجديدة كانت تدفعها غريزة لا تقاوم نحو المناطق الغربية حيث

---

(١) مجموعة الشعوب والحضارات Peuples et Civilisations . طبعت هذه المجموعة المؤلفة من واحد وعشرين مجلدا في باريز تحت اشراف الاستاذين لويس هالفين Louis Halphen وفيليب سانياك Philippe Sagnac ، المجلد الخامس وعنوانه : البرابرة بين غاراتهم الكبرى على أوروبا الغربية وغزو السلاجقة لحدود البيزنطيين في القرن الحادي عشر . وهو من تأليف لويس هالفين ؛ باريز سنة ١٩٣٠ ؛ الفصل ١ ، ص ٣ .

الغنى والثروة وهكذا زحفت هذه القبائل من المناطق التي كانت مستقرة فيها نحو الغرب أو نحو الجنوب الغربي في كتل متراصّة انتظم عقدها تدريجيا ، ولو في جرمانيا على الاقل ، وتمكنت بعض القبائل من أن تبدو كأمم •

قبائل الجرمان : ــ لو قارنا خريطة لجرمانيا موضوعة في زمـــن المؤرخ تاكيتوس (أو تاسيت الذي عاش بين سنتي ٥٥ ــ ١٢٠ م) والذي ألّف كتاباً حسناً عن الجرمان بخريطة أخرى وضعت بعد ثلاثة قرون (نهاية القرن الرابع ومطلع الخامس) لقدرنا المسافات الطويلة التي قطعتها تلك القبائل • وكانت بعض القبائل ، التي أضاع المؤرخون آثارها ولم يعودوا الى الحديث عنها ، قد أغارت قديما على أقاليم غربي أوروبا • ثم تبعت القبائل القديمة الى المناطق التي كانت أغارت عليها شعوب كبيرة دعيت بشعوب الفرنجـة والبورغونديين والآلامان والفاندال والقوط • وقد هاجر معظم تلك الشعوب من مناطق الضباب الباردة في حوض البلطيق • ونحن لا نعرف شيئا قط عن ظروف الحياة الغامضة التي كانت تحياها تلك الشعوب عندما بدأ تاكيتوس بتدوين كتابه عنها • وبعد تغلّب هذه الشعوب المغيرة على القبائل القديمة وإحداقها ببقاياها انتظمت في منتصف القرن الرابع في كتل ومجموعات وفيرة العدد لكنها لم تلبث أن توقفت في زحفها عند حدود العالم الروماني • وكانت قد لحقت بها من ورائها شعوب مهاجرة أخرى لكنها توقفت بدورها من جراء توقّف المهاجرين الأول عند الحدود الرومانية •

ذكر الاستاذ ل• ب• موس L. B. Moss بصدد تاريخ جرمانيا في قرون ما قبل الميلاد مباشرة ، وتَعَرّض هـــذه البلاد الى غارات البرابرة الاولى ما نصه : « يكتنف الغموض تاريخ جرمانيا البدائي ، كما وأننا لا نعرف سوى النذر اليسير عن الغابات والمستنقعات التي كانت تغطي القسم الاكبر من هذه البلاد • وقد انتشرت الاكواخ التي شيّدها الجرمان في المناطق التي تقلّ فيها كثافة الحراج أو على التلال وذلك على سواحل بحر البلطيق وفي المنطقة الواقعة بين واديي نهري الإلب Elbe والأودر • ثم سكنت قبائل جرمانية من الصيادين أو من الرعاة تلك الأكواخ • وبدرجـــة ما كان سكان تلك

المناطق يزدادون عدداً وبدرجة ما كان عدد الطرائد يقلّ فان هؤلاء السكان كانوا يتحركون باتجاه الغرب دافعين أمامهم ومزحزحين العناصر الكلتية التي كانت أول من استقر في أقاليم غربي وجنوبي جرمانيا • وقد وصل الجرمان حوالي سنة ٢٠٠ ق•م في تحرّكهم غربا الى مجرى نهر الراين ، كما نجحوا بعد مائة عام في إجلاء هؤلاء الكلتيين عن اقليم باڤاريا • وأوصل احتلال يوليوس قيصر لغاليا حدود الامبراطورية الرومانية الى مجرى الراين مما حال بين أولئك الجرمانيين الغربيين وموالاة إيغالهم في الزحف غربا • وهكذا فانهم اضطروا الى اللجوء الى وسائل أنجع لتأمين الحصول على ما هم بحاجة اليه من مواد غذائية • كما تطورت الزراعة وتحسنت طرقها وتشكلت المؤسسات وبدأ التجار الرومان يرتادون هذه البقاع حاملين اليها معهم محاصيل جديدة وناشرين فيها أخلاقا وطباعا غريبة »[١] •

ثم زاد ضغط المهاجرين على الحدود الرومانية عند مجرى نهر الماين وغدا مستمرا وقوياً الى درجة أن الحاميات الرومانية اضطرت منذ سنة ٢٧٥ الى الجلاء نهائيا عن ولاية الثغور هذه لانها كانت موغلة جدا ومتقدمة في المنطقة التي وقفت أمامها الشعوب المغيرة • وتقع هذه المنطقة التي جلت عنها حاميات الحدود الرومانية على الضفة اليمنى لنهر الراين • وقد استقرت فيها عناصر الآلامان مكان الحاميات المنسحبة ، وذلك بعد أن كانت هذه العناصر قد تقدمت ببطء في القرنين الاول والثاني من براندبورغ حتى نهر الإلب ، ومن نهر الإلب الى نهر الماين •

ومع ذلك فقد تمكن الامبراطور جوليان الذي انتصر على تلك العناصر في سهل ستراسبورغ في سنة ٣٥٧ من الحيلولة دون موالاتها الطريق وإيقافها طيلة فترة ما•ولو أنه بدا واضحا منذ ذاك أنه يتحتم على الامبراطورية

---

(١) ل. ب. موس : ولادة العصور الوسطى La Naissance du Moyen Ages بين سنتي ٣٩٥ ــ ٨١٤ م • ترجم هذا الكتاب عن الانكليزية الى الفرنسية من قبل م. ر. موري M. R. Mourey ؛ الفصل/٢ ، ص ٥٥ ــ ٥٧ . طبع الكتاب في مكتبة بايو Payot في باريز سنة ١٩٦١ •

الرومانية أن تقدم في القريب العاجل تضحيات جسيمة لتتمكن من الصمود في هذه الارجاء في وجه الجرمان : وكان هذا الشعب الآلاماني المتعلق بالحرب قد تعود منذ نهاية القرن الثالث على الإغارة على مقاطعات الألزاس واللورين وحتى على بورغونديا وعلى شامبانيا وغدا اسمه حوالي منتصف القرن الرابع باعثا أشد الذعر في غاليا •

وفي شمالي المنطقة التي أخذ الآلامان أي الجرمان يمارسون منها غاراتهم جاءت في إثرهم اليها عناصر البورغونديين التي حطت رحالها في بادىء الامر في المنطقة الواقعة بين حدود براندبورغ ومقاطعة بوميرانيا حتى حوض نهر الإلب ثم والت تقدمها فيما بعد حيث بلغت حوضي الماين والراين وقد بلغت حوض هذا الاخير في أسفل مدينة مايانس[1] •

ولم يعادل ولا شعب من الشعوب التي توقفت في هجرتها بالقرب من نهر الراين في أهميته شعب الفرنجة • ويبدو في الواقع أن الفرنجة لم يكونوا شعبا بكل معنى الكلمة انما حلف قبائل تربط بينها وشائج القربى ولكل منها رئيسها ولا تؤلف كلها كتلة واحدة الا في وجه العدو المشترك ففي هذه الحالة تبدو تلك الكتلة متراصة قوية صامدة • ومع ذلك فقد بُدِىء **بتمييز مجموعتين** من تلك القبائل : **الاولى** وهي التي استقر أفرادها مقابل مدينة بون في كل من كولونيا ونوس Neuss • ونظرا الى أنها استقرت عند ضفاف الراين دعيت بالقبائل المقيمة عند ضفاف النهر أو **بالفرنجة النهريين** Les Francs riverains ou Ripuaires • وانحدر أفراد المجموعة الثانية الى الشمال بمحاذاة الحدود الرومانية ووصلوا في القرن الثالث حتى حوض نهر الإيسجيل Ijssel ثم انتشرت فيما بعد حتى سواحل هولندة • ودعي فرنجة هذه المجموعة الثانية **بالفرنجة الساليين أو البحريين** Les Saliens ou maritimes • وقد حاول كل من الفرنجة النهريين والفرنجة البحريين اجتياز مجرى الراين ولو أن النهريين كانوا أشد عنادا وحرصا على

---

(١) راجع ذلك في مجموعة الشعوب والحضارات ؛ المرجع المذكور ؛ المجلد/٥ الفصل/١ ، تأليف لويس هالفين ؛ ص ٤ــ ٥ •

التغلب على مقاومة الحاميات الرومانية المرابطة بجوار كولونيا حيث كان الرومان في تلك الأرجاء حاميات ووسائل دفاع قوية تمكنوا بواسطتها من الصمود طويلا في وجه هؤلاء المغيرين ، بينما هاجم الفرنجة البحريون منطقة صعبة المدخل ولكن وسائل الدفاع عنها أضعف قوة . وبعد أن كان الفرنجة البحريون قد نجحوا منذ مستهل القرن الرابع في التسرّب الى الجزر الزيلندية فانهم بدؤوا في منتصف القرن نفسه يستقرون في مقاطعة توكساندريا Toxandrie أو كامپنيا Campine الى الشمال الشرقي من المجرى الادنى لنهر الإيسكو حيث أقلع الامبراطور الروماني عن التفكير بطردهم من هذه المنطقة [1] .

وبقي خط الدفاع الروماني القائم على مجرى نهر الدانوب حتى منتصف القرن الرابع سليما . وكانت عناصر الڤاندال مرابطة عند تخوم المجريين الاعلى والاوسط لهذا النهر . وكان هؤلاء عبارة عن مجموعة كبيرة من القبائل انطلقت من شواطىء البلطيك سالكة طريقها وببطء نحو سيليزيا ثم نحو موراڤيا فوصلتها في القرن الثاني ، حيث تمّ انقسامها . (كما انقسم الفرنجة عند نهر الراين الى مجموعتين سلكت كل منهما اتجاها معاكسا للاولى) . **فالمجموعة الاولى من الڤاندال هي مجموعة الڤاندال السيلينج** Les Vandales Silinges التي تمكنت في القرن الثالث وبسرعة من الدخول الى باڤاريا والى فرانكونيا مفتشة عن مخرج لها من جهة ريتيا la Rétie والمجموعة الثانية هي **مجموعة الڤاندال الآسدينج** Les Vandales Asdinges الذين سلكوا اتجاها معاكسا فساروا نحو الجنوب ليجابهوا النهر أمام الاجزاء الشمالية من ولاية **پانونيا** في وسط قبائل السويڤ Les Suèves القديمة التي مضى على استقرارها في هذه البقاع أكثر من ثلاثمائة عام .

---

(1) راجع من اجل تحركات قبائل الفرنجة ما أورده الاستاذ بطرس ريشيه Pierre Riché عنها في مجموعة التاريخ العالمي التي تصدرها مكتبة لاروس Larousse في باريز وذلك في الجزء الذي درس فيه المؤلف : غارات البرابرة الكبرى والامبراطوريات العالمية Les Grandes Invasions et Empires ؛ ص ٢٢-٢٣ . راجع فيه كذلك وصفا للتنظيمات السياسية والاجتماعية لهذه القبائل ؛ في الصفحة ٢٣ وما يليها .

والى أسفل هذه المنطقة توجد البقاع التي استقرت فيها قبائل القوط وهي أقوى الشعوب الجرمانية • وقد حدثنا الاستاذ ل• ب• موس عن قسمي الشـعب القوطـي وهمـا **القوط الشرقيون أو الاستروغوط** Ostrogoths **والقوط الغربيون أو القيزيغوط** Visigoths فذكر : « أن هذين القسمين كانا في الاصل شعباً واحداً ، وأنه يبدو بالاستناد الى أساطير هذا الشعب وأسماء آلهته أن أفراد هذا الشعب هاجروا من اسكندناڤيا بابحارهم في بحر البلطيك حيث استقروا قبل القرن الرابع قبل الميلاد بجوار مصب نهر الڤيستولا • ثم بدأت بعض قبائل القوط حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي تتحرك ببطء الى الجنوب الشرقي تلك الحركة التي أوصلتهم أخيراً ، وبعد صعودهم مجرى نهر الڤيستولا وقطعهم مستنقعات البريبيت Pripet ، الى كل من المجـرى الأسفل من نهر الدنيبير Dniepr والساحل الشمالي للبحر الأسود • وقد انقسم القوط في هذه الأرجاء الى فرعين دعي أحدهما **قوط الشرق** والآخر **قوط الغرب** وذلك على ضوء الاحداث التي سيتم وقوعها بعيد ذلك • وقد انتشر القوط الشرقيون وشيكا فـي أقاليم جنوبـي روسيا بينما توجّه القيزيغوط (أو الغربيون) نحو الغرب حيث أغرتهم خيرات ولايات داسيا (في رومانيا الحالية) ومقدونية واليونان فأعملوا فيها سلباً ونهباً • ولم يعد بوسع روما الحفاظ على ولاية داسيا واضطر التجار والموظفون الرومان الى مغادرتها • كمـا اضطرت روما كذلك الى تحصين مجرى نهر الدانوب الذي غدا مجدداً بمثابة حدود للامبراطورية الرومانية كما كانت الحال قبل حكم الامبراطور تراجان (وقد حكم بين سنتي ٩٨ ــ ١١٧ م) • »[١] •

وقد سدّ القيزيغوط أنفسهم الطريق في وجه عناصر الجيبيد Gépides الذين خرجوا مثلهم من بلاد حوض نهر الڤيستولا الادنى • لكن نظراً الـى أنهم حصروا بين كل من شعب القوط والڤاندال فانه حيل بينهم وبين موالاة طريق هجرتهم واضطروا الى التوقف منذ منتصف القرن الثالث عند جبـال ترانسيلڤانيا •

---

(١) موس Moss ؛ المرجع المذكور ؛ الفصل/٢ ، ص ٦٢ ــ ٦٣ .

وبصورة مماثلة فان الاوستروغوط قد ضايقوا أثناء هجرتهم وتوسعهم عناصر الهيرول Hérules حتى أنهم فكروا بإخضاعهم • وكان الهيرول هؤلاء بعد مسيرتهم في إثر الاوستروغوط من البحر البلطيك حتى البحر الاسود قد حصروا منذ منتصف القرن الثالث بين بحر آزوف وحوض نهر الدنيبير •

واستقرت عناصر الفريزيين والسكسونيين واللومبارديين في قلب جرمانيا منتشرة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي • وبقي الفريزيون حقبة طويلة في المنطقة التي اشتق اسمها من اسمهم وسيستمرون فيها عدة قرون أيضا يحيون فيها في ظل العزلة والانطواء على نفوسهم • وعلى العكس من ذلك فان جيرانهم السكسونيين بعد وصولهم من هولشتاين الى الحوض الادنى لنهر الويزر والوا هجرتهم قدماً • وكانوا يحاولون الانتشار في نفس الوقت باتجاه الجنوب وذلك بصعودهم مجرى الويزر وروافده وبموالاة طريقهم براً نحو الغرب مقتفين آثار الفرنجة البحريين حيث غالبا ما اشتركوا مع هؤلاء في تنقلاتهم البحرية وفي حملاتهم العسكرية • هذا بينما كان اللومبارديون الـذين كانوا من قبل مستقرين في الحوض الادنى لنهـر الإلب ، بجوار السكسونيين ، وبعد أن تحركوا باتجاه الجنوب الشرقي فانهم وصلوا سيليزيا حيث بدؤوا يحاولون الوصول الى حوض المورافا •

وثمة شعوب جرمانية أخرى كانت آنئذٍ خلف الشعوب التي تحدثنـا عنها • ومن بين تلك الشعوب الثانية : الإنكليز Angles ، والوارن Warnes والجوت في كل من شلزويغ وهولشتاين ، وعناصر الروج Ruges الـذين أبحروا صعداً مع مجرى نهر الأودر مستقرين عند مصبه حوالي نهاية القرن الثالث وسعوا جاهـدين ليبلغوا وادي نهر الثيس • وثمـة كذلك عناصر السـكيرس Skries التي كانت بعد مغادرتها الحوض الادنى لنهر الفيستولا، في نفس الوقت الذي غادره فيه القوط تقريبا ، وتوقفت في مقاطعة غاليسيا منذ القرن الثالث •

وبقيت أخيراً في أقصى الشمال كتلة من الشعوب الجرمانية غير الواضحة المعالم تروح وتغدو في اسكندنياڤيا • ونميز بين هذه العناصر **اربع مجموعات**

هـي : **النورفيجيون** في الغرب وقد استمروا يحيون مدة طويلة في ظل الفوضى . **والسويديون** الذين بدؤوا سيرهم على طريق التنظيم وغدت مدينتهم **أوبسال منذ** ذاك عاصمتهم السياسية والدينية • **والجوت** Gautes وهم الذين بقوا في **هذا** القسم من السويد والذي يحمل اسمهم **الفتلاند** Goetland وهو الذي سيخلّد ذكراهم **والدانيمركيون** الذين كانت آخر هجراتهم في القرن الثالث قد أوصلتهم الى سكانيا جنوبي شبه الجزيرة السكندينافية والى الجزر المجاورة لها •

ولهذه الشعوب المستقرة في المنطقة الخلفية إمكانيات هائلة من أجل المستقبل • وغالباً ما بقي تنظيمها السياسي بدائياً • لكنها بعد احتكاكها بعناصر الجرمان ، الذين كانوا مستقرين في المقدمة ، قد بدأت تؤلف كياناً لها • كما كانت العناصر التي سبقت تلك الشعوب قد بدأت تشعر بذاتيتها وكيانها منذ احتكاكها بالرومان •

برابرة السهوب الروسية والآسيوية :

عاشت فيما وراء مستنقعات البريبيت ووراء مجرى نهر الدون في منطقة السهوب الروسية الشاسعة مجموعة مختلفة جداً من القبائل الرحّل بدون أن تنسجم فيما بينها وبدون أن تكون لها حدود طبيعية ونحن وإن كنا لا نعرف شيئاً عن تاريخ تلك القبائل إنما يمكن أن نميز فيها بعض الكتل وهي على التوالي :

أولا ـ كتلة العناصر السلافية غير المستقرة : وتقع منطقتها حوالي الشمال الشرقي بجوار المنطقة التي ينبع منها نهر **النيمن** Niémen ، وفي جوار حوض نهر الدنيبير الأعلى ومستنقعات البريبيت • وقد استقرت في هذه المنطقة منذ قرون عديدة غير مكترثة بحركات أو بهجرات القبائل الجرمانية القريبة منها باتجاه حوض الدانوب • ولهذه العناصر أجسام قوية وقامات طويلة عملاقة ولم تنجح حتى هذه الفترة في توحيد نفسها ليغدو أفرادها مخيفين وباعثين للذعر •

ثانيا ــ العناصر الليتوانية : وهي الى شمالي الكتلة الأولى وتعيش عند سواحل البلطيك في نفس المنطقة التي ما يزال أنسال أفرادها يعيشون فيها تقريباً • وكان هؤلاء الليتوانيون قد استقروا في هذه المنطقة منــذ زمن عريق جداً في القدم •

ثالثاً ــ العناصر الفنلندية : وتسكن شمالي الليتوانيين • ونجحت وطوال العصور السابقة وتدريجياً أن تعبر مجرى نهر الفولغا • وقد انتهى بها الأمر أخيراً الى الاستقرار بجوار خليج ريغا • ثم اضطرت الى التراجع باتجاه بحيرة لادوغا وخليج بوثنيا على حساب وبعد أن أزاحت عناصر اللاپون •

هذا وإن تكن سهوب آسيا الوسطى هي التي كانت تضم القوات الأشد شراسة والأكثر تهديداً بالنسبة الى أوروبا نفسها • من حيث أنه ليس ثمــة من حد فاصل بين هذين القسمين من العالم (شرقي أوروبا وسهوب آسيا) الملتحم أحدهما بالآخر • وكانت نتائج الاضطرابات العرقية الكبرى التي كانت آسيا في الماضي مسرحاً لهــا هي دفعها وباستمرار قبائــل منغوليا والتركستان على طريق الهجرة باتجاه أقاليم أوروبا الشرقية •

وقد مرت آسيا في منتصف القرن الرابع بأزمة دقيقة وحادة ، من حيث أن الامبراطورية الصينية كانت تتعرض وبفعل البرابرة وعلى سواحلها المطلة على المحيط الهــادىء الى نفس الأخطار التــي كــرثت الامبراطوريــة الرومانية وفي الوقت نفسه على سواحل البحر الأبيض المتوسط • وهكذا فإنها وكزميلتها الغربية الامبراطورية الرومانية خضعت أخيراً تحت وطــأة تلك الضربات ومن جراء ذلك الصراع • ومنذ السنوات الأخيرة من القرن الثالث كانت بعض القبائل ، التي لا تدخل تحت حصر ، تروح وتغدو فيما وراء سدّ الصين الشهير • وتدعى تلك القبائل قبائل **الهــون** أو كما يدعوها الصينيون قبائل **الهيونغ ــ نو** Les Huns ou Hiong - nou • وخرجت هذه القبائل من صحارها في منغوليا وأمكنها اختراق الحاجز الواقي الموجود الى الشمال الغربي من پكين • وستسقط عما قليل جميع أقاليم الصين الشمالية

بين النهر الأصفر وخليج پتشيللي Pétchilli بين يديها • ولم تلبث قبائل الهون هذه أن اجتازت النهر الأصفر منتشرة بعد عبوره في الصين الوسطى وكان ذلك إيذانا بطغيان ذلك السيل الجارف من الغزوات التي اجتاحت الصين وكرثتها بعد الهون •

ولملاحظة قبائل الهون أن غارات القبائل الجديدة ، التي أزال انهيار امبراطورية الصين من وجهها كل عقبة ، صارت تستهدف المناطق التي كان الهون أنفسهم قد احتلوها فإن هؤلاء تراجعوا عن الصين متوجهين في حركتهم أو هجرتهم الى أقصى الغرب • ولم يكن **أمام الهون** في هجرتهم سوى **منفذين** ، هما : **منفذ وادي جيحون** ويقع **المنفذ الثاني** الى الغرب ويقود مباشرة الى حوض نهر القولغا •

لم يكن ثمة مجال لاختيار قبائل الهون بين هذين المنفذين في واقع الحال • من حيث أن وادي جيحون كانت قد احتلته ومنذ فترة أربت على ثلاثة القرون قبائل شعب آخر هو الشعب اليوتشي Les You - tche — لذلك لم يعد بوسع قبائل الهون والحالة ما ذكرنا أن يكون لها الخيار • وهكذا فانها ومنذ سنة ٣٥٥ ألقت بكتلة شعوبها على طريق الغرب فسلكته مصممة على أن تشق لنفسها طريقا ولو بالقوة عبر السهل الروسي •

***

الفصل الثاني

استيلاء البرابرة على الولايات الرومانية

وصلت قبائل الهون أوروبا منذ القرن الأول الميلادي • وكانت بعض هذه القبائل قد فرت في سنة ٩٢ من وجه جيوش الصين التي ألحقت بها عامئذ هزيمة نكراء عند السفوح الشمالية لجبال آلطاي اضطرتها الى اللجوء الى غربي جبال أورال وحوض الفولغا • لكن بما أن أعداد الفارّين لم تكن كبيرة لذلك فانها أبيدت في صراعها مع القبائل المرابطة في تلك البقاع بمجرد اقترابها من ضفتي نهر الدون • بينما كانت جموع الهون المهاجرة في القرن الرابع غفيرة حيث أن شعبا بكامله بدأ إيغاله في الزحف والانقضاض على أوروبا • وكانت هذه الهجرة الجديدة بمثابة وثبة شعب كامل أهوى على أوروبا وستكون نتائج غارته عليها بمثابة كارثة سيل جارف لا يبقي ولا يذر • وكانت القبائل الجرمانية القاطنة بالقرب من حدود الامبراطورية قد رُصّت صفوفها ودفعت بعضها بعضاً وألقي بها بشكل غير منظم نحو الجنوب •

فتلك القبائل الجرمانية التي كانت مستقرة في أقاليم أوروبا الشرقية والوسطى دفعت على شكل كتل بلغت الحدود الرومانية التي رضخت حامياتها أمام هذا السيل الجارف • ولم يكن دخول أولئك الضيوف غير المرغوب فيهم من بعض مخافر الحدود إنما فتحت الحدود كلها وبصورة مفاجئة أمام هذا الزحف الفوضوي للقبائل الجرمانية ؛ علماً أن مخافر وولايات الحدود كانت الى هذه الآونة قد استطاعت التماسك وردّ المغيرين • وكانت تلك القبائل الجرمانية التي عبرت الحدود الرومانية قد فرّت من وجه عناصر الهون•

لم يكن هؤلاء الجرمان الذين سمح لهم بعبور حدود الامبراطورية أول

عناصر جرمانية تجاوزت تلك الحدود إنما كانت أول شعوب جرمانية برمتها سمح لها بعبور تلك الحدود والاستقرار على أرض الامبراطورية وتملك تلك الارض • وعلى الرغم مما بذلته الحكومة الامبراطورية من جهود نشدانا لصيانة كرامتها فان هؤلاء الجرمان الذين سمح لهم بالاستقرار داخل الحدود سينظمون جماعاتهم بصورة بطيئة ويمارسون حكم أنفسهم بمعنى أنهم سيتمتعون باستقلال ذاتي مُعدّين الامبراطورية لأن تتحول الى خليطة من الدول البربرية •

دخول عناصر الهون الى أوروبا وعناصر الڤيزيغوط الى الامبراطورية الرومانية :

ليست لدينا سوى معلومات بسيطة عن دخول الهون الى أوروبا ، وكانت العناصر الآلانية Alains أول من تلقى صدمة الهون من العناصر البربرية ، وقضت صدمة الهون لهذه العناصر على مقاومتها وبصورة مباشرة ؛ إنها أفقدتها القوة فأفسحت الطريق أمام الغزاة الجدد بتنحّيها عن طريقهم • وحاول الاوستروغوط أن يوقفوا بدورهم المجتاح الجديد وصمدوا في وجهه ببسالة لكنهم لم يستطيعوا سوى تأخير وقوع الكارثة وخاصة بعد الهزيمة الساحقة التي أنزلها الهون بهم سنة ٣٧٠ م•

وسرعان ما تلقى الڤيزيغوط الصدمة غير المباشرة لهزيمة بني عمهم المستقرين في الشرق وزحزحتهم عن مناطق استقرارهم • وغدا الجو شمالي نهر الدانوب وبالنسبة الى عناصر الڤيزيغوط جحيماً لا يطاق • وقد عبرت أول مجموعة ڤيزيغوطية نهر الدانوب في ربيع سنة ٣٧٦ وقدّرت بحوالي ٣٥ ــ ٤٠ ألف ڤيزيغوطي وفق التقدير الاكثر اعتدالاً • ولربما كان عبور هؤلاء النهر مقابل مقاطعة سيليستريا • وكان هؤلاء الڤيزيغوط قد التمسوا من الامبراطور ڤالانس ، ولو من حيث الشكل ، السماح لهم بالدخول الى أراضي الامبراطورية كعناصر حليفة • لكن عما قليل فان الآلاف المؤلفة من الڤيزيغوط صارت تعبر تلك الحدود نفسها ، بدون طلب أيّ إذن من السلطات الرومانية العليا ، على جناح السرعة وبدون سابق إعلام لمخافر الحدود موالية

زحفها الى داخل ميزيا الداخلية (القسم الشرقي من بلغاريا الحالية) .

وقد حيل بين هؤلاء القيزيغوط وبين موالاتهم الزحف داخل الامبراطورية خلال حقبة وجيزة بنتيجة الجهود اليائسة التي بذلها الامبراطور ڤالانس . ولم يمكن إيقاف هذا المدّ القيزيغوطي إلا في صيف سنة ٣٧٩ بعد الحملة المظفرة التي قادها الشاب تيودوسيوس وكان قد نصب إمبراطوراً منذ عدة أشهر . غادر هذا القائد سالانيك بأقصى سرعة ووصل الى نهر الدانوب ونجح في تطويق عناصر القيزيغوط وأسر حملة كاملة من قواتهم وإجبار فالّتهم علىْ الفرار من وجه قواته نحو الشمال .

أمكن الحفاظ على الامبراطورية الرومانية لكن القسم الاكبر من ولاية ميزيا قد بقي بأيدي القيزيغوط مع هذا التحفظ الذي نصّ عليه في معاهدة أبرمت بينهم وبين الامبراطورية سنة ٣٨٢ وجاء فيه أن القيزيغوط لن يقيموا ولن يتوقفوا في هذا الربوع إلا بصفتهم عناصر حليفة مما يضطرهم وأسوة بباقي الحلفاء الى تقديم مقاتلتهم للاشتراك في حروب الامبراطورية مقابل دفع جزية سنوية من قبل امبراطور القسطنطينية الى رئيس هذه العناصر .

كان هذا التحفظ وهمياً من حيث أن القيزيغوط الذين سمح لهم بعبور حدود الامبراطورية سوف لن تبقى عناصرهم مدة طويلة ساكنة هادئة قابعة في الرقعة الضيقة التي حددت لهم . وهكذا فسرعان ما استأنفت هذه العناصر غاراتها المدمّرة على ولاية تراقيا حيث أمكنها الوصول الى أبواب القسطنطينية وذلك بقيادة ملكها **آلاريك** . ثم كانت جرأة القيزيغوط تزداد باطراد بدرجة ازدياد الفوضى في رحاب الامبراطورية . وتبعاً لذلك اجتاز القيزيغوط مقدونية (في سنة ٣٩٦) ثم والوا منها تقدمهم فوصلوا تساليا واجتازوا ممر ترموپيلاي في اليونان وأخيراً دخلوا مظفرين أثينا وسواها من مدن اليونان مستولين في كل منها على أسرى وغنائم . لكن هؤلاء القيزيغوط لم يلبثوا أن فروا من وجه الحملة البحرية التي وصل ومسرعاً على رأسها **ستيليكون** الوصي على الامبراطورية الغربية أو مدير إدارتها والتي أنزلت قواتها الى البر . وصل القيزيغوط في فرارهم من ستيليكون الى مقاطعة إپيراوس (شمال غربي بلاد

اليونان) ، ولم يتوقفوا عن موالاة زحفهم في سنة ٣٩٧ إلا بعد أن أعطوا الوعود بمنحهم أقاليم أخرى •

لقد نفّذ الوعد المقطوع للڤيزيغوط الذين كانوا مؤكداً قد بدؤوا يغيرون على المناطق المجاورة فمنحهم آركاديوس إمبراطور القسطنطينية إذنا رسميا بالاستقرار — كعناصر حليفة أيضاً — في ولايات إيلليريا في ظل ملكهم آلاريك الذي منح كذلك وفي الوقت نفسه لقباً يحسد عليه وهو قائد الحرس الوطني — الميليشيا — في إيلليريا الممتدة حدودها آنذاك حتى جبال الآلب النمساوية ذلك التدبير الذي جعل الڤيزيغوط تشرئبّ أعناقهم فيحلمون بموالاة زحفهم على غربي أوروبا في هذه المرة ، وذلك في ظرف كان فيه مفهوم المؤازرة والمساندة بين شِقّي الامبراطورية قد أخذ ينمحي بصورة متزايدة من يوم لآخر • وتمكّن الامبراطور في القسطنطينية من جعل الڤيزيغوط يرنون بأبصارهم نحو غربي أوروبا فأتاحت له خطته حماية القسطنطينية من السقوط بيد أولئك الغزاة الجرمان وكانت خطة سياسية بارعة•

وفي جميع الاحوال لئن نفذت تلك الخطة بما قد تقوم به عناصر الڤيزيغوط في المستقبل أو توقّع ذلك فان هذا التنبؤ قد صدق من حيث أنه لم تمض سنتان على استقرار الڤيزيغوط في مواقعهم الجديدة إلا ووجدناهم قد اجتاحوا بقيادة ملكهم آلاريك وفجأة جميع إيستريا مفاجئين آكيليه (في ١٨ تشرين الثاني سنة ٤٠١) ومجتازين البندقية صاعدين وادي نهر الپو حتى مدينة پليزانس ومنها حاولوا الاستيلاء على ميلانو حيث كان امبراطور الشق الغربي من الامبراطورية وهو هونوريوس مقيماً مع بلاطه • وقد ظن ملك القوط آلاريك أنه لن يجد القائد ستيليكون في طريقه ذلك القائد البطل الذي كان وزيراً لهونوريوس الفتى ، وبعد أن هدّد آلاريك بأن يُطوّق هو وقواته فانه لم يتفاد وقوع هذه الكارثة إلا بإسراعه الى الپيهمونت ، وعلى الرغم من ذلك فقد هزم مع قواته في ٦ نيسان سنة ٤٠٢ واعتبر نفسه سعيداً أن تمكن بالمفاوضة من الانسحاب بحرية نحو إيلليريا •

لقد أخفق آلاريك في محاولته ، ولو أنه بوسعنا القول أن المشروع

(أي احتلال إيطاليا) قد أرجىء تنفيذه . وأصبح آلاريك وعناصر القيزيغوط من ورائه كإسفين دُقَّ بين شطري الامبراطورية . وبعد سيطرة آلاريك على ميزيا وعلى قسم كبير من ولايات إيلليريا صار بوسع القيزيغوط الانقضاض كما يحلو لهم ، على ايطاليا أو على تراقيا ومقدونية وبلاد اليونان . فمن البديهي والحالة هذه توقّع استئناف محاولاتهم من هذه الجهة أو تلك(١).

غزو قسم من الاوستروغوط بقيادة رئيسهم راداغيز ايطاليا والغزو الفاندالي الاكبر في سنة ٤٠٥ :

سرت الهزة العنيفة التي حدثت في عالم البرابرة من جراء دخول عناصر الهون الى أوروبا في جميع أوساطهم الادنى فالادنى ولم تلبث أن بلغت المناطق أو الحدود البعيدة لجرمانيا الغربية .

وفي الحين الذي بدأ القيزيغوط فيه ، تحت وطأة وضغط العناصر الوافدة الجديدة (الهون) ، يستقرون في ميزيا (صربيا) فان مجموعة من الاوستروغوط دخلت الى ولاية بانونيا (وهي هنغاريا الحالية) حيث قبلهم الامبراطور تيودوسيوس في سنة ٣٨٠ أيضاً كحلفاء . وبعد أن وصلتهم أنباء زحف ملك القيزيغوط آلاريك على ايطاليا فانهم لم يلبثوا أن اقتفوا إثر خطاه . كما زحفوا في نهاية سنة ٤٠٥ بقيادة رئيسهم راداغيز وكان بمعيتهم عصابات برابرة آخرين . وقد دخلوا بالقوة الى ايطاليا الشمالية التي كانت وشيكة النجاة من الغزو القيزيغوطي ، وأخذ الغزاة الجدد يسلبون وينهبون ويحرقون جميع ما يصادفونه في طريقهم ناشرين الذعر في البلاط الامبراطوري الذي اضطر وعلى جناح السرعة أن يُعَبِّىء حملة من المتطوعة التي عُبِّئَت من بين جميع طبقات السكان ، بما فيهم أفراد طبقة العبيد . وتمكّن ستيليكون في هذه المرة أيضاً من الانتصار وبسهولة على الغزاة . وحوالي نهاية آب ٤٠٦ وقع القائد الاوستروغوطي في أسر عدوه حينما كان يحاول

---

(١) راجع تفاصيل حركات القيزيغوط في نهاية القرن الرابع ومستهل القرن الخامس في مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ج ١ ، الفصل ١ ، ص ٢٤ — ٢٩ ، وفي مجموعة الشعوب والحضارات : المجلد ٥ ، فصل ٢ ، ص ١٤ — ١٦ .

اختراق صفوف هذا العدو وأرسل الى التعذيب ، أما بالنسبة الى باقي قواته التي كانت تقوم بعملياتها منفردة فانها لم تنج من الذبح إلا باجتيازها جبال الآلب بأقصى سرعة • ولم يحن الوقت بعد الذي سترضخ فيه إيطاليا صاغرة تحت نير الحكم الاوستروغوطي •

لم يكد الرومان يستردون روعهم من هذا الغزو أو الانذار إلا وظهر في منطقة أخـرى من الامبراطورية أثر غزو قبائل الهون لأوروبا الشرقية وسيكتوي الرومان بنار هذا الغزو الهوني • وبعد أن دُفعت العناصر الآلانية نحو غربي أوروبا في سنة ٣٧٧ فانها بلغت مصب نهر الدانوب ثم عبرته بعد عشرين عاما وادي نهر الثيس حيث تمكنت أن تجلي عنـه عناصر الڤاندال الآزدينج • وسعياً من هؤلاء وراء البحث عن مأوى جديد ومستقر فانهم بدؤوا زحفهم منذ سنة ٤٠١ جارّين معهم قبائل السويڤ المجاورة لهم • لقد حاولوا بادىء الامر إيجاد مخرج على الضفة اليمنى لنهر الدانوب • وجعل منهم القائد ستيليكون حلفاء للامبراطورية وفق القاعدة التي غدت منذ ذاك دارجة مألوفة • وقد منحهـم وباسم الامبراطور هونوريوس الاراضي في القسم الشمالي ، في النمسا وباڤاريا ، لكنهم لم يبقوا فيهما فترة طويلة حيث اجتازوا الدانوب في حوضه الاعلى ملتقين عند نهـر الماين بأقاربهم الأدنين وهم الڤاندال السيلينج • وكان عدد الڤاندال أنفسهم قد ازداد بمن انضم اليهم من عناصر القبائل الاخرى التي يستهويها حب الحصول على الغنائم • وأخيراً وبعـد معركة مبستمية لاقى فيهـا الملك الڤاندالي (غوديجيزيل Godigisel) حتفه والى الڤاندال زحفهم دافعين أمامهم قسماً من البورغونديين ومزحزحين قوات الفرنجة حلفاء الامبراطورية عن مواقعها والتي كانت مكلفة بالحفاظ على حدود الامبراطورية والدفاع عنها • وقد اجتازت طلائع قوات هذه الكتلة العظيمة من الشعوب التي بدأت زحفها نهر الراين عند مايانس في ٣١ كانون الاول ٤٠٦ فاتحة وممهدة الطريق أمام كتلة البرابرة التي تحث الخطا من خلفها والتي ستحتل قريباً جميع الاجزاء الشمالية الشرقية من غالياء

وقد وهنت قوى الحكومة الامبراطورية • ثمت فان ستيليكون ، الذي

كان الرئيس الفعلي للامبراطورية في الغرب ، والذي اضطر الى مجابهة الاعداء على جميع الجبهات لم يجد قوات لصد الفاندال ورفاقهم • لذلك تمكن هؤلاء من موالاة تقدمهم نحو الجنوب بدون أن يجدوا مقاومة جدية على طريقهم •

ثمت حدثت في سنة ٤٠٨ عدة اشتباكات في غاليا بين القوات الامبراطورية بقيادة الامبراطور قسطنطين والفاندال وحلفائهم ؛ وتجنبا من البرابرة أن يطوقوا من قبله فانهم اجتازوا جبال البرانس في خريف ٤٠٩ مكبدين إسبانيا نفس الخسائر التي ألحقوها بغاليا وخاصة بولايات غربي اسبانيا وجنوبها • وأخيراً وبعد أشهر طويلة مارسوا خلالها السلب والنهب والعنف فانهم جعلوا من شبه جزيرة إيبريا صحراء قاحلة جرداء • وبعد شعورهم بالحاجة الملحة لتموين قواتهم فانهم بدؤوا المفاوضة مع السلطات الرومانية • وقد أبرمت معاهدة بين الجانبين في سنة ٤١١ غدا بموجبها جميع الفاندال ورفاقهم حلفاء للامبراطورية وأعطوا بمقابل ذلك الاراضي والقمح[1] •

استقرار عناصر الفيزيغوط في غاليا : لم تكد غاليا تتخلص من عناصر الفاندال وحلفائهم حتى فوجئت بغزو الفيزيغوط لها ، والذين كان آلاريك عاهلهم قد حاول وبدون جدوى سنة ٤٠٣ محو عار الهزيمة التي مني بها في شمالي إيطاليا سنة ٤٠٢ • لكنه وحتى في هذه المرة أيضاً لم يكن بأسعد حظاً حيث اضطر الى التراجع أمام ازدياد ضغط ووطأة قوة القائد الروماني ستيليكون عليه • لذلك كله فانه وبالاتفاق مع هذا الاخير أخذ يصب جام غضبه وثأراً لخيبة أمله في محاولاته المتكررة على الولايات التي كانت خاضعة الى القسطنطينية • لكن الآمال التي علقها على هذا الاتفاق لم تلبث أن انهارت لتخلّي ستيليكون عنه وتركه يزج بنفسه

---

(١) راجع فضلا عما أثبتناه هنا كتاب الاستاذ موس Moss المذكور ، الفصل ٢ ، ص : ٦٤ ــ ٦٨ ، وخاصة بالنسبة الى مستقر عناصر الفاندال على سواحل البلطيق ثم هجرتهم منها منذ نهاية القرن الاول الميلادي الى بوهيميا وسيليزيا .

وعلى رأس قواته الخاصة وحدها في سنة ٤٠٧ في أتون معركة حامية الوطيس في مقاطعة إيبيراوس مما جعله يمنى بالهزيمة ويرتد وهو يجرر أذيال الخيبة والفشل . وهكذا فانه عقد العزم في سنة ٤٠٨ على الانقضاض على شمالي إيطاليا مجبراً الحكومة الامبراطورية على تلبية رغباته وقبولها أن تدفع له الجعل الذي اعتادت تسديده الى رئيس القوات البربرية المحالفة لكن جميع محاولاته في هذا العام ذهبت عبثاً لاسيما حصاره لروما وإخفاقه . وبعد أن أخذ شبح المجاعة يهدده هو ومقاتلته في الاشهر الاخيرة من سنة ٤١٠ فانه قرر بلوغ شمالي أفريقيا حيث شاهد بأم عينه لدن حصاره لروما السفن المترعة بالحبوب والتي كانت متجهة الى روما نفسها تعود أدراجها الى تلك الاقاليم مخافة وقوعها بيد محاصري روما . لكنه أثناء تراجعه عبر شمالي ايطاليا حزيناً كسير الفؤاد فاجأته المنون في إقليم كالابريا وذلك عندما كان على طريق العودة للانضمام الى جميع عناصر شعبه .

إذا ذاك بدأ القيزيغوط زحفهم وبكامل كتلتهم ، وبقيادة ملكهم الجديد آتولف Athaulf نحو غاليا حيث لم يكن بوسع أحد في تلك الارجاء أن يحول دون موالاتهم الزحف . وكان القائد ستيليكون قد اغتيل في شهر آب ٤٠٨ ، هذا في الوقت الذي استنفد فيه الامبراطور الضعيف هونوريوس طاقاته في الحروب ضد المغتصبين الذين حاولت غاليا أن تثيرهم ضده . وسواء أرضي أم لم يرض فانه سمح للقيزيغوط باجتياز شمالي إيطاليا ليسلكوا منها الطريق الموصلة الى سهول إقليمي اللانغدوك وآكيتانيا في جنوب غربي فرنسا في سنة ٤١٢ ، وتمكن هؤلاء الغزاة من الدخول وبصورة متتالية الى كل من مدن ناربونة وطولوز وبوردو ليبلغوا بعد تلك المسيرة الطويلة ساحل الاطلسي في سنة ٤١٣ . وبعد أن استهلكوا جميع محصول المنطقة من الحبوب تذكروا أنهم من الشعوب المتحدة مع الرومان والمحالفين لهم في نطاق الامبراطورية الرومانية . وانطلاقاً من هذه الفكرة فانهم طالبوا الحكومة الامبراطورية بأن تميرهم بالقمح .

وكان ثمة رجل قوي في روما هو قائد الحرس الوطني واسمه كونستانس

قد تمكن من الاستئثار بالحكم الفعلي في الامبراطورية في ذلك الظـرف الراهن . إنه رفض طلب القيزيغوط الميرة . وعلى العكس من ذلك فانه حاصر ساحل غاسكونيا (المنطقة الساحلية المطلة على الاطلسي في جنوب غربي فرنسا) ، مؤمّلاً أن يحمل أولئك البرابرة وبعد اشتداد وطأة المجاعة عليهم على الخضوع . وكان عازماً على تنفيذ خطته لاسيما وأن ادعاءات آتولف ملك القيزيغوط لم تعد محتملة ولا يمكن السكوت عنها . ومن قبيل ذلك أنه بعد وقوع أخت الامبراطور هونوريوس أثناء غارة القيزيغوط على روما في سنة ٤١٠ أسيرة بيد هؤلاء فان آتولف الملك القيزيغوطي الجديد أجبرها على الزواج منه ، وقد أنجبت منه غلاماً ذكراً في الظرف الحالي فطالب آتولف بأن يرث ابنه عرش الامبراطورية الرومانية . ورغب القيزيغوط بعد حصار كونستانس لهم بحرياً أن يمتاروا من إسبانيا ، لا بل فكروا بتنفيذ مشروع ملكهم الراحل آلاريك وذلك في الانتقال من إسبانيا الى شمالي أفريقيا ، لكن آتولف اغتيل في نهاية سنة ٤١٥ فأعلن ملك القيزيغوط الجديد استعداده للتفاوض مع حكومة روما .

ولئن تمّ النصر في النهاية لروما لكن بمقابل ذلك فان الحل الذي فرضته حكومتها هو ما كان القيزيغوط يسعون الى تحقيقه منذ وصولهم الى غاليا : وهو أنه بمقابل اعترافهم القطعي بسيادة روما على الاراضي التي ستمنح لهم والوعد بأن يقدموا المدد العسكري المطلوب منهم الى روما عندما تدعو الحاجة إليه ، ذلك المدد الذي هو مفروض عليهم بوصفهم حلفاء لروما . وبمقابل ذلك فان روما تضمن لهم وبصورة ثابتة حصولهم على الميرة التي سترسلها إليهم سنوياً ، كما منحتهم حق الاستقرار في القسم الساحلي من إقليم آكيتانيا (المطل على الاطلسي وهو جنوب غربي فرنسا) ثم لم تلبث أن ضمت إليهم قسماً من ولاية اللانغدوك الذي توجد فيه مدينة طولوز وذلك بين سنتي ٤١٦ ــ ٤١٨[1] .

---

(١) راجع استقرار القيزيغوط في غاليا : **أولا** ــ مجموعة الشعوب والحضارات المجلد ٥ ، الفصل ٢ ، ص ١٩ ــ ٢١ ، **وثانيا** ــ مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ١ ، الفصل ١ ، ص ٤٤ ــ ٤٩ .

استقرار عناصر الفاندال في أفريقيا الشمالية : وكانت باكورة أعمال كونستانس بعد إقراره السلام مع القيزيغوط هو استخدامه هؤلاء لاسترداد إسبانيا من عناصر الفاندال والسويف والآلانيين . وفعلاً فان ملك القيزيغوط الجديد (واسمه واليا) أنجز هذه المهمة وبدأ اشتباكه بهم منذ سنة ٤١٦ بصفته قائداً لقوات حليفة . وقد نجح بالانتصار على ملك أحد عنصري الفاندال (عنصر السيلينج) وأسره ؛ كما شتت شمل الآلانيين بعد هزيمتهم فلجأت فلولهم الى ملك عنصر الفاندال الثاني (وهم عنصر الآسدينج) الذي كان أسعد حظاً من زميله ملك العناصر الفاندالية الأخرى لتجنبه الاشتباك بالقيزيغوط واتجاهه على رأس شعبه الى الاقاليم الاسبانية الغنية الواقعة الى الجنوب الشرقي من هذه البلاد . وقد تمكن في سنة ٤٢٢ بعد إحرازه عدة انتصارات على الحاميات الرومانية المرابطة في تلك الربوع من بلوغ المنطقة الساحلية مستولياً على مدينتي قرطاجنة (على الساحل الاسباني) وإشبيلية وذلك في سنة ٤٢٥ . وبعد استيلائه على وحدات الاسطول الروماني المرابطة في إسبانيا فانه أخذ يفكر جدياً في عبور البحر الى شمالي أفريقيا والاستيلاء على هاتيك الربوع الغنية ولا سيما بالحبوب والتي اعتبرت بالنسبة الى أولئك الجرمان بمثابة جنة عدن . بيد أنه لم يكتب له تحقيق هذا الحلم الذهبي لأن المنية عاجلته في سنة ٤٢٨ بينما أنجزه خلفه جينسريك Genséric الذي اجتاز بشعبه مضيق جبل طارق (وكان يدعى آنذاك مضيق أعمدة هرقل) . وبعد معارك عديدة وإخفاق حاكم أفريقيا الروماني في ردّه على أعقابه فانه استقر في منطقة الجزائر . وأخيراً وبعد عجز القوات الرومانية عن طرده من هذه الربوع وافق قائد الحرس الوطني في روما (الذي غدا المسيطر الفعلي على الحكومة الامبراطورية في عهد الامبراطور الصغير الجديد ڤالانتينيان/٣) في شهر شباط ٤٣٥ على اعتبار الفاندال مجدداً من العناصر الحليفة لروما وسمح لها بالاستقرار في ولاية نوميديا (وتقابل ولاية قسنطينة في الجزائر) . لكن هذا الحل لم يضع حداً لأطماع الفاندال لأنه لم يتح لهم الاستيلاء على السهول المنتجة للحبوب

والواقعة في الولاية التي كانت تدعى ولاية أفريقيا (وتقابل المناطق الشمالية من تونس الحالية) • وهذا ما حدا بملك الڤاندال الآنف الذكر الى احتلالها في سنة ٤٣٩ • وبما أن الامبراطورية الرومانية كانت عاجزة في هذه الفترة عن صدّه فانها وافقت على احتلاله هذه الولاية وخاصة مدينة قرطاجة وذلك بموجب معاهدة جديدة أبرمت في سنة ٤٤٢[١] •

استقرار عناصر الفرنجة والبورغونديين في غاليا

ذكرنا من قبل استقرار الفرنجة البحريين (أي الساليّين) منذ سنة ٣٥٨ في الاجزاء الشمالية من بلجيكا ، وأنه اعترف بهم في العام نفسه كشعب حليف لروما • هذا ولو أنهم لم يتوقفوا عند حدود هذه الولاية وخاصة بعد أن لحقت بهم عناصر جديدة من قبائلهم قدمت عليهم من أقاليم الضفة اليمنى لنهر الراين • استأنف هؤلاء الفرنجة البحريون زحفهم وبلغوا منطقة غاند في بلجيكا كما بلغوا الاقليم الغربي من الفلاندر (في بلجيكا) • وعلى الرغم من نجاح قائد الحرس الوطني الجديد في روما (واسمه إيتيوس) في الانتصار عليهم فانهم والوا زحفهم وتمكن أحد زعمائهم من الاستيلاء على مدينة كامبريه الفرنسية في سنة ٤٣٠ كما بلغ هذا الزعيم في زحفه وادي نهر السوم • ولشعور قائد الحرس الوطني بعجز القوات الرومانية عن ردّهم على أعقابهم فانه وافق على استقرارهم في هذه المنطقة مع إبرامهم عقد التحالف الذي اعتبروا بموجبه حلفاء لروما وتعهدهم بتنفيذ ما يفرضه عليهم هذا العقد من واجبات نحو روما ليغدوا بموجبه حلفاء شرعيين لها •

ووقف قائد الحرس الوطني وقفة مشابهة بإزاء عناصر جرمانية أخرى هي **عناصر البورغونديين** التي وافقت روما منذ سنة ٤٠٨ على استقرارها في منطقتي **وورمز ومايانس** • لكن عناصر بربرية ثانية هي **عناصر الهون** ، سنتحدث عنها فيما بعد ، بدأت منذ سنة ٤٣٠ تهاجم مؤخرة قوات البورغونديين ضاغطة على هؤلاء وراغبة في زحزحتهم عن الاماكن التي كانوا مستقرين فيها •

---

(١) راجع من أجل استقرار الڤاندال في شمالي أفريقيا كتاب الاستاذ موس المذكور ، الفصل ٢ ، ص : ٦٨ — ٧٠ •

وهكذا فبعد أن كان البورغونديون قد حطوا رحالهم في المناطق الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الراين فانهم عبروا النهر للانسياح وموالاة الزحف على الاجزاء الغربية من حوض هذا النهر • ولخشية قائد الحرس الوطني في روما (إيتيوس) أن تستولي هـذه العناصر على إقليم اللورين أو إقليم شامپانيا البالغي الاهمية بالنسبة الى روما فانه سمح لهم وطواعية بالاستقرار في إقليم بعيد هو الساڤوا حيث قطع أي اتصال أو احتكاك بينهم وبين جرمانيـا • وهذا ما حدا بهم الى الاندماج بالسكان والانصهار بهم ، وهكذا تمّ استقرار البورغونديين في هذا الاقليم في سنة ٤٤٣ مع إضفاء صفة « الحلفـاء » عليهـم •

الفصل الثالث

امبراطورية الهون وانهيارها ثم سقوط غربي أوروبا بيد غيرهم من البرابرة

امبراطورية الهون : توالى زحف عناصر الهون باتجاه الغرب طيلة القرن الرابع مجبرين القبائل البربرية التي كانت على طريقهم أن تغادر أماكن استقرارها والهجرة منها أو الخضوع . وبتلك الصورة أمكنهم إخضاع معظم قبائل القوط الشرقيين والهيرول ، كما أخضعوا قبائل أخرى ومن بينها العناصر اللومباردية . وهكذا غطت إمبراطورية الهـون في مستهل القرن الخامس نصف مساحة أوروبا باحتلالهم المناطق الواقعة بين جبال القوقاز ونهر الإلب . وعلى الرغم من ذلك فان تلك الامبراطورية لم ترو ظمأهم وتعطشهم الى الغزو والاحتلال . وهكذا فانهم اجتازوا ودورياً كلا من القوقاز ونهر الدانوب وأخذوا يهددون وفي الوقت نفسه منطقة تراقيا وتخوم الامبراطوريتين الرومانية والفارسية . ثم بلغت الجرأة ببعض قبائلهم في سنة ٣٩٥ أن تنقضّ وعبر أرمينيا على ولاية كاپادوكيا (في آسيا الصغرى) وعلى شمالي سورية حيث وصلت أطراف أنطاكية .

ومع ذلك فقد افتقرت إمبراطورية الهون هذه وفي ذلك الظرف الراهن الى الانسجام . وأخذت تحاول وطوال النصف الأول من القرن الخامس تمثّل العناصر الجرمانية التي أخضعتها . وبدأ رؤساء قبائل الهون يقتبسون بعض مظاهر الحضارة . كما بدؤوا يقتفون أثر الغزاة البرابرة السابقين من قوط وڤاندال وفرنجة وبورغونديين في مهاجمة تخوم الامبراطورية الرومانية

التي أخذت أهبتها لصدّ هؤلاء البرابرة الذين كانوا أشدّ قسوة ووحشية من جميع الشعوب البربرية السابقة • وحري بالذكر أنه لم يكن لذلك المدّ الهوني في القرن الخامس من أثر دائم في حد ذاته من حيث أن جهود الهون للاجهاز على الامبراطورية الرومانية في غربي أوروبا لم يحالفها النجاح • ومهما يكن فإن غزوات الهون لتلك الامبراطورية هزّت جميع بقاع أوروبا الغربية التي قضت بعض مناطقها فترة طويلة في تضميد جراحها واستعادة قوتها • هذا بينما كانت النتيجة غير المباشرة لتلك الغزوات أن استنفدت طاقات الامبراطورية الرومانية وأوهنت قواها مُسَهِّلة بذلك مهمة القبائل البربرية الثانية •

غارات الهون بقيادة ملكهم آتيلا Attila (١) : استقرت عناصـر الهـون بعد نجاحها في طرد قبائل القوط من ربوع شرقي أوروبا في منطقة السهوب الواقعة شمالي مجرى نهر الدانوب في الأقاليم التي تدعى حالياً : هنغاريا ورومانيا • وتبعا لذلك تمّ توسع وانتشار حكم الهون بصورة مطّردة الى درجة تمكنوا معها من أن يغدوا السادة الحقيقيين لجميع المنطقة الواقعة بين جبال القوقاز شرقاً ونهر الراين غرباً ، وحوض الدانوب جنوباً وشمالي ألمانيا وبولونيا شمالاً •

وصل في سنة ٤٢٣ الى هنغاريا (المجر) ضابط روماني كبير (هو رئيس الحرس الوطني) هو إيتيوس ليجند مرتزقة من الهون لحساب مغتصب للعرش الروماني أعلن نفسه إمبراطوراً في راڤينا • نجح إيتيوس في مهمته فجنّد ستين ألفاً من مقاتلة الهون وصل على رأسهم إيطاليا • لكن الرومان كانوا قد استطاعوا وقبل وصول هذا الجيش اللجب قمع ثورة ذلك المغتصب

---

(١) راجع تفصيل ذلك في : **أولا — مجموعة مارابوط** Marabout ، للتاريخ العالمي ، ج٣ وعنوانه : روما ، التاريخ القديم لشرقي آسيا . وغارات البرابرة الكبرى، ص : ٣٤٦—٣٤٩ وهذا الجزءهو من وضعكارل غريمبرغ Carl Grimberg وترجم الى الفرنسية تحت اشراف جورج دومون G. Dumont .

ثانيا : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، لويس هالفين ، المجلد ٥ ، الفصل ٣ ، ص ٢٧ — ٣٤ .

وقتله مما سبب إزعاجاً لموفده إيتيوس الـــذي لم ير أنجع من الدخول في خدمة الإمبراطور الجديد مع أنه كان مزمعاً الإطاحة به من الحكم ٠ وقد نقل كضابط في الجيش الروماني الى غاليا حيث رقّته الأميرة پلاسيديا أم الامبراطور الروماني الجديد القاصر الى رتبـــة قائد أعلى للجيش الروماني ٠ ونجح إيتيوس بهذه الصورة في أن يغـــدو الحاكم الفعلي لجميع الامبراطورية الرومانية الغربية ٠

وكثيراً ما أُطلق على إيتيوس وعن جدارة لقب « آخـــر الرومانيين » لتحديده الهدف النهائي لمهمته في هذه الحياة وهي استرداد جميع الولايات التي فقدتها الامبراطورية الرومانية من جرّاء غارات قبائل الجرمان عليها ٠ ولتحقيق هذا الهدف لم يتورّع إيتيوس عن إبرام تحالف مع الهون ٠ وتمكن وخلال فترة طويلة أن يجني ثمار تحالفه المجدي مع حلفائه الذين كان اسمهم وحـــده باعثاً للذعر بين الافراد ٠ ثمت فانه بجعله الهـــون دعامة وسنداً للامبراطورية فانه أوجد خطراً أشد وطأة على الامبراطورية من خطر القبائل الجرمانية وهذا ما وضح وبجلاء في سنة ٣٤٨ عندما أوسدت رئاسة قبائل الهون الى عاهل عبقري هو آتيلا ٠

أطلق آتيلا في سنة ٤٥١ العنان لقبائله لتهوي على بلدان الامبراطورية الرومانية الغربية ٠ وقد غادرت تلك الجحافل الجرارة التي قدّرها المعاصرون بنصف مليون محارب بلاد المجر لتهاجم بقاع غربي أوروبا ٠ إنها عبرت نهر الراين لتنتشر في غاليا مستولية على جميع ما صادفته في طريقها أو جعلته طعمة للنيران ٠ واعتبرت غارات الهون هذه بمثابة قضاء مبرم على الحضارة الغربية ٠ ومع ذلك تمكن إيتيوس وحتى في أحلك الساعات التي مَرّ بها من الاحتفاظ برباطة جأشه وهدوئه واتزانه كروماني قديم ٠ إنه توجّـــه وبأقصى سرعة ممكنة الى غاليا وتولى شخصياً قيادة القوات التي ستلتحم بقوات الهون والتي كانت غالبيتها من البورغونديين والفرنجة ٠ كما وأنه بعث وفي الوقت نفسه رسائل الى عاهل الڤيزيغوط طالباً منه الاسراع لنجدته فلم يذهب طلبـــه عبثاً لأن عاهل الڤيزيغوط المسنّ تيودوريك لم يتلكأ أو يتردّد إنما جمع مقاتلته وهب مسرعاً لنجدته ٠

اشتبكت هاتان القوتان المتعاديتان في سهول قاطالونيـا وفي سهول شامپانيا الفسيحة بين طلوع الفجر وهبوط الظلام • ولربما لم ينشب وعبر حقب التاريخ جميعها قتال أضرى وأشدّ من ذلك الاشتباك الذي وقع بين الهون والڤيزيغوط • ولئن صدّقنا تقديرات المعاصرين فقد بلغ عدد قتلى هذه المعركة عشرين ألفاً • وتعرّض الڤيزيغوط الى صدمة عنيفة ومُرَوِّعة أثناء التحامهم بأعدائهم وذلك بمصرع عاهلهم تيودوريك • لكن على الرغم من فداحة المصاب فان الكارثة لم تفتّ في عضدهم ولم تثبّط من همتهم فنصبوا ابن ملكهم الراحل خليفة لأبيه ، وصدقوا في قتال خصومهم الى درجة أنه لم يكد جناح الظلام يَلْتَفّ ساحة القتال في ذلك اليوم حتى وهنت قوى الهون مما حدا بآتيلا الى الانسحاب من المعركة متحصناً في معسكره التي كانت العجلات واقفة فيه •

لاحظ مقاتلة الڤيزيغوط سنوح فرصة الإجهـاز على خصومهـم لكن إيتيوس عارض ذلك مبرهناً على أنه أحد دهاقين السياسة بدرجة ما كان قائداً مغواراً ومحنكاً حيث سيكون بوسع روما وفي أحد الأيام استخدام هؤلاء الهون لنهنهة طغيان الڤيزيغوط وسواهم من الشعوب الجرمانية والحدّ من جبروتها • وهكذا استولى العجب على آتيلا الذي وجد طريق انسحاب قواته خالية فعمد وعلى جناح السرعة الى الانسحاب ، بدون اعتراض خصـومه المنتصرين طريقه أو أن يعملوا السلاح في أقفية فالّته وجنوده ، عائداً الى سهول المجر •

لكن بعد سنة واحدة من هزيمة آتيلا وقبائله الهونية عاد هـذا القائد ليهدّد جميع إيطاليا في هذه المرة حيث هاجم الهـون وعلى حين غرّة من الايطاليين إيطاليا من حدودها الشمالية الغربية مستولين على سهل الپو • وكان أن غدا الطريق الى روما مفتوحاً أمامهم ولم يعد بإمكان أية قوة في العالم أن تحول دون سقوط تلك المدينة بأيدي عصابات فرسان الهون الباعثة للذّعر • ومع ذلك حدث أمر لا يمكن تصديقه الى درجة أنه بدا للمعاصرين وكأنه لغز لم يمكن حلّه وذلك الامر أن آتيلا لم يتوجّه الى روما إنما وبخلاف

ما كان ينتظره المعاصرون عاد أدراجه سالكاً نفس الطريق التي أوصلته الى هاتيك الربوع •

لقد تنفست الامبراطوريتان الغربية والشرقية الصعداء ، كما سرت الطمأنينة وشيكاً الى جميع النفوس عندما انتشر خبر مصرع آتيلا أو « الآفة التي سلطها الله على البشر » (كما كان يلقب بذلك) في العام القادم • وروى بعض المعاصرين أنه توفي مقتولاً على يد زوجته الحسناء هيلدغوند Hildegonde ابنة ملك البورغونديين التي أجبرها على الزواج منه • وبقيت ذكرى آتيلا ماثلة للغاليين والجرمان ولم تَمَّح أبداً من أذهانهم وذلك عن طريق القصص الاسطوري التي تناقلوها عنه • ثمت فقد أعطيت الى وجهه في تلك القصص ومع مرور الزمن تقاطيع عملاقة • وفضلاً عن ذلك فان المجريين الذين احتلوا هنغاريا (أي أرض الهون) منذ بداية القرن/١١ الميلادي علقوا على أعلامهم رمز أو شعار آتيلا أثناء طوافهم في مختلف أنحاء أوروبا ، كما اعتبروه دائماً أحد أبطالهم القوميين • وقد وضع مصرع آتيلا حداً لقوة الهون • وبدأت الشعوب الجرمانية الخاضعة الى حكمهم تثور عليهم ولم تلبث مملكة الهون أن انهارت عما قليل وغدت أثراً بعد عين •

انحلال امبراطورية الهون : لم تكن إمبراطورية الهون راسخة الجذور وموطدة الدعائم • ولم يكن بين صفوف الهون من بوسعه أن يشغل الفراغ الذي خلفه الزعيم الراحل آتيلا • ولأن آتيلا كان قد اقترن بعدد من الزوجات فانه رزق أولاداً كثيرين قسمت السلطة بينهم • ولم يكن أحد منهم كفئاً لفرض طاعته واحترامه على الشعوب الجرمانية التي كانت قد خضعت وتباعاً الى حكم الهون منذ نهاية القرن الرابع •

تحدث الاستاذ لويس هالفين عن الفوضى التي ذرت قرنها فيامبراطورية الهون بعد وفاة آتيلا قائلاً مانصه : « وقد استشرت ثورة عارمة وعامة في امبراطورية الهون أذكى لهيبها الجرمان الذين رغبوا حتى في نفس العام الذي توفي فيه آتيلا تحطيم نير الهون • وتمكنت قبائل القوط الشرقيين وحلفاؤها من باقي العناصر الجرمانية الخاضعة للهون من إلحاق الهزيمة بابن آتيلا

البكر » (واسمه إيلاي Ellae) في سهل بانونيا غربي المجر ، واضطر الهون الى التراجع مع احتفاظهم بحكم أقاليم الحوض الادنى لنهر الدانوب وأقاليم سهوب حوض البحر الاسود . وهكذا حدث ذلك الانهيار المفاجيء لأكبر إمبراطورية بربرية عرفتها أوروبا حتى هذه الفترة .

« وعلى الرغم من ذلك فان تاريخ الهون لم تنته حلقاته فلا يمكن لشعب ما أن يختفي بصورة مفاجئة من على مسرح الأحداث العالمية بعد أن كانت أخباره ملء سمع الدنيا وبصرها وبعد أن كانت الشغل الشاغل للعالم طيلة قرن . ومع ذلك فان تلك القبائل البربرية التي أغرتها الانتصارات التي أحرزتها في ظل الملك روا وأولاده انتظم عقدها والتفت من حول ملوك هذه الاسرة الحاكمة . لكن وفاة آتيلا جعلت ذلك العقد ينتثر وجعلت شمل قبائل الهون يتبدّد فانهار التنظيم الذي وضعه ملوك الهون ولم تعد ثمة وحدة إنما عاد التجزؤ والانقسام كما عادت الفوضى والاضطراب ليلفّا مملكة الهون . ثم استؤنف تنظيم هذه المملكة مجدداً ولكن في أطرٍ أضيق حيث قامت الشخصية العنصرية لكل جماعة من تلك القبائل بدور كبير ونجحت في أن تؤسس كل منها ولنفسها كياناً سياسياً مستقلاً .

« فثمة أولاً جماعة الهون الغربيين (وهم الكوتريغور Coutrigours) التي استقرت في حوض الدانوب الأدنى وفي جوار البحر الاسود حتى نهر الدنيبر » . وبقيت هذه الجماعة مثيرة لقلق وفزع حكومة القسطنطينية طوال أكثر من خمس عشرة سنة وذلك من جراء غاراتها المستمرة على أقاليم الامبراطورية ولا سيما على تراقيا . وكان يحكم هذه المجموعة أحد أبناء آتيلا الذي أسر في سنة ٤٦٨ وقتل وقد نصب رأسه على رمح في ساحة من ساحات عاصمة الامبراطورية البيزنطية . وقد انهارت قوة جماعته ولم يعد البيزنطيون يأبهون بها وطيلة عدد من السنين . لكن تلك القبائل بدأت توحّد أمرها منذ سنة ٤٨١ متخذة لنفسها اسماً جديداً هو **« البلغار »** . وقد دقت هذه العناصر البلغارية منذ ذاك باب التاريخ ودخلته . واعتبر العالم الروماني هؤلاء البلغار الورثة الحقيقيين والأصلاء للهون . وكانت أعدادهم قد تضاعفت

بمن انضم إليهم من عناصر جديدة أمَّت منطقتهم حوالي نهاية القرن الخامس. وكان مقاتلة البلغار فرسانا مهرة ومقاتلين أشداء لا يستولي عليهم التعب أو النصب من موالاة غاراتهم ، ولم يكونوا أقل شراسة ولا وحشية من فرق مقاتلة آتيلا نفسها . وقد بعثوا في أوروبا نفس الذعر وكان نمط معيشتهم شبيهاً جداً بطريقة الهون أنفسهم . ولم يلبثوا أن غدوا وشيكاً ألدّ أعداء الاباطرة البيزنطيين . لا بل فان هؤلاء البلغار سيبقون وطيلة تاريخ البيزنطيين قذى في عين الامبراطورية البيزنطية وألدّ أعدائهـا ولطالما عرضوها الى المهالك .

« وهناك جماعة ثانيـة من الهون هي عناصر الأوتيغور Outigours المؤلفةمن قبائل عديدةاستقرت بين حوضي نهري الدنيبير والدون. أما جماعةالهون الثالثة فهي السابير وقد استقرت شرقي الجماعة الثانية بين مجرى نهر الدون وجبال القوقاز . ويبـدو أن السابير كانوا خليطة عنصرية ضمت رواسب مختلف القبائل التي كانت خاضعة للهون . وثمة كذلك مجموعات أخرى لم تلبث أن ظهرت في جميع المناطق التي كان آتيلا قد استولى عليها وأقام فيها امبراطوريته. ونذكر على سبيل المثال الجماعة التي عاشت فيوادي نهر الڤولغا حيث أسس البلغار دولة ثانية »[1] .

وعلى العموم وبما أن امبراطورية الهون قد ظهرت منذ فترة مبكرة بالنسبة الى تاريخ الهجرات الجرمانية وانقضاضها على غربي أوروبا لذلك فانه في الفترة التي أعقبت انهيارها ، وقبل تمكّن قبائل جرمانية أخرى من أن تشيّد على أنقاض تلك الامبراطورية دولها وممالكها فانه أتيح الى أوروبا وفيما بين هاتين الفترتين أن تتنفس الصعداء وأن تنعم بالهدوء والراحة طيلة فترة وجيزة.

سقوط غربي أوروبا بيد الجرمان البرابرة : لم يق انحـلال امبراطورية الهـون الامبـراطورية الرومانيـة من الدمـار . ولم تعدّ هـذه الاخـيرة لمقـاومة غارات البرابرة المستمـرة والمنظمـة سـوى زيـادة

(1) لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد/٥ ؛ الفصل/٣ ؛ ص ٣٢ — ٣٥ .

حالة الفوضى التي رانت على جميع أجزائها وزيادة أعمال العنف التي ترتكبها السلطات الرومانية الحاكمة في الولايات بإزاء أهلها • وقد استمرت الحال على هذا المنوال الى اليوم الذي لم يبق فيه لممارسة أعباء الدفاع عنها ولصدّ غارات المغيرين سوى حفنة من القوات البربرية المرتزقة • وأخيراً هوى النسر الروماني من عليائه وسقط صريعاً مضرجاً بدمائه وانهارت الامبراطورية الغربية نهائياً بعد أن أجهز المغيرون عليها وسط شعور عام من عدم الاكتراث لما حدث، طغى حتى على جميع المواطنين الرومان أنفسهم •

انهيار الحكم الروماني في غربي أوروبا : طبعت سلسلة من الاضطرابات والجرائم مراحل فترات ذلك الاحتضار الطويل الذي تعرضت إليه الامبراطورية في الغرب بطابعها الخاص • وفعلا فانه أعقب مقتل قائد الحرس الوطني ، إيتيوس على يد الامبراطور ڤالانتينيان/٣ في ٢١ ايلول ٤٥٤ مقتل هذا الامبراطور نفسه على يد منافسه ماكسيم (في ٣١ مايس ٤٥٥) • ولم يتمتع خليفتا ماكسيم بالمنصب الامبراطوري حيث عزل أولهما وهو آفيتوس على يد البطريق ريسيمير Ricimer سنة ٤٥٦ ، كما عزل الثاني ، واسمه ماجوريان ، وقتل بعد خمس سنين على يد البطريق نفسه • ونصب ريسيمير شخصاً من الهمل وهو سيفيروس امبراطوراً لكنه لم يلبث أن توفي وشيكا (في ١٥ آب ٤٦٥) • وللملاحظة ريسيمير أن اختياره لسيفيروس ، وهو من النكرات في روما ، لم يصادف قبولاً ولا استحساناً لدى الرومان ، ونشداناً منه أن يوطد سلطته بعد أن لاحظ أن أرض السيطرة والحكم بدأت تميد تحت قدميه فانه أولاً أوسد العرش الامبراطوري في روما الى أحد ذوي النفوذ فيها وهو آنتيميوس Anthémius وقد تزوج من ابنة هذا الاخير الذي تزوج بدوره من ابنة الامبراطور البيزنطي (مارسيانوس المتوفى سنة ٤٦٧) • لكن لشعور ريسيمير أنه أخفق في أن يجعل من حميه (والد زوجته) سلس القياد في يده وأن يطويه تحت جناحيه فانه حاصره في روما وألقى القبض عليه ثم تخلّص منه بقتله في ١١ تموز ٤٧٢ رافعاً الى سدّة العرش الامبراطوري شخصاً يدعى

أوليبريوس Olybrius كان ومنذ البداية لا يتمتع بأي تقدير أو اعتبار من قبل الرومانيين لملاحظتهم خضوعه الى نفوذ ملك عناصر الفاندال جينسيريك • وأمست الامبراطورية الرومانية في النزع الاخير • فبعد وفاة أوليبريوس ووزيره ريسيمير نفسه في سنة ٤٧٢ استشرى النزاع داخل روما على العرش الامبراطوري بين زعيمين ثانويي الاهمية هما غليسيريوس وجوليوس نيبوس• وبعد انتصار جوليوس على خصمه في حزيران ٤٧٤ ثار عليه قائد الحرس الوطني الجديد وهو أوريستوس الذي لجأ الى تدبير لم يجرؤ عليه أحد من أمثاله من قبل ألا وهو تنصيب ابنه نفسه امبراطوراً على روما وهو رومولوس الشاب وذلك في ٣١ تشرين الاول ٤٧٥ • وبلغ من هزء الرومانيين بهـذا الامبراطور الجديد الشاب أنهم لقبوه أوغستوليه Augustule (أي أغستوس الصغير) •

في وسط هذا الجو المشحون بالتوتر والاضطراب الذي خيّم على روما وكرثها منـذ منتصف القرن الخامس تدخل البرابرة للاجهاز على هذه الامبراطورية بعد طول فترة احتضارها وكانوا بزعامة رئيسهم أودواكر الذي نَصّبوه ملكاً عليهم في ٢٣ آب ٤٧٦ بعد قبضهم على أوريستوس وقتله وسجنهم ابن هذا الامبراطور • وبعد أن عيل صبر هذه العناصر البربرية من اضطرارها الى خدمة دولة محتضرة وميئوس من شفائها فانهم طالبوا أن يعاملوا فيها على قدم المساواة مع الكثيرين من أمثالهم الذين منحوا كياناً مستقلاً في الوقت الذي كانوا يعاملون فيه كمرتزقة برابرة في الجيش الروماني • وقد طالبوا في هذا الظرف أن يمنح شعبهم كياناً مستقلاً ذاتياً وأن يحكموا من قبل العاهل الـذي انتخبوه بمحض اختيارهم ، وهو أودواكر نفسه ، وبموجب قوانينهم وأعرافهم القومية علماً أنهم وحتى في ظل هـذا الكيان المنشود سيستمرون في خدمة الامبراطورية لكن بعد منحهم كيان «**الاحلاف**» وليس كمجرد مرتزقة ، وبعد أن يمنحوا أسوة بباقي أحلاف روما من البرابرة إقليماً ليستقروا فيه مع تزويدهم بالاراضي الزراعية الضرورية التي ستمكنهم من العيش على محاصيلها ، وبعد أن تُخَصِّص الامبراطورية أتاوة أو جعلاً سنوياً تدفعه الى ملكهم •

ومن ناحية ثانية فبما أنهم مرابطون في إيطاليا وفي منطقة مدينة راڤينا نفسها وهي المدينة التي نقلت الامبراطورية الرومانية الغربية حاضرتها إليها منذ بداية القرن الخامس ، وبنتيجة أنه لم تعد ثمة حاجة الى بقاء هذه الامبراطورية الرومانية في الغرب . وكما كانت الحال بالنسبة الى الامبراطورية الرومانية القديمة لم تعد ثمة ضرورة لأن يكون لهذه الامبراطورية في ظروفها الراهنة امبراطور في حاضرتها الشرقية وآخر في قسمها الغربي سواء في راڤينا أم في روما . فلجميع ما ذكر فان الملك أودواكر بصفته زعيماً للأحلاف والذي سيستقر في قصر الاباطرة الغربيين في مدينة راڤينا حيث تعاقب على حكم الامبراطورية عدد كبير من الاباطرة ، سيقوم وبعناية زائدة بأعباء الحكم . وهكذا فان هذا الزعيم القوطي أودواكر أعلن أن ايطاليا لم تعد بحاجة الى امبراطور ولذلك جمع كل الشعارات الامبراطورية وبعث بها الى القسطنطينية وأعلن أنه سيمارس حكم ايطاليا والأجزاء الخاضعة لها كنائب عن الامبراطور الروماني الذي لم تعد حاضرته لا في راڤينا ولا في روما إنما في القسطنطينية حيث سيكتب لتلك الامبراطورية أن تعيش أيضاً قرابة عشرة القرون الى أن يتم القضاء عليها في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس عشر على يد السلطان العثماني محمد الفاتح[1] .

مملكة الفاندال في عهد جينسيريك : كان موقف أودواكر الذي لم يعلن تملّكه لإيطاليا بحق الفتح إنما أعلن استيلاءه على الارض الرومانية بموجب القواعد المتبعة في معاهدات التحالف المبرمة عادة بين روما والقبائل الجرمانية التي استقرت في أحد أقاليمها ، مناقضاً لموقف غالبية ملوك الجرمان الذين كانوا قد منحوا من قبل كيان الحلفاء نفسه . وبدأ ملوك البرابرة هؤلاء يتناسون وتدريجياً التغييرات المفروضة على ممارستهم الحكم كحلفاء وصاروا منذ منتصف القرن الخامس

(١) راجع من اجل هذا القسم مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى ؛ المجلد/١ ؛ ج/١ ؛ الفصل/٢ ؛ ص ٧٣ ـ ٧٦ ، ثم الفصل الثالث من الجزء نفسه ، ص ٩٣ ـ ٩٧ .

يمارسون الحكم كعواهل مستقلين تماماً وذوي سيادة وذلك فيجميع الاقاليم التي كانت الامبراطورية الرومانية الغربية قد سمحت لهم بالمقام فيها كحلفاء •

وكان جينسيريك ملك الفاندال أول أولئك الملوك الحلفاء ممارسة للاستقلال • فبعيد استقراره في ولاية افريقيا (تونس) كملك حليف بموجب المعاهدة التي أبرمها مع روما في سنة ٤٤٢ بدأ هذا الحليف يسلك سلوك الملوك المستقلين كما لو لم تكن الامبراطورية الرومانية ، والتي يعتبر بموجب المعاهدة الآنفة الذكر كأحد حكام ولاياتها ، موجودة • ومن قبيل ذلك أنه دمر الحصون والقلاع الامبراطورية المشيدة في ولايته والتي كان من الممكن أن تلجأ إليها القوات الامبراطورية ، كما صادر قسماً من الاراضي العامة وطرد من ولايته جميع الذين كان يشك بولائهم وفرض على جميع سكان ولايته أن يقدموا إليه الطاعة العمياء مع تدخّله فيتعيين أفراد هيئة الاكليروس في ولايته • وعلى الرغم من ذلك لم تكن جميع هذه الاعمال ، التي لا يسمح له كيانه « كحليف » بالقيام بها سوى بداية الشوط • وهكذا فانه انتهز في سنة ٤٥٥ فرصة قتل الامبراطور ڤالاتينيان/٣ ليعلن رسمياً أنه لم تعد تربطه أية علاقة تبعية بخلفه ماكسيم المسؤول عن قتل سلفه • ثم تحول بعيد ذلك الى العمل حيث أبحر على بعض السفن باتجاه الساحل الايطالي ومعه حملة قوية نزل على رأسها الى البر في ميناء بورتو عند مصب نهر التيبر ثم دخل وبمعيته قواته الى روما في ٢ حزيران حيث كان الامبراوطر ماكسيم نفسه قد ذبح منذ يومين فأعملت قوات الفاندال في روما وطيلة أسبوعين سلباً ونهباً ثم انسحبت محمّلة بالغنائم وحاملة معها عدداً من الاسرى من ذوي المكانة المرموقة ومن بينهم الامبراطورة أودوكسي Eudox أرملة ڤالاتينيان وابنتيها • وبدأ جينسيريك بعد ذلك يقوم بغارات متوالية على عدد من سواحل المقاطعات الايطالية في كل من صقلية وكالابريا وكامپانيا ، كما قطع خطوط المواصلات البحرية بين إيطاليا وولايتي موريتانيا ونوميديا (وتمثلان الجزائر الحالية) اللتين أنهى ضمهما الى ولاية افريقيا (تونس) ؛ كما استولى في الوقت نفسه على ولاية طرابلس الغرب •

ثم استولى الفزع على جينسيريك في سنة ٤٥٧ وذلك عندما بلغته أنباء تولّي رجل قوي في روما المنصب الامبراطوري وهو **ماجوريان** من حيث أن هذا الامبراطور يمثل قوة أباطرة روما السابقين وكان ابناً وحفيداً لضابطين محترفين في الجيش الروماني ، وكانت باكورة أعمال هذا الامبراطور تفكيره بتوجيه حملة الى افريقيا لإخضاع جينسيريك . هلع فؤاد هذا الاخير ووجد من الانسب له فتح باب المفاوضة مع العاهل الجديد من أجل إبرام الصلح مع روما (وذلك في مايس ٤٦٠) لكنه لم يلبث أن عدل عن موقفه عندما وصله نبأ سقوط ومقتل ماجوريان نفسه (آب ٤٦١) .

تحدث الاستاذ لويس هالفين عن الحرب البحرية المظفرة التي خاضها العاهل الفاندالي ضد روما وتحالف امبراطورها مع الامبراطور البيزنطي ضد الملك الفاندالي والتنازل النهائي لهذا الاخير عن ولايات الامبراطورية في أفريقيا وعن جزر الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط فقال بصدد كل ذلك ما نصه : « إذ ذاك لم يعد بوسع أي عائق أن يكبح جماحه (جينسيريك) . وقد أتاح له أسطوله القوي أن يمارس السيطرة على جميع أجزاء الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط وأخذ يغير بين الفينة والاخرى على سواحل إيطاليا لا بل أخذت سفنه بمن عليها من القراصنة الأفارقة تنشر الذعر والهلع في كل من بلاد اليونان وصقلية وإيطاليا الى درجة حملت امبراطوري روما وبيزنطة على الاتفاق على عمل موحد ضده فاتفق امبراطور بيزنطة ليون/١ وإمبراطور روما آنتيميوس على توجيه حملة بحرية مشتركة كبرى لسحق قوة الفاندال . بيد أن وحدات أسطوليهما التي كانت تنقل قوات من الامبراطوريتين لتنزلها الى البر في تونس فوجئت عند رأس بونة ودمّرت في سنة ٤٦٨ وذلك الى الشمال الشرقي من مدينة قرطاجة . لقد أسكرت نشوة الظفر ذلك الزعيم البربري فانبرى الى تحقيق إنجاز احتلال باقي سواحل الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط : وهكذا تمّ له الاستيلاء على كل من جزر سردينيا وكورسيكا والبليار وصقلية وضمها الى إمبراطوريته . وعندما شرع الملك الفاندالي بتهديد الجزر اليونانية فان

الامبراطور البيزنطي زينون (وكان العاهل الشرعي الوحيد الذي بقي لممارسة الحكم في الامبراطورية الرومانية بعـد عزل آخر أباطرة روما رومولوس أوغوستوليه على يد أودواكر) فكر أن السياسة الرشيدة والرأي السديد يفرضان عليه التنازل النهائي عن ولايات الامبراطورية في أفريقيا وعن جزر الحوض الغـربي من البحر الابيض المتوسط مقابل توقف عاهل الڤاندال جينسيريك عن موالاة غاراته وإيقافه للقتال (وذلك في خـريف ٤٧٦) . « ومعنى ذلك الاعتراف الرسمي بالمملكة التي أسسها جينسيريك الڤاندالي وتماسكها بمختلف أجزائها حتى وفاته (في ٢٥ كانون الثاني ٤٧٧) ، ومع ذلك فان هذا الملك الڤاندالي رأى أن من الافيد الى ابنه وليتيح الى وريثه أن ينصرف وفي ظل السلام الى تنظيم حكم البلاد التي احتلها أبوه أن يتنازل الى أودواكر الذي خضعت إيطاليا الى حكمه عن كل صقلية ما عـدا ميناء مارسالا الحالي ليتخذ منه نقطة استناد وقاعدة بحرية ممتازة من أجل الاسطول الڤاندالي مقابل دفع هذا الاخير أتاوة سنوية الى الڤاندال »[1] .

مملكة القوط الغربيين (الڤيزيغوط) في النصف الثاني من القرن الخامس[2]:

سرت عدوى الاستقلال الذي حصل عليه عاهل الڤاندال الى جميـع رؤساء قبائل البرابرة المستقرين في العالم الروماني ولا سيما الى ملوك القوط الغربيين .

إنه على الرغم من محاولة ملكي القوط الغربيين اللذين حكما في النصف الأول من القرن الخامس (وهما تيودوريك/١ ٤١٨ ــ ٤٥١ وثوريسمود (٤٥١ ــ ٤٥٣) الإفادة من ضعف الامبراطورية الغربية لتوسيع رقعة البلاد التي كانت هذه الامبراطورية قد منحتها لهؤلاء القوط فان هذين العاهلين أظهرا ، ولو نسبياً ، الانقياد والاحترام والخضوع الى الامبراطور . وتقيداً منهما بوضعهما كحليفين فانهما اشتركا على رأس القوات القوطية في معارك

(١) لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد ٥ عن العصور الوسطى ، فصل ٤ ، ص ٣٧ ــ ٣٨ .

(٢) المصدر عينه ، المجلد ٥ ، فصل ٤ ، ص ٣٩ ــ ٤١ .

عديدة بجانب القوات الامبراطورية • لكن الملك القيزيغوطي تيودوريك/٢ أبى الاعتراف في سنة ٤٥٧ بالامبراطور ماجوريان ، وذلك أسوة بما فعله ملك الڤاندال جينسيريك قبل عامين عند مقتل الامبراطور ڤالانيتنيان/٣ • وفاجأ تيودوريك/٢ على رأس قواته مدينة آرل (جنوبي غاليا عند مصب نهر الرون) ذات المركز الممتاز لكنه فشل واضطر الى التراجع عنها لكنه استولى في سنة ٤٦٢ على ميناء ناربونة وهو بمثابة منفذ لمملكته على البحر الأبيض المتوسط ويمكنها من التوسع مستقبلا •

ثم حاول أحد خلفائه وهو أوريك (٤٦٤ ــ ٤٨٤) استئناف الكرّة فزحفت قواته القيزيغوطية داخل اسبانيا لان الرومان لم يستطيعوا ممارسة حكمها الفعلي بعد مغادرة الڤاندال لها • وكثيراً ما لجأ الامبراطور الروماني الى تكليف قوات القوط الغربيين حلفاء روما بقمع حركات السويڤ التي كانت تنحدر من جبال غاليسيا لتكرث شبه جزيرة إيبريا ولتحاول الاستيلاء على جميع ولاياتها • ولعل أهم نتائج تدخل القيزيغوط في إسبانيا أنهـا جعلتهم يتعرفون على هذه البلاد ويحلمون بالاستيلاء عليها • لم تستطع روما استرداد حكم إسبانيا مع انها حاولت ذلك مرارا • ومع أنه أمكن إجلاء السويڤ عن بعض الولايات الإسبانية فقد بقي هؤلاء محتفظين بولايات الساحل الغربي مع ميناءيها الهامين وهما بورتو وليشبونة • ثم أدت الفتن الداخلية التي استنفدت طاقات السويڤ الى أن هؤلاء لم يعودوا منذ سنة ٤٥٧ يشكلون خطراً على إسبانيا • ووضح منذ ذاك أن السويڤ والرومان أنفسهم لن يتمكنوا من منع وقوع إسبانيا بيد غاز جديد • لذلك كله بدت ظروف إسبانيا مواتية لملك القيزيغوط كي يغزو إسبانيا فلم يدع هذه الفرصة تفلت من يده •

بعث العاهل القيزيغوطي في سنتي ٤٦٨ و ٤٦٩ قواته الى كل من غاليا وإسبانيا فهزمت السويڤ وردتهم الى غاليسيا ثم بدأت تحتل تباعاً جميع ولايات إسبانيا ووصلت جنوبا حتى قرطاجنة نفسها • كما حقق قادة القيزيغوط انتصارات شمالي جبال البرانس في غاليا حيث ألحقوا الهزيمة بالحاميـات

الرومانية في ديول Déols في سنة ٤٦٩ مبعدين القوات الرومانية الى أقاليم الضفة اليمنى لنهر اللوار • وفي الوقت الذي تابع فيه الڤيزيغوط وبصورة منظمة احتلال منطقة سلسلة جبال الكتلة المركزية والأقاليم المحيطة بها فإن قوات ڤيزيغوطية أخرى توجهت لتهديد مدينة آرل وإقليم البروفانس في جنوبي غاليا في سنتي ٤٧٠ ــ ٤٧١ •

لم يكن لدى الرومان في الظرف الراهن أية قوة لتوجيهها ضد القوط الغربيين الذين غــدا ملكهم نشوان بانتصاراته الكثيرة • فعندما توجــه الڤيزيغوط الى إقليم الپروڤانس ثار قائد الحرس الوطني ريسمير في راڤينا (مركز الامبراطورية الرومانية الغربية الجديد) على الامبراطور الروماني الجديد آنتيموس وشغلت هذه الثورة وقمعها جميع قوات الامبراطورية فكانت إما تقاتل العاهل بإيعاز من قائد الحرس أو تقاتل هذا الأخير بإيعــاز من العاهل لذلك لم تتمكن حكومة الامبراطورية الرومانية في راڤينا من التدخل لا في جنوبي غاليا ولا في إسبانيا إلا في سنة ٤٧٥ وذلك للحيلولة دون سقوط إقليم الپروڤانس بيد القوط لان سقوطه سيفتح أمام هؤلاء الطريق الى إيطاليا • وقبل سقوط الامبراطور نيپوس أبرمت معاهدة صلح بين الامبراطورية والقوط الغربيين حيث تنازلت الامبراطورية لهم عن جميع الولايات الإسبانية والغالية التي كان عاهلهم أوريك قد أتمّ احتلالها حتى هذا الوقت •

وبمجرد وصول نبإ سقوط آخر أباطرة روما الى عاهل القوط الغربيين في إسبانيا فانه أنجز احتلال باقي ولايات هذا القطر باستثناء غاليسيا • وبذلك أضحت مملكة القوط الغربيين ضامّة مناطق شاسعة تقع بين مضيق جبل طارق جنوباً ومصب نهر اللوار شمالاً ، وبين سواحل الاطلسي غرباً وسلسلة جبال الآلب شرقاً شاملة ثلثي الممتلــكات التي كانت وحتى فترة وجيزة بيد الأباطرة الرومان الغربيين ويديرونها من حاضرتهم الجديدة راڤيناء

تاسيس مملكة البورغونديين : إن ثمةشبها بين تاريخ كلمن البورغونديين والڤيزيغوط حيث بقي البورغونديون أول الأمر وكالقوط الغربيين أوفياء

لمعاهدة التحالف مع الامبراطورية الرومانية الغربية التي حـددت منطقة سكناهم في إقليم الساڤوا • وبمجرد تسلـّم الامبراطور الروماني ماجوريان الحكم (سنة ٤٥٧) بدؤوا توسعهم وحرصهم على تغيير كيانهم كمحالفين مستقرين في أحد أقاليم غاليا • ونجح ماجوريان في إجبارهم على الخلود الى السكينة كما استرد منهم في سنة ٤٥٨ مدينة ليون التي كانوا قد استولوا عليها من مدة قريبة • لكنهم ما لبثوا أن عادوا اليها بمجرد مصرعه فجعلوها عاصمة لهم وتمكنوا في أقل من عشرين عاماً من احتلال بلاد وادي الرون وروافده ما عدا إقليم البروڤانس الذي تحدثنا عن مصيره • وشغل القسم الذي احتلوه في غاليا مساحة كبيرة وهو الذي يتحكم بمواصلات غاليا مع ايطاليا التي أفلتت من قبضة الامبراطورية الرومانية بدون أن يؤمل أحـد باسترداد هذه الامبراطورية لها •

استقرار القوط الشرقيين (الأوسترغوط) في ايطاليا في ظل تيودوريك الكبير :

بدأ احتكاك الأوستروغوط بإيطاليا منذ مطلع القرن الخامس(٤٠٥ــ٤٠٦) فهاجمت جماعة منهم إيطاليا ، كما ذكرنا من قبل ، علما أن تلك الجماعة كانت موالية لامبراطورية الهون وتابعة لها ولم تتحرر هذه الجماعة من تلك التبعية إلا بعد وفاة عاهل الهون آتيلا سنة ٤٣٥ فغدا أفرادها أحراراً وأظهروا خلال عدد من السنين احتراما تاما لحقوق الامبراطورية التي وافقت على أن يعيشوا في ربوعها **كأحلاف** محددة لهم منطقة لسكناهم شمالي ولاية بانونيا (في المنطقة الغربية من هنغاريا الحالية) على الضفة اليمنى لنهر الدانوب حيث سكن قسم من شعبهم • وأسوة بباقي الحلفاء البرابرة المستقرين في عـدد من الولايات الرومانية فان القوط الشرقيين غـدوا مزعجين ومثيرين لقلق الرومان • وأخذوا يعيشون في المناطق المجاورة لهم فسادا ويغيرون عليها ويعملون فيها سلبا ونهبا وبلغت غاراتهم نهر الساف • ثم احتلوا موقع مدينة بلغراد وسواه • وقد سمح لهم الرومان حوالي سنة ٤٧٠ باحتلال ولاية ميزيا (بلغاريا الحالية) التي كان بنو عمهم القوط الغربيون قد جلوا عنها

منذ مطلع القرن الخامس . استأنف الأوستروغوط في الربع الأخير من القرن الخامس الزحف مجتازين جبـال البلقان حيث أغاروا على ولايات تساليا ومقدونية وتراقيا . وأخيراً هددوا القسطنطينية نفسها مجددا في سنة ٤٨٧ .

لجأ الامبراطور البيزنطي زينون الى نفس الطريقة التي كـان سلفه آركاديوس قد لجأ إليها سنة ٣٩٩ والذي نجح في جعل الزعيم القوطي الغربي آلاريك يزحف على غربي أوروبا بعد منحه اللقب الفخم وهو قائد الحرس الوطني الروماني « الميليشيا » الذي يجعل منه ولو في الظاهر قائدا رومانيا . منح زينون في هذه المرة اللقب نفسه الى ملك القوط الشرقيين تيودوريك كما أضاف اليه رتبة اجتماعية مغرية وهي لقب **بطريق روما** . وقد اقترح عليه مهاجمة ايطاليا واستردادها من ملك القوط الغربيين أودواكر وأن يستقر فيها وشعبـه متمسكا بالشروط التي نص عليها في معاهـدة « التحالف » التي تشدّه الى الامبراطورية بوصفه حليفا لها .

ونظرا الى أن العرض الامبراطوري مُغْرٍ فان تيودوريك وشعبه هلّلوا له وكبروا وهشّوا وبشّوا . وهكذا بدأ الشعب القوطي الشرقي بقضه وقضيضه وبنسائه وشبانه وأطفاله وأمتعته وعجلاته مسيرته بزحفه نحو غربي أوروبا وذلك في خريف ٤٨٨ فسلك هؤلاء صعداً طريق وادي نهر الساف الذي سيقودهم بعد سفر مضنٍ وشاقٍّ الى الشمال الشرقي من إيطاليا . وقد بدأ اشتباكهم بقوات أودواكر في ٢٢ آب ٤٨٩ فلم تتمكن من الصمود في وجههم وتراجعت الى ڤيرونا ثم الى راڤينا بينما دخل تيودوريك بقواته الى ميلانو وباڤيا ، وعبثا ما حاول أودواكر في العام القادم زحزحته عن المواقع التي احتلتها وعلى العكس فانه هزم مجدداً فانسحب الى راڤينا معتصما فيها طوال سنتين وأخيراً فانه استسلم الى تيودوريك في ٥ آذار ٤٩٣ . وقد دعاه تيودوريك بعد عشرة أيام الى وليمة ليوثق معه عرا تحالف وتفاهم دائمين ثم اغتاله غدراً أثناء الوليمة بضربة من سيفه وبذلك نجح تيودوريك وبتّ في مصير إيطاليا .

لم يكن مصرع أودواكر في جوهره أي الاستئثار بالحكم في ايطاليا

سوى ابدال ملك بربري بآخر فحلّ تيودوريك مكان أودواكر كزعيم لشعب حليف للإمبراطورية • وعلى الرغم من هذا الشبه فثمة فارق جذري عميق بين قوة مركزي الرئيسين القوطيين (الغربي المقتول والشرقي الذي حلّ محله) من حيث أن زعيم القيزيغوط المقتول ، أي أودواكر ، لم يحصل إطلاقاً على الاعتراف الأصولي بمنصبه من قبل امبراطور الامبراطورية الرومانية الذي صارت حاضرته القسطنطينية وليس راڤنا أو روما في إيطاليا • بينما تسلمّ تيودوريك حكم إيطاليا مزوّداً بتوكيل رسمي أو بقرار تعيين رسمي ممهور بخاتم الامبراطور مما أضفى على حكمه صبغة شرعية •

ومع ذلك فإن هذا الحاكم الجديد الشرعي لم يعد ليقنع بعد تسرّبه الى قلب الامبراطورية النابض بالدور المتواضع الذي يسند عادة الى زعيم شعب بربري حليف • أما وقد سمح له بالاستقرار في إيطاليا فليكن سيدها الفعلي• وعلى الرغم من كل ذلك فإن تيودوريك وبشيء من الحذر يعزى الى سداد رأيه ورجاحة عقله مارس حكم إيطاليا بصفته نائبا عن السلطة الامبراطورية مطالبا ولا شك في ذلك باللقب الذي أصبح من حقه وهو **((قائد الميليشيا))** أي الحرس الوطني • ولم ير الامبراطور نفسه مفراً من الاعتراف بالامر الواقع وذلك سنة ٤٩٧ • وكانت خطة حكيمة لجأ إليها الامبراطور من أجل الحفاظ على حقوقه في المستقبل على إيطاليا • فبفضل الحلّ الذي لجأ إليه الامبراطور زينون ستبقى إيطاليا معتبرة كجزء أصلي من الامبراطورية الرومانية (علماً أن هذا التعبير صار مرادفاً وبكل معنى الكلمة لتعبير : الامبراطورية البيزنطية) ، فالقوانين الصادرة في القسطنطينية سوف تُطَبّق في إيطاليا ، والسكة الامبراطورية المضروبة في تلك المدينة ستصرف في ايطاليا بسعرها الرسمي • ثمت فنحن نجد أن الشروط التي سيمارس تيودوريك بموجبها حكم إيطاليا هي أكثر ملاءمة لمصلحة الامبراطورية الرومانية نفسها من حيث أن تيودوريك نفسه لم يطلب الاستقلال انما مارس حكم ايطاليا كنائب عن الامبراطور أو كأحد ولاته •

هذا ويجب ألا نبالغ كثيرا في الاعتقاد أن تيودوريك سيلس قياده وبصورة تامة الى الامبراطور الروماني فيكون أطوع له من بنانه • فمع

إعلانه أنه لما يشرفه أن يحكم إيطاليا بوصفه موظفاً رومانيا ، وأنه أوسد المناصب الهامة والحساسة في حكومته الى رومانيين أقحاح أصلاء ، فإن سلوكه الفعلي في ممارسة الحكم كان بنفس النزعة الاستقلالية التي كـان بنو عمه ملوك الڤيزيغوط يمارسونها في الولايات الرومانية التي أخضعوها الى حكمهم . وعلى غرار سياستهم في الحكم فان سياسته كانت وقبـل كل شيء قومية (أي لمصلحة شعبه القوطي الشرقي قبل مصلحة الامبراطورية الرومانية أو الشعب الروماني) . ولشعوره أن مستقبل الدولة التي انتهى من إقامتها وشيكا يكمن ليس في اشتراكه أو إسهامه مع الامبراطور الروماني في حكمها إنما في تفاهمه واتفاقه مع باقي العواهل الجرمان من جيرانه ، فإنه تحقيقا منه لهذه الخطة المرسومة أبرم مع هؤلاء العواهل محالفات . كمـا بسط في الوقت نفسه سلطانه وسيطرته على جميع المناطق المجاورة لايطاليا ليس على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي فحسب حيث بقيت ومؤكداً جماعات من شعبه عند مغادرته ولاية ميزيا (بلغاريا) ، إنما أخضع الى حكمه الأقاليم الواقعة على السفوح الشمالية لجبال الآلب سواء في إقليم التيرول أم في إقليمي ستيريا وكارنثيا . أما في الغرب فقد استولى على إقليم پروڤانس جنوبي غاليا وكان من قبل تابعا لايطاليا . كما ساعد تيودوريك ملك القوط الغربيين ضد كلوڤيس ملك الفرنجة في غاليا وذلك في سنة ٥٠٨ وغـدا بمثابه حامٍ لملك القوط الغربيين الضعيف آلاريك/٢ كما صار عند وفاة هذا الأخير في سنة ٥١٠ بمثابة وصيٍّ وحام لابنه . كما خضعت شعوب جرمانية الى نفوذه سواء أتمّ ذلك تلقائياً بوضعها نفسها تحت حمايتـه أم قسراً ، ومن بين تلك الشعوب العناصر الآلامانية والثورنجية والهيرول . ويبدو أن الشعب الأوستروغوطي تمكن من زاوية أن عاهله مارس حكم إيطاليا بتفويض من الامبراطور الروماني وكنائب عن هذا الاخير ، من السيطرة على غربي أوربا وأن تغدو دولته أول وأقوى دولها . لكن على الرغم من تلك المظاهر فإن الامبراطـورية الرومانية الغربية لم تلبث أن فقدت تلك السيطرة التي مارستها عـلى تلك الشعوب البربرية ودخلت سيطرتها في زاوية النسيان .

استقرار عناصر الآنغلو ساكسون في بريطانيا[1] :

لم يعد ثمة أية هيبة أو سيطرة للامبراطورية الرومانية في الجزيرة البريطانية التي استمر الحكم الروماني فيها الى مطلع القرن الخامس . وبدأت آخر الحاميات الرومانية بمغادرة ثكناتها في إنكلترا منذ سنة ٤٠٧ . وغداة خلوّ البلاد من قوات مسلحة لتمارس أعباء الدفاع عنها ضد الغزاة فإنها سقطت وشيكا وغنيمة باردة بيد عناصر السكسون وجيرانهم المستقرين شمالي جرمانيا وهم عناصر الآنجيل Les Angles والجوت Les Jutes بعد أن كان الأسطول والقوات الرومانية قد نجحا وبمشقة زائدة وطوال نصف قرن في إقصائهم عن بريطانيا وفي الحيلولة دون اجتياحهم لها وسقوطها في أيديهم . وقد وهنت مقاومة السكان المحليين في سنة ٤٤١ في شرقي وجنوبي هذه البلاد ولم يعودوا قادرين على الصمود في وجه هؤلاء الغزاة الذين تضاعفت أعدادهم بانضمام قبائل أخرى قدمت لمساعدتهم من صلب القارة الأوروبية . وهكذا والى الغزاة الجدد غاراتهم وإيغالهم في وسط هذه الجزيرة مزحزحين العناصر البريطانية من طريقهم وملقين بها الى الشمال أو في أي اتجاه آخر أو مبيدينها . وقد هاجرت فئات من تلك العناصر البريطانية المغلوبة على أمرها والتي لم تستطع صدّ الغزاة الجدد الذين انقضوا كالسيل الجارف على بلادها الى منطقة آرموريكا (في الشمال الغربي من غاليا أي فرنسا الحالية) التي لم تلبث أن حملت بعيد فترة اسم العناصر البريطانية التي استقرت فيها بعد هجرتها إليها في مطلع القرن الخامس فصار هذا القسم من فرنسا الحالية يدعى ومنذئذ شبه جزيرة بريتانيا .

وخاض البريطانيون الذين بقوا في جزيرتهم نضالاً شاقاً ومريراً وطويلاً ضد غزاة جزيرتهم الجدد ، ولو أن المؤرخين المعاصرين لم يفيضوا في

---

(١) راجع من أجل ذلك لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات ، المجلد ٥ ، الفصل ٤ ، ص ٤٨ ــ ٤٩ ، وكذلك مجموعة غلوتز ، المجلد ١ ، ج ١ عن العصور الوسطى ، الفصل ٢ ، ص ٦٣ .

الحديث عن تفاصيله . هذا ولو أننا نعلم أن العناصر الجرمانية بدأت منذ مطلع القرن الخامس اجتياحها للجزيرة البريطانية وانقضاضها عليها . وبنتيجة المقاومة البطولية والباسلة التي أبداها السكان في وجهها فإنها لم تستطع وحتى منتصف القـرن السادس أن تسيطر على الأقاليم الجنوبيـة في تلك الجزيرة .



الفصل الرابع

القسم الاول : تنظيم الدول والمجتمعات في مطلع القرن السادس الميلادي

إننا نشير في بداية هذا الفصل الى أننا سوف لن نتعرض فيه الى ما له علاقة بتنظيم دولة الفرنجة ومجتمعها تاركين ذلك الى الفصل المخصص لدراسة تاريخ هذه الدولة وتطورها الحضاري منذ تأسيسها حتى قضاء الكارولنجيين عليهـا .

لم يبق من الحكم الروماني في غربي أوروبا في مطلع القرن السادس سوى ذكراه . وبعد أن أنجز رؤساء القبائل البربرية وبصـورة تدريجية احتلال أقاليم وولايات الامبراطورية الرومانية القديمة ، وبعد أن اجتازت هذه الولايات فترة أو عهد التجزئة وما نجم عنها من فوضى لا يمكن تجنبها أثناء القيام بانقلاب جذري سيعمّ جميع زوايا المجتمع ، أخذت تلك الولايات ورويداً رويداً تتكتل حول بعضها في عدد أقلّ من الدول ، تـوَخـِّيَ تـوَفـّر الانسجام بين أجزائها لتتمكن من الاستمرار في الحياة ، وأن يكون الطابع العام السائد على هذه الدول وبنسبة كبيرة من طراز جديد . أما بالنسبة الى المجتمع في تلك الدول الجديدة والذي كانت قد سيطرت عليه ومنذ حقب طويلة الحقوق والحضارة الرومانية فان هـذا المجتمع سـادته مجـدداً «**شريعة الغاب**» ؛ بمعنى أن العناصر الجرمانية التي استخلصت لنفسها معظم أقاليم وولايات الامبراطورية الرومانية سوّدت فيها نظمها وتقاليدها وأعرافها . وهكذا حدث تحوّل جذري عميق في المناطق التي كان الأثر الروماني يبدو فيها وفي جميع الحالات والنواحي موطدا وراسخاً . وعلى ذلك فان بربرية القبائل الجرمانية قد زرقت عالم غربي أوروبا بنسغ جديد وبدماء فتية

وبأنماط معيشة جديدة وبمفاهيم مختلفة كلياً عمـا كان سائداً في العهد الروماني في عالم البحر الابيض المتوسط .

وأورد الاستاذ لويس هالفين بصدد موقف الغزاة البرابرة (الجرمان) من المفاهيم والافكار الرومانية ما يلي : « وبدهي أن الجرمان في الوقت الذي أحرزوا فيه النصر على الرومان لم يكونوا جاهلين تماماً المفـاهيم والأفكار الرومانية ؛ كما وأن من المؤكد أيضاً أن الجرمان هؤلاء وحتى بعد إجهازهم النهائي على سيادة الامبراطورية الرومانية فانهم اقتبسوا أشياء كثيرة عن حضارتها ، تلك الاشياء التي سنتحدث عنها فيما بعد . ومع ذلك فإن العالم أجمع مدين الى هذه العناصر الجديدة بأشياء كثيرة جرمانية أصيلة. فبالنسبة الى تنظيم الـدول والتشريع والمجتمع فهذه المؤسسات كيّفوها وجعلوها ملائمة لنظم حياتهم وغدت شديدة الاختلاف عما كانت عليه حالها في ظل الامبراطورية الرومانية . هذا فضلاً عن أن الأثر الذي أحدثه هؤلاء الجرمان في الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيها بلغ من العمق والقوة حداً جعله أحياناً يستمر ــ ولا سيما في مجال التشريع ــ حتى نهـاية العصور الوسطى ، لا بل حتى الى ما بعد هذه الفترة » .

ثم تابع المؤلف كلامه عن أثر الجرمان في التنظيم السياسي والاجتماعي ، فقال ما نصه : « وسواء أكان الاثر الذي تركه هؤلاء الجرمان حسناً أم سيئاً ، فلا سبيل الى جحود أنه وفي أكثر من مجال واحد يتصف بطابع الديمومة والاستمرار »[1] .

وسنعمد الآن الى دراسة المنجزات الحضارية ذات الطابع الجرماني .

اولاً ــ الصفات العامة للتنظيمين السياسي والاداري :

إنه فيما عدا مملكة القوط الشرقيين ذات التنظيم الخاص والذي سنقوم بدراسته على حدة ، وباستثناء الممالك الآنغلوسكسونية التي نجهل نظمها تماماً في القرن الاول من تاريخها ، فإن جميع الدول الجرمانية ، التي تشكلت

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٥٠ ــ ٥١ .

بنتيجة غارات تلك الشعوب في القرن الخامس ، يشبه بعضها بعضاً وبنسبة كبيرة وتظهر وكأنها خليطة غريبة تنجت عن مزج النظم الرومانية بالفكر الجرماني ٠

ولوحظ أن نظام الحكم في جميع هذه الدول ملكي ٠ ثمت أفليس النظام الملكي هو التنظيم السياسي الذي تبنّاه الرومان منذ عدة قرون ؟ بيد أنه من الحق أن نعترف أن مفهوم الجرمان عن هذا النظام مختلف عن مفهوم رعايا الامبراطورية ٠ لقد كان العاهل بالنسبة الى الجرمان وبصورة خاصة مجردْ زعيم لقبائل يتمّ انتخابه بواسطة مقاتلتها وعليه أن يحسب في ممارسته للحكم لهم حساباً ٠ بيد أنه ومن جراء تطور مجرى الحوادث فإن زعيم تلك القبائل وبدرجة ما كان القسم الأعظم من شعبه يغدو مستقراً ، فإنه يتحول الى رئيس دولة ، وصارت سلطته وراثية كما صار يمارس حكماً مطلقاً أو شبه مطلق ٠ وعلى الرغم من ذلك فإن النظام الملكي الجديد في تلك الدول الجرمانية قد طلي ومن زوايا متعددة بطلاء جرماني ٠

وقد لفتت هذه الظاهرة نظر الأستاذين الألمانيين **هارتمان وباراكلاف** فتحدثا عنها في كتابهما : الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ذلك الكتاب الذي ترجم الى الانكليزية فنقله الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف (الاستاذ في جامعة الاسكندرية) الى العربية عن الترجمة الانكليزية وورد فيه بصدد ذلك وتحت عنوان : **الدول الجرمانية في الغرب ما نصه :** « للدول الجرمانية في الغرب كيانها الذي يختلف اختلافاً تاماً عن الدولة البيزنطية ، وهناك شكل واحد للدولة وهو نتاج غير ثابت لهجرات البرابرة ، ويتمثل هذا الشكل أصدق تمثيل في دولة القوط الشرقيين أيام تيودوريك (الذي حكم دولة القوط الشرقيين المستقرة في إيطاليا منذ سنة ٤٨٩ مدة ٣٣ سنة بين ٤٩٣ ـ ٥٢٦ والمعروف عنه أنه سمح للتقاليد الرومانية القديمة بالبقاء جنباً الى جنب مع نظم الجرمان المتبربرين إذ كانت الحضارة والانظمة الرومانية في نظرة بمثابة مثل أعلى يجب الاقتداء به[1] ـ) ٠ وقد احتفظت

---

(١) حاشية للدكتور جوزيف نسيم في أسفل الصفحة وهي نقلاً عن موسوعة تاريخ العالم لوليم لانجر ، ج/٢ ، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ ٠

كل من طبقة المحاربين الجرمان وطبقة المدنيين الرومان بنظامها الخاص بها . وبقيت البيروقراطية الرومانية على حالها وبدون تغيير . كما بقي القوط الشرقيون كجند مرتزقة ، ولم يؤثر وجودهم على الكيان الاجتماعي أو السياسي القائم . وقد أدى ذلك الى وجود نوع من الحياة يماثل طريقة الحياة عند الرومان . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أهملت الرواية المتعلقة بالبرابرة المستقرين في الغرب بوصفهم جنداً مرتزقاً في الامبراطورية. ولم يلبث أن اتخذ نظام الدولة شكلاً جديداً يختلف تماماً عما عرف من قبل. وفي هذه الحالة كنا نشاهد الشعب المنتصر ، كما هو الحال بالنسبة للمبارديين في إيطاليا وهو ينتزع أملاك الطبقة الرومانية الحاكمة ؛ أو كما فعل الفرنجة في غاليا وهم يتمثلون ببقايا الأرستقراطية القديمة صاحبة الارض . وفي كلا الحالين حل محل الدولة الرومانية غرس جديد »[1] .

وكان أفراد الأسرة المالكة لدى البورغونديين والفرنجة يعتبرون الدولة نفسها مجرد تركة أو إرث عادي وانها تبعاً لذلك يجب أن تخضع للقواعد العادية الموضوعة من أجل تقسيم التركات بمعنى أن تُقسَّمَ الى عدد من الأنصبة أو الحصص بقدر ما ترك العاهل الراحل من ورثة ذكور من صلبه (فروعه أي الأبناء والحفدة وأبنائهم والخ ..)[2] .

لم يكن العاهل الجرماني يمارس في الأصل سلطته إلا على أفراد شعبه بينما اعتبره سكان الولايات الرومانية مجرد قائد بربري وضع على رأس جيش من الحلفاء ؛ ولم يكن السكان المحليون مضطرين الى إطاعته إلا بالنسبة الى مصادرة الأراضي الزراعية أو المنازل أو الثكنات لإيواء قواته . غير أنه وبعد تدهور الحكومة الإمبراطورية في غربي أوروبا غدا هذا القائد البربري ، أو ذلك الملك الجرماني ، وحتى بالنسبة الى الرومانيين الأقحاح

---

(١) ل.م. هارتمان و ج باراكلاف : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى . الترجمة العربية بقلم الدكتور جوزيف نسيم يوسف سنة ١٩٦٦ ، الفصل ٣ ، ص ١٠٣ — ١٠٦ .

(٢) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٥١ .

الأصلاء أنفسهم السلطة الشرعية الوحيدة ، وصار تبعاً لذلك ملكاً بالنسبة إليهم بعد أن لم يكن سوى ملك قوات الاحتلال الجرماني . فذلك الزعيم القبلي البربري الذي استقر في رقعة الإمبراطورية الرومانية والذي رسخت جذور سلطته وتوسعت باطراد والذي لم يصطحب معه من جرمانيا أي تقليد حقيقي من تقاليد الحكم ، لم يكن بوسعه الامتناع عن الإفادة من النظم والموظفين والتقاليد الإدارية التي وجدها في البلاد التي صار يمارس حكمها. وقد أوردنا أعلاه ما ذكره كل من الأستاذين هارتمان وباراكلاف بصدد ذلك.

وهكذا أمكننا أن نلاحظ الشيء نفسه وبالنسبة الى جميع الممالك الجرمانية ، مع فارق بسيط وهو متعلق بتفاوت درجة تأثر هذه المملكة أو تلك بالطابع الروماني . إن نظام الحكم الجديد ليس ، ومن أوجه عديدة ، سوى استمرار لنظام الحكم الإمبراطوري القديم ، وانه يتقيد بنفس التقاليد ، هذا على الرغم من أن النظام الجديد يختلف عن القديم بالنسبة الى عدد من النقاط الجوهرية .

كما ذكر المؤرخون أنه على الرغم من جهلنا النسبي للنظم التي اتبعها الفاندال فإننا لاحظنا بقاء نفس التقسيم القديم الى ولايات ، ونفس التنظيم المالي القديم . لا بل فان العاهل البورغوندي نفسه كان يفيد من النصوص الرومانية الامبراطورية القديمة لترسيخ ودعم قواته . ومن المحتمل أن طابع الأثر الروماني في المملكة البورغوندية هو أوضح وأعمق مما هو عليه في باقي الدول الجرمانية : وقد استمرت الأعمال المنجزة تؤرّخ بسني حكم القناصل ، لا بل فإن البورغونديين جعلوا بعض مناصب الحكم عندهم وقفاً على الرعايا الرومانيي المولد ومع ذلك فثمة خلاف جوهري واحد على الأقل بين نظامي الحكم الروماني والبورغوندي حيث يدور النظام الإداري البورغوندي حول موظف رئيسي كبير هو « الكونت » الذي سيظهر دوره وأهميته بصورة أوضح لدى القوط الغربيين . فهو في الوقت نفسه قائد الجيش البربري الجرماني ، وموظف مدني وذلك بإهمال القاعدة الرئيسية الناصة على وجوب الفصل بين السلطات . تلك القاعدة التي كانت منذ عهد الإمبراطور الروماني

دڤلديانوس (حكم بين سنتي ٢٨٤ ـ ٣٠٥) مرعية الإجـراء والتطبيق في الإمبراطورية الرومانية[١] .

هـذا بينما لاحظ المؤرخون أن القوط الغربيين كانوا أقـل الشعوب الجرمانية اقتباساً عن الحضارة الرومانية مع أنهـم نقلوا عنهـا التقسيمات الإدارية ، وقد أورد هؤلاء المؤرخون بصدد ذلك قولهـم : « إن القوط الغربيين والذين نملك بالنسبة الى تاريخهم الإداري وثائق واضحة ولو أنها مع ذلك غير كافية فإن اقتباساتهم عن النظم الرومانية القديمة هي أقل عدداً . وحتـى بالنسبة الى هؤلاء الڤيزيغوط فان التقسيمات الادارية الرومانية القديمة بقيت تقريباً على حالها مع وجود اتجاه جديد وهو إحلال نظام حكم الولايات مكان نظام المدن شبه المستقلة ذي الجذور الإغريقية . أما فيما عدا ذلك فكان الاختلاف واضحاً وبجلاء . فلم نعد نجد ذلك التسلسل المعقد في مراتب الأعيان الذي كان يزيد من تعقيد أحوال القصر الإمبراطوري في كل من شِقّي الإمبراطورية الرومانية ، في روما وفي القسطنطينية ، كما لم يعد ثمة شيء مماثل للمناصب الرومانية القديمة . إن ادارة الولايات والإدارة المحلية لدى القوط الغربيين هما بين أيدي ممثلي السلطة العسكرية أي غوطية صرفة . لا بل فان دور الكونت في النظام الاداري الڤيزيغوطي والذي هو أوضح منه عند البورغونديين ، هو أساسي : وهو يجمع بين يديه مناصب متعددة ويمارسها لأنه وفي الوقت نفسه قائد للقوات المسلحة وممثل للسلطة المركزية في جميع بقاع المدينة الرومانية القديمة حيث بعث به الملك القوطي الغربي ليجبي حصيلة الضرائب من المكلفين ، وليكون مسؤولاً عن توطيد الأمن ، كما لم يمارس القضاء سواء بالنسبة الى القضايا المدنية أم بالنسبة الى القضايا الجنائية . لذلك ليس ثمة أوجه شبه عديدة بينه وبين المكلفين بممارسة أعباء إدارة الولايات في النظام الروماني القويم . وهناك موظفون

(١) المصدر عينه : المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٥٢ ـ ٥٣ . وراجع أيضا من أجل ذلك كتاب ل.ب موس الآنف الذكر (ولادة العصور الوسطى) الترجمة الفرنسية ، فصل/٣ ، ص ٨٨ حيث تحدث المؤلف عن منصب الكونت وباقي الموظفين .

أدنى مرتبة منه ويمكن أن نذكر بينهم « المقدّمين » في الجيش أو قواد ألف الجندي Millenarii و « الرؤساء » فيه أي قواد مائة الجندي Centanarii ويمارسون أدواراً واضحة جداً في نظام الادارة : وعلى غرار رئيسهم المباشر الكونت ، وهو الكونت الذي كانوا مرتبطين به ؛ فانهم يقومون وفي الوقت نفسه بمهام ضباط في الجيش القوطي ويمارسون مهام القضاء كما كانوا يديرون الأراضي أو القرى التي يقيم فيها جنودهم (سواء القرى المعدة لألف جندي أم تلك المعدة لمائة) ويقيم في تلك المساحات من الأرض أو القرى القوطية الافراد العاديون والجنود »[١] •

وعلى الرغم من رغبتنا في أن تكون تلك المعلومات عن الادارة القوطية الغربية أشد وضوحاً فانه بوسعنا أن نستنتج منها بعض المعالم الجديدة لنظامهم الاداري ذلك النظام الذي وإن بقي متعلقاً بالنظام الذي كان سائداً قبله فإنه وبصورة أكيدة مختلف عنه بصورة تامة الوضوح[٢] •

ثانياً ـ الصفات العامة للمجتمع الروماني في مستهل القرن السادس :

ليس بحوزة العلماء الحديثين سوى نماذج عن التشريعات البورغوندية أو التشريعات القوطية الغربية أو تشريعات الفرنجة البريين ، وإن تلك النماذج تعود الى نهاية القرن الخامس أو الى مطلع القرن السادس • ويبدو لنا المجتمع الروماني من خلال تلك القوانين أنه ما زال ومنذ استقرار الجرمان وبصورة نهائية على أراضي الامبراطورية الرومانية مجتمعاً قاسياً شديداً ، حيث نلاحظ أنه من الصعب أن نكبح فيه جماح القوة الشرسة ، ومع ذلك فإنه أمكن أن تنحني هذه القوة أمام متطلبات دولة هادئة ووديعة ويشبه نظامها في مجموعة النموذج الروماني •

---

(١) لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٥٣ .

(٢) لقد تركنا معالجة التنظيم السياسي والاداري عند قبائل الفرنجة الى الفصل الذي سنخصصه لتلك القبائل . هذا فضلا عن انه بنتيجة أوجه الشبه الكثيرة بالنسبة الى النظام القضائي ومبدأ شخصية القوانين فاننا كذلك تركنا دراسة ذلك الى ما بعد دراستنا للفرنجة .

ولم تفت الأستاذ ل.ب موس ملاحظة استمرار الجـرمانيين والرومان يعيش كل منهم في ذلك المجتمع الجديد الخليط خاضعاً الى قوانين شعبه الخاصة به فتحدث عنها في كتابه المذكور قائلاً ما يلي : « استمر كل من الجرمان والرومان خاضعاً الى قوانينه الخاصة • وقد عـُمِـدَ الى تخفيف محاذير تطبيق تلك الازدواجية الناجمة عن عـدم توحيد القوانين في ذلك المجتمع • واقتبست الدولتان الڤيزيغوطية والبورغوندية ، واللتان كانتا قد ترومنتا وبنسبة أعلى من باقي الدول الجرمانية ، أشياء كثيرة عن التشريع الروماني ؛ هذا بينما بقي القانون السالي (نسبة الى الفرنجة الساليين الذين سندرسهم) المختلف بوضوح عن القانون الروماني ، وبصورة عامة مطبقاً في المناطق التي سيطر عليها العنصر التيوتوني (الجرماني) •

« وقد انحصر المبدأ الأساسي في التشريع الجرماني في تسويد السلام في المجتمع ، وهو السلام الذي تمتعوا به في ظل عواهلهم (ودعوه بالسلام الملكي) ، بدلاً من الخصومات والمشاحنات الأسرية القديمة • وانطلاقاً من ذلك المبدأ فإنهم حدّدوا لكل فرد في ذلك المجتمع ثمناً أو قيمة le Wergild (ومعناها الحرفي ثمن الرجل أو قيمته) ، وكان ذلك الثمن يختلف تبـاعاً لسنّ وظروف ذلك الفرد • وتدفع تلك الفدية من قبل القـاتل الى ذوي ضحيته • كما حددوا ثمناً لكل اصبع من أصابع الشخص ووضعوا تعريفة لكل من أنواع الجروح • والقانون السالي هو بصورة خاصة دقيق للغاية في هذه الناحية • ومن قبيل ذلك فإن هذا القانون أشار بصورة خاصـة وبالنسبة الى سرقة الأنعام الى سنّ وصحة الدابّة المسروقة والى المكان الذي حدثت فيه السرقة ، والى الظروف التي رافقتها • وثمة تمييز واضح بين هذه التحديدات التي ورد ذكرها في القانون السالي وبين العقـوبات من حيث أن الهدف الأوحد لتلك التحديدات هو الحيلولة دون تحوّل الخصومات والمشاحنات بين الافراد أو العشائر الى منازعات أو حروب أهلية • وتبدو أهمية الأسرة كوحدة اجتماعية في مادة هامة من القانون السالي من حيث حرمانها الزوجات من الاشتراك في وراثة أملاك بعولتهن ؛ وتبعاً لذلك فإن

أرض المتوفى توزع أنصبة بين أولاده علماً أنه يجب أن تخرج ملكية تلك الأرض من الأسرة ... »[1] .

وعلى الرغم من دقة القوانين فقد لاحظ المؤرخون أن ذلك المجتمع لم يتخلص من عادة بدائية قديمة وهي **القـود** أي أن يقتصّ الانسان لنفسه وبيده ، وأن يمارس ثأره بيده . وأشار القانون الڤيزيغوطي ، وكان الأشد تأثراً بالقانون الروماني من بين سائر التشريعات الجرمانية ، الى حق الزوج في أن يقوم بنفسه ، وبدون أن تكون ثمة حاجة الى مراجعة القضاء أو مراجعة أية سلطة أخرى ، بالثأر لشرفه الذي دنسته زوجه الزانية مع من اتصل بها ، وبالطريقة التي يراها مناسبة من زوجه الخائنة ومن شريكها الآثم . كما اعترف التشريع نفسه بحق مماثل للزوجة التي خانها زوجها مع زوجة رجل آخـر فإن هذه الاخيرة الخائنة تُسَلـَّم الى الزوجة الشريفة لتطبق عليها العقوبة التي تراها ضرورية . كما أن القانون الڤيزيغوطي اعترف الى أقارب الضحية بحق إنزال العقاب الذي يرونه بمختطفي البنات والاولاد . وقد نصّ القانون على تسليم مرتكب هذه الجريمة إما الى والد أو الى والدة وإخوة الضحية . وفيما إن لم يكن للضحية المخطوفة أب أو أم أو إخوة فإن الجاني يُسَلـَّم الى أقاربها الأدنين الـذين يكون بوسعهم أن يقتلوه أو يبيعوه في سوق النخاسة هذا إن لم يقبلوا أن يتنازلوا عن حقهـم مقابل قبضهم التعويض المنصوص عنه في التشريع وهو دية الرجل أي (٣٠٠) وحدة نقدية .

واحتفظ القانون البورغوندي لذوي البنت التـي افترست بالحق في إنزال العقوبة التي يريدونها بالجاني غير القادر على دفع التعويض الذي نصّ عليه القانون . ويقوم الافراد في هذا المجتمع وعلى الغالب بالاقتصاص لأنفسهم ليثأروا وبيدهم للأضرار التي ألحقهـا الآخرون بهم . لذلك فإن القوانين المعمول بها في هذا المجتمع إما أن تسمح للأفراد الذين لحق بهم الضرر على يد الآخرين ، بالثأر لأنفسهم وبأيديهم أو باللجوء الى طرق الملاحقة القضائية الأصولية أمام المحاكم . وقد حدّد المُشَرّع مسبقاً وبدقة مبلغ

---

(١) ل.ب. موس ، المرجع المذكور ، الفصل/٣ ، ص ٨٩ .

التعويضات النقدية ((**الفدية**)) الى الطرف الذي ألحق به الضرر أو الأذى. وتسقط هذه التعويضات حق ذوي الضحايا أو الذين تعرضوا بأشخاصهم الى الأذى بالثأر[1] .

كما أشار الأستاذ موس الى ما نستطيع الحصول عليه من اختلاف قيمة أو مقدار الفدية المحددة بالنسبة الى كل فرد في المجتمع من معلومات بالغة الأهمية حول تنظيم مجتمع الفرنجة ؛ فقال ما نصه : ((كانت فدية أحد أفراد حاشية الملك ستمائة وحدة نقدية أي ثلاثة أضعاف فدية الرجل المحارب من فئة الأحرار . كما حددت فدية الفرد الروماني ، ومهما كانت طبقته الاجتماعية ، بنصف فدية الفرد الحر من الفرنجة ؛ بمعنى أن فدية الروماني معادلة فقط لفدية أحد الفرنجة من الطبقة الوسطى ، أي الطبقة التي كان أفرادها بين طبقة الأحرار وطبقة العبيد . كما كانت فدية الصنّاع المهرة الحاذقين من غير الأحرار أعلى من فدية الصنّاع العاديين . وتشير المكانة التي يشغلها الرومان في هذا المجتمع الى تدنّي قيمة الفرد فيه . هذا ولو أنه كان بوسع الرومان رفع تلك القيمة بالانخراط في خدمة ملك الفرنجة تلك الوسيلة التي لجأ إليها كثيرون من الغاليين والرومان))[2].

ثالثاً ــ مجتمع القوط الغربيين : انتشرت الحضارة في هذا المجتمع بنسبة أعلى من باقي المجتمعات الجرمانية.ومع أن ما بقي من أقدم قوانين القوط الغربيين يحمل طابعاً جرمانياً أصيلاً فمما لا يرقى الشك إليه أن ذلك الطابع الجرماني الاصيل قد طلي بطلاء روماني واضح ؛ فكثير من مواد القوانين القوطية الغربية مقتبس عن اجتهادات فقهاء القانون الروماني.ثمت فغالبية قواعد القانون التجاري منقولة عن شبيهاتها في القانون الروماني .... كما اقتبس القانون الڤيزيغوطي عن القانون الروماني فكرة التدرّج في العقوبة وفق الطبقة الاجتماعية ، واللجوء الكثير الى تطبيق العقوبة الجسمانية كالجلد .

---

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب الاستاذ لويس هالفين (في مجموعة الشعوب والحضارات) ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٦٠ ــ ٦٢ .

(٢) ل.ب. موس ؛ المرجع المذكور ، الفصل/٣ ، ص/٩٠ .

وأسوة بقانون الفرنجة ، الذي أوردنا أعلاه ما ذكره عنه الاستاذ موس ، فإن القانون الفيزيغوطي لا يكتفي بالتمييز بين الأحرار وغير الأحرار ، مما كان معترفاً به وعلى النطاق العالمي ، إنما كثيراً ما لجأ ، وذلك على غرار القانون الروماني نفسه أيضاً ، الى إنزال العقوبات في حالاتمتعددة وبصورة غير متساوية بالأفراد الأحرار أنفسهم وذلك حسب انتمائهم الى الطبقة العليا في المجتمع أو الى الطبقات الدنيا فيه . ولئن غلب على العقوبات التي ستنزل بأفراد الطبقات العليا أن تكون غرامات نقدية فالصفة الغالبة على العقوبات التي ستطبق على أفراد الطبقات الدنيا هي الجلد الأشد قسوة أو عقوبات جسمانية أخرى .

كما ذكر الاستاذ هالفين أن المشرّع الفيزيغوطي : « حدّد عقوبة الموت (الإعدام) لعدد كبير نسبياً من الجرائم . ولم تعد عقوبة النفي أو عقوبة الأشغال الشاقة تُنزل بأحد ، أما بالنسبة الى عقوبة النفي والإبعاد فلم تعد تُطبَّق إلا في حالات نادرة جداً . وبمقابل ذلك فقد شاعت عقوبة الجلد بالسوط أو الضرب بالعصا . ولم تعد عقوبة الجلد العلني في الساحات العامة تنزل بالعبيد وحدهم إنما نلاحظ أن الرجال الأحرار من الطبقة الدنيا ، وأحياناً أيضاً من أسمى الطبقات الاجتماعية يتعرضون إن ارتكبوا جرماً ما أو مخالفة ما الى أربعين أو خمسين ، وإلى مائة أو مائتي جلدة مع عدم إعفائهم من دفع الغرامة أو الفدية ، وحُدّدت عقوبة المزَوِّر ، وكحدٍّ أقصى ، بقطع يده التي زوّرت الحقيقة »[1] .

وقصارى القول أنه على الرغم من الحالات الجرمانية الخاصة والمتعددة التي احتفظ بها في القانون الفيزيغوطي فإن المجتمع الفيزيغوطي نقل كثيراً عن البيئة الرومانية التي كان قد عاش بين ظهرانيها طويلاً .

رابعاً ـ مجتمع البورغونديين : لا يمكن تعميم ما أوردناه عن المجتمع الفيزيغوطي على المجتمع البورغوندي الذي على الرغم من نقله بعض الأشياء

---

(١) لويس هالفين ، المرجع المذكور ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، حتى ٦٧ .

عن القانون الروماني فإنه بصورة عامة نأى كثيراً عن مجتمع الرومان • ومن قبيل ذلك أنه لم يُقرّ فكرة التمييز الطبقي في المجتمع بالنسبة الى تطبيق العقوبة على الجاني إلا بالنسبة الى تمييز المواطنين الأحرار عن العبيد •

وطبيعي ، ووفق العرف القديم ، أن العبيد كانوا يعاملون كأفراد أحط مستوى ؛ لا بل فلربما شُبّهوا بالحيوانات أو البهائم حمولة الأثقال • ولم تكن عقوبتهم قائمة على مصادرة ثرواتهم لأنهم في الواقع لم يكونوا يملكون شيئاً ما ، إنما كانت العقوبة تنزل على أجسادهم • وهكذا فإن التشريع البورغوندي متفق في موقفه من العبيد مع التشريعات الجرمانية الأخرى ومنسجم مع التشريع الروماني نفسه بالنسبة الى هذه القضية في الاقتصار في العقوبات المنزلة بالعبيد على السوط والعصا • علماً أن تشريع الفرنجة زاد على تلك العقوبات المنزلة بالعبيد عقوبة الخصي التي يمكن للعبد الافتداء منها بدفع غرامة مالية كبيرة • كما نصَّ هذا التشريع نفسه أيضاً على إنزال عقوبة الإعدام بالعبد في بعض الحالات •

وقلّما لجأ المُشَرِّع البورغوندي بالنسبة الى الرجال الأحرار الى العقوبات الجسدية التي غدت الركن الأساسي في التشريع الروماني • أما العقوبات الوحيدة المنزلة ببورغوندي أو ببورغوندية فهي :

١ ــ أن تُستَرَقّ المرأة الحرة إن ثبت زواجها من أحد أقاربها المُحَرَّمين عليها ، كما تسترقّ البنت التي اتصلت بعبد (إن لم يطلب ذووها إنزال عقوبة الإعدام بها) • وتسترقّ أيضاً الزوجة التي اشتركت مع زوجها في سرقة جياد أو ثيران •

٢ ــ قطع اليد لتزوير أو تدمير العلامات أو الحجارة المحدّدة لملكية ما ، ويمكن للمحكوم بهذه العقوبة افتداء نفسه بالمال •

٣ ــ فرض عقوبة الإعدام بالنسبة الى بعض الحالات الخطرة ، كالقتل المُتعَمَّد ، والسرقة بحمل السلاح والتي تتمّ مع تحطيم الغال أو الرتاج ، وثبوت قبض القاضي الرشوة من أحد المتقاضين أمامه (وهي جريمة رئيسية

بالنسبة الى البورغوندي) ، وسرقة عبد ، وحتى جواد أو ثور أو بقرة •
أما بالنسبة الى جميع الحالات الاخرى فبوسع البورغوندي أن يتخلّص من العقوبة بدفع غرامة نقدية تتراوح بين ثلاث أو ست أو اثنتي عشرة وحدة نقدية ، وتضاف هذه الغرامة الى الفدية والمصالحة مع الخصم[1] •

ولاحظ المؤرخون أن دور المُشَرِّع الروماني بالنسبة الى القانون الخاص هو أشد وضوحاً من دور المشرِّع البورغوندي وبقي المجتمع البورغوندي محتفظاً بذاتيته وبهويته • ويسترعي فيه مركز الأولاد الذكور في الأسرة الانتباه وذلك بعكس الحال بالنسبة الى القانون الروماني المساوي بين جميع الأولاد ، من الجنسين ، في الميراث • هذا في الوقت الذي لايسمح فيه التشريع البورغوندي الى البنات بالاشتراك في اقتسام تركة أبيهن إلا إن لم يُخَلِّف أبوهن مولوداً ذكراً • ومن حيث المبدأ لا تشترك البنات إلا في وراثة ثياب وحلي أمهاتهن • أما بالنسبة الى حياة الأسرة فإن دورهن فيها ثانوي • هذا بينما يقوم الأبناء وعلى العكس من ذلك بدور فعّال فيها • وكثيراً ما تحدّث التشريع البورغوندي عن التقسيم الذي يتمّ مقدماً ولمصلحتهم لأملاك الأسرة وحتى في حياة الاب الذي لا يبقى له في هذه الحال إلا ما يقيم أوده ويقيه الفاقة والعوز •

خامساً ــ الدور التاريخي الذي قامت به جرمانيا : لقد ذكروا أن رصيد جرمانيا كان متوسط الأهمية من حيث أن الجرمان دمّروا أكثر من أن يشيّدوا أو يبنوا • بيد أنه فيما اذا تصورنا دورهم من وجهة نظر تاريخية محاولين تقدير أبعاد نتائج تدخّلهم وليس تقويمها بإطلاق أحكام قيم عليها ، فلا يسعنا سوى الاعتراف بأن دورهم كان رئيسياً •

ومع ذلك فقد استدرك الأستاذ هالفين على ذلك قوله : « يجب علينا الابتعاد عن المبالغة ومجاراة الذين كثيراً ما قالوا ، وذلك مقاومة منهم لبعض النظريات ، أن حريات العالم قد خرجت أو ولدت قديماً في غابات جرمانيا ،

---

(١) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٦٧ ــ ٦٩ •

وأن أولئك الغزاة البرابرة لم يتعرضوا بسوء الى الإنجازات الرومانية : علماً أنه لم يكن التنظيم السياسي ولا التنظيم الاجتماعي لدول الجرمان في غربي أوروبا لـيُذَكّرا إطلاقاً وبالنسبة الى خطوطهما العامة بتنظيمي الإمبراطورية الرومانية السياسي والاجتماعي . ومما لا يمكن جحوده ، وذلك وفق نظرية تاريخية قَلَّ أن نجد لها شذوذاً ، وهي أن الشعوب المنتصرة إن كانت أدنى في مستواها الحضاري من مستوى الشعوب التي قُهرت وغُلِبت على أمرها فانها تقتبس الشيء الكثير ، وذلك وفقما تسمح به الظروف أو حسبما تسمح به درجة انسجامها مع المجتمع الروماني . ومع ذلك فمن المفيد أن نلاحظ أن من بين جميع الشعوب الجرمانية التي استقرت في غربي أوروبا تمكّن شعب الفرنجة وحده وبنجاح من مقاومة تسرُّب الأفكار الرومانية الى صفوفه ومجتمعه . وسيقوم هذا الشعب في المستقبل بدور طليعي بالغ الاهمية . وبينما انهارت وتباعاً شعوب البورغونديين والقوط الغربيين والشرقيين فان شعب الفرنجة وحده هو الذي احتفظ بشخصيته واحتفظ بهويته وأصالته ؛ وأن هذا الشعب وحده هو الذي أمكنه البقاء عبر التاريخ » (١) .

القسم الثاني

مملكة القوط الشرقيين أو الاوستروغوط

اعتبرت مملكة القوط الشرقيين التي أسست في إيطاليا في نهاية القرن الخامس ومطلع السادس نسيج وحدها لانها اختلفت عن بقية الدول التي أسسها البرابرة الجرمان على أنقاض الإمبراطورية الرومانية في غربي أوروبا . ولئن حرصت باقي دول الجرمان في كل من غاليا وإسبانيا وشمالي أفريقيا على الإطاحة بتلك الإمبراطورية والاجهاز عليها وأنها لم تهتم بسوى الاقتباس عن نظمها السياسية والاقتصادية ونقل تنظيمها ، لكن هذه الدول الجرمانية

---

(١) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٥ ، ص ٧٦ .

بقيت وَفيّةً لأهدافها القومية وأن يبقى الطابع الجرماني القومي مسيطراً على الدول التي أنشئت في تلك البقاع بمعنى بقاء دول الفرنجة والقوط الغربيين والفاندال محتفظة بذاتيتها وهويتها الجرمانية أي بأصالتها • أما دولة القوط الشرقيين في ايطاليا فهي وإن شاركت نظيراتها من الدول الجرمانية الاخرى في أنها أسست على يد غزاة مجتاحين فانها اختلفت عنها في الوقت نفسه في أن مؤسسيها بذلوا قصارى طاقاتهم للحفاظ على تراث روما القديم • وعلى الرغم من أن مؤسس هذه الدولة ، وهو تيودوريك كان كباقي أترابه من مؤسسي الدول الجرمانية الاخرى جرمانياً قحّاً أي بربرياً وفق التعبير الروماني المعاصر ، فإنه اختلف عن باقي زملائه الذين كانوا بمثابة معاول دمرت صرح البناء الروماني السامق في المناطق التي استقروا فيها ليقيموا على أنقاضه دولهم القوية ، لعقده العزم على ترميم صرح ذلك البناء الامبراطوري الروماني الذي تداعت أركانه وغدا وشيك الانهيار •

لاحظ الأساتذة فرديناند لوط وبفيستير وغانشوف حرص عاهل هذه الدولة أودواكر على الحفاظ على النظم والحضارة والتقاليد الرومانية وذلك غداة تخلّصه من إمبراطور روما • إنه بعث الى امبراطور القسطنطينية يعرض ولاءه وأنه سيبقى في حكم روما نائباً عنه وبحسب قوله : الإمبراطورية الرومانية لم تعد بحاجة الى إمبراطورين • فقال هؤلاء الأساتذة ما معناه : « وعندما عمد الى توزيع ثلث أراضي أملاك الدولة في وادي نهر البو على الجنود استأنفت الحياة مجراها الطبيعي الذي توقّف خلال حقبة وجيزة من جراء وفاة أوريستوس (الوصي على إيطاليا ووالد رومولوس آخر أباطرة روما) وسقوط رومولوس • وبقي مجلس الشيوخ الروماني متمسكاً بموقفه الحيادي • وقد انضم كثيرون من سراة الرومان الى نظام أودواكر الأوبتيروغوطي وأيّدوه •••• وبقي شعب روما كما كان من قبل معالاً على نفقة السلطات الحاكمة التي كانت في الوقت نفسه تقيم له الاعياد والمباهج والافراح لتسليته • كما بقيت مدارس النحو والفصاحة مفتوحة ووالت النهضة الفكرية الرومانية طريقها متقيدة بالأطر القديمة •

« ولم تتعرض الكنيسة الكاثوليكية في روما الى أي اضطهاد في ظل العهد الجديد على الرغم من أن رئيس الهيئة الحاكمة وشعبه كانوا من الآريوسيين (أي الأرثوذكس) ... »[1] .

أولاً — التنظيم السياسي والاداري لدولة القوط الشرقيين :

كان تنظيم هذين المجالين وعلى يد تيودوريك هو الأشد قرباً ومحاكاة للنظام الروماني القديم . وقد استمرت الحال كما كانت عليه من قبل حيث كان الأباطرة الرومان الغربيون يديرون ويوجّهون شؤون إمبراطوريتهم من عاصمتهم (رافينا) الجديدة . ومن المحتمل أن الادارة في ظل هذا العاهل الأوستروغوطي الجديد جعلت توحي بأنه ليس ثمة من تغيير جديد سوى ما يتعلق بشخص العاهل نفسه لأنه غدا جرمانياً بينما كان زميله القديم رومانياً. وبقي العاهل الأوستروغوطي الجديد محاطاً بنفس تلك المجموعة المتسلسلة من كبار الأعيان الموظفين الذين غصّ بهم بلاط الأباطرة الرومان . وبقي كذلك مجلس الشيوخ الروماني فلم يلغه تيودوريك ، ولطالما وجّه إليه بلاغات وقرارات بأسلوب فخم وجزل محاكياً فيه الاسلوب البلاغي الروماني وعباراته الطنانة وألفاظه الجزلة الفخمة . كما احتفظ هذا العاهل القوطي الشرقي بنفس هيئة كبار الموظفين الذين كانوا يمارسون أعباء الإدارة في عهد الأباطرة الرومان وبنفس طرق الحكم وبنفس الموظفين المدنيين ، وبقي حكم ولايات الدولة ممارساً من قبل ولاة مصنّفين ، كما كانت حالهم في ظل الإمبراطورية ، في ثلاث زمر . وقل الأمر نفسه بالنسبة الى النظام البلدي من حيث تقسيم المدينة الى وحدات . وبقي النظام المالي على حاله كما بقيت السكة نفسها .

وصفوة القول أن تيودوريك آلى على نفسه أن يحترم التراث الروماني القديم وأن يعيده الى حيز التطبيق والعمل في بعض الزوايا والنواحي . وقد وضح منهاج تيودوريك من رسالة بعث بها الى آناستازيوس الإمبراطور

(١) مجموعة غلوتز المذكورة عن تاريخ العصور الوسطى ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل /٤ ، ص ١٠١ — ١٠٢ .

الروماني في القسطنطينيـة : « من أن مملكتنـا هي تقليـد ومحـاكاة لإمبراطوريتكم » • وكانت هـذه المحاكاة والتقليد لكل ما هو روماني مقصودين في حدّ ذاتهما من حيث أن تيودوريك نفسه كان قد قرر ومنذ البداية أن يحتفظ لدولته بذلك الطابع الروماني معتقداً بأن محاكاة الرومان ستكون أحد الأسباب التي ستؤدي الى رفعة وازدهار شعبه الأوستروغوطي من دون باقي الشعوب الجرمانية • وهذا ما وضح لنـا كذلك من رسالة تيودوريك الى ممثله أو عامله لدى البـلاط البيزنطي حيث أورد فيهـا : « سيتفوّق الشعب القوطي الشرقي على نظرائه من باقي الشعوب الجرمانية ما تمكن من محاكاة نظم الحكم الموضوعة من قبل الحكومة الإمبراطورية »[1] •

ولتكون تلك المحاكاة تامة لم يتردد هذا العاهل إطلاقا في انتقاء أفراد هيئة موظفي دولته من بين الأوساط الرومانية فحسب • ومن قبيل ذلك فإن ساعده الأيمن في تسيير دفّة الحكم هو كاسّيدور الروماني وهو ابن رئيس الشؤون القضائية في البلاط الروماني ، وقـد شغل كاسّيدور هذا تباعا مناصب رئاسة الشؤون المالية ، ومديرية المراسم ومديرية الشؤون القضائية في دولة الأوستروغوط بعد وفاة تيودوريك نفسه • كما استعان هذا الأخير بموظفين رومانيين آخرين واحتفظ بألقاب القناصل والبطارقة وغيرها من ألقاب التمجيد والتعظيم في العهد الروماني • ووفق الأسس والتقاليد التي كانت متبعة في العهد الروماني منذ عهد دقلديانوس فقد استمر التفريق بين المناصب المدنية والمناصب العسكرية الى درجة أن الانخراط في الجيش غدا وقفا على البرابرة المؤلفين لمجموع القوات الاوستروغوطية وأن الضباط الاوستروغوط هم الذين بوسعهم وتبعا لذلك تسلّم المناصب القيادية فيه • وكثيرا ماردّد تيودوريك نفسه هذا القول : « ان الرومان سيقومون بأعبـاء المناصب السلمية أو المدنية بينما يسهر القوط على حمايتهم بواسطة السلاح» •

وحمل رئيس الضباط القوط لقب « **الكونت** » الذي كان يقوم بالمهـام

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات ، المجلد/٥ ، الفصل/٦ ، ص ٧٩ •

العسكرية الصرفة والمهام القضائية التي يمارسها بإزاء مرؤوسيه من حيث أن الضباط القوط كانوا دائما يمارسون سلطات قضائية على جنودهم وعلى من دونهم رتبة من الضباط أنفسهم • بيد أن هذا الحاكم العسكري (الكونت) لا يملك صلاحية النظر أو الفصل بسوى القضايا التي يكون فيها الجنود القوط أو أسرهم أطرافاً : أما ما يتعلق بالدعاوى المثارة بين الرعايا الرومان أنفسهم فكان يفصل فيها القضاة الرومانيون المدنيون • وبالنسبة الى الدعاوى الخليطة (أي التي يكون الأطراف فيها قوطاً وروماناً) فانه من غير المسموح للمحكمة العسكرية التي يرأسها الكونت القوطي أن تبتّ فيها إلا ان انضم مساعد روماني الى هيئة قضاتها •

وقد أمكننا هذا العرض من ملاحظة أنه بالنسبة الى تنظيمي المملكة الأوستروغوطية الإداري والسياسي روعيت نفس الأهداف والمبادىء التي كانت سارية في فترة الحكم الامبراطوري الروماني • ونشدانا من رئيس الدولة القوطية الشرقية هذه أن يحقق ذلك الهدف وتلك المبادىء فانه حدّد وضيّق نطاق عمل وصلاحيات الموظفين القوط أنفسهم علماً أنهم المثلون الطبيعيون لشعبه •

ثانيا ــ التشريع : وكان ذلك الحرص على « رومنة » نظم ومؤسسات الدولة القوطية الشرقية أوضح ما يكون في المجال التشريعي • وفعلا فان المملكة الأوستروغوطية كانت الوحيدة من بين جميع الدول الجرمانية الاخرى التي ألغيت منها وبصورة أصولية وجذرية التشريعات البربرية (الجرمانية) على يد تيودوريك نفسه وذلك لحساب التشريع الروماني الذي بلغت سيطرته حداً جعلنا نبقى في جهل مطبق لجميع ما كان يعالجه القانون الأوستروغوطي القديم أو البدائي من قضايا أو نواح • وبمقابل ذلك فإن المؤرخين عثروا على قانون أصدره تيودوريك نفسه وفي سنة ٥٠٠ وكان مطبقاً وفي نفس الوقت على رعاياه القوط والرومان • وهذا القانون بكامله عبارة عن نص منقول حرفياً عن القانون الروماني ويذكرنا بالحلول والشروح التي أدمجت وحشرت من قبل فقهاء القانون الرومان في قانون تاوداسيوس نفسه ، أو في

كتاب العقوبات لبولس . وعلى العموم فإن القضايا التي أثيرت والتي أوردها كبير موظفي تيودوريك القضائيين وهو كاسّيدور تثبت أن القانون الروماني قد غدا وفي حيّز الواقع ، وحتى قبل نهاية عهد تيودوريك نفسه ، متمتعاً بمركز الصدارة وأنه غدا المرجع الوحيد في هذا المضمار[1] .

أما بالنسبة الى تطبيق القوانين الخاصة بكل شعب من الشعوب التي تعيش في رقعة مملكة الأوستروغوط مما كان يدعى « شخصية القوانين » ذلك العمل الذي اعتاده رؤساء باقي الدول الجرمانية فإن هذا التطبيق لم يلجأ إليه عواهل القوط الشرقيين ، لا بل كانوا يكرهونه . وهذا ما يتضح لنا من الرسالة التي بعث بها عاهل هؤلاء القوط في سنة ٥١٠ الى الكونت « قائد الجيش » وقد ورد فيها : « إننا لا نسمح إطلاقاً أن يطبق تشريعان مختلفان على القوط والرومان وذلك في الوقت الـذي نحيطهم فيه جميعاً بنفس العطف ونوليهم نفس الرعاية »[2] .

وكانت فكرة انصهار الشعبين الروماني والقوطي عـزيزة عـلى قلب تيودوريك الى درجة أنه غالباً ما ردّدها في رسائل أو توجيهات أخرى الى كبار موظفيه من رومان وقوط . كمـا طبّق خليفته **آتالاريك** Athalaric نفس الفكرة بمجرد استلامه الحكم بعده حيث أذاع على الشعب الروماني في سنة ٥٢٦ بلاغاً بمناسبة تولّيه الحكم جاء فيه : « ان قواعد القانون في دولتنا هي واحـدة بالنسبة الى الجميع سواء أكانوا قوطاً أم روماناً وان الخلاف الوحيد بينهم هو في أن القوط يمارسون الأعباء العسكرية وذلك خدمة للمصلحة العامة من أجل أن يتيحوا لكم أيها الرومان التمتّع وبسلام بحسنات ومنجزات الحضارة الرومانية » .

ثالثا ـ الحضارة في إيطاليا في ظل دولة الأوستروغوط : كانت الفـكرة العظمى التي أخذت على تيودوريك تفكيره هي صيانة الحضارة الرومانية من الدمار . وأدى بقاء هذا العاهل كرهينة وطيـلة عشر سنين من شبابه في

(١) المصدر عينه ، المجلد ٥ ، الفصل ٦ ص ٨٠ ـ ٨١ .
(٢) المصدر عينه ، المجلد ٥ الفصل ٦ ، ص ٨١ .

مدينة القسطنطينية الى احتفاظه وحتى وفاته بالانطباعات العظيمة التي تركها هذا المقام والاحتكاك المستمر بالفن والثقافة القديمين • ومع أنه غدا ذوّاقة لمنجزات هذا الفن الرفيع لكنه كان أُمّياً أو شبهه وأنه لم يكن بوسعه توقيع اسمه إلا إن حُدّدت له الحروف بواسطة ثقوب ملونة تترك أثرها على الورقة التي يراد أن يمهرها هذا العاهل بتوقيعه • واعتبر الجهد الذي بذله هـذا العاهل البربري للحفاظ على التراث الفني الروماني سليماً ، كما اعتبر عمله لإعادة تلك التحف الى حالتها الأصلية بعد ترميمها وإصلاحها عملاً عظيماً للغاية • وعند مقامه في روما طيلة فترة من سنة ٥٠٠ وضع مشروعاً من أجل إصلاح الحمامات العامة ، وقنوات المياه والمجاري بنفس العناية التي أحاط بها ترميم القصور والتماثيل • وقد عين رائزاً (مهندساً معماراً) خاصاً وكلفه بمهمة مراقبة عملية ترميم وصيانة ذلك التراث الفني • كما أولى هذا الملك القوطي مسرح مدينة پومپيه ، ومُدَرَّج الكوليزيه في روما وأسوار هذه المدينة عنايته ورعايته •

وبالنسبة الى مناطق أخرى فإن تيودوريك لم يكتف بترميم وإصلاح وصيانة المنجزات الفنية القديمة إنما أمر ببناء القصور والحمامات والمدرجات في مدن باڤيا وڤيرونا وتيراسينه وسپوليت وراڤينا ، كما اهتم ببناء الكنائس لينافس بها مدينة القسطنطينية • وهكذا فإنه شيّد كنيسة كبرى أو قصراً للعدل أطلق عليها اسم كنيسة هرقل ، وقصراً ملكياً هو محاكاة جزئية للقصر الذي كان الامبراطور قسطنطين قد شيّده على ضفاف البوسفور ، كما بنى خمس كنائس أخرى • وقد تدمر قسم من هذه الأوابد الشهيرة أو رُمِّمت فتغير شكلها الاصلي • وعلى الرغم من ذلك فما بقي منها هو عظيم جداً • ومع أن ذوق الفنانين الذين عهد إليهم بإنجاز هذه الأوابد لم يكن دائماً سليماً فإنها تدلنا على تَعَلُّقِ هذا العاهل القوطي بالفن • ثمت فإن الانطباع الذي تتركه في النفس هو كبير جداً وجدير بفناني بيزنطة الكبار الذين حرص زملاؤهم ، الذين أنجزوا الأعمال التي طلبها منهم تيودوريك ، على محاكاتهم ومنافستهم •

ومن المؤكد أن هذا الفن أو منجزاته لم تكن أصيلة ، وكل شيء في الأوابد المشيّدة في عهد تيودوريك من صفوف الأعمدة وتيجانهـا وتغطية بعض الاقسام بالمرمر ومنجزات الفسيفساء المتألقة عبـارة عن تقليد ونقـل لمنجزات من الفن البيزنطي أو لروائع كانت قد أنجزت من قبل في مدينـة راڤينا نفسها في عهد **غالاّ بلاسيديا** أخت الإمبراطور هونوريوس . إن فناني تيودوريك لم يهتموا بمسألة الأصالة من حيث أن الشيء الهام بالنسبة الى هذا العاهل هو تأكيده ، في مجال الفن كمـا في غيره من المجالات ، على ديمومة واستمرار التقاليد الرومانية[1] .

وذلكم أيضاً كان هدفه الأسمى في ميدان الانتاج الفكري . فالشخص الذي أولاه هذا العاهل ثقته والـذي كلفه بالتعبير ، وبواسطة الكتابة عن رغباته ، كان ذا ثقافة رفيعة وهو كاسّيدور نفسه . وقد برهن هذا الاخير على أنه أدى وبأمانة تامة المهمة الملقاة على عاتقه . هـذا ولو أن أسلوب كاسّيدور الكتابي كان أقل قيمة من ثقافته حيث حشر فيه تشبيهات واعتبارات خلقية وفلسفية وتاريخية ولاهوتية أراد بواسطتها أن يؤكد لقارئه طول باعه وأن زاده من الثقافة القديمة والعلم القديم دسم وغني ومتنوّع .

وقد راج في إيطاليا تَعلّق وتَذَوّق مثقفي هذه الفترة بالآداب والثقافة الكلاسيكية القديمة سواء في بلاط راڤينا (حيث تيودوريك وبلاطه) أم في روما نفسها أم في ميلانو وغيرها من أمهات المدن الايطالية . وأخذ أساتذة الفصاحة والشعراء والعلماء يتنافسون لإرضاء ذوق جمهور المثقفين أو ذوق العاهل نفسه الذي غالباً ما كان يغدق عليهم أنعمه وآلاءه ويخلع عليهم ألقاب الشرف . وثمة بين أعلام مفكري هذه الحقبة من لم يكن بوسع أحـد أن يشقّ لهم غبار أو أن يجاريهم في مضمار ونخص بالذكر منهم إينُّودِيوس أسقف مدينة باڤيا المقرب من تيودوريك نفسه وكان ناثراً وشاعراً وكاتب رسائل وكان يكثر في كتابته من الاستشهاد بشعر ڤيرجيل وغيره من شعراء عصر أغسطوس .

---

(1) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٦ ، ص ٨٢ .

ومن أقطاب رجـال الفكر في هـذه الفترة الشاعر **آراتور** Arator الذي نظم ملحمة دينية عنوانها « أعمال الحواريين » تبدو وكأنها قطعة من الأدب الكلاسيكي القديم نظمت باللغة اللاتينية تمجيداً للحواريين القديسين بطرس وبولس • ومن جهابذة الفكر وأساطين العلم في هذه الفترة **بويس** Boéce الـذي ترجم وشرح آراء الفيلسوفين : أرسططاليس الإغـريقي وبورفيروس الفيلسوف الإسكندري (وهو تلميذ أفلوطين) ، كما درس الرياضي الاسكندري أوكليديس Euclides ودرس أيضاً العـالم الفلكي بطليموس (وهو أيضاً من مصر) • كما ألّف بويس هذا كتاباً في الفلسفة[1] •

وصفوة القول أن إيطاليا عاشت في عهد هـذا الملك القوطي الشرقي عصر نهضة فكرية يجب البحث عن منطلقهـا في سياسة تيودوريك نفسه • فهذا العاهل الذي لم يكن حظه من الثقافة جيدا كما لم يكن زاده منها شيئاً يذكر ، ونظراً الى أنه لم يكن بوسعه شخصياً تذوّق الروائع الأدبية أو فهم العبقريات أو حتى النظريات العلمية الواردة في تواليف معاصريه فإنه على الأقل اعتبرها حلية ضرورية لتزدان بها دولته التي شيدت على نسق روما في عهدها الإمبراطوري • واعتبر لذلك أن من واجباته كعاهل أن يساعد على تفتح تلك النهضة الفكرية •

ولم يكن ثمة مظهر من مظاهر حضارة روما القديمة إلا وأولاه تيودوريك عنايته ورغب في أن يعيد إليه سابق روائه وبهائه وعظمته • ومن قبيل ذلك أنه لم يهمل حتى ألعاب السيرك خاصة وكان سكان القسطنطينية أو بحسب التعبير المعاصر « روما الجديدة » قد أقاموا سيركا فخماً جداً على ضفاف البوسفور • كما وجه عناية زائدة الى الاحتفال بالأعياد التي أقرّتها التقاليد الرومانية • وكما كانت الحال قديماً فإن قنصلي مدينة راڤينا كانا يدشّنان في كل عام عهدهما باحتفالات عامة وبتوزيع الأموال والهبات • وهكذا فإن روما القديمة قد صحت من رقدتها وسباتها العميق وتلكم كانت رغبة العاهل البربري تيودوريك •

---

(١) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، راجع تفصيل ذلك في الفصل/٦ ، ص ٨٣ .

أما على الصعيد الشعبي فإن الشعب القوطي لم يلبث أن سئم القيام بذلك الدور المصطنع وهو دور المدافع عن الحضارة الرومانية وحاميها ذلك الدور الذي لا ينسجم مع واقعه كشعب مؤلف من غـزاة يجيدون الكرّ والفرّ • لذا حاول هذا الشعب التخلّص من ذلك الحمل أو العبء الثقيل وهو التراث الحضاري القديم الذي أوشك أن ينهار ليعود القوط الشرقيون الى تقاليدهم القومية • وعلى الرغم من أن عمل تيودوريك في هذا المضمار لم يُعَمِّر طويلاً وسرعان ما انهارت أحلامه فإن هذا العمل كانت له أهميته وذلك أنه بإبقائه إيطاليا في نفس الطريق التي أراد لهـا الأباطرة الرومان سلوكها فإن هذا العاهل القوطي تجنّب حدوث قطيعة تامة بين عهده وعهد الإدارة والحضارة الرومانية وجعل من الممكن أن يقوم غيره بمحاولة إحياء تلك الإمبراطورية الرومانية الغربية • أما تلك المهمة فهي التي ألقيت على كاهل الإمبراطور البيزنطي جستنيان العظيم في القرن السادس •

الفصل الخامس

محاولة الامبراطور البيزنطي جستنيان العظيم احياء الامبراطورية الرومانية الغربيــة

لم تنهر الإمبراطورية الرومانية تماماً تحت وطأة انقضاض المغيرين الجرمان عليها في عهد الأباطرة الأواخر الذين استقروا في راڤينا • وبينما تمّ القضاء على الجزء الغربي من تلك الإمبراطورية وتحت ضغط الضربات القوية التي أهوى بها الغزاة الجرمان على ذلك القسم فإن الشق الثاني منها ، وهو قسمها الشرقي ، استمر موجوداً • هذا فضلاً عن أن الأباطرة الذين مارسوا الحكم في ذلك الجزء الشرقي وسيطروا على مقدراته ، وعلى الرغم من إقصائهم عن إيطاليا وعن الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط فإنهم بقوا يعتبرون أنفسهم ورثة تراث قياصرة روما الخلقي ، فذلك التراث الغربي اعتبروا أن عبء الدفاع عنه قد ألقي على كواهلهم • وانطلاقاً من هذه الفكرة فإنهم لم يتنازلوا إطلاقاً عن أيٍّ مــن الحقوق التي مارسها قبلهم عــدد من أباطرة القسطنطينية على الأجزاء أو الولايات الغربية التي أخذت تسقط تباعاً بيــد البرابرة أي الجرمان • وهكذا فإنه ما من أحد من أباطرة بيزنطة تخلّى عن ثقته التي لا تتزعزع وعن إيمانه القوي الراسخ في أن يوم ثأر الرومان من البرابرة لا محالة آتٍ فانهم سيستردون بكل تأكيد تلك الولايات الغربية ويعيدون الى امبراطوريتهم سابق مجدها •

وبدت تلك الأمانيّ في النصف الاول من القرن السادس وشيكة التحقيق• وذلك لأن الإمبراطورية الرومانية التي استردت هيبتها وقوتها في المشرق لم تعد تلتزم جانب الدفاع إنما عادت مجدداً الى استئناف الهجوم • وهكذا فإن الإمبراطور البيزنطي أخذ يحرص على الإفادة من أقل تصدّع يحدث

في جبهة أعدائه الجرمان في غربي أوروبا ليحاول استرداد ولايات غربي أوروبا في إيطاليا بالإضافة الى ولايات شمالي أفريقيا أو استرداد قسم منها على الأقل من الجرمان الذين أقاموا في ربوعها ، وأن وحـدات الأسطول الإمبراطوري ستعود لتمخر عباب اليمّ بين مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) والمضائق والبحر الاسود • ويبدو أن يأس الإمبراطورية من استرداد أجزائها الغربية لم يعد له ما يُبَرِّره لا سيما وأن هذه الإمبراطورية كانت تمرّ في النصف الأول من القرن السادس بفترة إفاقة ونهضة عسكرية وخاصة في عهد جستنيان العظيم بعد أن ران عليها جوّ من السبات العميق والانهزامية في عهد أسلافه المباشرين •

أولا ــ احتفاظ الاباطرة البيزنطيين بما كانوا يدعونه من حقوق على ولايات غربي أوروبا قبل عهد جستنيان : كان ممكناً أن تتغير وضعية الإمبراطورية في المشرق ، لا بل فمن الممكن أيضاً أن تزداد الحصة المقررة لآسيا من عناية ورعاية الأباطرة أي أن تنصرف هذه الإمبراطورية وبمعظـم جهودها الى معالجة قضايا آسيوية • ومع ذلك فإن اسم هذه الإمبراطورية سيبقى وبدون أدنى شك هو الإمبراطورية الرومانية • وبقيت فكرة عالقة في الأذهان وقد استمرت ما بين القرنين الرابع والسادس ولم تتبخّر حتى بعد اختفاء آخر أباطرة راڤينا في سنة ٤٧٦ من على خشبة المسرح السياسي لأحداث إيطاليا ، وذلك أن قسم الإمبراطورية الذي نطلق عليه الآن « الامبراطورية البيزنطية » ليس في واقعه سوى جزء من تلك الدولة الرومانية التي تغلبت وحدتها على جميع حوادث التقسيم التي تمت بالنسبة الى السلطة السياسية التي تمارس الحكم والسيادة في هذه الإمبراطورية •

فما بقي في إيطاليا بلاط إمبراطوري فسيبقى جزء الإمبراطورية الشرقي والغربي متآزرين ومتساندين ، وأن ما من أحد يعجب من متابعة حكومة كل من هذين القسمين ، ما كان ذلك في استطاعتها ، تطور الأحداث في القسم الآخر وأن تتدخل فيها ، إن كان ذلك متيسراً لها ، إذا ما دعت الحاجة الى ذلك • وفعلاً وعلى ضوء الواقع لم تكن دائرة أو نطاق عمل قائد الحرس

الوطني ستيليكون في مطلع القرن الخامس تقف عند حدود الولايات المخصصة لامبراطوره هونوريوس من التقسيم ؛ وأنه عند وفاة آركاديوس ، أخي هونوريوس (في سنة ٤٠٨) فإن حكومة أخيه هونوريوس قررت ودونما تردّد التدخل لحل قضية وراثته في القسطنطينية ٠

ثم انعكست الآية بعد عدد من السنين حيث سيملي امبراطور القسطنطينيه تاوداسيوس/٢ (٤٠٨ ــ ٤٥٠) أو بالأحرى أخته القوية جداً رغبته في انتقاء الإمبراطور الحاكم على الغربيين ٠ وبعد وفاة الإمبراطور الغربي هونوريوس بدوره بعد عامين (في سنة ٤٢٣) فإن أخت تاوداسيوس/٢ نفسها تدخلت مجدداً ٠ وبعد أن حلمت ولفترة قصيرة بإعادة توحيد جزأي الإمبراطورية مجدّداً ، فإنها فرضت وعن طريق القوة والتهديد على الغرب الإمبراطور الذي يوافق حكمه مصالحها ، وهو الشاب ڤالاتينيان/٣ وهو ابن قائد الحرس الوطني (ويدعى كونستانس ، وكان الغربيون قد رغبوا في رفعه الى سدّة الإمبراطورية في سنة ٤٢١ فحالت دون ذلك) التي لم ترغب في بادىء الأمر وإطلاقاً في تولّيه الحكم ٠ لكنه نظراً الى أنه قد تربّى في القسطنطينية تحت مراقبتها ، لا بل فإن مما جعلها تقبل بحكمه أنه لم يكن آنذاك إلا في سنته الرابعة ٠ وسيغدو هذا الغلام وبالنسبة الى الامبراطور البيزنطي الأسلس قياداً من دون جميع الزملاء ٠ وقد زوّجه الإمبراطور البيزنطي تاوداسيوس/٢ في سنة ٤٣٧ من ابنته ٠ ثمت جعله في نهاية سنة ٤٣٨ يوافق على نشر مجموعة قوانين تاوداسيوس في العالم الغربي٠ كما قبض بعيد ذلك وبمقابل مناورة قامت بها وحدات الاسطول البيزنطي أمام سواحل البلاد الخاضعة الى الڤاندال الثمن فإن بيزنطة نالت من الامبراطورية الغربية قسماً من ولاية دلماسيا (يوغوسلافيا الحالية) ٠ ولم يبد جزءا الامبراطورية أشد تآزراً مما كانا عليه في هذه الفترة ٠

وعند وفاة تاوداسيوس/٢ في سنة ٤٥٠ ضعف وفتر وخلال عدة سنين ذلك التآزر والتساند وقد آل عرش بيزنطة الى مارسيانوس وكان جندياً شجاعاً وناضجاً من حيث سنّه لكنه اهتمّ في عهده القصير (بين سنتي

٤٥٠ ــ ٤٥٧) بممارسة أعباء الدفاع عن الإمبراطورية وإعادة التنظيم الداخلي للولايات البيزنطية نفسها • ثم خلفه على العرش البيزنطي جندي آخر وهوليون التراقي الذي استأنف الاتصال بالقسم الغربي في راڤينا ، خاصة وأن حكومة هذا القسم كانت تشعر في الوقت نفسه بحاجة مُلِحّة الى دعم الحكومة البيزنطية لمنع أو لإيقاف الغارات البحرية الجريئة التي ما ونت وحدات الاسطول الفاندالي عن القيام بها والتي انتهت في الوقت نفسه بمهاجمة المواقع الخاضعة للبيزنطيين أنفسهم • وقد وافق ليون هذا على تجهيز القسمين الامبراطوريتين حملة عسكرية مشتركة يموّلاها معا شريطة تعيين ختن الامبراطور البيزنطي إمبراطوراً على القسم الغربي • وهكذا غدا الإمبراطور البيزنطي الفيصل الذي سيبتّ في شؤون الامبراطورية الغربية لكن هذه الحملة فشلت فشلاً مريعاً مما أوردناه من قبل •

ولم تفت رغبة أباطرة بيزنطة في أن يغدوا أوصياء على القسم الشرقي على الأستاذ لويس هالفين وغيره من كبار المؤرخين فقال بصددها ما نصه : « وقد بدا واضحاً أن الامبراطور البيزنطي يعتبر نفسه مزوّداً وبصورة نظامية بالحق في التدخل في شؤون غربي أوروبا ، ومن قبيل ذلك أنه أبى في سنة ٤٧٣ الاعتراف بالإمبراطور غليسيريوس الذي وضع على منكبيه الرداء الأرجواني (من شارات الإمبراطورية) ورشح للمنصب نفسه يوليوس نيبوس وبادر الى إرساله وعلى جناح السرعة الى إيطاليا وبمعيته جيش صغير لدعمه • وتوفي أثناء تلك الحوادث الإمبراطور البيزنطي ليون وذلك في سنة ٤٧٤ وخلفه زينون وهو أحد أفراد الأباطرة الجبليين الإيساوريين (وهي ولاية على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى وهي قبالة جزيرة قبرص) الأشداء والذين تعاقب الكثيرون منهم على العرش البيزنطي • وكان ليون هذا قد جعل زينون ختناً له على ابنته ، ولم يعد لهذا الإمبراطور أي حرية للعمل أو التدخّل في غربي أوروبا • وبعيد توليه الحكم نشبت الثورة في بيزنطة • وقد اضطر خلال ثلاث مرات أن يصمد في وجه منافسيه الذين أثارهم ضده وحسداً منه زعيم إيساوري آخر يدعى إيلوس Ilos ، واشتبك

الطرفان سنين طويلة في حرب أهلية ضروس . فتلك الظروف الجديدة التي زُجَّ فيها الإمبراطور البيزنطي زينون في ظروف صعبة وحرجة لن تُمَكِّنه من مدّ يد المعونة الى الامبراطورية الغربية لإنجاح المرشح لعرشها الموفد من قبل ليون نفسه . ثم سقط الإمبراطور يوليوس نيپوس في راڤينا وتوِّج آخر أباطرتها في هذه الفترة وهو رومولوس أوغستيليه وأخيراً قضي على الإمبراطورية الغربية على يد أودواكر في سنة ٤٧٦ على النحو الذي سبق بيـــانه »[1] .

لم يعد ثمة امبراطور في رافينا . لا بل فان ايطاليا كلها بدأت ومنذ هذه الفترة تسقط تدريجياً بيد البرابرة . وعلى الرغم من ذلك وحتى في هـــذه الفترة ذاتها فان الحقوق التاريخية التي يحق لرئيس الإمبراطورية الـــذي مازال على قيد الحياة ، وهو بالنسبة الى هذا الظرف إمبراطور بيزنطة ، ممارستها قد صينت : حيث غدا الامبراطور الروماني بالنسبة الى أودواكر والى تيودوريك من بعده لا بل بالنسبة الى جميع زعماء القبائل الجرمانية هو العاهل الذي يحكم القسطنطينية . ولم يكن هؤلاء يتبادلون الرسائل معه إلا باستعمالهم عبارات التمجيد والتفخيم اللائقة بمنصبه . ومهما كان نوع أو درجة الاستقلال الذي مارسه هؤلاء الزعماء الجرمان في حكم مناطقهم فانهم لم يحجموا اطلاقاً عن أن يُحَيّوا في شخص الإمبراطورين ليون ثم زينون، ثم في شخص ورثتهما من بعدهما الورثة الشرعيين لجميع الإمبراطورية الرومانية أي بقسميها الغربي والشرقي . وقد أرسل اودواكر في سنة ٤٧٦ الى الامبراطور زينون الشعارات الامبراطورية التي وجدها بلاط رافينا ، ثم أقر مجلس شيوخ روما فكرته وأيّده عندما أُبلِغَ زينون أن الامبراطورية لم تعد منذ الآن بحاجة إلا لرئيس أو امبراطور واحد[2] . وعندما هـــاجم تيودوريك بعد ذلك أودواكر فانه هاجمه بصفته نائبا عن الامبراطور . وسيبقى هذا الوهم عالقاً في أذهان أباطرة بيزنطة . وعندما توفي زينون في سنة ٤٩١

---

(١) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٦ ، ص ٩٢ .

(١) لوط وبفيستير وغانشوف ؛ مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى الآنفة الذكر ؛ المجلد/١ ؛ ج/١ ؛ الفصل/٣ ، ص ٩٧ .

فان العرش الامبراطوري آل من بعده وتباعا الى رجلين مسنين ؛ أولهما آناستاسيوس (حكم بين سنتي ٤٩١ ــ ٥١٨) وهو يوناني مُسِنٌ في الحادية والستين من العمر وهو من مقاطعة إپيراوس ؛ وقد جرّدته الحروب الدينية التي خاضها ورد هجمات كل من الفرس والسلاڤيين والبلغار على إمبراطوريته من قوته • أما الامبراطور المسنّ الثاني والذي كان قد بلغ سنيّه السبعين فهو فلاح مقدوني الأصل وكان قائداً للحرس الامبراطوري واسمه جوستين (حكم بين ٥١٨ ــ ٥٢٧) وهو عمّ جستنيان الذي سيغدو بعيد قليل خليفته ووريثه في المنصب الامبراطوري • وكان جستنيان كثيراً ما ساعد عمه في ممارسة أعباء الحكم • وبمجرد أن غدا جستنيان إمبراطوراً في سنة ٥٢٧ فان وضعية الامبراطورية كانت على الشكل التالي : لم تعد الإمبراطورية الرومانية تمثل واقعاً أو حقيقة راهنة ملموسة إلا بالنسبة الى جزئها الشرقي الذي مازال يقاوم ولو بعناء زائد الضربات التي كان البرابرة يكيلونها اليه ، غير أن سقوط آخر امبراطور غربي في رافينا سنة ٤٧٦ لم يؤد الى محو هذه الفكرةمن رأس الاباطرة البيزنطيين وهي أنالإمبراطورية البيزنطية بقيت ولو على الصعيد النظري كما كانت من قبل ، وأن مهمة السهر على مصائر غربي أوروبا ألقيت على كواهل أباطرة بيزنطة كما كانت من قبل قد وقعت على عاتق الورثة الأوائل للإمبراطور تاوداسيوس العظيم : وحدّد الإمبراطور جستنيان لنفسه مهمة وهي أن يُعَبِّر عن هذه الآراء بالأعمال ، وسوف يُكَرِّس نفسه وبهمة لاتني الى مهمة إعادة تأسيس وإعادة وحدة الإمبراطورية الرومانية على حساب البرابرة الجرمان •

ثانيا ــ استرداد جستنيان الولايات الامبراطورية في افريقيا : ــ مع أن هذا الإمبراطور ظهر في فترة متأخرة أي بعد أن أمسى الانفصال بين جزأي الإمبراطورية حقيقة راهنة وأن الانفصال كان قد تمّ بين عالمين متعارضين واتجاهين متعاكسين وعقيدتين متناقضتين فان هذا الإمبراطور الجديد كان نصيراً متحمساً لإعادة وحدة هذين القسمين وأنه سوف لن تغمض له عين قبل أن يرى الجهود المضنية التي بذلها لتحقيق حلمه الذهبي الذي أخذ

عليه تفكيره قد كللت بالنجاح وأن ما كان الكثيرون يعتبرونه وهماً وخيالاً قد أمسى حقيقة وواقعاً .

كان جستنيان أصلاً وكعمه جوستين فلاحاً من مقاطعة إيلليريا في مقدونية بجوار ألبانيا ولكنه تربى في القسطنطينية في كنف عمه الذي أتاح له أن يُزَوَّد وبثقافة ممتازة من نوع الثقافة التي كان أساتذة المدارس البيزنطية يقدمونها الى تلاميذهم ، وهي ثقافة خليطة ، ولو أن لغته الأصلية ، كلغة عمه ، هي اللاتينية . ومع أن جستنيان كان متوسط الذكاء لكنه حجب هذه الثلمة بحبه للعمل فكان دؤوباً ويعمل باستمرار ولا يحب أن يخلد الى الراحة . وقيل عنه إنه الإمبراطور الذي لا ينام أبداً . كان دائم الرغبة في العمل وأن ينجز بيده ما بدأ عمله ولم يكن يرغب في الاتكال على الآخرين سواء من قبيل الحذر والاحتياط أم لرغبته الصادقة في أن ينجز الأعمال التي قد بدأها .

كما غطّى هذا العاهل ذكاءه المتوسط باستعانته بنخبة خَيِّرة من رجالات عصره وفي مختلف المجالات . ففي المجال العسكري أتاح له قائداه الفذّان اللذان قلّ أن رزقت الإمبراطورية البيزنطية بأمثالهما ، وهما : بليزاريوس Belisarius ونارسيس Narses تحقيق مشاريعه لا بل حلمه في إعادة وحدة الإمبراطورية الرومانية باستردادهما كلا من افريقيا وايطاليا . أما في شؤون الحكم والإدارة فقد كان ساعده الأيمن يوحنا الكادپادوكي (من ولاية كاپادوكيا في آسيا الصغرى) الذي كان نعم المستشار والمعين على تصريف شؤون الحكم . أما فيما يتعلق بالعمل الذي أبقى اسم جستنيان خالداً على الدهر وهو قانونه أو مجموعته القانونية فقد أوسد رئاسة اللجنة التي أنيطت بها مهمة إنجاز هذا المشروع العملاق الى فقيه قانوني ضليع كان أحد جهابذة وأساطين القانون في القرن السادس وهو تريبونيان Tribonian . وكان هؤلاء الأربعة بمثابة أربع درر كريمة ازدان بها تاج جستنيان . ولئن ذهب هؤلاء بفخار ما تمّ من إنجازات في عهد هذا الإمبراطور (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) فانه حسب هذا العاهل فخراً أنه حدد لكل

منهم المهمة الملقاة على عاتقه ورسم له معالم الطريق التي سيسلكها وزوّده بالوسائل الكفيلة بنجاحه وأنه كان لا يكفّ عن مراقبته وتوجيهه • فكل ذلك يعتبر مناقب وصفات ممتازة تحلّى بها هذا العاهل •

وقد عدّد بعض خصوم جستنيان أو حسّاده بعض نقائصه فقالوا إنه غير متّزن في تفكيره وأنه حاد الطبع ونزق وسريع الغضب وأنه أحياناً متردّد ويعوزه الحزم • ولكن هذه الهنات حاولت زوجه تيودورا ، (على الرغم من أصلها الوضيع فهي من فتيات الملاعب ــ السيرك ــ) ، أن تقلّل من أثرها لأنها كانت قوية الإرادة وحازمة • ذلكم هو العاهل الذي سيسيطر وخلال أربعين عاماً على مقدرات الإمبراطورية البيزنطية والذي سيحقق بعض النجاح في إعادة الوحدة الإمبراطورية •

لم تكن ظروف هذا الإمبراطور مواتية لإرسال حملات الى مناطق بعيدة كشمالي أفريقيا وإسبانيا لأن الخطر الفارسي الذي زادته هجمات ملوك الحيرة حلفاء ومحميّي الفرس حدّة وقوة (ومن قبيل ذلك بلوغ قوات المنذر ملك الحيرة في سنة ٥٢٩ ضواحي أنطاكية نفسها) أخذ يثير قلق هذا الإمبراطور ويقضّ عليه مضجعه لاسيما بعد أن أوشكت سورية كلها أن تسقط بيد الفرس في سنة ٥٣٩ بعد أن حاقت الهزيمة وفي جوارمدينة الرقّة على الفرات بأعظم قادة البيزنطيين آنذاك وهو نارسيس وغدا سقوط سورية بيد الغزاة المدعومين من قبل قوات المناذرة قاب قوسين أو أدنى •

وحتى بالنسبة الى شبه جزيرة البلقان فان أوضاعها لم يكن من شأنها أن تبعث الاطمئنان في نفس العاهل البيزنطي • فبعد جلاء القوط الشرقيين في نهاية القرن الخامس عن هذه الربوع حلّ فيها عنصر البلغار (وهم من مجموعة قبائل الهون) • كما بدأت جماعات السلافيين تعيث في هذه الربوع فساداً • وقد كرث هؤلاء البرابرة مقاطعات مقدونية وإپيراوس وتساليا وتراقيا • وأخذت بيزنطة نفسها تحس خيفة وتضطرب من شدّة وقوة غارات هؤلاء السلاف وأولئك البلغار • وقد دفع الخوف العاهل البيزنطي آناستاسيوس الى أن يشيّد في سنة ٥١٢ سوراً ثالثاً أو خط دفاع ثالث

حول حاضرته القسطنطينية حيث بات يخشى أن يوالي المغيرون طريقهم الى العاصمة • وبدأ الكثيرون يفكرون فيما اذا كان من الواجب شراء هدوء تلك العناصر وخلودها الى السكينة بالتنازل لها عما بقي للبيزنطيين في شبه جزيرة البلقان • لذا كانت مسألة صيانة القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية وفي هذا الظرف بالذات بعد أن أحدق الأعداء بذلك القسم من كل جانب بالغة الخطورة والأهمية ، وأنه يتحتم على الإمبراطور البيزنطي أن يوليها ما تستحقه من عناية ورعاية وقبل أن يفوت الأوان •

وفي ظل هذه الظروف الحالكة السـواد سنحت فرصة قَلَّ أن يجود الدهر بمثلها فكانت فرصة العمر لأنها ستمكِّن الإمبراطورية البيزنطية أن تستردَّ هيبة الإمبراطورية الرومانية في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط • لقد دعي الإمبراطور الى التدخّل في مملكة الفاندال في شمالي أفريقيا ، ولربما أمكنه بواسطة عمل جريء في مملكة الفاندال ، وحتى ولو دفع ثمن ذلك بعض التضحيات التي تتحملها الإمبراطورية البيزنطية عـلى حدودها الشرقية بإزاء كل من الفرس والمناذرة ، أن يجعل حلم إعادة وحدة الإمبراطورية حقيقة •

وكانت تلك الفرصة التي سنحت مغرية • وبيان ذلك أن جواً مـن الفوضى والاضطرابات الداخلية التي كرثت مملكة الفاندال قد ران عـلى تلك المملكة منذ وفاة مؤسسها في سنة ٤٧٧ • ولعجز قبائل الفاندال عـن التغلّب على قبائل البربر الافريقية بعد ازدياد وتوالي ثوراتهم فقد وجـد خلفاء الملك جينسيريك الفاندالي الضعاف أنفسهم عاجزين عن قمع تلك الاضطرابات التي ذرّت قرنها في مملكتهم • ومما زاد في حراجة وضعية هؤلاء العواهل الفاندالين الضعاف أنهم سيثيرون عليهم الكاثوليك والرومان (وكان الفاندال آريوسيين أي من الأرثوذكس وهم تبعاً لذلك أعداء ألداء للكاثوليك) فيما اذا أظهروا تحيّزا سافراً الى مواطنيهم الفاندال الأرثوذكس وتمسكاً زائداً أو تحمّساً الى شعورهم القومي (كفاندال) والى شعورهم المذهبي العقائدي (كآريوسيين أرثوذكس) • وعلى العكس من ذلك فإنهم

سيثيرون على أنفسهم إخوتهم الفاندال أنفسهم إن مالؤوا وسايروا الرومان المستقرين في ربوعهم • ففي هذا المأزق الحرج الذي زجّ فيه أولئك الملوك الفاندال بدؤوا يفتشون عن مخرج وعن دعم خارجي سواء من قبل الأوستروغوط عندما يرغب هؤلاء الفاندال وكجرمان أصلاء أقحاح ، أن يستعينوا بقوات جرمانية من بني جلدتهم ضد عناصر الرومان المستقرين في مملكتهم الفاندالية الجرمانية ، أم من قبل الإمبراطور البيزنطي نفسه عندما كانوا يرغبون في أن ينهنهوا من غلوٍّ وشطط الفاندال أنفسهم • وكان الملك الفاندالي المتولي للحكم سنة ٥٣٠ هو **هيلديريك** وكان نصير تحالف بلاده مع الإمبراطور البيزنطي • وقد ألحقت قبائل البربر في الإقليم الجنوبي من ولاية أفريقيا (أي جنوبي تونس الحالية) هزيمة نكراء بقوات هذا الملك الفاندالي مما أدى الى خلعه لمصلحة ابن عمه وسجنه • وقد استنجد الملك المخلوع من سجنه بالامبراطور البيزنطي جستنيان ، وكان على ما يبدو على اتصال وثيق به •

لذلك فان مملكة الفاندال التي قسمتها هذه الكارثة الى معسكرين أضحت بالنسبة الى ذلك الامبراطور البيزنطي الطموح سهلة المنال وأن بوسعه الإجهاز عليها وإعادتها مجرد ولاية رومانية عادية • لكن تحقيق هذه الغاية يتطلب التدخل وبأقصى سرعة ممكنة قبل ضياع هذا الظرف الملائم والمناسب لمشروع جستنيان العظيم • وأدرك هذا الأخير ما تتطلبه معالجة هذا الموقف من حزم وسرعة وحذر • وبعد تغلّبه وبعناء ومشقة زائدين على المعارضة التي أبداها الكثيرون من ضباط جيشه وحتى من قبل أفراد حاشيته بإزاء مشروعه فانه وقّع في أيلول سنة ٥٣٢ معاهدة صلح مع كسرى الفرس الجديد أنوشروان • ولرغبته في الانصراف بكليته الى معالجة أزمة المملكة الفاندالية فإنه قبل أن يدفع خراجاً سنوياً باهظاً الى كسرى الفرس عدوه التقليدي اللدود • وهكذا فإن جستنيان أولى قضية الفاندال كل عناية وعبأ من أجلها ووشيكاً جميع قواته ناشداً مفاجأة الملك الفاندالي المغتصب بالهجوم •

تحدّث الأستاذ ل. ب. موس عن هذه الحملة بقوله : « بدأت حملة جستنيان على الغرب في سنة ٥٣٣ في الوقت الذي أبحر فيه أمهر قادة الإمبراطورية (البيزنطية) وهو بليزاريوس الى أفريقيا وبمعيته عشرة آلاف جندي من المشاة وخمسة آلاف فارس . وقد رافق المؤرخ پروكوبيوس ذلك القائد في حملته وترك لنا وصفاً دقيقاً ومفصلاً عنها.وتذرّع الإمبراطور البيزنطي لإرساله الحملة بأن الملك الڤاندالي هيلديريك الضعيف والذي كان هواه مع البيزنطيين أي مع أتباع المذهب الكاثوليكي قد خلع من العرش على يد ابن عمه نصير الحزب المعادي لبيزنطة . كما ظهرت حجة مماثلة تذرّع بها الإمبراطور البيزنطي لدن تفكيره بغزو إيطاليا . وتوهّم الإمبراطور أن نصر قواته النهائي في الميدانين أمسى وشيكاً قريب المنال وذلك بعد النجاح الذي أحرزته تلك القوات في بدء اشتباكها بقوات أعدائها . بيد أن القتال استمر في كلتا الجبهتين سجالاً وطوال عدد من السنين الى أن تمّ النصر في حملة أفريقيا للبيزنطيين . وواتت ظروف مملكة الڤاندال في أفريقيا خطة جستنيان الجريئة . وفعلاً كان الڤاندال أرسلوا وحدات أسطولهم وقسماً كبيراً من قواتهم البرية الى جزيرة سردينيا لتقمع ثورة نشبت فيها فأفاد البيزنطيون من ذلك بإنزال قواتهم على الساحل الافريقيي دونما عناء حيث بدأت زحفها على قرطاجة سالكة اليها طرقاً تظللها الاشجار ومعسكرة في الليل في بساتين جميلة . وقد أحسن السكان الرومانيون المحليون استقبال قوات هذه الحملة وأكرموا وفادتها . وعلى الرغم من بعض الاخطاء التي ارتكبها بليزاريوس فقد أحرزت قواته النصر على الڤاندال مما أتاح له الاستيلاء سريعاً على قرطاجة . وحقناً من الملك الڤاندالي لدماء أفراد رعيته فإنه استسلم للقائد البيزنطي الذي ظن أن كل شيء قد انتهى . وهكذا فإنه ترك في قرطاجة قوات احتلال ثم قفل عائداً الى بيزنطة ليحتفل بالنصر المؤزر الذي أحرزه وقد اصطحب معه أفراد الأرستقراطية الڤاندالية حيث شكلت الحكومة البيزنطية منهم فرقة من الخيالة أنيطت بها مهمة المرابطة على الحدود الفارسية . وعمد البيزنطيون الى إعادة الأمور الى مجراها الطبيعي السابق . ومنح رجال الإكليروس الكاثوليكي الكثير من الامتيازات وأقرت

تدابير صارمة ضد **الدوناتيين** Donotistes المنشقين عن الكنيسة الكاثوليكية (وهي حركة منشقة قامت في قرطاجة في القرن الرابع الميلادي) وضد الآريوسيين وضد الوثنيين • ورغب البيزنطيون في إعادة الأرضين الى أصحابها المُلاّك الرومانيين • لكن بعد مضي قرن من الزمان على مصادرة تلك الارضين فان مسألة اعادتها الى أصحابها السابقين أضحت مسألة شائكة واعترضتها الصعاب الكثيرة •

« ولم يَعْتِمْ الاستياء العام من حكم البيزنطيين أن انفجر لا سيما بعد ملاحظة سكان الولاية الافريقية أن سبب حدب جستنيان عليهم ورعايته لهم هو ما يسددونه من ضرائب الى خزينة الدولة •

« ثمت اندلعت اضطرابات قوية كرثت ولاية أفريقيا فبينما كانت العاصمة البيزنطية تستعد لاحتفالات نصر قواتها على الفاندال هبط مقاتلة قبائل البربر من معاقلهم الجبلية حيث أخذوا يغيرون على الحاميات البيزنطية في المدن السهلية والساحلية • وأخيراً تمكن قائد القوات البيزنطية في تلك المدينة ، واسمه سليمان ، من رد تلك الغارات وطارد أولئك المقاتلة وردّهم على أعقابهم الى حصونهم الجبلية وبدأ يهاجمها لكن قواته التي لم تألف القتال في الجبال سرعان ما منيت بهزيمة نكراء بعد تدنّي معنوياتها وتَفَشِّي الاضطرابات الى درجة حملت القائد الأعلى للقوات البيزنطية على التفكير بالفرار من المعركة لينجو بحياته • وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكن بعض المقاتلة الابطال بين صفوف الجند البيزنطي من إحراز النصر النهائي على القبائل المغربية مما مكّن الدولة البيزنطية من التغلب على ذلك المأزق الحرج الذي زُجَّت فيه قواتها • وبنتيجة الروح الفردية لدى زعماء البربر وعدم تعوّدهم العمل المشترك وتوحيد الجهود فإن السلطة البيزنطية نجحت في سنة ٥٤٨ في استرداد هيبتها التي توطدت ورسخت دعائمها • وهكذا تمكنت المناطق المكروثة من أن تنعم مجدداً بالهدوء والسلام »[1] •

---

(١) ل. ب. موس ؛ المرجع المذكور ؛ فصل/٥ ؛ ص ١٢٨ — ١٢٩ •

ثالثا ــ استرداد ايطاليا من الأوستروغوط واحيـاء الامبراطورية الرومانية فيهـا : ــ وأثبت ذلك النصر المبين الذي حقّقه جستنيان ، والذي فـاق كثيراً ما كان ينتظره أشد مؤيدي مشروعه تفاؤلاً ، أنه يكفي هذا العاهل أن يعالج بحزم زائد قضية الجرمان المستقرين في مختلف ربوع الإمبراطورية الغربية القديمة وبما تستحقه من رعاية واهتمام ليتمكن من إلحاق الهزيمة بتلك العناصر • ثمت أفلا يمكن للتجربة التي قام بها هذا الإمبراطور في مملكة الفاندال أن تتكرر في بقاع أخرى ؟ ثم فان إيطاليا نفسها وهي مهد الفكرة الإمبراطورية وعرين وموطن الأباطرة الرومان القدامى أفلا يمكن ، وفي هذه الظروف بالذات بعد أن بدأت فيها سلطة الأوستروغوط تتزعزع ، أن تُستَرَدّ هي نفسها من أيدي عواهل القوط ؟

وكانت أحوال إيطاليا الداخلية آنئـذٍ شبيهة بالظروف التي أحدقت ، وعلى الصعيد الداخلي ، بالفاندال في أفريقيا فأمكنت البيزنطيين من التدخل والقضاء على هؤلاء وإعادة منطقتهم الى الحكم الإمبراطوري • وقداستشرى النزاع في ايطاليا بعد وفاة العاهل الأوستروغوطي الكبير تيودوريك في سنة ٥٢٦ بين حزبين يمثلان اتجاهين متعارضين هما **الحزب الجرماني** الراغب فـي العودة بالقوط الشرقيين الى التقاليد الجرمانية القومية التي نأى القوط عنها كثيراً حتى منذ عهد تيودوريك نفسه ، ثم **الحزب الروماني** المؤلف من القوط المؤيدين وحتى في حياة تيودوريك الاتجاه السائد والذي كان يسير بتلك البلاد المفتوحة ، أي ايطاليا ، وبشكل غير مرئي ولا ملحوظ الى وضعيتها وأحوالها السابقة لفترة احتـلال القوط لها • وتزعمت هـذا الحزب ابنة تيودوريك التي كلفت من قبل ابيها بالوصاية على ابنها الذي عين خليفة لجده ريثما يبلغ سن الرشد • أغضبت هذه الزعيمة بتنكّرها للتقاليد القومية للشعب القوطي الكثيرين من زعماء هذا الشعب فأرّثوا ثورة ضدها • ومع أنها قتلت معظم هؤلاء الزعماء فانها شعرت بأن الارض بدأت تميد تحت قدميها ، وأن حكمها لم تتوطد دعائمه ، وأن جميع القوط بدؤوا ينفضون من حولها • لذلك كله لم تر هذه الزعيمة مخرجاً من أزمتها إلا بالتحالف مع

الإمبراطور البيزنطي ، علماً أنها كانت قد قدمت الى حملة جستنيان على بلاد الڤاندال في سنة ٥٣٣ ميناء في صقلية لترتاح الحملة فيه ، كما أمدت تلك الحملة بحاجتها من الخيول والمؤن .

وكان معنى طلبها التحالف مع جستنيان المخاطرة بعرشها وبالدولة الأوستروغوطية ، لكنها بمقابل ذلك لا تستطيع مجابهة صعوباتها الداخلية المتزايدة بعد أن سبّب لها **تيار النزومن** ، الذي كان أبوها تيودوريك نفسه قد بدأه ، المعارضة القوية التي بدأ زعماء القوط يشهرونها في وجهها تلك المعارضة التي زاد قيام هذه المرأة بالإيعاز بقتل جميع مناوئي سياستها من زعماء القوط أنفسهم من حدّتها وعنفها . وقد خلعت هذه السيدة (واسمها آمالاسونت) من العرش في تشرين الثاني سنة ٥٣٤ لاسيما وكانت ، وبدون أن يكون لها أيّ حق في ذلك ، تريد الاحتفاظ به لنفسها بعد وفاة ابنها في ٢ تشرين الاول من العام نفسه . وولّى المعارضون القوط عليهم أحد أبناء عمها وهو ابن أخت تيودوريك ملكاً عليهم فسجنها خصومها في جزيرة تبعد حوالي مائة الكيلو متر عن شمالي مدينة روما نفسها . فمن هذه الجزيرة ، وأسوة بما قام به العاهل الڤاندالي المعزول هيلديريك ، فإنها استنجدت بدورها بالإمبراطور البيزنطي جستنيان الذي لبّى نداءها فوجه إنذاراً الى العاهل القوطي الجديد بإطلاق سراح ابنة عمه فقام بقتلها في ٣٠ نيسان سنة ٥٣٥ . أرسل الإمبراطور البيزنطي قواته بقيادة بليزاريوس الذي بدأ باحتلال صقلية لقطع ميرة القمح عن القوات القوطية وأنجز البيزنطيون احتلال صقلية في نهاية عام ٥٣٥ . واجتازت القوات البيزنطية مضيق مسينا مجتاحة مناطق جنوبي ايطاليا ومستولية عليها بسرعة . هذا في الوقت الذي توجهت فيه حملة ثانية للهجوم على القوط من الشمال زاحفة على رافينا نفسها . وبعد استرداد القوط مدينة ومنطقة ميلانو من البيزنطيين بعد أن وصلهم مدد من الفرنجة لم يتمكن بليزاريوس من موالاة زحفه (بعد أن قدم الى الشمال لحصار راڤينا نفسها) بنفس السرعة السابقة لتعرضه الى مقاومة عنيفة من قبل القوط ، هذا فضلا عن عزله قسماً من

قواته للمرابطة في القلاع الهامة الواقعة على طريقه الى رافينا . وأخيراً بدأ حصار رافينا براً وبحراً في خريف سنة ٥٣٩ وتمكن بليزاريوس من دخولها في مايس سنة ٥٤٠ . وذكرت المصادر أنه خدع زعماء القوط عندما أظهر الاتفاق معهم على خيانة ولي نعمته الامبراطور جستنيان وقبوله عرش القوط الشرقيين له شخصياً . وبهذه الوسيلة قبض على زعيم مناوئي النفوذ البيزنطي من القوط فيتيجيس واقتاده في العام نفسه أسيراً الى الإمبراطور البيزنطي جستنيان[1] .

وهكذا تمكّن جستنيان من إحياء الإمبراطورية وفي أقلّ من خمسة أعوام في ولاية أفريقيا وجزر الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط وحتى في ايطاليا نفسها ، وأعيد تنظيم حكم هذه البلاد وفق الطريقة الرومانية القديمة ، وأعيدت الهيئات والنظم الإدارية وتمكّن جستنيان من استرداد مدينتي روما ورافينا . ولئن انصرم حبل تطور تاريخ هذه المنطقة وخلال فترة وجيزة فانه وصل من جديد واستأنف ذلك التطور مسيرته ووالاها وحقّ لجستنيان أن يتيه خيلاء وزهوا وأن يدعي أنه إمبراطور روماني قحّ وأصيل .

لا جدال في أن النصر الذي أحرزه جستنيان على يد قائده في كل من أفريقيا وايطاليا هو نصر مؤزر لكن مهمة الحفاظ على البلاد المستردة من العدو هي أشد صعوبة من الاستيلاء عليها ، وذلك لأن رقعة الدولة البيزنطية

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في المراجع التالية :

١ ــ مجموعة غوستاف غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى ؛ المجلد/١ ؛ ج/١ ؛ فصل/٥ ؛ القسم الثاني وهو بعنوان:استرداد ايطاليا ؛ ص ١٤٢ــ١٦٢ .

٢ ــ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد/٥ ؛ لويس هالفين ؛ فصل/٧ ، بعنوان : اعادة وحدة الامبراطورية استرداد ايطاليا ، ص ٩٦ــ٩٨ .

٣ ــ مجموعة مارا بوط عن التاريخ العالمي ؛ ج/٣ ؛ ص ٣٦٣ ــ ٣٦٦ .

٤ ــ مجموعة لاروس للتاريخ العالمي . الجزء المتعلق بهذه الفترة من تاليف بطرس ريشيه ؛ ص ١١٢ .

٥ ــ ل. ب. موس : ولادة العصور الوسطى ؛ المرجع المذكور ؛ ص ١٣٢ ــ ١٣٩ .

زادت وبنسبة كبيرة وأنها صارت مجبرة على مجابهة صعاب داخلية متزايدة باطراد وباستمرار مستخدمة قوات من المرتزقة غير وفيرة العدد وغير انضباطية تماماً . وضاعف من وطأة تلك الصعاب المتزايدة أن المناطق المستردّة لم تكن محصورة في صعيد واحد ليسهل الدفاع عنها إنما منتشرة ومبعثرة في مناطق متعددة مما جعل مهمة المحافظة عليها صعبة شاقة ومعقدة .

وقامت صعاب جمّة في وجه مشروع جستنيان . فبعيد النصر الذي أحرزه بليزايوس في أفريقيا وايطاليا استمرت الصعاب التي اعترضت هـذا المشروع اثني عشر عاما (٥٤٠ ــ ٥٥٢) وذلك باسترداد الفاندال والبربر أفريقيا وباسترداد الأوستروغوط ايطاليا . لكن الإمبراطور البيزنطي لم يرضخ الى سياسة الامر الواقع ووجه قواته وعلى رأسها قائده المفضل الثـاني نارسيس الذي خاض معارك ضارية في كلتا الجبهتين حتى تمكن من استرداد ولاية أفريقيا وايطاليا .

وأورد الاستاذ لويس هالفين بصـدد الصعاب التي جابهت جستنيان ومشروعه وتذليل هذا العاهل لها ما نصه : « لقد عادت ايطاليا نفسها الـى الانتقاض على سلطة البيزنطيين خاصة وأن بليزاريوس لم يترك في ربوعها سوى حاميات قليلة العدد وذلك عند استدعائه الى جبهة الفرات . فالمملكة الأوستروغوطية التي ظنّ القائد البيزنطي أنه قضى عليها نهائيا دبّت الحياة فيها فجأة وعادت أكثر نشاطاً وأشدّ قوة من ذي قبل في شخص هيلدبـاد قائد موقع فيرونا . وبعد اغتيال هذا الاخير في ربيع سنة ٥٤١ حلّ ابن أخيـه توتيـلا مكانه وكان قائداً فذّاً وجندياً مقداماً جسوراً . وقد التف من حوله جميع القوط الذين تذمروا من حماقات القوات البيزنطية وجشعها وفرط حبها للمال وللسلب والنهب . وتمكن توتيلا بعد سلسلة انتصاراته التي أحرزها على القوات الامبراطورية بين سنتي ٥٤٢ ــ ٥٤٥ والتي مكّنته بعد احتلال معظم الأجزاء الشمالية والجنوبية من ايطاليا بما في ذلك مدينة نابولي والجنوب من محاصرة روما . وبعد أن عضّ الجوع سكانها بنابه فإنها استسلمت الى الملك القوطي الشرقي المظفر في نهاية سنة ٥٤٦ .

« كما بدأت أخبار مثيرة للقلق تصل من ربوع ولاية أفريقيا فقد ثارت قبائل بربر طرابلس الغرب سنة ٥٤٤ ثم انتقلت الثورة الى جنوبي تونس حيث ذبح ثوار البربر والي أفريقيا البيزنطي سليمان • كما سرت عدوى الثورة الى ولاية نوميديا وهي القسم الشرقي من الجزائر في سنة ٥٤٥ مما اضطر السكان والمواطنين الرومان والقاندال الى الانسحاب من مدن الجنوب والداخل الى السواحل • أفمن الممكن أن تذهب جهود طائلة وانتصارات مؤزّرة مبينة أحرزتها القوات البيزنطية وطيلة حملة استغرقت أربعة عشر عاماً سدى وتضيع وتكون هباءً منثوراً في غضون عدة أشهر ؟ وأخيراً سقطت قرطاجة نفسها بيد الثوار في آذار ٥٤٦ • فهل يعني ذلك أن الإمبراطورية الرومانية التي بدا وكأنها أحييت مجدداً بعد أن نفخ فيها جستنيان من حماسه ، فهل ستنهار هذه الإمبراطورية مرة أخرى وفي مختلف الجبهات وفي نفس الوقت وذلك تحت وطأة ضربات كل من الفرس والبلغار والسلاف والقوط الشرقيين والبربر ؟

« لم تستسلم الحكومة البيزنطية الى هذه الفكرة إنما حزمت أمرها وهبّت مجدداً لتقارع الخطر وتجابهه في شتى الجبهات بحزم وعزم نادرين • ففي أفريقيا أمكن استرداد قرطاجة نهائيا منذ سنة ٥٤٨ • وبعد أن الحق الحاكم البيزنطي الجديد الهزيمة بقبائل البربر جنوبي تونس غدا سيد الموقف وسيطر تماما على هذه الولاية » •

« وبعد أخفاق بليزاريوس والى حدٍّ ما في إيطاليا في استرداد هيبة الامبراطورية البيزنطية في سنتي ٥٣٨ ــ ٥٤٩ فان جستنيان أبدله بقائده الثاني المفضل وهو الخصي نارسيس الذي اعترضته صعاب جمّة في بادىء الأمر في هذه الجبهة لا سيما بعد نجاح ملك الأوستروغوط في استرداد روما وسردينيا وكورسيكا وجزء من صقلية ودالماسيا وضواحي راڤينا نفسها• لا بل بلغت الجرأة بهذا الملك (واسمه توتيلا) أن هاجم سواحل اقليم إپيراوس (شمال غربي اليونان) • لكنه ما لبث أن قتل سنة ٥٥٢ شمالي إقليم أومبريا • ولنلاحظ أن القوط الشرقيين والوا غداة مصرعه النضال

بقيادة زعيم شجاع اسمه ثيا Theia اعترفوا به ملكاً عليهم وقاتلوا ببسالة نادرة مجبرين بيزنطة على دفع ثمن باهظ لانتصارها عليهم • ومهما يكن فان الامبراطورية البيزنطية نجحت بفضل قائدها المقدام نارسيس في الاحتفاظ بكل من إيطاليا وأفريقيا • واضطر القوط الشرقيون الى الاستسلام في مطلع تشرين الاول سنة ٥٥٢ بعد مقتل زعيمهم البطل ثيا في المعركة في إقليم كامپانيا • وبعد ثلاث سنين من النضال استسلمت القوات الأوستروغوطية الباقية المرابطة في حصن كونزا في جبال الآپناين شمال شرقي مدينة ساليرنو [١] » • •

وهكذا فإن الامبراطورية الرومانية ، التي تعرضت الى خطر مداهم والتي أوشكت أن تنهار ضحية لجرأتها المتورطة ، اجتازت هذه الأزمة بسلام وخرجت منها منتصرة ، وزادت قوتها لما أحرزته من فوز مبين وملأ قلبها مجددا إيمان قوي بإحيائها العام •

رابعا ـ استرداد اسبانيا واعادة الحكم الامبراطوري الى ربوعها :

لم ينتظر جستنيان ريثما تصفّي قواته في إيطاليا مقاومة القوط الشرقيين لينقل نشاطه الى منطقة أخرى • وذلك لسنوح فرصة في سنة ٥٥١ أتاحت له الإفادة من الفوضى التي انتشرت في مملكة القوط الغربيين التي غدت تحتضر • وكان ملك القيزيغوط هؤلاء توديس Theudis قد قتل سنة ٥٤٨ كما قتل خلفه سنة ٥٤٩ أي بعد عدة أشهر فقط من مصرع الأول • ونظراً لتعصّب خليفتهما آجيلا الشديد لآريوسيته فان ازدياد ضغطه على الكاثوليك أثارهم ضده حيث تكتلوا في الجنوب حول أحد زعمائهم ملتمسين في الوقت نفسه تدخّل جستنيان لمصلحتهم • وبما أن جزر البليار ، وكانت قبل سقوط دولة الڤاندال احدى ممتلكات هؤلاء البحرية ، قد آلت الى البيزنطيين لذلك فانهم لن يتكبدوا كبير عناء فيما لو أنزلوا حملة الى البر الإسباني • كلف جستنيان قائده المسن ليبريوس بهذه المهمة فأداها بسهولة ونجاح حيث أحرز النصر على الملك القيزيغوطي آجيلا بالقرب من مدينة اشبيلية • وما

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٥ ، الفصل/٧ ، ص ١٠٠ ــ ١٠١ •

لبث هذا الملك أن اغتيل فارتاح منه ليبريوس نهائيا وأمكنه احتلال المنطقة الساحلية الواقعة بين مصبّي نهر الوادي الكبير ونهر جوكار .

لم يتمكن ليبريوس من احتلال مناطق أخرى . وكانت السن قد تقدمت بجستنيان ببلوغه السبعين في سنة ٥٥٥ فلم يعد شديد الطموح كعهدنا به في شبابه وكهولته . وفضلا عن ذلك فان الحروب المتواليـة التي خاضها أنضبت موارد خزانته فاضطر الى تسريح أكثر من ثلاثة أرباع فرق جيشه . (إنه احتفظ بمائة وخمسين ألف مقاتل بدلا من ستمائة وخمسين ألفاً) .

أما وقد انتهينا في هذا الفصل وقبله من دراسة غارات معظم قبائل الجرمان على الامبراطورية وحتى نهاية القرن الخامس ، ونظرا الى أننا لن ندرس في الفصول التالية سوى دولتي الفرنجة والكارولنجيين وغارات العناصر الشمالية على اسكنديناقيا ، وتأسيس الامبراطورية البلغارية في منتصف القرن التاسع ، وقيام دولة هنغاريا لذلك رأينا لزاماً علينا أن نضيف الى دراستنا لغـارات الجرمان والهون دراسة مقتضبة عن استقرار عنصرين من عناصرهم وهمـا الآڤار في سهل الدانوب واللومبارديين في إيطاليا .

استقرار عناصر الآڤار في أوروبا واحتلال عناصر اللومبارديين لإيطاليا :

إنه نتيجة صدفة سعيدة بالنسبة الى الامبراطورية الرومانية فان الآڤار ، أولئك الغزاة الآسيويون الجدد ، فضلوا الاستقرار في سهل المجر بين وادي نهـر التيزا Tisza ووادي نهر الدانوب . وبعد رحيل القوط الشرقيين عن هذه المنطقة سكنتها قبائل اللومبارديين التي بلغت في زحفها غرباً وحوالي منتصف القرن الرابع حوض نهر الموراڤا . ثم والت هذه القبائل الإيغال في زحفها غرباً فوصلت في نهاية القرن الخامس جنوبي النمسا . وكانت خاتمة مطافها عند بلوغها السهل المجري حيث توقفت لتجابه عناصر الجيبيديين الذين انقضوا على هذا السهل بعد انطلاقهم من إقليم ترانسيلڤانيا وذلك غداة وفاة زعيم الهون آتيلا . وتساءل الجميع لمن سيكون النصر أللجيبيديين أم للومبارديين من حيث أن المنتصر سيتمكن من الاحتفاظ بسهل المجر الوفير الخصب . وكانت تحركات الجيبيديين قد بدأت تثير قلق الامبراطورية الرومانية أكثر

من ازعاجها اللومبارديين مما أدى الى سلامة هؤلاء حيث رغب جستنيان سنة ٥٤٦ في محالفتهم ليتغلب بواسطتهم على الجبيديين الأشد خطرا على الامبراطورية • وانطلاقاً من تلك الفكرة قبل هذا الامبراطور منحهم كيان « الحلفاء » ، كما دعمهم ماليا ولم يتردد عند الحاجة في أن يمدّهم بقواته •

وأمكن هذا الظرف المواتي اللومبارديين (الذين غدوا حلفاء للامبراطور البيزنطي) من الاستئثار بالسيطرة على منطقة الحوض الاوسط لنهر الدانوب ومن تسديد ضربات قوية الى أعدائهم الجبيديين، ولم يكونوا بعد قد تمكنوا من الإجهاز عليهم وإبادتهم عندما ظهرت عناصر الآفار على السفوح الشرقية لجبال الآلب الترانسيلفانية (القسم الجنوبي من سلسلة جبال الكرپات وتقع في رومانيا الحالية) • وبعد أن خيّم الهدوء على المنطقة وطوال خمسة عشر عاماً (٥٥١ ــ ٥٦٥) اقترح ملك اللومبارديين آلبوان Alboin على زعيم قبائل الآفار تجهيزهما حملة مشتركة ضد العدو المشترك وهم الجبيديون • وتمكن هذان الرئيسان من تدمير قوات هؤلاء سنة ٥٦٧ ، لابل فان ملكهم نفسه قد سقط قتيلاً في أرض المعركة • وعمدت قوات اللومبارديين والآفار الى اقتسام أسلابهم •

لكن ملك اللومبارديين آلبوان لم يتمتع طويلا بثمار ذلك النصر الذي كانت نتيجته استقرار جيران خطرين وهم الآفار على ضفتي نهر التيزا ، وقد أمسى جميع السهل المجري ومنذئذٍ عرضة الى هجماتهم وغاراتهم وتحت رحمتهم • وإذا ما رغب اللومبارديون أن ينعموا بالهناءة وبالاستقرار فما عليهم سوى التفتيش عن جواء أخرى معطاء خيّرة للاستقرار في ربوعها لينعموا بخيراتها • وقد فتح إنقاص عدد أفراد الحاميات البيزنطية المكلفة بالدفاع عن ايطاليا أمام اللومبارديين آفاقاً جديدة وإمكانيات مغرية • وهكذا بدأ الشعب اللومباردي ومنذ ربيع ٥٦٨ بالتحرك نحو شمالي البحر الآدرياتيكي • وعلى حين كان الآفار يوالون احتلال سهل المجر بعد أن انسحب منه اللومبارديون فان هؤلاء حثّوا الخطا وأغذّوا السير نحو البندقية مما سبب كما ذكر الاستاذ لويس هالفين انهيار الحكم البيزنطي في

إيطاليا مرة ثانية حيث قال هالفين عن ذلك ما معناه : « ومرة أخرى انهار الحكم الامبراطوري ودفعة واحدة من قسم كبير من شبه جزيرة إيطاليا وبسهولة تامة لا تُفَسَّر الا باضطرار الامبراطورية الى توزيع جهودها واستنفادها وبعثرة قواتها في مناطق شتى من أنحاء بلادها . وتمكن اللومبارديون وخلال خمس سنين (٥٦٨ ــ ٥٧٢) من احتلال معظم أقاليم الشمال . وبعد بدء سقوط بلاد وسط إيطاليا وبينها سپوليت وبنيڤانت في أيديهم وحتى قبل سنة ٥٧٢ فانهم حاصروا مدينتي روما وناپولي وبذلك أمست أيام الامبراطورية البيزنطية معدودات .

« وعلاوة عن ذلك فان استقرار الآڤار في سهل الدانوب سوف يعرض جميع أوروبا الى نفس الخطر الذي تعرضت له أثناء غارات الهون بقيادة آتيلا على ربوعها . وذلك لأن تاريخ الهون قد استؤنف مرة أخرى على ما يبدو من حيث أن الصفات الجنسية والعامة للآڤار تنطبق تماما على الصفات التي لاحظناها عند الهون : فثمة لدى الآڤار أولئك الفرسان الذين ينطلقون كالسهام ولا يمكن اللحاق بهم والذين كانوا مُسَمَّرين على صهوات جيادهم ، ونفس الرجال ذوي القامات القصيرة والممتلئي الأجسام والشرسي الطباع والأجلاف وذوي الوجوه المثيرة للفزع ذات اللون الرمادي والأدكن ويقودهم زعيم قاسٍ لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا وهو **الخاقان** الذي كان حرمه (مجموعة نسائه) يرافقنه في حِلّه وترحاله ، كما يحملون له عرشه في غاراته وهو مقعد ذهبي وثير يجلس عليه عندما يحط رحاله في منطقة ما مقلداً في ذلك خاقان التتر والترك . » وبدهي أن الامبراطورية الرومانية كانت أول من تعرّض الى تهديد عناصر الآڤار هذه . وقلّ أن مرّ عام بعد سنة ٥٨٠ الا وحدث خلاله اشتباكات بين القوات البيزنطية وتلك القبائل الآسيوية التي كانت تجرّ في مؤخرتها أثناء غاراتها أو تدفع أمامها العناصر السلاڤية المستقرة في الوادي الأسفل لنهر الدانوب . وينحدر هؤلاء السلاڤ من جنس خليط مفتقر الى الانسجام ولو أن أفراده يقاتلون بشجاعة فائقة وإقدام وكانوا كعناصر مشاة مقاتلة ممتازين كالآڤار وفرسانا مهرة

يجيدون الكرّ والفرّ وبرعوا في الغارات الخاطفة (الغزو) والانقضاض على العدو ، كما يشبهون الآقار كذلك من حيث أنهم قساة ويرتكبون جميع أنواع العنف . وذكر مؤرخ إغريقي معاصر أن الآقار كانوا يحرقون أسراهم أحياءً أو يحطمون جماجمهم بالعصي كما يفعل عادة بالكلاب وبالأفاعي[1]» .

فأمام هؤلاء الأعداء انبرت الامبراطورية البيزنطية للدفاع عن نفسها بحسب الامكانات التي في حوزتها . وكثيراً ما كان هؤلاء ينقضّون كالسيل الجارف على شبه جزيرة البلقان ، أو يغيرون على القسطنطينية ويهددونها ومع ذلك فان خلفاء جستنيان كانوا يقاومونهم وبشجاعة فائقة على الرغم من انحلال جيوشهم وعلى الرغم من الاضطرابات الداخلية والثورات التي كانت تشلّ حركة الجيوش . لا بل فان أحد هؤلاء الأباطرة البيزنطيين وهو موريس تحوّل من الدفاع الى الهجوم ناقلاً سوح القتال في سنة ٦٠٠ الى عقر دار الآقار على ضفتي نهر التيزا نفسه . وكان عمل هذا الامبراطور جريئا للغاية لكنه لم يؤد الى أية نتيجة خاصة ولم يعد قيام الاباطرة البيزنطيين بهجوم ما سوى وسيلة لتهدئة العاصفة وتأجيل وقوع كارثة في الداخل . وصار الأباطرة وعلى مختلف الجبهات مضطرين الى التزام جانب الدفاع حيث كانوا ينجحون وبمشقة زائدة في الدفاع عن حدود امبراطوريتهم وصدّ غارات تلك العناصر . كما كانوا كثيرا ما يجبرون على التسليم بشروط أولئك المغيرين عندما يزداد ضغطهم وتشتد وطأتهم . كما كانت تلك الغارات على حدود الامبراطورية تزداد وباطراد حدّة وعنفاً وتقوم بها عناصر يقودها زعماء في منتهى الشجاعة .

---

(١) لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد/٥ ، الفصل/٨ ، ص ١١١ — ١١٢ ؛ وارجع كذلك الى كتاب ل. ب. موس المذكور ، الفصل/٧ ، ص ١٦١ — ١٦٧ .

الفصل السادس

أولا ـ تاريخ الكنيسة

الكنيسة في العصر الروماني : تمّت ولادة السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم بفلسطين الخاضعة آنذاك للحكم الروماني في عهد الامبراطور أغسطس في ظرف كان سكان العالم الروماني فيه متعطشين الى ظهور دين جديد من حيث أنه حتى الرومان أنفسهم أمسوا يعتبرون وثنيتهم ومذهبهم الرسمي وهو عبادة الاباطرة مجرد أمور شكلية • ونشدانا من المثقفين أن يرووا ظمأهم بعــد أن استخفّوا بالمعتقدات الدينية السائدة ، اليونانيــة أو اللاتينية الاصل ، لا بل فان فئة منهم اعتنقت آراء الرواقيين (المذهب الذي وضعه الفيلسوف اليوناني زينون في القرن/٤ ق•م) لكنها لم ترو ظمأهم لتطرفها في الجمود والمنطق وبعدها عن الآفاق السماوية•وعلى العموم لم يكن للديانة الرومانية في القرنين ٣ ـ ٤ أي أثر انفعالي عاطفي في نفوس من كانوا يقدمون القرابين لا عن عقيدة إنما ابتغاء قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة • ولسدّ هذا الفراغ الديني الملاحظ في الجزء الغربي من الامبراطورية في الحقبة ذاتها اقتبس الأهلون بعض المعتقدات الدينية من الشرق[1] ، ولا سيما الديانة المسيحية الجديدة التي ظهرت في فلسطين •

---

(١) راجع أسماء تلك المعتقدات في كتاب الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ـ التاريخ السياسي ، ج/١ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ وقد أورد تلك الاسماء نقلا عن المصادر الانكليزية التالية :

1 — Dill (s) : Roman Society From Nero to Marcus Aurelius. London 1925; P. 529 - 549.

2 — Rostovtzeff : A History of the Ancient World. (Oxford 1928); Vol. 2; P. : 335.

3 — Painter (s) : History of the Middle Ages (.New York 1954); P : 11.

4 — Cambridge Meddival History; Vol 1; P : 89.

وثمة بون شاسع بين المسيحية وباقي الديانات التي ظهـرت في الشرق حتى ذلك الوقت • فالتعاليم التي أتى المسيح بهـا تسمو على تعاليم باقي الديانات المقتبسة لأنها مستمدة من كتاب سماوي مقدس يمكن للخاصّة والعامة فهمه وليست منقولة عن مذهب فلسفي يوناني أو غير يوناني يقتصر فهمه على فئة المثقفين فحسب • ومما يسمو بالمسيحية على الديانات المشار إليها آنفاً أنها دين سماوي عام وليس مقتصراً على طائفة ما أو مُمَيِّزاً فريقاً على آخر فهذا هو التفسير المقبول لانتشاره السريع ونجاحه وتفوّقه في نهاية الصراع على ما عداه من العقائد الشرقية المعاصرة •

كان يهود فلسطين يعيشون قبل ولادة المسيح فترة قلق • واعتقد كثيرون منهم أن ظفر ((**الشعب المختار**)) وشيك وذلك بولادة المسيح « رسول الله الذي بشّر به الكتاب المقدس » • ففي هذه البيئة التي سيطر عليها القلق (ويستوي في ذلك الوثنيون واليهود) ولد السيد المسيح في بيت لحـم وعاش فترة شبابه في الناصرة والجليل • ولما بلغ الثـلاثين من عمره طاف ربوع فلسطين معلناً رسالته • وبلغ أوائل المنضمين اليه اثني عشر تلميذاً أو حوارياً • واستمر المسيح يدعو اليهود طيلة ثلاثة أعوام مُبَشِّراً بالإنجيل، الوعد الحق بالسلام والعدل ، داعياً المساكين بلغـة بسيطة يفهمونها ، الى رسالته القائمة على المحبة والاخاء •

لم يستجب اليهود الى دعوة المسيح مع أنه كان يذكر لمستمعيه منهم أنه لم يأت ليلغي إنما ليتمِّم • لكن الأحبار الـذين كانوا يجتمعون عادة في المحكمة اليهودية العليا لم يقبلوا دعوته بوجوب جعل محبة الله والاخاء بين الناس فوق ناموسهم فحرّضوا عليه السلطات الرومانية التي خشيت أن تنقلب دعوته الى ثورة وكان أن أذعن الحـاكم الروماني بيلاطس البنطي لطلب المحكمة اليهودية العليا وصلب عيسى على رابية الجلجلة شمالي بيت المقدس وهي التي شُيِّدَت فوقها كنيسة القيامة •

تعاليم المسيح وتاسيس الكنيسة : ذكر يسوع الىاليهود أن دعوته غايتها إتمام « العهد القديم » داخل اليهودية لأنه رسول الله إله اليهود الأوحـد

اللامادي وغير القابل للتمثيل وغير المرئي بالعين إنما تدركه البصائر والقلوب.
لذلك فإن تعاليم هذا الرسول والفكرة المقتبسة منهـا تنأى به عن مفاهيم اليهود . فالرب بالنسبة الى اليهود هو كما ورد في العهد القديم هو الإله المنتقم الجبار بينما تشير تعاليم المسيح الى الله إله المحبة والخير والعفو عن خطايا خلقه ، إنه إله جميع البشر وليس إله قوم واحد فحسب . كما نصت هذه التعاليم على ان المزايا والفضائل الشخصية هي الأمور التي يحاسب عنها الفرد . وليس ثمة تمييز اجتماعي إنما مساواة بين العبيد والفلاحين من جهة والشيوخ والامبراطور نفسه من جهة أخرى فالناس إخوة وعليهم حبّ بعضهم بعضاً والعفو عن المذنب وأن يدفعوا السيئة بالحسنة فالأفراد المتقيدون بهذه القواعد الخلقية سيفوزون بالحياة الأبدية .

نشر الرسل المسيحية : أتمّ الرسل الحواريون رسالة أستاذهم المسيح بعد موته وذلك بنشرهم مذهبه الجديد . ومع أن معلوماتنا عن المراحل الأولى لانتشار النصرانية في جميع أقاليم الامبراطورية قليلة وليست بذات غناء لكن ثمة إجماع على أن القديس بولس هو الذي ذهب بفخار تنظيم المجتمعات المسيحية الاولى ووضع قواعد اللاهوت وما يتصل به من تعاليم المسيحية المتعلقة بالأخلاق أو الأخرويات وتتضمن الموت والبعث والحساب والخلود . وعلاوة عن ذلك فقد أرسى بولس دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية ووطدها . وكان هذا الحواري في الأصل يهوديا من ولاية كيليكيا في آسيا الصغرى وكان خصما عنيفاً للنصارى وبينما كان في طريقـه الى دمشق بدا له المسيح فاعتنق النصرانية ودعي منذ ذاك بالقديس بولس . وبعد رحلات كثيرة انتهى به المطاف في روما حيث صار فيها داعية ومبشراً بالإنجيل .

لقد زاد الحواريون على ما أتى به المسيح أشياء أخرى تتصل بالموت والدفن في القبر ثم قيام المسيح في اليـوم الثالث من دفنه وظهوره الى الحواريين قبل صعوده الى السماء . وبصورة عامة يضـم عادة الى العهد الجديد الذي بشّر به يسوع رسائل بولس والأناجيل الأربعة : متّى ، يوحنا ، لوقا ومرقص .

ومع أن معلوماتنا عن انتشار المسيحية وتاريخ الكنيسة في القرن/١ ضئيلة جداً ، إنما من المؤكد أن انتشارها بدأ يزداد لدرجة أن جميع الولايات الرومانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط صارت فيهـا في الوقت نفسه جاليات مسيحية ، هذا في الوقت الذي زادت فيه أهمية تلك الجالية المسيحية في روما نفسها في سنة ٦٤ الى درجة جعلت أفرادها عرضة الى نقمة واضطهاد الامبراطور نيرون نفسه .

تحدث الاستاذ أوجين آلبيرتيني Eugène Albertini في الجزء الذي ألفه عن الامبراطورية الرومانية عن انتشار المسيحية ودور القـديس بولس في نشرها في روما وسواها فقال ما معناه : « لقد قام القديس بولس بالنسبة إلى نشر المسيحية التي ألقيت على عاتق أفراد الجيل الاول من المسيحيين بدور الداعي الأول أو الرئيسي . وكان بولس هذا يهودي المولد من مدينة تارس في ولاية كيليكيا (بآسيا الصغرى) وهو تبعاً لذلك مواطن روماني بالنسبة الى مولده ، وله نفس عمر يسوع المسيح تقريباً ولو أنه لم يره إطلاقاً . وكان شديد الكراهية للمسيحيين لكنه لم يلبث أن اعتنق دياتنهم بعد مضي عدة أعوام على وفاة المسيح . وقد قام منذ ذاك بعدة رحلات الى سورية والى جميع مناطق آسيا الصغرى والى مقدونية وآخايا (في اليونان) . ولقـد أوقف في فلسطين بناء على طلب أحبار اليهود لكنه بوصفه مواطناً رومانياً فان سلطاتها أرسلته الى روما ليحاكم فيها حيث أوقف ثم أطلق سراحه بعد سنتين ولربما قام برحلة الى إسبانيا . وذكرت المصادر القديمة أن وفاته تمت في روما في سنة ٦٤ أثناء حملة الاضطهاد التي قام بها الامبراطور نيرون ضد المسيحيين كما حدثت وفي الوقت نفسه فيها وفاة زميله الحواري القديس بطرس ولو أن الشك يحوم حول وصول هذا الأخير الى روما » .

« .. ورزق القديس بولس مواهب غير عادية ليكون داعية ومبَشّراً ومنَظّماً . وقد تمكنت النصرانية في زمنه وخاصة بفضله من أن تَعَمّق جذور عقيدتها فتصبح راسخة في نفوس معتنقيها كما نجح في الوقت نفسه في توطيد دعائم الكنائس التي تمّ تشييدها .

« وفي الوقت الذي تمّ فيه تحديد المعتقدات الرئيسية للنصرانية فان عدد معتنقيها قد زاد كثيراً • وكان بولس يلقي مواعظه باللغة اليونانية تلك المواعظ التي كان يلقيها وفي الوقت نفسه على كل من الوثنيين واليهود • وبنتيجة جهد دؤوب ومستمر أخذت النصرانية تنفصل عن اليهودية لا بل تقاومها ، كما رفضت الاعتراف لرجال سلك الكهنوت بأية سلطة وتخلصت أيضاً من العادات والمذاهب اليهودية ، وهكذا فإن جماعات المسيحيين بدؤوا منذئذ يعيشون حياتهم الخاصة ، وقد تسلم الكثيرون من أفرادها رسائل (سواء أكانت رسائل من العهد الجديد Epîtres أم رسائل شعرية أم حتى عادية) كما بعث إليهم بنصائحه وتوجيهاته •

« ثم زادت المسيحية رسوخاً وخاصة بعد ضعف اليهودية بنتيجة الحروب التي استشرت في فلسطين • وكان ثمة كثيرون في فلسطين من الأفراد اليهود الذين اعتنقوا النصرانية لكن الهزيمة التي لحقت بهذه الاخيرة في تلك البلاد اضطرت هؤلاء اليهود معتنقي النصرانية الى الهجـرة الى مختلف الولايات الرومانية حيث أسهموا في نشر ديانتهم الجديدة فيها • ومن المحتمل أنــه أنجز حوالي نهاية القرن الاول ومطلع الثاني كتابة وتدوين الفصول الرئيسية من العهد الجديد ومن الأناجيل وأعمال الرسل وغير ذلك من أمور العقيدة »[1]•

ظن كثيرون أن انتشار المسيحية في مراحله الأولى قد تمّ بين طبقات المجتمع الروماني الفقيرة والمعدمة بينما من الثابت أنه لم يكن المسيحيون الأوائل من الفقراء والمعدمين فحسب إنما اعتنق الدين الجديد كذلك أفراد من سراة المجتمع الروماني • هذا ولو أن النصرانية لم تنتشر ويكثر أتباعها بين الأرستقراطية الرومانية إلا بعد اعتراف الامبراطور قسطنطين في مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ بالنصرانية كدين من بين مجموعة الأديان المنتشرة في العالم الروماني • ومع ذلك فيجب ألا يسها عن بالنا أنه وجـد في ثلاثة القرون الأولى (أي قبل صدور مرسوم ميلانو) أفراد من علية القوم صبؤوا الى

---

(١) أوجين آلبيرتيني ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٤ ، وهو بعنوان : الامبراطورية الرومانية ، الفصل/٦ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

هذا الدين ولو أنهم لم يكونوا وفيري العدد . أما بعد سنة صدور المرسوم المذكور فقد اعتنق النصرانية عدد لا بأس به من أفراد الطبقات العليـا في المجتمع الروماني ، لا بل فإن هذا الدين الجديد أخذ يتسلل وبخطوات وئيدة الى بلاط الاباطرة نفسه .

وقد تألفت ومنذ القرن الاول طوائف من أتباع النصرانية في مدن فلسطين وأنطاكية والاسكندرية وقرطاجة وحتى في روما نفسها ، مع ملاحظة أن غالبية معتنقي الدين الجديد كان أفرادها يعيشون في المدن أكثر منهم في الأرياف. ولا يمكن التحديد بدقة متى وصلت المسيحية روما ولو أنه لوحظ في عهد الامبراطور كلود (٤١ ــ ٥٤ م) اعتناق بعض يهود هذه المدينة النصرانية . ثم أخذ عدد المسيحيين فيها يزداد وباطراد مما وجدناه في رسالة وجههـا القديس بولس سنة ٥٧ الى سكان روما . وأوضحت هذه الرسالة أن الكنيسة كانت معروفة في هذه المدينة وأن نفوذها اشتق من حسن إدارة كـل من القديسين بولس وبطرس لشؤونها وتكريسها . ولا يرقى الشك الى أن بولس قد سكن روما بينما لا يمكن الجزم بصدد مقام بطرس فيها ، هذا ولو أنه ثبت أخيراً بعد الحفريات التي أجريت تحت كنيسة القديس سيباستيان والعثور على قبره « قبر أمير الرسل » أنه أقام وخلال فترة في هذه المدينة . ويعتبر أساقفة روما أنفسهم خلفاء لبطرس الذي لقّبَ ، كما ورد في إنجيل متّى الإصحاح/١٦ ، مؤسس الكنيسة وأن المسيح خَوّله « سلطة المفاتيح » أي « سلطة الحلّ والعقد » . وأن بطرس نقل الى خلفه أسقف روما تلك السلطة التي زُوِّد بها من قبل المسيح نفسه . ثم انتقلت هذه السلطة الى أساقفة روما الذين تولّوا هذا المنصب فأبعد ذلك الفكرة الرامية الى اعتبار أسقف روما مجرد أسقف كباقي الأساقفة ليعتبر رئيساً لزملائه الأساقفة .

تنظيم الكنيسة : جعل نظام متسلسل للسلطات الكنسية وفق التقسيمات الإدارية في الامبراطورية فهناك أسقف في كلمدينة ورئيس أساقفة أو مطران في حاضرة الاقليم وبطريرك في كل من أنطاكية والاسكندرية والقـدس والقسطنطينية . ولئن كان أسقف روما من قبل مساوياً لسواه لكنه لم يلبث

أن سما على أقرانه كما مر بنا من حيث اعتباره وريثاً وخلفاً للقديس بطرس • ومن هذه الزاوية بدأت سلطة البابوات ، وهم أصلاً أساقفة روما ، تزداد • ثم صارت **المجامع المسكونية** التي يشترك في عضويتها أساقفة جميع المدن المسيحية تعقد منذ القرن الرابع•وساعد هذا التنظيم على تقوية الكنيسة وازدياد أهميتها في جميع بقاع الامبراطورية الرومانية • هـذا بينما عزا مؤرخون آخرون سرعة انتشار المسيحية في العالم الروماني الى عـدد من الأسباب نخصّ بالذكر منها شبكة المواصلات التي كانت تربط بين مختلف المـدن الامبراطورية برباط وثيق ، وانتشار الأمن والسلام في ربوعهـا ، وازدياد المبادلات التجارية بين مختلف بقاعها •

ولنشر الى أن المثقفين الـذين اعتنقوا النصرانية سخّروا ثقافتهم ذات الطابع الإغريقي اللاتيني في خدمة الدين الجديد والدفاع عنه وتمجيده فظهر أدب مسيحي جديد كان أساطينه بادىء الأمر : جوستين النابلسي وترتولين القارطاجي وأدريجين الاسكندري • ومن بين رجال الفكر المسيحي هؤلاء في القرن الرابع ومستهل الخامس أقطاب رجال الفكر المسيحي الذين دعوا آباء الكنيسة وعلى رأسهـم آثناس الإسكندري وباصيل من قيصرية في الولايات الشرقية التي كان الطابع الاغريقي يسود ثقافتها • بينما كان منهم في الولايات الغربية القديس آمبرواز أسقف ميلانو ، وكان واضح الأثر في إدارة الكنيسة وتنظيم العبادة والعلاقة بالسلطة الإمبراطورية • ومنهم أيضاً جيروم الرحّالة الذي طاف مختلف أنحاء الامبراطورية واعتبرت ترجمتـه للعهد القديم وللعهد الجديد عن اليونانية الى اللاتينية الكتاب المقـدس الكاثوليكي الرسمي (الفلغاطة) • ولعـل القديس أغسطينوس الجزائري (من ولاية نوميـديا القديمة ــ أي قسنطينة) هو أهم أولئـك الآباء في هذا الحقل فكان من قبل أستاذاً للفصاحة ثم غدا أسقفاً لمدينة هيبون (بونة) واحتلت آثاره مركز الصدارة في الادب المسيحي في عصره ، وأهمها كتاباه « الاعترافات » و « مدينة الله » •

بدأ الرومان وبتحريض من اليهود أنفسهم يجسون خيفـة من انتشار

المسيحية علماً أنهم كانوا وحتى هذا الظرف قد ألفوا السماح بحرية العقيدة للمواطن الروماني طالما اعترف بآلهة الدولة الرسمية من ناحية وأن عقيدته لا تشكّل خطراً على سلام الامبراطورية من أخرى • ويقتصر ما كان يطلب من جميع الرعايا الرومان على تباين معتقداتهم ، الاعتراف بعبادة الامبراطور الحاكم وذلك بمثابة يمين الولاء للحاكم في زمننا ، علماً أن اليهود استثنوا من هـــذا التكليف في نطاق الامبراطورية أما المسيحيون فلم يتمتعوا بتلك الحرية الدينية الى هذا الحد •

ثم ساءت العـــلاقة بين السلطات الحاكمة الرومانية والمسيحيين لرفض هؤلاء القيام ببعض الطقوس كحرق البخور أمام تماثيل الآلهة الرومانية ، ورفض تقديم القرابين على مذابح المعابد ورفضهم عبادة الإمبراطور وعبادة روما نفسها •

اختلط الأمر على الرومان بادىء الأمر فظنوا المسيحية فرقة يهـــودية خاصة لأن أتباعها رفضوا ، وكباقي اليهود ، عبادة الأباطرة • لكن الامور لم تلبث في نهاية القـــرن الاول أن وضحت للسلطات الرومانية الحاكمة فأدركت أن المسيحيين أتباع ديانة جديدة وأنهـــم يقومون بطقوسهم سراً ، وأنهم رفضوا الانخراط في الجيش الروماني ، وأنهم جعلوا يوم الاحد أول أيام أسبوعهم بدلاً من يوم السبت عند اليهود • فكان من جراء ذلك تغيير الحكومة الرومانية موقفهـــا منهم باعتبارهم فئة هـــدامة مهددة لســـلامة الامبراطورية • ومما زاد من قلق الحكومة تلك الاجتماعات السرية التي كان يعقدها هؤلاء المسيحيون رعاياها خاصة وأن جمهرة من كان يحضرها هـــم الفقراء الذين انتشرت المسيحية بين صفوفهم وبنسبة أكبر • واعتبر المسؤولون الرومان الدين الجديد مجـــرد ثورة اجتماعية هدامة تنشد ثلّ دعائم صرح البناء الاجتماعي الروماني • وبينما كانت الحكومة الرومانية غير آبهة في أول الامر بالمسيحية مستخفة بأتباعها فلما زاد انتشارها وكثر أتباعها صارت تحسب لها حساباً وتخافها وتشك في أمرها •

وأدى هـــذا الموقف المعادي للمسيحية الـــذي بدأت تقفـــه السلطات

المسؤولة في الامبراطورية الى بداية فترة الاضطهاد الأولى التي تعرض إليها المسيحيون بدون استثناء القديسين بولس وبطرس • ومرّ المسيحيون في الفترة ما بين عهد الامبراطور نيرون ولا سيما في سنة ٦٤ وإصدار قسطنطين في سنة ٣١٣ مرسوم ميلانو الذي دشّن هذا الامبراطور به عهداً جديداً من التسامح والاعتراف بالمسيحية ديناً بين مجموعة الأديان المنتشرة في العالم الروماني بفترات من الاضطهاد المرير وبعهود من التسامح • ولعل أكثر الأباطرة الرومان تشدّداً في معاملتهم نيرون وتراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أورليوس وديوقليسيان وسپتيم سيڤير وغيرهم • لكن الخطة التي وضعها هؤلاء الأباطرة في القضاء على هذه الديانة باضطهاد معتنقيها لم يجن الأباطرة منها الثمرة المرجوّة لأن شهداء النصرانية كانوا يتلقون العذاب والضرب والاذى بشجاعة وصبر وإيمان مما أثار إعجاب الوثنيين الرومان وحدا بكثيرين منهم الى اعتناق الدين الجديد • وقد ذكر ترتوليان أحد أقطاب الفكر المسيحي في القرنين الثاني والثالث في الجزائر أن دم المسيحيين كان كالبذار • وبصورة عامة لم يؤد الاضطهاد إلا الى زيادة عدد معتنقي هذه الديانة •

وقد حدثنا الأستاذ آلبرتيني عن ذلك الاضطهاد ضد المسيحيين فيمختلف عهود الاباطرة الذين أوردنا أسماءهم أعلاه فقال مثلاً بالنسبة الى عهد نيرون ما نصه : « لم يكن المسيحيون في سنة ٦٤ يتمتعون بأية شعبية في روما على الرغم من أنهم كانوا معروفين تماماً في هذه المدينة مما سمح لهذا العاهل باتهامهم بإحراق روما والحكم عليهم بعقوبات وحشية • كما وأن عدداً من أفراد حاشية دوميشيان تعرضوا الى الضرب والتعذيب لقبولهم الآراء اليهودية المسيحية • وبصورة فاقت انتشار باقي الديانات الشرقية في الجزء الغربي من الامبراطورية فإن العقيدة المسيحية زاد وبصورة مستمرة عدد معتنقيها • وعلاوة عن ذلك فقد اعتنق هذه الديانة بعض النبلاء ورجال الفكر الذين انضموا الى المعتنقين الاوائل لهذه الديانة وكان معظمهم من الفقراء • لقد منّت النصرانية معتنقيها بالآمال العريضة فلم تؤثر سوء معاملة السلطات

في حمل هؤلاء المعتنقين على الارتداد عنها »[1] .

كما حدثنا هذا المؤرخ نفسه عن الاضطهاد الذي خضع له المسيحيون على يد كثير من أباطرة القرنين الثاني والثالث ، وقد أشار أيضاً الى أن نتيجة ذلك الاضطهاد كانت عكسية حيث زاد عدد أتباع النصرانية وأحكم تنظيم سلطاتها الكنيسة ، وشهدت هذه المسيحية بزوغ فجر أدب كنسي شمل العديد من الولايات الرومانية كما بَيّن هذا المؤرخ سبب فشل وسائل الشدة والقمع التي لجأ إليها المسؤولون الرومان[2] .

وعمد الأستاذ آندريه بودريّار André Baudrillart الى تحليل أسباب ازدياد انتشار النصرانية على الرغم من الاضطهاد المرير الذي تعرض إليه معتنقوها على يد السلطات الرومانية . إنه أورد كذلك الأسباب التي حملت تلك السلطات على القسوة في معاملة المسيحيين فذكر بصدد جميع تلك الأشياء ما معناه : « لقد كان للنصرانية مثل أعلى في الحياة الاجتماعية حمل الكثيرين من البؤساء المعدمين ، الذين لم تكن تشريعات العصور القديمة ، التي وإن شذّبت الطباع وخففت من قسوة القوانين القديمة ، رحيمة بهم ، على الإقبال على اعتناقها . وقد زاد انتشار النصرانية في روما وبشكل سريع » .

وبعد أن تحدث المؤلف عن موجة الاضطهاد التي خضع لها المسيحيون في عهد نيرون أضاف ما يلي : « وزاد عدد الكنائس في نهاية القرن الاول في قسم كبير من الامبراطورية . بينما لم تخل ولاية رومانية في نهاية القرن الثاني من الكنائس ، كما شيّدت الكنائس في الاقاليم الواقعة خارج الحدود الرومانية . وقد كتب المفكر المسيحي ترتوليان Tertullien حوالي مطلع القرن الثالث ما معناه : « لم تمض سوى فترة وجيزة على انتشار ديننا في رحابكم وها هم أتباع دياناتنا يملؤون جميع بقاع إمبراطوريتكم أيها الرومان »

---

(1) أوجين آلبيرتيني ، المصدر عينه ، المجلد/٤ ، الفصل/٦ ، ص ١٧٠ .

(2) المصدر عينه ، المجلد/٤ ، الفصل/٩ ، ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، ٢٤١ ، والفصل/١٠ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

ثم أضاف هذا الأديب : « ولو قـُدِّر لنا نحن معاشر المسيحيين أن ننسحب من إمبراطوريتكم فسوف ترتعد فرائص الوثنيين من الوحدة » فحتى لو سلمنا جدلاً بأن ثمة مبالغة فيما أورده هذا الاديب المعاصر فلا سبيل الى جحود هذا الرأي لرجل معاصر شهد الامور عن كثب خاصة وقد أيدت أقوال المؤرخين المعاصرين والحفريات الأثرية ما أدلى به من قول .

« فلماذا والحالة هذه تتعرض ديانة قائمة على الرحمة والسلام الى الاضطهاد ؟... لقد ناصب أتباع جميع الديانات الاخرى المسيحية العداء وذلك لأنها استهدفت القضاء على تلك الديانات بدون استثناء الديانة الرسمية في الامبراطورية (إنها عبادة الأباطرة) . لقد تساهل الرومان مع اليهود لأن ديانتهم هي ديانة شعب (وهم لا يريدون التبشير بها ونشرها لاعتبار اليهود أنفسهم شعب الله المختار) . أما المسيحيون فيدّعون أنهم إنما يؤلفون مجتمعاً وأن مجتمعهم هو الوحيد في الظرف الراهن . ثمت فإنه بنتيجة تدخل النصرانية في جميع شؤون الحياة الخاصة والعامة فان المسيحي يعيش انعزالياً متقوقعاً على نفسه بمنأى عنهما سواء أتمّ إبعاده نفسه عنهما بصورة نظرية أم ، وغالباً ما كان يحدث ذلك ، في حَيِّز الواقع . وقد أدى ذلك الى أن جميع السلطات القديمة ، هذا بدون أن نضيف الى ذلك مصالح الأفراد ، قد تحالفت ضد هذه الديانة . فلشعور الامبراطورية أن عليها مجابهة عدوّ جلد صبور لا تلين له قناة فإنها أزمعت خوض كفاح قوي ضده. ومهما يكن من قيمة تلك الاسباب التي تذرعت بها السلطات الامبراطورية ضد النصرانية فقد اعتبر اضطهاد المسيحيين ، كما يقول الأديب الفرنسي رينان Renan (إرنست رينان وهو من أدباء القرن التاسع عشر في فرنسا ١٨٣٢ ــ ١٨٩٢) ، وذلك من أجل وحشية وقسوة الوسائل التي طـُبِّق بها ، ومن أجل وفرة عدد ضحايا هذا الاضطهاد ولبراءة تلك الضحايا مما عزي إليها من اتهامات ، وللفضائل التي يتحلّى بها أولئك المـُعَذَّبون ، وذلك بشهادة القضاة الذين أدانوهم أنفسهم لذلك كله فإن ذلك الاضطهاد بقي

أحلك صفحة من صفحات التاريخ وبقي مثيراً لخجل الحضارة القديمة »[1].

مضى الامبراطور سپتيم سيڤير Septime Sévère الذي حكم بين سنتي ١٩٣ ــ ٢١١ على سنن من سبقوه من الاباطرة في اضطهاد المسيحيين فمنع الرومان وجميع سكان إمبراطوريته من اعتناق اليهودية أو النصرانية . ومع ذلك لم تكن مقاومته لانتشار المسيحية عنيفة ومستمرة ومنظمة . ومن أجل ذلك لم يحل اضطهاده لها دون استمرار التبشير بها وازدياد انتشار معتنقيها في جميع مناصب الدولة والجيش والمجالس البلدية .

ثم بدأ الادب المسيحي بالظهور ، وقد دُوِّنت تواليفه الأولى باللغة السريانية ؛ كما زاد نشاط أقطاب رجال الفكر المسيحيين بتأسيسهم مدرسة للاهوت والفلسفة المسيحية في الاسكندرية ؛ وأُلِّف كذلك كتاب في التاريخ في فلسطين . وسرعان ما بدأ التأليف الأدبي باللغة اللاتينية (لغة الامبراطورية الرومانية الرسمية) وأكثر ما كان في أفريقيا على يد ترتوليان الآنف الذكر والذي ولد في قرطاجة سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٢٢[2] .

ومضى الامبراطور ديوقليسيان Dioclétien (وقد حكم بين سنتي ٢٤٥ ــ ٣١٣) بعيداً في تطرّفه في اضطهادهم في مطلع القرن الرابع وذلك بعد ملاحظة ان ازدياد نفوذ المسيحيين في الجيش وشيك القضاء على ولاء الجند للامبراطورية فصدرت إذ ذاك بعض المراسيم منعت بموجبها صلاة المسيحيين وهدّمت كنائسهم وأُحرِقت كتبهم وسُجن رجال الدين منهم وطرد الموظفون الحكوميون الذين اعتنقوا الدين الجديد مما حمل المسيحيين على دعوة الفترة الاخيرة من حكم هذا الامبراطور بعصر الشهداء . وكان

---

(١) التاريخ العام للشعوب منذ العصور القديمة الى أيامنا ، كتاب في ثلاثة مجلدات من القطع الكبير أصدرته مكتبة لاروس في باريز سنة ١٩٢٥ تحت اشراف الاستاذ ماكسيم پوتي Maxime Petit ، المجلد/١ ، القسم/٣ ، الفصل/٢ ص ١٢٧ . وهذا القسم مؤلفه الاستاذ آندريه بودريّار وهو عن الامبراطورية الرومانيــة .

(٢) راجع تفصيل ذلك في مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ أوجين آلبيرتيني ؛ المجلد/٤ ؛ الفصل/١٤ ؛ ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤ .

ديوقليسيان ينشد من وراء تعسّفه هذا حمل الكنيسة على الخضوع للدولة كجميع الهيئات والمنظمات الاجتماعية في الدولة الرومانيـة من حيث أن الكنيسة غدت وبسرعة من جراء إحكام تنظيمها دولة داخل الدولة الرومانية فهذا يناقض المبدأ الذي أقام عليه هذا العاهل نظامه وإصلاحاته الهادفة الى خضوع جميع رعايا الدولة الى سيادتها المطلقة •

تراخي الاباطرة منذ نهاية القرن الثالث في اضطهادهم للمسيحيين ؛ عهـد قسطنطين الاول أو الكبير :ـ شعر الأباطرة ومنذ نهاية القرن الثالث بعدم جدوى اضطهاد المسيحيين لان الاضطهاد لم يحل دون زيادة عددهم • ومع أن والد قسطنطين الكبير أو الأول (ويدعى والده كونستانس كلور وحكم بين سنتي ٢٥٠ ــ ٣٠٦) لم يكن مفرطاً في قسوته في معاملة المسيحيين فان ابنه كان أشدّ لطفاً منه فبدأ منذ توليه العرش الامبراطوري سنة ٣٠٦ ينهنه من غلوّ بعض أعـداء المسيحية من أقطاب الوثنية ويكبح جماحهم • ثم خفت حدّة الاضطهاد في غاليا وبريطانيا اللتين لم تلبث اسبانيا أن حاكتهما في سلوكهما لا سيما وقد تمتع المسيحيون الاسبان بأهمية كبرى في بلادهم • ومع أن الاضطهاد بلغ أشدّه في الولايات الشرقية حيث تحمل المسيحيون صنوف العذاب برباطة جأش فانهم حصلوا سنة ٣١١ على اذن من حـاكمهم غاليريوس بحرية العبادة وقد أوعز اليهم بدعاء إلههم من أجل أمن وسلام الامبراطورية وأباطرتها ومنحهم عهداً بذلك • ولم يُلْغَ هذا العهد أبـداً وكان بمثابة اعتراف رسمي بالنصرانية [1] •

وبعد اتفاق ماكسيميان Maximien وليكينيوس Licinius على اقتسام حكم ولايات الامبراطورية فيما بينهما وآلت ولايات القسم الشرقي الـى ماكسيميان فان الاضطهاد عاد اليها ولو بصورة أخفّ ، ومن بين ضحايـاه في هذه الفترة أسقف الاسكندرية بطرس • كما حاول ماكسيميان هـذا تنظيم الوثنية على غرار التنظيم المسيحي ليمكنها من التغلب على النصرانية لكن محاولته باءت بالفشل •

(١) المصدر عينه ، أوجـين آلبيرتيني ؛ المجلد/٤ ؛ الفصل/١٤ ، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤ .

وعندما كان قسطنطين في طريقه الى حرب ماكسانس Maxence قـــرر اعتناق النصرانية ، كما ذكر بعضهم ، وأن يفيد منها لدعم سلطته • وأورد كثيرون من المؤرخين أنه قرر ذلك بعد رؤيا رآها (رؤيته راية الصليب وقد كتب عليها أنك ستنصر بهذا)[1] •

لم تنجح جميع الصعاب في منع انتشار المسيحية التي حققت نصراً بالغاً وتغلبت على أكأد العقبات التي اعترضت سبيلها إلى درجة أن الامبراطور قسطنطين لم ير في سنة ٣١٣ مندوحة من الاعتراف بالامر الواقع فأصـــدر في ذلك العام مرسومه المعروف بمرسوم ميلانو أو مرسوم التسامح الذي اعترف بحرية جميع الاديان في الامبراطورية بما فيها المسيحية التي وقفت منذئذٍ على قدم المساواة مع باقي الاديان المعترف بها في سائر ولايــات الامبراطورية • وهكذا سمح للمسيحيين بالتمتع بجميع الحقوق التي كان التمتع بها من قبل وقفاً على سواهم من أتباع جميع الاديان في الامبراطورية • ثمت فقد ذكرت المصادر المعاصرة أن قسطنطين هذا كان يُشَجِّع المسيحية ويغدق على اتباعها هباته • واتخذ أسقف روما منذ ذاك قصر لاتران وهو من ممتلكات أسرة لاتيراني ويقع جنوبي روما مقراً له • وهبَّ المسيحيون لبناء الكنائس فشيَّدوا كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان سنة ٣٢٦ وكنيسة القديس بولس خارج أسوار روما •

وكان قسطنطين قد اجتمع مع ليكينيوس بعد هزيمة ماكسانس في مدينة ميلانو في مطلع سنة ٣١٣ فأكدا تماماً العهد الذي منح للمسيحيين في سنة ٣١١ والمتعلق بمنحهم حرية العبادة وأن تعاد اليهم الممتلكات التي كانت قد صودرت منهم • كما منحت حرية مماثلة الى جميع الديانات • وعلاوة عن ذلك فان سقوط ماكسيميان أتاح تطبيق ذلك المرسوم في الولايات الآسيوية للامبراطورية وفي مصر • وهكذا اعتبر عام ٣١٣ العام الذي بدأ فيه طمأنينة وسلام الكنيسة وبذلك انتهى الاضطهاد ضد المسيحيين في جميع الامبراطورية[2] •

---

(١) المصـــدر عينه ، أوجين آلبيرتيني ؛ المجـلد/٤ ؛ الفصـــل/١٤ ، ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٢) أوجين آلبيرتيني ، المصدر عينه المجلد/٤ ؛ الفصل/١٤ ، ص ٣٥٥ .

وساعد هذا المرسوم النصرانية على موالاة انتشارها بنشاط زائد وعزيمة لاتكل . ولم يلبث قسطنطين أن نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية إيذانا بحدوث تغيير جذري في العالم القديم . وبذلك بدأت صفحة أو مرحلة جديدة من تاريخ العالم هي العصور الوسطى لم تعد روما أثناءها مركز الثقل في الامبراطورية ، بينما غدت المسيحية وأقطابها القوة الفعالة في التاريخ الأوروبي .

ومما تجدر الاشارة اليه ذكر بعض المصادر أن مرسوم ميلانو الآنف الذكر كان باعثه اعتناق قسطنطين للمسيحية وإيمانه بها . بينما ذكرت مصادر أخرى أن عمل قسطنطين كان مجرد تدبير سياسي ، علماً أن القائلين بالرأي الاول هم الأوفر عدداً . وأخيراً أورد بعض المؤرخين أن قسطنطين كان ينشد من وراء مرسومه المشار اليه إيجاد نوع من التوازن بين الوثنية دين الامبراطورية القديم والدين الجديد وهو المسيحية التي لم تلبث أن غدت ديناً رسمياً للدولة في نهاية القرن نفسه .

ولنضف الى ذلك أن الكنيسة لم تنعم بالهدوء المنشود لمجرد صدور هذا المرسوم فسرعان ما عصفت بها أزمة داخلية صدّعت وحدتها في عهد قسطنطين نفسه بظهور المذهب الآريوسي والمذهب الآثناسيوسي فلم يؤيد العاهل أيّاً منهما إنما اعترف بكليهما بدون أن يتنكر الى الوثنية القديمة ديانة دولته الرسمية ، كما احتفظ بعبادة الامبراطور التي كانت تضفي عليه القدسية وتمَسَّك باللقب الذي كان أسلافه يحملونه وهو لقب الكاهن الاعظم للوثنية .

وعلى حين كان بلاط الأباطرة الرومان من قبل وقفاً على الوثنيين فحسب فاذا ببلاط قسطنطين يدخله رجال الإكليروس المسيحي من أتباع المذهبين المذكورين أعلاه ويقفون فيه على قدم المساواة الى جانب الكهنة وأساطين رجال الفكر الوثنيين . كما لم تعد وظائف الدولة مقتصرة على الوثنيين الرومان ووقفاً عليهم إنما عُيِّنَ فيها المسيحيون . وفضلا عن جميع ماذكر نقش على السكة المضروبة في عهد هذا الامبراطور شارات المسيحية الى جانب شارات الوثنية .

لكن فرحة المسيحية لم يطل أمدها فسرعان ما عاد الاضطهاد ليكرث النصرانية مجدداً ، ولو بنسبة أقل ، وفي رقعة أصغر في السنيّ الاخيرة من حكم قسطنطين (حكم بين ٣٠٦ ــ ٣٣٧) فاقتصر الاضطهاد في هــذه المرة على الولايات التي كان يحكمها ليكينيوس(شريك قسطنطين في الحكم). وكان قد بقي متمسكاً بوثنيته وصار يرى ، وخاصة بعد أن تناصب وشريكه العداء ، في المسيحيين أنصاراً لقسطنطين خصمه . إنه استشاط غضباً من الاضطرابات التي نجمت عن حركة آريوس وكان أن اضطهد المسيحيون مجدداً واعتبارا من سنة ٣١٩ أو ٣٢٠ في كل من سورية ومصر فحرمهم ليكينيوس من أي إنعام وطردهم من المناصب الحكومية ومن الجيش . كما صار أفراد شرطته يمنعون الاجتماعات الدينية التي يعقدها المسيحيون أو يكتفون على الاقل بعرقلتها ، لا بل صاروا يمنعون انعقاد المجامع الدينيــة ويعاقب المعترضون على ذلك إما بالاشغال الشاقة وإما بالإعدام . بيد أن فترة النكسة الاولى هــذه لم تطل مدتها حيث لم يلبث انتصار قسطنطين على خصمه ليكينيوس أن وضع حداً لسوء معاملة المسيحيين(١) .

ويمكن أن نعزو الاضطهاد الذي حاق بالنصرانية في عهد شركاء وبعض ولاة قسطنطين وهم كل من غاليريوس وماكسيميان وليكينيوس الى أنــه كان بجانب هؤلاء الأباطرة الشركاء مستشارون يحرضونهم على الانتقام من المسيحيين . لكن خصوم النصرانية هؤلاء لم يُعَتِّموا أن جُرّدوا من قوتهم وبطشهم أمام إرادة قسطنطين الحازمة وعادت النصرانية الى التمتع بامتيازات كثيرة لم يتمكنوا لها دفعاً في هذه المرة(٢) .

ومع ذلك فنحن لاحظنا أن وجود امبراطور حازم وقى النصرانية وأتباعها من اضطهاد شركاء ذلك الامبراطور الحازم لكن وضع المسيحيين تردّى وشيكاً مرة أخرى بعد وفاة قسطنطين بربع قرن وتسلّم ابن أخيه جوليان العرش الروماني في سنة ٣٦١ وقد استأنف التنكيل بالنصارى واضطهادهم وهذا ما حمل معاصريه ولا سيما من بين المسيحيين على إطلاق لقب المرتدّ

---

(١) المصدر عينه ، أوجين آلبيرتيني ، المجلد/٤ ؛ الفصل/١٤ ؛ ص٣٥٥ .
(٢) أوجين آلبيرتيني ، المصدر عينه المجلد/٤ ؛ الفصل/١٤ ، ص٣٥٥ .

أو الصابىء عليه • ولفرط إعجاب هذا العاهل بالثقافة الإغريقية اللاتينية وأساطينها فانه قرر أن تسترد الوثنية مكانتها وسيطرتها القديمتين خاصة وأنه كان يرى أن روما مدينة بحضارتها القديمة الى الوثنية القديمة • واستعاد أفراد الأرستقراطية الرومانية الوثنية المكانة التي كانوا يحتلونها قبل حكم عمه قسطنطين • ثمت نحىّ المسيحيين عن المناصب التي أوسدت اليهم في عهد عمه وأسس المدارس الوثنية • بيد أن موقفه العدائي هذا من النصرانية لم يحل دون موالاتها نشاطها بعد أن صلب عودها واشتد ساعدها • وبعيد فترة وجيزة أدى مقتل هذا العاهل جوليان الصابىء سنة ٣٦٣ في حروبه مع الفرس الى استعادة النصرانية مكانتها فأرستها في هذه المرة على أسس ثابتة مكينة • وتولى العرش الامبراطوري بعد انقراض الأسرة القسطنطينية في الثلث الاخير من القرن الرابع عدد من الاباطرة اهتموا بمجابهة غارات البرابرة وخاصة بعد ضعف الامبراطورية بتجزئتها الى قسمين : غربي وشرقي• وتمكن أحد أباطرة هذه الفترة وهو ثيؤدوس (٣٧٩ ــ ٣٩٥) من النجاح في إعادة وحدة الامبراطورية سنة ٣٩٤ بعد انتصاره على القوط • ولعل أهم ما يسترعي الانتباه في عهد هذا العاهل حادثان هامان :

أولهما ـ السماح للبرابرة بالانخراط في سلك القوات الرومانية وذلك ليمارسوا مهام الدفاع عن الولايات الرومانية • ومن بين من أوسدت إليهم مناصب قيادية هامة ستيليكون الڤاندالي الذي لم يلبث أن تسلّم القيادة العامة للجيش الروماني •

ثانيهما ـ تصفية الوثنية والغاؤها : ـوكان الاباطرة وحتى حكم هذا العاهل يتسامحون مع الوثنيين الموجودين في الامبراطورية بجعلهم يمارسون طقوس مذاهبهم بحرية تامة • أما ثيؤدوس فقد أوعز بالتشدّد في معاملة الوثنيين فأغلق معابدهم وحرّم عليهم تقديم القرابين فيها • وكان أن انعكست الآية بالنسبة الى المسيحيين عما كانت عليه حالهم الى فترة حكم ديوقليسيان (٢٨٤ ــ ٣٠٥) حيث أصبحت النصرانية وبعد قرن من الكفاح المرير ديناً رسمياً للدولة وصار الوثنيون مضطّهدين • ولكن ذلك لم يفلّ من عزائم

الوثنية ذات الجذور العميقة في الامبراطورية والتي لم يُجهَزْ عليها نهائياً إلا بصورة تدريجية . وعلى حين أجبرت معابد الوثنية على إغلاق أبوابها فان عدد الكنائس كان آخذاً بالازدياد . ثم بدأت الطقوس الدينية تزداد وضوحاً وأطلق على الكنيسة منذ ذاك اسم الكنيسة الكاثوليكية ومعناه العامة . ثم بدأ نمط جديد للحياة الدينية بالظهور ، وهو الرهبانية التي ستكون موضوع بحثنا المقبل .

ثانيا ــ حركة الرهبان الانعزاليين وحركة الرهبان الديريين

نشأت هاتان الحركتان مستقلتين عن الكنيسة بعيد انتشار المسيحية وازدياد نفوذها لكنه على الرغم من تلك النشأة المستقلة لتينك الحركتين فانهما سرعان ما صارتا دعامتين أساسيتين من دعائمها . وهاتان الحركتان هما **حركة الرهبان الانعزاليين** أو الانزوائيين وتدعى حركتهم Le monachisme **ثم حركة الرهبان الديريين** Les moines des couvents . ولا جرم أن المعين الثارّ الذي تفرعت عنه هاتان الحركتان واحد (من حيث دعوتهما معاً الى التصوّف والزهد في متع الحياة الدنيا وشؤونها والتقشّف والانعزال والانطواء على النفس) ؛ إننا نجد جذورهما في العهد الجديد الذي يحثّ المسيحيين على أن تكون العبادة شغلهم الشاغل يقضون فيها سحابة أيامهم ولياليهم شريطة أن يجدوا الى ذلك سبيلا . هذا ناهيك بإطراء القديس بولس التبتّل وهو أساس حياة الترهّب والنسك والزهد التي كان يمارسها الرهبان في صوامعهم أو في الأديرة . ولعل الدافع الذي حمل الأتقياء الورعين من المسيحيين على أن يربؤوا بأنفسهم عن الانغماس في الفساد هو ما لاحظوه من تفشّي ذلك الفساد في بلاد الامبراطورية الرومانية في القرنين الثاني والثالث فآثروا الانطواء على أنفسهم والانقطاع للعبادة والتأمّل .

وعلى الرغم من ظهور بعض النسّاك المسيحيين المنقطعين للعبادة والزاهدين في متع الحياة الدنيا في القرنين الاول والثاني للميلاد لكن التبتّل والانقطاع

كلية الى العبادة لم ينتشرا بين بعض المسيحيين إلا منذ القرن الرابع ، علماً أن ذلك تمّ في بادىء الامر في ربوع الشرق ولاسيما في الاجزاء الجنوبية من مصر (الصعيد أو الوجه القبلي) • ولم تنتقل هذه الحركة الدينية الى أوروبة الا في القرن الخامس • ثم كثرت الأديرة في ربوع هذه القارة في القرن السادس•وهكذا فان الحركة الديرية وما ارتبط بها من تبتّل (رهبنة) ونسك وزهد هي من المؤثرات الشرقية التي وضحت في النصرانية لا بل اعتبر المؤرخ الانكليزي ج• و• تومبسون J. W. Thompson أنها أقوى أثر تركه الشرق في المسيحية[1] •

وقد زادت الاضطهادات الدينية في مصر ضد المسيحيين ولاسيما في عهد ديوقليسيان (٢٤٥ ــ ٣١٣) فلم يجد بعض النساك مناصاً من الفرار الى الصعيد حيث آووا الى الكهوف والمغاور التي يكثر وجودها في وادي الملوك أو في غيره من المناطق الجبلية الموجودة في المديريات الجنوبية في مصر • ولربما كان أشهر النسّاك الذين وصلتنا أسماؤهم في تاريخ مصر ثلاثة هم على التوالي : القديس بولس الطيبي (من بلدة طيبة أي الأقصر حاليا) والقديس أنطون من بلدة قمن العروس بمركز الواسطة والقديس باخوم • وعاش ثلاثة القديسين هؤلاء في القرنين الثالث والرابع • أما المعلومات المتوفرة لدينا عن أولهم وهو بولس الطيبي (٢٥١ ــ ٣٥٦) فيسودها الغموض كذكرها أنه قضى سبعة وتسعين عاما منزوياً ومنقطعاً للعبادة في أحد كهوف مدينة طيبة أو كما ذكر بعض المؤرخين المعاصرين لان المتأخرين أضفوا عليه هالة مصطنعة من النور يصعب في ضوئها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال [2] •

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع المذكور ، ج ١ ، الباب السابع ، ص ١٦١ نقلا عن كتاب المؤرخ تومبسون وعنوانه العصور الوسطى The Middle Ages (وهو كتاب في مجلدين طبع في لندن سنة ١٩٣١) ج ١ ، ص ٢١٩ •

(٢) المصدر عينه ، ج ١ ، الباب السابع ، ص ١٦٢ ــ ١٦٣ نقلا عن كتاب المؤرخ الامريكي پانتير Painter المشار اليه من قبل ، ص ١٧ •

أما ما وصلنا عن حياة ثانيهم وهو القديس أنطون فهو جلي وواضح • إنه عاش في عزلة تامة مقاوماً مغريات الشيطان مجاهداً نفسه حتى تغلب عليها بفضل صلاته وسرده الصوم وترتيله المزامير • إنه عاش معيشة ضنكاً ، أي عيشة التبلّغ مُحَرّماً على نفسه أكل اللحم ومرتدياً قميصا خشناً • وبالنسبة لهذا القديس تعتبر الدعامة الاساسية للحياة الدينية المثلى هي الانعزالية أو الانفرادية • وكانت ولادة أنطون في مصر الوسطى بمديرية بني سويف •

ونقل الدكتور ابراهيم أحمد العدوي عن كتاب المؤرخ الانكليزي ووركمان Workman (وعنوانه : تطوّر المثل العليا للحياة الديرية The Evolution of the Monastic Ideal) بصدد حياة الراهب أنطون ما نصه:
« ويعتبر القديس أنطون الذي ولد في سنة ٢٥٠ في بلدة قمن العروس ، بمركز الواسطة ، المؤسس الحقيقي لحركة الرهبانية في مصر ، وبالتالي الباعث على هذا اللون من الحياة الدينية في سائر البلاد المسيحية • وعاش هذا الراهب الاول زمن دقلديانوس وانعزل عن الناس سنة ٢٧٠ ، بعد أن عمل بقول السيد المسيح ، حيث باع ما لديه وأعطى ثمنه للفقراء • (لقد أثر عن المسيح قوله : اذا أردت أن تكون كاملا فبع ما لديك ، وأعط ثمنه الى الفقراء واتبعني) • وظل القديس أنطون في عزلة مدى عشرين عاما انقطع فيها للعبادة ، ورفض الخروج الى الناس الذين وفدوا الى صومعته وطلبوا منه أن يعلمهم طريقته • غير أن حياته لم تلبث أن صارت نموذجاً نهج على منواله كثير من الناس حيث تابعوا المعيشة الانعزالية الفردية بعد وفاة هذا القديس سنة ٣٠٥ م »[1] •

ذكرنا أن الوفود طالما قصدت هذا الراهب في عزلته ليمحضهم نصحه وليقدم إليهم مواعظه وارشاداته ولالتماس بركته ونشدانا للبرء من السقم وطرد الارواح الشريرة عنهم • ويعود الفضل الى الراهب أنطون هذا في تنظيم

(١) الدكتور ابراهيم احمد العدوي : المجتمع الاوروبي في العصور الوسطى، ص ٨١ ، الفصل ٣ نقلا عن كتاب ووركمان المذكور اعلاه .

الكثير من جماعات الرهبان المنتشرين جنوبي مصر بجعله خليّة لكل راهب ينصرف فيها الى العبادة ولا يشترك مع زملائه من باقي رهبان الجماعة أو المستعمرة إلا بغية إنتاج ما كانوا يحتاجون اليه من غذاء وكساء • ولم يلبث أنطون أن غدا مُوَجِّهاً روحياً بالنسبة الى الكثيرين ممن اعتادوا زيارته وذلك بما كان ينشره بينهم من تعاليم وارشادات وبالمثل الشخصي الـذي كان كل زوّاره حريصين على الاقتداء به • وعلى الرغم من أن أنطون لم يعرف بلهينة العيش فقد عمَّر طويلا وتمتع بتقدير منقطع النظـير • لكن دعوته الى الرهبانية الانفرادية لم يكتب لها النجاح التام إنما اعتبرت نوعاً من التطرّف في العبادة لا يتجاوب مع ميل الإنسان بطبيعته الى الاجتماع ببني جنسه وأن يعيش بين ظهرانيهم وليس منزوياً في صومعته •

وكان أستاذنا المرحوم محمد مصطفى زيادة قد حدثنـا في محاضراته عن انتشار هذه الرهبانية الانعزالية قائلا ما نصه : « وقد انتشرت الرهبانية الانعزالية أو الانفرادية في مصر الوسطى على جانبي النيل والصحراء مـن أسيوط شمالا حتى الاسكندرية ، فكان أكبر مراكزها وادي النطرون الواقع في الطريق الصحراوي الحالي بين القاهرة والاسكندرية ، ولا تزال بقايا لتلك الرهبانية الاولى وبقايا للديرية أيضا • وكان النظام في محـلات تلك الرهبانية الاولى أن يعيش الراهب منفرداً فيرسم لنفسه النمط الذي يوافق ميوله التنسّكية من تقسيم ساعاته وأنواع عبادته من صوم أو انقطاع عن الطعام لمدة طويلة أو انصراف فكري الى التفكير في الله • ولم تكن هناك قوانين أو طرق خاصة مرسومة ليسير عليها الرهبان جميعا »[1] •

وأورد معارضو الرهبنة الأنطونية أن الدين لا يضطر المرء الى الانزواء وأن يعيش بمنأى عن أترابه وحيداً وأن يبات على الطوى غير مُتَبَلِّـغٍ بسوى لقيمات لاتسمن ولا تغني من جوع من طعام فاسد وأن يرتدي الأسمال البالية مُحَرِّماً على نفسه جميع متع الحياة الدنيا • وهكذا كان لا بد لمن

---

(١) محاضرات المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة عن العصور الوسطى القاها علينا في جامعة القاهرة عام ١٩٤٣ ـــ ١٩٤٤ .

عقدوا العزم على الانصراف للعبادة من وضع نظام آخر نشد واضعوه من ورائه تحقيق هدفين اثنين : **أولهما الانقطاع للعبادة ، والثاني عدم حمل الرهبان على الانزواء والانفراد** متنكِّبين بذلك الميل الغريزي في الإنسان وهو أنه كائن الاجتماعي .

تحدث الاستاذموس بصدد الرهبانية الأنطونية قائلاً ما معناه: «لكن القديس أنطون غدا في سنة ٢٧٠ المؤسس لحركة رهبانية قوية عندما لم يكتف في ذلك العام بالانقطاع عن هذا العالم الدنيوي فحسب إنما ترك في الوقت نفسه كل تقسيم أو تنظيم كنسي ليستقر في صومعته في الصحراء . وقد حذا حذوه في عمله هذا الكثيرون الى درجة أن عدد صوامع أولئك الرهبان الانعزاليين سيربو وشيكا على خمسة آلاف الصومعة قائمة حول البحيرات المرّة في وادي النطرون وفي صحراء الواسطة التي ضمت كما يقول دوشين Duchesne [1] « أقسى ما يمكن للانسان تحمّله من حياة الزهد والتقشف» وقد استوقفت شجاعة هؤلاء الرهبان خيال الشرق كما سيتأثر هذا الخيال فيما بعد بالنظام القاسي للرهبان العموديين (وعلى رأسهم القديس سمعان العمودي الذي سنتحدث عنه بعيد قليل) . »[2] .

أما ثالث هؤلاء القديسين المصريين فهو القديس باخوم مؤسس الحركة الديرية في مصر في القرن الرابع وبموجبه اعتبرت مصر كذلك المهد الاول للحركة الديرية ، المناقضة من حيث نظامها للرهبانية الانعزالية ، لانها تقضي باجتماع وحياة عدد من الرهبان في دير واحد . وكان أول دير شُيِّد في مصر هو بجوار مدينة دندرة في العقد الثاني من القرن الرابع الميلادي على يد القديس باخوم . ثم لم تلبث هذه الأديرة أن عم انتشارها مدن اخميم وغيرها من مدن مصر والتي انتقلت منها الى ربوع سورية وغيرها .

القديس باخوم : اعتبر هذا القديس مؤسساً للحياة الديرية ، وهو مصري

---

(١) ل. دوشين L. Duchesne : الكنيسة في القرن السادس L'Eglise au VI e siécle ؛ طبع في بارز سنة ١٩٢٥ .

(٢) ل. ب. موس ، ولادة العصور الوسطى ، المرجع المذكور ، الفصل ١ ، ص ٥٢ — ٥٣ .

من أبناء الوجه البحري (الشمال) • وكان أبواه وثنيين وقد احترف الجندية فانخرط في صفوف مقاتلة الجيش الروماني لكنه لم يلبث أن اعتنق النصرانية وتأثر بتعاليم القديس أنطون في ممارسة الرهبانية الانعزالية أو الانزوائية القائلة بأن العزلة عبادة • لكنه ضاق ذرع الصبر به ولاحظ أن الرهبانية الانطونية الانعزالية لا تتجاوب مع طبيعة الانسان الاجتماعية • وروي أن هذا القديس رأى رؤيا أقنعته بوجوب جمع النسّاك المتعبدين في طائفة واحدة يتساند أفرادها ويتعاونون لاصلاح ما فسد من أخلاقهم ويمارسون صلواتهم وطقوس عبادتهم • هذا فضلا عن قيام هؤلاء الرهبان بأعمال البرّ والتقوى مسخّرين جميع امكانياتهم في خدمة الآخرين وتخفيف آلامهم •

تحدث أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة عن انتشار الأديرة الباخومية والقواعد التي وضعها باخوم لأديرتها فقال بصدد ذلك ما نصه : « أما الديرية الباخومية فقد انتشرت في مصر العليا من اخميم (مديرية سوهاج) الى إسنا أولاً وامتدت من ذلك الاقليم الادنى جنوبا فيما بعد • وكان النظام السائد في تلك الأديرة الباخومية أن يقوم كل دير بحاجات أفراده جميعا المدنية والدينية وأن يؤدي كل فرد من أفراده العمل الذي يحذقه أو يعرفه أو يصلح له من أجل سكان الدير جميعا كالزراعة والفلاحة والنجارة ونقل الكتب الدينية ورعي الماشية وطهي الاطعمة ، هذا فوق الاعمال الدينية التي كانت مفروضة عليهم جميعا سواء بسواء كالصلاة أربع مرات في اليوم وكالصلاة الجامعة يومي السبت والاحد • ومن هنا يتضح الفرق بين الرهبانية والديرية فالاولى هي القائمة على فكرة الانفراد والعزلة بالانصراف الى التقوى والقربى دون الاهتمام بأي عمل آخر الا ما يحتاجه الراهب الفرد من نسج القليل من الملابس أو جمع القليل من الطعام •

« ولقد عملت الديرية الباخومية على أن تجعل من الرهبان جمعية يقوم كل فرد منها بعمل من الاعمال التي تحتاجها الجماعة • على أن الرهبانية الانطونية هي التي انتشرت في الشرق أولاً وذلك بحكم ترتيبها الزمني فهي التي عرفتها المسيحية قبل زمن باخوم وقد عرفتها أوروبا أولا أيضا قبل أن تعرف أي

نوع آخر من الحياة التقشفية • ثم انتشرت الرهبانية بنوعيها في مصر في القرن الرابع الميلادي•وكان الرهبانهم المثالالاكبر للكنيسية الآثناسيوسية الملكانية ضد الآريوسية وقد ظاهروا الحركة المونوفيسيستبة الآريوسية فيما بعد • واتنقلت الرهبانية الى فلسطين والشام والعراق في القرن الرابع أيضا ، ونمت في تلك البلاد على مضض القواعد الانطونية ، بل انها تطورت فيها تطورا لم تصل اليه في موطنها الاصلي المصري • فبعض رهبان الشام مثلا ابتدعوا وسائل جديدة غير الصوم والامتناع عن الطعام لمدد طويلة وما أشبه ذلك من الوسائل الطبيعية ، فان بعضهم اختار الصعود الى قمم الاعمدة والاقامة هناك بضع سنين أو ربط صخرة أو قطعة من الحديد ثقيلة الى ظهره وحملها دائما ، وهذا وذاك من وسائل تعذيب الجسم وتطهير النفس »[1] •

وروى المعاصرون أن باخوم هذا تأثر عند وضعه الاسس التي سيتقيد بها رهبان ديره الاول في دندرة بالنظم المرعية الاجراء في الجيش الروماني بوضعه لديره نظاما داخليا شبه عسكري قائم على أساس وجوب اطاعة رهبان الدير لمقدمه (رئيسه) طاعة تامة وممارسة أعمالهم اليومية في ظل الهدوء والنظام وذلك الى جانب ممارستهم طقوسهم الدينية • وعلى نقيض حياة النساك الاوائل وخاصة الرهبان الانطونيين المتقوقعين والمنطوين على أنفسهم والمنقطعين الى العبادة فحسب فان على رهبان الأديرة والمؤسسة وفق الاسس التي وضعها رائد الحركة الديرية ، القديس باخوم ، ممارسة العمل الزراعي في الحقول والقيام ببعض الاعمال اليدوية كجدل الحصر والسلال من القصب وسواه •

ولقيت حركة باخوم قبولا من معاصريه الذين وجدوا لها مزايا كانت حركة سلفه أنطون مفتقرة اليها فأقبل المسيحيون زرافات ووحدانا على الانضمام الى الأديرة الباخومية • ومن قبيل ذلك ما أورده المؤرخ اليوناني پالاديوس Palladius وهو من أقدم المؤرخين الذين عنوا بالأسفار الى مواطن

---

(١) محاضرات المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة القاها علينا في جامعة القاهرة وهي عن العصور الوسطى عام ١٩٤٣ – ١٩٤٤ •

الرهبان والنسّاك في الولايات الرومانية فأعطانا صورة عن انتشار الرهبانية الباخومية في القرن الرابع (دوّن هذا المؤرخ تاريخه حوالي سنة ٤٢٠ وأهداه الى رئيس البلاط الامبراطوري في أيامه) ، فذكر أن أتباع باخوم بلغوا عند زيارتــه لمصر هم وغيرهم من الرهبان خمسة آلاف راهب ، أورد المؤرخ الانكليزي الدكتور كولتون G. G. Coulton أن بالاديوس وجد في صحراء النطرون (أو وادي النطرون على الطريق الصحراوي بين القاهرة والاسكندرية) أولئك الرهبان الخمسة آلاف وذكر بصدد ذلك ما نصه : « ... وفي عهــد القديس جيروم (المتوفى سنة ٤٢٠) نجد الرهبان يعيشون فعلا في مجتمعات منظمة ، وقد وضع باخوميوس حوالي عام ٣١٥ قانوناً لهذا النوع من الحياة المنظمة ، وبعد نصف قرن وضع القديس باسيليوس قانوناً قامت الديريــة الشرقية على أسسه الى حد كبير وما زالت تستند اليه حتى اليوم . ويخبرنا پالاديوس الذي كتب تاريخه المعروف باسم Lausiac History (الذي أهداه المؤرخ الى رئيس البلاط الامبراطوري في عهده واشتق اسم تاريخه من اسم رئيس البلاط هذا . ـــ أضاف المترجم ذلك في حاشية الصفحة ـــ) حوالي سنة ٤٢٠ أنه وجد خمسة آلاف راهب في صحراء النطرون ... »[1] .

هذا بينما أثبت الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رأي تومپسون J. W. Thompson الذي ذكر أن عدد الرهبان الباخوميين بتقدير پالاديوس هو ثلاثة آلاف وقال ما نصه : « وسرعان ما تكشفت للمعاصرين مزايا هــذا النوع الجديد من حياة التعبّد ، فأقبلوا على الديرية اقبالا شديدا ، حتى أن المؤرخ المعاصر پلاديوس الذي زار مصر حوالي سنة ٣٩٠ قدّر أتباع القديس باخوم بثلاثــة آلاف راهب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديريــة الاخرى . على أنه يلاحظ أيضا بخصوص الأديرة

---

(١) تاريخ العالم : نشره بالانكليزية جون أ. هامرتن ؛ المجلد ٤ . ترجمته وزارة التربية والتعليم بمصر ، الفصل ٨٤ وعنوانه : الديرية : أسبابها ونتائجها . الفه الدكتور كولتون ، ترجم هذا الفصل المرحوم الدكتور جمال الدين الشيّال وراجعه الدكتور حسين مؤنس ؛ ص ٢٩٥ ـــ ٢٩٦ .

الباخومية ، أنهـا كانت منفصلة بعضهـا عن بعض ، ولكل منها ادارتـه المستقلة ... »[1] .

ولم يقتصر الامر على اجتذاب الرهبان فقط الى الحياة الديرية انما استهوت هذه الحياة الكثيرات من الراهبات اللواتي دخلن الأديرة الجديدة لا بل فان أخت القديس باخوم كانت تدير ديراً للراهبات فقط . والملاحظ أن بعض الأديرة في الشرق الأدنى وشمالي أفريقيا كانت خليطة دخلها رهبان وراهبات في نفس الوقت . وقد انتشرت تلك الأديرة الخليطة خلال حقبة من الزمن لكن ظهور بعض المفاسد أدى الى فصل الجنسين فصارت تؤسس أديرة خاصة للراهبات . ومن بين أديرة الراهبات دير أسسته أخت القديس باسيل سنة ٣٥٨ في أسيا الصغرى[2] .

ومع ما كان للأديرة الباخومية من مزايا فان نظامها لم يخلُ من بعض الثلمات وذلك لعدم خضوعها الى سلطة عليا واحدة إنما كان كل منها مستقلاً بادارته ومنفصلا عن الباقين . هذا فضلا عن أن الحياة الاجتماعية في الحياة داخل الدير كانت محدودة لأن الطابع الرئيسي السائد هو الانعزالية والانزوائية وأن الراهب فيها يعيش بمنأى عن زملائه فهو أبدا في خليّته ولو أنه كان مضطراً الى الاجتماع بهم لأداء الطقوس وبعض الصلوات المشتركة[3] .

ولم تلبث الحركة الديرية أن تجاوزت حدود مصر بانتقال حركة الرهبانية الانعزالية والحركة الديرية الى كل من سورية وآسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين وجزيرة قبرص وغيرها من الولايات الشرقيـة التابعة للامبراطورية الرومانية . ولعل أهم النسّاك في سورية هو القدس سمعان العمودي الذي

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع المذكور ؛ ج ١ ؛ الباب السابع ص ١٦٤ . والراي المتعلق بعدد الرهبان مقتبس عن تومبسون اما بالنسبة الى انفصال الأديرة الباخونية عن بعضها وادارتها المستقلة فالراي منقول عن موس .

(٢) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر عينه ؛ ج ١ ؛ الباب السابع ؛ ص ١٦٤ .

(٣) المصدر عينه : ج ١ ؛ الباب السابع ؛ ص ١٦٤ ؛ والراي مقتبس عن پانتير Painter الامريكي ؛ المرجع المذكور ؛ ص ١٧ — ١٨ .

توفي حوالي منتصف القرن الخامس سنة ٤٥٩ وقد تأثر بالسعادة التي وُعِدَ بها المتقون الذين يتحملون الآلام في دنياهم في سبيل السيد المسيح . انقطع سمعان الى أحد النسّاك وعند وفاة أبويه أنفق قسماً من إرثه منهم على الفقراء وحبس الباقي من ماله يوقفه على الدير الذي انضم اليه حيث كانت حياته فيه حياة تقى وورع وبعد عن متع الحياة . وبعد مضي عشر سنين بهذا الدير غادره لينضم الى دير آخر بجوار أنطاكية منزوياً في احدى حجيراته غير متناول من الغذاء سوى كسرات من الخبز والماء . وكان يسرد صوم أربعين يوماً بدون تناول أي طعام فيها ثم يستأنف الصوم مجدداً وهكذا دواليك . وقد بذّ سمعان زملاءه من الرهبان فحسدوه لانه كان أشدهم صبراً وأكثرهم نسكاً وأزهدهم في الحياة فانسحب من الدير وهام على وجهه في الجبال ولا عمل له سوى الصلاة والتأمل . وقرر أخيرا العيش على رأس عمود وليس معه سوى سلّة كان يدليها بحبل ليحصل بواسطتها على حاجاته الضرورية. وذكر راوي سيرته وهو القديس تيؤدوريتوس أن القديس سمعان الذي صار يعرف فيما بعد باسم سمعان العمودي قضى ثلاثين عاما من عمره على العمود[1] وتوفي بعد بلوغه السبعين . كان سمعان رائدا في هذا النمط من الحياة الذي لم تلبث عدواه أن انتقلت الى قديسين آخرين ، فوجد كثيرون من القديسين العموديين (ويدعوهم الغربيون Les stylites أي من يعيشون على المسّلات أو الاعمدة)[2] ومن القديسات العموديات . وروى المؤرخون أن فريقاً منهم عاش على أعمدة بجانب بعضهم بعضا . وقد استمر هذا النوع من أخذ النفس بالشدة شائعا حتى القرن العاشر . هذا ولو أن رهبانا عموديين آخرين عاش أحدهم في القرن الثاني عشر على ضفاف نهر الاردن ، كما وجد آخرون في القرن التاسع عشر في رومانيا وفي مقاطعة جورجيا في القوقاز .

---

(١) المصدر عينه : ج ١ الباب السابع ؛ ص ١٦٤ ؛ والراي مقتبس عن كتاب ستيفنسن Stephenson وهو : صليبيون في المشرق The Crusaders in the East طبع كمبريدج سنة ١٩٠٧ .

(٢) تحدث عنهم بايجاز موس في كتابه المذكور ؛ فصل ١ ؛ ص ٥٣ ، كما تحدث عنهم كثيرون سواه .

ومن أقطاب الحركة الديرية في الشرق الادنى في القرن الرابع القديس باسيل (٣٢٩ ــ ٣٧٩) الذي درس الأسس والنظم التي وضعها القديسان أنطون وباخوم فلم تعجبه ، فأسس في سنة ٣٦٠ حركة خاصة به في آسيا الصغرى . وغدت القواعد التي وضعها لحركته دستورا عملت به الأديرة الباسيلية التي عمّ انتشارها كلاً من سورية وفلسطين واليونان . واحتلت الأديرة الباسيلية مركز الصدارة في الامبراطورية البيزنطية طيلة العصور الوسطى .

وأورد الدكتور ابراهيم أحمد العدوي نقلا عن كل من مجموعة كمبردج وكتاب المؤرخ تومبسون ما ورد بصدد العمل الذي قام به القديس باسيل فقال ما نصه : « أما في آسيا الصغرى واليونان فنشأ نوع من حياة الديرية أشبه بنظام باخوم ، ولكن على صورة توافق مزاج الاهالي هناك . ومن أمثلة ذلك ، الدير الذي أنشأه القديس باسل بآسيا الصغرى ، ودير الراهبات الذي أقامته أخت ذلك القديس . إذ نبذ القديس باسل فكرة اقامة الأديرة بالصحراء والاماكن النائية ، وشيّد أديرته على مقربة من المدن ، أو في نطاق تلك المدن نفسها »[1] .

وألغيت بموجب القواعد التي وضعها باسيل الأديرة جميع مظاهر العزلة والانفراد ، وأخذ رهبان الدير الباسيلي يشتركون بصورة فعلية في الحياة العامة والمآكل والعمل وممارسة طقوس العبادة . وقد أشار الاستاذ موس الى تلك القواعد التي وضعها القديس باسيل لنظامه الديري والتي ما زال يعمل بها في أديرة بلاد اليونان وبلاد العناصر السلافية حتى يومنا هذا فقال ما معناه : « وقد وضع القديس باسيل في آسيا الصغرى نظاما وقواعد لحركته الديرية يمكن أن تعتبر تقدما وتطورا وتخفيفا واعتدالا اذا ما قورنت بالقواعد التي وضعها القديس باخوم . وما زالت أديرة بلاد اليونان والسلاف تعمل بهذه القواعد حتى أيامنا هذه »[2] .

---

(١) الدكتور ابراهيم احمد العدوي : المرجع المذكور ؛ الفصل ٣ ؛ ص ٨٢ اقتباساً عن مجموعة كمبردج عن تاريخ العصور الوسطى ؛ ج ١ ؛ ص ٥٢٤ ؛ وكتاب تومبسون المذكور ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

(٢) موس : الرجع المذكور ، الفصل ١ ، ص ٥٣ .

وقد أوردنا أعلاه كيف أن القديس باسيل لم يحبّذ تأسيس الأديرة في الصحارى والمناطق النائية المتطرفة ورجّح بناءها بجوار المدن ان لم يمكن تشييدها داخل المدن نفسها • وعلاوة عن ذلك فقد مَنعَ الرهبان الباسيليون من تعذيب أنفسهم واهمال صحتهم وأجسادهم وأوصوا بالعناية بنظافتها وبالعمل وبتوجيه فعالياتهم نحو العمل المثمر البنّاء الذي لا يقصد به تأمين حاجات الدير فقط ليكون في الدير كفاية ذاتية انما تقديم العون للفقراء والمعوزين في منطقة الدير • ونلاحظ على ضوء ما أثبتناه أن الأديرة الباسيلية تمسكت بالعمل المجدي النافع كفلاحة أراضي الدير والاهتمام بعدد من الصناعات كالنسيج ودباغة الجلود والنجارة والبناء • لكن على الرغم من بيع الأديرة أشياء كثيرة (من محاصيل زراعية وثمار وأشياء مصنوعة) مما يفيض عن حاجة استهلاك رهبان أو راهبات الدير ، وأن الأديرة جمعت من جراء ذلك ثروات طائلة ، فأن الرهبان أو الراهبات في دير ما منعوا من حق التملّك ملكية خاصة فلم يكن لأحدهم سوى ثوبه ونعليه • وحرص مقدّم الدير في الأديرة الباسيلية على أن تكون ثياب مرؤوسيه الرهبان بسيطة وزهيدة الثمن ونظيفة وألا يعوّدهم شظف العيش وأن تكون وجبات الطعام التي يتناولها الراهب كافية وليست كسيرات من الخبز والماء كما كان يفعل القديس سمعان العمودي • فكل ذلك حمل الكثيرين على اعتبار القديس باسيل المؤسس الحقيقي للديرية •

انقسم رجال الدين المسيحي وهم الاكليروس وبنتيجة ازدياد أهمية الحركة الديرية الى فئتين أطلق على أفراد **الفئة الاولى** اسم : **الاكليروس العلماني أو العصري** Le Clergé séculier ، كما يدعون كذلك بالدنيويين أو العصريين • ويرى الاستاذ ستيڤنسن أن هذا اللقب أطلق على أفراد تلك الفئة لأنهم أعضاء الهيئة الكهنوتية في الكنائس ، وسواء أكانوا أساقفة أم شمامسة أم قسّيسين فانهم وبحكم عملهم أشد احتكاكاً وأكثر تدخّلا في الحياة الدنيوية والتصاقا بعامة الناس من الرهبان في أديرتهم[1] •

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع المذكور ، ج ١ ، الباب ٧ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ ؛ مقتبس عن كتاب ستيڤنسن الآنف الذكر ، ص ٩٢ .

ويشرف أفراد هذا الاكليروس العلماني أو العصري على عبادة المؤمنين في الكنائس ويسهرون على سلامة أرواح هؤلاء • وذكرنا أن أفراد هيئة هذا الاكليروس تشمل جميع المناصب الكنسية العليا والدنيا بين الحبر الأعظم (البابا) وهو رئيس هذه الفئة أو الهيئة انطلاقا من أنه رئيس أعلى للكنيسة ثم يليه في المرتبة الكرادلة والمطارنة والأساقفة والقسّيسين والشمامسة •

بينما دعي **أفراد الفئة الثانية** من الاكليروس **بالاكليروس النظامي** Le Clergé réguuer وهم الرهبان المنضمون الى مختلف الحركات الديرية (كالأنطونية والباخومية والباسيلية والبندكتية وغيرها من الحركات) ، بمعنى أنهم « رجال الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة : وهؤلاء اختلفوا في وضعهم القانوني والتاريخي والاجتماعي عن الفئة الثانية من رجال الدين الدنيويين أو العلمانيين » •

ويخضع أفراد هيئة هذا الاكليروس النظامي ، أي الرهبان ، الى نظم الحركات الديرية الآنفة الذكر ويعيشون في عزلة الدير ولو أن هذه العزلة لم تحل بينهم وبين الحياة المشتركة (كنظام الأديرة الباسيلية) ، كما لم تعقهم عن ممارسة بعض الاعمال خارج الدير نفسه كالاعمال الزراعية والتبشير والمواساة وأعمال البر والاحسان • وأطلق على أفراد هيئة هذا الاكليروس النظامي أسماء مختلفة كالحركة الديرية أو النظام الديري والخ ••• هذا ولو أن هذه الاسماء لا تدل الا على مسمى واحد هو حياة الرهبان المتبتّلين أو الحياة الديرية • وكان ثمة تنافس قوي بين أفراد هاتين الفئتين من الاكليروس من أجل الاستئثار بالنفوذ وجمع المال • بيد أن ذلك التنافس لم يحل دون وجود مؤثرات متبادلة بينهما • ونذكر ضمن اطار تلك المؤثرات حمل الكنيسة أعضاء الهيئة الاكليريكية (من اكليروس) فيها ، وفي بعض العصور على التبتّل أسوة برهبان الأديرة • وعلى الرغم من أن فكرة تبتّل رجال الدين هي أقدم من انتشار الحركة الديرية ، انما لا يرقى الشك الى أنها لم تقو ولم تغد موضوعاً لمناقشة المجامع الدينية الا بعد اشتداد ساعد الحركة الديرية •

انتقال الحركة الديرية الى اوروبا وسرعة انتشارها في أقاليم أوروبا الغربية :

وقف حاجّ دول غربي أوروبا من رومان واسبان وغاليّين أثناء زيارتهم في مستهل القرن الرابع ، الى الاماكن المقدسة في فلسطين وزيارتهم الى مصر على نظم الأديرة الباخومية في مصر كما زار الكثيرون منهم الرهبان النسّاك الزهّاد في صوامعهم للتبرك بهم والحصول على ارشاداتهم وتوجيهاتهم ودعواتهم • وقد نقل هؤلاء الحجّاج بعد عودتهم الى ديارهم في الغرب نظام تلك الأديرة الى بلادهم • وفضلا عن ذلك فهناك عاملان هامّان ساعدا على انتشار الحياة الديرية في أوروبا كما عرفتها مصر في الفترة ذاتها •

أولهما ـ ويتعلق بانتقال الرهبانية الانفرادية الى ايطاليا منذ سنة ٣٤٠ • وبيان ذلك أنه وصل في ذلك العام الى روما آثناسيوس (صاحب المذهب المعروف المتعلق بطبيعة السيد المسيح والذي يعتبر المؤسس الاول للمذهب الكاثوليكي) وكان برفقته راهبان مصريان من الرهبان الانعزاليين فرّا من مصر من اضطهاد الآريوسيين فنقلا الى ايطاليا هذا النوع من الرهبانية الانعزالية • وهذا ما أورده الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور نقلا عن المؤرخ الانكليزي Howell - Smith هويل سميث : « حقيقة إن غرب أوروبا عرف الرهبانية الانفرادية والديرية الاجتماعية قبل ذلك العصر (أي قبل عهد القديس بندكت في القرن السادس) ، بل منذ سنة ٣٤٠ عندما وصل أثناسيوس الى روما وبصحبته اثنان من الرهبان فراراً من الاضطهاد الأريوسي ، ولكن الديرية لم تصبح عندئذٍ قوة فعالة ذات شأن كبير في تطور الحياة الاوروبية • وكل ما هنالك هو أن الحياة الديرية انبعثت من روما لتنتشر في جميع أنحاء ايطاليا بل غاليا وشمال أفريقيا »[1] •

بينما ذكر الدكتور ابراهيم أحمد العدوي الخبر نفسه نقلا عن المؤرخ الانكليزي Workman مع تحديده عام زيارة آثناسيوس لروما سنة ٣٣٩

---

(١) الدكتور سعيد عبد الوهاب عاشور : المرجع المذكور ؛ الجزء الثاني : النظم والحضارة، الباب الاول، ص٢٧ نقلا عن كتاب هويل سميث وعنوانه : تاريخ المذهب الكاثوليكي الروماني وتطبيقه . صدر في لندن ، سنة ١٩٥٠ ، ص ٦٧٨ .

وليس ٣٤٠ فقال ما نصه : « وفي سنة ٣٣٩ انتشرت الرهبانية في ايطاليا ، حين زار أثناسيوس ، صاحب المذهب المشهور حول طبيعة السيد المسيح ، مدينة روما مصطحباً معه راهبين مصريين ، ونشر هناك هذا اللون من الحياة الدينية . ولقيت تلك الدعوة قبولا في أوروبا الوسطى في القرن الرابع الميلادي ، وكثر الرهبان في شتى الأرجاء »[1] .

ثانيهما ــ ويتعلق بأن النظام الذي وضعه القديس باخوم لأديرته أو للاديرة بصورة عامة قد ترجم الى اللغة اللاتينية في مطلع القرن الخامس فأتاح ذلك للاوروبيين الغربيين الوقوف على الحياة الديرية كما عرفتها مصر في النصف الاول من القرن الرابع . وقد أنجز هـذه الترجمة القـديس جيروم في سنة ٤٠٤[2] .

ثم زاد انتشار الحركة الديرية في غربي أوروبا . هذا ولا بد من الاشارة الى أن روّاد الحركة الديرية في أوروبا لم يكتفوا بما نقلوه عـن النظم الشرقية (من باخومية وباسيلية) إنما كيّفوا ما نقلوه عن النظم الشرقية مع حاجات بيئتهم ومجتمعهم فجاءت النظم التي وضعوها ذات طابع غربـي ومحتفظة بذاتيتها وأصالتها . ولنضف أيضا أن أحد القديسين الروّاد الذين أسسوا النظم الديرية في أوروبا وهو كاسيان أتى بنظام مبتكر من حيث أنه لم يطّلع قط على نظام الأديرة الباخومية .

أما أولئك الروّاد الذين ضربوا بسهم وافر في نشر الحركة الديرية في أوروبا فهم أربعة قديسين وهم على التوالي : كاسيان (٣١٦ ــ ٣٩٧) ، وقيصر الآرلي (المتوفى سنة ٥٤٢) وبندكت (٤٨٠ ــ ٥٤٣) . وكان ميدان عمل الثلاثة الاوائـل غاليا وأقدمهم في هـذا الميدان هو القديس مارتان أسقف تور .

---

(١) الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : المرجع المذكور ، الفصل ٣ ، ص ٨٢ــ ٨٣ نقلا عن كتاب ووركمان المذكور ، ص ١١٣ ــ ١١٥ .

(٢) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الجزء ١ : أوروبا العصور الوسطى : التاريخ السياسي ، الباب السابع ، ص ١٦٩ نقلا عن كتاب ووركمان المذكور ، ص ١١٧ .

ونرى لزاماً علينا لدراسة نشاط القديس مارتان في مضمار الحياة الديرية أن نشير الى أن أساقفة غاليا كانوا في القرنين الرابع والخامس منصرفين عن الاهتمام بالشؤون الدينية بممالأة أفراد الاسر الارستقراطية في أسقفياتهم وذلك لتأمين هؤلاء النبلاء انتخاب أولئك الأساقفة • كما كان معظم هؤلاء الاساقفة في الفترة ذاتها متزوجين وكل منهم رب أسرة وله أولاد فكان مهتماً بمصالحه الأسرية • ومن الملاحظ أن الوضعية الاجتماعية للمرشح الى المنصب الأسقفي كانت تؤثر كثيراً في انتخابه وبنفس نسبة تقاه وورعه وحياته المثالية •

وبعد أن قدم لنا الاستاذ فردنياند لوط عن سوء أوضاع المسيحيين في غاليا بنتيجة إهمال الأساقفة ومساعديهم من رجال السلك الكهنوتي لوحة مشرقة عن نشاط القديس مارتان الذي كان قد ولد سنة ٣١٦ في ولاية بانونيا غربي المجر وكان من قبل ضابطا في الجيش الروماني لكنه اعتزل هذا العمل العسكري وقد اشتهر بحبه للإحسان الى الفقراء وأنه منح رداءه الى أحد الفقراء •

قال الاستاذ فردنياند لوط في معرض حديثه عن أعمال ومآثر القديس مارتان ما معناه : « لكن المثل الأعلى المسيحي لن يزدهر في ظل أعضاء هيئة إكليريكية منغمسين من مفرق شعورهم الى أخمص أقدامهم في الحياة العصرية • وفعلا بدأ اليأس يستولي على الناس منذ نهاية القرن الرابع • وكانت أخبار حياة النسّاك الزهّاد الذين عاشوا في صحارى مصر قد بدأت تصل الى غربي أوروبا حيث حملت بعض المفكرين على التفكير بإصلاح هذه المساوىء • فثمة ضابط قديم في الجيش اسمه مارتان لم يعد يقنع بمنصب الأسقف والداعي إنمابدأ بتأسيس عدد من الأديرةفي مدينة ليغوجيه Ligugé القريبة من بواتييه وكذلك بالقرب من مدينة تور وهي أول أديرة أسست في غاليا ولو أنها قليلة الشبه بأديرة المستقبل : فبدلا من أن يكون أعضاؤها من الرهبان الذين رسموا كديريين اقتصر ارتياد تلك الاديرة على أشخاص ورعين أتقياء ليؤدوا فيها صلواتهم وليمارسوا فيها حياة رجال الدين المسيحيين الحقيقيين الأصلاء

ثم استأنف هذا المؤرخ حديثه عن نشاط القــديس كاسيان Cassien وزميله **هونورا** Honorat قائلاً ما نصه : « وجمع كاسيان وهونورا في القرن التالي عــدداً من الرهبان لتأسيس أديرة بالقرب من مدينة مرسيليا وفي جزيرة ليران Lérins • ثم ما لبث هذا العمل أن ازداد وتوسّع • وطبيعي أن ينتقل الحماس نفسه الى النساء • وهكذا أسست أديرة ذات أنظمة أقل شدة من أنظمة نظيراتها أديرة الشرق لهذه الحياة المشتركة • ونظر الى أن الخلافات حول القضايا الدينية قد أثيرت وكانت من الكثرة بحيث لا تدخل تحت حصر ، لذلك فان رجال السلك الكهنوتي لم يبقوا غير مكترثين بهـا وبمعزل عنها انما اشتركوا فيها وبصورة فعالة وهكذا تحولت تلك الاديرة الى مراكز ثقافية للمناقشة والدراسة •

« أخذ الاساقفة ينظرون شذراً الى هذه الحركةالديرية شاعرين وبصورة حدسية أن ذلك العالم الديري سوف يفلت من قبضتهمفي يوممن الايام»[1] •

أما بالنسبة الى دور القديس كاسيان فقد اعتبر كثيرون من المؤرخين ، ومن بينهم المؤرخ الانكليزي وركمان Workman [2] أن هذا القديس قد ذهب بفخار اعتباره المؤسس الحقيقي للحركة الديرية في غربي أوروبا • ومع أنه ظهر بعض الرهبان في ديار الغرب ولا سيما في غاليا قبل كاسيان لكن نظام هذا الاخير جاء مبتكراً لعدم اطلاعه على أنظمة الاديرة الباخومية فهو تبعاً لذلك وليد خبرة القديس كاسيان وحده •

وقد زاد نفوذ القديس مارتان على نفوذ كاسيان لنجاحه في استمالة عطف سواد الشعب الى جانبه (أشرنا من قبل الى ميله الشديد الى الإحسان والتصدق على الفقراء وأنه أعطى ذات مرة رداءه لأحدهم) بينما لم يوفق كاسيان في هذه المهمة • وعلى الرغم من سابقة القديس مارتان وأسبقيّته

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا منذ القِدَم حتى نهاية حرب مائة العام ، كتاب مطبوع في باريز سنة ١٩٤٩ ، الفصل ٤ ، ص ٥٩ .

(٢) ورد ذكر ذلك في الجزءالاول من كتاب الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، الباب ٧ ، ص ١٦٩ والنقل عن كتاب ووركمان المذكور ، ص ١١٧ .

الزمنية في بناء الأديرة في غاليا فإن دوره في تنظيم الحياة الديرية كان ثانوياً لأنه وجّه جهوده الى حرب الوثنية في غاليا .

وفيما يتعلق بثالث هؤلاء القديسين وهو قيصر من مدينة آرل Arles جنوبي غاليا وكان يعيش في الحقبة التي غزت فيها قبائل الفرنجة هذا البلد . وقد وضع نظاماً للرهبان والراهبات يمكن أن نلاحظ عليه سمة أو طابع كل من القديسين كاسيان وأوغسطين . هذا فضلاً عن أنه وضع بالاشتراك مع أخته القديسة قيصرية نظاماً خاصاً بدير الراهبات في مدينة آرل نفسها فارضا على الراهبات قضاء أوقاتهن بالغزل والطهي ونسخ الكتب الدينية[1] .

وحدثنا الاستاذ فردنياند لوط في كتـابه عن تاريخ فرنسا عن نهضة واتساع الحركة الديرية في فرنسا في ظل الفرنجة تلك الحركة التي وجدت في ظلها مدارس ملحقة بالأسقفيات وتدعى بالمدارس الأسقفية ومدارس ملحقة بالاديرة فقال ما نصه : « ولا يمكن جحود فضل الكنيسة في نشر التعليم من حيث أن المدارس الحكومية المموّلة من قبل الدولة الرومانية أو من قبل المدن قد اختفت في القرن الخامس . وعلى ذلك بقيت المدارس الأسقفية والديرية هي الأمكنة الوحيدة التي تتبادل فيها وتتدارس العلوم القديمة .

« وفيما يتعلق بالحياة الديرية فعلى الرغم من مقاومة الأساقفة فإنهـا صادفت نجاحاً لم يسمع بمثله من قبل . وصارت أديرة الرهبـان وأديرة الراهبات تشاد في كل مكان . وقد تمّ تشييدها بفضل مساندة كل من الملوك والملكات ومن الأساقفة أنفسهم ودعمهم المالي . وأخذ ثراء هيئة الإكليروس يزداد باطراد طوال القرنين السادس والسابع . ولم تتمكن الأديرة ولا في أي حقبة من تاريخها أن تجمع ثروة مماثلة» [2] .

ولم تنشط الحركة الديرية في إيطاليا إلا منذ القرن السادس من حيث

---

(١) المصدر عينه : ج١ الباب ٧ ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠ عن كتاب المؤرخ دينسلي Deanesly وعنوانه : تاريخ الفترة القديمة من العصور الوسطى الاوروبية ، طبع في لندن سنة ١٩٥٦ ، ص ٧١ .

(٢) فرديناند اوط (تاريخ فرنسا) المرجع المذكور ، الفصل ٤ ، ص ٦٠ .

أن هذا البلد افتقر الى ظهور أحد الروّاد الذين أسسوا الحركة الديرية في غاليا الى درجة أنه بوسعنا القول أن غاليا كانت البلد الوحيد فيغربي أوروبا ، الذي بدأت فيه الحركة الديرية قبل بداية القرن السادس مع ملاحظة أنه ليس بالإمكان أن ننكر وجود بعض الرهبان المتفرقين • (وكنا ذكرنا من قبل وصول راهبين من الرهبان الانعزاليين قد فرّا من مصر من اضطهاد الآريوسيين وحضرا الى روما مع آتناسيوس سنة ٣٤٠ أو سنة ٣٣٩ ناقلين الى إيطاليا ومنذئذ هذا النوع من الرهبانية الانعزالية) • كما وجدت بعض جماعات الرهبان غير المنظمين من المتعلقين بحياة الزهد والتقشف في ربوع شتى من بلاد الغرب •

لكن فقر ايطاليا بالنسبة الى الاديرة في الفترة التي سبقت القرن السادس سرعان ما تحول الى غنىً وفير جداً منذ نهاية الربع الاول من ذلك القرن • ويعود الفضل في إثراء إيطاليا في هذا الميدان الى ثلاثة قديسين تمتعوا بشهرة زائدة وهم بندكت وكاسّيدور وغريغوري • والقديس بندكت هو مؤسس نظام الأديرة البندكتية والذي مكّن بلده من أن يغذّ السير ويحثّ الخطا حتى صار من المجلّين في تلك الحلبة • ومن الممكن ردّ سرّ نجاح هذا النظام البندكتي الى سببين اثنين هما على التوالي : **السبب الاول** أن نظام الاديرة البندكتية ناب عن معظم النظم الديرية التي عرفت حتى ذلك الوقت • **والسبب الثاني** هو أن الكرسي الأقدس الذي لم يشجع حتى هذه الفترة النظم الديرية فإنه أولى نظام الأديرة البندكتية عطفه ورعايته • ومما تجدر ملاحظته أن هذا النظام الذي تأخر ظهوره حوالي القرن ونصف القرن عن نظام القديس باخوم وعن نظام القديس باسيل ومع ذلك لم يتأثر بهما ولم يقتبس عنهما سوى القليل[1] •

---

(١) ارجع الى ما كتبه الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور عن الأديرة البندكتية والايطالية في جزاي كتابه ، الاول ، الباب ٧ ، ص ١٧٠ ـ ١٧٥ حيث اثبت آراء كل من : مجموعة كمبردج عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، وكتاب دادّين Dudden والبابا غريغوري العظيم وستيفنسن ووركمان وتومبسون وپانتير وهودغكين : تاريخ انكلترا ؛ الجزء ٢ الباب ١ ص ٢٧ ـ ٣٠ .

ولد بندكت في إيطاليا من أسرة نبيلة وذلك سنة ٤٨٠ • ونظراً الى ثراء أسرته فإنها بعثت به الى روما لتلقي العلم لكنه صدم بما لمسه فيها من انهيار خلقي فهجرها مؤثراً المقام في كهف جبلي منعزل يقتات بما يحضره إليه أتباعه المتقرّبون • ولم يلبث أن غدا مشهوراً فصار مكانه محجّاً قصده الافراد من كل حدب وصوب التماساً لبركته • وبنتيجة ازدياد عدد أتباعه ومريديه فكر في سنة ٥٢٠ أن يبني ديراً خاصاً به في مكان ناءٍ عن روما وبعد ارتياد أتباعه عدداً من المواقع هداه بعضهم الى أحدها وذلك في منتصف الطريق بين ناپولي وروما عند جبل كاسّينو وكان الوثنيون قد شيّدوا فيه قديماً معبداً للإله آپولو الذي ما برح بعض سكان القرى المجاورة يرتادونه • وبعد موافقة بندكت على هذا الموقع شيّد فيه ديره الاول مستعملاً حجارة المعبد الوثني القديم • كما قام رهبان ديره بتجفيف المستنقعات الموجودة بجوار ديرهم وقطعوا أشجار حراجها محيين أرضها الموات ليستثمروها في الزراعة • وتمكن الدير بتلك الطريقة من مساعدة سكان المناطق المجاورة بأن قدّم إليهم الغلال والمحاصيل المختلفة في السنيّ العجاف وسنيّ الاضطرابات •

وخلال فترة وجيزة عمّ انتشار الأديرة البندكتية جميع بقاع أوروبا بنتيجة وقوف بندكت نفسه على جميع نقائص نظم الاديرة الشرقية فتجنب الوقوع في مثلها • أضف الى ذلك أنه بعد أن أنجزت ترجمة نظام الاديرة الباسيلية بعد ترجمته الى اللاتينية على النحو الذي سبق بيانه اطلع بندكت عليها فلما أسس أديرته تجنب الوقوع في نفس الاخطاء التي كان من سبقوه في هذا الميدان وقعوا فيها قبله • وهكذا فإن بندكت الذي سدّ في نظامه جميع الثلمات التي كانت في الأنظمة السابقة متيحاً بعمله لنظامه الديري الجديد أن يكون في طليعة الحركات الديرية في العصور الوسطى والاساس الذي شيّدت فوقه جميع أديرة الفترة التي تلتها •

لقد ذكرنا من قبل أن الرهبانية الانعزالية كانت أول ما انتقل الى أوروبة منذ حوالي منتصف القرن الرابع على يد آتنا سيوس والراهبين المصريين

اللذين وفدا الى إيطاليا بمعيته . كما وصلت هذه الرهبانية الانعزالية وحوالي الوقت نفسه الى كل من إسبانيا وغاليا وأيرلندة . بيد أن هذه الحركة القائمة على التقشف والزهد وفرض الراهب على نفسه نظاماً شديداً صارماً وبمنتهى القسوة كالنظام الذي اتبعه الرهبان العموديون وفي مقدمتهم رئيسهم القديس سمعان العمودي لم تنسجم مع العقلية الأوربية الواقعية العملية . نعم نأى الرهبان في غربي أوروبا بأنفسهم عن التمتع بالعيش الرغيد ورغبوا في أن يكونوا نسّاكاً متقشفين ولكن ضمن أطر الحياة الديرية نفسها بخلاف عقلية الشرقيين من مصريين وسوريين وإغريق . وهذا ما حمل رهبان غربي أوروبا على استساغة النظام الذي وضعه القديس بندكت لأديرته الذي قام على قاعدة أن انقطاع الراهب الى العبادة يجب أن يحمله على ممارسة العمل اليدوي ودراسة الكتب المقدسة والصلاة الجامعة .

وقد ذكر الاستاذ هـ . ا . ل . فيشر بعد الإشارة الى الرهبانية الانعزالية التي نقلها آثناسيوس الى إيطاليا بصدد ذلك ما نصه : « غير أن العقلية الاوربية على وجه العموم لم ترحّب بالصرامة التي تطلبتها هذه الحياة الدينية الجديدة ، ولم تستحسن صورة الراهب المصري وهو يُطِلّ على حجّاجه وزوّاره من علياء التقوى الجائعة والقذر لأن العقل اللاتيني يميل الى الناحية العملية في الحياة ويختلف عن العقل اليوناني في عدم الجنوح الى التأمّل والاستغراق . ولذا انتشرت الدعوة الى التقشّف والتنسّك في غرب أوروبا ، لا في صورة رهبانية انعزالية ، بل في صورة ديرية اجتماعية ؛ وقامت طريقة القديس بندكت النورسي (٤٥٨ ـ ٥٤٠ م) ـ وهو مؤسس ديرمونت كاسّينو بإيطاليا ـ على قاعدة أن الانقطاع للعبادة ينبغي أن يكون مزيجاً من العمل اليدوي والدراسة في الكتب المقدسة والصلاة الجامعة ... »[1].

والشيء الذي يسترعي الانتباه والاهتمام في حياة هذا الرائد والقطب

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى . نقله عن الانكليزية الدكتوران محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ج ١ ، ص ١١٠ ـ ١١١ . كتاب أصدرته جمعية التاريخ الحديث في مصر ونشرته دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٧ .

من روّاد وأقطاب الحياة الديرية في أوروبة أنه فرض على نفسه في أول الأمر نظاماً شديداً فعاش كما يقول الدكتور كولتون « في كهف حياة قاسية حتى حسبه الرعاة وحشاً غريباً » • لكنه لم يلبث وبنتيجة إلحاح رهبان دير مجاور عليه أن خرج من عزلته ليرأس وليكون مقدّما لديرهم • ثم عاد وشيكا الى العزلة مجدداً وأخيراً لم يجد مناصاً من الاستجابة الى رغبة زوّاره فانتقل الى الحياة الديرية بوضعه أسس نظامه الجديد • فنستدل من ذلك على أن هذا القديس جرب نظامي حياة الرهبان فانعزل في بادىء الأمر في كهفه ثم عاد اليه بعد رئاسته الدير المجاور لكنه لم يلبث أن استجاب مجدّداً الى رغبات زوّاره وأتباعه فانتقل الى حياة الدير واضعاً في هذه المرة الأسس التي أقام عليها نظامه الديري • إننا ننقل الآن ما أورده الدكتور كولتون عن حياة ومبادىء نظام هذا الرائد الديري الاوروبي الذي اعتبر وعن جدارة المؤسس الفعلي للحياة الديرية في أوروبة وقد ورد في ذلك ما يلي : « ••• ويمكن تتبّع الأديرة في ايطاليا وفرنسا منذ عام ٣٦٠ • وفي أوائل القرن السادس نجد ثلاثة نظم ديرية غربية قام على تكوينها : قيصريوس الأرلي Caesarius of Arles وكاسّيدوروس Cassidorus والقديس بندكت St. Benedict • ويعدّ النظام الثالث أكثرها فاعلية وتأثيراً ، وسرعان ما أصبح هو النظام الوحيد المعترف به لدى رهبان الغرب •

« ولد القديس بندكت في أسرة لها مكانتها ، ثم تلقى دراسته الأولى في روما ، غير أن شرور هذه المدينة أثارت شعوره ، وقد كتب مؤرخ سيرته القديس غريغوري St. Gregory يقول « انه احتقر في تلك المدينة الدراسات الأدبية فرحل عنها جاهلاً بهذه الدراسات عن عمد » ولجأ بندكت أول الأمر الى كهف ، وعاش فيه حياة قاسية حتى حسبه الرعاة وحشاً غريباً • وحدث آخر الأمر ان الدير المجاور لهذا الكهف اختار هذا الزاهد الغريب ليكون رئيساً له ، غير أنه لم يلبث أن غادر رهبانه قائلاً لهم : « اختاروا لكم رئيساً آخر تتفق حاله مع أحوالكم » • وتقاطر المريدون من جديد على كهف القديس بندكت ، فصنّفهم الى جماعات صغيرة ، تتألف كل منها من اثني

عشر راهباً عليهم رئيس ، وهو رقم أصبح مقرراً فيما بعد ، لا في النظام البندكتي فحسب ، بل في النظم الديرية الاخرى ، فكل مجتمع يتكوّن من ثلاثة عشر فرداً على الاقل اصطلح على أن يطلق عليه اسم « مجتمع ديري أو رهبـاني Conventual » .

« على أن ما لقيه هذا الزاهد من نجاح لم يقابله إلا اضطهاد رجال الدين الأكثر ترَخّصاً ، ولكن النصر في النهاية كان للقديس بندكت ، فأصبح متعارفاً على أن ديره في مونت كاسينو Monte Cassino ــ القائم على تلّ بين روما ونابلي ــ هو حاضرة الديرية الغربية .

« والنظام الذي وضعه القديس بندكت عمل ممتاز امتزجت فيه القوة بالفطنة والحصافة ، وكل من سلك هذا الطريق يجب عليه أن يلتزم هاتين الصفتين في جديّة كاملة ، وإخلاص تام فالنظام ليس إلا « القانون الذي اخترت أن تحارب بمقتضاه » ، فمتى أقرّه الانسان وقبله ينبغي ألا يتشكّك فيه أو يناقش سلطة الرئيس . فرئيس الدير يقوم مقام المسيح في قيادته لتلاميذه ، وفي رعايتهم والحدب عليهم . وهذا التأكيد على الطاعة يُبَرّره ما انطوى عليه النظام ذاته من الاعتدال وعدم الصرامة . وإنا لنلاحظ أنه لم يكن من منهاج القديس بندكت أن يقيم طائفة من القسس والدارسين ، بل إنه من المحتمل أنه لم يكن يتطلع مطلقاً الىإقامة « طريقة » بالمعنى المفهوم. وكل ما فعله أنه وضع نظاماً لنفسه ولمجتمعه الصغير قام على أساس من التجربة الناضجة والآراء الحكيمة والتعاطف الانساني الحقيقي ، مما جعـل نظامه يصمد لتجارب قرون عديدة ، ومما جعل قدراً كبيراً منه يظلّ باقياً برغم كل ما فرضته الأحوال الحديثة من قيود .

« أدرك القديس بندكت أن الدير ليس إلا مجتمعاً مكتفياً بذاته ، فينبغي إعداد المباني بحيث تضم كل الآقسام والمخازن الضرورية . والفصل السادس والستون من القانون الذي وضعه ينصّ على أنه لا يسمح لأي راهب ــ في الأحوال العادية ــ بمغادرة حرم الدير ، ولقد فسّر الشارحون الأول هذا النص تفسيراً مُتَزمّتاً غاية التزمّت ، فكان على الراهب أن يحيا داخل هذا

الحرم حياة أشبه ما تكون بحياة الفلاح الإيطالي المعاصر للقديس بندكت ، فعليه أن يرتدي نفس الرداء الريفي الخشن بلقنسوته ، وتحته قباء من الصوف ، وأن يكون مقلاً في استعماله للخمر (لم يكن الامتناع عن المسكر معروفاً في العصور الوسطى) ، وألا يأكل اللحم إلا في حالات المرض ، وأن يدأب على العمل طوال النهار ، وأن ينال قسطاً معتدلاً من النوم في الليل .

« على أن أعمال الراهب تختلف دون شك عن أعمال الفلاح ، فمن عمله ما يقوم بتأديته يدوياً في الحقل أو الحديقة أو المطبخ ، ومنه جانب عقلي . فقد فرض القديس بندكت أن يمضي الراهب ثلاث ساعات في القراءة يومياً ، اذا لم يكن أمّيّاً لا يعرف القراءة والكتابة . وكان من الواجب على الراهب كذلك القيام بالصلاة العامة لمدة نحو أربع ساعات ، فضلاً عن الصلاة الفردية أو التأمّل الذي يفرضه الفرد على نفسه . أما القدّاس فكان يقام عادة في أيام الآحاد وفي الاعياد الدينية الكبرى ، ولهذا لم يكن بين البندكتيّين الأول ـ مثلهم في ذلك مثل الرهبان في صحارى المشرق ـ غير نسبة ضئيلة من القسس .

« كذلك كانت حياة الراهب الصالح ـ في نواح أخرى ـ أقسى من حياة الفلاح ، لأن قوانين الرهبنة كانت تفرض عليه الصمت ، ولم يكن المقصود الصمت التام ، ومع هذا فإن المصلحين المتزمّتين كانوا يفسرونه على هذا الوضع ، غير أنه كان يطلب من الراهب على الأقل أن يتحاشى المحادثات العامة سواء في مكان عمله أو في أي مكان آخر . أما غرفة المحادثة « Parlatorium » التي كان يباح استعمالها لأوقات معينة أثناء النهار فهي تمثّل تطوراً جاء متأخراً في نظام الديرية . وحدث هذا التطور في وقت كان الرهبان فيه ـ على الرغم من هذا الصمت المفروض عليهم ـ يخضعون لدافع الطبيعة البشرية ، فأصبحوا يشغلون أنفسهم بجمع أخبار الأحداث الجارية ونقلها ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أن القديس بندكت لم يكن يجيز الثرثرة والمجون ، فهو في الفصل السادس من قانونه لا يمنع فقط الكلمات المثيرة للضحك ، بل يمنع كذلك لغو الحديث ، أي ذلك الذي لا يهدف الى التهذيب بشكل قاطع .

« وأخيراً فإن الخطوات الثلاث المثالية التي فرضها القديس بندكت لإنكار الذات ، وتطلب أن يتحلّى بها الرجل الصالح ، هي : الطـاعة ، والفقر ، والطهارة ، وكانت تعدّ في العصور الوسطى الأمور الثلاثة الأساسية التي بدونها لا يمكن أن تقوم الديرية الصحيحة . وكان من المتفق عليه أن البابا نفسه ليس له الحق في إعفاء الراهب من الامرين الأخيرين ، أي : الفقـر والطهارة ، إلا اذا استطاع ، كما قال البعض ، أن يمحو ويزيل جميع العهود والالتزامات ، ويحوّل الراهب عن رهبانيته . والفقر من وجهة النظر الشخصية يجب أن يكون مطلقاً ، والراهب يرتكب إثماً كبيراً اذا ادعى لنفسه ملكية خاصة ، مهما تضاءل شأنها ، كأن يدّعي ملكية قلم أو غيره من الأشياء . ولكن لم يكن هناك ما يمنع إغداق العطايا على الرهبان بوصفهم جماعة ، وقد أُغْدِقَتْ فعلاً عليهم الهبات الوفيرة ...

« وسرعان ما نال هذا النظام الديري القويم ما يستحقه من ثروة وقوة ، وفي عهد القديس بندكت جاءه النبلاء بأولادهم ليرعاهم وليجعل منهم رهباناً . وينصّ البند الخمسون من القانون أيضاً على أن المتقدم للرهبنة يجب أن يقدم ــ عند دخوله في هذه الطائفة ــ كل ما يملك إما الى الفقراء أو الى رصيد الدير ، وبهذه الطريقة ــ وبخاصة ما كان يخلفه الأفراد عند موتهم من وصايا تجري لصالح أرواحهم ــ تراكمت في الاديرة إيرادات وفيرة تزايدت أحياناً حتى بلغت مقادير ضخمة . وزادت الامتيازات بمعدل متساوٍ فقد كان الناس يقدسون أفراد الدير وممتلكاته تقديساً غير عادي ، وكانت الأعمال في الدير ــ في العصور الاولى ــ تختتم بتلاوة لعنات رهيبة كئيبة على كل من يتعدى على هذه الممتلكات أو الامتيازات ، أو يغتصبها . ولهذا فإن الاديرة سرعان ما أثرت وكثر عددها ، ولكن في غير تناسب مع عدد أولئك الذين لديهم استعداد طبيعي للحياة الدينية »[1] .

---

(١) جون هامرتن : تاريخ العالم ، المرجع المذكور ، المجلد ٤ ، الفصل ٨٤ وعنوانه الديرية : أسبابها ونتائجها ، وهو من وضع الدكتور ج . ج . كوانون وترجمة المرحوم الدكتور جمال الدين الشيّال ومراجعة الدكتور حسين مؤنس ، ص : ٢٩٦ ــ ٣٠١ .

وبنتيجة ما كان لنظام الأديرة البندكتية في أوروبة من أهمية حرصنا من جهة على أن يكون نقلنا لنظامه يكاد يكون تاماً لا سيما وقد أفردت له جميع كتب تاريخ العصور الوسطى مكاناً رحباً بين طيّاتها . ومن جهة أخرى أن تكون من الصورة التي ستعلق في الأذهان عن هذا النظام الديري تامة أو شبه تامة .

وصفوة القول أن الاسس التي أقام عليها بندكت نظامه هي التالية : أن ينكر الراهب البندكتي ذاته ، وأن يطيع رؤساءه ، وأن يمارس العمل في الدير .

إننا لاحظنا من خلال استعراضنا للنظام الذي وضعه بندكت للأديرة أنه سيطرت روح الاعتدال على حياة الرهبان في الدير من حيث تقديم وجبات كافية من الطعام إليهم ويسمح لكل منهم بالنوم ثماني ساعات كل ليلة وفي فراش خاصّ به . وينال الراهب كمية قليلة من النبيذ . كما لاحظ الذين درسوا النظام البندكتي تَمَيُّز حياة الرهبان فيه بالمساواة التامة فكلهم سواسية لا تفضيل لأحدهم على زملائه إلا بالعمل الصالح . ومع أن بندكت خَصَّ العبادة في الدير بالحصة الأوفى لاجتماع الرهبان ثماني مرات في اليوم للصلاة والتراتيل فإنه أفرد للعمل مكانا لائقاً لأنه يلي العبادة في الأهمية وذلك انطلاقاً من قول أُثـِر عن بندكت نفسه « ان العمل عبادة » حيث يعمل الراهب سبع ساعات يومياً إما في فلاحة الارض أو في سواها من الأعمال اليدوية مع ملاحظة تخفيف نصيب الرهبان المتقدمين في السنّ من العمل فاقتصر ما يؤدونه على أعمال يدوية غير متعبة وعلى الطهي وإعداد الطعام ونسخ الكتب الدينية وتعليم الرهبان الجدد والأطفال الصغار الذين ذكرنا أن ذويهم يرسلونهم الى المدرسة الملحقة بالدير للتعلّم .

والقديس كاسيدور الايطالي أهمية لا بأس بها لإسهامه في تطوير الحياة الديرية في إيطاليا وفي غربي أوروبا بصورة عامة . لقد خدم هذا القطب من أقطاب الحياة الديرية في إيطاليا وكان من قبل يلي منصباً سياسياً في دولة القوط في إيطاليا في عهد تيودوريك لكنه لم يلبث أن اعتزل الميدان السياسي

ولبس مسوح الرهبان حوالي سنة ٥٢٥ أي قبل أربعة أعوام من وفاة بندكت نفسه • وقد أسس كاسيدور بعد انخراطه في الرهبانية ديرين في مسقط رأسه إقليم كالابريا جنوبي إيطاليا •

إنه أكمل ما كان بدأه بندكت من حرص على جعل الأديرة عبارة عن مجتمعات صغيرة واكب فيها العمل العبادة فرغب كاسّيدور ألا يتسرّب الملل الى حياة الرهبان بأن جعل حياة هؤلاء في ديرهم تتوفر فيها والى حدّ ما ، بعض أسباب الراحة مع بذل قسط أوفر للعناية بالشؤون العلمية حتى بدون استثناء العلوم الدنيوية التي ذكر عنها « لأن عقولنا تتدرب على فهم الإنجيل والكتابات الدينية عن طريق دراسة الأدب الدنيوي » •

أورد الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ما ذكـر في مجموعة كمبردج وكتاب داد ّين Dudden عن نظرة كاسّيدور الى الأديرة وتطبيقه التطور الذي رغب فيه في الأديرة التي أسسها فقال ما نصه : « وقد أسس كاسيدور ديرين في كالبريا موطن آبائه وأجداده • وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالهـا أو ضرورة حـرمان الفرد من الضروريات التي تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على إدخـال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية • على أن أهم ما عنـي به كاسّيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينيّة فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضاً « لأن عقولنا تتدرّب على فهم الإنجيـل والكتابات الدينية عن طريق دراسة الأدب الدنيوي » • لذلك تحمّل كاسّيدور كثيراً في سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحوي مجموعات نادرة من المخطوطات التي تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ؛ فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخاً مصححة مقارنة من الإنجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين • أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسّيدور مجموعة من إنتاج رجال الأدب والبلاغة ــ شعراً ونثراً ــ فوق ما جمع من كتب التاريخ والجغرافيا والموسيقا والعـلوم • وهكذا يرجع الفضل الى كاسّيدور في زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهي

الناحية التي ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية في غرب أوربا »[1] .

وهكذا تدين الأديرة الى القديس كاسّيدور في أنه رفع من منزلتها العلمية حيث لم يبقها فقط دوراً للعبادة وللعمل في حقلي الزراعة والصناعات اليدوية الضرورية لحياة ذلك المجتمع الصغير إنما جعلها دوراً حقيقية لارتياد مناهل العلم . وسيكون لذلك أثره في المستقبل عندما ستغدو الاديرة المعاهد العلمية الرئيسية في غربي أوروبة .

وللقديس غريغوري الكبير المولود في روما سنة ٥٤٠ والمتوفى سنة ٦٠٤ أهمية عظيمة لا بل استثنائية ولا سيما غداة انتخابه الى منصب الحبرية العظمى في سنة ٥٩٠ حيث بقي متربعاً على الكرسي الأقدس فترة أربت على الأربع عشرة سنة مما أتاح له أن تكون بيده الأداة القمينة بتنفيذ خطته التي رسمها لنفسه .

وقد أفاد هذا الحبر الأعظم من منصبه السامي كرئيس روحي أعلى للمسيحية في مجالين لم يكن ليتمكن من أن يحقق فيهما شيئاً ذا بال لو لم يكن متسنماً العرش البابوي . أما الحادث الأول فهو وقوفه وقفة المعارض القوي للدفاع عن حقوق الشاغل للكرسي الأقدس في الإشراف على شؤون المسيحيين في الإمبراطورية الرومانية فهم رعيته وذلك عندما غزيت إيطاليا من قبل القبائل اللومباردية. وقد نجح في حمل السلطات الغازية على الاعتراف له بهذا الحق وذلك في فترة لم يكن قد بقي فيها للإمبراطور البيزنطي (نهاية القرن السادس) أي نفوذ في إيطاليا وعالم غربي أوروبة .

لقد تحدث الأستاذ لويس هالفين عن مدى النجاح الذي حققه البابا غريغوري العظيم في هذه الأزمة الحادة التي تعرضت لها إيطاليا أثناء غزو قبائل اللومبارديين لها في نهاية القرن السادس فقال ما معناه : « إن الجو

---

(1) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع المذكور ، ج ١ ، الباب السابع ، ص ١٧٣ — ١٧٤ . نقلا عن مجموعة كمبردج ، المجلد ١ ، ص ٥٣٨ وكتاب دادن Dudden ، ج ٢ ، ص ١٦٩ — ١٧٣ .

المشحون بالتوتر والتذمر الذي ران على مدن إيطاليا الخاضعة لسيطرته (غريغوري) أثناء الغزو اللومباردي لها وعجز الأباطرة عن القيام بحماية تلك المدن ألقيت تلك المهمة على عاتق ذلك الحبر الأعظم . ويعود الفضل الى غريغوار الكبير في أنه أحسن الإفادة من سنوح تلك الفرصة ومن الظرف الملائم . وفعلاً إنه برهن في هذا الظرف الحرج وفي ساعة الخطر أنه رجل الساعة الضروري للقيام بأعباء المسؤولية وأنه في مستوى تلك الأحداث وهذه المسؤولية . إنه لم يكتف بأن يقتصر عمله على تنظيم الدفاع عن حاضرته التي فرض اللومبارديون عليها الحصار في سنة ٥٩١ ثم في سنة ٥٩٣ . وقد سما في ساعة المحنة هذه الى مصاف عظماء الرجال بإفادته من السلطة التي يخولـه إياها منصبه على كل أساقفة إيطاليا والتي أخضعت الى سلطته جميع أسقفيات وسط وجنوبي ايطاليا وبرهن على أنه زعيم كفء وبكل ما يقتضيه هذا المنصب من رجولة وحزم وحنكة للصمود في وجه البرابرة وأن يملي عليهم بوصفه الزعيم الروحي للشعب الإيطالي إرادته وأن يوجه كحبر أعظم نشاط أعضاء السلك الإكليريكي الايطالي .

« ولشعوره بما أضفاه عليه موقفه الصلب ، وبما حصل عليه بذلك المنصب من نفوذ فإنه تشجع وطالب بحق الحبر الأعظم في إبداء رأيه في جميع المسائل والقضايا الكنسية ليس في إيطاليا فحسب إنما في البلدان الاخرى غيرها . وهكذا كان في مراسلته على اتصال مستمر بأساقفة كل من غاليا وإسبانيا فعيّن أسقف مدينة آرل قاصداً رسولياً في مملكة الفرنجة كما كلف أسقف قرطاجة بأن يكون ممثله الشخصي في أفريقيا . لا بل فإنه أوفد أعضاء عاديين من السلك الكهنوتي المسيحي وكلفهم بإنجاز مهام في معظم ولايات غربي أوروبا . إنه كفّ بصره عن رؤية المساوىء لئلا يرفض المسيحيون في شمالي إيطاليا الاعتراف بسلطته . أما بالنسبة الى مملكتي الفرنجة والقوط الغربيين فإن السيطرة التي يتمتع بها فيهما مردّها الى نفوذه الشخصي وأنها مقتصرة على الميـدان الروحي فقط لا بل وحتى في شمالي إيطاليا أي في المناطق التي لم يحتلها اللومبارديون فان هذا الحبر الأعظم الجريء أمسى

مطاعاً فيها . لكن ثمة نتيجة ، علماً أنها نتيجة تفوق الوصف ، لذلك الموقف الصلب الذي وقفه هذا البابا من السلطات اللومباردية وهي تعويد أعضاء هيئة الإكليروس في غربي أوروبة والى حدّ ما أن يصيخوا بأسماعهم الى صوت الحبر الأعظم وأن يتقيدوا بأوامره وتوجيهاته علماً أنه مضت عليهم فترة غير قصيرة لم يتلقوا فيها أية أوامر صادرة عن الكرسي الأقدس »[1] .

أما الحادث الثاني أو المجال الثاني الذي حقق فيه هذا البابا نصراً مؤزراً لمصلحة المذهب الكاثوليكي الذي يعتبر الحبر الأعظم رئيساً أعلى له مستخدماً الديرية لتحقيق غايته السياسية وهي ترسيخ النفوذين الديني والسياسي للبابوية على أقطار بدأت النصرانية تنتشر في ربوعها وأهم تلك الاقطار إنكلترا بمختلف مناطقها . وانطلاقاً من هذا التفكير ، لاسيما وهو الراهب البندكتي المتقد حماساً واندفاعاً والذي ضحى بثروته الشخصية الطائلة في سبيل تشييد العديد من الأديرة يمكن أن نذكر بينها ستة في صقلية وواحداً في روما نفسها ، فانه اعتمد على البندكتيين في إرسال بعثاته التبشيرية الموجهة الى مناطق كثيرة . ومن قبيل ذلك إرساله في سنة ٥٩٦ مقدّم ديره في روما ، وهو القديس أوغسطين الى انكلترا وبمعيته تسعة وثلاثون راهباً لإرجاع هذه البلاد الى المسيحية بعد أن ضعفت فيها خلال قرنين بنتيجة غزوات عناصر الجوت والآنجلز Angels والسكسون . كما أمدّه البابا في سنة ٦٠١ ، وبناء على طلب أوغسطين نفسه ، ببعثة بندكتية أخرى لدعمه في مهمة إرساليته التبشيرية . وآتت بعثة أوغسطين هذه أكلها وثمارها المرجوة وحققت أهدافها . ومن قبيل ذلك تأسيسه ديراً في كانتربوري ، في نفس المكان الذي ستشيد فيه كاتدرائية كانتربوري العظيمة . وصار دير أوغسطين هذا مركزاً لنشاط البندكتيّين التبشيري الرامي الى تحويل معابد الوثنيين القديمة الى كنائس وليس هدمها . ثم اعتنق ملك مقاطعة كنت ، وهو أثلبرت Ethelbert ، التي شيّد فيها الدير المذكور المسيحية فحذت

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات ، المجلد ٥ ، الفصل ١٣ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

حذوه فئات كثيرة من رعيته . هذا فضلا عن الهبات والمنح التي أغدقها هذا العاهل على الكنيسة الجديدة[1] .

نشاط الحركة الديرية في ايرلندة : ــ عندما قدم البندكتيون الى ربوع كل من غاليا وإنكلترا وأيرلندة وألمانيا وجدت فيها أديرة كلتية . ولنشر الى أن أيرلندة لم تخضع إطلاقاً الى الحكم الروماني فوالى قراصنتهـا الكلتيون غاراتهم على السواحل البريطانية في مطلع القرن الخامس أي في نهاية فترة الحكم الروماني لتلك البلاد . ووقع في أسر المغيرين الأيرلنديين شاب اسمه سوقاط Succat المتوفى سنة ٤٦١ اعتبر بعيد ذلك مؤسساً للكنيسة الأيرلندية وهو من سيحمل فيما بعد لقب القديس پاتريك .

وبعد ست سنين من الأسرة فرّ سوقاط من قبضة الأيرلنديين الى غاليا راغباً في ورود مناهل العلوم الدينية فيها فلما أتيح له ذلك آثر أن يعود أدراجه الى أيرلندة ليقوم بنشر المسيحية فيها تلك الديانة التي كانت من قبل قد وصلت وفي النصف الاول من القرن نفسه الى ربوعها على يد الأسقف پالاديوس الذي عينه الحبر الأعظم كالستين/١ في سنة ٤٣١ أسقفا لهذه البلاد . لكن هذه المحاولة الاولى لم تكن مثمرة وبصورة تامة ولذا يعود الفضل الى القديس پاتريك الآنف الذكر في حمل الأيرلنديين على اعتناق النصرانية ، كما له الفضل في تأسيس أسقفية في أرماغ الى الشمال الشرقي من هذه البلاد .

ومكن تطرّف موقع أيرلندة وعزلتها كنيسة هذا البلد من الحفاظ على بعض الاوضاع القديمة التي لم يكن قد بقي لها أي أثر في أوروبة . ولعدم إقرار الحبر الاعظم والكنيسة الرومانية تلك الاوضاع كان لا مفر من استشراء

(١) راجع من اجل ذلك كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ج ١ ، الباب السابع ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ حيث أورد المؤلف آراء كل من دادّن Dudden في كتابه المذكور ، ج ١ ، ص ٢٠٧ و ج ٢ ص ١٢٣ ووركمان في كتابه المذكور ص ١٦٩ ــ ١٧٢ وهودكينغ Hodgkin : تاريخ انكلترا ، ص ١١٧ ــ ١١٩ . وارجع كذلك الى كتاب لويس هالفين المذكور : المجلد ٥ ، الفصل ١٣ ، ص ١٩٤ ــ ١٩٥ .

الخلاف بين البابوية والايرلنديين • وقد وضحت معالم ذلك الخلاف في فترة حبرية غريغوري الكبير ذلك الخلاف الذي استمر زهاء قرن ونصف القرن حتى حسم وذلك برضوخ الايرلنديين •

أمّت بعثات من الرهبان الايرلنديين في القرن السادس رحاب كل من اسكتلندة (إيكوسيا) وبريطانيا وغاليا للتبشير في تلك البلاد • وكان رائد هذه البعثة المؤلفة من اثني عشر راهبا القديس كولمبا Columba وقد أسست ديراً غربي اسكتلندة في مدينة إيونا سنة ٥٦٣ • وانطلق هؤلاء المبشرون ومن حلّ بعدهم في ذلك الدير لنشر النصرانية بين جموع السكان ، وهم من البكتيين Picts ، وحملهم على اعتناقها • وأوغل هؤلاء الرهبان المبشرون في البلاد الى أن وصلوا الى انكلترا نفسها وفيها تم لقاؤهم بالمبشرين الوافدين عليها من روما • وأسهم كل من المبشرين الايرلنديين الواصلين من الشمال والمبشرين الرومان البندكتيين الآتين من الجنوب في جعل العناصر الآنغلوسكسونية تدع وثنيتها لتعتنق النصرانية •

ولم يحجم الرهبان الايرلنديون منذ منتصف القرن السادس عن ممارسة نشاطهم التبشيري في صلب القارة الاوروبية وكان في طليعة هؤلاء الرهبان القديس كولومبا (٥٤٣ ــ ٦١٥) وكان قد أمّ بريطانيا في سنة ٥٨٥ وبمعيته أناغريت Anagrates الذي صادف قبولاً من الاهلين فانتمى اليه عدد كبير من محبّي الحياة الديرية • وحدا هذا النجاح الذي صادفه كولومبا به الى تأسيسه ديرا ثانيا في لوكسويل Luxeuil بالقرب من ديره الاول •

وصدف أن كولومبا أهمل عند تأسيسه ديريه في بورغونديا عرفا كان معمولاً به ، في صلب القارة الاوروبية ويقضي هذا العرف بأن يطلب الراغب في تأسيس دير ما في إحدى الاسقفيات ومسبقا اذنا من أسقفها بذلك فلما أهمل كولومبا ذلك الطلب أمسى الخلاف بينه وبين أسقف بورغونديا ، ومن ورائه الحبر الاعظم نفسه ، حتمي الوقوع • لكن النجاح الذي صادفه دير لوكسويل جعل كولومبا غير آبهٍ بذلك الإذن من الاسقف وهذا ما حمله على موالاة تأسيس أديرة أخرى في المنطقة لعل أهمها دير فونتين Fontaines .

وأدى الخلاف الذي ذرّ قرنه بين كل من هذا القديس كولومبا والبابوية الى أنه لم ينقطع خلال السنين العشرين التي مارس أثناءها نشاطه عن توجيه النقد القاسي الى البلاط الإمبراطوري والى الكنيسة الرومانية فغدا دريئة الى سهامهما التي صوّبوها اليه مما اضطره الى النزوح عن بورغونديا الى سويسرا حيث مارس نشاطه في المنطقة المجاورة لبحيرتي زوريخ وكونستانس. لكنه اضطر وبنتيجة معاداة الكرسي الاقدس له الى مغادرة سويسرا وشيكا عابراً هو وأتباعه جبال الآلب فأكرم العاهل اللومباري في ايطاليا وفادتهم مع سماحه لهم بتأسيس دير شمالي مدينة جنوة هو دير بوبيو Bobio الذي لم يلبث ان صار في مقدمة أديرة أوروبة في العصور الوسطى بما ذخرت به مكتبته من مخطوطات قيمة . وقضى هذا القديس آخر سني حياته في ديره بوبيو حيث حُمّ أجله سنة ٦١٥ .

ومع أن جهد كولومبا في الحقل التبشيري وتشييد الاديرة كان معطاءً خيّراً وخلاّقاً بنّاءً لكن نظامه الديري لم يكتب له البقاء والديمومة وذلك لإهماله ربط أديرته ببعضها فلم تكن ثمة سلطة مركزية عليا موجهة لنشاطات أديرة كولومبا فحاق بها الفشل . وفضلا عن ذلك فان اصطدامه بالنظام البندكتي (الذي رعته البابوية نفسها ومنذ أيام البابا غريغوري الكبير الذي كان من قبل راهبا بندكتياً) الذي ذكرنا من قبل أن الناحية العملية فيه قد احتلت مكانا مرموقا . لذلك وللرعاية التي أحاطت بها الحبرية العظمى أديرة البندكتيين فان هذه الاخيرة تغلبت في الصراع المحتدم على أديرة كولومبا .

وبلغ نشاط الرهبان المبشرين الايرلنديين أقاليم وسط أوروبة حيث أقاموا ثلاثة أديرة جنوبي ألمانيا هي **دير وورزبرغ ودير وورغنسبرغ ودير سانت غال** . وعلى الرغم من أن ثلاثة الاديرة هذه قد تأثرت بالنظام البندكتي فانها لم تتنكر لاصلها الكلتي . وعلى العموم تمكنت البابوية ومنذ منتصف القرن الثامن من إخضاع الاديرة الايرلندية لإشرافها . وقد نجحت وفي الفترة ذاتها في القضاء على استقلال الكنيسة الأيرلندية وجعلها ترتبط بتبعيتها بالبابوية .

بيد أنه مما يضاف الى رصيد هذه الاديرة الايرلندية التي أسست في

مختلف أقاليم غربي أوروبة أنها تركت أثراً عميقاً في الناحيتين الدينية والثقافية لصيرورتها مراكز إشعاع قوي بالنسبة الى الثقافة الكلاسيكية القديمة (اليونانية) • هذا ناهيك بما كانت تضمه مكتبات بعض أديرتها ونخص بالذكر منها مكتبتي ديري بوبيو وسانت غال الغنيتين جداً بأندر المخطوطات الكلاسيكية •

وفضلا عن كل ما ورد فان حركة التبشير في أوروبة العصور الوسطى تدين وبنسبة كبيرة الى نشاط وحماس المبشرين الايرلنديين لانهما بعثا الحياة في هذه الحركة وأيقظاها من سباتها بعد أن ران على فعاليتها جو من الفتور • وعلاوة عن جميع ماذكرناه لا بد لنا من الاشارة الى حرص الرهبان الايرلنديين على استقلالهم بأديرتهم عن سلطة الاساقفة الذين شيدت تلك الاديرة في أسقفياتهم مما رفضت البابوية ومن خلفها الاساقفة الاعتراف به وبالنسبة الى جميع أديرة غربي أوروبة الا في القرن الحادي عشر[1] •

البعثات التبشيرية الانكليزية ونشاطها في غاليا وألمانيا :ـ ازداد نشاط المبشرين الانكليز في غاليا وألمانيا في نهاية القرن السابع • واضطر أسقف يورك الآنغلوسكسوني الى قضاء شتاء سنة ٦٧٣ في مقاطعة فريزيا (وتقع في هولندة الحالية) بعد جنوح سفينته الى سواحلها وكان في طريقه الى روما • كما أمّ رجل الدين الانكليزي ويلليبرورد Willibrord فريزيا نفسها سنة ٦٩١ وتمكن من تأسيس أسقفية أوترخت • وطوال خمسين عاما لم ين رجل الدين هذا عن نشر المسيحية في هاتيك الربوع • ثم اعتبر القديس بونيفاس أعظم رجال الدين الانكليز في القرن الثامن • وكان قد تلقى تعليمه

---

(١) راجع من أجل نشاط المبشرين الايرلنديين في غربي أوروبة ونجاح البابوية في استرداد سيطرتها على انكلترا الكتابين التاليين :

آ ـ لويس هالفين : المرجع المذكور ، المجلد ٥ ، الفصل ١٣ عن عمل البابا غريغوري الكبير واسترداد الكاثوليكية سيطرتها على انكلترا ، ص ١٩٢ ـ ١٩٥ •

ب ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع المذكور ، ج ١ ، الباب السابع ، ص ١٧٥ ـ ١٧٩ حيث أثبت آراء عدد من المؤرخين الانكليز : مجموعة كمبردج ودينسلي Deansly ووركمان وتومبسون وإير Eyre المذكورين من قبل •

في أكستر ثم توجّه الى فريزيا سنة /٧١٥/ ؛ ونظراً لاستشراء الحرب في الفترة ذاتها بين الفريزيين وشارل مارتل فان بونيفاس عاد أدراجه الى إنكلترا التي ما برح أن غادرها في سنة ٧١٨ الى روما حيث زوّده البابا بسلطة واسعة لممارسة التبشير في ألمانيا فمارس تلك المهمة طوال خمس سنين في مدينة هس الى أن عيّن رئيسا لاساقفة (مطرانا) ألمانيا • وبذّ بونيفاس مبشري أيرلندة في حرصه على إدخال الحضارة اللاتينية ونظمها الى ألمانيا ، وأنه أسس في ربوعها عدداً من الأسقفيات في كـل من (ورزبرغ وماربورغ وإرفرت) والاديرة في (فولدا وهرسفلد وأورترف) •

ولم تلبث بعض السيدات الانكليزيات إن لحقن ببونيفاس الى ألمانيا لتأسيس بعض الاديرة البندكتية النسائية ، هذا علاوة عن أثر بونيفاس في الدعوة الى مجمعي لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣) وسواسّون (٧٤٤) الدينيين • ولم ينأ هذا القديس عن التدخل في الشؤون السياسية كإحلاله الوئام بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل ، ومباشرته المفاوضات بين پيپين القصير والبابوية وقد انتهت بإيساد عرش مملكة الفرنجة الى پيپين القصير Pépin وعزل آخر ملوك الميروڤنجيين وما تبع ذلك من اتفاق بين الكارولنجيين والبابوية •

لكن هذا الانهماك في الشؤون السياسية عاق بونيفاس في الفترة مابين ٧١٨ ــ ٧٥٢ عن إنجاز المهمة التي آلى على نفسه تحقيقها وهي حمل الفريزيين على اعتناق النصرانية • وبمجرد إدراك بونيفاس في سنة ٧٥٢ مدى النجاح الذي حققه في الميدان السياسي قرر العودة الى فريزيا لاستئناف نشاطه التبشيري لكنه لقي حتفه على يد الفريزيين سنة ٧٥٥ واعتبر من أساطين المسيحية في الغرب في العصور الوسطى •

موقف الامبراطورية الرومانية من انتشار حركة الرهبان الديريين في ولاياتها :

أقضّ انتشار الحركة الرهبانية بشقيها الانعزالي والديري على البابوية والدولة الرومانية مضاجعهما وذلك منذ حوالي منتصف القرن الرابع من حيث أنها عزلت ، بالنسبة الى الدولة عدداً كبيراً من المواطنين وجعلتهم عناصر سلبية في المجتمع • فهي حرمت الجيش الروماني من أعداد لا حصر لها من العناصر

الشابّة أو من الكهول على الاقل ، فكم من تاجر ترك تجارته وكم من مزارع هجر حقله ليلتحقا بأحد الاديرة • وأن الحركة هذه هي من بين أسباب تفكّك وانحلال المجتمع وأنها تمزق شمل الأسر •

ولم تكن البابوية ومن ورائها الكنيسة الكاثوليكية أقل قلقاً من الدولة الرومانية بالنسبة الى ازدياد أهمية الحركة الديرية من حيث أن الرهبان لم يكونوا دائما سلسي القياد بيد الحبر الاعظم • وبصورة عامة وجّه خصوم هذه الحركة اليها أَمَرَّ النقد حيث ذكروا أنها « تجعل أنانية الفرد تتغلّف بغلاف من التديّن ، وأن أعمال البر والإحسان الى الفقراء لا يقوم بها الراهب إلا كوسيلة تُقَرِّبُه الى الله زلفى» • وأن السلطات الرومانية الحاكمة العليا التي خشيت من هذه الحركة على تدني عدد قواتها المقاتلة في وقت كانت فيه الدولة الرومانية أحوج ما تكون الى ازدياد عدد أفراد قواتها لا سيما وأن البرابرة بدأ مدّهم يصل وعلى شكل موجات متعاقبة الى ولايات الحدود الرومانية • وكان أول رد فعل حكومي للحيلولة دون زيادة انتشار تلك الحركة إصدار تلك السلطات قانوناً يُحَرِّم الانضمام الى الأديرة على الصالحين للخدمة العسكرية •

أضف الى ذلك أن علاقة الحركات الديرية بالكرسي الاقدس لم تكن دائماً علاقة تبعية ، وأن الحبر الاعظم لم يكن دائما متأكداً من ولاء الرهبان• وقد وضح لنا ذلك من الجو المشحون بالتوتّر الذي ران على علائق القديس كولومبا بالاساقفة ورئيسهم الاعلى • وحاول أعضاء مجمع غانغرا Gangra المنعقد سنة ٣٦٢ مقاومتها فجاء في قراره أن حركة الرهبانية والديرية هدمت الأسر الرومانية القديمة ، وأنها غدت في نفس الوقت تشَكّل عنصراً خطيراً على حياة المجتمع إذ ذاك • وقد شاهد الناس لوناً جديداً قوامه التعصب للدين واستخدام العنف أيضاً من جانب الرهبان لتأييد كبار رجال الكنيسة وخدمة مآربهم • ومن ذلك ما قام به الرهبان في سبيل نصرة مذهب أثناسيوس ، ومحاربة مذهب آريوس ، حتى صدور الحكم على ذلك المذهب

الاخير بأنه فاسد غير صالح[1] .

ومن بين الاساتذة الذين أوردوا الانتقادات الموجهة الى الحركتين الرهبانية والديرية ، آندريه بيغانيول André Piganiol فقال بصدد ذلك ما معناه : « لقد أثار الرهبان قلق كل من الكنيسة الكاثوليكية والدولة . ومن جراء ذلك فان الحركة الرهبانية بدت وكأنها احتجاج صارخ ضدالتقارب بين تينك السلطتين » .

« إنهم لم يُرْسَمُوا كأعضاء في سلك الإكليروس ومع ذلك فانهم يعتبرون أنفسهم أشد صفاءً ونقاوة من باقي رجال الدين ، وأنهم أعلى كعباً في هذا المضمار من أفراد الإكليروس . ثمت فان تقشفهم الزائد حمل على الظن أنهم من أتباع المانوية . ولئن أيدهم بعض الاساقفة من أمثال آثناسيوس وأوستاث Eustathe وباسيل ويوحنا كريزوستوم Jean Chrysostome وأخذوا بناصرهم فإن أساقفة آخرين ناضلوا من اجل ابقائهم خالدين الى السكينة وفي ظل خضوعهم وتبعيتهم الى السلطات الدينية العليا .

« خاصة وكان من الطبيعي أن يزداد قلق الدولة من التكاثر السريع لأولئك الرهبان المتملصين من أداء الواجبات الاجتماعية الملقاة على عواتقهم. وكتب عنهم الحبر الاعظم زوسيم Zosim (كان حبراً أعظم بين سنتي ٤١٧ — ٤١٨) أنهم لا يؤدون أية فائدة للدولة وأنهم عناصر غير خلاّقة وأنهم يجمعون الاراضي في حوزتهم متذرّعين بحجة أن ثروتهم هي ثروة الفقراء . إنهم تعرّضوا للّوم بسبب تعصّبهم الذي دفعهم الى تدمير المعابد الوثنية . وقد كتب عنهم أوناب Eunape : « إن كل مرتد لثوب أسود (وهو مسوح أو جبّة الرهبان) يمارس الطغيان » ولذا فان الامبراطور ڤالانس أوعز في سنة ٣٧٣ بأن يعاد الى المدن وبواسطة القوة الصالحين لحمل السلاح والذين كانوا مختبئين بين الرهبان ، كما أوعز في سنة ٣٧٧ بإجبار جميع رهبان وادي النطرون في مصر على أداء الخدمة العسكرية . ثمت فان تيودوسيوس عقد العزم على إجبارهم (في نهاية ذلك القرن) على القيام

---

(١) الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : المرجع المذكور ، الفصل ٣ ، ص ٨٣ نقلا عن كتابيووركمان ص ٥٦ وموس ص ٣٧ المذكورين .

بواجباتهم الاجتماعية لكنه قضى سريعاً قبل وضع قراره موضع التنفيذ»[1].
هذا بينما تحدث الاستاذ إدوار پروا[2] Edouard Perroy، في الجزء الذي ألفه من مجموعة التاريخ العام للحضارات عن حضارة العصور الوسطى عن ازدياد نفوذ أولئك الرهبان قائلا ما نصه : « وكان نفوذ هؤلاء الرجال القديسين كبيراً جداً بالنسبة الى أفراد الشعب كما كان عددهم آخذاً وباستمرار بالزيادة ؛ وإن تقيّد المرء بقواعدهم والانضمام الى حركاتهم معناه فراره من تجارب وقسوة هذا العالم من حيث أن أحاديثهم وسلوكهم لا يمكن أن تساعد على التمسك بالرذيلة أو بالثروة أو بالسلطة . ونظراً لعدم نجاح الاساقفة في ضبطهم وكبح جماحهم ونهنهة شططهم وغلوّهم استمروا وبصورة دائمة مثيرين للاضطراب ، إنهم هم الذين أثاروا الجماهير بمناسبة أو بحجة الخلافات اللاهوتية . وقد أضعفت تلك الانقسامات أو الخلافات الامبراطورية البيزنطية عندما كانت تحدق بها الاخطار الكبيرة وذلك طيلة أكثر من قرنين ولم تهدأتلك الانقسامات إلا عندما نزعت الفتوحات العربية الاسلامية أعداداً غفيرة والغالبية العظمى من هؤلاء المنشقين من الخضوع الى الحكم البيزنطي ، أو كما يقول هؤلاء المنشقون أنفسهم : لقد حررتهم تلك الفتوحات من الخضوع الى طغيان وجبروت الكنيسة البيزنطية ».
هذا بينما حدثنا الاستاذ موس الآنف الذكر عن النزاع الذي كثيراً ما استشرى بين الرهبان وسلطة كل من البابوية والدولة فقال ما يلي : « وأحيانا كانت الخصومة تذرّ قرنها بين الرهبان وكل من البابوية والدولة. وكثيراً ما تسلّح هؤلاء الرهبان بهرواتهم الغليظة لمنع انعقاد المجامع الدينية أو لإيقاف جلساتها المنعقدة أو لتدمير معابد الوثنيين والمنشقّين .. »[3] .

---

(١) مجموعة غلوتز : المرجع المذكور ، التاريخ الروماني ، المجلد ٤ ، ج ١ وهو بعنوان : الامبراطورية المسيحية ، الفصل ٥ ، ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

(٢) مجموعة التاريخ العام للحضارات Histoire Générale des Civilisations المجلد ٣ ، وهو عن حضارة العصور الوسطى لمؤلفه ادوار پروا ، الفصل ٢ ، ص ٣٧ . وهذه المجموعة نشرتها دار نشر المطبوعات الجامعية في باريز وتتألف من سبعة مجلدات وذلك حتى سنة ١٩٥٦ .

(٣) موس : المرجع المذكور ، الفصل ١ ، ص ٥٣ .

لكن مهما صُوِّب إلى الحركة الرهبانية وأختها الديرية من سهام وَوُجِّه اليها من نقد فلا يمكن أن ينكر فوائدها ولاسيما بالنسبة الى واقع العصور الوسطى سوى المكابرين . انها حلت مكان الامبراطورية الرومانية في أوروبة ، بعد القضاء على الشق الغربي منها فيما يتعلق بتطوير المجتمع في العصور الوسطى . لكن يجب ألا يسهيا عن بالنا أن بيئة غربي أوروبة لا تساعد على ازدهار حياة الرهبان النُسّاك الانعزاليين فالمناخ قاسٍ وقلّما تمكن الرهبان من تحمّل البرد القارص ، فذلك من شأنه ألا يشجع على ممارسة الرهبان في بيئة غربي أوروبة حياة انعزالية بينما مناخ وبيئة مصر يساعدان على حياة الزهد والنّسك .

ثمت فللرهبان رصيد غني جداً وتدين اليهم النصرانية في أنهم ساعدوا وبصورة مجدية وفعّالة على نشر المسيحية ، كما عملوا على صيانة الحضارة البشرية وخاصة في ظروف خيّم فيها الاضطراب على غربي أوروبة .

زد على ذلك الدور الإيجابي والفعال الذي قام به الرهبان على الصعيد الاقتصادي . إنهم أحيوا الكثير من الاراضي الموات والبور وجعلوها صالحة للزراعة كما نهضوا بالزراعة بصورة أكيدة ولم تكن الحقول الملحقة بالاديرة آنئذٍ سوى حقول للتجارب الزراعية . كما يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة الى الميدان الصناعي حيث بذل الرهبان أنفسهم جهوداً ما تزال تذكر لهم بكل اعتزاز وفخر ولاسيما رُقّيّ وازدهار صناعات النسيج والاصبغة ودبغ الجلود ، كما لم يقصروا في فنّ زخرفة المخطوطات وتزيينها .

ولعل أكثر الاديرة اهتماما بالعمل اليدوي هي الاديرة البندكتية وحسب مؤسس نظامها ، بندكت نفسه ، أنه ذهب بفخار تشجيع الرهبان على العمل اليدوي وحسبه فخراً أنه اعتبر العمل عبادة وجعله ركناً أساسياً في حياة الرهبان في الاديرة .

وعلاوة عن جميع ماذكر فللاديرة فضل كبير في نشر التعليم في العصور الوسطى خاصة بالنسبة الى الاديرة النسائية التي مارست بعض الراهبات مهنة التدريس فيها .

ونختم حديثنا عن الاديرة بما ذكره الاستاذ فيشر عنها[1] حيث قال ما معناه : « إن الاديرة ــ فضلا عن إيوائها أهل التقوى والنسك والهدوء من عواصف الحياة القاسية في العصور الوسطى ــ أدّت من الخدمات للمجتمع في تلك العصور ما أضحى المجتمع الحاضر مستغنياً عنه ، أو قادراً على الوصول اليه من مصادر أخرى . فالدير كان في كثير من الاحوال مركزاً لاعمال التبشير بالمسيحية في بلاد وثنية ، ومصرفاً لإيداع الاموال ، ومنزلا لراحة أصحاب الاسفار ومالكاً للاراضي المفتقرة الى الإصلاح والزراعة ، ومقرّاً للتعليم والتوفّر على العلم ومجمعاً للفنون والحرف والصناعات التي تتطلبها مؤسسة كبيرة مستقلة بشؤونها وحاجاتها الكثيرة . والدير كان فضلا عن ذلك كله ملتقى الاخبار السيارة وسجلها ، ومخزن المخطوطات النادرة وحافظها ، وهو كذلك مودع المسائل السياسية الخارجية منها والداخلية ، وأداة استصلاح الاراضي البور ، وسبيل إيصال المدنية الى قفار الهمجية والوثنية . وما الخدمات التي قامت عليها الاديرة العظيمة ... بأطراف ألمانيا في العصور الوسطى ، والاعمال التي اضطلع بها الديريون السسترشيون The Cistersians في اسبانيا وشمال انكلترا إلا من ذلك النوع ، إذ اجتمعت فيها صفات التبشير والتعليم وتملّك الاراضي. والواقع أن امتداد المدنية وانتشارها في شرق ألمانيا واسبانيا وشمال انكلترا يرجع فيما يرجع أولا لاندفاع تلك الطوائف المنظمة من الرجال والنساء المنقطعين للديرية نحو تلك الاقاليم ، في شيء من القوة والجرأة والصبر على المكاره. ثم اننا ندين بكثير مما نعرف عن أوائل العصور الوسطى الى كتب الحوليات التي ألّفها الديريون باللغة اللاتينية ، حتى اذا طلع القرن الثالث عشر الميلادي انتقل التأليف في التاريخ من الديريين وأديرتهم الى العلمانيين الذين أخذوا يضعون في لغاتهم القومية مايرون بأعينهم من الاشياءويسجلون ما يسمعون بآذانهم من الناس ... » .

---

(1) فيشر : المرجع المذكور ، ج ١ الفصل الثاني عشر ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨ ، ترجمة الدكتوران محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني .

الفصل السابع

مملـكة الفرنجـة

حكم أسرة الميروفنجيين : ٤٨١ ـ ٧٥١ (أو سنة ٧٥٢ م)

يرى المؤرخون أن تأسيس دولة الفرنجة Francs هو أهم الأحـداث السياسية التي اقترنت بالغارات الجرمانية على الإمبراطورية الرومانية والتي نتجت عنها من حيث أنه كتب لهـذه الدولة الاستمرار والديمومة داخـل إطار الإمبراطورية الرومانيـة • ورُدَّ اشتقاق اسـم هـذه القبـائل الى كلمة **فرنجي** Franc ومعناها **الحُرّ** • ويُرَجَّح أن الفرنجـة عرفوا بهـذا الاسم لعقدهم العزم على الاستقلال عن روما وإيجاد كيان سياسي خاصّ بهم أي أن يتمتعوا بكيان حرّ وألا تشدّهم أية رابطة تبعيـة الى رومـا وامبراطوريتها •

تحدّث الأستاذ يوسف كالميت Joseph Calmette عن أصل الفرنجـة فأورد ما معناه : « ظهر الفرنجة في فترة متأخرة من التاريخ • ولم يرد لهم أي ذكر قبل القرن الثالث • وهكذا فان المؤرخ تاسيت(أي تاكيتوس) لم يشر إليهم إطلاقاً في كتـابه جرمانيا • وعلى ما يبدو فإن المعنى الحرفي لكلمة فرنجي هو حرّ أو مستقل libre • فهل أدّى هذا المعنى أو الاشتقاق الى زهوّ وتيه أفراد قبائل الفرنجة باسمهم وهو الأحرار أو المستقلون ، ذلك الاسم الذي حملته قبائل لم تخضع الى الحكم الروماني ؟ لقد افترض بعض المؤرخين ذلك • ومما يؤيّد هذه الفرضية أننا عثرنا بين الفرنجة على شعوب أورد المؤرخ تاسيت ذكرها ولا سيما **الشاماف** Chamaves • ومعنى ذلك والحالة هذه أن الفرنجة كانوا يتشكّلون وفي حقبة متأخرة من تاريخهم حلف

قبائل يمكن تمييز بعضها عن بعض ، ويحتمل أن تكون كلها قد انحدرت من جدّ أو أصل واحد ولكنها على الرغم من ذلك توحّدت وشكلت شعبا واحدا تمتّع عبر التاريخ بأهمية بالغة . وأول ما ظهرت فعالية الفرنجة في التاريخ صار بوسعنا إيراد أسماء عديدة من فروعهم ومن بينها الفرنجة الشاماف .

« ومع ذلك فإن الحقب الأولى من تاريخ الفرنجة غامضة ويكتنفها الضباب الى درجة أنه لن يكون بوسعنا تكوين أفكار واضحة عن تلك الحقب إلا بحذر شديد . إذن ماذا يعني ذلك التقسيم لقبائل الفرنجة والذي كثيراً ما أورده المؤرخون ذاكرين فيه عدداً من الفروع التي نورد من بينها **الفرنجة الساليّين** Francs Saliens (وهم الذين يدعون عادة البحريين) **والفرنجة البريّين** Francs Ripuaires **والفرنجة الشاماف** ، وكثيرون غيرهم. وما هو الرباط الذي يشدّ تلك القبائل الى بعضها بعضا تلك القبائل التي لم تقاوم توحيدها وبصورة تامة منذ أن تمكنت من النجاح هذا مع احتفاظها بمقابل ذلك بقوانينها الخاصة »(1) .

والأشدّ غرابة من ذلك أن إحدى قبائل الفرنجة وهي قبيلة الفرنجة البحريين (الساليّين) التي ، احتلت مركز الصدارة بين كل تلك القبائل وقامت بدور رئيسي هي التي تأخر ظهورها الى ما بعد باقي قبائل الفرنجة الأخرى. ولم يورد المؤرخون اسمها إلاّ منذ النصف الثاني من القرن الرابع لكنها سرعان ما قفزت الى الطليعة وغدت أهم قبائل الفرنجة(2) .

ثم أشار المؤرخون الى تجمع قبائل الفرنجة في ظل زعامة أحد رؤسائها ، وأنها أبرمت فيما بينها حلفا لا نعرف شيئا ثابتا عنه . هذا فضلا عما ذكره المؤرخون القدامى عن بعض زعماء قبائل الفرنجة الأقدمين ولا سيما كلوديون الذي عاش في مستهل القرن الخامس والمشهور بشعره الغزير الكثّ لدرجة أنه يقال له في المصادر الأجنبية : كلوديون ذو الشعر الكثّ

---

(1) يوسف كالميت : العصور الوسطى ، الفصل ٢ ص ٣٦ . ونشرت مكتبة فايارد Fayard في باريز هذا الكتاب سنة ١٩٤٨ .

(2) المصدر عينه ، الفصل ٢ ، ص ٣٦ .

Clodion le Chevelu ، وميروڤيه Mérovée (وقد حكم بين سنتي ٤٤٨ ــ ٤٥٨ م) وشيلدريك الأول Childéric (٤٣٦ ــ ٤٨١ م) .

بدأت هذه القبائل تقلق الاباطرة الرومان منذ عهد أوريليان Aurélien (حكم بين ٢٧٠ ــ ٢٧٥ م) فألحق بها الهزيمة . لكن تلك الهزيمة لم تحل بين رجالها وإيغالهم في بعض المقاطعات الرومانية حيث نجحوا منذ نهاية القرن الثالث في احتلال المناطق الواقعة ما بين نهر الرين الادنى والماين . ثم استقرت مجموعتان من قبائلهم في الولايات الرومانية في القرن الرابع : **المجموعة الأولى هي قبائل الفرنجة البحريين** ويلقبون عادة بالساليّين Francs Saliens وكانت منطقة سكناهم بين الراين الادنى والموز والشلد ، بينما استقرت قبائل **المجموعة الثانية** التي تعرف باسم **الفرنجة البريّين أو الريبوير** Francs Ripuaires على طول نهر الموزل الادنى . ودعيت القبائل الاولى بالبحرية لسكناها قرب سواحل البحر بينما أطلق على الثانية اسم القبائل البرية لأن مقامها كان على ضفاف الانهار . وفضلاً عن قبائل هاتين المجموعتين فثمة قبائل فرنجية أخرى كثيرة ولا سيما قبائل الشاماڤ .

وكانت علائق الفرنجة بالامبراطورية الرومانية قبل تأسيس دولتهم في غاليا تختلف من حين الى آخر . فنراها في بعض الفترات ودّية ، بينما كانت في فترات أخرى عدائية . ولم تحل هذه العلائق المتغيرة المتقلبة دون ترسيخ أقدام هذه القبائل في شمالي غاليا . وعلى الرغم من إلحاق الرومان الهزيمة بكلوديون الفرنجي في مدينة آرّاس فانه استأنف القتال وأحرز نصراً مبيناً أمكنه من احتلال وادي نهر السوم . بينما يقتصر ما نعرفه عن ميروڤيه على اشتباكه بقبائل الهون فقط .

وتولى شيلدريك (وهو والد كلوڤيس الشهير) مُلْكَ الفرنجة سنة ٤٥٧ لكن معلوماتنا عنه ليست بذات غناء . ولو أن المصادر أوردت أنه تمّ اكتشاف قبر هذا العاهل الذي تُوُفّي سنة ٤٨١ (وتذكر بعضها أن وفاته سنة ٤٨٢) في سنة ١٦٥٣ وفيه ظاهرة استرعت انتباه علماء الآثار وهي أن الامير المتوفى يدفن مع جواده وسلاحه وحليّه . فهذا التقليد كان مُتَّبَعاً

لدى الفرنجة البحريين ، أي الساليّين[1] ، وبوفاة هذا العاهل انتقل حكم البحريين الى ابنه كلوفيس Clovis (المولود سنة ٤٦٦) الذي اعتبر وعن جدارة أعظم ملوك دولةالفرنجة البحريينالتي صارتتدعىدولة **الميروفنجيّين** نسبة الى ميروفيه جد كلوفيس والتي سيقضى عليها بوفاة شيلدريك الثالث سنة ٧٥١ م .

كلوفيس ٤٨١ ــ ٥١١ م : كان لدن توليه الملك في الخامسة عشرة من عمره واعتبر راشداً لاعتبار الفرنجة البحريين الفتى راشداً لدن بلوغه الثانية عشرة من العمر . وكان كلوفيس أحد زعيمين اثنين تمخّضت عنهما غارات البرابرة على الامبراطورية الرومانية . أما الزعيم الثاني فهو تيؤدوريك الكبير الاوستروغوطي . وقد أسس كلاهمــا دولة . فدولة كلوفيس هي دولة الساليّين أو الفرنجة البحريين وصارت تدعى **الدولة الميروفنجية** التي تمكن هذا العاهل من جعل رقعتها شاملة جميع بقاع غاليا تقريباً ، علماً أنه عندما تولى الحكم كان فيها أربع دول كانت دولة الفرنجة إحداها فقط . وقد عمّرت هذه الدولة قرابة ثلاثة القرون وكان ممكناً أن يطول عمرها لو أن ملوك الميروفنجيين الاواخر كانوا على مستوى منصب الملك الموسد إليهم . أما الملك الثاني فهو تيؤدوريك الكبير الاوستروغوطي ، وكنا قد تحدثنا عنه وعن دولته من قبل . وقد تزوج هــذا الأخير من أخت كلوفيس نفسه إنما لم يكتب لدولته البقاء . وكان الزعيمان محنـّكين فحاولا أن يُغـَلـِّفا علائقهما بالامبراطور الروماني في القسطنطينية بطلاء من الودّ يخفيان تحته طموحهما .

وكان لتيؤدوريك في إيطاليا صفة مزدوجة ، فكان من جهة عاهلاً قوطياً من عواهل القوط الشرقيين ، الأوستروغوط ، ومن جهة أخرى موظفاً من موظفي الامبراطورية الرومانية . بينما قلـّد الامبراطور الروماني الشرقي آنسطاس (حكم بين ٤٩١ ــ ٥١١ م) كلوفيس منصب القنصلية الفخرية

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا بين أقدم فتراته وحرب مائة العــام ، المرجع المذكور ، الفصل ٢ ، ص ٣٥ .

الذي كان وقفاً على الشخصيات ذات المكانة السامية المرموقة والمناصب العالية في الامبراطورية الرومانية . وعلى الرغم من وجه الشبه هذا فثمة فارق بين الاثنين وهو اعتناق تيؤدوريك النصرانية وفق المذهب الآريوسي الاسكندري ومات عليه ، بينما اعتنق كلوڤيس المذهب الأثناسيوسي أي الكاثوليكي وغدا بعد تتويجه ملكاً على قومه من أساطين الكاثوليكية المناضلين في سبيل دعمها ونشرها . وعزا المؤرخون سرّ دعم الإكليروس الكاثوليكي لكلوڤيس ودولته الميروڤنجية التي عاشت قرابة ثلاثة القرون الى اعتناقه الكاثوليكية . أما تيؤدوريك الأكبر الأوستروغوطي فلم يحظ بهذا التأييد من قبل رجال الدين الكاثوليك فكانت النتيجة المباشرة لذلك أن دولته لم تُعَمِّر طويلاً وسرعان ما قضى عليها الامبراطور الروماني الشرقي (البيزنطي) جستنيان العظيم في سنة ٥٥٢ م .

أشار الاستاذ موس Moss الى الفوائد التي جناها كلوڤيس من جرّاء اعتناقه النصرانية فقال في معرض كلامه عن بسط هذا العاهل سلطانه على جميع الفرنجة البريّين وعلى الآلامان وغيرهما من عناصر البرابرة وحتى بقايا الرومان الذين كان كل منهم مستأثراً باحدى مناطق غاليا ما يلي : « وقبل أن يتاح لكلوڤيس إنجاز مهمته هذه جدّ حادث جوهري وهو تنصّر كلوڤيس واعتناقه المذهب الكاثوليكي وسنبحث فيما بعد ماذا يعني حلّ كهذا . وكانت النتيجة المباشرة لهذا الحادث أن كل واحد من أفراد سلك الإكليروس الكاثوليكي سواء أكان يعمل في المناطق الخاضعة للڤيزيغوط أم للبورغونديين صار بمثابة داعية لا يألو جهداً في التمهيد لنصر كلوڤيس وأن يساعده في جعل الافراد الرومان المستقرين في غاليا يشدّون أزره وأن يجعلوا بيزنطة ترى فيه الحليف الذي تحرص على العثور عليه ضد ملوك البرابرة الغربيين الآريوسيين . وقد أفادته جميع تلك الظروف المواتية فضلاً عن ضعف وخوران عزيمة العاهل الڤيزيغوطي آلاريك الثاني خليفة أوريك وبعد إلحاقه الهزائم المتوالية بذلك الملك الضعيف فانه أحرز عليه نصراً حاسماً في سنة ٥٠٧ غند ڤوغليه Vouglé (وتكتبها المصادر الاخرى ڤوييه

Vouillé) بالقرب من پواتييه حيث قتل آلاريك وانتقلت جميع أقاليم دولته الى كلوڤيس باستثناء شاطىء الريڤييرا الجنوبي الذي تمكن الأوستروغوط من ضمه الى ايطاليا »[1] .

ولما تولّى كلوڤيس العرش الميروڤنجي شمال شرقي فرنسا كانت غاليا (وتضم فرنسا وبعض المناطق المجاورة) موزعة بين دول أربع هي :

١ ـ **الدولة الميروڤنجية** أو مملكة الفرنجة وتشمل رقعتها المناطق الواقعة الى الشمال والشمال الشرقي من فرنسا وما وراء نهر الراين .

٢ ـ **الدولة الغالية الرومانية :** وقد أسسها القائد إيجيديوس Egidius وكان قائداً للحاميات الرومانية المرابطة في غاليا أيام قائد الحرس الوطني إيتيوس . وقد توفي سنة ٤٦٤ فأوسد حكمها الى ابنه سياغريوس Syagrius وتضم هذه الدولة حوضي نهري السوم واللوار .

٣ ـ **الدولة البورغوندية :** وتشمل بلادها حوض نهري الرون والسون .

٤ ـ **الدولة الڤيزيغوطية :** وفي حوزتها جميع إسبانيا والبلاد الواقعة بين جبال البرانس ونهر اللوار ومقاطعة الپروڤانس .

ثم شدّ رباط المصاهرة سنة ٤٩٢ بين زعيم الاوستروغوط في إيطاليا ، وهو كما ذكرنا تيؤدوريك الأكبر ، وكلوڤيس حيث تزوج الأول أخت الثاني وهي زوجه الثانية ، ونتج عن ذلك صداقة وتحالف الدولتين لعدة سنين .

ولم يَعتَتِّم كلوڤيس أن تزوج في العـام نفسه من أمـيرة بورغوندية كاثوليكية هي كلوتيلد ذلك الزواج الـذي أدىّ الى استغراب المعاصرين الذين لم يتمكنوا من تفسير عقد قران أميروثني(وكان كلوڤيس مايزال وثنياً) على أميرة كاثوليكية . وذهب بعضهم الى القول بأن هذا الزواج بدلاً من أن يلاقي مقاومة عنيفة من قبل الأساقفة كان بتشجيع سرّيٍّ منهم فذكروا أن الأميرة الكاثوليكية ، التـي سترفع الى مصافّ القدّيسات ، كانت تنشد

(١) ل.ب . موس ؛ المرجع المذكور ؛ الفصل/٣ ؛ ص ٨٦ ـ ٨٧ .

من هذا الزواج ، ومن ورائها الإكليروس الكاثوليكي ، حمل كلوفيس ومن ورائه شعب الفرنجة ، علـى اعتناق النصرانية وفق المـذهب الكاثوليكي (أي الاثناسيوسي) على خـلاف معظم البرابرة الـذين غدوا آريوسيين (أرثوذكس) . وسنتحدث عن الظروف التي اقترنت بتنكّره لوثنيته واعتناقه النصرانية ولو أننا أشرنا الى ذلك بإيجاز أعلاه .

وكانت أولى انتصاراته على القائد الروماني سياغريوس عاهل المملكة الغالية الرومانية . وتمّ اشتباك قوات الفريقين عند مدينة سواسّون سنة ٤٨٦ حيث ألحق بخصمه هزيمة ساحقة أجبرته على الفرار واللجوء الى آلاريك ملك الفيزيغوط . ثمت اضطر هذا الأخير الى تسليمه الى كلوفيس الـذي قتله . وأدى هذا الانتصار على بقايا الإدارة الرومانية وكبار رجالها الى بسط كلوفيس نفوذه على حوض نهر السين وشمالي فرنسا ونقله عاصمته من تورنيه Tournai إلى باريز نفسها . وكان تيؤدوريك الأكبر ملك الأوستروغوط قد أنجز في الوقت نفسه فتح إيطاليا .

بحث الأستاذ لوس پييتري Luce Pietri قضية تصفية كلوفيس لتلك الدويلة الرومانية في شمال غربي فرنسا التي لم تعد متصلة قط بإيطاليا بعد قيام البورغونديين وغيرهم بسدّ الطرق المؤدية الى إيطاليا من فرنسا فقال ما نصه بعد حديثه عن قسمي الفرنجة : « ... ولم يكن أيّ من هـذين الشعبين يُشكّل مملكة إنما مجموعة من القبائل الفوضوية . وكان ملك مدينة تورنيه (القريبة من ساحل فرنسا الشمالي) وهو الزعيم الفرنجي السالي شيلدريك بن ميروفيه يؤجّر خدماته الى آخر ممثل للسلطة الرومانية في غاليا . وبفضل المرتزقة الذين كان معظمهم في الواقع من الفرنجة نجح القائد الروماني إيجيديوس ثم ابنه سياغريوس من بعده في الحفاظ عـلى منطقة حول مدينة سواسّون (جنوب غربي تورنيه) مأهولة ببقايا عناصر القوات الرومانية مُشَكّلاً دويلة في هذه المنطقة ، بيـد أن تولّي الملك كلوفيس سنة ٤٨١ ، وهو ابن شيلدريك عرش الفرنجة الساليّين غيّر واقع تلك الدويلة . من حيث أن الملك الفرنجي الجديد كان طموحاً ومحارباً من

الطـــراز الأول متيحاً لشعبه الفرنجي بالانتصارات التي توالى إحرازها على يديه السيطرة على غاليا • وكانت أول مرحلة أنجز تحقيقها ودونما صعوبة تذكر احتلال الأقاليم الواقعة شمالي مجرى نهر اللوار • وقد فرّ ملـــك رومانيي غاليا بمجرد سقوط مدينة سواسّون بيد كلوڤيس سنة ٤٨٦ • وفي الوقت الذي سُلّم فيه سياغريوس الى عدوّه بعد أن حـــاول اللجوء الى ملك الڤيزيغوط حيث قام كلوڤيس بذبحه واحتلّ كل مملكته الصغرى• ثم أخذت البلاد تستسلم تباعاً الى قوات الفرنجة ودونما مقاومة حتى وصلت تلك القوات ضفتي نهر اللوار »[1] •

ولعل أهم حروب كلوڤيس هي التي خاض غمارها ضدّ عناصر الآلامان المستقرة في مقاطعتي الألزاس واللورين حوالي سنة ٤٩٥ أو سنة ٤٩٦ ثم في سنة ٥٠١ • وبيان ذلك أن عناصر الآلامان صارت تمارس ضغطها على الفرنجة البريّين (الريبوير) وكان الأولون مقيمين في أعالي نهر الراين فبدؤوا يتحرّشون بالفرنجة البريّين الذين كانوا الى جنوبهم فـــالتمس البريّون عون بني عمّهم البحريين وملكهم كلوڤيس فهبّ هذا الأخير لنجدتهم بتوجّهه الى حرب أعدائهم الآلامان سنة ٤٩٦ وتمّ لقاؤه بهم قرب مدينة كولونيا • وكانت حربه مع هؤلاء في بادىء الأمر سجالاً لا بل فإنه لاقى من أعدائه الشدائد وأضحت الهزيمة قاب قوسين أو أدنى من قواته فذرفت عيناه الدمع وقطع على نفسه عهداً أنه لئن نصره الله على أعدائه فسوف يعتنق دين زوجته كلوتيلد ، أي النصرانية الكاثوليكية ، وقد استجاب الله نـــذره ومنحه النصر • كما اشتبك مع الآلامان في حرب ثانية سنة ٥٠١ • وأخيراً سدّد لهم ضربة قاضية فاضطروا خشية من أن يبيدهم عدوهم كلوڤيس المنتصر الى الاحتماء بتيؤدوريك الأكبر عاهل القوط الشرقيين الآنف الذكر •

ولهذه الانتصارات على الآلامان نتائج بالغة الاهمية لإتاحتها للفرنجة

---

(١) العالم وتاريخه Le Monde et son Histoire وهي مجموعة من أحد عشر مجلداً نشرت تحت إشراف موريس مولو M. Meuleau في باريزمنذ سنة ١٩٦٦ . وقد ألف المجلدين ٣ ــ ٤ لوس بييتري، المجلد٣، القسم الاول ، ص ٢٢ــ٢٤ .

التوسّع في الشرق وفي الشمال الشرقي ، كما وأنها أبقت اتصال الفرنجة بوطنهم الأصلي في جرمانيا فيما وراء الراين • هذا علاوة عن نجاحهم في الحيلولة بين العناصر الجرمانية الأخرى كالبافاريين والثورنجيين والسكسون وبين إيغالها في الزحف على البلاد الواقعة غربي الراين • وذكر مؤرخ الفرنجة في القرن السادس ، غريغوار أسقف تور بصدد ذلك ما نصه وقد نقله عنه المؤرخ كارل غريمبرغ فقال : « لقد بقي الفرنجة وثنيّين ، لكن كلوتيلد زوج كلوڤيس كانت مسيحية ولم تأل جهداً في حمل ذلك الزعيم الفرنجي القاسي على اعتناق دينها • وقد قاوم كلوڤيس محاولاتها فترة طويلة • لكن حادثاً وقع هذا إن أخذنا برأي الأخباري الأسقف الفرنجي غريغوار التوري الذي قارن واستشهد أثناء روايته هذا الحادث وبصورة مستغربة باعتناق الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر المسيحية • وكان على كلوڤيس أن يخوض احدى معاركه العديدة التي جرت عادته أن يخوضها لكن اشتباكه بخصومه في هذه المرة لم يُبَشِّر بالنجاح • إنه رفع عينيه الى السماء وكانتا مغرورقتين بالدموع ووعد أن يَتَنَصَّرَ إن مكنته السماء من الفوز على أعدائه • ومنذ تلك اللحظة انقلبت الحال وابتسم له الحظ وأحرز نصراً مبيناً عليهم • وبعد انتصاره تعلّم قواعد المسيحية واعتنقها وجرى تعميده في مدينة ريمس Reims سنة ٥١٦ • وذكرت المصادر أنه أول ملك مسيحي مشح بالزيت • وصار بمثابة تقليد اتبعه ملوك فرنسا فيما بعد أن يتمّ تعميدهم في كنيسة القديس ريمي في ريمس »[١] •

وصفوة القول أن كلوڤيس عُدّ منذئذ بطلاً من أبطال المسيحية ، وإليه يعود الفضل في جعل المذهب الكاثوليكي مسيطراً على المنطقة الواقعة بين نهر الراين شرقاً وسواحل الأطلسي غرباً وبحر المانش شمالاً والبحر الابيض

---

(١) مجموعة التاريخي العالمي (مارابوط Marabout) المذكورة ، ج/٣ ، ص ٣٥٣ تأليف كارل غريمبرغ وترجمها للفرنسية جورج دومون . راجع كذلك النصّ الحرفي لغريغوار أسقف تور منقولا عن كتابه عن تاريخ الفرنجة ، القسم ٢ ، ص ٣٠ وهو في مجموعة اسحاق وماليه Isaac et Malet في الجزء المتعلق بتاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٦٢ .

المتوسط جنوباً • وأدّى اعتناقه النصرانية (وفق المذهب الكاثوليكي) الى تنصّر عدة آلاف من مقاتلنه بغية أن يبعثوا في نفس عاهلهم وقائدهم كلوڤيس السرور والبهجة • ثم زاد انتشار الكاثوليكية في جميع المناطق التي خضعت للميروڤنجيّين باطراد حتى صارت المذهب الرئيسي إن لم يكن الأوحد في غاليا الميروڤنجية •

وعلى الرغم من زواج كلوڤيس من الامـيرة كلوتيلد أخت غوندبود Gondebaud عاهل المملكة البورغوندية فانه كما ذكر الاستاذ فردنياند لوط : « كان يفكر في القضاء على دولة حميه • وقامت فكرته في أول الامر على محاولة التدخّل في شؤونها الداخلية فعمد الى تحريض أخي ملكها غوندبود على أخيه وأمدّه بقوات ودعمه مقابل وعد هذا الأخ أن يقتسم مع كلوڤيس أقاليم الدولة البورغوندية • وتمّ لقاء قوات كلوڤيس بقوات حميه (أخي زوجته) غوندبود بالقرب من مدينة ديجون Dijon وأنزل الأول بالثاني هزيمة منكرة ففرّ الى مدينة آڤينيون بدون أن يفوز منه بطائل واضطر أخيراً الى رفع الحصار والعودة الى حاضرته • تمكن غوندبود إذ ذاك من أن يتنفّس الصعداء ويستردّ جميع سلطاته • وكان غوندبود يعرف أنه بتنصّره وفق المذهب الكاثوليكي سيدعمه رعاياه الرومانيون الكاثوليك لكنه لم يقم بتلك الخطوة الجريئة مكتفياً بسَنّ قوانين معتدلة تحول دون اضطهاد هؤلاء • واتصفت سياسة كلوڤيس نحوه بالمكر والدهاء والبراعة • إنه أبرم صلحاً معه في لقاء تمّ بينهما في مدينة أوكسير Auxerre حيث حمله على التحالف معه ضد الفيزيغوط »[1] •

هذا بينما أوردت مصادر أخـرى أن الحرب التي دارت بين الفـريقين بالقرب من ديجون سنة ٥٠٠ أدت الى هزيمة غوندبود الذي تعهد بدفـع الجزية الى كلوڤيس دونما إشارة الى ذلك التحالف الذي أبرم بينهمـا ضد الفيزيغوط •

---

(١) فردنياند لوط (تاريخ فرنسا) ، المرجع المذكور ، الفصل/٣ ، ص ٣٧ — ٣٨ •

مضى كلوفيس بعيداً في سياسته الماكرة بإزاء الدول المجاورة فالتقى في مدينة آمبواز Amboise بآلاريك الثاني عاهل الفيزيغوط مُطَمْئِناً إياه أنه لا يفكر بأي توسّع في المناطق التـابعة للغوط ناشداً من وراء ذلك ألا يثير قلق القوط بفرعيهم الشـرقي والغـربي وذلك لئلا يفكر الفرعان في التحالف ضده [١] •

والى كلوفيس هـذه السياسة قبـل أن يُسَدِّد ضربته القاضية الى آلاريك زعيم الفيزيغوط • وقد حرص على أن يضمّ الى جانبه فرع الفرنجة البريّين (أي الريبوير) ولم يكن بعد قد أفقدهم استقلالهم وألحقهم بدولته ، ليؤيدوه في مشروعه ضد الفيزيغوط •

وبعد ضمان كلوفيس حياد البورغونديين وانضمام الفرنجة البريـين الى جانبه وترجيحه وقوف ختنه على أخته تيؤدوريك الأكبر عاهل دولـة الأوستروغوط في إيطاليا على الحياد عندما تأزف ساعة وضعه خطته بإزاء الفيزيغوط موضع التنفيذ ، إذ ذاك فكّر بكسب تأييد رجال الإكليروس الكاثوليك الى خطته لمـا لهم من تأثير على الرأي العام الكاثوليكي في غاليا (حوضي نهري اللوار والغارون) وبين الإسبان أنفسهم وكانوا كاثوليكاً بينما كان حكامهم الفيزيغوط آريوسيين • وليحقّق هذه الغاية أخذ يعلن أن الألم يحزّ في نفسه لملاحظته أن ثمة آريوسيين يحكمون جزءاً من غاليا • ثم جاهر بالدعوة الى حربهم تلك الدعوة الشبيهة بدعوة البابوية في نهايـة القرن الحادي عشر ملوك أوروبة الى الحروب الصليبية بغية اسـترداد الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين • ومما قاله كلوفيس بعيد ذلك : « إنه ليسوءني أن يكون هؤلاء الهراطقة مستولين على أكبر قسم من غاليا • فلنمض الى حربهم وسنتمكن بعون الله من استخلاص أرضهم التي هي أرض حسنة »[٢] •

---

(١) المصدر عينه ، الفصل/٣ ، ص ٣٨ •

(٢) مجموعة اسحاق وماليه Isaac et Malet المذكورة ، الجزء المخصص فيها لتاريخ العصور الوسطى ، الفصل/٥ ، ص ٦٦ •

ومما تجدر الإشارة اليه إن مشروع كلوڤيس بإزاء الفيزيغوط كان ، كما رجّح بعض المؤرخين المعاصرين وعلى رأسهم الاستاذ فرديناند لوط ، بتشجيع من الإمبراطور آنسطاس نفسه فقد قال هذا المؤرخ بالنسبة الى موقف الامبراطور البيزنطي بعد أن عدّد الخطوات التي مهّد بها كلوڤيس الى مشروعه ضد الفيزيغوط ما معناه : « ويمكن أن نستنتج في النهاية أن السياسة البيزنطية كانت تحرّض العاهل الفرنجي على مهاجمة مملكة غوط طولوز »[1] . (وكانت طولوز احدى المدن الرئيسية في دولة الفيزيغوط).

وهكذا فإن كلوڤيس بعد الانتهاء من ضمان نجاح مشروعه توجّه سنة ٥٠٧ الى حرب الفيزيغوط وأحرز انتصارات كبرى على عاهلهم آلاريك الثاني الذي وقع في قبضته فقتله بيده في مدينة ڤويّيه بالقرب من پواتييه . ووالى كلوڤيس زحفه مستولياً على مدينة طولوز نفسها سنة ٥٠٨ . وفي هذه اللحظة الحرجة جداً بالنسبة الى الفيزيغوط تدخل تيؤدوريك الاكبر ملك الأوستروغوط لئلا يترك كلوڤيس يجهز على دولة الفرع الثاني للغوط .

أدرك تيؤدوريك استفحال خطر كلوڤيس ودولته وذلك بعد نجاح هذا الأخير في إلحاق دولة سياغريوس واستخلاصه الكثير من المناطق التي كانت تابعة للالامان وإخضاعه الفرنجة البريين وتخضيده شوكة البورغونديين وإجباره عاهلهم على أن يدور في فلك سياسته التوسعية الخارجية بإزاء الدول المجاورة لدولته . ولعدم تمكّن تيؤدوريك من جمع سائر أمراء جرمانيا في تحالف من شأنه الحدّ من أطماع كلوڤيس ، ولملاحظته أنه إن لم يهبّ لنجدة بني عمه الفيزيغوط فسوف تؤول دولتهم التي تشمل رقعتها قسماً كبيراً جداً (يكاد يصل الى النصف) من مساحة غاليا بالاضافة الى جزء من إسبانيا الى كلوڤيس نفسه . وفضلا عن ذلك كله فان تيؤدوريك لم يكن جاهلا أن الامبراطور البيزنطي كان قويّ الرغبة بقضاء كلوڤيس ليس على دولة الفيزيغوط فحسب انما بالقضاء على دولة الاوستروغوط نفسها لاعادة

---

(١) فرديناند لوط ، المرجع المذكور ، فصل/٣ ، ص ٣٨ .

ايطاليا الى الدولة البيزنطية وريثة الامبراطورية الرومانية •

فلجميع هذه الاسباب لم ير تيؤدوريك مناصاً من التدخل غير آبـه بصلة المصاهرة التي تشدّه الى كلوفيس حليف الامس • وهذا ما تم فعلا بعد مصرع آلاريك الثاني لئلا يمضي كلوفيس بعيداً في استثمار انتصاره لا سيما بعد ملاحظته سقوط طولوز بيده وأن مقاطعة سبتيمانيا قد وقعت بين يدي كلوفيس وحليفـه غوندبود عاهل البورغونديين • وبنتيجة هـذا التدخّل لصالح الفيزيغوط اضطر كلوفيس الى الاكتفاء بمقاطعتي الأوفيرني l'Auvergne والاكيتين l'Aquitaine بمعنى احتفاظ العاهل الفرنجي بالأقسام المجاورة لدولته مباشرة من ممتلكات الفيزيغوط في غاليا أي بالمناطق الواقعة بين نهري اللوار والغارون بما في ذلك مدينة طولوز نفسها •

أما تيؤدوريك فرغبة منه في ألا تكون لمملكته في ايطاليا حدود مشتركة مع الدولة الميروفنجية فانه حصـل على مقاطعتي ناربون وولاية بروفانس Provence جنوبي فرنسا وتقع الى جنوب غربي الـدولة البورغوندية — وبذلك تمّ لتيؤدوريك حرمان مملكة كلوفيس من أن يكون لها منفذ على البحر الابيض المتوسط لئلا تهدّد دولة الأوستروغوط وعاهلها تيؤدوريك في إيطاليا •

علائق كلوفيس بالامبراطورية البيزنطية : وعند عودة كلوفيس من حـرب الفيزيغوط سنة ٥٠٨ ولما كان في طريقـه الى زيارة ضريح القديس مارتان بجوار مدينة تور لتوزيع الصدقات والهبات على ضريح القديس الذي كان أسقفاً لتلك المدينة ، وجد في هذه المدينة بعثة موفدة من الإمبراطور البيزنطي آنسطاس الاول حاملة إلية براءة منحه لقب قنصل فخري في الامبراطورية الرومانية الذي يتيح له حمل لقب أغسطس (أي العظيم) • وقد ارتدى كلوفيس الزيّ الروماني ووضع تاج القنصلية على رأسه ثم أخذ ينثر الذهب على أفراد شعبه • وبدأ وهو على جواده يقطع الطريق الواصل بين البنـاء الذي كان شيّد في عهد القديس مارتان (عندما كان أسقفاً لمدينة تور سنة

٣٧١ أي قبل نَيِّف وقرن) ، ليكون كاتدرائية لتور ذهاباً وجيئة[١] .

اعتبر المؤرخون الحديثون حفل تقليد كلوفيس منصب القنصلية الفخرية بمثابة اعتراف من قبل الإمبراطور البيزنطي بشرعية السلطة الفعلية التي كان يمارسها هذا العاهل الفرنجي على البلاد التي دانت لحكمه والتي تشكّل معظم مناطق غاليا . فكأن الإمبراطور الروماني الذي غدا مقرّه في القسطنطينية والذي استمر يعتبر نفسه سيّد جميع المناطق التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية في أوروبة ، قد تنازل بصورة شرعية عن حقه في ممارسة السلطة الى العاهل الفرنجي كلوفيس . أما النتيجة المباشرة لهذا التقليد فهي أن هذا العاهل الأخير لم يعد يعتبر بالنسبة للرومانيين ولرعاياهم في مختلف بقاع إمبراطوريتهم مجرد غازٍ بربري اجتاح على رأس قواته مقاطعة رومانية واغتصبها إنما أحد القادة أو كبار الموظفين في الإمبراطورية ، لا سيما وكان زعماء البرابرة يتولّون في الفترة الاخيرة من العهد الروماني مناصب قيادية عليا في الإمبراطورية الرومانية (كستيليكيون الفاندالي الذي صار قائداً عاماً للجيش الروماني) . وكنا رأينا في مطلع دراستنا لعهد كلوفيس أن هذا الامير الفرنجي حاول دائماً تغليف علاقاته بالامبراطورية البيزنطية وبعاهلها بطلاء من الودّ . لذلك اعتبر كلوفيس من قبل بقايا الرومان المقيمين في غاليا ، حتى بعد قضائه على عاهل دويلتهم سياغريوس ، مما أوردناه في حينه ، موظفاً أو ضابطاً رومانياً . وكانت قوات الفرنجة منذ إيغالها في أقاليم الإمبراطورية الرومانية في جرمانيا وغاليا قد اعتُبرت دائماً مجرد قوات دعم ومدد للجيش الروماني ، وأن عواهل الفرنجة اعتبروا تبعاً لذلك ضباطاً في الجيش الروماني أو مجرد موظفين رومانيين . وهذا ما جعل سلطتهم شرعية بالنسبة للعناصر الغالية الرومانية التي كانت موجودة في غاليا والتي استمرت تعتبر الإمبراطور البيزنطي عاهلا لها .

---

(١) مجموعة غلوتز المذكورة عن تاريخ العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج١ ، الفصل ٧ ، ص ١٩٣ وهذا الجزء هو من تأليف الاساتذة فردنياند لوط وكريستيان بفيستير وفرانسوا غانشوف .

وكانت بعض الحاميات الامبراطورية لاتزال مرابطة في المقاطعات الشمالية من غاليا عندما بدأ كلوفيس ينفّذ خطته التوسعية بإزاء ثلاث الدول الموجودة فيها ، مما كنا ذكرناه في حينه . وقد انضمت هذه الحاميات الى صفوف مقاتلة كلوفيس من الفرنجة وأخذت تقاتل أعداءه واضعة نفسها تحت قيادته ولو أنها احتفظت في الوقت نفسه بزيّها وبشعاراتها ونظمها الرومانية . وعند محاولة الآلامان مهاجمة غاليا فإن كلوفيس باسراعه للاشتباك بهم وردّهم على أعقابهم كان يمارس مهامّ ضابط من قادة الامبراطور الروماني ، وقائداً أعلى لقوات حليفة مساعدة (هي قوات الفرنجة) أو سدت اليها مهمة الدفاع عن حدود الامبراطورية الرومانية . وصار اللقب الذي ينادى به كلوفيس منذ ذاك هو القنصل كلوفيس وكلوفيس العظيم l'Auguste وهو اللقب الذي كان يحقّ للقناصل في الامبراطورية الرومانية حمله[1] . ولينجح كلوفيس في الصمود في وجه غارة الآلامان على غاليا ، وليحول دون تمكين هؤلاء من اجتياح هذه البلاد واحتلالها وليدحرهم ويلحق الهزيمة الشنعاء بهم ، مما ذكرناه في حينه ، فان سكان غاليا أظهروا امتنانهم اليه واعترافهم بجميله .

وقصارى القول أن العناصر الغالية الرومانية لم تعتبر كلوفيس مجرد غاز منتصر اجتاح على رأس قواته غاليا انما اعتبرته نائبا عن الامبراطور الروماني في حكم تلك الولاية الرومانية القديمة .

وبعد النصر المؤزّر الذي أحرزه كلوفيس على الفيزيغوط ، واعتراف الامبراطور آنسطاس به قنصلا فخريا عاد هذا العاهل الى عاصمته باريز سنة ٥٠٨ ولم يغادرها حتى وفاته في ٢٧ تشرين الثاني ٥١١ وله من العمر خمسة وأربعون عاما فقط بعد دوام حكمه ثلاثين عاما[2] . وكان آخر نصر حققه لإنجاز وحدة غاليا هو اعتراف قبائل الفرنجة البريين (الريبوير) بتبعيتهم

---

(١) راجع المصدر عينه ، المجلد ، ، الفصل ٧ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ حيث ردّ المؤلفون ما ذكره غريغوار أسقف تور من أن لقب كلوفيس صار اغسطس ذاكرين أن هذا اللقب لم يكن يسمح بحمله لسوى الرومان أنفسهم فحسب .

(٢) راجع المصدر عينه ، المجلد ١ ، ج ١ ، فصل ٧ ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .

له . ومع أن الحلم الذي كان يراوده دائما هو انجاز وحدة هذه البلاد وبصورة تامة فانه لم يتـم سوى توحيد جزء كبير منها .

الدولة الميروفنجية في عهد خلفاء كلوفيس ٥١١ ـ ٧٥٢ م: توفي كلوفيس في الخامسة والاربعين من العمر بعد دوام حكمه ثلاثين عاما . ولئن لم يتمكن من إلحاق جميع مناطق غاليا بدولته فانه ضمّ معظم مناطقها . لكن يعود اليه الفضل في توحيد جميع قبائل الفرنجة . وقد وطّد دعائم حكم أفراد أسرته من بعده فلم يكونوا ليخشوا في الفترة التـي أعقبت وفاته مباشرة أيـة انتفاضة أو أيّ محاولة للخروج عليهم من قبل الشعوب التي دانت لكلوفيس بالطاعة . فبالنسبة للآلامان كان هذا الأخير قد سدّد إليهم ضربة قوية لم تقم بعدها لهـم قائمة فلم يحركوا ساكناً . كذلك لم يخش ورثة كلوفيس الفيزيغوط وذلك لان حكمهم لم ترسخ دعائمه في غاليا ولم تتوطّد أركانه وذلك لانهم من جهة لم يكونوا وفيري العدد ، ولأن قواتهم لم يكثر عددها إلا بمن انضم اليها من المقاتلة الغاليين الرومانيين الذين كانوا بصورة خاصة في مقاطعة الأوفرني . وفضلا عن كل ذلك لم يخش هؤلاء الورثة ظهور أي منافس فرنجي سواء أكان من الساليّين (البحريين) أم من الريبوير (البريين) من حيث أن كلوفيس كان قد قضى عليهم جميعاً وصفّاهم . لذلك كله لم يجابه ورثة كلوفيس احتمال ظهور أي خطر خارجي ، إنما كان الخطر الحقيقي الذي هدد وحدة هذه الدولة الميروفنجية داخليا وأتى من انقسام أولاد وحفدة كلوفيس مما سنتعرض اليه في حينه[1] .

كانت رقعة الدولة التي أسسها كلوفيس كبيرة جداً حيث امتدت عـلى ضفتي نهر الراين ودخلت فيها جميع أقاليم غاليا باستثناء إقليم الآرموريك (وهو شبه جزيرة بريتانيا الى الشمال الغربي من فرنسا) ومنطقة غاسكونيا (إلى الجنوب الغربي من فرنسا)وسبتيمانيا وبروفانس ومنطقة البورغونديين. وعلى ذلك بدأت الحدود التي فصلت بين دولة كلوفيس وكل من الفيزيغوط

---

(١) راجع ذلك في كتاب فرديناند لوط عن تاريخ فرنسا الآنف الذكر ، فصل ٣ ، ص ٤٠ .

والبورغونديين والاوستروغوط والآلامان من جبال البرانس لتصل الى شرقي نهر الراين حتى نهري الويزر Weser (نهر يمر في ألمانيا الغربية ويصب في بحر الشمال) والدانوب ، فتدخل فيها منطقة من ألمانيا الحالية • ففي هذه البقعة ستدور فصول تاريخ أبناء وحفدة كلوفيس من عواهل الأسرة الميروفنجية •

ومما يجدر التنويه به أثر رجال الدين الكاثوليك في توطيد وترسيخ دعائم حكم دولة كلوفيس في هذه البقعة الكبيرة لان جميع من حاربهم هذا الزعيم الميروفنجي كانوا من الآريوسيّين (أي الارثوذكس) • وحتى قبل أن يهجر كلوفيس وثنيته ليعتنق المذهب الكاثوليكي وحتى بعد اعتناقه لـه فان افراد الإكليروس الكاثوليكي كانوا يهيئون له الجواء التي تساعده على ضم المناطق التي كان يحلم بضمها الى دولته ، وكانوا يعتبرون انتصاراته على الدول الآريوسية المجاورة انتصارات للمذهب الكاثوليكي • وهـذا ما نلمسه بصورة لا تدع أي مجال للشك من خلال عبارة الرسالة التي بعث بها اليه أسقف احدى المدن التي كانت خاضعة الى البورغونديين الآريوسيين، وقد ورد فيهـا : « إننا الرابحون الحقيقيون من خوضك للمعارك »[1] • ونظراً لكون كلوفيس سياسياً بارعاً فانه كان يدرك مـدى تأثير رجـال الإكليروس الكاثوليك على الرأي العام الغالي الروماني في غاليا • لذلك وحتى قبل تخلّي هذا الزعيم الفرنجي عن وثنيته واعتناقه المذهب الكاثوليكي فانه لم يدّخر وسعاً في استمالة هذا الإكليروس الى جانبه[2] • وكان رجال

---

(١) مجموعة اسحاق وماليه المذكورة ، الجزء المخصص لتـاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٦٦ •

(٢) أورد غريغوار أسقف تور هذه القصة التي حدثت أثناء حرب كلوفيس مع سياغريوس . وبيان ذلك أن مقاتلة الفرنجة نهبوا كثيرا مما كانت تضمه الكنائس في مدينة سواسّون وغيرها من أوان ثمينة وتحف وطرائف . وقـد التمس أحد الاساقفة من كلوفيس ارجاع آنية ثمينة كانت سلبت من احدى الكنائس . وعندما وضع كلوفيس الاسلاب أمام مقاتلته قال لهم : « اني أرجوكم يا محاربيّ الشجعان أن تتكرموا بأن تخصوني بهذه الآنية اضافة الى حصتي من الغنائم » . فصاح به أحد محاربيه مغاضبا : « انك لن تنال أي شيء زيادة على حصتك ثم هوى ببلطته على هذه الآنية فحطّمها . كظم كلوفيس غيظه .

الدين الكاثوليك يفضلونه على الرغم من وثنيته على غيره من الملوك المسيحيين الآريوسيين . ولما غدا كلوفيس كاثوليكيا ازداد تقرّبه الى الاكليروس مفيداً والى أبعد مدى من نفوذهم في حمل أفراد الشعب على تأييد سياسته .

خلفاء كلوفيس :دعي أولاد وحفدة كلوفيس بالميروفنجيين . وقد جرت العادة بتقسيم عهدهم الذي دام بين وفاة كلوفيس سنة ٥١١ والقضاء بصورة نهائية على دولتهم في سنة ٧٥٢ أي مدة تقرب من القرنين ونصف القرن الى فترتين :

الفترة الاولى وقد دامت بين سنتي ٥١١ ـ ٦٣٩ : وهي فترة النشاط والحروب . وكان ملوك الميروفنجيين خلال هذه الفترة التي أربت على القرن والربع نشيطين وكان معظمهم من المحاربين الأشدّاء وقد مضوا على سنن أبيهم في إنهاء مهمة توحيد غاليا التي كان أبوهم قد بدأها ولم يفسح في أجله لينجزها .

وكان من عادة الميروفنجيين أن يتقسّموا الملك بين أولاد الملك المتوفى أنصبة وحصصاً معتبرين الملك كالعقار والمتاع الذي يخلّفه الملك المتوفى

←

وبعد مرور عام على هذا الحادث جمع كلوفيس محاربيه لاستعراضهم في شهر آذار وكان على كل محارب أن يعرض أسلحته على كلوفيس وأن تكون هذه الاسلحة نظيفة ممسوحة وفي حالة جيدة . واثناء جولة كلوفيس وصل أمام الفارس الذي كان قد كسر الآنية التي طلبها كلوفيس قبل عام . فقال له : ليس ثمة من سلاح غير نظيف كسلاحك وتناول بلطة ذلك الفارس ورمى بها الى الارض ، فلما انحنى الفارس لالتقاطها أهوى كلوفيس على رأسه بضربة من بلطته فقتله قائلا له « هكذا أنت فعلت بآنية سواسّون » . وقد أرضى بعمله هذا رجال الاكليروس كما أوجس جميع رؤساء عشائر مقاتلته خيفة منه فلم يعد أحدهم يعترض على اي من قراراته . راجع هذا النص المنقول بصورة حرفية عن كتاب غريغوار أسقف تور (القسم ٢ ، ص ٢٢) في مجموعة أسحاق وماليه المذكورة في نفس الجزء المخصص للعصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ .

وراجعه كذلك في مجموعة موريس مولو الآنفة الذكر ، المجلد ٣ ، تأليف لويس بييتري ، القسم ١ ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

مما سيؤدي الى إذكاء الأحقاد والتنافس بينهم ويؤول في النهاية الى جعل بأس الميروفنجيين بينهم وستكون النهاية المحتّمة لتلك الاحقاد دمار الدولة . وقد ر كلوفيس ، وفق تقاليد وأعراف الفرنجة ، بتقسيم مملكته بين أولاده الاربعة وهم تيرّي Thierry وكلودومير Clodomir وشيلدوبير Childebert وكلوتـير Clotaire .

ولنشر الى أن الانقسامات بـدأت تمزّق شمل الفرنجة وتصدّع وحدتهم تلك الانقسامات الناجمة عن الخلاف الذي ذرّ قرنه بين الاخوة الاربعة . لكن نظرا الى حيوية هذه الدولة الناشئة وفعالية ونشاط وشجاعة هؤلاء الاربعة فانهم لم يَعتّموا أن استأنفوا السياسة التوسعية التي سار عليها أبوهم فأنجزوا الكثير من المهمات التي لم ينح لأبيهم ، الذي حمّ أجله وهو كهل ، إنجازها . ومن قبيل ذلك استيلاؤهم على إقليم ثورانجيا (شمال بافاريا) في ألمانيا سنة ٥٣٠ واستيلاؤهم سنة ٥٣١ على اقليـم سبتيمانيا من الفيزيغوط وذلك بعد أن كان جستنيان استرد ايطاليا مـن الاوستروغوط في سنة ٥٢٥ فعاد اقليم سبتيمانيا الى الفيزيغوط ، واستيلاؤهم على مقاطعة الاوفرني سنة ٥٣٢ . كما وأنهم قضوا القضاء المبرم على الدولة البورغوندية التي كان عاهلها حليفا لابيهم في موقفه من الفيزيغوط . وقد أنجز أولاد كلوفيس هذه المهمة التوسعية سنة ٥٣٤ . كما استولوا عـلى اقليم باقاريا في ألمانيا سنة ٥٥٤ ــ ٥٥٥[٢] . ووجه أولاد كلوفيس أيضا قواتهم الى ايطاليا واسبانيا . وعلى الرغم من أن هذه القوات لم تفز من هذين البلدين بطائل فانها عادت منهما بغنائم وفيرة .

ولم يؤدّ العرف القاضي بتقسيم المملكة أنصبة بين الورثة في هذه المرة الى النتائج السيئة المنتظرة منه بصورة طبيعية بنتيجة أن المنون استأثرت بثلاثة من هؤلاء الإخوة الأربعة ولم يبق منهم على قيد الحياة سنة ٥٥٨ سوى كلوتير وحده فأعاد بعد وفاة إخوته توحيد مملكة الفرنجة لكن وفاته الوشيكة

---

(٢) راجع هذا التقسيم والخلافات بين أبناء وحفدة كلوفيس في مجموعة اسحاق وماليه المذكورة (جزء العصور الوسطى) ، الفصل ٥ ، ص ٦٨ــ٦٩ .

سنة ٥٦١ أو كما ذكر بعضهم سنة ٥٦٣ أعادت خطر تقسيم المملكة مجدداً . هذا ولو أن دولة الميروفنجيين هذه تمكنت سنة ٥٦٧ من ضم إقليم غاسكونيا في فرنسا نهائياً إليها .

وكانت حصص أولاد كلوفيس الأربعة متساوية تقريباً ، فكانت حصة الابن البكر بالقرب من الشعوب القاطنة في جرمانيا وهذا معناه أنها الأكثر تعرضاً للاخطار ويعني ذلك وجوب مراقبة تلك الشعوب بعين يقظة وحذر . أما حواضر تلك الأقسام الأربعة فهي مدن باريز وأورلئان وسواسّونورينس وهي قريبة من بعضها بعضاً لتأمين التساند والتآزر بين هؤلاء الإخوة في حالة مداهمة خطر ما . وقد لوحظ أن هؤلاء الملوك الميروفنجيين كانوا يؤثرون المقام في المناطق الغالية الرومانية حيث كانت الحياة أكثر متعة وبهاءً على البقاء في بلاد الفرنجة . هذا بينما اقتسم أربعة الإخوة مقاطعة آكيتانيا فيما بينهم .

ذكرنا أن وفاة ثلاثة من أولاد كلوفيس أتاحت لرابعهم كلوتير الأول الإبقاء على وحدة المملكة لكن وفاة هذا الأخير القريبة سنة ٥٦١ (أو ٥٦٣) أعادت خطر تقسيم هذه المملكة من جديد كما كانت الحال قبل نصف قرن عند وفاة كلوفيس نفسه سنة ٥١١ . والأدهى من ذلك أنه ظهرت في هذه المرة أحزاب أخذ بعضها يؤيد هذا الأمير وبعضها يؤيد أخاه ، كما انضم سكان كل من تلك المناطق الى أميرهم مؤيدينه ضد إخوته المنافسين له مما أذكى نار الخصومة بينهم وجعل تنافسهم يتحول الى صراع دموي عنيف فكان كل ذلك من شأنه تصديع وحدة وإضعاف قوة دولة الميروفنجيين .

النزاع الأخوي والحروب الأهلية بين سنتي ٥٦١ ــ ٦١٣ (١) : ومما جعل الشر يتفاقم في هذه الفترة تدخّل الملكات في هذا النزاع الأخوي الذي

---

(١) راجع تفاصيل هذه الفترة وبصورة خاصة في المرجعين التاليين :

آ ــ مجموعة إسحاق وماليه الآنفة الذكر ، الجزء المخصص لتاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٦٨ ــ ٦٩ .

ب ــ فرديناند لوط : تاريخ فرنسا . . . المذكور ، الفصل ٣ ، ص٤٠ــ٤٣ .

أجّج نار الحروب الأهلية التي كرثت الدولة الميروفنجية وأنهت الفترة الأولى التي كان أبرز ما فيها هو أن الحروب التوسّعية أو الغزوات والغارات التي قام بها كلوفيس وأولاده الأربعة الآنفو الذكر قد تحولت الى حروب بين حفدة كلوفيس أنفسهم تلك الحروب التي أذكى تدخّل النساء أوارها .

ولم يكن للميروفنجيين في هذه الفترة سياسة داخلية إنما كان ثمة مكائد ودسائس بين الإخوة وجرائم اغتيال بغيضة يرتكبها الإخوة ضد بعضهم بعضاً أو الآباء ضد فلذات أكبادهم أو الأعمام ضد أولاد إخوتهم .

وقد كنا أشرنا من قبل الى نجاح أحد أولاد كلوفيس الأربعة وهو كلوتير/١ في سنة ٥٦١ وبنتيجة وفاة إخوته الثلاثة شركائه في اقتسام الإرث الميروفنجي (مملكة كلوفيس) فإن هذا الابن نجح في جمع المملكة كلها في قبضته لكن وفاته المبكرة سنة ٥٦٣ أعادت مأساة تقسيم الملك مجدّداً كما كان ذلك قد تمّ قبل نصف قرن عند وفاة كلوفيس نفسه . وقد ترك الملك كلوتير/١ الراحل بدوره أربعة أولاد فقسم الملك تبعاً لذلك الى أربعة أنصبة أو حصص . وكان أوضح ما ظهر في فترة نصف القرن الجديدة التي أعقبت وفاة كلوتير/١ هذا تأجّج الخصومات بين الإخوة والتي كرثت الدولة مرة أخرى . ومما زاد آنئذٍ من سوء أوضاع الدولة ظهور أحزاب أخذ كل منها يلتفّ حول واحد من هؤلاء الإخوة . وسرعان ما سرت عداوة الأربعة وانتقلت الى السكان حيث صار كل فريق منهم يؤيد أحد الأمراء الحكام الأربعة . وهكذا احتدم النزاع وأذكيت الأحقاد وظهرت الضغائن في هذه الفترة بين مختلف أقاليم الدولة الميروفنجية مما سدّد ضربة مميتة الى وحدة وقوة مملكة الفرنجة هذه . ومما زاد الطين بلّة أن للنساء ، ويستوي في ذلك أمهات أو زوجات أو حتى خليلات أولئك الأمراء الأربعة ، ضلعاً وأسهمن بقسط وافر في ترسيخ وتعميق العداء الذي استحكم بين هؤلاء الإخوة . وكانت أسوأهن أثراً كل من فريد غوند Fridegonde خليلة شيلبيريك Chilpéric (وكانت في الأصل خادمة من الفرنجة تعمل في القصر فوقع هذا الأمير في شباكها) وبرونيهو Brunehaut زوجة سيجوبيرت Sigebert . وكان

وكان أفدح ما نجم عن مكائدهما مقتل أحد الإخوة وهو سيجوبيرت سنة ٥٧٥ بنتيجة مؤامرة حاكتها فريدغوند ضده . ثم لم يلبث الأخ الثاني شيلبيريك نفسه أن اغتيل بدوره في ظروف غامضة فغدا الملك غوتتران Gontran (وهو ابن كلوتير/١ ابن كلوفيس الذي كان نصيبه من تركة أبيه مقاطعتي بورغونديا وأورلئان) الفيصل والمرجع الأعلى لفضّ خصومات أولاد إخوته . وكان أظهر ما في صفات هذا العاهل التناقض . فكان يظهر أحيانا طيب القلب وبنسبة كبيرة ، بينما كان في أحيان أخرى مفرطاً في قسوته . وعلاوة عن ذلك فقد كان شديد التقلّب . وهكذا فإننا لاحظنا دعمه وتأييده وبصورة متناوبة أو حتى دورية لكل من ابني أخويه (شيلدبيرت ابن سيجوبيرت وكلوتير بن شيلبيريك . إنه وعد أولهما شيلدبيرت الذي آواه واستقبله سنة ٥٩٢ أن يكون وريثه لكن هذا الأخير توفي وشيكا وهو في ريعان الشباب سنة ٥٩٥ . وعلى الرغم من صغره فقد خلّف ولدين هما تيبرت Thibert وتيبرّي Thierry وقد حكماتحت وصاية جدتهما برونيهو الآنفة الذكر . لكن أولهما وهو الابن البكر الذي آل اليه حكم منطقة أوسترازيا (أي الشرقية) ، طرد جدّته التي لجأت الى حفيدها الثاني تيبرّي في بورغونديا . وكان هذان الأخوان يكرهان بعضهما كثيراً وقد تحاربا . وقد لحقت الهزيمة بأكبرهما وهو تيبرت الذي قتل سنة ٦١٢ . بينما توفي الغالب وهو تيبرّي في العام القادم تاركاً على الرغم من صغر سنّه عدة أولاد فرغبت جدته برونيهو إسناد الحكم لأحدهم . وقدضاقت الأرستقراطية الفرنجية ، التي كان نفوذها قد ازداد كثيراً ورسخ وتوطّد ، ذرعاً بتصرفات ودسائس هذه الملكة العجوز برونيهو وسلّمتها الى كلوتير/٢ (وهو ابن شيلبيريك) الذي أمر بقتلها فماتت ميتة وحشية وهي في سن السبعين ، فبعد أن عُذّبت هذه المرأة بضراوة طيلة ثلاثة أيام وهي على جمل في معسكر كلوتير/٢ . (وكانت التهمة التي عزيت إليها أنها كانت سبباً في مصرع عشرة ملوك من أمراء الميروفنجيين) ، ثم ربطت من شعرها ويدها وقدمها الى ذنب حصان متوحّش فجرى بها الحصان فتمزّق جسدها وماتت ، وكان ذلك سنة ٦١٣ . ومما جعل كلوتير/٢ يمعن في تعذيبها بوحشية ما كانت تكنّه

لأمه فريدغوند من كراهية واحتقار من جراء أصلها الوضيع •

لقد أنهكت هذه المنازعات بين الأمراء الميروفنجيين قوى دولتهم فضعفت • ولم تجد محاولات غونتران السالف الذكر في انتزاع سبتيمانيا من القوط •

وكانت عناصر إسبانية ، هي العناصر الباسقاوية Les Basques وتدعى أيضاً العناصر الغاسقونية Gascons قد اجتازت جبال البرانس واستقرت في الأجزاء الجنوبية الغربية من غاليا بين سفوح تلك الجبال ومجرى نهر الغارون• هذا فضلا عن أن العناصر البريتانية المستقرة في شبه جزيرة آرموريكا (شمال غربي غاليا) والتي كانت خضعت لحكم الميروفنجيين منذ عهد كلوڤيس لم تكن انضباطية هادئة ، إنما أخذت تعيث في البلاد فساداً مغيرة على المدن المجاورة للسلب والنهب ولم تنجح الحملات التأديبية التي أرسلت للضرب على يدها إنما كانت تمنى بهزائم نكراء •

كما أضحت غاليا الميروفنجية مهدّدة بظهور عدو جديد في إيطاليا هو عناصر اللومبارديين التي أتت من ولاية پانونيا والتي لم يرقها الاستقرار في ايطاليا فعبرت جبال الآلب ووصلت في إيغالها في جنوبي غاليا حتى نهر الرون • وعلى الرغم من أن الأمير غونتران لم يأل جهداً في عرقلة تسرّب هذه العناصر الى غاليا وأنه لتحقيق هذه الغاية تحالف مع البيزنطيين ضد اللومبارديين لكن الحملات التي وجّهها لقتالهم لم تصادف نجاحاً • ثمت فإنه عقب وفاة هذا الأمير سنة ٥٩٥ وبنتيجة استقرار اللومبارديين شمالي إيطاليا فسوف لن يعود الميروفنجيون الى التفكير ثانية باحتلال شماليإيطاليا•

كما ظهر خطر جديد من ناحية كل من جرمانيا وپانونيا وذلك منذ سنة ٥٦٨ حيث وصلت الى وسط أوروبة عناصر سلاڤية جديدة أتت من آسيا هي عناصر الآڤار Avars • وقد هدّدوا جرمانيا منذ البداية فهبّ للقائهم ملك أوسترازيا الميروفنجي سنة ٥٦٨ (وهو زوج برونهيو السابقة الذكر) لكنهم أنزلوا به هزيمة شنعاء ووقع في أسرهم فافتدى نفسه بالمال • ولم يرض الآڤار بالانسحاب من هذه المنطقة بعد ثلاثين عاما إلا بعد أن دفعت لهم

برونيهو أرملة هذا العاهل مبلغاً كبيراً من المال . لكن جميع هـذه الصعاب التي بدأت تعترض سبيل الميروفنجيين في نهاية هـذه الفترة الأولى لا يمكن أن تقاس بنتائج الانحلال الداخلي للدولة الميروفنجية الذي نجم عن مبـدإ تقسيم الدولة أنصبة بين ورثة الملك الحاكم وما جرّه هذا المبدأ من منافسة ومنازعات أفقدت الدولة حيويتها وفعّاليتها ومهّدت الطريق لقيام وريثتها الدولة الكارولنجية .

تقسيم بلاد الدولة الميروفنجية الى أقاليم يؤول كل منها الى أمير ميروفنجي:

ولعل أهم عمل قام به الميروفنجيون في هذه الفترة الأولى من حكمهم هو تقسيم غاليا القديمة الى أربعة أقاليم أو أقسام واضحة المعالم هذا التقسيم الذي أدّى أخيراً الى ولادة أربع دول متميّزة ، علماً أن الحدود الفاصلة بين هذه الأقسام لم تبق ثابتة إنما كثيراً ما عـدّلت بنتيجة القتال الذي طالما استشرى بين أمرائها . أما هذه الأقسام[1] فهي :

١ ــ **أوسترازيا** l'Austrasie أي الإمارة أو المنطقة الشرقية . ولم تكن المـدن في هـذا القسم كثيرة وأهمهـا **تريف وميتز وريمس** وكان مقاتلة الفـرنجة قـد استولوا فيهـا على ممتلكات واسعـة . وأقام هـؤلاء المـلاّك الكبار (الإقطاعيون) الذين لم يكونوا سلسي القياد بيد المـلوك الميروفنجيين عقبات وصعابا كأداء أمام هؤلاء .

٢ ــ **نوستريا** La Neustrie : ــ وهي المقاطعة الشمالية الغربيـة من غاليا ، وأهم مدنهـا : باريز وروان Rouen وسواسّون وتور . والفرنجة في هذه المقاطعة هم أقل عدداً منهم في أوسترازيا . وقد بقي فيها عدد من المـلاّك الغاليين الرومان الذين بقوا يذكرون إدارة بلادهم من قبـل موظفي الإمبراطورية الرومانية . وهم راغبون في الاستقرار والهدوء ويميلون الى وجود حكم نظامي . وقد اكتسب الفرنجة الذين عاشوا في هذا القسم الكثير من الطباع والعادات الرومانية « **ترومنوا** » . وكان يطلق على هذا القسم اسم

(١) راجع تلك الأقسام في مجموعة إسحاق ومالية المذكورة ، الجـزء المخصّص لتاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٧ ، ص ٧١ ــ ٧٢ .

« **فرنسا الرومانية** » تمييزاً له عن المنطقة الاولى التي دعيت **بفرنسا الجرمانية** .

٣ ــ **بورغونديا** La Burgondie : ــ وهي الى الجنوب الشرقي من غاليا . وأول من حكم هذه المنطقة من أمراء الميروفنجيين هو غونتران متخذاً مدينة أورلئان حاضرة له . ثم غدت حاضرة هذا القسم مدينة شالون على نهر الصون .

٤ ــ **غاسكونيا** La Gascogne : ــ وهي عبارة عن المنطقة الواقعة الى الجنوب الغربي من فرنسا بين جبال البرانس وحوض نهر اللوار .

الفترة الثانية من تاريخ الميروفنجيين وهي بين سنتي ٦٣٩ ــ ٧٥٢ م :

بعد مقتل برونيهو سنة ٦١٣ انفرد كلوتير/٢ بحكم جميع أقسام دولة الميروفنجيين أو دويلاتهم وبقي ممارساً لهذا الحكم حتى وفاته سنة ٦٢٩ فتولى الحكم بعده ابنه داغوبير Dagobert الذي كان يتمتع بشعبية كبرى بين أفراد رعيته لحرصه الشديد على إقرار السلام في الدولة الميروفنجية بعد الفتن والحروب الاهلية التي كرثت البلاد . كما وأنه لم يأل جهداً في إقامة العدل بين جميع رعاياه دونما تفريق أو تمييز بين طبقاتهم ، ولو أنه كان في نفس الوقت كباقي ملوك الفرنجة الميروفنجيين قاسياً وجشعاً محباً لجمع المال. وتجلّت قسوته الوحشية في أمره بذبح تسعة آلاف بلغاري كانوا لجؤوا الى أراضي الدولة الميروفنجية بعد أن طردوا من ديارهم . أما موقف هذا العاهل من الكنيسة ورجال الدين فقد أغدق على الكنيسة أنعمه وغمر أفراد الإكليروس الكاثوليكي بنواله وآلائه ، وقد أحبه هؤلاء لإقامته العدل بين رعاياه وعطفه ورعايته للكنيسة . ونذكر على سبيل المثال أنه بنى كنيسة سانت دنيس Saint-Denis شمالي مدينة باريز سنة ٦٢٦ وقد جعل مذبحها من الذهب الخالص كما أمر بصنع صليب كبير من الذهب الصافي مُرَصَّع بالأحجار الكريمة ليوضع وراء هذا المذبح . كما منح هبات وفيرة لدير سانت دنيس الذي صار ملوك فرنسا منذ ذاك يدفنون فيه موتاهم[١] .

---

(١) مجموعة إسحاق وماليه ، المصدر عينه ، الفصل ٥ ، ص ٧٠ ــ ٧١ (الجزء الخاص بتاريخ العصور الوسطى) .

دام عهد داغوبير الى سنة ٦٣٩ واعتبر آخر ملوك الميروفنجيين الأقوياء ، وبموته يبدأ المؤرخون الفترة الثانية من تاريخ الميروفنجيين وهي فترة أربت على القرن ودامت حتى سنة ٧٥٢ ودعاها بعض المؤرخين **بفترة الملوك الكسالى** كما ذكر آخرون أن ملوك الميروفنجيين غدوا في هـذه الفترة أطيافاً ملكية واهية تزدان رؤوسهم بالتيجان التي تحملها .

وصف المؤرخ إيجينهـارد Eginhard (ويكتب بالإنكليزية إينهـارد Einhard) الذي عاش بين سنتي ٧٧٥ ــ ٨٤٠ ، وكان يعمـل سكرتيراً لشرلمان (وقد ألّف حوالي سنة ٨٣٠ كتابه عن حياة شرلمان الذي ترجم الى اللغة الانكليزية كما ترجمه الاستاذ لويس هالفين الى الفرنسية) الحال التي تردّى فيها ملوك الميروفنجيين الاواخر فقال ما نصه[1] : « ولم يبق للملك فيما عدا اللقب الملكي الذي يحمله سـوى الترضية بالتربّع على العـرش الميروفنجي بذوائب شعره المسترسلة الطويلة ولحيته الطويلة المـدلاّة وأن يبدو وهو جالس على ذلك العرش كأنه ملك فعلي وذلك لاستقباله سفراء ملوك مختلف البلاد ولتكليفه هؤلاء بعد انهاء مقابلته لهـم وإنهاء المهـامّ المكلّفين بها من قبل عواهلهم أن يحملوا الى أسيادهم جوابه ذلك الجواب الذي كان يُلَقّنُه تلقيناً ليردّده ، ولربما أُمْلِيَ عليـه إملاءً . ففضلاً عن هذا اللقب الملكي ، الذي لم تعدله أية فائدة ، والموارد الضئيلة وغير الثابتة التي يسمح له بها حاجب القصر ، لم يبق لهـذا الملك سوى ضيعة صغيرة لا يحصل منها إلا على موارد محدودة ضئيلة لا تؤمّن له سـوى عيش الكفاف وحاجاته الضرورية ويقوم فيها بيته الصغير الذي تعيش فيه الى جانب الملك أفراد حاشيته وخدمه القليلو العدد ، واذا ما اقتضى الأمر سفراً فانه كان يضطر الى ركوب عجلة بسيطة يسوقها فلاح وتجرّها الثيران كعربات الفلاّحين . فهذا هو موكب الملك عند حضوره الى القصر أو عند ذهابه الى الاجتماع السنوي العام[2] الذي يعقده شعبه . وعنـد عودته الى بيته ،

---

(١) المصدر عينه والجزء ذاته ، الفصل ٨ ، ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

(٢) تعقد كل قبيلة من قبائل الفرنجة هذا الاجتماع في كل عام . واقتضى العرف أن يتداول الأفراد فيه في شؤون قبيلتهم . وكانت أمور القبيلة تقرّر في جلسات هذا الاجتماع السنوي بطريقة التصويت العام .

بينما غدت شؤون الادارة وإصدار القرارات واتخاذ التدابير سواء بالنسبة الى الشؤون الدخلية أم المتعلقة بالقضايا الخارجية فكل ذلك صار يمارسه وبصورة كلية حاجب القصر الذي آلت إليه السيطرة الفعلية والهيمنة على شؤون الإدارة والحكم » .

بيد أن هذا الواقع من الضعف المزري والمهين الذي كان يعيشه ملوك الفترة الثانية من الميروفنجيين الأواخر لم يمنع رعايا هؤلاء من تقديم فروض الطاعة والولاء إليهم على الرغم من ضعفهم وأنهم غدوا أطياف ملوك ليس لهم من الحكم الفعلي شيء ولا حول لهم ولا قوة بإزاء استئثار رؤساء البلاط ، أي حجّاب القصر ، بالسلطة الفعلية . ويعجب المـــرء الآن كيف أن شعب الفرنجة لم يتخلّص من هؤلاء الملوك « الدّمى » ، التي كان حجّاب القصر يتقاذفونها ويحرّكونها كيف شاؤوا ، لا سيما بعد أن ران على البلاد بسبب دسائسهم وتنافسهم وحروبهم الاسرية جوّ من الفوضى والاضطراب أفقد الدولة الميروفنجية هيبتها وقوتها وحيويتها ! ! !

إننا نرى إمكانية ردّ ذلك الى أسباب عديدة يمكن جمعها في أربعة هي على التوالي :

١ ـــ ما كان يتمتع به كلوفيس وأبناؤه وحفدته من مهابة وحب واحترام بين أفراد الرعية : وقد بقيت ذكرى الميروفنجيين الأوائل عالقة في أذهان أفراد قبائل الفرنجة فسكتوا على مضض عن الملوك الأواخر لهذه الأسرة التي يدين الشعب الفرنجي إليها بمجده وعظمته ، على الرغم من افتقارهم الى أيّ من الصفات التي كان الملوك الأوائل لهذه الاسرة متحلّين بها[١] .

٢ ـ الأصل الالهي الذي كان الفرنجة يعتبرون ملوكهم منحدرين منـــه :

اعتبر الفرنجة الجد الأعلى لملوكهم وهو ميروفيه الذي اشتقّ اسم دولتهم من اسمه منحدراً من أصل إلهي فهو يعود بنسبه كما ورد في أغاني الفرنجة

---

(١) راجع من أجل ذلك تاريخ فشر عن العصور الوسطى (الترجمة العربية للدكتور محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني) ، ج/١ ، الفصل/٥ ، ص ٦٩ ـــ ٧٠ .

القديمة الى إله البحر العظيم ، فهذا الأصل الإلهي ، وما اقترن به من تقديس تلك القبائل لملوكها اضطرا الفرنجة الأواخر الى عدم التفكير بالإجهاز على أسرة ضعفت قواها وخارت وأُجْبِرَ عواهلها الأواخر على الخضوع التام لسلطة رؤساء البلاط (Les maires du palais) . وهكذا لم تعرض لأحد الفرنجة فكرة التخلّص من أولئك الملوك الضعاف . وعلى الرغم من اعتناق الفرنجة المذهب الكاثوليكي الذي لا يُقِرُّ الأسطورة الفرنجية القديمة فقد بقيت بعض الرواسب الوثنية عالقة في أذهانهم يوم كان لملوكهم صفة كهنوتية . ولا جناح على الملك الكاهن المحاط بهالة من التقديس من اقترافه الآثام وقيامه بالمنكرات . لقد كانت تلك القدسية التي تمتّع بها ملوك الفرنجة الأوائل في ظل الوثنية الدرع الواقية التي حفظت لملوك الفرنجة المسيحيين الأواخر عرشهم المتداعي طيلة قرن من الزمن[1] . وسنرى ان القديس بونيفاس قام بالتفاوض مع البابا باسم أحد رؤساء بلاط الميروفنجيين وهو پيپن القصير Pépin le Bref ليوافق البابا على عزل آخر ملك ميروفنجي وتأسيس الأسرة الكارولنجية . ونرَجّح أنه لو لم يسمح الحبر الكاثوليكي الأعظم لپيپن القصير بذلك لما وافقت قبائل الفرنجة على خلع آخر الميروفنجيين ولما رضيت بالخضوع لحكم عاهل من أسرة جديدة . فصدور هذه الموافقة عن أكبر سلطة دينية مسيحية هو الذي اضطر الفرنجة الى الرضاء بواقعهم الجديد ولو أنهم سكتوا على مضض .

وقد انتبه الأستاذ موس Moss في كتابه الآنف الذكر الى تلك العلاقة حيث ربط سكوت الميروفيجيين عن عزل آخر ملوكهم بموافقة الحبر الأعظم في سنة ٧٥١ على عزله بما في ذلك العزل من تدنيس لمقدّساتهم وانتهاك لها . لا بل نشداناً من الحبر الأعظم الجديد ، وهو إتيين الثاني Etienne II إضفاء القدسية على الملك المُنَصَّب الجديد ، وهو پيپن القصير ، فانه بعد أن كان هذا الملك قد مُسِحَ بالزيت المقدس فإن الحبر الأعظم نفسه هرع في سنة ٧٥٤ الى حضور حفلة تتويجه واضعاً بيده التاج على رأس ذلك الملك

---

(١) المصدر عينه ، ج/١ ، الفصل/٥ ، ص ٧٠ .

لقد قال هذا المؤرخ الإنكليزي بصدد ذلك ما نصه : « وبعد ثلاث سنين تـُوِّجَ پيپن وسط مظاهر الأبـّهة والعظمة وبيد البابا إتيين الثاني في كنيسة سانت دنيس . وكان هذا الحبر الاعظم قد اجتاز جبال الآلب (كناية عن قطعه الطريق بين روما وفرنسا) لطلب نجدة پيپن ضد اللومبارديين الذين هددوا إيطاليا . وكانت عملية التتويج طقساً جديداً أو بادرة جديدة بالنسبة الى الفرنجة من حيث تأكيدها على موافقة الحبرية العظمى على تنصيب پيپن ملكاً عليهم . وقد ُأضـْفِيَ بذلك التتويج على نظرية تمتـّع أسرة واحدة بالحق الإلهي المقدس معنى أهم بالنسبة إلى مختلف مراحل تاريخ فرنسا . ومع ذلك وحتى فيما يتعلق بتلك الحقبة بالذات (قيام حكم الكارولنجيّين) فإن عملية مشح پيپن القصير بالزيت المقدس ، تلك العملية التي ترجع أصولها الى النصوص المقدسة المسيحية القديمة بدت ضرورية لتعادل في نظر الشعب الميروڤنجي تدنيس مقدّساته بإدالة دولة ملوكه الذين تشير الأساطير الميروڤنجية الى أنهم أنسال إله البحر مما جعل هؤلاء الأنسال يبقون متمتعين وحتى في فترة ضعفهم بالقدسية التي كانت مضفاة على أجدادهم في العهد الوثني القديم »[1] .

وفضلاً عن هذا النصّ المؤيد لما ذهبنا إليه من رأي فثمة رأي ثان هو للاستاذ يوسف كالميت الذي وإن ردّ سكوت الميروڤنجيين عن قضاء پيپن القصير على دولتهم الى ما تردّت اليه هذه الدولة من ضعف في عهد آخر عواهلها شيلديريك/٣ لكنه ردّ مع ذلك سكوتهم عن تتويجه الى أنهم رأوا في تتويج المتربع على الكرسي الأقدس له تنفيذاً لرغبة الإله . نعم كان پيپن القصير واثقاً من أن انقلابه على آخر أنسال كلوڤيس سوف لن يثير أية مقاومة من قبل رعايا الميروڤنجيين . وفعلاً لم يعد ثمة مدافعون عن الملكية الميروڤنجية لوثوق رعاياها أن ملوكها الأواخر سلبت منهم جميع سلطاتهم وأن هؤلاء الرعايا ألفوا الخضوع للسلطة الفعلية التي صار يمارسها وعلى صعيد

---

(١) ل.ب. موس ، المرجع المذكور ، الفصل ١٢ ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ . راجع كذلك الترجمة العربية لتاريخ فشر عن العصور الوسطى (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني) ، ج ١ ، الفصل ٥ ، ص ٧٠ .

الواقع أفراد أسرة شارل مارتل أي أسرة حجّاب القصر . لكن على الرغم من ذلك فإن پيپن كان ينشد وعلى الصعيد الحقوقي الصرف إيجاد المبرِّر القانوني الذي يقرّ إبدال الأسرة الميروڤنجية الحاكمة بأخرى ، لا سيما وكان من الصعب وضع التشريع الذي يلغي الامتياز بممارسة الحكم من قبل أولئك الأفراد الذين تجري في عروقهم دماء ميروڤيه وكلوڤيس . ولم يكن بالإمكان جعل أفراد شعب الفرنجة الميروڤنجي يتناسون ذلك الامتياز الذي نبع من ماضي جرمانيا العريق في القدم والوثني إلا بجعل ذلك الامتياز مستنداً إلى مبدإ أهم وأسمى . ولم يعد ممكناً اقتباس هذا المبدإ الأسمى بالنسبة الى الفرنجة الذين غدوا في الظرف الراهن مسيحيين وشديدي التمسّك بديانتهم الجديدة إلا من السلطة الكنسية العليا وهي سلطة البابوية . لقد ذكر هذا المؤرخ بصدد ذلك ما نصه : « وبدون إضفاء البابوية الصبغة الشرعية على انقلاب پيپن القصير لا يمكن اعتبار هذا الانقلاب سوى مجرّد اغتصاب وبواسطة القوة للسلطة الشرعية ، أي الاستيلاء الواقعي والعملي على السلطة، وبكلمة أخرى مجرّد مغامرة قد يقيّض لها النجاح لكنهاستكون عرضة لأن تجابه بالمعارضة وبردود فعل قد تكون شديدة الخطورة عليها ، أي فيما إن أردنا الإيجاز وإجمال القول : تعرّض هذه المغامرة أو الانقلاب الى المخاطر . لكن القديس بونيفاس سرعان ما مشح العاهل الجديد في سواسّون هو وزوجه برتا أو برتراد بالزيت المقدس . هذا علماً أنه لم ينَصَّب أي عاهل ميروڤنجي بهذا الشكل الذي أضفيت عليه القدسية . وفضلاً عن ذلك فإن المشح بالزيت المقدس أضفى على العاهل الكاولنجي صفة الرسم (أي التعيين الى منصب ديني) أو نصبه بطريقة شرعية ومقدسة .

« وصفوة القول أن ثمة أساسين قامت عليهما سلطة العاهل الكارولنجي عند القضاء على حكم الميروڤنجيين هما على التوالي : رغبة شعب الفرنجة ، ورغبة الحبر الأعظم ، أي رغبة الإله » [1] .

---

(1) يوسف كالميت J. Calmette : العصور الوسطى ، المرجع المذكور ، الفصل ٣ ، ص ٨٠ — ٨١ .

٣ ـ تأييد الكنيسة الكاثوليكية للميروفنجيين منذ اعتناق كلوفيس النصرانية على المذهب الكاثوليكي : ذكرنا من قبل أن رجال الإكليروس الكاثوليك أيّدوا ملوك هذه الدولة حتى قبل اعتناق كلوفيس المذهب الكاثوليكي ثم زاد هذا التأييد قوة منذ صار كلوفيس وقبائل الفرنجة كاثوليكاً • ويجب ألا يفهم من ذلك أن الفرنجة وحدهم هم الذين أفادوا من هذا التأييد ، إنما كان ثمة مصالح وفوائدمتبادلة بين الفريقين (الكنيسة الكاثوليكيةوملوك الميروفنجيين) حيث أفادت الكنيسة من إعادة الأجزاء التي كانت خاضعة لملوك آريوسيين والتي استخلصها كلوفيس وأولاده من بعده منهم ، وهي الأقسام الغاليّة التي كانت خاضعة للفيزيغوط : أي مقاطعات الأوفرني والآكيتين وغاسكونيا وسبتيمانيا ، ثم المنطقة التي كانت فيها الدولة البورغوندية • فهذه المناطق أعاد الميروفنجيون تبعيتها الروحية الدينية الى الكنيسة الكاثوليكية • وقد كان مر بنا في رسالة أحد الأساقفة الى كلوفيس أن رجال الدين الكاثوليك هم المفيدون الحقيقيون من انتصاراته • هذا فضلاً عن المعاملة السمحة الكريمة التي أفرد بها كلوفيس وأولاده وحفدته رجال الإكليروس الكاثوليكي حتى عندما كان كلوفيس لا يزال وثنياً لا سيما وقصة آنية كنيسة سواسّون التي كنا أوردناها من قبل هي خير برهان على ذلك • زد على ذلك الأنعم والهبات التي لم ينقطع كلوفيس وورثته من بعده عن إغداقها على الكنيسة الكاثوليكية ونحن نكتفي الآن بالإشارة الى ما كنا أوردناه عن سخاء الأمير داغوبير (بن كلوتير/٢ ابن شيلبيريك بن كلوتير/١ ابن كلوفيس) المنقطع النظير عندما جعل مذبح كنيسة القديس سانت دنيس شمالي باريز من الذهب الصافي ، وعندما قدّم الى الكنيسة المذكورة صليباً كبيراً من الذهب الصافي وهو مرَصّع بالأحجار الكريمة ليوضع وراء ذلك المذبح • كما أشرنا من قبل الى هبات هذا العاهل الى دير سانت دنيس الذي اتخذ فيمابعد مدفناً لملوك فرنسا •

وقصارى القول أن ثمة حلفاً ضمنياً بين الكنيسة الكاثوليكية وملوك الميروفنجيين ، وأن هذا الحلف لم تنفصم عراه • لذلك فعلى الرغم من ضعف ملوك الميروفنجيين منذ مطلع الفترة الثانية من تاريخهم ، أي منذ سنة ٦٣٩ ،

فإن الكنيسة لم تتوقف عن تأييدهم • ثمت فان البابا لم يوافق على أن تدال دولة الميروفنجيين إلا بعد أن تردّى عواهل هذه الدولة الأواخر الى الدرك الأسفل من الانحطاط والهوان • لا بل فاننا نضيف الى ذلك أن ثمة عاملين حملا المتربع على الكرسي الأقـدس على تلـك الموافقة وهـذان العاملان هما :

آ ـ **نزول الحبر الأعظم عند الامر الواقع** حيث لم يعد هناك أي أمل في أن يستردّ أولئك الدّمى أو أطياف الملوك سابق قوتهم لأن أيامهم قـد أدبرت • وعلاوة عن ذلك فان الأسرة الكارولنجية أي أسرة پيپن لم تكن حتى قبل تتويج پيپن أقل حدباً وعطفا على الكنيسة الكاثوليكية • وكان للقديس بونيفاس أثر كبير في حمل الحبر الأعظم على هذه الموافقة •

ب ـ **إن الأسرة الحاكمة الجديدة هي كذلك كاثوليكية :** بمعنى أنه سـوف لن تفقد البابوية ولا واحدة من الفوائد التي جنتها من الميروفنجيين • وهذا ما شعر به الحبر الأعظم وبصورة حدسية • ثمت فلم تخيّب الأيام أمله فـي أسرة پيپن وسنرى عند دراستنا لتاريخها كيف أن شرلمان بن پيپن القصير هذا سيهبّ للدفاع عن الممتلكات البابوية في إيطاليا وسيقف بحزم في وجه العاهل اللومباردي الذي عنّ له أن يهوي على تلك الممتلكات • وفي يقيننا أنه لو لم تكن الأسرة الجديدة كاثوليكية ، ولو لم تشعر البابوية ومسبقاً أنها سوف لن تخسر شيئاً من إقرارها للامر الواقع ، لم يكن الحبر الأعظم ليقدم على خطوته الجريئة بالموافقة على عزل آخر الميروفنجيين لا بل فاننا سنجد الباباوات وفي أول العهد الكارولنجي يزيدون من تأييدهم ودعمهم للكارولنجيين بنسبة أعلى من تأييدهم السابق للميروفنجيين حيث لم يتوّج ولا كلوفيس نفسه بيد البابا ••

٤ ـ **العلائق الحسنة التي ربطت عواهل الميروفنجيين بأباطرة الدولة البيزنطية:**
لقد تعرضنا بشيء من الإفاضة لهذه العلائق في أيام كلوفيس وذكرنا أن الإمبراطور آنسطاس/١ أنعم على هـذا الاخير بلقب قنصل فخري وأن البيزنطيين لم يعتبروا عواهل الميروفنجيين مجرد ملوك برابرة اغتصبوا بعض

ولايات الامبراطورية الرومانية إنما اعتبروهم حلفاء لهم وقادة لقواتهم ونواباً عن الامبراطور الروماني في حكم غاليا[1] . لكن يجب ألا نبالغ كثيراً في الاعتقاد أن ملوك الفرنجة كانوا بصورة فعلية راضين بـأن يعتبروا مجرد موظفين تابعين لأباطرة الدولة البيزنطية والواقع يثبت عكس ذلك لأن هؤلاء الملوك لم يقبلوا أن يعلنوا عن ولائهم لأباطرة القسطنطينية إلا عندما كانوا بحاجة الى دعم وتأييد الحاميات الرومانية المرابطة في أنحاء شتى من غاليا لتنفيذ برنامجهم التوسعي على حساب الدول المجاورة . فلما أخضعوا تلك الدول واشتدّ ساعد دولتهم وزادت قوتها لم يمضوا بعيداً في إظهار هذا الولاء للبيزنطيين . ولئن حمل كلوفيس لقب قنصل فخري فإنه جعل البيزنطيين تكأة أمكنته من دعم سلطته على الشعوب التي أخضعها لدولته لكنه لم يكن مستعداً لأن يُفَرِّطَ قيد أنملة في سيادته ، كما لم يكن خلفاؤه وحتى في فترة ضعفهم مستعدين لأي تنازل من هذا النوع .

ولا سبيل الى جحود أن العلائق بين البيزنطيين والميروفنجيين كانت ودية لكن الطرفين كانا يفيدان من إبقاء ذلك الود سائداً . وقد لاحظنا بصــورة لا تقبل الجــدل أن مصلحتهما تفرض عليهما ذلك . فبالنسبة الى الدولة البيزنطية إنها شعرت بعجزها عن استخلاص غاليا من الفرنجة . ولرب معترض يقول إنها نجحت في استرداد ايطاليا من الأوستروغوط أيام جستنيان العظيم سنة ٥٢٥ . لكننا نرى أنه شتان ما بين حرب البيزنطيين لتيؤدوريك الاكبر عاهل الأوسترغوط وحربهم لكلوفيس أو لأولاده مــن حيث أن الدولة الأوستروغوطية لم ترسخ جذورها في إيطاليا لأنها دولة آريوسية والإيطاليون كاثوليك . هذا فضلاً عن أن هؤلاء الكاثوليك كانوا يجدون في العودة لأحضان الإمبراطورية الرومانية تحقيقاً لحلمهم الذهبي لذا لم يجد عاهل الأوستروغوط أي عون أو دعم من قبل الايطاليين أنفسهم . بينما دون نجاح البيزنطيين في استرداد غاليا خرط القتاد لأن السكان في غاليا كاثوليك كالأسرة الميروفنجية الحاكمة ، بالإضافة الى ملاحظة هؤلاء السكان المغـانم

---

(١) فشر ، المرجع المذكور ، ج ١ ، فصل ٥ ، ص ٧١ .

الكثيرة التي حققوها على يد الميروفنجيين حيث توحدت بلادهم على يـد هؤلاء وطـرد منها الحـكام الآريوسيون (البورغنـديون والفيزيغوط والأوستروغوط) بفضل هؤلاء الملوك . وعلاوة عن هذا وذاك فقد غدت رقعة الدولة كبيرة ، وصارت غاليا من الدول الكبرى ليس في أوروبة الغربية فحسب إنما في جميع أوروبة . أفيعقل أن ينفضّ السكان من حـول الميروفنجيين في حالة تعرّضهم الى هجوم قوات بيزنطية بعد أن أدرك سكان هذه البلاد الفوائد التي جنوها من خضوع بلادهم الى هؤلاء !!!

ولجميع ما ذكر يمكن أن نقول بكل تأكيد أن تلك العلائق البيزنطية الميروفنجية المغلّفة بطلاء من الودّ كانت من قبيل المجاملة ، ولأن الطرفين وجدا فيها مصالح متبادلة . لكن الميروفنجيين لم يكونوا مستعدين وإطلاقاً لقبول أن يكون كيانهم في غاليا كيان ولاة رومان انما كانوا متمسكين بسيادتهم . ويمكن أن تؤيد هذا الرأي بالقول أنه على الرغم من الادعـاءات الجوفاء التي كان عواهل الميروفنجيين لا يفتؤون عن ترديدها من أنهم يعتبرون أنفسهم نوّاباً عن الامبراطور الروماني في حكم غاليا فهذه الادعاءات لا أساس لها من الصحة بدليل أنهم لم يكونوا مستعدين إطلاقا أن يمسّ شيء ما سيادتهم الفعلية على غاليا . نعم إنهم كانوا حريصين على ألا يناصبوا البيزنطيين العداء وأن يقوموا ببعض المهام التي يكلفون بها من قبـل هؤلاء كدعوة الإمبراطور البيزنطي موريس سنة ٥٩٠ العاهل الميروفنجي شيلدوبرت/٢ (وهو ابن سيغوبير من زوجته برونيهو وحكم بين سنتي ٥٧٠ ـ ٥٩٦ أي في الفترة الاولى من عهد خلفاء كلوفيس) الى مساعـدة الامبراطوريـة البيزنطية في حرب اللومبارديين لكن شريطة أن يتوفر في هذه المهمة أو هـذا الطلب **للمساعدة شرطان ، أولهما** : ألا يتنافى مع السيادة الميروفنجية ، **وثانيهما** : أن يتمكّن الميرفنجيين من جرّ مغنم أو على الأقل أن يوافق سياستهم الخارجية الرامية الى عدم توطيد دعائم حكم دولة قوية في البلاد المتاخمة لدولتهم . بينما إن وجدوا هذين الشرطين غير متوفّرين فـانهم لا يصيخون بسمعهم الى الطلب البيزنطي ولا يبدون حراكاً .

ومما يؤيد هذا الادعاء أيضا أن الميروفنجيين لم يكونوا مستعدين للاعتراف للبيزنطيين بأي سموّ عليهم • لا بل فاننا نجد مؤيداً آخر لهذا الرأي وهو أن الميروفنجيين لم يطبّقوا مجموعة قوانين جستنيان في بلادهم على الرغم من أنها مجموعة قوانين ممتازة لا يزال قسم منها معمولاً به في كثير من دول العالم الى أيامنا هذه • وما كان رفضهم تطبيق هذه المجموعة من القوانين إلا لأنهم لاحظوا أن إدخالهم هذه القوانين الى بلادهم فيه افتئات على سيادتهم •

ولئن تعامل الميروفنجيون في بادىء الامر بالنقود البيزنطية أو ضربوا السكة في بلادهم باسم البيزنطيين لكن تعاملهم بهذه النقود كان بسبب أن هذه العملة كانت هي الرائجة الوحيدة في المبادلات التجارية في حوض البحر الابيض المتوسط (مركز التجارة العالمية في تلك الحقب) بينما لو ضرب الميروفنجيون سكة آنذاك لكانت اعتبرت ، حتى ولو كانت عياراتها مضبوطة ومطابقة تماماً لعيارات السكة البيزنطية ، مُزَيَّفة • وكانت السكة البيزنطية هي المتداولة في جميع بلاد حوض البحر الابيض المتوسط وهي المعترف بها رسمياً • ولا نزال نذكر أن تلك السكة هي التي كان العرب المسلمون يتداولونها في صدر الدولة الاموية ، وأن السكة لم تُعَرَّب إلا في أيام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٥ م) • فليس بمستغرب والحالة ما ذكرنا أن يتعامل بها في الدولة الميروفنجية طيلة القرن السادس • ولم تضرب السكة الميروفنجية الخاصة وتوضع في التداول إلا في القرن السابع[1] • ومع أن في استعمال النقود البيزنطية مساساً بسيادة الميروفنجيين إلا أن هؤلاء وجدوا ألا مناص من التعامل بها لأنها الوحيدة المعترف بها دوليا آنذاك •

كانت السلطة الفعلية في فترة حكم الملوك الكسالى (التنابل) أو أطياف الملوك تمارس من قبل رؤساء البلاط أي حجاب القصور الميروفنجية فلندرس بإيجاز هذا العهد •

---

(١) راجع من اجل العلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية والميروفنجيين كتاب الاستاذ فردنياند لوط عن تاريخ فرنسا المذكور آنفا ، الفصل ٢ ، ص ٣٨ •

عهد رؤساء البلاط : اعتبرت وفاة داغوبير سنة ٦٣٩ مرحلة حاسمة في تاريخ الميروفنجيين لأنه كان آخر ملك في سلسلة الملوك الميروفنجيين الاقوياء وهم ملوك الفترة الاولى وبموته انتقل عرش الميروفنجيين الى تلك الدمّى أو أطياف الملوك الذين لم يمارسوا أي سلطة فعلية مما كنا أوردناه في نص المؤرخ إيجينهارد من قبل • ولم يبق لهؤلاء الملوك الضعاف في الفترة ما بين ٦٣٩ ـ ٧٥٢ من الملك سوى رسمه أو اسمه ، بينما مارس السلطة الفعلية طيلة هذه الفترة ولا سيما في آخرها حجّاب القصر أو رؤساء البلاط الذين كانوا في الواقع الملوك الفعليين والحقيقيين لهذه الدولة بدون أن يكون لهم من مُلكِها رسمه أو اسمه • فما هو هذا المنصب ومن الذين أوسد اليهم ؟ كان الحاجب أصلاً عبارة عن كبير خدم أو موظفي الملك أو أفراد حاشيته فهو نائب عن الملك أو مفتشه بالنسبة الى مختلف شؤون الادارة • وينتقي الملك الميروفنجي هذا الموظف الكبير من بين أفراد الاسر الأرستقراطية فيقوم بإبلاغ كبار موظفي القصر والدولة أوامر الملك ، ويقدم اليه موظفو الدولة تقارير عن الاعمال التي قاموا بها •

ولم تَعتَّم أهمية هذا المنصب أن زادت باطراد فغدا أهم شخصية في الدولة بعد عاهلها وصار يلي الملك من حيث أهميته وغدا رئيساً أو مفتشاً أعلى لشؤون البلاد أو بمثابة وزير أول ، أي رئيس للوزراء (وهذا ما يذكرنا بمنصب الحاجب في الأندلس حيث كان كزميله في الدولة الميروفنجية رئيساً للوزراء) • وبعد أن ضعفت سلطة ملوك الفترة الثانية لدى الميروفنجيين ، ولا سيما في عهد الملوك القاصرين الذين لم يبلغوا سنّ الرشد ، صار نائب الملك (أي رئيس البلاط) الملك الفعلي والحقيقي للدولة •

وعلى غرار المنصب الملكي نفسه الذي كان وراثياً فان أسرة پيپن نجحت في المنطقة الشرقية ، أو سترازيا ، في جعل منصب الحجابة الذي كانت تليه وراثياً كذلك • وهكذا صار في تلك المقاطعة أسرتان حاكمتان وراثيتان، الاولى : الأسرة الحاكمة الميروفنجية ، والثانية هي أسرة رؤساء البلاط • وسرعان ما أجهزت هذه الاخيرة على الدولة الميروفنجية لتحلّ مكانها أسرة

حاكمة جديدة هي الكارولنجية التي أقامت إحدى أكبر دول العصور الوسطى في أوروبة الغربية وهي دولة الكارولنجيين .

طرق الاستاذ لوس پييتري Luce Pietri موضوع نشأة أسرة رؤساء البلاط في مقاطعة أوسترازيا (أي القسم الشرقي من الدولة الميروڤنجية) التي لم تلبث أن طوت وتحت جناحيها أفراد الأرستقراطية في باقي الاقسام الثلاثة للدولة الميروڤنجية والتي عمد رئيسها في نهاية فترة حكم الملوك الكسالى من الميروڤنجيين الى القضاء على حكم أنسال كلوڤيس ليدشّن عهد الدولة الكارولنجية فقال بصدد ذلك ما نصه : « وكان ثمة في كل قسم من أقسام الدولة الميروڤنجية موظف كبير كان جميع أعيان هذا القسم ينشدون تفيّؤ ظل حمايته ، هو الحاجب أو رئيس البلاط . وبالنسبة الى أوسترازيا فقد طغى فيها نفوذ أسرة پيپن التي نشأت في مدينة لاندين Landen (قرب مدينة ليبج) الى درجة مكّنتها من فرض سيطرتها وسياستها حتى على العواهل الميروڤنجيين (الأواخر) . ولئن نجح أحد زعمائها وهو پيپن هيرستال في بسط نفوذه على مقاطعة نوستريا لكن موته سنة ٧١٤ أعاد الفوضى والانقسام الى تلك الربوع . ثم نجح نغيل (أي الابن غير الشرعي) من أبنائه وهو شارل المطرقة في فرض سيطرته وبسط نفوذه على الدولة الميروڤنجية بنتيجة ما أحرزه من نصر سنة ٧٣٢ على قوات المسلمين بإيقافه فتوحهم لفرنسا (معركة بلاط الشهداء) . فبوصف شارل المطرقة هذا رئيساً لبلاط أو قسم نوستريا الميروڤنجي فانه أعاد وحدة أقاليم الدولة الميروڤنجية لمصلحة أمير نوستريا الميروڤنجي ، هذا ولو أن أسرة پيپن الأوسترازية التي يمثلها في ذلك الظرف شارل نفسه استمرت قابضة على ناصية الحكم الفعلي في هذه الدولة . وقد أجهز ابن شارل وهو المدعو پيپن القصير على تلك الدولة بقبضه على آخر عواهلها وخلعه عن العرش (وذلك بقص شعر رأسه) وسجنه (في أحد الأديرة) مستولياً على المنصب الملكي ومؤسساً بعمله أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الكارولنجية »[1] .

---

(١) العالم وتاريخه، المجموعة المؤلفةتحت إشراف موريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ (هذا المجلد والمجلد الرابع هما من تأليف لوس بييتري) ، القسم ١ وهو بعنوان : كلوڤيس وجستنيان ، ص ٦٥ .

وتعود بداية هذه الأسرة الكارولنجية الى فترة حكم الملك داغوبير الميروفنجي حيث كان يقبض على ناصية الحكم الفعلي في مقاطعة أوسترازيا شخصان هامّان هما آرنول أسقف مدينة ميتز ورئيس بلاط المقاطعة وهو پيپن • وقد تزوج ابن أولهما من ابنة الثاني فأنجبا غلاماً ذكراً دعي پيپن هيرستال Héristal (نسبة الى مزرعة كارولنجية كان يملكها قرب مدينة لييج) أو پيپن الثاني ، ودعوه أيضا پيپن الشاب • وقد اعتبره المؤرخون باني مجد الكارولنجيين • وبعد نضال شاقّ وطويل ضد قوات المقاطعة الميروفنجية الثانية ، نوستريا أحرز پيپن الثاني نصراً مبيناً عليها سنة ٦٨٧ وذلك عند مدينة تيرتري (شمال شرقي فرنسا) هذا النصر الذي اعتبره المؤرخون مستهل عهد الكارولنجيين • وكانت النتيجة المباشرة لمعركة تيرتري استلام پيپن الثاني رئاسة بلاط نوستريا فضلاً عن رئاسة بلاط أوسترازيا مما جعله السيد الفعلي للدولة الميروفنجية الى وفاته سنة ٧١٤ •

وأوشكت وفاة پيپن الثاني أن تؤدّي الى كارثة لأنه أورث منصب رئاسة القصر في نوستريا وبورغونديا الى ابنه الثاني واسمه غريمود Grimaud الذي قتل في نفس السنة • وكان أولاده صغاراً ليس بوسع أحدهم القيام بأعباء منصب أبيه • فحرصاً من جدتهم ارملة پيپن/٢ أن تبقي اليهم منصب رئاسة بلاط نوستريا (اسم هذه الارملة بليكترود) عزمت على ممارسة مهام المنصب كوصية على أحفادها لكن النوستريين لم يأبهوا بها وانتخبوا أحد أرستقراطييهم ، رينفروا Rainfroi ، رئيسا للبلاط ، وأوشكت جهود پيپن/٢ في ترسيخ نفوذ وقوة أسرته أن تذهب عبثاً لولا نجاح ابن غير شرعي له واسمه شارل،وهو الذي سيلقب بشارل المطرقة أو شارل مارتل Charles Martel في القضاء على الفوضى التي انتشرت في البلاد • وكان شارل في الثلاثين من عمره عندما فرّ من السجن الذي ألقته فيه بليكترود أرملة أبيه • وقد أتيح له أن ينقذ الدولة الفرنجية من الانهيار المحقق لاسيما بعد تحالف النوستريين المسيحيين غداة إلحاقهم الهزيمة بالأوسترازيين مع القبائل الفريزية في هولندة وهي وثنية •

غدا شارل مارتل بمثابة المنقذ لمملكة الفرنجة من الدمار الاكيد • ومع أنه كان يتصرف تصرّف الملك الفعلي لكنه لم يحمل هذا اللقب ، ولم يكترث بادىء الامر برئيس بلاط نوستريا المنتخب (رينفروا) طالما أنه نجح في هزيمة النبلاء النوستريين الراغبين في الانفصال عن أوسترازيا • وكان الملك الميروفنجي تييرّي/٤ الذي حكم شارل المطرقة باسمه **مجرد ظلّ ملك** فلما قضى نحبه سنة ٧٣٧ فان شارل لم يُنَصِّب ملكاً غيره من الميروفنجيين وصار يمارس أعباء الملك بدون حمل اللقب الملكي مكتفياً بلقب أبيه وجدّه وهو حاجب القصر أو رئيس البلاط • وليتمكن شارل هذا من مجابهة أعدائه وتذليل الصعاب التي اعترضت سبيله جمع بين يديه سائر السلطات لأن المهمة الملقاة على عاتقه شائكة وصعبة للغاية لاسيما بعد أن شقت عناصر مختلفة عصا الطاعة وثارت على الفرنجة ، وهذه العناصر هي : الجرمان والآلامان والثورنجيون والفريزيون والباڤاريون والسكسون والعناصر الساكنة في مقاطعات آكيتانيا وبورغونديا وبروڤانس • فكان يتحتّم عليه أن يخوض في كل عام عدة معارك ضد هذه العناصر الثائرة ليخضعها من جديد الى دولة الفرنجة • ولئن حالف الحظ شارل مارتل بتهدئته الآلامان والفريزيين فإنه أبقى دوقاً باڤارياً لحكم منطقة باڤاريا ، ولم يتمكن من التغلّب تماماً على مقاومة أود Eudes أمير مقاطعة آكيتانيا ، كما استنجد باللومبارديين ليتمكن من سحق ثورة أمير مقاطعة بروڤانس • وبلغت حملاته ضد السكسون والفريزيين والآلامان والبارفاريين عشر حملات خاضها بين سنتي ٧١٨ — ٧٣٨ •

ويرى المؤرخون الغربيون ، وعلى رأسهم الاستاذ فرديناند لوط النصر الذي أحرزه شارل والذي جعله يستحق لقب شارل المطرقة أو مارتل في نظر الغربيين هو الذي حققه على المسلمين من عرب وبربر سنة ٧٣٢ وكانوا بقيادة عبد الرحمن الغافقي • ومع أن دولة الفرنجة كانت معرضة لاخطار عديدة على حدودها الشرقية والجنوبية الشرقية من قبل العناصر الآنفة الذكر فان الخطر الحقيقي والأهم كان يهددها من الجنوب الغربي من بلادها من قبل المسلمين العرب والبربر • وكان المسلمون قد انطلقوا من الأندلس فاستولوا

على مدينة ناربونة حاضرة سبتيمانيا وكامل الإقليم ووالوا زحفهم على بورغونديا ، كما كان دوق آكيتانيا ، وهو أود ، قد هزم على أيديهم فاستنجد بشارل مارتل • وللاحظة شارل استفحال الخطر وأنه يهدد دولة الفرنجة بصورة جذرية لذلك فانه أعدّ لهذه المعركة الفاصلة عدّتها وحشد من أجلها جميع إمكانياته التعبوية باللجوء الى حمل أتباعه من النبلاء على أن يسهموا بدورهم في هذه الاستعدادات الهائلة ، هذا فضلا عن لجوئه الى اللومبارديين في إيطاليا الذين زجّوا كذلك بقوات كبيرة في هذه المعركة •

والى المسلمون انتصاراتهم مستولين على مدينة بوردو ثم تابعوا زحفهم شمالا حيث دارت المعركة الفاصلة بينهم وبين الفرنجة بين مدينتي تور وپواتييه وقد استمرت سبعة أيام استشهد في نهايتها البطل العربي عبد الرحمن الغافقي ، وهي معركة « **بلاط الشهداء** » التي كانت نتيجتها المباشرة إيقاف المدّ العربي الإسلامي في تلك البقاع • وقد غالى المؤرخون الاجانب في تقدير أهميتها فذكروا أنها حمت أوروبة الغربية بكاملها من السقوط بين يدي المسلمين ، مما جعل شارل مارتل أهلاً للّقب الذي أطلقه عليه معاصروه وهو الذائد عن حمى المسيحية وبطلها المغوار • وعلى الرغم من أهمية هذه المعركة فان أولئك المؤرخين بالغوا كثيراً في تقدير النصر الذي أحرزه شارل لان هذه النتيجة كانت برأي الكثيرين لا محالة آتية فان لم تحدث بجوار پواتييه لكانت وقعت في غيرها من المدن من حيث أن المسلمين ببلوغهم الاندلس وصلوا الى ما يقول عنه الخبراء العسكريون « **نقطة الإشباع** » فقد نأوا كثيرا عن المنقطة التي كانت منطلقاً لفتوحاتهم ، كما طالت خطوط مواصلاتهم •

كما وأننا نجد في الرأي القائل ان نصر شارل في هذه المعركة قد كسر حدّة هجوم العرب على فرنسا مبالغة كبيرة بدليل أنه لم يُثَبِّط عزائم المسلمين الذين عاودوا الكرّة مجدداً في العام التالي مهددين مدن آرل وآڤينيون وسواهما من مدن الأجزاء الجنوبية من غاليا ، كما هددوا إقليم بروڤانس هذا فضلا عن أن شارل نفسه لن يتمكن من استخلاص ناربونه ولا اقليم سبتيمانيا منهم •

ذكر الاستاذ فرديناند لوط بصدد ذلك ما يلي بعد حديثه عن انتصار شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء : « ومع ذلك لم تفل" هذه المعركة من عزائم المسلمين • ويبدو أن سكان مقاطعة سبتيمانيا وحتى سكان مقاطعة بروڤانس فضلوا حكم المسلمين (وردت في النص الفرنسي كلمة الكفرة Les infidèles) على حكم الفرنجة • وقد توجّه شارل لمباشرة القتال في سبتيمانيا وبروڤانس • إنه أحرز النصر في معركة خاضها ضدهم عند مستنقع بيير Berr (ويقع عند مصب نهر الرون) لكنه أخفق في حصار المسلمين في ناربونة (في سنة ٧٣٧) • وعند انسحابه من سبتيمانيا أو «غوطيةGothie (أي مقاطعة اللانغدوك الفرنسية) فانه أعمل فيها سلباً وتدميراً فجعلها صحراء جرداء •

« ويجب ألا نبالغ كثيراً في أهمية الصراع الذي احتدم بين شارل والمسلمين • ومع ذلك فمن المؤكد أنه لولا انتصاراته لغدت مقاطعة آكيتانيا وحوض الرون بلاداً إسلامية كحال إسبانيا آنذاك »[1] •

زيادة التقرّب بين شارل مارتل والبابوية والقضاء على الدولة الميروفنجية وقيام الدولة الكارولنجية : واذا ما أردنا دراسة نتائج معركة بلاط الشهداء من زاوية علاقة شارل مارتل بالبابوية فلا سبيل الى جحود أن الاول غدا ، بالنسبة الى المسيحيين عامة والى البابوية بصورة خاصة ، حاميها وبطلها المقدام لدرجة أخذ معها شارل يتصرّف بمناصب رجال الإكليروس وكأنها داخله في نطاق صلاحيات منصبه كرئيس للبلاط • فكان يعيّن أنصاره من رجال الدين في مناصب الإكليروس كما لو كان الملك الفعلي للبلاد • ومع ذلك لم يكن البابا يعترض على افتئات شارل على حق الملك الميروڤنجي أو على حق البابا نفسه الذي كان يقر" تلك التعيينات • هذا فضلاً عن استيلائه على أموال الكنائس وأراضيها ويقوم بتوزيعها على أنصاره بدون أن يحرّك الحبر الاعظم أو رجال الدين الكاثوليك في غاليا ساكناً • لا بل على العكس

---

(١) فردنياند لوط : تاريخ فرنسا ... ، المرجع المذكور ، الفصل ٥ ، ص ٦٦ — ٦٧ •

من ذلك غدا شارل معتبراً في زمرة الأتقياء الورعين خاصة وقد أظلّ المبشرين الكاثوليك الذين انتدبوا من قبل الحبر الاعظم للتبشير في جرمانيا بظل حمايته الوارف ، كما وأنه لم يدّخر وسعاً في الإنفاق على أعمال البرّ والتقوى • وكدليل على رضاء البابا غريغوار/٢ عن أعمال شارل مارتل وإقراره لها فقد كلفه برعاية بعثة القديس بونيفاس التبشيرية بين الوثنيين في جرمانيا وحملهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي • ولم يُخَيِّب شارل الامل الذي عقده عليه البابا فزوّد بونيفاس بكتاب ممهور بتوقيعه نُصَّ فيه على رعايته لهذا الاخير وأنه يسبغ حمايته عليه لئلا يجرؤ أحد على أن يناله بأذى• كما مضى البابا الجديد غريغوار/٣ بعد معركة بلاط الشهداء على سنن سلفه لاستمالة شارل مارتل الى تأييد وجهة نظر البابوية بالنسبة الى بعض القضايا السياسية التي بدأت تثير قلق المتربّع فوق الكرسي الاقدس ، خاصة وكان رئيس بلاط الميروفنجيين قد غدا منذ تلك المعركة الحاكم بأمره في جميع مناطق دولة الميروفنجيين •

ثم جدّ في سنتي ٧٣٩ ــ ٧٤٠ حادث زاد التلاحم والتقارب بين البابا وشارل مارتل ، وذلك بعد أن أمسى البابا مهدداً في روما من قبل اللومبارديين بعد وضوح نواياهم بإزاء إيطاليا التي أرادوا ، بعد أن كانوا قد احتلوا أجزاءها الشمالية وبعض مناطق الجنوب ، احتلال جميع مناطقها بما في ذلك مقر الكرسي الأقدس وراڤينا مقر نائب الإمبراطور البيزنطي في حكم إيطالية • وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد استردّت سيادتها ولو نظرياً على إيطاليا منذ أيام جستنيان العظيم سنة ٥٢٥ ولو أن حكم البيزنطيين في فترة القرنين الواقعين ما بين النصف الأول من القرن السادس والنصف الأول من القرن الثامن لم يكن قوي القبضة •

والشيء المقلق بالنسبة الى البابا غريغوار /٣ أن هذا الأخير الذي كان واثقاً من نوايا الإمبراطور البيزنطي وأنه كان يدرك أن هذا الأخير يعتبره تابعاً له وأنه ليس أكثر من مجرد أسقف لمدينة روما ويجب أن يكون تبعاً لذلك من مرؤوسي العاصمة البيزنطية • ولم يعد يساور البابا أي شك

في حرص الإمبراطور البيزنطي على تقليص نفوذه وسلطته بعد أن سحب منه حقــه في الإشراف الديني على بعض مناطق إيطاليا كصقلية وكالابريا وإقليم دالماسيا (الجزء الساحلي من يوغوسلافية الحالية) وبعض أقاليم البلقان. لذلك كله لم يكن الحبر الأعظم مستعداً إطــلاقاً لأن يستمدّ العــون من الإمبراطور البيزنطي ضد اللومبارديين .

ولئن كان البابا غير موافق على طلب حماية الإمبراطور البيزنطي ، الذي هو ، ولو من الوجهة النظرية على الأقل ، رئيسه الشرعي والمباشر ، فهو لن يرضى مهما كلفه الأمر من تضحيات بأن يترك اللومبارديين ينجزون استيلاءهم على باقي إيطاليا وأن يغدو هو نفسه أسقفاً للملك اللومباردي على رومــا ووالياً عليها من قبله أي نائباً عن هذا الأخير في حكمها . ومما زاد في حرصه المتناهي على إحباط خطة اللومبارديين أنهم كانوا ما يزالون آريوسيين ، أي أرثوذكساً ، وأنه لم يكن ليجهل نواياهم بإزائه .

فأمام هذين الخطرين اللذين اعترضا البابا (إما أن يغدو تابعاً لبطريرك القسطنطينية وإما أن يصير تابعاً لملك اللومبارديين الآريوسي) وهما أمران أحلاهما مرّ بالنسبة إليه لم يجد الحبر الأعظم مفراً من اللجوء الى الدولة الكاثوليكية الكبرى في غربي أوروبة وهي الدولة الميروفنجية يستمدّ العون منها لتنقذه من مأزقه الحرج . بيد أنه وقع في حيرة من أمره . فليس ثمــة ملك ميروفنجي يمكنه الاعتماد عليه ، وأن بقايا الأمراء الميروفنجيين كــانوا كما ذكرنا من قبل بمثابة حجارة الشطرنج أو كالدّمى يحركها رئيس البلاط كيفما شاء . فبعد أن فكر غريغوار/٣ في الأمر ملياً لم يجد النجاة من ورطته إلا بالاستنجاد بشارل مارتل الذي لم يكن وحتى عامئذ سوى رئيس للبلاط الميروفنجي فحسب لا سيما بعد أن غدا هذا الأخير الذابّ عن حياض المذهب الكاثوليكي وحامي حماه وذلك منذ النصر المؤزر الذي أحرزه على المسلمين في بلاط الشهداء . وهكذا لم ير البابا غضاضة في طلب النجدة من شارل ضد اللومبارديين خاصة لتحرّج موقفه في روما للغاية بعد أن بات هؤلاء قاب قوسين أو أدنى منها (على بعد ثلاثين كيلو متراً من روما) .

وكان في طلب المساعدة الموجّه الى شارل مارتل بعض الإزعاج لهذا الأخير لأن اللومبارديين حلفاؤه سواء في معركة بلاط الشهداء أم في الظرف الراهن (حوالي عام ٧٣٩) ، وهو يعتمد عليهم كثيرا للصمود في وجه العرب والمسلمين عند مهاجمتهم جنوب شرقي غاليا أي إقليم البروڤانس .

تردّد شارل مارتل في الاستجابة الى السفارة التي وجهها إليه البابا طالباً منه المدد ضد الملك اللومباردي ، لا بل فانه رفض تلبية طلب الحبر الأعظم لئلا ينقض حلفه مع أصدقاء وحلفاء الأمس وهم اللومبارديون . عاد البابا فألحّ على شارل بوجوب أن يهبّ لنصرته وكانت لهجة طلبه مؤثّرة ومشوبة بشيء كثير من الاستعطاف ، فبعد لأي وتردّد لبّى هذا الأخير طلب النجدة محققا بذلك ما عقدته عليه البابوية من آمال جسام لا سيما وكان الكارولنجيون وشيكي تنفيذ مشروعهم الرامي الى الإجهاز على الدولة الميروڤنجية المحتضرة وتأسيس دولتهم لتحلّ محلها . وبغية الوصول الى تحقيق هذه الغاية التي طالما راودت نفوسهم ودغدغت أحلامهم كان عليهم أن يجعلوا البابا يوافق على خطوتهم الجريئة . وفي الواقع عندما ستأزف ساعة العمل لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ فان البابا لم يتلكأ في الاعتراف بشرعية عمل الكارولنجيين مسدّداً بذلك الدين الذي في عنقه الى شارل مارتل .

وقد ذكر الأستاذان إسحاق وماليه بصدد الربط بين اعتراف البابوية بالكارولنجيين واتحاد شارل مارتل مع البابا غريغوار/٣ ما نصه : « إن البابا، الذي ما برح مهدّداً في روما من قبل اللومبارديين ، فكر بطلب المعونة من شارل مارتل مرسلاً اليه سفارة على جناح السرعة . وهكذا توثّقت العلائق بينه وبين البابوية ، تلك العلائق التي ستكون نتيجتها بالنسبة لأولاد وحفدة شارل مارتل ، وهم الكارلنجيون ، أهم بكثير من علائق الودّ والوئام، التي كانت تشدّ القديس سانت ريمي وأساقفة غاليا الى كلوڤيس والميروڤنجيين . فإن الكارولنجيين الذين كانوا ومنذ أمد بعيد « ملوكاً في الواقع أو فعليين Rois de fait » لم يلبثوا أن صاروا وبمعونة الباباوات ملوكاً شرعيين

Rois de droit »[1] .

ومهما يكن فان ضم شارل مارتل بعض ممتلكات الكنيسة في غاليا وتلكؤه بادىء الامر في الاسراع الى نجدة البابا ضد اللومبارديين جعل الفتور يسود علاقته بالكنيسة الى حدٍّ ما . بيد أن هذا الفتور لم يُعَمِّر طويلاً لأن العلائق بين الكارولنجيين والبابوية سرعان ما عادت الى صفائها السابق بعد تولّي پيپن القصير الحكم سنة ٧٤١ . وكان أن انعقدت في غاليا أربعة مجامع دينية برئاسة القديس بونيفاس وقد تقرر فيها سيادة نظام الأديرة البندكتية على أديرة الفرنجة ، وأن يكون ثمة أسقف لكل مدينة ومطران تخضع له كل مجموعة من الأساقفة ، وأن يخضع المطارنة الى البابا .

قيام الدولة الكارولنجية :توفي شارل مارتل سنة ٧٤١ سنة قبل أن يرى مشروعه النور ، وكان مقيّضا لابنه پيپن القصير (Pépin le Bref) أن يجني ثمار تعاون أبيه مع البابوية . هذا علاوة عن أن هذا العاهل كان كأبيه من حيث سهره على مصالح المذهب الكاثوليكي والبابوية وحمايته للمبشرين الكاثوليك الذين كانوا يسعون حثيثاً من أجل جعل القبائل الجرمانية الوثنية الساكنة فيما وراء الراين تعتنق المذهب الكاثوليكي ، وقبوله إصلاح نظام رجال الإكليروس في غاليا وفق الارشادات التي اقترحها القديس بونيفاس الخادم المخلص الأمين للحبر الأعظم تلك الاصلاحات التي ألمحنا اليها آنفاً[2] .

أزفت ساعة ردّ الحبر الأعظم لجميل الكارولنجيين عندما عقد پيپن القصير العزم على التخلّص من آخر **الملوك الدّمي** من الميروفنجيين وجعل البابا يقرّ مادعاه المؤرخون « **انقلاب پيپن القصير** » ويضفي عليه الشرعية . قرّر پيپن وضع حدّ لهذا الموقف غير المستقر بالنسبة الى الكارولنجيين . لكنه كان يخشى أن يعتبر أعداؤه الكثيرون عمله افتئاتاً على حقوق الملك الميروفنجي الشرعي شيلديريك/٣ . وهذا ما حدا به الى استشارة كبار أفراد الإكليروس المخلصين اليه عن المخرج من ذلك المأزق الحرج فأشاروا عليه

---

(١) إسحاق وماليه ، المجموعة المذكورة ، الجزء المخصص لتاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٨ ، ص ١٢١ .

(٢) المصدر عينه ، الفصل ٨ ، ص ١٢١ .

بألا يصدر إلا عن رأي البابا • وهكذا وجدناه يوفد سنة ٧٥٠ كلا من الأب الرئيس لدير القديس سانت دنيس في باريز وأسقف مدينة فرتزبورغ في مهمة الى البابا زكريا لسؤاله : « إن ثمة شخصين أحدهما يعيش ناعم البال غير مهتم بشؤون المملكة وثانيهما يضطلع بكافة أعباء مسؤولية المملكة • ويجابه جميع الأخطار التي تتعرض اليها هذه المملكة • فأيهما يستحق أن يكون الملك الشرعي لها ؟ » • ولم يتأخر ردّ الحبر الأعظم على هذا السؤال وقد تضمن قوله : « انه من الافضل أن يكون الملك من يمارس مهامّ السلطة الفعلية وليس من هو محروم منها »[1] •

لقد حصل پيپن من البابا في سنة ٧٥٠ على ما كان يصبو اليه هو وأفراد أسرته من رؤساء البلاط في منطقة أوسترازيا منذ سنة ٦٣٩ أي منذ مائة وأحد عشر عاماً • وبعد أن كان الكارولنجيون يمارسون السلطة الفعلية في الدولة الميروڤنجية منحتهم هذه « **الفتوى** » التي أصدرها البابا زكريا سنة ٧٥٠ الوثيقة التي أسبغت على حكمهم الفعلي الصفة الشرعية فلم يلبث پيپن القصير أن تخلّص من آخر ملك ميروڤنجي بعزله •

وبنتيجة هذه « الفتوى » البابوية عقد پيپن في مدينة سواسّون اجتماعاً ضمّ كبار رجالات الدولة في تشرين الثاني ٧٥١ وقد أوعز أثناء انعقاد الاجتماع الى أنصاره أن ينتخبوه ملكاً على الفرنجة فتمّ له ذلك • ونادى المؤتمر بعزل آخر ملك ميروڤنجي شيلديريك/٣ الذي حلِقَ شعر ناصيته وأرسل منفياً الى أحد الأديرة (هو دير القديس برتان Saint - Bertin) ليقضي بقية حياته فيه (ولنشر الى أن قصّ ذوائب الملك أي شعر ناصيته معناه لناظري الميروڤنجيين حرمانه من شارات الملك) وبذلك تمّ القضاء فعلياً على الأسرة الميروڤنجية الحاكمة بموافقة الحبر الأعظم • وبتولّي پيپن الحكم في أول سنة ٧٥٢ كملك شرعي بدأ عهد دولة جديدة هي الدولة الكارولنجية[2] •

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا ... ، المرجع المذكور ، الفصل ٥ ، ص ٦٨ .

(٢) لوس بييتري : مجموعة موريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

وامعاناً من پيپن في كسب المزيد من الشرعية لمنصبه طلب من ممثل الحبر الأعظم في حفل تنصيبه . وهو القديس بونيفاس ، ومن باقي الاساقفة الحاضرين تقديسه أو مشحه بالزيت المقدس وذلك تجديداً أو إحياءً لتقليد ديني قديم كان ساري المفعول أيام العبرانيين حيث كان النبي صموئيل قد صبّ الزيت المقدس وباسم الإله على رأس الملك شاؤول Saül (وهو أول ملوك العبرانيين وكان حكمه في النصف الثاني من القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، وتذكر مصادرهم أنه لمعصية هذا الملك أوامر الإله يهوه فإنه عزل من الملك الذي أوسد الى ختنه داوود . وقد هزم شاؤول على يد الفلسطينيين فانتحر سنة ١٠٠٣ ق.م) .

لا بل زاد موقف پيپن والكارولنجيين من بعده قوة ورسوخاً عندما حضر البابا إتيين/٢ Etienne II سنة ٧٥٣ الى غاليا طالبا من پيپن حمايته من ملك اللومبارديين ايستولف الذي استولى على راڤينا وأخذ يهدد روما نفسها . وبنتيجة كون هذه المناطق تابعة ، ولو نظرياً الى الامبراطور البيزنطي فان البابا التمس في البداية العون من الامبراطور نفسه . بيد أنه عندما لم يفز من هـذا الأخير بطائل فانه استنجد بالعاهل الفرنجي الجديد پيپن القصير طالباً منه أن يستدعيه الى مقابلته في غاليا (وصار ت منذئذ تدعى فرانسيا) ليشرح له خفايا الامور . أوفد پيپن رسولين من لدنه لتطمين البابا ومرافقته في حضوره الى فرانسيا . وعندما تمّ اللقاء بين البابا إتيين/٢ وپيپن القصير وأوقف أولهما الثاني على كنه تهديدات عاهل اللومبارديين لروما بعد استيلائه على راڤينا ذلك العمل الذي ينطوي تحته افتئات على حقوق القديس بطرس في روما وهو تهديد لجمهورية الرومانيين . طمأن پيپن ضيفه مقسماً له على استرداد راڤينا من اللومبارديين وإعطائه جميع ما سيستولي عليه من مناطق هؤلاء أو من المناطق التابعة للبيزنطيين . ولو أن هذا القسم يعتبر في حد ذاته افتئاتاً على حقوق الامبراطور البيزنطي الذي كان البابا نفسه وجميع ايطاليا ، ولو من الناحية النظرية ، تابعين له . لكن البابا كان ينشد ضمان عاهل الدولة الكارولنجية الجديدة مركزه كعاهل

دنيوي (أي أن يصير البابا معتبراً في زمرة العواهل الدنيويّين) فـي المناطق التابعة الى الباباوات في ايطاليا • وقد استند إتيين الثاني في طلبه هـذا على الوثيقة المعروفة بإنعام أو هبة الإمبراطور قسطنطين للبابا سيلفستر/١ وخلفائه في المنصب البابوي من بعده • وفحوى هذا الإنعام أن الامبراطور أنعم على البابا بروما وبسائر مناطق ايطاليا والغرب • ويرى المؤرخون أن هذه الوثيقة مزوّرة منتحلة • كما منح الباباوات كذلك ومن قبل الامبراطور نفسه كنيسة القديس بطرس في روما وقصر لاتران Latran مع السماح لهم بحمل التاج والشارات الامبراطورية وهي الرداء الأرجواني والبزّة الحمراء والصولجان وعصا القيادة • وأن يكون للبابا حرس كالحرس الامبراطوري، وأن يتمتع بحق تعيين قناصل له أو ممثلين عنه لدى الدول الاجنبية وبحق تعيين قادة لقواته • وبكلمة ثانية أن تتألف الممتلكات الكنيسة أو البابوية من روما وجميع ايطاليا وجميع الولايات التي كانت تابعة للامبراطوريـة الرومانية في الغرب ، وأن تكوّن هـذه الممتلكات دولـة ذات سيادة وعاهلها البابـا •

وقد زاد هذا الإنعام من ترسيخ السلطة الزمنية للباباوات لاسيما وقد أورد الإمبراطور في آخره عبارة كثيراً ما جعلت الباباوات يعتقدون جازمين أن منصبهم أسمى من منصب الامبراطور نفسه ، وورد في هذه العبارة : أنه إمعاناً من الامبراطور في التعبير عن احترامه للقديس بطرس فانه يعتبر نفسه بمثابة السائس لدابّة البابا سيلفستر/١ بأن يترجّل هو نفسه ويسير فـي ركاب البابا ممسكاً بعنان دابته ليقودها •

وعلى الرغم من ادعاء الكثيرين أن هذه الوثيقة : « إنعام قسطنطين » مزوّرة ولا أساس لها من الصحة فانها اتخذت الاساس الذي استند اليه الأحبـار العظام في العصور الوسطى في تبرير ادعاءاتهم بالنسبة لممارسة السلطات الزمنية وعلى رأسها السيادة ، وأنهم أعلى منزلة من الامبراطور نفسه لان حكم هذا الاخير لن يعتبر شرعياً إلا إن تَوّجه البابا بيده • وسواء اعتبرت هذه الوثيقة مزوّرة أم أصيلة فان البابا إتيين/٢ وجد لدى الملك

الكارولنجي الجديد پيپن القصير تجاوباً بالنسبة لما ورد فيها من حقوق ادعتها البابوية لنفسها • وكانت النتيجة أن تعهد هذا العاهل الى البابا بردّ ما استولى عليه ملك اللومبارديين في ايطاليا ولو أن پيپن في تعهده هذا تخطى الإمبراطور البيزنطي نفسه وافتأت على حقوقه •

وليحمل البابا هذا العاهل على البرّ بوعده فانه مشحه في كنيسة القديس سانت دنيس بالقرب من باريز بالزيت المقدس وذلك في ٢٨ تموز ٧٥٣ ، ومشح كذلك ابنيه شارل وكارلومان ومنحهم جميعاً بركته الرسولية ، وبارك كذلك المملكة الكارولنجية وصبّ اللعنات على كل من سيحاول اغتصاب عرش دولة الفرنجة من سلالة پيپن القصير وهدّد كذلك بحرمان الفرنجة إذا ما رفعوا إلى سدّة الملك ملكاً من غير سلالة پيپن • وبذلك منح هذا الاخير وأفراد أسرته الكارولنجية من بعده تأييد الله وبطرس الحواريّ ممثلا في تأييد الحبر الاعظم لپيپن في ممارسته للحكم وأنهما سيدرأان عنه كل محاولة لاغتصاب العرش منه سواء أكانت من قبل بقايا الميروڤنجيين أم من قبل أخيه كارلومان (الذي توفي وشيكاً في دير سانت برتان في فرنسا حيث كان پيپن سجنه في ذلك الدير لمحاولته عرقلة توطّد حكم أخيه) • وإرضاء من البابا لغرور پيپن أطلق عليه لقب حامي روما هو وورثته من بعده ويترتب على هذا المنصب الاعتراف للملوك الكارولنجيين الذين سيكونون ملوك فرنسا بحق حمايتهم للبابوية ولايطاليا الرومانية مع ما في الاعتراف لهم بهذا الحق من تعدٍّ على حقوق الإمبراطور البيزنطي[1] •

وهكذا قام حلف قوي بين البابوية من جهة وبين الدولة الكارولنجية الناشئة من جهة ثانية وسيكون لهذا الحلف أثر حاسم في تكييف تاريخ أوروبة الغربية في العصور الوسطى •

ولم يخيّب پيپن الآمال التي عقدها عليه البابا فاستعد لحرب اللومبارديين حلفاء الأمس • هذا ولو أن رجالات دولته لم يقرّوا رأيه ورفضوا الانصياع

---

(١) لوس بيبتري : مجموعة موريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المصدر عينه ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

لأمره وقاوموه • وكان الملك الكارولنجي أرسل طالباً من ملك اللومبارديّين الكفّ عن مناصبة الحبر الأعظم العداء وأن يقلع عن التفكير بضمّ روما الى ممتلكاته فلم يأبه بهذا الطلب لا بل على العكس من ذلك أخذ يشجع في السرّ معارضي پيپن من الفرنجة ، ثمت فانه طلب من كارلومان (أخي پيپن وكان آنذاك في ديرمونت كاسينو بايطاليا وهذا قبل موته) التوجّه الى فرانسيا لتقوية معارضي سياسة أخيه لكن هذا الاخير ألقى القبض على أخيه ووضعه في دير سانت برتان الفرنسي حيث قضى نحبه على النحو المشار إليه أعلاه • وأخيراً وجّه پيپن حملة أولى لقتال اللومبارديين • وبعد إظهار ملكهم استعداده للخضوع عادت الحملة لكنه نكل بوعوده فاستأنف پيپن القتال ضده وفرض عليه شروطاً قاسية أراحت البابا من أي إزعاج من جانبه[1] •

وهكذا قامت تلك الدولة الجديدة الكارولنجية التي سنتحدث عنها بعد دراسة موجزة للحضارة الميروفنجية •

الحضارة الميروفنجية : سنقدم دراسة موجزة للنظم الميروفنجية تتناول فيها الملكية الميروفنجية ونظام الحكم والحياة الاجتماعية ولاسيما الاخلاق والعادات والحياة الفكرية والفنية والحياة الاقتصادية •

الملكية الميروفنجية ونظام الحكم والقضاء : لم يكن للميروفنجيين نظم مستقرة تتعلق بالحكم أو بصورة أدق بالملكية الميروفنجية • ويرى المؤرخون أنه لم يكن لهذه الدولة من نظم في الواقع سوى نظامها الملكي لانها تقوم على أساس واحد هو إرادة العاهل الفرنجي السالي وإرادة خلفائه من بعده في بسط سيطرتهم ونفوذهم • إنهم يرون كذلك أن الملكية الميروفنجية لا تمثل حتى ولا نظام احتلال أي فتح حقيقي بالنسبة الى البلاد التي خضعت لها •

تعرّض الأستاذ فرديناند لوط الى ما بذله عواهل الميروفنجيين من جهود نشداناً الى ترسيخ وتوطيد جذور حكمهم فقال ما معناه : « وبعد أن أنجز

---

(1) لوس بيبتري : مجموعة موريس مولو عن العالم وتاريخه المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ •

كلوفيس وأولاده وحفدته احتلال شمالي غاليا بدؤوا يصفّون تباعاً الأسر الحاكمة القوطية والبورغوندية المنافسة لهم.علماً أن هؤلاء الملوك الميروفنجيين لم يتعرّضوا الى عامة الشعب في تلك الدول فتركوا هؤلاء يعيشون حياتهم الخاصة . لا بل على العكس من ذلك فان أفراد الإكليروس الكاثوليكي نجحوا في جعل أفئدة أفراد الشعوب الخاضعة لحكم الميروفنجيين تميل الى عواهل هؤلاء لأنهم لم يفردوا أي عنصر بمعاملة تميِّزه عن سواه من العناصر الاخرى ، بمعنى أنه لم يكن في ممارستهم للحكم أي تمييز عنصري . لقد كان العاهل الميروفنجي يوسد مناصب الحكم والإدارة الى من يريده من أفراد رعيته ، كما كان يغدق أنعمه على من يشاء ويعاقب من يحلو له دونما تقيّد في ذلك كله بأية قواعد أو أسس أو دونما اعتبار للطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الشخص الذي أراد العاهل الميروفنجي أن يوسد اليه منصباً حكومياً ما ، وكثيراً ما أسندت بعض المناصب الى موظفين منتمين الى الطبقات الدنيا في المجتمع . إن الامر الوحيد الذي كان العاهل الميروفنجي يأخـذه بعين الاعتبار عندما يفكر بتعيين زيدٍ من الناس الى أحد المناصب هو مصلحة العاهل الخاصة وبأن يكون التعيين موافقـاً لنزوات وأهواء هذا العاهـل فحسب . ولم يكن هناك أي عائق شرعي ليكبح جماح ونزوات وأهواء الملك الميروفنجي الذي لم يكن يخشى أحداً سوى التعرّض الى غضب الله أو الى استياء القديس مارتان صانع المعجزات . فالخشية من التعرّض الى غضب الله أو غضب القديس مارتان هي التي تنهنه من قبضة الملك الميروفنجي ، وتخفّف من استبداده في الحكم . ولم تؤل الى هذه الأسرة المالكة نتيجة لأصلها الجرماني أية سلطات واسعة متطرفة مستبدة . وكانت السيادة في هذه القبائل الفرنجية الجرمانية التي يعتبر البحريون أي الساليون قسماً منها هي ولو من حيث المبدأ من حق الجمعية الشعبية المؤلفة من جميع الافراد الساليين الاحرار ، وما كان الملك بالنسبة الى هؤلاء والى تلك الجمعية سوى قائد عسكري فقط . لكن ازدياد رقعة البلاد الخاضعة الى الفرنجة البحريين أدّى الى سحب هذه الحرية من رعاياهم .

« ولئن كان العاهل الميروفنجي بالنسبة الى رعاياه الاحرار مجرد قائد

عسكري ، لكنه صار بعد أن ضيّق مجال حرية أفراد رعيته يعتبر نفسه أسمى بكثير جداً من أفراد شعبه . ثم صار يمارس سلطته المطلقة بالنسبة الى الشؤون الادارية والمالية والقضائية والحربية . وكان الإعدام يُنزَل بالمخالف لأوامر الملك أو بمن يعصيها. ثمت فان ازدياد عدد الميروڤنجيين أوهن أو قطع الروابط التي كانت تشدّ العاهل الميروڤنجي الى مهد أجداده ولو أن هذا الملك لم ينس أصله الفرنجي واستمر محتفظاً باللقب الأوحد الذي حمله ألا وهو « عاهل الفرنجة » . لكن هذا العاهل كان يعيش في الواقع وسط بيئة مؤلفة من أفراد غاليين رومانيين »[1] .

وهكذا وجدنا ورثة كلوڤيس المباشرين مع احتفاظهم بذكرى أصلهم الفرنجي يندمجون في بيئتهم الجديدة الغالية الرومانية ويجنّدون السكان المحليين لضمّهم الى قواتهم الفرنجية . وبدرجة ما كانت رقعة الدولة الميروڤنجية تتوسع بدرجة ما كانت نسبة السكان المحليين ترتفع من حيث أن مقاتلة الفرنجة لم يعودوا كافين لتوطيد الأمن في تلك الرقعة الكبيرة أو لتنفيذ البرنامج التوسّعي الموضوع حتى منذ عهد كلوڤيس نفسه . ولزيادة عدد القوات المحاربة فان الميروڤنجيين فرضوا الخدمة العسكرية على جميع الرعايا الاحرار في دولتهم . ولم تعد هذه الخدمة مقتصرة على الفرنجة أي على العناصر الجرمانية الاصل فقط . وبدت النتيجة الحتمية لذلك ومنذ فترة مبكرة في أن غالبية جنود الميروڤنجيين سيغدون من الغاليين الرومان بمعنى أن جيوش الميروڤنجيين فقدت التجانس والانسجام بين أفرادها الذين لم يعودوا من الجرمان فحسب . وهذا طبيعي لان تلك الدولة صارت تضم في رقعتها الى جانب المقاطعات المأهولة بعناصر جرمانية وهي مقاطعات الراين والموز مقاطعات مأهولة بعناصر غالية رومانية كأقاليم شامپانيا والتورين وپواتو والأوڤيرني وقسماً من إقليم بروڤانس[2] .

أضف الى ذلك أن لغة البلاط الرسمية لم تعد اللغة الفرنجية (ذات

---

(1) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا . . ، المرجع المذكور ، الفصل ٣ ، ص ٤٣ .
(2) المصدر عينه ، الفصل ٣ ، ص ٤٣ ــ ٤٤ .

الأرومة الجرمانية) فحسب إنما صارت اللاتينية ، وهي لغة الاقاليم الغالية الرومانية ، اللغة الرسمية الثانية • ونجح الفرنجة بفرعيهم البحري (السالي) والبرّي (الريبويري) في جرمنة المناطق الشمالية والشمالية الشرقية من غاليا فيما يتعلق بتسويد العنصر الجرماني واللغة والعادات الجرمانية • وقد ترك عواهل الميروفنجيين تطوّر هذه الأجزاء يوالي طريقه المرسومة نحـو إتمام جرمنتها ، لكن هذه الأجزاء لا تمثل سوى قسم بسيط جداً (لايتجاوز السدس) من رقعة غاليا • بينما بقي التنظيم الاداري والحكومي في الأجزاء الباقية رومانياً في جوهره • واقتصر التغيير الطارىء على تبسيط واختصار نظم الحكم الرومانية المعقّدة • فلم يعد ثمة امبراطور ولا قاضٍ رومانـي مُعَيَّن من قبل السلطة المركزية في روما ، ولا مساعدون للاساقفة فـي الأبرشيات ولا ولاة لحكم الولايات ولم يبق سوى المدينة فقط كوحـدة إدارية • ولا يراد بهذه التسمية مجرد مدينة ما (أي المكان فقط) ، إنمـا تعبـير المـدينة Cité في المصطلح الإداري الروماني هو تعبير المدن شـبه المستقلة أو الدويلات City state الذي يدل على العناصر الغاليّة التي كانت مستقرة في مدينة ما والذين غالبا ما سمح لهم الرومان بقسط من الحكم الذاتي وأثناء فترة طويلة • ومع أن الرومان افتأتوا في القرنين الاخيرين من حكمهم على الكثير من امتيازاتهذه**المدن الدول**أي المدن شبه المستقلة بسحبهم الشيء الكثير من امتيازاتها القضائية والمالية فان تلك المدن قد استمرت ولو أن مركزها تحرّج كثـيراً وفقد قوته • وبعد أن صـارت المسيحية ديـن الإمبراطورية الرومانية الرسمي فان نظام المدن شبه المستقلة اتّخِذَ كإطار للتنظيم الديني للامبراطورية حيث عُيِّن أسقف لكل من هذه الوحـدات أو المدن • وسيكون لذلك نتيجة كبرى • فبعيد إلغاء مجلس الشيوخ المحلي (الذي كان في كل من هذه المدن) أو بعيد فقدان هذا المجلس لأهميتـه بصورة كلية فان أسقف كل مدينة صار بمثابة الحامي لها وغدت الكنيسة الكبرى فيها مركز تجمّع عناصر سكانها • ولم يعد الأسقف مجرّد راعٍ لنفوس السكان في أبرشيته انما غدا بنتيجة ثروته الخاصة (حيث كـان يُنتَخَب دائماً من بين سراة القوم) وثروة الكنيسة ، سنداً مادياً ودعامة

لأتباعه . ثم فانه عندما صار الملك الفرنجي مسيحياً فان الأسقف وحده هو الذي بقي متمتعا بقسط زهيد من السلطة واتخذ نظام المدن شبه المستقلة المطابق للابرشيات منطلقا للنظا مالاداري في عهد الميروفنجيين فعيّن الملك موظفا سامياً ممن يثق بهم ليرأس الجهاز الاداري في كل منها أو ليمثّله في إدارتها ومن هنا اشتقّ اسم هذا الحاكم فدعي أولاً « **الرفيق أو الصاحب** Conpagnon » أو Comes هـذا الاسم الـذي نحت فصـار **كونتاً** Comte ومعناه الحرفي الاصلي رفيق أو صاحب الملك . ثم صار هذا الحاكم رئيسا لحكم الولايات أو المقاطعات والاقاليم .

ومنح الملك الميروفنجي حاكم الولاية هذا سلطة واسعة بأن جمع له رئاسة الشؤون الإدارية والشؤون القضائية في نفس الوقت . وهكذا صار هذا الكونت حاكم الولاية مُحَصّلاً لضرائب ولايته وقائداً للقوة العسكرية التي تفرض عليها . ولم يخش الملك إطلاقاً من جمع هذه السلطة للكونت الوالي لأنه كان متأكداً من أن سلطته الملكية هي من النوع المستبد المطلق ، وأن بوسعه تنفيذاً لإرادته أو لنزوة من نزواته أن يمنـح تلك السلطات للكونتات الولاة أو أن يستردّها منهم وذلك كما يحلو له . وغالبا ما كان الكونتات الولاة ينتقون من بين أفراد العناصر الغاليّة الرومانية ولربمـا انتخبوا من بين متوسطي الحال ، أي من بين أفراد طبقة العبيد المُحَرَّرين[1] .

وإذا ما أردنا تحديد صفات الملكية الميروفنجية نقول بأن نظم هذا العهد تعكس الطابع العام السائد فيه . فثمة بلبلة أو ارتباك كلّي يمكن أن نعزوه الى المزج بين تقاليد قبائل الفرنجة والنظم الرومانية القديمة .

وقد احتفظ ملوك الميروفنجيين في القرن السادس بلقبهم القديم وهـو ملك الفرنجة ، وبقي شـعارهم التقليدي القديم وهو الشـعور الطويلة المسترسلة . غير أنهم في مقابل ذلك سعوا الى محاكاة أباطرة الرومان وتقليد تنظيمهم الامبراطوري فصاروا ينادون بمجدكم Votre Gloire وبرفعتـكم Votre Sublimité وصاروا يستعملون صيغة الجمع للدلالة على شخصهم :

---

(١) راجع فرديناند لوط : تاريخ فرنسا المذكور ، الفصل ٣ ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .

نحن ملك الفرنجة نريد ... أو نأمر • وصار لهم قصر وفيه عدد من الافراد أنيط بهم خدمة العاهل الفرنجي وادارة دفة الحكم في البلاد • ويرأس هؤلاء الموظفين رئيس البلاط أو الحاجب الذي كان في بادىء الامرد مجرد رئيس لخدم الملك ومدير للثروة الملكية ثم صار بعد مدة وزيراً قوياً جداً ومستأثراً بشؤون الحكم[1] •

وعلى الرغم من وجود نظم أصولية ومستقرة وملكية مطلقة في الظاهر فان ثمة فوضى وعنفاً وراء هذه المظاهر ولم يكن مقاتلة الفرنجة المنخرطين في صفوف القوات الميروفنجية يدعمون الملك ويؤيدونه إلا طلباً للحصول على الغنائم[2] •

ولم يلبث عواهل الفرنجة أن ألغوا اجتماع الجمعية الشعبية المؤلفة من جميع أفراد الفرنجة الاحرار ذلك المجلس الذي كان من قبل ينظر في شؤون القبيلة التي تتمّ المداولة بشأنها بطريق التصويت العلني • وبما أن النبلاء المؤلفين لحاشية الملك غدوا يأتمرون بأمر هذا الاخير فسرعان ما تحولت إرادة الملك الى قانون •

وثمة ملاحظة أخيرة تتعلق بنظام الحكم وهي أن الميروفنجيين وكثيرين سواهم من عناصر الفرنجة كانوا يعتبرون المُلْكَ كالعقار يجب أن يوزّع أنصبة وحصصاً على الورثة المستحقين بعد وفاة الملك الحاكم هذا مع استبعاد بنات الملك المتوفى • وترتبت على هذا التقليد نتائج سيئة للغاية لأنه صدّع وحدة الصف وأدى الى تقسيم المملكة بين أبناء الملك المتوفى • وكثيراً ماذرّت الفتنة قرنها بين الإخوة واندلعت نيران الحروب الاهلية مما أنهك قوى هذه الدولة • ونادراً ما نجح أحد الإخوة المقتسمين في الابقاء على وحدة البلاد بِشَنّه الحرب على إخوته وتغلّبه عليهم •

وفضلاً عن هذه النقيصة فان الكونتات حكام المقاطعات بعد أن كانوا

---

(١) المصدر عينه ، الفصل ٣ ، ص ٤٦ — ٤٧ •

(٢) مجموعة اسحاق وماليه المذكورة ، الجزء المخصص لتاريخ العصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٧٣ •

الحكام الفعليين للاقاليم والقابضين على ناصية الحكم لكنهم في الفترة الثانية قلمّا رغبوا في مغادرة البلاط الى الولايات التي أوسد الملك اليهم حكمهـا مما نتج عنه استئثار كبار الملاّك في تلك الولايات بحكمها الفعلي فمهدوا بعملهم هذا الى ظهور النظام الإقطاعي في العصور الوسطى • وصار هذا « **الإقطاعي** » ينوب عن الكونت صاحب الولاية ، شاء هذا الاخير أم أبى • ولو أن هذا الإقطاعي كان يقوم بمهام منصبه باسم الملك الميروفنجي وليس باسم الكونت صاحب الولاية ، فكان يمارس الشؤون القضائية ويُحَصِّل التكاليف أي الضرائب من سكان الولاية و يُعَبِّىء القوات المفروضة على ولايته وينضمّ على رأسها الى قوات الملك في حالة اشتباك هذا الاخـير بأحد أعـدائه •

هذا ويجب ألا تفوتنا بعض الملاحظات المتعلقة بالنظام القضائي : فأولها أن الميروفنجيين اعتبروا غالبية الجرائم مخالفات شخصية خاصة وليست عامة ولذلك تقتصّ أسرة المجني عليه من الجاني وتعاقبه • وقد تقبل في بـعض الحالات أن يُعَوَّضَ عليها المذنب نفسه أو ذووه بالمال • كما كانت تثأر لنفسها أحيانا بصورة قاسية ووحشية ومع ذلك فان هذه القسوة التي لوحظت في النظام القضائيالميروفنجي لم تلبث حدّتها أن خفت وتدريجياً من جراء أثر الكنيسة المسيحية وذلك بعد اعتناق القبائل الميروفنجية النصرانية •

ومن بين تلك الملاحظات الخاصة بنظام القضاء الميروفنجي وهي من بين السمات الاصلية للميروفنجيين التي أدت الى استمرار الفوضى هي افتقـار البلاد بجميع أجزائها الى قانون عام يطبّق على جميع الرعايا إنما كان القانون شخصياً ، إن صحّ التعبير ، بمعنى خضوع الفرد من رعايا الميروفنجيين الى قوانين القومية التي ينتسب اليها فان كان من العناصر الغالية الرومانية فانه يخضع الى القانون الروماني ، وان كان من الفرنجة البحريين فانه يخضـع الى قانونهم • ويمكن أن نقول الشيء عينه بالنسبة الى الفرنجة البريـين وبالنسبة الى البورغونديين والى الآلامان والى الفيزيغوط [1] •

---

(١) راجع من أجل ذلك مجموعة اسحاق وماليه المذكورة ، الجزء المخصص للعصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٧٤ .

ويتضمن القانون المدوّن عند الفرنجة البحريين وهو **القانون السالي** تحديداً للمبالغ التي يجب أن تسدّد الى المتضرّرين كتعويض لهم عن الضرر الذي لحق بهم . فهذا التحديد أو التعريفة ، كما تذكر المصادر الاجنبية ، الناصّة على القيمة التي يجب أن يُعوّض بها على المتضرّرين أو الضحايا الناصّة على القيمة التي يجب أن يُعوّض بها على المتضرّر هي التي تدعى : **الويرجيلد** Le Wergeld ، ويتغير هذا التعويض تباعاً للقوانين ومركز المتضرّرين أو الضحايا والظروف التي رافقت الجرم . وبالنسبة لحوادث القتل فان التعويض أو دية المقتول تختلف ان كان المقتول أسقفاً أو من الفرنجة البريين أو من الآلامان أو من الرومان وكانت دية العبد أقلّ بكثير من دية الاحرار فهي مثلاً جزء من ثلاثين من دية أحد الافراد الجرمان سواء أكان من الفرنجة البريين أم من الآلامان .

وهناك ملاحظة أخيرة وتتعلق بإثبات الجريمة على المتهم أو نفيها عنه هذا في حالة عدم وجود براهين وأدلة وشهادات كافية للاثبات أو للنفي فيلجأ القاضي في حالة عدم وجود أدلّة أو شهود الى ما كانوا يدعونه **بالامتحانات الأوردالية** Les Ordalies **أو إلى المبارزة القضائية** Le duel judiciaire . وتتمّ هذه الامتحانات إما بواسطة الماء الغالي أو بواسطة النار . ففي تجربة الامتحان بواسطة الماء فان على المتّهم أن يغمس يده في الماء الغالي . أما بالنسبة الى الامتحان بواسطة النار فان على المتّهم أن يحمل حديدة مُحْمَرّة بمجرد إخراجها من النار وبسير بها عدة خطوات ، فان لم تظهر أي ندبة في يد المتّهم بعد ثلاثة أيام أو لم يظهر فيها أثر الاحتراق ، أو فيما اذا كان للندبات شكل خاص فمعنى ذلك أنه بريء . وبالنسبة للمبارزة القضائية فان الخصمين يتبارزان أو يتبارز نائبان عنهما ويُدْعَيان البطلين . ويُعتَبَر المنتصر في هذه المبارزة صادقاً وذلك لان الله لا يقبل بأن يهزم البريء . لذلك فانهم يطلقون على هذه المبارزة اسم حكم الله Le Jugement de Dieu [1] .

---

(١) مجموعة اسحاق وماليه المذكورة ، الجزء المخصص للعصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٧٤ ــ ٧٥ .

هذا بينما أدلى الأستاذ لويس هالفين وتحت عنوان « التشريع الجرماني ومبدأ شخصية القوانين » ببعض الملاحظات المتعلقة بالنظام القضائي مشيراً الى الأسباب الوجيهة التي قضت بعدم تطبيق تشريع واحد على مختلف الرعايا الذين تتكون منهم غالبية أفراد الشعب أو الشعوب الخاضعة للحكم الفرنجي أو الجرماني بصورة عامة فقال ما معناه :« أما على الصعيد الاجتماعي فان الممالك الجرمانية التي تشكلت على تخوم وثغور الامبراطورية الرومانية القديمة لم تكن وحتى مستهلّ القرن السادس قد استقرّت بعد وبصورة نهائية دائمة . وقد أدّى ذلك الى أنه لم يحدث في تلك البقاع التي استقرّ فيها الجرمان انصهار تامّ بينهم وبين عناصر سكانها الأصليين : وعلى الرغم من أن السكان الرومان في هذه الربوع أخذوا يعيشون بجانب أفراد العناصر الجرمانية الغازية فإن كلاً من هاتين المجموعتين استمر محتفظاً بكيانه الخاص. ومن قبيل المثال أن الزواج المختلط بينهما استمرّ ممنوعاً وبصورة قطعية في دولة الڤيزيغوط . لا بل فإن قوانين الفرنجة أخذت تثير التفرقة بين مختلف عناصر سكان البلاد التي خضعت لهم لتشجيعها الاصطدام بين كل من البرابرة والرومان من حيث أنها زادت من شدّة العقاب الى الضعف في كل مرة يكون فيها أحد الفرنجة ضحية مهاجمة أحد أفراد العناصر الأخرى .

« وكما استحال انصهار المجتمع الجرماني في المجتمع الروماني فإنه لم يمكن قطّ صهر نظامي الحكم السياسي أو إدارة هاتين المجموعتين . وكان هذا الصهر يقلّ بنسبة البعد عن الحدود الطبيعية لإيطاليا . وهكذا فإنه لئن استمر القانون السالي في أيام كلوڤيس (٤٨٠ ـــ ٥١١) في تطبيقه على أفراد كل من هاتين المجموعتين معاملة خاصة ، فقد حـدث نصف انصهار بين البورغونديين والعناصر الرومانية (وذلك بنتيجة قرب منطقة البورغونديين من إيطاليا وازدياد احتكاكها بها) ومع ذلك وحتى في بلاد البورغونديين نفسها لم يغد هذا الانصهار تاماً . فثمة مثلاً حظر على البورغوندي أن ينصب نفسه مدافعاً عن الروماني في الشؤون القضائية . وعلى الرغم من التساهل والسماح بالزواج المختلط بين أفراد كل من البورغونديين والرومـان فقد

بقي هذا الزواج خاضعاً الى قيود خاصة . وصفوة القول ، وأسوة بما كانت عليه الحال في باقي الدول الجرمانية ، فإن حوادث الاعتداء الشخصية التي تقع على الأفراد يفصل فيها القضاة بمقتضى تشريع خاص مخالف للقوانين المطبقة على الأفراد المنتمين الى قومية تلك الدولة الجرمانية ، هـذا بينما يُطَبّق القضاة فيما عدا تلك الحوادث قانون العنصر الحاكم الجرمـاني الغالب ...

« وتعتبر الازدواجيـة في النظـام القضائي داخـل كـل مـن دول البرابرة إحدى السمات المميّزة والأشدّ غرابة للوضع الراهن الجديد . ويمكن أن نعزوها وبشكل بسيط الى ما جرى عند استقرار الغزاة الجرمان لاول مرة على تخوم ولايات الثغور والعواصم الرومانية وحيث لم يكن أولئك البرابرة يعتبرون من وجهة نظر المواطنين الرومان سوى فرق من الجنـود الحلفاء تُشكّل جيوباً استقر فيها أفراد جاليات أجنبية في وسط شعوب الإمبراطورية الرومانية ، وأن أفراد تلـك الجاليات استمروا خاضعين الى تقاليدهم وأعرافهم القومية . وبمقابل ذلك فقد بقي سكان تلك المناطق التي استقرت فيها تلك القبائـل الجرمانية أو البربريـة خاضعين الى القـانون الروماني ...

« ثمت فإن نتيجة التطبيق العفوي لكل من التشريعين الجرماني والروماني في كل من دول البرابرة لم تكن تأخير التمازج بين عناصر السكان الوطنيين والغزاة فحسب إنما سوّدت في مجتمع البرابرة فكرة غير ملائمة لتشكيل الدول وفق المفهوم الحديث لهذه الكلمة (أي الافتقار الى التجانس والانسجام بين عناصر دولة ما) ، وأنه مهما كانت مساوىء هذه السياسة فإن عـلى أفراد كل عنصر من العناصر الموجودة في هذه الدول أن يستمرّوا في ظل خضوعهم الى القوانين التي عرفها أجدادهم . وانطلاقاً من ذلك فقد بقي الڤيزيغوط والبورغونديون الذين ضمّ كلوڤيس وأنساله مناطقهم الى دولتهم خاضعين الى القانون الڤيزيغوطي (بالنسبة الى الڤيزيغوط) أو الى القانون البورغوندي (إن كانوا بورغونديّين) . وزيادة على ذلك فقد بقي فرعـا

الفرنجة ، الساليو ّن والريپوير ، كل منهم خاضعاً الى قوانينه وذلك خاصة في بلاد الفرنجة ، وبتعبير آخر وفيما لو أردنا استعمال مصطلح معاصر انتشر استعماله وذاع حتى في أيامنا نقول بأن ذلك الطريق الذي سلكه البرابرة الجرمان قادهم الى ما ندعوه « **شخصية القوانين** La personalité des lois » وبموجبها يكون بمقدور أي فرد أن يحمل معه الى أيّة منطقة أراد الاستقرار فيها ، وأياً كان العاهل الذي سيخضع له الكيان الحقوقي الذي كان سائداً في قبيلته الأصلية »[1] .

الحياة الاجتماعية والأخلاق والعادات : أدّى احتكاك قبائل الفرنجة البحريين بالعناصر الغاليّة الرومانية ، منذ استقرار تلك القبائل في غاليا ، الى تشذيب طباع الفرنجة واقتباسهم أشياء كثيرة عن الحضارة الرومانية فتأثّروا بالاوضاع التي كانت سائدة وبصورة خاصة في شمالي غاليا . وعلى نقيض معاملة العناصر الجرمانية الغازية الاخرى لسكان البلاد التي اجتاحتها تلك المعاملة التي تتّسم بالعنف ، فان معاملة الفرنجة للسكان الاصليين في غاليا ، سواء أكانوا من الغاليّين أم من الرومان ، كانت بعيدة عن العنف إن لم نقل إنها كانت سمحة كريمة . وهكذا لم يعمد هؤلاء الغزاة الى مصادرة الاراضي وأبقوا أصحابها القدامى متمتعين بملكيتها . ولم يحل المسؤولون الفرنجة دون اختلاط أفراد قبائلهم بالسكان المحليين . وسرعان ما شدّت روابط المصاهرة الوشيجة العناصر الغاليّة الرومانية الى عناصر الفرنجة . ومن الملاحظ أن ثمة عوامل ثلاثة على الاقل ساعدت على ذلك التمازج والاختلاط إن لم نقل الانصهار التام . وهذه العوامل هي :

١ ــ الاحترام الذي كان الفرنجة يشعرون به نحو الإمبراطورية الرومانية ونظمها وحضارتها بصورة عامة : فبدلاً من تفكير الميروفنجيين وغيرهم من الفرنجة بالقضاء على الحضارة الرومانية فإنهم اقتبسوا الشيء الكثير عنها . وكنا ذكرنا من قبل أن كلوفيس سُرّ كثيراً بلقب القنصل الفخري الذي أنعم

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، الفصل ٥ ، ص ٥٧ ــ ٥٩ .

به عليه الامبراطور آنسطاس/١ وكيف أنه حمل منــذ ذاك لقب أغستوس Auguste ، أي العظيم ، وهو اللقب الذي لا يحق لسوى القناصل الرومان حمله ، كما رأيناه يرتدي الزيّ الروماني ويضع على رأسه تاج القنصلية •
كما عمد عواهل الفرنجة حتى منذ أيام كلوفيس الى نقل أشياء كثيرة عن حياة بلاط أباطرة الرومان • فأطلقوا على موظفي بلاطهم ألقاباً رومانية • وكنــا ذكرنا من قبل أن ملوك الفرنجة قلّدوا التنظيم الامبراطوري الروماني وأنهم صاروا يستعملون صيغة الجمع للدلالة على شخصهم ، وأنهم صاروا ينادَوْن بمجدكم وبرفعتكم وأنه صــار لملوك الفرنجة بلاط هو صورة مصغّرة عن بلاط أباطرة روما •

٢ ـ اعتناق الفرنجة النصرانية وفق المذهب الكاثوليكي : ونظراً لأن عناصر السكان في غاليا كانت كاثوليكية لذلك ساعدت هــذه الوحدة المذهبية بين العناصر الغازية الغالبة والعناصر المغلوبة الغالية الرومانية على الاختــلاط والتقارب •

٣ ـ لم يجعل الفرنجة المنــاصب الحكومية وقفاً على أفراد قبائلهــم ـ إنما أوسدوها ، وحتى المناصب الكنسية منها الى الجميع بمعنى أن موظفي العهد الفرنجي كانوا ينتقون من بين الغاليّين الرومان أو من بين الفرنجــة أنفسهم على السواء •

وعلاوة عن كل ذلك فان ملوك الفرنجة أخــذوا يستعملون في بلاطهم اللغة اللاتينية (وهي اللغة الرومانية الرسمية) الى جانب لغتهــم الفرنجية الاصيلة •

ومع إقرار عواهل الفرنجة لهذا الاختلاط وتشجيعهم له إلاّ أنهم كما أورد بعض المؤرخين الحديثين لم يعتبروا العناصر الغالية الرومانية مساوية لهم لذلك كانت دية المقتول إن كان من الفرنجة أكثر من دية الفرد الغالي الروماني • زد على ذلك استثناء الفرنجة من دفع الضرائب وإبقائهــا على العناصر الغالية الرومانية فحسب • وفيما عدا هذين التمييزين للفرنجة فان العناصر الغالية الرومانية أي العناصر المغلوبة التي فتحت بلادها لم تشك من أي تمييز عنصري قام به الحاكمون على حسابها •

لاحظ الأستاذ لوس پيتري مظاهر الاختلاط والتمازج الحضاري بين شعب الفرنجة والغاليّين الرومان سكان غاليـا واستعانة ملوك الميروڤنجيين بكبار الموظفين من العهد الروماني وكيف أن هؤلاء الملوك لم يفكروا بالمرّة في القضاء على الحضارة الرومانية فقال بصدد كل ذلك مانصه : « غدا تاريخ الفرنجة منذ منتصف القرن السادس هو تاريخ رعايا الميروڤنجيين في غاليـا الذين سواء أشعروا بضرورة الاختلاط بعناصر شعب الفرنجة الذي احتلّ بلادهم أم لم يشعروا بذلك فانهم ربطوا مصيرهم بمصير هذا الشعب وغدوا متساندين معه . وفعلاً لم يكن الفرنجة وفيري العدد الى درجة تسمح لهم باتاحة الديمومة والاستمرار الى حكمهم وبواسطة القوة فقط ؛ فلعدم شعور كلوڤيس وخلفائه بالرغبة في الحفاظ على التراث الجرماني أسوة بمـا كان يشعر به جينسيريك الملك الڤاندالي ولا بالحرص على تبنّي القوانين الرومانية كفعل العاهل الاوستروغوطي تيودوريك فإنهم اكتفوا بأن تتمّ عملية الانصهار بين شعبهم والعناصر الغالية الرومانية بصورة طبيعية . ولم يتعرّض كبـار المـلاّك الأرستقراطيين وهم أفراد طبقة أعضـاء مجلس الشيوخ الروماني (وهي الطبقة التي كانت تدعى بطبقة أعضاء السناتو La classe sénatoriale) الى أي افتئات على حقوقهم كما لم تتعرّض ممتلكاتهم الى أيّ تَعَدٍّ عليها من قبل أفراد الطبقة الحاكمة الجديدة . فهذا ما حدا بهم الى أن يقدموا الى الملكية الميروڤنجية ، التي خضعت بلادهم (غاليا) الى سلطتها ، كبار موظفيها كالكونتات والاساقفة . لا بل فحتى في الاوساط الشعبية (الغالية الرومانية) فان انخراط أفراد هذه الطبقة في سلك القوات الميروڤنجية أسهم وبقوة في تقريب كتلتي السكان في غاليا في ظل الحكام الجدد (وهما كتلة الميروڤنجيين الفرنجة أي الحكام الجدد وكتلة السكان الغاليين الرومان التـي خضعت للميروڤنجيين) : وفي الواقع فان البرنامج التوسّعي الـذي انبرى ملوك الفرنجة في غاليا إلى تحقيقه اضطرهم الى قبول مقاتلة الغاليّين الرومان في صفوف قواتهم . ثم أدت حوادث المصاهرة بين الميروڤنجيين من جهة والغاليين الرومان من جهة أخرى وحصول أفراد هـذه الطبقة الثانية على مساواتهم

قضائياً بالميروفنجيين الى إنجاز عملية الانصهار »[1] .

ازدياد أهمية وقوة حكام المقاطعات بنتيجة ضعف السلطة المركزية في عهد الميروفنجيين الاواخر مما اعتبر بداية لنظام الاقطاع : أدى انهيار قوة الميروفنجيين الاواخر الى زيادة قوة وسلطات حكام المقاطعات من الحكام الاقليميين الذين كانوا كما مر بنا ينوبون عن هؤلاء الملوك في حكم مقاطعاتهم . لا بل فثمة نفر من كبار المتنفّذين في المقاطعات اغتصبوا السلطة من نواب الملوك (الكونتات) اغتصاباً . ونظراً الى أنه لم يكن بوسع أولئك الملوك الاواخر ، لا سيما ولم تكن لديهم القوة الكافية ، الحدّ من ازدياد قوة هؤلاء المغتصبين فانهم سكتوا على مضض ورضخوا للأمر الواقع . وهكذا لوحظ أن جميع السلطات الفعلية انتقلت في عهد عواهل الميروفنجيين الاواخر الى أيدي كبار ملاّك الأراضي في الاقاليم ، فصاروا يمارسون مهامّ القضاء وتحصيل الضرائب وجمع المقاتلة من مقاطعاتهم لتعبئتهم في الجيش . كما غدا نفر من كبار رجال الإكليروس في المقاطعات في عداد أولئك المتنفذين المحليين الذين وقفت الملكية الميروفنجية أمام ازدياد نفوذهم مكتوفة الأيدي لا حول لها ولا قوة ، وذلك لأن الكنائس والأديرة في تلك الاقاليم كثيراً ما حصلت على إعفاء الاملاك المحبوسة أو الموقوفة عليها من أية ضريبة تجبى منها لحساب خزانة الميروفنجيين المركزية أو تجنيد أي مقاتل من العاملين في زراعة تلك الاراضي لحساب جيش الميروفنجيين . علماً أن قسماً كبيراً من الاراضي آل في عهد الميروفنجيين الاواخر الى الكنائس والأديرة ، وأمام ازدياد قوة ونفوذ كبار الملاّك المحليّين ضعفت قوة الكونتات وهم نواب الملك الميروفنجي في حكم المقاطعات . ولم يعد هؤلاء يذهبون الى مقاطعاتهم لتحصيل ضرائبها من المكلفين ، كما لم يعد يتاح لهم ممارسة شؤون القضاء فيها أو جمع الجنود المفروضين عليها فصارت هذه المهام جميعاً تمارس من قبل المتنفّذ المحلي مع ملاحظة أن هذا المتنفذ المحلي لم يرتبط بعلاقة تبعية أو ولاء بالكونت حاكم المقاطعة إنما بالملك الميروفنجي مباشرة . وحتى بالنسبة الى تبعية هذا

(١) مجموعة موريس مولو M. Meuleau وهي العالم وتاريخه المذكورة ، المجلد/٣ (تأليف لوس پيتري) ، القسم/١ ، ص ٦٦ .

المتنفذ المحلي الى الملك فانها كانت غامضة غير مُحَدَّدة ولا واضحة المعالم .

وأدت سيطرة أولئك المُلاّك الكبار على الاقاليم في نهاية عهد الميروفنجيين الى غلبة الطابع الزراعي على المجتمع الفرنجي منذ نهاية القرن الثامن ، وهذا ما لاحظه الاستاذ هنري پيرين H. Pirenne حيث ذكر ما معناه : « لقد تحولت أوروبة الغربية منذ نهاية القرن الثامن الى منطقة زراعية صرفة . وغدت الارض المصدر الوحيد لإعالة الانسان وصارت المقوّم الوحيد للثروة وصارت جميع الطبقات الاجتماعية من الإمبراطور ، الذي ليس له من موارد إلاّ تلك التي يحصل عليها من أراضيه ، الى أقلّ قِنٍّ ، فكل أفراد المجتمع صاروا يعيشون بصورة مباشرة أو غير مباشرة على محاصيل الارض سواء بإنتاجها بواسطة جهدهم أم بالاستيلاء عليها (كحصّتهم من المحصول) واستهلاكها . ولم يعد للثروة المنقولة أي جدوى في الحياة الاقتصادية . وأمسى جميع كيان المجتمع قائماً على ملكية الأراضي أو صيرورة الأراضي الى حوزة شخص ما لاستثمارها والانتفاع بها . وأدى ذلك الى استحالة تمكّن الدول من الاحتفاظ بجيش دائم أو أن يكون لها نظام إداري غير قائم على أسس زراعية . ولم يعد ممكناً جمع الجنود إلاّ من بين المتصرّفين بالإقطاعات ولا انتقاء موظفي الدولة إلا من بين فئة كبار ملاّك الأراضي . وغدا مستحيلاً في ظلّ هذه الظروف الاحتفاظ بالسيادة لرئيس الدولة . ولئن بقيت هذه السيادة من حيث المبدأ ، فإنها اختفت في الواقع . وليس النظام الإقطاعي سوى تجزئة السلطة العامة وتحوّلها الى أيدي عمال الملك أو نوابه الذين صاروا بنتيجة تملّك كل منهم لقسم من الارض ، مستقلين وأخذوا يعتبرون الصلاحيات التي منحت لهم كجزء من إرثهم أو تراثهم . وصفوة القول أنه ليس ظهور النظام الاقطاعي في أوروبة الغربية في القرن التاسع سوى النتيجة السياسية لعودة المجتمع الى إطار الحضارة الزراعية البحتة »(١) .

---

(١) هنري پيرين : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعصور الوسطى : Histoire Economique et Social du Moyen - Age وهو كتاب أصدرته مؤسسة المطبوعات الجامعية في فرنسا في باريز سنة ١٩٦٣ المدخل Introduction ، ص٦ .

وقد قلّد ملوك الميروفنجيين في بلاطهم بلاط الأباطرة الرومان بإطلاقهم على موظفي ذلك البلاط نفس الألقاب التي كان الأباطرة الرومان يطلقونها على موظفي بلاطهم .

ومهما دافع بعض المؤرخين عن أخلاق الميروفنجيين ولا سيما الأواخر منهم فإن ثمة شبه إجماع على تردي أخلاقهم بعد انغماسهم في الترف . كما كان الملوك وحتى الملكات قساة القلوب لم تعرف الرحمة سبيلاً الى قلوبهم . وعلى الرغم من أن مؤسس هذه الدولة وباني مجدها ، وهو كلوفيس ، شخصية تاريخية مرموقة وأنه رئيس دولة بكل معنى الكلمة ، وأنه كان يكظم غيظه لكنه إن وجد الى الانتقام سبيلا كان انتقامه بصورة وحشية لا إنسانية . ونذكر على سبيل المثال أنه أغرى ابن ملك الفرنجة البريّين (الريپوير) بقتل أبيه ووعده بتأييده ودعمه وحمايته فلما أرسل ذلك الابن العاقّ ، واسمه شلوديريك ، من قبله من قتل أباه بعث كلوفيس رسلاً من قبله اغتالوا سراً هذا الابن . ثم قدم كلوفيس الى مدينة كولونيا عاصمة الفرنجة البريين وتنصّل أمام الجميع من أن يكون له ضلع في قتل شلوديريك ثم طلب من تلك القبيلة الخضوع الى سلطانه فرضخت[1] .

وما أكثر الأمثلة على وحشية عواهل الميروفنجيين نكتفي بذكر ما أورده غريغوار أسقف تور عن الملك شيلبيريك زوج فريدغوند وهو معاصره . ونقل المؤرخون ما ذكره أسقف تور عن هذا الملك وقد جاء فيه ما نصه : « لقد كان في شيلبيريك مزيج غريب من الوحشية والحضارة . فكبربري أصيل كان مفرط الجشع ، وبغية زيادة ثروته الخاصة فإنه لم يكن يتورّع عن ارتكاب أحطّ الجرائم . وكان يحسد الأساقفة لأنه لاحظ مقدار ثروة الكنائس الكاثوليكية ، وقد قال حول ذلك : « وهكذا فقد بقيت مواردنا المالية فقيرة هزيلة بينما انتقلت جميع ثرواتنا الى الكنائس ، والأساقفة وحدهم هم الذين يلون الحكم . لقد انهارت قوتنا وآلت الى أساقفة المدن » .

---

(١) ورد في مجموعة إسحاق وماليه المذكورة ، الجزء المخصص للعصور الوسطى ، الفصل ٥ ، ص ٦٧ .

وبالنظر الى كونه ملكاً مستبداً وحشياً فإنه كان يأمر بسمل عيون من يجرؤون على مقاومته • بيد أن هذا المتوحش الغليظ النّهم الأكول كان مع ذلك ذكياً ومزوّداً بقسط من الثقافة »[1]•

وكنا أشرنا من قبل الى الميتة الوحشية التي أذاقها كلوتير الثاني ابن فريديغوند لبرونيهو حيث ذكرنا أنه بعد أن عذّبها وبوحشية وقسوة ثلاثة أيام طاف بها خلالها المدينة وهي على جمل لتتلقى سباب وشتائم الأفراد ثم ربطها من شعرها ويد واحدة وقدم واحدة الى ذنب حصان متوحش وأطلق الحصان فتمزّق جسدها إرباً إرباً •

ولم تكن الملكات الميروفنجيات أكثر إنسانية أو أقل وحشية من بعولتهن • ومع أن كلوتيد زوج كلوفيس كانت كاثوليكية ورعة فإنها كانت متعطشة غرثى الى الانتقام • ثمت فإن بوبيلا زوج غونتران أخذت عهداً على زوجها عندما كانت تحتضر وتعالج سكرات الموت أن يقتل الطبيبين اللذين عالجاها • ولعل أوضح مثلين على وحشية الملكات الميروفنجيات برونيهو وفريديغوند اللتان أوردنا من قبل تتفاً من أخبارهما • ولم تكن الملكات ذات الأصل الروماني أقل وحشية من الجرمانيات حيث ذكر المؤرخون أن الملكة **دوتري** البروفانسية الأصل أذاقت ابنتها ميتة وحشية خشية منها أن تحظا بنتها بعطف وحبّ الملك تيبير Thibert (ذكر المؤرخون أنها فتحت أمام ابنتها صندوق مجوهراتها قائلة لها خذي ما يروقك ويحلو لك فلما انحنت البنت لتأخذ عقداً أعجبها أهوت الأم بغطاء الصندوق الثقيل على رأس ابنتها فقطعته) • ومع أن الملكتين **رادوغوند** الثورنجية الأصل **وبالثيلد** Balthilde الإنكليزية الأصل اعتبرتا قديسيتين بالنسبة الى الباقيات فإن الثانية اتهمت بالتحريض على قتل أسقف مدينة ليون[2] •

وبصورة عامة كان المستوى الخلقي لملوك الميروفنجيين ولا سيما الأواخر منهاراً الى الحضيض • وكانت الصفة الغالبة على جميع ملوك الميروفنجيين

---

(١) المصدر عينه ، الفصل ٥ ، ص ٦٩ •

(٢) راجع من اجل ذلك مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ١ (تأليف : لوط وبفيستير وغانشوف) ، الفصل ١٤ ، ص ٣٨٤ ــ ٣٨٥ •

أنهم فاسقون فجرة عاهرون . وكانوا منذ بلوغهم الحلم يتمرّغون في أحضان الرذيلة والدعارة . وذلك هو سرّ ذلك الداء العضال وهو التدهور الخلقي الجذري العميق الذي تردّى فيه الميروڤنجيون . أضف الى ذلك أنه وحتى من الناحية السياسية فإن هذه الأسرة لم تنجب ملوكاً عظاماً بكل معنى الكلمة. فمن أصل واحد وثلاثين ملكاً تربّعوا على العرش الميروڤنجي لم يجد المؤرخون سو ستة منهم أهلاً لأن يوسد إليهم الحكم . كما وأننا لا نرى ولا واحداً من أصل هؤلاء الستة بعد سنة ٦٣٩ (أي في الفترة الثانية من تاريخ الميروڤنجيين) . علماً أن تلك المساوىء تغاير تماماً ما كان عليه المستوى الخلقي الرفيع لأباطرة بيزنطيين كثيرين وللملوك الڤيزيغوط ولبعض أمراء اللومبارديين[1] . وكما هي الحال بالنسبة الى هؤلاء الملوك والملكات فإن رؤساء البلاط والحكام الإقليميين (الدوقات) في هذه الدولة لم يكونوا أسمى منزلة من حيث أخلاقهم .

وبالنظر الى أن الحجّاب أمسوا يمارسون الحكم الفعلي في الدولة وخاصة منذ سنة ٦٣٩ فإن غالبيتهم كانوا قساة القلوب غلاظ الأكباد لا يتورّعون عن ارتكاب أي جريمة مهما كانت منحطة دنيئة إن كان فيها دعم لنفوذهم ، لا بل شبّه غريغوار أسقف تور بعض الحجّاب في مقاطعة أوسترازيا ، الممارسين للحكم الفعلي عندما كان الملك شيلدوبرت/٢ قاصراً ، بأنهم حيوانات ضارية مفترسة[2] .

وذكر هذا المؤرخ نفسه في معرض حديثه عن أحد دوقات هذه الدولة : « انه على الرغم من مزاياه فانه لا بد أن يتآمر للاستئثار بثروات الآخرين وانه كان دائماً ينكث بوعوده » . كما لوحظ أن جميع الكونتات (نواب الملك في حكم الأقاليم) الذين تحدث عنهم هذا المؤرخ كانوا غير أكفاء لملء مناصبهم وكانوا قساة وحشيين ولصوصاً مختلسين .

---

(١) مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ١ ، الفصل ١٤ ، ص ٣٨٤ .

(٢) المصدر عينه عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ١ ، الفصل ١٤ ، ص ٣٨٥ .

وكانت الأرستقراطية الميروفنجية تتصف بشجاعة فائقة وأنها مقدامة ومع ذلك فإنها كانت مشهورة بين جميع قبائل البرابرة أنها مخاتلة غادرة . وقد انكشف خداعها سواء في ادارة شؤون الدولة الداخلية أم في علائقها الخارجية . وقد انتقلت تلك الصفات والنقائص الى الارستقراطية الغاليّة الرومانية المحلية . ولئن كان بعض أفراد سراة القوم في القرن الخامس شرفاء في معاملتهم ومتعلّقين بالآداب والفنون فإن هؤلاء قضوا نحبهم ولم يبق منذ القرن السادس سوى المخادعين والغشّاشين .

وقد تشكلت في العهد الميروفنجي طبقة من سراة (نبلاء أو أرستقراطية) الفرنجة ثم من سراة الفرنسيين اتصف أفرادها بحبهم للقتال وبعدم اكتراثهم بالشؤون الفكرية . وكانوا بصورة خاصة أنانيّين وفوضويّين وقد سبّبوا تعاسة فرنسا واستمرت حالهم كذلك حتى استئثار لويس الرابع عشر بالسلطة المطلقة في عهده (حكم بين سنتي ١٦٤٣ ــ ١٧١٥) .

لكن هذه النقائص التي أوردناها بالنسبة الى بلاط الميروفنجيين و. لبين الرومانيين يجب ألا تحجب عن ناظرينا مزايا بعض الشخصيات الفذّة التي عاشت في ذلك البلاط ، وأن عدوى تلك الرذائل والمساوىء لم تسرِ الى تلك الشخصيات الورعة . ولاحظ الآساتذة لوط وبفيستير وغانشوف : « أن الكثيرين منأتقياء أو قدّيسي القرن السابع بصورة خاصة كانوا يعيشون من قبل في البلاط الملكي حيث مارسوا فيه أسمى المناصب . ومن بين هؤلاء آرنول وشلودوف Chlouduff وإيلوا Eloi وديديه Didier وبونيتوس Bonitus وفيليبرت Filibert ، هذا إن اكتفينا بهذه الأسماء ولم نورد سواها . لكن هؤلاء الأفراد الأتقياء فكروا أنه لا سبيل الى راحة ضمائرهم إلا بالابتعاد عن البلاط والقيام بأعباء منصب أبرشية (أي أسقفية) أو بالانسحاب الى أحد الأديرة مما ينهض دليلاً بديهياً على أنهمكانوا يعتبرون العالم العلماني آنذاك منهار الأخلاق فاسدها وأنه لا يرجى ولا يؤمّل إنقاذه أو شفاؤه [٣] .

---

(٣) المصدر عينه عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ١ ، الفصل ١٤ ، ص ٣٨٦ .

وليست معلوماتنا عن أخلاق سواد الشعب في ظل الحكم الميروفنجي بذات غناء فيما عدا تعلّق أفراد تلك الطبقات الدنيا من الشعب بالشعوذة والسحر مما كان رائجاً في فترة وثنيتها أي قبل اعتناق أفرادها النصرانية ، وأن أفراد تلك الطبقات كانوا كلفين وبصورة ساذجة بالمعجزات والخوارق. وبقيت حال تلك الطبقات كما كانت في ظل الحكم الروماني فكان أفرادها يشاهدون في أيام الأعياد نشاوى من شرب الخمر وهم يرقصون ويغنّون وتلك حالهم في جميع العهود والحقب .

الأسس التي قامت عليها القومية الفرنسية : ومع ما كان للعهد الميروفنجي من نقائص فقد بدأت فيه بذور القومية الفرنسية بالتفتّح كما بدأت خريطة فرنسا تتوضّح ولكنها لم تكن ثابتة راسخة هذا فضلاً عن أن حدودها لم تتوضّح معالمها بعد ولم تغد ثابتة .

وعلى الرغم من همجية الفرنجة المجتاحين لغاليا ومن أنه لم يكن ثمة قانون عام يخضع له جميع السكان إنما كل فرد يحاكم بموجب قوانين شعبه (وهذا ما كنا دعوناه بشخصية القوانين من حيث أن الميروفنجي يحاكم بموجب القانون السالي والغالي الروماني بموجب القوانين الرومانية وهكذا دواليك) فقد حدث ومنذ فترة مبكرة تقارب بين العناصر الفاتحة المحتلة والعناصر الغالية الرومانية المغلوبة ، هذا على الأقل بالنسبة للاجزاء الشمالية من غاليا لاسيما وكان الاتصال بين هذه الأرجاء والإمبراطورية الرومانية قد انقطع منذ منتصف القرن الخامس . وكان آخر حاكم روماني لهذه المنطقة هو سياغريوس وأبوه نفسه إيجيديوس قد حكماها كأميرين مستقلين . ومنذ أن غدت القسطنطينية العاصمة الوحيدة للامبراطورية الرومانية كان لا مفرّ من انفصال شمالي غاليا عن تلك الإمبراطورية . وبعد اعتناق كلوفيس المذهب الكاثوليكي فإن الأرستقراطية العلمانية ورجال الإكليروس وسواد الشعب في تلك البقاع انضموا اليه بصورة نهائية[1] .

---

(١) مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٨٨ .

وساعدت عوامل عديدة على زيادة التقرّب والانصهار بين العناصر الغاليّة الرومانية والفرنجة ، ونخصّ بالذكر منها[1] :

١ ـ **وحدة المذهب** : حيث كان هؤلاء وأولئك كاثوليكاً •

٢ ـ **لم يصادر الفرنجة المحتلون أراضي الغاليين الرومان** ، وذلك لأن الفرنجة الساليّين والفرنجة البريّين (الريبوير) كانوا قد استولوا منذ القرن الخامس (قبل اجتياحهم غاليا) على قسم كبير من المقاطعات التي كانت تابعة للامبراطورية الرومانية فلما احتلوا غاليا لم يلجؤوا الى مصادرة أراضي الأهلين مما كان سيؤدّي حتماً الى إذكاء حقد هؤلاء ضد محتلّي بلادهم •

٣ ـ **عدم تمييز الميروفنجيين الفرنجة عن سكان غاليا** : فمنذ أيام كلوفيس نفسه لم يـُمَيَّز الفرنجة عن سكان غاليا فكان الجميع متساوين أمام القوانين (على الرغم من مبدإ شخصية القوانين الذي درسناه أعلاه) • لذلك لم يـَكـنْ أفراد الشعب الغالي الروماني أي حقد أو كراهية للفرنجة •

٤ ـ **ازدياد روابط الزواج بين الفرنجة والغاليين الرومان** : فزادذلك الزواج بين عنصري الفرنجة والغاليين الرومان من تقارب وانصهار العنصرين •

أسباب التقارب بين الشعبين الفرنجي والغالي[2] : لاحظ هذان الشعبان إمكانية الوصول الى تحقيق فوائد متبادلة في المجالات السياسية والحقوقية والفكرية والبديعية واللغوية والعرقية من تقاربهما أو من اختلاطهما • وكانا يشعران أن هذا التقارب هو ضرورة أملتها ظروفهما أو الواقع الجديد الذي يعيشانه • وقد تمّ هذا التقارب بادىء الأمر في البلاط حيث كان التردّد عليه ضرورياً لكل من يريد الحصول على منصب من مناصب الدولة او لكل من يريد الإثراء • وكان الشباب المنتمون الى قوميات مختلفة يعيشون في ذلك البلاط وطيلة عدد من السنين في ظل الوئام والصفاء والتفاهم •

---

(١) راجع من أجل تلك العوامل المصدر عينه ، المجلد/١ ، الفصل/ ١٤ ، ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩ •

(٢) راجع من أجل تلك الاسباب المصدرعينه : المجلد/١، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩٢ •

أضف الى ذلك أنه لم يكن للبلاط لغة واحدة إنما كان ثمة لغتان رسميتان للتفاهم بين مرتاديه وهما لغة الفرنجة القديمة ، أي أصل اللغة الفلامنكية الحديثة ، واللغة الرومانية (اللاتينية) . هذا فضلا عن تعلّق بعض أمراء الفرنجة باللغة اللاتينية الكلاسيكية القديمة (فبعضهم كان يقرض الشعر بها كشيلبيريك زوج فريدغوند ، وقد قرر زيادة أربعة أحرف جديدة على الأبجدية اللاتينية وأوعز الى جميع المدن في مملكته بتعليم تلك الحروف الى الأطفال وأن تمحى الكتب المخطوطة القديمة لتعاد كتابتها مجدداً) . كما كان الرجال الأحرار من الشعبين يعيشان جنباً إلى جنب في الجيش . وكانت مملكة الفرنجة مقسمة الى أربع مناطق عسكرية ، ولا ريب في أن جمهرة المقاتلة في ثلاث منها كانت من الغاليين الرومان . وحتى في المنطقة الشرقية ، أوسترازيا كانت نسبة الغاليين الرومان بين قوات هذه المنطقة مرتفعة .

ومع مرور الزمن طغى النفوذ الفرنجي أي الجرماني على الروماني لأن الملك الميروفنجي لم يدّخر وسعاً في ترجيح كفته وتمتّت السيادة لقانون الفرنجة (وهو القانون السالي على حساب القانون الروماني) وحتى في منطقة باريز نفسها .

وباستثناء رجال الإكليروس من الفرنجة والذين تأثّروا بالآداب اللاتينية فإنه لم يكن لتلك الآداب ولا للفن الروماني القديم سوى أثر سطحي في المناطق المأهولة بعناصر فرنجية فحسب في الدولة الميروفنجية .

وقد اقتبست كل من اللغتين الفرنجية والرومانية الكثير من المفردات من أختها وإن تكن نسبة اقتباسات الثانية عن الفرنجية أي عن الجرمانية هي أعلى بكثير ولا سيما فيما يتعلق بالتعابير العسكرية والرتب القيادية والأسلحة وبالتعابير القانونية وبالتعابير المتعلقة بالسكن وبالبناء وبالأثاث وبالغذاء وبالتسلية . كما نقلت عنها أسماء بعض النباتات والأشجار والثمار وأسماء الجهات الاصلية والألوان وبعض تعابير علم النفس وبعض الصفات والأفعال.

لكن ذلك لم يمنع أن الفرنجة الجرمان كانوا وحتى من قبل احتلال الميروفنجيين لغاليا قد اقتبسوا أشياء كثيرة عن اللغة اللاتينية ولا سيما في

نواحي الإدارة والتجارة والزراعة والنباتات والخضار . وعلاوة عن جميع ما ذكر فقد طغت بعض طباع الفرنجة على هذا المجتمع المختلط حيث انتشر حب الثأر والقسوة والتآمر بين العناصر الغالية الرومانية . ولم يعد ممكناً منذ عهد أولاد كلوفيس التمييز بين عناصر الفرنجة والعناصر الغالية الرومانية. ومن العدل ألا تلصق جميع النقائص والمساوىء التي تحدثنا عنها آنفاً بعناصر الفرنجة الجرمان خاصة وأن نواب الملك الفرنجي وهم الكونتات حكام الأقاليم الذين حدثنا غريغوار أسقف تور عن تدهور مستواهم الخلقي كانوا في غالبيتهم العظمى من الغاليين الرومان وأن أفراد جيش الفرنجة الذين كانوا يعملون سلباً ونهباً ويقومون بمجازر وحشية في مختلف أقاليم غاليا كان سوادهم الأعظم من السكان المحليين أي من الغاليين الرومان(١) .

وقد بدا انصهار الغاليين الرومان في الفرنجة الجرمان ومنذ نهاية القرن السادس تاماً الى درجة أن أسماءهم غدت جرمانية وتمّ اختفاء أسماء الأعلام الرومانية تماماً في القرن السابع . ثمت ففيما عدا أسماء الأعلام المشتقة من الألقاب أو الأسماء المشتقة من الأمكنة فإن جميع أسماء الاعلام ستغدو بعد هذه الفترة جرمانية . ولم تلبث آخر عقبة وقفت في وجه الانصهار أن زالت وهذه العقبة هي شخصية القوانين حيث سيكون ثمة قانون واحد مرعيّ الإجراء بالنسبة الى جميع عناصر السكان (٢) .

وقد بدأ الاختلاط في الميدان العرقي أو بالأحرى في مجال القوانين يكون تاماً في القرن السابع لدرجة أن كلمة فرنجي عُرّيت من مدلولها العرقي لتدلّ على كل فرد حُرٍّ من رعايا الملك الميروفنجي أيّاً كان أصله . وظل حفدة الرومان وطيلة قرون عديدة يعتبرون أنفسهم فرنجة ولم يعمد الى التمييز بين العنصرين إلا منذ عهد لويس الرابع عشر (١٦٤٣ ــ ١٧١٥) .

وعلى الرغم من أن الانصهار قد تمّ في معظم مناطق غاليا فإن بعض

---

(١) مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ٣٩٠ ــ ٣٩١ .

(٢) المصدر عينه عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٩١ ــ ٣٩٢ .

المناطق قاومته • فقد طمست العناصر الجرمانية في مناطق حوض الراين جميع معالم الماضي الروماني • أما بالنسبة الى مقاطعة آكيتانيا التي بقيت موزعة وطيلة فترة طويلة بين مختلف دول الفرنجة الجرمانية فانها أقامت لنفسها ومنذ نهاية القرن/٧ إمارة متمتعة باستقلال ذاتي • وقد ساد فيها العنصر الروماني فيما عدا المنطقة التي استقرّ فيها الغاسكونيون وهي الواقعة بين نهر الغارون وجبال البرانس[١] •

الرقعة التي قامت فيها فرنسا في العصور الوسطى : إنها المنطقة التي تمّ فيها الانصهار بصورة كلّية وهي تمتد ما بين نهري الموز واللوار وتضم كذلك شمالي مقاطعة بورغونديا • إنها وبصورة تقريبية حدود مملكة كلوڤيس قبل سنة ٥٠٧ وهي على العموم مقاطعة نوستريا ومقاطعة فرنسا الرومانية (حيث كانت دولة سياغريوس) • ومنذ أن بدأ الاحتكاك والاصطدام بين غربي وشرقي مملكة الفرنجة من مطلع القرن السابع فإن اسم **فرنسي** احتفظ به للدلالة على سكان مقاطعة نوستريا • ولم يعد بإمكان ملك ميروفنجي ما أن يدعي أنه ملك فرنجي إلا إذا كان قد انتخب وقدّس ودفن في كومبيه‌ني Compiègne وفي نوايّون وفي سانت دنيس[٢] •

ظهور فرنسا : فهذه الظاهرة السياسية والنفسانية ، ألا وهي ظهور أو ولادة قومية ما لم تكن وقفاً على فرنسا وحدها • ولئن لم تغد كل من إنكلترا وألمانيا مؤهلتين لقيام حياة قومية في رحابهما قبل نهاية القرن التاسع وبداية العاشر فإن اسبانيا وايطاليا مرّتا في زمن ولادة القومية في ربوعهما حوالي نفس الحقبة التي ظهرت فيها القومية في غاليا • لكن الفتح الإسلامي لإسبانيا والعداء الذي كانت البابوية تكنّه للومبارديين في ايطاليا قضيا على غرسة القومية في هذين البلدين آنذاك • بينما نمت هذه الغرسة في فرنسا منذ وقت مبكّر ولو أن نموّها كان بطيئاً ولم يشتدّ ساعدها إلا في

(١) المصدر عينه عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٩٢ — ٣٩٣ •

(٢) مجموعة غلوتز عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٩٣ •

فترة متأخرة • ولا ريب في أنه لو لم توضع جذور القومية الفرنسية في أرض غاليا منذ العهد الميروفنجي لكانت هذه الغرسة التي لم يكن قد صلب عودها بعد أو ذلك البناء الذي لم ترسخ أسسه قد انهار عند بعث الإمبراطورية الرومانية القديمة متمثلة في الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة أو لكانت النعرة المحلية الإقليمية وهي سمة النظام الإقطاعي قد قضت عليها فيما بعد [١] •

النظام المالي عند الميروفنجيين : أشرنا من قبل الى أن العاهل الميروفنجي أناط بنائبه حاكم المقاطعة مهمة جمع ضرائبها • وأن هذا النائب هو الكونت • إن الأسس العامة التي قام عليها النظام المالي الميروفنجي هي رومانية وهذا مؤيد لادعاء الأستاذ فوستيل دوكولانج Fustel de Coulanges الذي ذكر أن أكثر من ثلاثة أرباع النظم المطبقة في عهد الميروفنجيين كانت رومانية الأصل أو بالأحرى تتمة للنظم التي طبقتها الإمبراطورية الرومانية في غاليا •

وفي الواقع احتفظت دولة الفرنجة بكل نظم العهد الروماني التي أمكنها ملاءمتها وتكييفها مع ظروفها الجديدة وبصورة خاصة النظام المالي الروماني الذي لم يكن للفرنجة نظيره • وقد بقيت في ظل عواهل الميروفنجيين الأوائل دوائر رسم المرور (أو المكس) ودوائر رسم الدخولية ودوائر الرسوم الجمركية تعمل كعادتها • كما لم يوقف الميروفنجيون عادة استيفاء الرسوم القديمة عن الصفقات المباعة أو المعقودة في الأسواق العامة • كما أبقوا السخرات الرومانية القديمة والرسوم التي تجبى من المكلفين عيناً أو نوعاً والتي تنفق حصيلتها على صيانة الطرق والجسور ، كما استوفيت رسوم أخرى من أجل مصلحة البريد ومن أجل الإنفاق على الجيش ومن أجل نفقات قِرى الملك (ضيافته) وأفراد حاشيته وموظفيه • واستمرت الضريبة العقارية تستوفى من المكلفين ، هذا على الأقل في أول العهد الميروفنجي عندما كان ممكناً تسجيل أسماء المكلفين بهذه الضريبة في سجلات الدولة •

---

(١) المصدر عينه عن العصور الوسطى المذكورة ، المجلد/١ ، ج/١ ، الفصل/١٤ ، ص ٣٩٣ •

فلما أُهملت عملية التسجيل هذه ، وبالتالي عملية توزيع الضريبة على المكلفين بها ، لم تعد هذه الضريبة تستوفى من هؤلاء . وقد استمرت موارد الأراضي الأميرية (أملاك الدولة او الدومين Terres domaniales ou domaines) وموارد المناجم مخصصة الى العاهل .

وهكذا يمكننا القول أن ملوك الميروفنجيين لم يحدثوا أي تغيير في النظم المالية التي كانت مرعية الإجراء في العهد الروماني فأبقوا الضرائب المستوفاة على الأراضي والضريبة الشخصية (أو ضريبة الرؤوس) والرسوم المستوفاة من الأسواق والضرائب غير المباشرة .

ويَسْتَدِرُّ الملك إيراد ضياعه الملكية بالإضافة الى ما كان يستلمه من هبات وهدايا أفراد رعيته ، والخدمات الخاصة والمحلية (السخرات) التي كان أفراد الرعية مضطرين الى القيام بها لحسابه .

وروى المؤرخون أن ملوك الميروفنجيين لم يستطيعوا تسيير النظام المالي كما كان في العهد الروماني وهذا ما أورده الاستاذ فرديناند لوط حول هذه القضية : « لقد استند النظام المالي الروماني وقبل كل شيء الى الضريبة العقارية (أي الضريبة على الاراضي) ، ثم على الضرائب المستوفاة من مختلف الطبقات الاجتماعية . ولا يرقى الشكّ الى ان ملوك الفرنجة كانوا راغبين في تطبيق هذا النظام لمصلحتهم الخاصة . لكن نجاحهم في هذا المضمار لم يكن تاما . وكانت الضرائب على الاراضي أو الضريبة العقارية تتطلب اجراء عمليات توزيع وتسجيلات متكررة وعديدة والاستعانة بالعديد من الموظفين . فلم يتمكن الميروفنجيون من الاحتفاظ بهذا النظام . والقول الفصل أنه لم يكن لديهم على ما يبدو موظفون ماليون أكفاء . ومن الممكن أن النظام المالي كما كان في العهد الروماني قد اختلّ منذ الحوادث المأساوية التي حدثت في القرن الماضي (ويريد به المؤلف القرن الرابع وقسما من القرن الخامس أي فترة غارات البرابرة على الامبراطورية الرومانيــة) عنــدما استولى الميروفنجيون على الحكم . أما بالنسبة للضريبة الشخصية والتي كانت تجبى من الافراد باسم ضريبة رأس أو جزية فان المواطنين الفرنجة اعتبروها مزرية

بمكانتهم ولذا لم يتمكن الملوك من استيفائها من هؤلاء إلاّ بعد التغلّب على مقاومتهم الضارية »[1] .

وكانت حصيلة الضرائب تكدّس سبائك ذهبية في قصر الملك الميروفنجي ويسهر على هذه الخزانة ويشرف عليها أو يديرها موظفون خاصون ولهم رؤساء مرتبطون بخدمة الملك مباشرة .

ولم تلبث ضرائب العهد الروماني المباشرة أن اختفت تدريجيا كالجزية (أو ضريبة الرأس) والضريبة العقارية أو ضريبة الارض . وصار الكونتات والأدواق (وهم نواب الملك في حكم الاقاليم والمتنفّذون فيها) يؤدّون الى الملك ثلثي ما يجمعونه من الاهلين في أقاليمهم من ضرائب وأموال غير تاركين لأنفسهم غير ثلث حصائل المبالغ المجموعة . هذا فضلاً عن ان الهدايا التي كان على النبلاء تقديمها في كل عام الى الملك صارت إجبارية . ولنشر الى أن هذه الهدايا كانت مفروضة بدون أي استثناء على جميع أصحاب الدخل بما في ذلك الأديرة والمؤسسات الدينية . وتضم هذه الهدايا الذهب والفضة والأحجار الكريمة والخيول وسواها . وتقدم هذه الموارد الى الملك ليتاح له بواسطتها الإنفاق على بلاطه لكنه لا ينفق منها أي جزء على المرافق العامة التي كانت تُمَوَّل أو تُنْشَأ أو ينفق على صيانتها من قبل الادارات المحلية. وفضلاً عن كل ما ذكر فان المجندين من طبقة الأحرار يتجهّزون للحرب على نفقتهم الخاصة .

الحياة الاقتصادية : تعتبر الحياة الاقتصادية في الدولة الميروفنجية استمرارا للحياة الاقتصادية في العهد الاخير من الامبراطورية الرومانية بمعنى أنها كانت استمرارا لفترة تأخّر وتقهقر .

أولاً ـ التجارة : سدّد انحلال الامبراطورية الرومانية ضربة قوية الى المبادلات التجارية التي كانت تتمّ فيما بين كل من ايطاليا وإسبانيا وأفريقيا

---

(1) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا ..... ؟ المرجع المذكور ، الفصل/٣ ، ص ٤٥ .

وبلاد المشرق • ولو أن وجود اليهود والسوريين في بعض مدن هذه البلاد يدل" على ان تلك المبادلات ، هـذا بالنسبة للقرن السادس على الأقل ، لم ينضب معينها تماماً • وأدى استيلاء العرب المسلمين على كل من سورية ومصر في القرن/٧ وعلى بلاد المغرب العربي في نهاية القرن نفسه ، وعلى اسپانيا منذ بداية القرن الثامن الى تحو"ل البحر الابيض المتوسط الى بحيرة عربية اسلامية مما أضر" كثيرا بالعلاقات التجارية بين الشرق والبلاد الآنفة الذكر • لا بل فان المبادلات التجارية الداخلية بين مختلف أقاليم غاليا نفسها غدت صعبة للغاية وذلك بنتيجة تقسيم تلك الأقاليم بين مختلف الأمراء الميروڤنجيين (تنيجة قانون الوراثة الصلبية القاضي بتقسيم المـُلك أنصبة بين أولاد الملك الميروڤنجي المتوفى) ، ومن جـراء الحروب الاهلية بين أمراء تلك الأقاليم وأخيراً بالنسبة الى الفوضى العامة التي رانت على المجتمع في تلك الفترة • ولم تكن طرق المواصلات بين الأقاليم آمنة إنما يعيث فيهـا قـُطـّاع الطرق فساداً ويسلبون وينهبون المسافرين • ولم يكن التاجر يسافر على هذه الطرق إلا وهو محروس ومحمي" من قبل أفراد مسلحين •

ولم تكن ثمة مصالح حكومية لتعبيد الطرق أو لصيانتها ولصيانة الجسور والموانىء • وكان الملك يلقي هذه الأعباء على عاتق المدن وعلى كاهل الافراد من رعيته لا بل على عاتق رجـال الإكليروس أنفسهم إن اضطر الى ذلك • إنه كان يـُكد"س حصائل الضرائب في خزانته الخاصة بدون أن ينفق منها شيئاً ما على حاجات أفراد رعيته • لـذا لم يكن بوسع التجار أن يغامروا بأنفسهم بإقامة علائق مع مناطق بعيدة • ولم تنشط رؤوس الاموال في هذه الحقب ولم يكن ثمة طبقة رأسمالية • وكانت الأعمال التجارية راكدة • وعلى العموم كانت التجارة بائرة • ولعل أصدق برهان على ذلك أنه فضلاً عن أنه لم تـُشـَيـَّد في هذا العهد أيـّة مدينة جديدة إنما لم تعد المدن الرومانية القديمة مزدهرة ولم تـَنـْمُ • ولم تعد كلمة الضاحية بالنسبة الى مدينة تعني الضواحي المأهولة بالسكان إنما القسم المحيط بالمدينة والمستثمر في الزراعة وكان سكان هذه الضواحي عبارة عن الرهبان والراهبات الذين كانوا يعيشون في أديرة

شـيّدت خصّيصاً في هذه الضواحي بمنأى عن المدن المزدحمة بالسكان[١] .

ثانياً ـ الصناعة[٢] : كانت الصناعة على العموم ريفية حيث تصنع في الأرياف وفي المناطق التابعة للأراضي الاميرية (أملاك الدولة أو الدومين) الأشياء الضرورية الى ممارسة الاعمال الزراعية . وكان الصوف والكتّان يغزلان وينسجان في الريف حيث تصنع منهما الملابس الصوفية والكتّانية . وكان لكل قطعة كبيرة من الأملاك الأميرية (الدومين) مصنع يشتغل فيه القرويّات القنّات . أما صناعة الأشياء الثمينة الرفيعة الـذوق فكانت من اختصاص المدن . وكان رجال البـلاط يحبّون كثيراً قطع الحليّ الثمينة والمجوهرات . كمـا كانوا بحاجة الى الأسلحة والدروع والخوذ والمغافر أيضاً . هذا بينما كان الصناع اليدويون في المدن يعملون من أجل تأمين حاجات الكنائس ، إنهم كانوا يشتغلون في بناء وزخرفة الكنائس (وكانوا يعملون في جمع قطع الفسيفساء وكزجّاجين وكمثّالين وكمشتغلين في التطريز والوشي وغير ذلك من الصناعات) . وكانت الابنية الدينية التي شـيّدت في هذا العصر وفيرة جداً لكنها متوسطة المساحة .

ثالثاً ـ الزراعة[٣] : وكما كانت الحال في ظل الإمبراطورية الرومانيـة فقد بقيت الأرض المصدر الرئيسي للثروة . وكانت كل من غاليا وجرمانيا تعيش بصورة تكاد تكون كلية على الزراعة وحالهما هذه تشبه حال البلاد المجاورة لهما . وأسوة بما كانت عليه الامور في عهـد الإمبراطورية أيضاً فقد سيطر نظام الملكيات الكبرى . ومع أن غاليا لم تعرف هـذا النوع من الملكيات الكبرى فقد كان بحوزة كل فرد من النبلاء الغاليين الرومان مجموعة من الأراضي الأميرية (أي أراضي أملاك الـدولة Terres domanales ou domaines) .

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا... ، المرجع المذكور ، الفصل/٤ ، ص٥٤ .

(٢) المصـدر عينه : تاريخ فرنسا ... ، المـرجع المـذكور ، الفصل/٤ ، ص ٥٤ ــ ٥٥ .

(٣) المصدر عينه : تاريخ فرنسا ... ، المرجع المذكور ، الفصل/٤ ، ص٥٥ .

استمرت الزراعة في عهد الميروفنجيين المهنة التي زاولتها الغالبية العظمى من السكان ولم يُدخَل أي تطوّر على طرق استثمار الأرض انما بقيت حال هذا الاستثمار كما كانت عليه في ظل الامبراطورية الرومانية • وعلى الرغم من ذلك يجب ألا تفوتنا الاشارة الى ازدياد استعمال طواحين الماء • هذا وإن كان من الضروري ألا نغالي في تقدير أهمية هــذه الزيادة على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي • فهذه الطواحين حلّت ، ولصالح من استعملها ، محل الطواحين التي كانت تدار باليد ، مما جعــل من غير المفيد استخدام العبيد لإنجاز هذا العمل ، وساعد انتشار استعمال طواحين الماء على تقهقر تجارة الرقيق وعلى الزهد في اقتناء الأرقّاء في ذلك العصر •

رابعاً ــ النظام النقدي : كما بقي النظام النقدي ، أي السكة ، معمولاً به في العهد الميروفنجي • وفي أول الأمر اقتصر عمل دور الضرب الرومانية التي كانت السكة تضرب فيها على موالاة ضرب النقود الإمبراطورية الرومانية• ثم أخذ الضرّابون يحاكون وبصورة غير متقنة ، سواء بالنسبة الى الصور المنقوشة على السكة أم بالنسبة الى عيــارات وحجوم تلك السكة النقود الرومانية • هذا وتجب الاشارة الى أن مصائر السكة المضروبة والتــلاعب في عياراتها ينهضان دليلاً على التقهقر الاقتصادي في نهاية عهد الميروفنجيين• ولم يعد تسديد المبالغ المفروضة كضريبة عقارية (ضريبة الأراضي) يتــمّ بواسطة الذهب ، وذلك لأن سكّ النقود الذهبية توقّف منذ القرن الثالث عشر [1] •

الحياة الفنية : للحياة الفنية علاقة وثيقة بالثروة العامة في البلاد • وقد شيّد في عهد الفرنجة الكثير من الأوابد والأبنية الدينية • وكان ثمة ضرورة ملحّة لزيادة عدد هذه الابنية بنتيجة ازدياد انتشار المسيحية بين أفراد الشعب • وكانت زخارف هذه الابنية الدينية كما ذكر المعاصرون غنية جداً ، ولو ان سقوفها كانت من الخشب ومساحاتها صغيرة • ومن قبيل ذلك ان الكنائس الكبرى ، من فئة الكاتدرائيات ، والكنائس العظمى ،

---

(١) المصدر عينه : تاريخ فرنسا . . . ، المرجع المذكور ، الفصل/٤ ، ص٥٥ .

من نوع البازيليك Basiliques (لم تتجاوز أطوال أكبرها الـ ٤٥ ــ ٤٨ متراً وعرضها ١٨ متراً) . ولم يبق شيء من هذه الكنائس سوى بعض أقسام عدد منها .

أما فنّ الريازة (العمارة) المدني والعسكري فلم تبق منه أوابد أثرية ترجع الى العهد الميروفنجي . وكذلك هي الحال بالنسبة الى الرسم فلم تبق من لوحاته أية لوحة كنسية أو منزلية من هذا العهد . ومن نافلة القول الحديث عن فن النحت لأن منزلته تدنّت وانهارت الى الحضيض منذ القرنين الرابع والخامس . وعلى حين والى فن الفسيفساء في خارج غاليا تقدمه وازدهاره في عصر الميروفنجيين فان البحّاثة الأثريين لم يعثروا على لوحة فسيفساء واحدة ذات قيمة في غاليا يعود تاريخها الى عهد الميروفنجيين في هذه البلاد[1] .

ولعل الفنين الأصيلين في هذا العهد هما فن زخرفة المخطوطات بأشكال حيوانية وفنّ الصياغة وهما مستوردان من الشرق . وتعتبر إيران مهداً لفن الصياغة الذي انتقل بواسطة الغزاة الجرمان ولا سيما القوط الى أوروبة الغربية . كما اعتبرت منطقة أوكرانيا مهداً ثانياً لهذا الفن . وهكذا نقل الايرانيون وعناصر السارمات Sarmates سكان أوكرانيا هذا الفن عن أجدادهم .

أما فن زخرفة المخطوطات فهو فنّ معقّد يجعل كلماتها غير مقروءة ولذلك تنعت بأنها « **ميروفنجية** » ويريدون بهذا النعت أنه لا تسهل قراءتها . ومع ذلك فان فن زخرفة المخطوطات بهذا الشكل كان موجوداً في غاليا قبل قيام دولة الميروفنجيين فيها [2] .

ويرى المؤرخون أن أبواب الفنّ لم توصد في وجه الميروفنجيين تماماً .

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا . . . ؛ المرجع المذكور ؛ الفصل ٤ ؛ ص ٥٥ .

(٢) المصدر عينه : تاريخ فرنسا . . . ؛ المرجع المذكور ؛ الفصل ٤ ؛ ص ٥٦ .

ومع ان هؤلاء كانوا برابرة إنما أدى احتكاكهم بشعوب أوروپةالشرقية وآسيا وخاصة بكل من الإغريق والسارمات سكان منطقة القرم وشواطىء البحر الأسود الذين كان فن الزخرفة قد قطع عندهم شوطاً طويلاً جداً على طريق الرقي والازدهار منذ قرون عديدة . ولا تزال مخلفات هذا الفن من حلي ومجوهرات تستوقف أنظار زوّار متحف كلوني Musée Cluny في باريز حيث عرضت قطع نفيسة جداً أبدعت كل قطعة منها يد صانع صناع وقد بلغ فيها غاية الإبداع .

الآداب : لقد نضب معين الحياة من الأدب اللاتيني الدنيوي منذ فترة أقدم من مجيء الفرنجة . ولكن ذلك لا يعني أن تذوّق الآداب قد اضمحل وفقد . إنما لم تكن ثمة أصالة لدى أدباء آخر فترات الامبراطورية الرومانية ومن بينهم سيدوان آپولينير Sidoine Apollinaire (المتوفى سنة ٤٨٤) ومع ذلك لم يكن هؤلاء الأدباء سوى مقلّدين . لا بل فان دراسة الفصاحة والبيان التي كوّنتهم هي التي جعلت ذوقهم الأدبي غير سليم . وقد استمر ذلك أيضا في القرن السادس . وكان بعض عواهل الميروڤنجيين وبعض كبار أفراد حاشيتهم ، وحتى من بين الذين يمتّون الى الأصل الفرنجي يبذلون جهداً ويتظاهرون أنهم يعجبون بهذا النوع من الأحاجي والألغاز الذي يقدم إليهم مع ادّعاء مقدميها أنها من جوامع الكَلِم ومن روائع الأدب اللاتيني . ونذكر كمثال لهذا النوع قصائد الشاعر الايطالي فورتونات Fortunat الذي كان أحد اللاجئين السياسيين الى غاليا . ولكن عدد أنصار هذا النوع من الأدب الذي يدّعي مقدّموه أو واضعوه أنه من الأدب الرائع قل تدريجياً حتى أوشك على الزوال تماماً حوالي منتصف القرن السابع[1] .

أشار الأستاذ فرديناند لوط الى ردّ الفعل العنيف الذي قام في وجه الأدب الروماني (اللاتيني) وكيف ان رجال الكنيسة صانوا لنا ذلك التراث الفكري الوثني فقال ما معناه : « وعلاوة عن ذلك فقد قام ردّ فعل عنيف

(١) المصدر عينه : تاريخ فرنسا ... ، المرجع المذكور ، الفصل ٤ ص ٥٦ .

ضد هذا الأدب اللاتيني الدنيوي على يد كل من القديس سانت سيزير من مدينة آرل Saint Césaire d'Arles (المتوفى سنة ٥٤٣) وعلى يد المؤرخ غريغوار أسقف مدينة تور (المتوفى سنة ٥٩٤) وعلى يد البابا القديس غريغوار العظيم (المتوفى سنة ٦٠٤) مما أدّى الى إطلاق هؤلاء حكماً قاسياً جداً على هذا الأدب فلم تقم له إذ ذاك قائمة .

« ومن الغريب جداً أننا مدينون الى رجال الكنيسة لأنهم حفظوا لنا تراث ونصوص الكتّاب الوثنيين الأقدمين . إنهم كانوا ينسخونها في مصانع أو ورشات الكنائس والأديرة . من حيث أن رجال الدين هؤلاء قد اقتنعوا أن هذا التراث الوثني المرعب يتضمن أسراراً لغوية قيّمة وكانت مصدر وحي بالنسبة لنماذج الأدب اللاتيني المسيحي التي أنتجتها قرائح كل من القديسين ترتوليان Tertullien وآمبرواز Ambroise وجيروم وأوغوستين ، وقصائد الشاعر پرودانس Prudence وفعلاً كان هؤلاء الأدباء المسيحيون محقّين في استلهام تلك النماذج . كما وضح أثر ذلك الأدب اللاتيني الدنيوي في تراث اولئك الأدباء الذين أوردنا اسماءهم . ومن هنا ظهر الطابع المصطنع والذي لا تستسيغه إنما تلفظه أذواقنا الحديثة لهذا التراث الأدبي الاكليركي .

« ولم يظهر في العهد الميروفنجي في غاليا سوى كاتب واحد هو غريغوار أسقف تور . وتبدو القيمة الرائعة التي لا تجاري لكتابه : تاريخ الفرنجة الإكليركي Histoire écclésiastique des Francs ولمدوّناته أو حولياته لأنه لم يُعْنَ بكتابة الأدب ، وانه يكتب غير آبهٍ في أن تروق كتابته لاعين أساطين وجهابذة الادب في عصره أو ألا تعجبهم بمعنى أنه سيّان عنده أأعجبتهم كتابته أم لم تعجبهم . كان غريغوار هذا قليل الثقافة ومحدود الذكاء وشديد الانفعال، لكنه كان يعرف كيف يلاحظ فهو دقيق الملاحظة ويجيد وصف ما رآه بأم عينه بسردٍ موجز وأمين وصادق . ونحن لا نجد نظيراً له في أيّ مكان آخر في هذا القسم الاول من تاريخ العصور الوسطى » . [١]

---

(١) فرديناند لوط : تاريخ فرنسا . . . ؛ المرجع المذكور ؛ الفصل ٤ ؛ ص ٥٦ – ٥٧ .

وعُزي ضعف الإنتاج الأدبي في هذه الفترة الى سبب عميق هو تطوّر وتغيّر اللغة. وقد أوشكت اللغة اللاتينية الكلاسيكية القديمة أن تتحوّل الى لغة ميتة لا يمكن الكتابة بواسطتها إلا بنتيجة تعلّم شاقٍّ مُضْنٍ ولو أنه لم يعد أحد يتحدث بهذه اللغة القديمة. وكان قد حدث تطور جذريّ عميق في هذه اللغة المحكية (حيث انهارت الصيغ القديمة لتصريف الأفعال وسواها من القواعد المعقّدة) منذ القرنين الثالث والرابع. وقد أدخلت تغييرات جذرية أيضاً على طريقة اللفظ وأهمها الخلط بين أداء الحروف الصوتية الطويلة (وهي حروف المدّ أو الحروف الممدودة) والحروف الصوتية القصيرة مما جعل الشعر غير مفهوم لأنه قائم على التمييز بين هاتين الفئتين من الحروف الصوتية.

وانتهت الحال باللغة اللاتينية القديمة بعد القضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية في سنة ٤٧٦ إلى أن اللغة اللاتينية المحكية أخذت تتطور بصورة حرّة من أيّ قيد وفي جميع الاتجاهات. ولم يعد هناك لغة لاتينية محكية واحدة وإنما مئات من اللهجات اللاتينية التي أخذ بعضها ينأى عن بعض وبصورة مطّردة.

وسيعود الفضل الى شرلمان في الدولة الكارولنجية في إعادة اللغة اللاتينية الى صفائها القديم لكنها ستغدو لغة ميتة بعيدة عن اللهجات المحلية الحيّة تلك اللهجات التي ستكون اللغة الأم بالنسبة للغات الحديثة ذات الأصل الروماني (اللاتيني).

الفصل الثامن

مملكة الفرنجة : الأسرة الكارولنجية

الامبراطورية الكارولنجية منذ عهد شرلمان

لقد تحدثنا من قبل عن الظروف التي رافقت قضاء پيپن القصير على حكم آخر عواهل ميرونجيّي الفترة الثانية سنة ٧٥١ ، وردّ المؤرخين نجاحه في هذه المهمة الى أنه لم يستبق الحوادث إنما سعى الى غايته بخطا وئيدة لكنها ثابتة ، وأنه لم يزح شيلديريك/٣ إلا بعد استصداره فتوى البابا زكريا التي أقرّت وباركت عمل پيپن وأضفت الشرعية عليه فلم يعد يعتبر مجرد اغتصاب للعرش الميروڤنجي انما اقامة دولة جديدة فتية قوية ناشئة على أنقاض دولة متداعية هرمة • أو إبدال أسرة حاكمة لشعبٍ بأسرة أخرى • وقد دام حكم مؤسس الدولة الكارولنجية خمساً وأربعين سنة وحدثت وفاته سنة ٨١٤ بعد تمتّعه بنفوذ كبير جعل منه أقوى عاهل في أوروپة الغربية •

لم يتجنّب ملوك هذه الأسرة الخطأ الذي وقع فيه جميع ملوك الفرنجة ألا وهو اعتبار الملك كالمتاع أو العقار بمعنى تقسيمه أنصبة متساوية بين أصحاب الحق ، أي ورثة الملك المتوفى ، مما أدّى بصورة حتمية الى أنه كثيراً ما تأرّثت الفتن بين أبناء الملك الراحل ، لا بل كثيراً ما نشبت الحروب الأهلية بينهم ، وأنه لم يتمكّن من الحفاظ على وحدة المملكة الكارولنجية إلاّ بشقّ الأنفس • وهكذا قسّمت الدولة التي أقامها پيپن بين ابنيه : **شارل** ، الذي اتخذ مدينة نوايّون عاصمة له ، **وكارلومان** الذي جعل عاصمته سواسّون • ولم يلبث الخلاف أن ذرّ قرنه بين الأخوين على الرغم من حرص أمهما على أن يسود الوئام والوفاق علاقاتهما •

تعرّض الأستاذ فرديناند لوط الى استمرار لجوء عواهل الأسرة الحاكمة الجديدة الى العادة الميروفنجية وهي تقسيم العاهل ملكه أنصبة بين أبنائه وما قد ينجم عن ذلك من متاعب وفتن واضطرابات داخلية ، فقال بصدد تقسيم شارل المطرقة مملكته بين ابنيه پيپن القصير وكارلومان ما نصّه :
« ولجأ شارل قبل وفاته في تشرين الأول ٧٤١ الى تقسيم مملكة الفرنجة على غرار ما كان يقوم به أيّ ملك ميروفنجي • ففضلاً عن القسم الشرقي من مملكة الفرنجة المعروف بأوسترازيا فقد شمل نصيب ابنه البكر كارلومان كلاً من اقليمي آلامانيا وثورانجيا ، بينما ضمت حصة ابنه الثاني پيپن القسم الشمالي من المملكة نفسها أي نوستريا وبورغونديا وبروڤانس • وآلت بعض الممتلكات في غربي المملكة الى ابن ثالث واسمه غريفون Grifon ، وأم هذا الأخير من إقليم باڤاريا •

« استشرت الاضطرابات مجدّداً بعيد وفاة شارل مارتل في كل من جرمانيا ومقاطعة آكيتانيا حيث كان العرش الميروفنجي شاغراً حتى من ملك اسمي أو شكلي (هذا قبل القضاء النهائي على الدولة الميروفنجية واصدار الحبر الأعظم زكريا موافقته بخلع آخر عواهلها) • ووجد كارلومان وپيپن أن الحكمة تقتضي تنصيب ملك ميروفنجي من زمرة أولئك **الملوك الأطياف أو الملوك « الدمى »** فنصبا شيلديريك/٣ وهو أمير مغمور لم يكن ذائع الصيت وكان آخر أفراد تلك السلسلة من ملوك الميروفنجيين الكسالى • ومع أن الوفاق قد ساد جميع أعمال هذين الأخوين لكن الخلاف لم يلبث أن ظهر بينهما بعد ست سنين من ممارسة كل منهما حكم حصّته • ونظراً لميل الأخ الأكبر كارلومان الى التقى والورع فإنه سرعان ما تخلّى عن عرشه منسحباً الى شمالي إيطاليا حيث أسّس ديراً على جبل سوراكت Soracte ولبس مسوح الرهبان »[1] •

شارل الكبير أو شرلمان : لم يستبق رؤساء البلاط من أفراد أسرة شارل المطرقة

---

(١) فردیناند لوط ، تاريخ فرنسا ... ، المرجع المذكور ، الفصل ٥ ، ص ٦٧ — ٦٨ •

الحوادث وتريثوا الى أن أزفت ساعة العمل الحاسم الذي أدّى الى الإجهاز على الدولة الميروفنجية • وعند تسديد پيپن القصير ضربته القاضية إليها كانت الأرض ممهدّة والظروف مواتية لتأسيس الدولة الجديدة لا سيما بعد صدور فتوى البابا التي أضفت الشرعية على عمله فلم يعتبر رعايا الميروفنجيين عمل پيپن اغتصاباً • وهكذا شدّت الغالبية العظمى من رعايا الميروفنجيين أزر مؤسس الدولة الكارولنجية وساندته ووقفت من ورائه صفاً متراصّاً خاصة وأن القديس بونيفاس ممثّل البابا قد مشحه بالزيت المقدس • ثم زادت جذور الدولة الجديدة رسوخاً وعمقاً بعد أن توّج البابا نفسه أول ملوكها وهو پيپن ، وبذلك ذُلّلت أكأد العقبات التي كان ممكناً أن تعترض تأسيس دولة الكارولنجيين التي اشتدّ ساعدها وشيكاً وغدت أعظم دول أوروبة الغربية خاصة بعد نجاح شرلمان بن پيپن في القضاء على اللومبارديين والسكسونيين والفرنجيين والثورانجيين وغيرهم من سكان المناطق المحيطة بالدولة الكارولنجية • وقد صهر شرلمان جميع هذه المناطق في بوتقة واحدة مؤلفاً منها ومن مقاطعات الفرنجة البحريين والبريين والآلامان إمبراطوريته •

لم يتوان شرلمان ولم يتلكأ إنما هبّ مسرعاً لإنجاز المهمة ، التي منّى هو وأبوه وجدّه أنفسهم بتحقيقها • وبمجرّد اعتلائه العرش أتمّ تحقيق ذلك الحلم الذي طالما دغدغ مخيلة أبيه وجدّه وتحوّلت الإمبراطورية من مجرّد فكرة الى واقع ، وحملت اسمه فصارت تدعى منذئذٍ إمبراطورية شرلمان أو إمبراطورية الكارولنجيين • وهكذا تضمّنت المهمة التي ألقيت على عاتق شرلمان لدن تسلّمه الحكم سنة ٧٦٨ الأمور التالية :

أولاً ــ إخضاع وضمّ المناطق المحيطة بأقاليم الدولة الميروفنجية •

ثانياً ــ توطيد سلطة الأمير الكارولنجي على مجموعة المناطق التي ستتألف منها إمبراطوريته •

ثالثاً ــ تزويد هذه الإمبراطورية الكبيرة الرقعة بنظم تكون في الوقت نفسه مرنة جداً الى الحدّ الذي يجعلها كفيلة بأن توفّق بين مصالح متشابكة

ومتعارضة ، كما تكون قوية بحيث تغدو كفيلة بتأمين الانسجام بين مختلف ولايات هذه الإمبراطورية .

أولاً ـ ضمّ المناطق المحيطة بأقاليم دولة الفرنجة :

١ ـ احتلال إيطاليا [١] : جابهت المشكلة الإيطالية دولة الكارولنجيين بعيد تأسيسها . وقد حلّ شرلمان هذه المشكلة ببراعة فائقة وبطريقة أمكنت تلك الدولة الناشئة من جني فوائد جمّة . ومما يجدر التنويه به أن پيپن تريّث في العمل وانتظر سنوح الظروف المواتية ليحلّ المشكلة الإيطالية بصورة تضمن مصلحة الكارولنجيين . وردّ المعاصرون عدم مبادرته الى وضع حلّ للقضية الإيطالية أنه لم تكن تحدوه أية رغبة لضم إيطاليا وأنه غير آبه بتلك القضية ولا مكترث بإيطاليا فاعتبروه ساذجاً وقصير النظر بيد أن تطور حوادث هذه المشكلة أثبت العكس وبرهن على أنه مُحنّك .

فاذا ما أردنا استكناه موقف الكارولنجيين من هذه المشكلة نقول بأنه قام على الإبقاء على الوضع الراهن الذي سبق محاولة عاهل اللومبارديين ايستولف طيّ جميع أقاليم إيطاليا تحت جناحي دولته ، مما حمل البابا على الاستنجاد بيپن القصير مما كنا أوردناه في حينه . علما أن الملك الكارولنجي كان راغباً في ألا يكلفه الحفاظ على الوضع الراهن بذل جهود كثيرة . واقتصر تدخّل هذا الملك في سنتي ٧٥٤ و ٧٥٦ على الضغط على ملك اللومبارديين لحمله على التراجع عن تفكيره باحتلال روما ولجعله يتعهد بالجلاء عن جميع المناطق التي احتلتها قواته في شبه جزيرة إيطاليا . ومع أن قوات الكارولنجيين وصلت في سنة ٧٥٤ حتى أسوار باڤيا حاضرة اللومبارديين واضطرت ايستولف إلى أن يتعهد بالجلاء عن المناطق المذكورة ، لكن هذا

(١) راجع من أجل ذلك المصدرين التاليين :

آ ـ لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، ج ١ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ .

ب ـ لوِس پيپيتري : مجموعة موريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

الملك نكث بما تعهد به وأسرع الى حصار روما نفسها في كانون الثاني ٧٥٦ مما أجبر پيپن على التدخّل غير مكتفٍ في هذه المرّة بتعهد ايستولف بالجلاء عن أقاليم إيطاليا التي احتلتها قواته إنما أبقى في إيطاليا ممثلاً عنه ليتسلّم الأقاليم التي تمّ الاتفاق على إرجاعها الى البابا • ولضمان إنجاز العاهل اللومباردي وعده يجب عليه تقديم رهائن الى ممثل پيپن • وكان الاتفاق قد تمّ على تسليم ايستولف أقاليم إيطاليا الوسطى ومقاطعة إيمليا بما فيها مدينة راڤينا (مركز ممثل الإمبراطور البيزنطي في إيطاليا) الى البابا علماً أن پيپن لم يطلب ضمّ شيء من إيطاليا الى مملكته • وعرفاناً من البابا بجميل پيپن فإنه منحه لقب **بطريق الرومانيين** Patrice des Romains وذلك بعد حملة پيپن الأولى على اللومبارديين سنة ٧٥٤ • كما منح اللقب نفسه لشارل وكارلومان ابني العاهل الكارولنجي مما ينهض دليلاً على الاتفاق الوثيق الذي شدّ الكارولنجيين الى البابوية •

ولم يلبث پيپن أن عدّل موقفه بإزاء المشكلة الإيطالية بحرصه على بسط نفوذه ولو بصورة غير مباشرة على إيطاليا وذلك بزيادة قوة حليفه البابا • لذلك عمل پيپن وبدون هوادة لترسيخ وتوطيد قوة حليفه • توفي سنة ٧٥٦ الملك اللومباردي ايستولف فأتيحت الفرصة الى پيپن ليتدخل في شؤون لومبارديا الداخلية حيث تمّ انتخاب الدوق ديديه Didier ملكاً ليخلف ايستولف • وقبض پيپن من هذا الأخير ثمن دعمه له بأن جعله يتعهد بالجلاء عن جميع ما احتله اللومبارديون في إيطاليا منذ سنة ٧٣٠ أي في عهد ايستولف وسلفه وتسليم كل تلك المناطق الى البابا الذي توسعّت المنطقة الخاضعة لحكمه بأن شملت رقعتها ما بين مصب نهر البو Pô في الشمال ومصب نهر التيبر في وسط إيطاليا أي المنطقة الساحلية في وسط إيطاليا التي كانت قبيل ذلك خاضعة للبيزنطيين •

وعلى الرغم من أطماع ديديه في إيطاليا وعدم تمسّكه تماماً بالوعود التي قطعها على نفسه عند انتخابه فإن پيپن القصير آثر البقاء بمعزل عن أن يزجّ بنفسه في خضمّ الأحداث الإيطالية وألا يناصب العاهل اللومباردي

الجديد العداء بصورة سافرة • ثم توفي پيپن في ٢٤ ايلول ٧٦٨ فآل ملك الكارولنجيين الى ابنيه شارل وكارلومان • وحرصاً من الكثيرين من رجالات الدولة الكارولنجية على توثيق تحالف دولتهم مع الملك اللومباردي الجديد فقد اتفق على زواج شارل من ابنة ديدييه وزواج هذا الأخير من أخت شارل •

لم يستمرّ ديدييه طويلاً في ولائه للكارولنجيين وبدأ يتبرّم بوصايتهم على دولته التي جرّدوها من معظم ممتلكاتها في وسط إيطاليا لحساب البابوية • وقد حرّض في سنة ٧٧١ سكان روما سرّاً على الثورة على البابا تلك الثورة التي أوشكت أن تجعل روما تؤول الى ديدييه مما يجعل البابا تحت سيطرته • أثار موقف العاهل اللومباردي السلطات الكارولنجية العليا لا سيما بعد انفراد شارل بحكم دولته بعد وفاة أخيه كارلومان في نهاية سنة ٧٧١ • بعث شارل موفداً من لدنه طالباً من ديدييه إيضاحاً وتفسيراً لموقفه لكن هذا الأخير أماط القناع عن وجهه وحسر اللثام فوضحت أطماعه وخاصة بمهاجمته المفاجئة سنة ٧٧٢ للحاميات البابوية المرابطة في المناطق التي حمل على تسليمها الى البابا حيث استردّ بعضها وبدأ بحصار راڤينا كما حاصر قادته أقاليم وسط إيطاليا ودوقية روما •

ضاق ذرع الصبر بشرلمان (وهو اللقب الذي صار يطلق على شارل منذ ذاك ومعناه شارل العظيم) فأنذر ديدييه لكنه لم يرعو ولم يتوقّف عن تنفيذ مخططه العدواني • وأخيراً لم يجد شرلمان بدّاً من التدخل • وتعبيراً عن سخطه فانه طلّق زوجته أخت ديدييه ثم اجتاح على رأس قواته أقاليم دولة اللومبارديين في أيلول ٧٧٣ ولكن بعد تعرّضه الى مقاومة عنيفة من قبلهم • كما قام خصمه بهجوم معاكس على قوات شرلمان لكنه أخطأ بلجوئه الى مدينة پاڤيا فحاصرها شرلمان بشدّة بينما أخذت قوات هذا الأخير تستولي تباعاً على المناطق التي اعتصم فيها اللومبارديون بما فيها ڤيرونا التي ظنّ أولاً أنه لا يمكن أن تسقط بيد المهاجمين •

وبعد دوام الحرب ثمانية أشهر سقطت جميع أقاليم اللومبارديين بيد

شرلمان واضطر ديديه أخيراً الى الاستسلام فمضى الأول بعيداً في استثمار نصره بإرسال أسيره الى بلاد الكارولنجيين في ٥ حزيران ٧٧٤ وتسلّم من المسؤولين اللومبارديين تاج الحكم في حاضرتهم باڤيا وأقسموا له يمين الولاء. وبذلك تمّ لشرلمان القضاء على دولة اللومبارديين وإلحاقها بمملكته . وهكذا صار قسم كبير من إيطاليا بمثابة ولاية من ولايات مملكة الفرنجة علماً أن كلاًّ من مدينتي روما وراڤينا والمقاطعات الخاضعة للحكم البيزنطي القائمة بين تينك المدينتين لم يلحقها شرلمان بدولته إنما بقي وفياً للوعد الذي قطعه أبوه للباباوات السابقين بأن يعيد إليهم المقاطعات التي احتلّها اللومبارديون. وبذلك اقتصر ما ضمّه شرلمان من ممتلكات اللومبارديين على رقعة الدولة اللومباردية التي اعترف الأباطرة البيزنطيون للّومبارديين بتملّكها وإقامة دولتهم عليها . لكن ذلك لا يعني أن شرلمان لم يكن يمنّي نفسه أن يستأثر بالنفوذ في روما وأن يبسط سلطانه وسيطرته على هذه المدينة لما يُعلّقه من أهمية على حمل لقب بطريق الرومانيين الذي ورثه عن أبيه .

ولا ريب أن البابا قد زاد نفوذه المعنوي كثيراً من جرّاء توسّع رقعة مملكته بواسطة الكارولنجيين ؛ لكن نفوذه السياسي وحريته في العمل أمسيا في تقهقر مستمر وصارا مقيدين . فالبابا الذي أضحى بنتيجة إرادة پيپن القصير وابنه شرلمان عاهلاً لدولة هامة اصطدمت سلطته السياسية وفي مناطق عديدة من دولته بمعارضة قوية . ومن قبيل ذلك فان رئيس أساقفة (مطران) راڤينا لم يكن وبصورة خاصة مستعداً لأن يسمح للحبر الاعظم بأيّ تدخّل في شؤون أبرشيته : وقد أغرته السلطات الدنيوية السياسية التي أتيح للحبر الاعظم ممارستها في إيطاليا لذلك فإنه قرّر أن يحتفظ لنفسه بممارسة جميع السلطات السياسية التـي كان يمارسها الحاكم البيزنطي في مقاطعات أبرشيته التي لم يكن العاهل الفرنجي قد ضمها الى دولته بعد . وفي الواقع فان ثمة صعاباً كانت تعترض وباستمرار سبيل توطيد السلطة الدنيوية للبابا في دولته تلك الدولة التي اصطلح المعاصرون على دعوتهـا بجمهورية القديس بطرس . وبدلاً من أن تجعل هـذه الجمهورية البـابا

مستقلاً فإنها كثيراً ما ألجأته الى التماس العون والدعم من حاميه الكارولنجي القوي • وكان هذا العاهل الكارولنجي يقوم بما يطلبه منه البابا ، ولو أنه كان في بعض المرّات يُخيّب الآمال التي عقدها عليه الحبر الأعظم لدرجة قد تجعل هذا الاخير يندم على انهيار عرش اللومبارديين في پاڤيا أي لدرجة قد تجعله يترحّم على أيام هؤلاء •

وبدا واضحاً لكل ذي عينين أن ساعة خضوع كل شيء في روما الى السلطة المستبدّة التي صار يمارسها سيد أوروبة الغربية ، أي العاهل الكارولنجي شرلمان ، قد أزفت •

٢ ـ احتلال وضم منطقتي سكسونيا وباڤاريا (١) : لقد توسّعت دولة الفرنجة خارج ألمانيا لكن هذه الأخيرة بقيت المنطقة الرئيسية التي تمّ توسّع الفرنجة في مختلف بقاعها • ونظراً لأن الفرنجة جرمانيون فطبيعي أن يسعوا الى فرض سيادتهم على جميع الجرمان الذين بقوا في هذه البلاد وأن يحملوا هؤلاء على التخلّي عن نظمهم القبلية القديمة وتمثّل الحضارة الجديدة القائمة على الاستقرار • ويمكن رد تفكير الفرنجة بذلك الى نشدانهم تطمين حدود دولتهم ضد غارات الجرمان عليها بين الفينة والأخرى • ومع ان الفرنجة كانوا حتى منتصف القرن الثامن قد حققوا قسماً كبيراً من برنامجهم التوسّعي في ألمانيا فإنه بقي عليهم إخضاع مناطق كثيرة في هذا المضمار خاصة وأن العناصر الباقية كانت من أشرس وأوحش الشعوب الجرمانية ، وهي عناصر السكسونيين الأقارب الأدنين للفريزيين الذين نجح شارل مارتل وپيپن (في السنيّ الأولى من حكمه) في إخضاعهم لكن بعد بذل جهد جبار وترك البلاد تسبح في بحر من دماء •

---

(١) راجع من أجل ذلك المصدرين التاليين :

آ ـ لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة : المجلد ٥ ، ج ١ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

ب ـ لوس پيپتري : مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٨ .

تقع منطقة السكسونيين شمالي جرمانيا وقد استغرقت الجهود الكبرى التي بذلها شرلمان للاستيلاء عليها ثلاثين عاماً ووجّه إليها عشرين حملة على الأقل ريثما كُلّلت جهوده بالنجاح . علماً أن الهدف الـذي نشده شرلمان من حملاته الأولى ضد السكسونيين هو إجبارهم على الخلود الى السكينة وجعل الفرنجة مرهوبي الجانب بين تلك القبائل وتمهيد الطريق أمام تسرّب الفرنجة السلمي الى مناطق السكسونيين بواسطة المبشّرين . لكن شرلمان ما لبث أن أدرك أن منهاجه المضمون النجاح في مناطق أخرى لا يمكن تنفيذه بسهولة بالنسبة الى السكسونيين من حيث أن معظم من اعتنقوا النصرانية من بين هؤلاء كانوا يصبؤون الى وثنيتهم بمجرّد ذهاب المبشّرين أو التهاون في مراقبتهم . كما كانوا كثيراً ما يسلبون وينهبون الكنائس التي شيّدت في بلادهم ويذبحون رجال الدين القائمين بمهامهم فيها ، وينكثون بجميع العهود التي قطعوها على أنفسهم بمجرد عودة قوات الكارولنجيين الى بلادها. فمن جرّاء ذلك لم يجد شرلمان مناصاً من إخضاع منطقة السكسونيين بصورة تامة وضمّها الى بلاده . ولو أن هذا العاهل دفع الثمن باهظاً حيث كثيراً ما فاجأ مقاتلة السكسونيين قواته وأبادوا قسماً كبيراً منها . ولشعور هؤلاء بما بيّته لهم شرلمان فإنهم جعلوا الكارولنجيين يدفعون ثمن إخضاعهم باهظاً. وكثيراً ما أحرزوا انتصارات مبنية على قوات شرلمان كما في سنتي ٧٧٥ و٧٨٢ حيث ألحقوا هزيمة شنعاء بثلاثة من أكفإ قادة الكارولنجيين .

فكّر شرلمان ألا مناص من الإرهاب وإغراق بلاد السكسونيين في بحر من الدماء منتقماً لهزيمة قواته سنة ٧٨٢ بإعدام أربعة آلاف وخمسمائة من السكسونيين . كما أعلن بعد ثلاث سنين من هذا التاريخ وبعد أن استنفدت جميع طاقات السكسونيين وأنهكت قواهم أن عقوبة الإعدام ستنزل بكل من يأبى الخضـوع الى الكارولنجيين وبكل من يرفض التنصّر . وليضع شرلمان حدّاً لمقاومة السكسونيين لجأ سنة ٧٩٩ الى نفي وطرد جميع سكان بعض المناطق وخاصة ويهمود Wihmode حيث عرّضت قوات الكارولنجيين مساكن هذه المنطقة الى السلب والنهب وصـادرت الأرضين ونقلت عائلات

بأكملها بإجبارها على المقام على بعد مئين من المراحل في أراضي الفرنجة •

ولم يتمكن شرلمان من إنجاز خطته بإزاء السكسونيين الى الشمال من مصب نهـر الإلب إلا سنة ٨٠٤ ، ولو أن سكسونيا غدت منـذ سنة ٧٩٩ وبصورة أكيدة ولاية من ولايات مملكة شرلمان التي صارت لها حدود مشتركة مع الدانيمرك (وكانت سكسونيا قبل خضوعها تعزل بين الدانيمرك ومملكة شرلمان) وبلاد العناصر السلاڤية القائمة على الضفة اليمنى لنهر الإلب •

وقد أنجز شرلمان في نهاية القرن الثامن ومستهلّ التاسع إخضاع جميع مناطق ألمانيا الحالية التي كانت مأهولة آنئذ بعناصر جرمانية وضمّها الى دولته بدون استثناء مقاطعة باڤاريا التي كان نفوذ الكارولنجيين قد شملها منذ أيام پيپن القصير وذلك أثناء ممارسة هذا الأخير وبين سنتي ٧٤٨ ــ ٧٥٧ نوعاً من الوصاية على أمير باڤاريا دوق تاسيلّون القاصر تلك الوصاية التي أوشكت أن تجعل من باڤاريا محمية حقيقية للكارولنجيين • وأخيراً صارت باڤاريا كإحدى ولايات الدولة الكارولنجية مع بعض التحفّظات التي كانت تهدف الى إرضاء عزة نفس الباڤاريين •

ثمت بدا لأمير باڤاريا (دوق تاسيلّون) سنة ٧٦٣ أن يتحرّر من وصاية پيپن القصير عليه برفضه تقديم أي دعم عسكري أو مدد الى هذا الاخير ، وبأن صار يؤرّخ جميع وثائقه الرسمية بسني حكمه • لكن شرلمان أجبره سنة ٧٨١ على العودة الى وضعيته السابقة عندما كان يعيش في كنف الملك الكارولنجي وفي ظل خضوعه الى هذا الاخير وذلك بعد أن ذاق طعم الحرية خلال فترة دامت ثمانية عشر عاماً (٧٦٣ ــ ٧٨١) •

عاود دوق باڤاريا الكرّة من جديد بسعيه الى تحطيم نير الكارولنجيين مرة أخرى لكنه هزم وشيكاً في ٧٨٨ ولم ينج من عقوبة الإعدام إلا بعد أن منّ عليه العاهل الكارولنجي بالحياة وصفح عنه ولو أنه أجبر سنة ٧٩٤ على التنازل عن عرش باڤاريا لصالح الملك الكارولنجي •

٣ ـ تأسيس ولايات الحدود (ولايات الثغور والعواصم) (١) :

بذل شرلمان جهوداً جبارة لإجبار الشعوب أو القبائل المستقرّة على مختلف حدود مملكته على أن تخلد الى السكينة وتقلع عن التفكير بالإغارة على حدودها . ولئن حالف الحظّ هذا العاهل الفرنجي في تأمين حدوده البريّة فإنه أخفق في منع الشعبين الدانيمركي والنورفيجي من الإغارة على سواحل مملكته لأن مملكته لا تملك أسطولاً بحرياً . وسنورد الآن مختلف ما قام به شرلمان في هذا المجال وتأسيسه عدداً من ولايات الثغور والعواصم لتطمين حدود مملكته التي امتدت رقعتها شرقاً حتى نهر الدانوب أي حتى الحدود التي كانت للإمبراطورية الرومانية نفسها .

أولا ـ الحدود الشرقية : امتدّت الحدود الشرقية لمملكة شرلمان بين سلسلة جبال بوهيميا (في تشيكوسلوفاكيا الحالية) ومصب نهر الإلب في بحر الشمال (ينبع هذا النهر من جبال العمالقة في جبال بوهيميا ثم يتجه شمالاً ويبلغ طول مجراه ١١٠٠ كم) . وتعيش شرقي تلك الحدود التي ليست في حيّز الواقع سوى مجرى ذلك النهر الشعوب السلافية في مناطقها الشمالية وعناصر الآفار في أجزائها الجنوبية . وقد اكتفى شرلمان بأن تبقى هذه الشعوب ساكنة هادئة ولم يفكّر إطلاقاً في إخضاعها وضمّها الى مملكته . ولنشر الى أن بعض العناصر السلافية ولا سيما الآبودريت Abodrites المقيمة في الشمال الشرقي من منطقة سكسونيا أي على الضفة اليمنى لنهر الإلب قدمت له ولاءها وخضوعها وحالفته وصارت تدعمه بقواتها وغدت الحارس الأمين للحدود الشرقية لمملكة شرلمان .

لكن ثمة عناصر سلافية أخرى في هذه البقاع (كعناصر اللينون Linons والويلز Wilzes والصورب Sorbes والتشيكيين) لم ترعو وتقلع عن غاراتها

---

(١) راجع تفاصيل هذا الموضوع في :

آ ـ لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة : المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ .

ب ـ لوس پيبتري : مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٨٧ ـ ١٩٠ .

إلا بعد توجيه شرلمان عدة حملات عسكرية الى مناطقها وألحق قواده بها عدة هزائم فاضطرت مرغمة الى الكف ّ عن غاراتها المعتادة وقبعت في مناطقها بدون أن تعود أبداً الى مهاجمة الحدود الشرقية الكارولنجية .

وكانت عناصر الآڤار تقطن في المناطق الجنوبية الشرقية للحدود الكارولنجية أي في الحوض الأوسط لنهر الدانوب . وهي عناصر شرقية آسيوية الأصل وكان اسمها وحده كافياً لإثارة فزع سكان أوروپا الجنوبية والوسطى حيث كان هؤلاء الآڤار وبقيادة زعيمهم الخان لاينون عن الإغارة على مختلف المناطق المجاورة لهم . ومع ان قوة الآڤار بدأت تهن وتضعف حتى هذه الفترة وتحت وطأة الضربات التي كالهـا لهم البلغار الذين أزاحوا الآڤـار من طريقهم واضطروهم الى موالاة زحفهم غرباً لكنهم مع ذلك استمروا باعثين لخوف وهلع سكان المناطق المجاورة لهم . وكان من عادة هؤلاء الآڤار أن يجعلوا ما يستولون عليه من أسلاب وغنائم في معسكر مُحَصَّن يدعونه **الرينغ** Ring يحمونه بالاحاطة به من كل جهاته إذا ما داهمهم عدو وذلك أسوة بني عمهم هون آتيلا .

كان الآڤـار قد زحفوا باتجـاه كل من باڤاريا والبندقية . كما تجددّت غاراتهم في سنة ٧٨٨ على تلك البقاع لذلك لم يجد شرلمان مناصاً من سحق قوة الآڤار وردّهم الى حوض نهر الدانوب فوجّه لقتالهم سنة ٧٩١ حملة عبرت ولاية پانونيا من الشمال والغرب ملحقة هزيمة نكراء بتلك العناصر وعلى رأسها خانها (رئيسها) ، كما هاجمت معسكر أسلابها بعد اعتصـام الآڤار فيه . ولم تقم بعد هذه الهزيمة للآڤار قائمة . كما هاجمت القوات الكارولنجية سنة ٧٩٥ الآڤار مرةأخرى ووصلت في هجومها إلى الأجزاء الداخلية أو قلب إمبراطوريتهم وذلك على دفعتين . وقد استولى المنتصرون على ما في معسكر الآڤار من ثروات .

وبعـد أن حقق شرلمان تلك الانتصارات المؤزّرة على الآڤار حصـل انقسام بين صفوفهم حيث بقي فريق منهم مصراً على الاستمرار في مناصبه الإمبراطورية الكارولنجية العداء . هذا بينما رأى فريق آخر وعلى رأسهم

الخان نفسه وجوب تقديم الولاء لشرلمان وتحسين علائقهم بدولته •

أما شرلمان نفسه فآثر أن يلجأ بالنسبة الى الآقار الى خطة نشر الدين المسيحي بين صفوفهم وبشكل حذر وبطيء أسوة بما قام به بإزاء العناصر السكسونية • وفعلاً فان قسماً من الآقار اعتنق النصرانية التي انتشرت وببطء في صفوفهم لدرجة ان خان الآقارنفسه قد اعتنقها • زادت الانقسامات بين صفوف الآقار حدّة وخاصة بعد اعتناق عدد كبير منهم النصرانية ، كما زادت وطأة غارات الشعوب السلافية عليهم الى درجة حملت خانهم على التماس حماية شرلمان ، لا بل فانه التمس سنة ٨٠٥ من هذا الأخير منحه منطقة داخل حدود مملكة الفرنجة يسهل الدفاع عنها ليتمكن فيها من صدّ أعدائه إن فكّروا بمهاجمته وأن يمارس حكم هذه المنطقة كوصل من أوصاله• وأخيراً قدم خان الآقار سنة ٨١١ لزيارة شرلمان في عاصمته (آخن : إكس لاشاپيل) مقدماً له وبصورة رسمية آيات ولائه وخضوعه •

ثانيا ـ التفكير بضم اسبانيا واقامة ولاية ثغور في ربوعهـا : كما كـان شرلمان يطمع في ضم إسبانيا الى مملكته • بيد أنه مهما ضعفت سلطة خليفة قرطبة الأموي ، ومهما كانت العروض بدعم شرلمان من قبل بعض الأمراء الحاكمين في بعض مناطق شبه جزيرة إيبريا مغرية فان العاهل الفرنجي تعرّض لأكثر من هزيمة الى جنوبي جبال البرانس • لقد استهوت الوعود المغرية التي قطعها أمير برشلونة سليمان بن العربي ، الخارج على خليفة قرطبة ، على نفسه لشرلمان بمساعدته فظن هذا الاخير أن بوسعه الاستيلاء بسهولة كبرى على مقاطعة قشتالة • وقد زحف جيشان ، أحدهمـا بقيادة شرلمان نفسه ، على سرقسطة ، لكن نتيجة هذه الحملة كانت فشلاً ذريعاً وإخفاقاً تاماً تحوّل الى كارثة • وقد استوجب تطوّر الحوادث في شمالي مملكة الكارولنجيين ، حيث ثارت عناصر السكسونيين على الحكم الكارولنجي ، عودة شرلمان الى بلاده على جناح السرعة فاضطر الى التراجع والانسحاب حتى بدون أن ينجز الاستيلاء على سرقسطة • وعند عبور قوات هذا العاهل شعاب جبال البرانس فاجأتها عصابات العناصر الغاسكونية (اي الباسقاوية) في شِعْبٍ

رونسيفو Roncevaux حيث أعملت قتلاً وذبحاً في مؤخرة هذه القوات •

أدرك شرلمان بعد ذلك الدرس القاسي الذي تلقّته قواته أن الاستيلاء على شبه جزيرة إيبريا ليس بنفس السهولة التي أتمّ بها استيلاءه على شبه جزيرة إيطاليا ، وأنه من الأجدى به الإقلاع عن التفكير بانجاز ضمّ إسبانيا بحرب صاعقة تتمّ بصورة سريعة وتأخذ العدو على حين غرّة • ويبدو أن شرلمان أقام خطته بالنسبة الى إيبريا منذ ذاك على أن يحتّل تدريجياً وبحذر المدن الواقعة بالقرب من حدودها ، وهي المدن الواقعة على السفوح الجنوبية لجبال البرانس أي في بلاد العدو بغية أن يجعل منها ولاية ثغور وعواصم أي ولاية حدود تقوم بمهام الدفاع عن بلاده ، أكثر من التفكير بجعل هـذه المدن المحتلّة قواعد لاستئناف الهجوم على تلك البلاد في المستقبل • وقد تمكنت قوات الفرنجة سنة ٧٨٥ من احتلال جيرونا Gérone لكن العـدو ردّ على هذا العمل عندما فاجأ الحاميات الكارولنجية المرابطة هناك سنة ٧٩٣ باحراق ضواحي مدينة ناربونة وإن يكن العدو تعرّض الى الهزيمة الشنعاء بالقرب منها • ثم استأنف الفرنجة الزحف على إيبريا سنة ٧٩٧ لكنهم توقفوا عامئذ أمام أسوار هويسكا Huesca ثم تمكنوا سنة ٨٠١ من احتلال برشلونة ونجحوا بعد فترة عشر سنين من الاستيلاء على مدينة طليطلة نفسها •

ومع أن النجاح الذي حققّه شرلمان في إسبانيا كان دون ما أمّله في أول سنيّ حكمه فان ما حصل عليه هذا العاهل من فوائد كان كافياً في نهاية القرن الثامن لجعل قواته مرهوبة الجانب حتى في إسبانيا نفسها • وبـدأ شرلمان يقوم بدوره الخاص وتكون له سياسته الخاصة بالنسبة الى قضايا إيبريا • ونذكر على سبيل المثال أن الأمير عبد الله ابن الأمير عبد الرحمن (بن معاوية بن هشام بن عبد الملك) مؤسس دولة أمويي الأندلس عندما فكر سنة ٧٩٧ بتنحية عمه الحكم عن العرش الأموي فانه وصل الى مدينة آخن (حاضرة شرلمان) يلتمس مساعدة ملك الفرنجة • كما أن ملك مقاطعتي غاليسيا وأوستريا المسيحيين في إيبريا عندما نجح سنة ٧٩٨ في استخلاص مدينة ليشبونة من الحكم الاسلامي فانه لم يقم بعمله هذا الا بعد ضمان

تأييد ودعم شرلمان • وعلى الرغم من أن النجاح الذي حققه هذا الأخير في إيبريا لم يكن بالغ الأهمية ، وعلى الرغم من الفشل الذي حاق بقواته فيها فان ما أصابه من نجاح في هذه البلاد التي لم يكن أمر التسلّل اليها والزحف عليها سهلاً بالمرة جعله مرهوب الجانب فيها وصار يحسب لقوته فيها حساب كبير •

وقد أقام شرلمان ولاية ثغور وعواصم في إيبريا تضم إقليم قطلونية (الأجزاء الشمالية الشرقية من إسبانيا) جاعلاً مدينة برشلونة حاضرة لها ، ومهمتها تأمين حماية الحدود الجنوبية لمملكة الفرنجة • هذا فضلاً عن انضمام السكان المنحدرين من أصل ڤيزيغوطي والذين اقتبسوا حضارة الڤيزيغوط الى سيّدهم الجديد شرلمان الذي ترسيخاً منه للروابط التي شدّت هؤلاء الڤيزيغوط الى مملكته فانه أوسد عدداً من المناصب فيها الى أفراد من تلك العناصر كما جعل عدداً من أفرادهم ينخرطون في صفوف جنوده •

ثالثا ــ اقامة ولاية ثغور وعواصم غربي غاليا في المنطقة المتاخمة لشبه جزيرة بريتانيا : لم تخضع الأجزاء الواقعة غربي غاليا فيما يعرف بشبه جزيرة آرموريكا أو بريتانيا (نسبة الى عناصر البريتانيين Bretons التي تسكنها) الى حكم مملكة الفرنجة • ونشداناً من شرلمان أن يحمل شعب البريتانيين الميّال الى الشغب والغارات على المناطق المجاورة على الهدوء فانه أنشأ على الحدود المتاخمة لبلاده ولاية حدود • وبعد ان وجّه شرلمان سنة ٧٩٦ حملة تأديبية الى منطقة هذه العناصر فانه بعث سنة ٧٩٩ والى المنطقة نفسها حملة كبرى رمى من ورائها النجاح في إخضاع البريتانيين بصورة تامة • وعلى الرغم من ان المؤرخين الأخباريين المعاصرين أشاروا الى نجاح شرلمان في تلك المهمة لكن الواقع كذّب ادعاءاتهم لأن خضوع البريتانيين كان ظاهرياً فحسب بدليل وفرة عدد الحملات التي ما انقطع شرلمان عن توجيهها الى تلك البقاع بغية تهدئتها الى درجة يمكننا معها القول بأن هذا العاهل لم يتمكن من ضمّ شبه جزيرة بريتانيا الى مملكته ولا من إخضاعها • وكانت النتيجة الإيجابية التي حصل عليها شرلمان بعد تلك الحملات العديدة هي تقوية ولاية الثغور التي أقامها على حدود مقاطعة شبه جزيرة بريتانيا شمال غربي غاليا •

رابعا ــ تأسيس ولاية ثغور النورمانديين شمال مملكة شرلمان : كانت نقطة الضعف في حدود مملكة شرلمان هي الحدود البحرية من حيث أن تلك المملكة لم يكن لديها أي أسطول بحري . وكان على الحاميات المرابطة على السواحل الشمالية في هــذه المملكة أن تصدّ عنهــا غارات الدانيين Danois (أو الدانيمركيين) الذين كثيراً ما أطلق عليهم وعلى النورڤيجيين اسم رجال الشمال Northmanni ذلك الاسم الذي نحت فصار هؤلاء وأولئك يلقبون بالعناصر النورماندية Normands . وقد بدأت غارات هذه الشعوب على سواحل غاليا منذ سنة ٧٩٩ وصار هؤلاء النورمانديون يُجَدّدون غاراتهم في كل عام على سواحل مملكة شرلمان ويعملون سلباً ونهباً في الموانىء الواقعة بين جزر فريزيا (بالقرب من هولاندة) وسواحل اقليم آكيتانيا (جنوب غربي فرنسا الحالية) . ونشداناً من شرلمان صدّ هذه الغارات فانه أسس ولاية ثغور وعواصم جديدة في الأجزاء الشمالية من مجرى نهر الإلب دعاها ولاية ثغور النورمانديين ، كما استولى على السفن وأقام فرق خفر سواحل ليلية على طول سواحل مملكته . لكن استمرار الاضطراب في موانىء تلك السواحل ينهض دليلاً على أن العاهل الكارولنجي لم ينجح في تحقيق غايته وان الوسائل التي لجــأ إليها لم تكن ناجعة ولا مجدية . وفي الواقع لم يكن للدولــة الكارولنجية أسطول بوسع وحداته أن تقيها من شرّ غارات السكنديناڤيين . إن مملكة الفرنجة التي أعاد شرلمان تأسيسها كانت دولة قاريّة بريّة وكان الدفاع عنها من حدودها البريّة مجدياً وقوياً وذلك بواسطة سلسلة ولايات الثغور والعواصم التي أقيمت على مختلف حدودها البريّة لكن الدفاع عنها من جهة البحر كان ضعيفاً .

تحدث الاستاذ لويس بيتري عن إنجاز شرلمان توحيد رقعة مملكة الفرنجة واتخاذه عاصمته في مدينة آخن (إكس لا شاپيل) في المنطقة التي طغت عليها الصبغة الجرمانية فقال ما معناه : « امتدّت رقعة مملكة الفرنجة في المنطقة الواقعة بين سواحل بحر المانش (في الشمال) وسواحل البحر الأدرياتيكي (في الجنوب) ؛ وحوض نهر إيبرو (في الغرب) ؛ وحوض نهر الإلب في

الشرق • وقد انتهى الأمر بهذه المملكة أن غطّت رقعتها جميع أقاليم غربي أوروپة • وقد أنجز هؤلاء الشماليون (ويقصد بهم المؤلف شعب الفرنجة) توحيد وجمع الشعوب المختلفة المستقرّة في هذه البقعة • وجعل الكارولنجيون عاصمتهم في المنطقة الواقعة بين نهري الموز والراين أي في المنطقة التي تشدّهم إليها جذور أسرية وتلك المدينة هي آخن (إكس لاشاپيل) التي انتقيت منذ شتاء ٧٨٨ ـ ٧٨٩ • وغدت هذه المدينة مقرّاً موقتاً للعاهل منذ سنة ٧٩٤ ثم اتخذت منذ سنة ٨٠٦ وبصورة نهائية عاصمة للمملكة ، لا سيما ولم تعد هذه المدينة منذ ضمّ كل من فريزيا وسكسونيا واقعة على الحدود الشمالية إنما في قلب المملكة : وكان المركز السياسي لكل غربي أوروپة الذي انتقل مع كلوڤيس الى منطقة باريز قد تزحزح وبمعيته المركز الاقتصادي والمركز الثقافي نحو الشمال • وهكذا ازداد الانفصال بين شرقي وغربي أوروپة رسوخاً ذلك الانفصال الذي بدأ منذ القرن الثالث • ومع ذلك فان توسّع الفرنجة بضمهم عدداً من الأقاليم جعل من شرلمان سيّداً للعاصمة الامبراطورية (أي سيداً لروما بمعنى أنه زاد من ارتباط غربي أوروپة بالامبراطورية الرومانية وهي حالياً الامبراطورية البيزنطية أي لشرقي أوروپة) وحامياً للكنيسة الكاثوليكية وللبابوية • وبصورة أكثر من العواهل البيزنطيين بدا شرلمان في هذا الظرف وكأنه الوريث الحقيقي للامبراطور قسطنطين • ولم يعد ينقصه سوى الحصول على اللقب الامبراطوري ليتمّ إسناد هذا المنصب إليه وبصورة رسمية » [1] •

تأسيس الامبراطورية الكارولنجية : كان شرلمان يستعمل في وثائقه الرسمية ومنذ قضائه على الدولة اللومباردية ثلاثة ألقاب هي على التوالي : « **ملك الفرنجة وملك اللومبارديين وبطريق الرومانيين** » • وكانت هذه الألقاب الثلاثة تعبّر وبصورة غير تامة عن الامتداد أو التوسّع الحقيقي لسلطته • وكان بعضهم يظن أن شرلمان كان يحلم بأن يكون له لقب اسمى وأرفع من هذه الثلاثة •

---

(١) لويس بيتري ؛ مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ص ١٩١ •

تولى الحبرية العظمى في روما سنة ٧٩٥ بابا جديد هو ليون الثالث ؛ قد تمّ انتخابه الى هذا المنصب على الرغم من معارضة الأرستقراطية المحلية • وقد رغب شرلمان أن يسيطر عليه ويطويه تحت جناحيه وأن يخضعه الى نفوذه حيث بعث إليه بتوجيهات بالنسبة الى الطريقة التي يجب عليه أن يسوس رعيته بموجبها مما يتنافى مع كون البابا عاهلاً سياسياً ذا سيادة • وأوضحت تلك التوجيهات المرسلة الى الحبر الأعظم دور كل من هذا الأخير وشرلمان : « فعلى البـابا أن يكتفي بالشؤون الدينية بينما يمارس الملك الكارولنجي الشؤون السياسية أو شؤون العمل السياسي • وبما أن شرلمان يرغب في ألاّ يَحُدّ عائق ما ممارسته للعمل بكل حرية ، حتى في روما نفسها ، فان من واجبات الحبر الأعظم في روما كما أوضحت التوجيهات التي بعث بها إليه شرلمان » « ترسيخ سلطة البطرقية التي منحت ومنذ أربعين عاماً خلت الى العاهل الكارولنجي »[1] •

لقد حبكت مؤامرة على المتربّع على الكرسي الأقدس سنة ٧٩٩ ، أي بعد تولّي ليون/٣ هذا المنصب بأربع سنوات • وكان زعيما هذه المؤامرة موظفين من كبار موظفي القصر البابوي ، وكان لهمـا ضلع في التآمر على البابا مع ممثلي الأرستقراطية الرومانية التي أُقصيت عن ممارسة أي عمل من أعمال الإدارة البابوية منذ أوسدت الحبرية العظمى الى ليون/٣ • وعندما كان البابا متوجّها في وسط موكبه في ٢٥ نيسان ٧٩٩ الى كنيسة القديس لوران في لوشينا هوجم من قبل المتآمرين الذين ألقوه أرضاً وأوسعوه ضرباً وحـاولوا اقتلاع لسانه وسمل عينيه • وقد أُنهض وهو سابح في الدماء وكان يختلج كالمحتضر وألقوا به في حجيرة صغيرة في دير القديس إيراكم • ولم يتمكن من النجاة بحياته إلا بتدخّل منـدوبين أو رسولين من ممثلي العاهل الكارولنجي • وبفضلهما أمكنه الإسراع الى مدينة سپوليت في مقاطعة أومبريا الإيطالية ليلجأ إليها وليعالج فيهـا وسرعان ما غادرها الى سكونيا ليلتمس عون شرلمان •

---

(1) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٥ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٢ ؛ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

ترك لجوء البابا ، ذلك التعس البائس الذي لمّا تندمل بعد جروحه والذي أتى ليلتمس نجاته وأمنه من العاهل المنتصر أي من سيّد أوروبة أثراً عميقاً في نفس الحبر الأعظم خاصة وأنه لم يكن مجرّد ضحية فقط ، إنما كان متهما بالزنى وحلف أيمان غموس وبقول الزور . وكان على شرلمان أن يتحقّق في ظروف تلك المؤامرة ويرى إن كانت الاتهامات التي عزيت الى البابا صادقة أم مجرد افتراءات ودسّ ولا أساس لها من الصحة . وهكذا غدا شرلمان المرجع الأعلى للمسيحية والفيصل الذي سيبتّ في أمر تلك الفتنة التي ذرّت قرنها وتأرّثت بين المتربع على الكرسي الأقدس وخصومه . لذلك سافر العاهل الكارولنجي الى روما في السنة التالية (أي سنة ٨٠٠) بعد أن كان أرجع إليها البابا وقد واكبه بحرس قوي . وهكذا غدا مصير البابا بين يدي شرلمان[١] .

ولم تكن الإمبراطورية البيزنطية في ظروف تسمح لها آنذاك بالتدخّل لدعم البابا لا سيما وكانت تجتاز أزمة داخلية عصيبة حيث كان يلي الحكم فيها إمبراطور صغير السن هو قسطنطين/٦ حفيد قسطنطين/٥ الذي كانت سياسته الدينية ضارة بالإمبراطورية البيزنطية . وقد خلعت إيرين والدة قسطنطين/٦ ابنها عن العرش سنة ٧٩٧ وسملت عينيه وألقت به في غياهب السجن . ومع ذلك فإن سلطة إيرين هذه لم تكن قد رسخت بعد لا سيما وقد كثر الطامحون الى العرش البيزنطي من حولها وكانت تريد الاحتفاظ بكامل السلطة بين يديها . ولم يكن لأحد من أولئك الطامحين الى العرش من القوة ما يكفيه لإزاحة إيرين عنه وتولّي الحكم عوضاً عنها مما زاد أمور الدولة البيزنطية تعقيداً وبلبلة وفوضى فلم تجد مجالاً الى التدخّل في الأزمة الحرجة أو الواقع الأليم الذي كانت تحياه البابوية في الظروف الراهنة .

وكانوا في أوروبة الغربية واقفين على متاعب الإمبراطورية البيزنطية ، لا بل فإن بعض المفكرين والساسة غالوا في تقدير مصاعبها ظانّين أنها صعبة

---

(١) لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد/٥ ، القسم/٢ ، الفصل/٢ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ .

الحلّ إن لم يكن من المستحيل أن تنهض تلك الإمبراطورية من عثرتها • وهذا ما لمسناه من خلال سطور رسالة بعث بها أحد أقطاب رجال الفكر في عهـد شرلمـان وهو من أخلص المقرّبين إليـه واسمه الكوان Alcuin في حزيران ٧٩٩ حيث ألحّ الكاتب في رسالته على أن ثمة سلطتين ساميتين هما البابوية والإمبراطورية (ويقصد بها الإمبراطورية البيزنطية) تمرّان بأزمة رهيبة • وقد انهار نفوذ البابوية في شخص ليون/٣ • أما بالنسبة الى المنصب الإمبراطوري فإن من كان يشغله قد جُرِّد منه • ولم يبق والحالة هذه سوى المنصب الملكي (ويقصد به منصب شرلمان عاهل الكارولنجيين) ليصون شرف وسلام : « كنائس المسيح » • وقصارى القول ، وفيما لو أردنا وضع النقاط على الحروف تقول بأنه نظراً لكون العرش الإمبراطوري في الظرف الراهن شاغراً (ذكرنا أنه كان مشغولاً من قبل امرأة) فإن شرلمان مدعوّ الى التدخل بدون أن يأبه بالإمبراطور (لأن هذا التدخل من حق الإمبراطور البيزنطي وحده) وأن يؤَمِّن بنفسه الدفاع عن البابوية وعن المسيحية جميعها • وورد في نهاية هذه الرسالة الموجّهة الى شرلمان وكخاتمة لها : « إنك وحدك الآن من سينتقم من أولئك المجرمين ومن سيكون رائد ومرشد الضالّين وباعث العزاء في نفوس المعذّبين ، فعلى عاتقك تقع مهمة نشر فضائل الصلحاء »[1] •

لم يُخَيِّب شرلمان الأمل المعقود عليـه وتوجّه في خريف سنة ٨٠٠ ماراً بكل من راڤينا وآنكون • وكان العاهل الكارولنجي يوالي سيره نحو روما كأباطرتها الظافرين العائدين اليها • وقد حضر البابا على جناح السرعة ليعدّ استقبالاً فخماً لائقاً بمكانة الزائر العظيم • وكان دخول شرلمان الى روما في ٢٤ تشرين الثاني ٨٠٠ حيث استقبله البابا في موكب عظيم من أعلى درجات كنيسة القديس بطرس وكان محاطاً برجال الدين • وقد ترأس العاهل الكارولنجي في أول كانون الأول اجتماعاً كبيراً عقد في كنيسة هذا القديس ضمّ في الوقت نفسه بعض كبار رجال الدين وبعض رجال الدين العاديين

(١) المصدر عينه ، المجلد/٥ ، القسم/٢ ، الفصل/٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦.

وأعياناً علمانيين . وقد قـُدِّمَت الى الجميع الشكاوى التي اتُّهم بها البابا وطـُلب من هذا الأخير أن يدافع عن نفسه وأن يقسم اليمين على صحة أقواله مما يعتبر إهانة بالغة للحبر الأعظم . ولم يجد البابا مناصاً من أن يؤدّي ذلك القسم المطلوب منه في الثالث والعشرين من الشهر نفسه .

وكان شرلمان في هذه البرهة يحلّ في كل يوم القضايا التي من أجلها قصد روما . فما هي تلك القضايا ؟ إنها تشمل قبل كل شيء المحنة التي كان البابا يتعرّض اليها ، كما كانت هناك قضايا أخرى لم يشر المؤرخون الحوليون الذين تحدّثوا عن هذه الفترة إليها بصراحة . كما وصل الى روما في ٢٣ كانون الأول راهبان موفدان من قبل بطريرك بيت المقدس حاملان الى شرلمان مفاتيح القبر المقدس ومفاتيح المدينة المقدسة نفسها مما زاد في هذه الليلة السابقة لليلة عيد الميلاد من أهمية ونفوذ ذلك العاهل الذي أجمع كل المسؤولين على جعله رئيساً وحامياً للمسيحية . ثمت تحولت آمال هذا العاهل الى واقع في يوم عيد الميلاد حيث استقبله الحبر الأعظم وسط مظاهر الإجلال والتعظيم في كنيسة القديس بطرس . وبعد تلاوة القدّاس وضع ليون/٣ بيده التاج الإمبراطوري على رأس شرلمان . وأخذ الشعب المجتمع في الكنيسة يهتف للعاهل الفرنجي الذي تـُوِّجَ إمبراطوراً . وكان الأفراد يردّدون في هتافهم : « إننا نتمنى لشارل العظيم الذي تـُوِّجَ من قبل الله كإمبراطورٍ سامٍ ومسالم على الرومانيين ، الحياة والنصر » ثم انحنى البابا نفسه أمام الإمبراطور كما تقضي بذلك المراسيم الإمبراطورية القديمة التي وُضِعت في عهد كل من دقلديانوس وماكسيميليان [1] .

وهكذا حقق شرلمان هذه الأمنية ، وكان شاعراً بمدى توسّع وازدياد

---

(1) راجع من أجل ذلك المصادر التالية :

آ ـ لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

ب ـ يوسف كالميت ، المرجع المذكور : العصور الوسطى ، الفصل ٤ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

ج ـ لويس بيبتري ، مجموعة موريس M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، ص ١٩٣ .

سلطته • إنه حمل اللقب الذي استحقّه وذلك لأن أوروبة الغربية كلها وروما نفسها رأتا فيه السيد غير المنازع والجدير بحمله •

الإمبراطورية الجديدة : لقد غدا شرلمان إمبراطوراً ، إمبراطوراً رومانياً، أو حسب التعبير الذي كان هو نفسه يستعمله منذ تاريخ تتويجه ، أمبراطوراً يحكم الإمبراطورية الرومانية • ولكن ألم يكن ثمة إمبراطور ثانٍ يحكم الامبراطورية الرومانية ؟ كانت الإمبراطورية تشكّل كلاً وقد أوسد حكمها في الماضي الى أكثر من رئيس واحد ولكن وحدتها استمرّت ، ولو من الناحية النظرية ، حتى بعد حوادث التقسيم وتجزئة الإمبراطورية • ولم يعد ثمة من أباطرة لتلك الإمبراطورية ومنذ ثلاثة قرون إلا في المشرق (أي في الدولة البيزنطية) • لكنّ هذا الإمبراطور لم يتنازل إطلاقاً عن حقوقه على الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية • وحتى عندما كانت سلطته على ذلك الجزء الغربي معدومة في حَيِّز الواقع فإن هذه السلطة استمرت في قوتها على مجموعة الولايات التي كانت الإمبراطورية الرومانية القديمة مؤلفة منها ؟ وبقي الحلم الذي داعب مخيلة الإمبراطور جستنيان العظيم في جعل جميع ولايات الإمبراطورية القديمة تحت حكمه الفعلي ، على الرغم من التضحيات الجسام التي بذلت من أجل تحقيقه ، فذلك الحلم بقي يراود أفكار خلفاء جستنيان الضعفاء •

ولم تكن أوروبة الغربية تجهل شدّة حرص هؤلاء الأباطرة على استرداد الجزء الغربي من الإمبراطورية • ولم يتقدّر رجال بلاط شرلمان مسبقاً ، كما يبدو ، النتائج المترتّبة على العمل الذي قاموا به (تتويج شرلمان امبراطوراً)• إنهم أدركوا سريعا وبدون تروٍّ أن عدم وجود إمبراطور ذكر في بيزنطة معناه أن العرش الإمبراطوري شاغر ، وأنه تكفي مراعاة الشكليات (إي إقامة حفلة تتويج وفق الأصول المتّبعة) لتضفى على الشخص المتوّج كإمبراطور الشرعية • لقد تذكّروا أنه وفق التقاليد الرومانية الأصيلة القديمة تجب دعوة مجلس الشيوخ الروماني لإجراء انتخاب اصطلاحي أو عرفي أو اتفاقي بحت ، لكن بدون هذا الانتخاب ، وفي المجال الحقوقي الفعلي ،

لا تستند سلطة الإمبراطور إلى أيّ أساس • بيد أنه لم يكن ثمة مجلس شيوخ في روما سنة ٨٠٠ (أي سنة تتويج شرلمان)• لكن هذه العقبة ذُلّلت بجمع أعيان المدينة وهم الذين ادعت النصوص المعاصرة وبصورة دقيقة أنهم أعضاء مجلس الشيوخ ، حيث دعتهم السلطات المعنيّة الى أن يُحَيّوا شرلمان وأن يُسلّموا عليه مستعملين لقبي إمبراطور وعظيم (أوغست) • وهكذا دوّت هتافات في يوم عيد الميلاد في كنيسة القديس بطرس في روما بعد تتويج ملك الفرنجة بيد الحبر الأعظم وهو البطريرك الأسمى أسقف مدينة روما القديمة (أي البابا نفسه) •

إننا نلاحظ مما أوردته تلك الرواية أنه روعيت في رفع شرلمان الى سدّة العرش الإمبراطوري المظاهر الشكليّة بينما اعتبرت أوساط العاصمة البيزنطية في الوقت نفسه أن حفلة تتويج شرلمان غير شرعية وليست سوى مهزلة مسرحية ، ولم تتردّد تلك الأوساط في اعتبار شرلمان العاهل الكارولنجي أحد الرعاع أو السوقة المغتصبين ، وعلى الرغم من ذلك فلا مجال لقياس شرلمان بباقي المغتصبين لأنه أشدهم قوّة •

وجد هذا العاهل نفسه بعد تتويجه في مأزق حرج ، وبدأت المفاوضات بين الجانبين البيزنطي والكارولنجي • وبحسب ما أورده مؤرخ بيزنطي معاصر اقترحت فكرة زواج شرلمان من إيريني • وكانت الفكرة بكل تأكيد ممتازة لإخراج العاهل الكارولنجي من المأزق الحرج الذي وقع فيه • لكن ذلك المشروع أخفق ولم ير النور هذا فضلاً عن أن رئيس وزراء إيريني وهو نقفور قد أطاح بها في نهاية تشرين الأول سنة ٨٠٢ معلناً نفسه إمبراطوراً • إذ ذاك فكّرَ بالعودة بالإمبراطورية (الرومانية) الى النظام أو المبدإ القديم القائم على تقسيمها بين إمبراطورين شريكين أحدهما من أجل القسم الشرقي منها والآخر من أجل القسم الغربي • بيد أن الإمبراطور البيزنطي الجديد ، وهو نقفور ، رفض التنازل عن الحقوق المزعومة التي يدّعيها لنفسه في حكم الجزء الغربي من أوروبة وبالتالي الاعتراف بشرلمان كزميل له أو قسيم أو شريك في الحكم • وقد توتّرت العلاقات بين الإمبراطورين في الفترة

التي أعقبت إخفاق مشروع التوفيق بينهما • ثمت حدثت اشتباكات بين قوات الفرنجة والبيزنطيين على السواحل الشمالية لبحر الأدرياتيك حيث اهتم شرلمان بالاستيلاء على الممتلكات البيزنطية في تلك الأرجاء ولا سيما منطقتي البندقية وإستريا l'Istrie (وهي عبارة عن الجزء الساحلي من يوغوسلافيا الحالية) • وقد سقطت هاتان المنطقتان بيد قوات شرلمان سنة ٨٠٥ ثم حوصرتا من قبل وحدات الاسطول البيزنطي سنة٨٠٦ واستردّهما البيزنطيون سنة ٨٠٧ ، كما احتلتهما قوات الكارولنجيين مجدّداً عندما استؤنفت المفاوضات بين الإمبراطوريتين سنة ٨١٠ •

استغرقت المفاوضات المستأنفة فترة طويلة وأظهر شرلمان أناة وصبراً بصورة لم تعهد فيه من قبل حيث أعاد كلاً من البندقية وإستريا الى الإمبراطورية البيزنطية • ولم تذلّل العقبات التي كانت تعترض سبيل إبرام الاتفاق بين العاهلين إلا سنة ٨١٢ لوفاة نقفور في تموز ٨١٢ ووفاة ابنه ووريثه بعد ستة أشهر (أي في كانون الثاني ٨١٢) من جهة ولموافقة الإمبراطور البيزنطي الجديد ، ميخائيل/١ رانغابيه Rangabé ، على الاعتراف بشرلمان إمبراطوراً وذلك بعد أن بقي البيزنطيون يرفضون الاعتراف به طيلة عشر سنين • وهكذا وصل في ربيع ٨١٢ مدينة آخن (عاصمة شرلمان) موظفان بيزنطيان ساميان أوفدهما الإمبراطور البيزنطي نفسه لإبرام الصلح مع شرلمان • وقد حيّاه كل منهما باسم سيده مستعملاً لقب باسيليوس Basileus ومعناه باليونانية الإمبراطور • وبعد إبرام هذا الصلح أو الاتفاق صار ثمة إمبراطوريتان ، (وبالتالي إمبراطوران) ، إحداهما في الشرق وهي الإمبراطورية البيزنطية التي كان إمبراطورها في الظرف الراهن ميخائيل/١، والثانية في الغرب وهي الكارولنجية وعاهلها هو شرلمان نفسه[1] •

---

(١) راجع تفصيل ذلك في : آ : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٥ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٢ ، ص ٢٤٧ ــ ٢٥٠ .
ب : ــ مجموعة اسحاق وماليه المذكورة ؛ الجزء المخصص للعصور الوسطى ؛ الفصل ٨ ؛ ص ١٣٠ ــ ١٣٣ وعنوانه : الامبراطورية الرومانية في الغرب .

هذا ويجب ألا تفوتنا هنا الإشارة الى بعض النتائج التي ترتبت على تتويج الحبر الأعظم ليون/٣ لشرلمان ليلة عيد ميلاد سنة ٨٠٠. وقد لاحظ المؤرخون وعلى رأسهم كل من الانكليزيين برايس Bryce (في كتابه عن الامبراطورية الرومانية المقدسة The Holy Roman Empire) ول.ب. موس L. B. Moss أن حفلة تتويج شرلمان أثارت مخيلة المؤرخين لأنها جعلت البابوية تعترف به حامياً للمسيحية الغربية وذلك باتباعه طقوس روما في عهدها الإمبراطوري، هذا فضلاً عن إشارة الأستاذ برايس الى أن ذلك التتويج: «كرّس اتحاد الرومان والعناصر التيوتونية، كما وأنه صهر رواسب أو ذكريات الحضارة الجنوبية (ويقصد بها الرومانية) في طاقات القوات الشمالية الناشئة. وكان ذلك منطلق أو نقطة بداية التاريخ الحديث».

ثم والى الأستاذ موس[1] حديثه عن التتويج قائلاً: «ولا ريب في أن عملية التتويج كانت من أبرز وأهم فصول تاريخ البابوية ... ولم تضع حفلة التتويج التي أقيمت في كنيسة القديس بطرس حلاً للصعاب، الناجمة عن العلائق بين شرلمان والبابوية. إنها لم تغيّر شيئاً في الوضع الراهن لتلك العلائق، ولم تضع أيّ حلّ من أجل المستقبل. لكنها مع ذلك، وكما قال الأستاذ برايس بداية عصر جديد من حيث تحديدها للملامح الكبرى للصراع الدائم الذي سيستشري بين البابوية والامبراطورية والذي يعتبر القاعدة أو الاساس الذي قامت عليه السياسة الأوروبية في العصور الوسطى.

«ومنذ عصر الإمبراطور تاوداسيوس، أي منذ الاعتراف بالنصرانية ديانة رسمية للامبراطورية لم يعد ممكناً إيجاد مصافاة دائمة تسود علاقاتهما. ولم يعد بالامكان إيجاد توازن ما في هذه العلاقات إلا بخضوع إحداهما خضوعاً تاماً للاخرى. لا بل فقد غدا من الأصعب أيضاً إيجاد نطاق أو إطار يضمّ المصالح المادية لكل منهما وخاصة بعد أن غدا النفوذ السياسي أي المادي

---

(١) ل.ب موسى Moss ؛ المرجع المذكور ؛ الترجمة الفرنسية ؛ الفصل ١٤ ص ٢٧٥ وقد اثبت المؤلف راي لويس برايس المنقول عن كتابه الامبراطورية الرومانية المقدسة ؛ ص ٤٩ ؛ الطبعة الثامنة لندن ١٨٩٢.

للبابوية أشدّ قوة من أي فترة مضت • ويمكننا أخذ فكرة عن الادعاءات البابوية بالنسبة الى ممارسة الحبرية العظمى للسلطة الزمنية بتذكر أسطورة إنعام أو هبة قسطنطين • بينما تجلّت رغبة الإمبراطور في شدّة حرصه على طي الكرسي الأقدس تحت جناحيه وبسط سيطرته ونفوذه على الحبر الأعظم في مقالة الكوان Alcuin (أحد أقطاب رجال الفكر في عهد شرلمان) التي ورد فيها : « إننا نتمنى منك (لأنه يخاطب شرلمان نفسه) توجيه خطا رئيس الكنيسة الكاثوليكية نحو الطريق الأقوم ، وأن يقودك الإله العليّ القدير بيمينه ويُسَدّد خطاك »• ولم يكن بوسع أحد الأباطرة الأقدمين حتى ولا جستنيان نفسه ، أن يرفض أو يَرُدّ تلك التمنيّات المُرَسّخة لسلطته والتي تتيح له التفوّق على سلطة البابا • بينما وفي الوقت نفسه لا يمكن لأي عاهل قبول أن يكون في مملكته ازدواجية في ولاء رعاياه للبابوية وللدولة • لذلك لم يعد ممكناً تفادي وقوع النزاع بين السلطتين العلويتين في الإمبراطورية وهما السلطة الروحية (أي البابوية) والسلطة الزمنية (سلطة الإمبراطور نفسه) إلا بايجاد حل موقت أو بزيادة قوة أحد الفريقين زيادة تطغى على قوة منافسه وتشل حركته • وما بقي شرلمان على قيد الحياة لم يكن بوسع الحبر الأعظم منازعته تلك السيادة أما في الفتر ةالتي بدأت فيها امبراطوريته تغذّ سيرها على طريق الانحلال في عهد كل من ابنه وحفدته فان بعض المفكرين كيونس Joanès أسقف أورلئان وهينكمار Hincmar مطران مدينـــة رينس تجرّأا على إظهار ميلهما الى النظريات القائلة بالسموّ البابوي ، أي جعل السلطة المقدسة الروحية أو الدينية التي يتمتع بها الحبر الأعظم فوق السلطة الدنيوية التي يمارسها الإمبراطور ••• » •

الحضارة الكارولنجية : تنظيم الامبراطورية الكارولنجية ؛ نظام الحكم وتقسيم الامبراطورية الى ملكيات وولايات كبار الموظفين : إنه على الرغم من المظاهر التي كان شرلمان أول من خدع بها لم يكن ثمة سوى أوجه شبه قليلة بين الإمبراطورية الكارولنجية والإمبراطورية الرومانية القديمة • وقد أظهرت الوثائق الرسمية المبرمة في عهد شرلمان نفسه أن التغيير الطارىء على لقب

هذا الأخير بعد الاعتراف به إمبراطوراً (من قبل الإمبراطور البيزنطي) لم يكن تاماً الى الحدّ الذي يمكن أن تتصوره وتتوقعه • وصار اسم شرلمان يرفق بجملة طويلة تضمّ عدداً من الألقاب غير الواضحة المعالم تماما وهي : « أسمى عظيم المتَوّج من قبل الله ، الإمبراطور الكبير والمحب للسلام الذي يحكم الإمبراطورية الرومانية : Sérénissime Auguste, Couronné par Dieu , grand et pacifique empereur , gouvernant l'Empire Romain • وقد استعيض بهذه الألقاب الجديدة عن اللقب القديم الذي لم تعد له أهمية ما ، وهو بطريرك الرومانيين ، لكن بمقابل ذلك أضيف الى تلك الالقاب الجديدة لقبان آخران وهما « ملك الفرنجة واللومبارديين » •

هذا ولنشر الى أن الإمبراطور الجديد لم يتخذ روما عاصمة له ، كما لم يجعل عاصمته في إيطاليا • فبعد مرور أربعة أشهر على تتويجه غادر شرلمان روما وإيطاليا ولم يعد اليهما ثانية • إنه جعل مدينة آخن أي إكس لاشاپل ، القائمة في وسط بلاد الفرنجة عاصمة له أو مستقرّه العادي • وقد وضع فيها في سنة ٨١٣ بنفسه ، وبدون مساعدة البابا الروماني ، وبدون معونة أعيان روما وأعضاء مجلس الشيوخ الرومان الذين قدموا منذ ثلاثة عشر عاماً يحيّونه في كنيسة القديس بطرس في روما بلقب الإمبراطور ، وبيده التاج الإمبراطوري على رأس ابنه لويس (الذي سيعرف فيما بعد بلقب لويس التقي أو الورع Louis le Pieux) وسط هتافات الفرنجة الذين استشيروا وحدهم من أجل أن يخلف لويس هذا أباه ، والذين كانوا وحدهم المدعوّين الى هذه الحفلة •

فقد شرلمان بعيد سنة ٨٠٠ ولديه شارل وبيين وهما أكبر أولاده مما جعل ابنه الثالث لويس وريثه الوحيد سنة ٨١٣ • وذكرنا أن الإمبراطور جعل ابنه لويس ولي عهده بوضعه التاج على رأسه وسط هتافات الفرنجة على النحو المشار إليه أعلاه • وأدّت وفاة كل من شارل وپيين المبكرة الى أنه لم تثَر سنة ٨١٣ قضية العلائق بين السلطة الإمبراطورية (أي التي سيمارسها ولي العهد لويس الذي غدا بوفاة والده إمبراطوراً) والسلطة الملكية (التي

سيمارسها أخواه ، فيما لو بقيا على قيد الحياة في الأجزاء التي كان الاب سيمنحها لهما لو بقيا على قيد الحياة) علماً أن هذه القضية كانت قد وضعت على بساط البحث ونوقشت في مطلع سنة ٨٠٦ عندما كان أخوا لويس ما يزالان على قيد الحياة . وقد رغب الإمبراطور آنذاك وانطلاقاً من تقليد مرعيّ الاجراء عند قبائل الفرنجة ، ان يُحَدّد مسبقاً دقائق ولاية عهده . وتضمّن الحل الذي قرّر تطبيقه تقسيم مملكته الى ثلاثة أقسام أو دول متساوية ضامة الأجزاء الكارولنجية ، أي القيام بالتقسيم وفق طريقة الفرنجة بدون ان يفكر بمنح اللقب الإمبراطوري الى أحد أولاده الثلاثة وحتى بدون ان يفكر فيما إن كان هذا اللقب سيستمر بعد وفاته . ويتضح لنا من ذلك أن شرلمان كان بعيداً جداً عن فكرة تأسيس إمبراطورية دائمة وفق النموذج الروماني القديم ، أي استمرار هذه الإمبراطورية ككلّ لا يتجزأ بعد وفاة الإمبراطور الحاكم وصيرورتها الى الامبراطور التالي . لذلك فان إمبراطورية شرلمان قامت آنذاك وفق تقاليد الفرنجة أي أنها الخلف الطبيعي لملكة الميروفنجيين القديمة بالاضافة الى ما ضُمّ إليها من أقاليم آلت الى شرلمان بنتيجة الفتح حتى صارت ضامّة رقعة كبيرة جداً لدرجة أن العنصر الجرماني كان في بعض أجزائها معدوماً فلم يكن بين سكان هذه الأجزاء جرمان إطلاقاً .

أشار الاستاذ موس الى الفروق القوية التي باعدت وفي شتى الميادين كلاً من هاتين الإمبراطوريتين (البيزنطية والكارولنجية) عن أختها فقال بصدد ذلك ما معناه : « ولا ريب في أن ما حمل الإمبراطورية البيزنطية سنة ٨١٢ على الاعتراف بامبراطورية شرلمان هو بقاء النظرية القائلة بوجوب ديمومة واستمرار الإمبراطورية الرومانية التي يحكم جزأيها الغربي والشرقي إمبراطوران شريكان Co - Empereurs . ومع ذلك فقد ظهرت ظروف جديدة في غربي أوروبة جرّدت هذه النظرية من أن تكون لها أية علاقة بالواقع . فقد ظهر اختلاف في شِقّي الإمبراطورية على الصعيدين الحقوقي والإداري ، ومن وجهة النظر المذهبية ومن زاوية الفكر واللغة وفي مجال المصالح الاقتصادية والسياسية لكلتا الإمبراطوريتين . فكل ذلك أدّى الى

وجود هوة بين الشرق والغرب المنفصلين جغرافياً في هذه الحقبة بواسطة الدول السلافية القائمة في منطقة البلقان . أما على صعيد الواقع وفي مجال التطبيق فان علائق الإمبراطورية الغربية ، كما صار بوسعنا تسميتها منـذ ذاك ، بالإمبراطورية البيزنطية فهي علائق دولتين غربيتين ولا تشدّ إحداهما الى الأخرى أية مصلحة ، هذا وان كانت كل من هاتين الدولتين تمارس الدفاع ببسالة وإصرار عن حدودها لكنهما وبصورة أكيدة كانتا حريصتين على حلّ خلافاتهما وبصورة سلمية ، ومع ذلك فلم تعد كل منهما تقرّ وجهة نظر الأخرى بالنسبة الى الموقف الذي يجب عليها اتخاذه أو السياسة التي يجب عليها اتباعها بازاء البرابرة » [1] .

وفي إطار الإمبراطورية الكارولنجية الجديدة احتفظت بعض الأقاليم ، الخالية من عناصر الجرمان ، وبعض الأقاليم الاخرى المأهولة بالجرمان ليس بذاتيتها وطابعها الخاص فقط ، إنما بقسط وافر من استقلالها الذاتي ، وتلك حال كل من لومبارديا وآكيتانيا التي منحت كل منهما كيان ملكية . ورغب شرلمان في أن يكون حكم ذينك الإقليمين تحت إشرافه بإسناده حكم أو عرش لومبارديا أول الأمر الى ابنه پيين وبعد وفاة هذا الأخير منح حكمه الى حفيده برنارد . بينما منح ابنه لويس عرش آكيتانيا . ثمت هناك مقاطعة باڤاريا التي منحت السلطة العليا فيها وفي ظروف مماثلة الى شخص أو شخصين ممن كانوا موضع ثقته ، وكان كيانهما ككيان حكام المقاطعات المحليين في أيـام الميروڤنجيين وهم الأدواق Ducs . وهنالك كذلك مقاطعة غاسكونيا جنوب غربي فرنسا والمقاطعات اللومباردية في جنوب إيطاليا التي احتفظت بحكامها (أي أدواقها) المحليين . وثمة أخيراً مقاطعة الدولة البابوية ، أو وفق التعبير المعاصر « دولة القديس بطرس » ، هذا وان كنا نجهل وبشكل دقيق مدى تبعية البابا ، فيما يتعلق بممارسة سلطاته الدنيوية ، الى الامبراطور » [2] .

---

(١) ل.ب. موس ، المصدر عينه ، الفصل ١٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٥١ .

كما لاحظ الأستاذ لويس هالفين نفسه أن ثمة بعض المناطق في إمبراطورية شرلمان تمتعت بادارة مركزية من نوع خاص انفردت بها من دون سائر أقاليم تلك الإمبراطورية هذا ولو أن اختلاف الإدارة في ولايات إمبراطورية شرلمان لم يحل دون قيام وحدة حقيقية بين تلك الولايات فقال الأستاذ هالفين وفيما يتعلق بهذا الموضوع ما معناه : « وثمة أيضاً في إمبراطورية شرلمان بعض المناطق المتمتعة بادارة مركزية خاصة بها وتميّزها عن سواها من المناطق ، كما تمتعت بسياستها الخارجية الخاصة بها . وفيما يتعلق برقعة الدولة اللومباردية القديمة فان شرلمان مضى بعيداً في تمييزها عن غيرها حيث كان يصدر من أجلها مراسيم وقوانين خاصة بها ولا تسري إلا عليها » .

« وعلى الرغم من أوجه الخلاف هذه بين مختلف ولايات إمبراطورية شرلمان فهناك بعض العوامل ساعدت على قيام وحدة حقيقية بينها . **واول هذه العوامل وحدة العقيدة** مع أن هذا العامل وحده غير كافٍ لاحتفاظ هذه الإمبراطورية الفسيحة الرحاب بالتجانس والانسجام . أما **العامل الثاني فهو متانة الأطر أو الملاكات الادارية** بالنسبة الى موظفي هذه الإمبراطورية ، فحيثما ذهبت داخل نطاق ولاياتها أو أقاليمها تجـد نفس جهاز الموظفين الإداريـين أو أجهزة شديدة الشبه ببعضها بعضاً . **والعامل الثالث** وهو الأهم ، **هو خط السير او السياسة التي يفرضها الامبراطور بحزم على جميع ولايات امبراطوريته** .

« فاذا ما تركنا جانباً ولاية غاسكونيا ، وإيطاليا الجنوبية التي كانت من قبل خاضعة الى اللومبارديين والتي استمرت مقاومتها التقليدية لحكم شرلمان (أو لأي حكم أجنبي عنها) ، علماً أن العاهل الكارولنجي لم يدّخر وسعاً في جعل إدارة هذا القسم من إيطاليا شبيهة بحكم وادارة باقي الولايات ، وأنه ما كان يكفّ عن ارسال الحملات التأديبية لمعاقبتها على محاولتها الخروج عن طاعته ؛ كذلك لو تركنا جانباً الممتلكات البابوية في إيطاليا والتي لم يكن مفتشو شرلمان يحضرون إليها أو يفتشونها أسوة بباقي ولايات الامبراطورية ، ففيما عدا هذه المناطق الثلاث (غاسكونيا وجنوبي إيطاليا والدولة البابوية) كان للموظف الفرنجي الموفد من قبل السلطة المركزية حق التفتيش بحرية في

جميع الولايات »[1] .

وعلى غرار العهد الميروفنجي كان الكونت يرأس الجهاز الاداري في الولاية . وقد تربّى هذا الكونت وأُعَدَّ في مدرسة بلاط شرلمان وسيتصل اتصالاً مباشراً مع الحكومة المركزية مرة واحدة في العام أثناء انعقاد دورة الجمعية العامة ، وبواسطة مراسلاته المستمرة مع تلك الحكومة التي كان بوسعها أن تنقله الى ولاية أخرى أو أن تعزله . ويدير هذا الكونت دفّة الحكم في الولاية التي عُيِّنَ لها وفي النواحي التي حُدِّدَت له بدون استثناء الحياة العدلية والجيش . وهكذا وجد في جميع رقعة هذه الإمبراطورية مئين من الكونتات أمكنهم وبسرعة أن يحلّوا مكان موظفي الادارة السابقين خاصة وأن البلاد الجرمانية واللومباردية في نطاق هذه الإمبراطورية أَلِفَتْ من قبل نظام حكم أو إدارة مشابهة .

وثمة أيضا **مساعدو الكونت** حاكم الولاية ونخصّ بالذكر منهم **موظفين ثلاثة : هـم ١ ـ نائبه أو وكيله** المتمتع بنفس السلطات والذي يقترح الكونت نفسه على الامبراطور تعيينه فيتمّ ذلك ؛ ٢ ـ **حكام المقاطعات الصغرى** أو أجزاء الولاية أو المديرية (فهم والحالة هذه بمثابة قوّام المقام أو القائمقامين حكام الأقضية التابعة للمحافظات) ؛ ٣ ـ **الاسقف** ويعتبر هذا الموظف عنصراً أساسياً هاماً يسهر على حسن سير الإدارة على يد الهيئة الحاكمة في أبرشيته . وقد اعتبر الأسقف في النظام الإداري الفرنجي أداة فعالة لمراقبة شؤون الادارة في مختلف الولايات . وإن يكن الأسقف ، وبالنسبة الى الناحية النظرية الصرفة ، يجري انتخابه من قبل أفراد الهيئة الإكليريكية في أبرشيته ، إلا أنه وعلى صعيد الواقع العملي كان ينتقى من قبل العاهل الكارولنجي نفسه والذي يجعل منه أحد موظفي الإدارة العامة ، كما يعهد اليه بمهام رسمية ويستدعيه الى البلاط ، ويدعوه الى حضور جلسات الجمعية

---

(١) لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٢ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

العامة ويبعث اليه بتوجيهاته وتعليماته ، ويكلفه ، هو والكونت وفي الوقت نفسه ، أن يعلنا مراسيمه وقرارته وأن يراقبا تطبيقها •

ولم تفت ملاحظة دقائق تلك الإدارة على الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الذي تحدث عنها مثبتا آراء كثيرين من المؤرخين الإنكليز بصورة خاصة فقال بصدد ذلك ما نصه : « وقد قسم شارلمان إمبراطوريته الواسعة الى أقسام إدارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائباً عن شارلمان نفسه في منطقته ويتمتع تبعاً لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء في النواحي المالية أو القضائية أو الإدارية • فالكونت مسؤول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، وكذلك عن إعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، وفضلاً عن الإشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية• وكان للكونت أن يختار مساعدين ونواباً يساعدونه في مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين وفي نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الإمبراطورية الى القصر الملكي في العاصمة (اكس لاشاپل) حيث يقضون بضعة أسابيع في تسليم ما في عهدتهم من أموال فضلاً عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة • أما هذا المجلس l'Assemblée Générale فكان بمثابة مجلس استشاري ينعقد وفق إرادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الإمبراطورية وشعوبها ـ لا الفرنجة فحسب ـ فضلاً عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات • ولما كان لا بد لحكام الأقسام الإدارية الواقعة على الحدود (أي ولايات الثغور والعواصم) من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فإن هذه الأقسام ـ التي أطلق عليها ماركيات Marchés ـ عيّن لكل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع في وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت في كونتيته ، على أن أهم إصلاح إداري أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi • وكان هؤلاء المبعوثون يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الإدارة • واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين

أحدهما من رجال الإدارة والثاني من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الإداري والكنسي في الدولة • كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين في دوائرهم وإنما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يُوَطّدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالي الأقاليم » (١) •

وعلاوة عما ذكر فإنه لم يتمتع أميرا الأسرة الملكية اللذان أوسد إليهما شرلمان حكم كل من مملكتي آكيتانيا ولومبارديا بسوى ظلّ السلطة الفعلية فكان عليهما الأنقياد الى التوجيهات المرسلة من قبل الرئيس الأعلى ، وأن يطبقا قوانينه ومراسيمه ، وأن يعرضا عليه القضايا المعقدة وتنفيذ قرارته بصددها ، وأن يشتركا كموظفين عاديين في دورات اجتماعات الجمعية العامة الكبرى التي تعقد في كل عام لذكر وإيضاح الأعمال التي قاما بها في مختلف النواحي العسكرية والسياسية وحتى بالنسبة الى الشؤون المالية على ما يبدو • ولم يترك لهما سوى جزء يسير جداً من حرية العمل الشخصي ، إنما كان يجب عليهما ألا يصدرا إلا عن رأي الإمبراطور •

وكانت توجد على طول حدود الإمبراطورية ولايات أو أقاليم التخوم والعواصم أي ولايات الحدود وقد تكون رقعتها كبيرة جداً ومع ذلك فإنها لم تستثن من الخضوع الى النظام الإداري العادي الذي تدار بموجبه معظم ولايات الإمبراطورية إلا لتوضع بصورة تامة تحت الإشراف المباشر للعاهل الكارولنجي • وبنتيجة كون الاحتكاك مع العدو في هذه الولايات مستمراً فقد اعتبرت ولايات الثغور هذه مناطق احتلال عسكري ، أو كما كانت تدعى Les marches • وكنا أشرنا من قبل الى تلك الولايات التي ركزت جميع السلطات فيها بيد قائد القوات العسكرية وهو الكونت أو

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ؛ المرجع المذكور ؛ ج ١ ؛ الباب الثامن ؛ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ نقلا عن المصادر التالية ١ ـ **ايجينهارد** : حياة شرلمان ص ٤٥ ؛ ٢ ـ **دينسلي** Deanesly ، ٣ ـ **كلانيكلوز** Kleinclaucz ؛ ٤ ـ **مجموعة كمبردج** عن تاريخ العصور الوسطى ؛ ص ٦٨٠ و ٦٨٢ ـ ٦٨٣ ؛ ولاڤيس Lavisse الجزء ٢ ؛ القسم ١ ، ص ٣١٩ ، وديڤيس Davis والخ ...

الدوق أي القائد الأعلى لولاية الحدود الذي تقوم مهمته على توطيد الأمن في ولايته حتى خط الحدود الفاصلة . هذا ولو أن الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ذكر ، كما أوردنا أعلاه ونقلاً عن مجموعة كمبردج (المجلد/٢ ، ص ٦٨٠) أن لقب حاكمها هو المركيز . لكن مهما كان كيان أيّ من هذه الولايات (ولايات عادية أو ملكيات أو ولايات متمتعة بشيء من الاستقلال الذاتي أو ولايات حدود والخ ...) فإن الإمبراطور هو المرجع الأعلى والأخير لكل منها . وعند بلوغ المواطن الذكر الثانية عشرة من سنيّ حياته يجب عليه أن يرتبط بقسم ولاء أي تبعية بشخص الإمبراطور وأن هذا القسم لا يمكن حلّه أو نقضه وهو يتضمن تَعَهّد المواطن بأن يخدم بجسده وأملاكه أو ثروته وحتى الموت العاهل بدون أي تقييد أو استثناء .

وكان رعايا الإمبراطور الذين صاروا يدعون بالأوفياء الى الإمبراطور Les fidèles de l'empereur ، يجتمعون في كل عام في أول فصل الصيف الى جانبه . وكان هذا الاجتماع يدعى بالجمعية العامة أو الجمعية القضائية أو السياسية le plaid général . وكان جميع رعايا الإمبراطورية يحضرون ، من حيث المبدأ ، هذه الاجتماعات . ولم يكن بوسع أحد من أعيان الإمبراطورية أن يتغيب عن حضورها إلا لعذر قاهر . ويمكن أن نستنتج أن أفراد عامة الشعب لم يكونوا يحضرونها كلهم أو قليلاً ما حضروها . ومع ذلك فإنه بنتيجة أنه قلما مرّت سنة طبيعية بدون قيام حرب وان انعقاد جلسات الجمعية يسبق بدء زحف القوات ونشوب القتال ، وان الفرق التي تقرر اشتراكها في الحملة المعينة والمحدّدة يجب أن تحشد بالقرب من المقرّ الإمبراطوري حيث يقيم أعيان الإمبراطورية الذين يدعون في هذه الحالات الى المناقشة مع العاهل ، وينتخب هذا المقر بصورة عادية بالقرب من مسرح العمليات العسكرية المقبلة . إن أفراد عامة الشعب الذين يسمعون بعد قليل إعلان التدابير المقترحة من قبل ممثليهم والتي رأى الإمبراطور وجوب إقرارها ، فأفراد الشعب هؤلاء يتوهّمون أنهم كانوا محتكين بصورة مباشرة مع العاهل . وعلى الصعيد النظري كانت تعرض على هذا الأخير في

تلك الاجتماعات القضايا العويصة الشائكة وشكاوى أفراد رعيته . إنها لحظة فريدة في حياة هذه الدولة ، إنها الفترة التي يبدو فيها جميع سكان الإمبراطورية وكأنهم يؤلفون شعباً واحداً يقف صفاً متراصّاً من وراء سيّد واحد [1] .

إن السلطة الشخصية لهذا الرئيس هي في نهاية المطاف المحرّك الرئيسي للدولة . ولا تقوم بين العاهل وأفراد رعيته تلك الأعداد التي لا حصر لها من الدوائر والتي كانت إحدى نقائص الإمبراطورية الرومانية . ويدير الإمبراطور الجديد دفة الحكم بمساعدة عدد محدود من المستشارين ومن كبار الأعيان والموظفين الذين يمارسون الحكم وفق تقاليد الفرنجة القديمة ، مديرين على حد سواء شؤون قصر الإمبراطور وشؤون المصالح العامة . ونحن نعرف أربعة من كبار الموظفين هؤلاء الذين كانوا قابضين على أزمّة الحكم والذين زادت أهميتهم في البلاط الميروفنجي ، حيث كانوا يأتون مباشرة في الأهمية بعد منصب حاجب القصر هذا المنصب الذي ألغي منذ عهد پيپن القصير ، وهؤلاء الموظفون هم على التوالي : مدير الغرفة الخاصة أي مدير المكتب الخاص le Chambrier ، وصار بمثابة المدير الحقيقي للقصر الإمبراطوري ، ومدير الشؤون القضائية ، وهو كذلك يترأس الحفلات التي تقام في القصر ويدعى le sénéchal ، ورئيس السقاة أو مدير التموين le bouteiller ou sommelier وأخيراً مدير زرائب الإمبراطور le maréchal ou connétable الذي سرعان ما غدا في القرون الوسطى قائداً عاماً لعدد من الولايات . وكان تحت إمرة هؤلاء الموظفين الأربعة السامين عدد من الموظفين المسؤولين عن جناح الإمبراطور في القصر الإمبراطوري ويدعون Chambellanes والطهاة والسقاة échansons وسيّاس لدوابّ الإمبراطور Palfreniers ؛ وثمة كذلك رئيس كهنة القصر archichapelin ، وهناك أيضاً حاكم القصر أو كونت القصر le comte du palais وهو يرأس إدارة الشؤون القضائية ،

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٥ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٢ ؛ ص ٢٥٤ .

ومدير ديوان الخاتم l'archichancelier لإدارة شؤون هذا الديوان ، لكن هذه المصالح أو الدواوين لا تضم عدداً كبيراً من الموظفين وهي بسيطة ولا يصدر معظمها إلا عن رأي العـاهل[1] .

وهكذا ليس من ميدان لا نرى فيه أثراً لعمل ونشاط الإمبراطور . ولم يكن شرلمان يدير بنفسه شؤون الحياة الدنيوية في دولته فحسب إنما لم يترك أيضاً لأحد سواه إدارة شؤون الكنيسة . ولقد مر بنا من قبل أنه كان يتدخّل في انتقاء الأساقفة ، كما يتدخل بنفس الصورة في تعيين رؤسـاء الأديرة خاصة وقد زاد كثيراً عدد الاديرة التي كان استثمار مواردها مؤجّراً الى رجال علمانيين ، وأنه لم يكن بوسع أصحاب المناصب الإكليريكية الهامة في الواقع ممارسة مهام مناصبهم الا بعد حصولهم على موافقة شرلمان نفسه . كما مضى الى أبعد من ذلك حيث كان يظن نفسه أنه مجرد من أي سلطة إن لم يراقب عن كثب التدابير المتخذة من قبل الاساقفة في أبرشياتهم مراقبـة دقيقة ، وإن لم يحدد لهم الخطوط العريضة لخطتهم في العمل ، وإن لم يدعهم الى القيام بتحقيق في هذه القضية أو تلك من القضايا المتعلقة بالنظام الإكليركي أو بممارسة طقوس العبادة ، وإن لم يُعَدّل إذا ما دعت الحاجة الى ذلك القرارات التي يتخذونها حتى ولو كانت متعلقة بأدقّ القضايا الدينية البحتة . وكان في مراسلته مع رجال الدين يطرق جميع الموضوعات سواء ما يتعلق منها بتحديد تواريخ الأعياد الكنسية المتنقلة (كعيد الفصح) أو المتعلق بالمسائل العقائدية أو بطقوس العبادة أو بالاحتفال بعيد المعمودية أو التعميد . إنه لم يترك لأحد سواه اتخاذ القرار النهائي في أمر من الأمور . كانت سلطته بادية للعيان في جميع نواحي الإدارة وكانت الاوامر التي يصدرها واضحة ولا تستدعي نقاشاً أو معارضة . ولم يكن بوسع أحد أن يضع تحديداً نظرياً للامبراطورية الجديدة لكن مما ليس بوسع أحد أن يجهله هو أن بلاد الإمبراطورية الكارولنجية الممتدة ما بين نهر الإيبرو Ebro والإلب وبين بحري

---

(١) لويس هالفين ، مجمعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٥ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ؛ ص ٢٥٤ .

الشمال والأدرياتيكي ، وعلى الرغم مما فيها من اختلاف في الأخلاق والتقاليد القومية والاعراف والتطبيقات القضائية التي بقيت حجر عثرة عرقل سبيل توحيد شعوب هذه الامبراطورية ، فعلى الرغم من كل ذلك فان إرادة الإمبراطور في كل انحاء الإمبراطورية هي القانون المرعيّ الإجراء بالنسبة الى الجميع[1] .

إحياء الحضارة القديمة (الرومانية) في أوروبة الغربية : لم تكن الإمبراطورية التي أعلن عن قيامها سنة ٨٠٠ ، كما فكّر رجال البلاط الكارولنجي في بادىء الامر مجرد إحياء للامبراطورية الرومانية ، لكن من الثابت حقاً أن شرلمان شخصياً لم يأل جهداً في إحياء ما كان يعتبر حلية من الحلي التي كانت الإمبراطورية الرومانية في أيامها الأولى تزين بها جيدها وهي تقدير منتجات الفكر والفنون الجميلة تقديراً قد يبلغ حد التقديس والعبادة.

وكان ما يدعى غالباً بالنهضة الكارولنجية أفضل من مجرد محاولة بسيطة لإيقاظ الماضي المندثر من سباته . ولا جرم أن الصناع الأوائل الذين حصروا أطماعهم في تقليد منجزات الحضارة اللاتينية سواء أكان حظهم من النجاح في هذا التقليد قليلاً أم كثيراً ، وسواء أكان حذقهم في إنجاز هذا العمل بنسبة عالية أم منخفضة ، لكن بصورة تدريجية وبعد أن تأمّن الربط في ظل هذه النهضة بين القديم والحديث فإن خلفاء الصناع الأوائل والوا الجهود وضاعفوها . وهكذا فان فترة منتحلي روائع الشعر والنثر الكلاسيكية القديمة في أوروبة الغربية المسيحية قبل أيام الكارولنجيين أعقبتها فترة تفكير حرّ أصيل وفن شخصي أصيل . وليس ذلك في واقعه سوى قانون التطوّر الذي تمرّ به جميع النهضات . إنها تمهّد الطريق أمام الحضارات الجديدة .

١ ـ مصير الحضارة القديمة في أوروبة الغربية قبل شرلمان : وجد الكارولنجيون الأوائل غالبا في حالة تقهقر فكري مقلق . لقد اختفت

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٥ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٢ ؛ ص ٢٥٥ .

المدارس العامة التي عرفتها البلاد في فترة الحكم الروماني منذ فترة طويلة ، ولم يستعض عنها إلا بمدارس دينية غير مزدهرة هدفها تهيئة وإعداد رجال الإكليروس والتـــي أعاقت الأزمات السياسية التي طالما غرقت دولة الفرنجة في خضمّها نموها وازدهارها •

وكان أسقف آرل في مقاطعـــة پروڤانس على اتصال مستمر في النصف الاول من القرن السادس بتجار كبار أميّين لا يقرؤون ولا يكتبون ، وقد استغرب ذلك • وبعد مائة وخمسين عاماً غدت القراءة والكتابة في غاليا من مظاهر الترف والرفاه التي لم يستطع كثيرون من رجال الإكليروس حتى ولا بعض الأساقفة الوصول إليها • ففي ظل ظروف كهذه أمسى من غير المجدي الحديث عن أن أية رغبة لنشر الثقافة العامة قد تلاشت واضمحلت ، وأن اللغة اللاتينية التي غدت اللغة الوحيدة المستعملة في الكتابة ، قد تطرّق إليهـــا وبشكل مُرَوّع الفساد ، وأن الكتاب أضحى شيئاً لا يمكن العثور عليه تقريباً ، وأن الأفراد النادرين الـــذين كانوا ينكبّون على الدراسة ، كان طموحهم بصورة عامة يقف عند تمكّنهم من قراءة التوراة وتدوين بعض الجمل والعبارات الركيكة أو المقبولة وبالاستعانة ببعض النمـــاذج المدونة والتي تحاكي من قبل الكتبة لصياغة وتدوين محاضر بعض الأعمال الرسمية ، أما الشعور الفني فقد أصبح مفقوداً أو يغطّ في سبات عميق أو حتى ميتاً • وان العدد الضئيل جداً من المخطوطات التي وصلتنا من غاليا في القرن السابع يبين مدى اتساع هـــذا الخرق أو النقيصة ، ولم يكن ثمة ما يعادل رداءة الصور الصغيرة التي أنجزها الفنّانون آنذاك سوى رداءة خط الكاتب الذي كُلّف بزخرفة تلك الصور •

ولحسن الحظ لم تنحط جميع مناطق أوروپة الغربية الى هـــذا الدرك الأسفل فتمكنت الحضارة القديمة من أن تجد مأوى وملجأ موقتاً في بعضها ليصونها ويحميها من البربرية الطاغية •

ففي إيطاليا مثلاً لم تندثر معالم الحضارة القديمة وبقيت بادية للعيان وتـقـدّرها عقول جميع الأفراد ، لا بل يمكن القول بأن آثارها بقيت ملاحظة

لناظري جميع الأشخاص ، وبقي عـدد الأوابد التي كانت قد شيّدت في الارض الإيطالية والتي كانت منتشرة في جميع بقاعها ، والمخطوطات التي كانت تغصّ بها خزائن المكتبات كبيراً • وقد سعى العاهل الأوستروغوطي تيودوريك في النصف الاول من القرن السادس جهد طاقته لئلا تبقى روائع التراث القديم عقيمة • إنه رغب في أن يكون هو نفسه أيضاً في عداد الملوك المشجعين للرازة في تشييد أوابدهم • كما لم يقصّر في دعم بعض أساطين الفـكر كبويـّس Boece وكاسّيدور الذين اهتموا بأن يقدموا الى العـالم المسيحي ثقافة مصفّاة نظيفة من شوائب الوثنية وملائمة لمتطلبات العقيـدة الجديدة ، ولكنها مع ذلك ثقافة احتفظ فيها بالأطر العامة وبطـرق التعليم وبالنتائج الأساسية التي كانت للثقافة الوثنية القديمة•وكان ممكناً أن تكون هذه الجهود أكثر جدوى لو لم يظهر بعيد ذلك بعض المفكرين الذين كانوا شديدي التعلّق بالديانة المسيحية وعلى رأسهم البابا غريغوار العظيم ، الذين راعتهم ملاحظة تذوّق الكثيرين من رجال الدين قراءة تواليف الكتّاب الوثنيّين القدامى ، فوجدوا من الضروري تهديدهم بالحرمان • ولكن في تلك البقعة التي تعتبر عريناً للثقافة الكلاسيكية القديمة ، وعلى الرغم من الحظر أو المنع الذي فرضته السلطات الكنسية العليا فقد بقي المثقفون يتذوّقون الأدب الوثني القديم • وقد أعجب اللومبارديون بهذا الأدب الى درجة أنهم أخذوا في منتصف القرن الثامن يقومون برعاية الأدب القـديم والأدباء ، وتعلّقوا بإحـاطة أنفسهـم بكتّاب كبـار من أمثـال بولس دياكر Paul Diacre وهو من اللومبارديين كذلك وقد تتلمذ على يـد النحوي فلاڤيان Flavien حيث تابع دروسه في بلاط باڤيا والـذي ظهر لنـا متمثّلاً ومحباً للأدب الكلاسيكي القديم •

كما حفظ في إسبانيا قسم من الثقافة الكلاسيكية القـديمة فلم ينهر • وبعد أن زادت قوة الكنيسة في هذه البلاد وبسرعة منـذ القرن السادس اهتمت بإيجاد نظام جديد للتعليم كفيل بأن يحلّ مكان المدارس التي كانت موجودة في البلاد في العهد الروماني • لكن على الرغم من حذر الكنيسة

من النصوص الوثنية فإنها لم تر أن بمقدورها تجاهل روائع الأدب الوثني القديمة • وتدين العصور الوسطى الى واحد من أعظم علماء اللاهوت في إشبيلية وهو إيزيدور الشهير الذي كان طوال خمسة وثلاثين عاماً أسقفاً لهذه المدينة بوضع أول دائرة معارف وقد كثّف فيهـا المعارف القديمة بصورة تمكّن المسيحيين من الإفادة منها حيث جعلت تلك المعارف في خدمة العقيدة المسيحية • فهذا العمل الذي صادف نجاحاً عظيماً للغاية ندهش في أيامنـا كيف أنه تمتّع بذلك التقدير في أيامه لأنه بالنسبة إلينا ليس سـوى عمل متوسط الأهمية • لكن دائرة معارف إيزيدور هذه تمتعت بتلك الأهمية على اعتبار أنها كانت محاولة يائسة لإيقاف انتشار تلك الثقافة الوثنية التي لم يكن ثمة أي بديل لها • ولم تمكّن الفوضى السياسية التي عانت منهـا إسبانيا الشيء الكثير ، ولا الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، إسبانيا من الاحتفاظ بدورها الخلاّق الذي مارسته واحتفظت به في منتصف القرن السابع • لكن الثقافة القديمة كانت قد تمكنت من أن تجد حتى هـذه الفترة في شمالي أوروبة الغربيـة ملجأً وباتت في حرز أمين حيث انبرى للدفاع عنهـا المسيحيون الإيرلنديون ، هؤلاء الاسكتلنديون الذين أشرنا من قبـل الى تفاهم المتقد حماساً • ومما نمّى الشعور الديني عنـدهم أنه رافقه ظمأ شديد للتعلّم والفهم • ونظراً لأن هذه البلاد الوديعة لم يزعج أي غزو أجنبي الى ذلك الوقت هدوء أديرتها فقد تمكنت تقاليدها الفكرية التـي كانت في القرون الاولى من الاستمرار فيها بصورة أسهل من باقي المناطق • إن الإيرلنديين الـذين كانوا واثقين من أن عقيدتهـم لا يمكن أن تتأثر بالأدب الوثنـي القديم ، أخذوا يعبّون عبّاً ودونما تحفّظ ، مخالفين بعملهم هـذا موقف مسيحيي القارة الأوروبية ، من الثقافة القديمة ، ليس من الدراسات العلمية فحسب وهي التي كان الرومان قديماً يفردونها بمكان خاصّ في مناهجهم إنما بدؤوا يتذوّقون جمال الأدب اللاتيني • لقد أخذت تلذّهم قراءة قصائد الشاعرين أوفيد Ovide وفيرجيل ولم يخشوا أن يقوموا بأنفسهم بقرض الشعر وفق نموذج الشعراء الوثنيين منطلقين من الفكرة التي تكوّنت لديهم أنهم إن صاروا ضليعين في اللغة والآداب اللاتينية فإنهـم سيكونون مُهَيَّئين

بصورة أحسن الى قراءة وشرح النصوص الدينية • وقد بقي منهاج التعليم الروماني القديم المتضمن دراسة اللغة وتاريخ الأدب الإغريقيين واللاتينيين بينهم نقياً صافياً ولم تشبه أية شائبة باستثناء هذه الإضافة الرئيسية : وهي دراسة اللاهوت التي تعتبر تاج وسرّ وجود سبعة فروع المعــرفة • وتلك الفنون الليبرالية الحرة السبعة التي قـُسِّمت الدراسة فيما بينها هي : النحو والفصاحة (البيان) dialectique والجدل وتدعى العلوم الثـلاثة Trivium والحساب والفــلك وعلم الموسيقا والهنــدسة وتدعى العــلوم الأربعــة Quadrivium•

وعندما صار رجال الدين الإيرلنديون مُبَشِّرين فإنهم نقلوا الى البلاد التي حلّوا فيها تذوّق ، أو بالأحرى ، الحاجــة الى الثقافة الكلاسيكية • لكن على حين انحصر نشاطهم الفكري في القارة الأوروبية في عــدد من الأديرة المنعزلة كدير بوبيّو Bobbio في شمالي إيطاليا ، فإن انتشار علومهم قد تمّ بصورة أوسع وأسرع في كــل من اسكتلندة وإنكلترا حيث كان اعتناقهما النصرانية وتنظيم هيئة رجال الدين فيهما من عمل هؤلاء المبشرين وحيث أمكنهم أن يجعلوا رجــال الدين في هاتين المنطقتين على غرارهم • وهكذا ازدهرت الثقافة الكلاسيكية مجدداً في إنكلترا وفق التقاليد الإيرلندية الصرفة ، تلك الثقافة التي أتى معلمون إيرلنديون في بادىء الأمر من جزيرتهم للقيام بمهمة نقلها الى الربوع الإنكليزية وجعلها تتأقلم في هاتيك الربوع • وقد خرّجت هذه المدارس بدورها معلمين أفذاذاً ، لكن أحــداً من أولئك المعلمين في بريطانيا العظمى لم يبلغ شأو ومنزلة بيد Bède الشهير الذي كان علماء العصر الكارولنجي يلقبونه عرفاناً منهم بجميله **المحترم** ، والذي تمكنت مدرسة جارّو Jarrow بفضله من أن تغدو في بداية القــرن الثامن أولى مدارس العالم غير منازعة• وبحسب هذا العالم لم يعد ثمّة حدود يقف عندها حب الاطلاع ، فصاروا يريدون معرفة كل شيء والوقوف على كل شيء • وقد انبرى العلماء وبنهم زائد الى دراسة الكتب الرئيسية العائدة الى العصور القديمة اللاتينية (أي الرومانية القديمة) سواء الوثني منها أم المسيحي ،

وصار تلاميذ هذا العالم يجوبون البلدان لجمع المخطوطات القديمة بصبر وأناة وحذق •

تضمّن إنتاج بيد العظيم ، الذي يتعلق بجميع الموضوعات مبادىء النحو وقواعد نظم الشعر اللاتينية والشروح النحوية والتاريخية والقضائية لنصوص التوراة والكتب المقدسة ، أو للتاريخ الكنسي بدون استثناء العلوم الطبيعية أو الفلك أو تحديد تواريخ الأعياد الكنسية المتنقلة • ويثبت هذا الانتاج الى أي مدىً بلغ ازدهار الثقافة القديمة في أول القرن الثامن في إنكلترا وايرلندة وسيطرة هذه الثقافة على العقول • كما استيقظ فيهما الذوق الفني القديم من سباته ، لذلك رأينا الكثير من الكنائس القديمة المبنية بالخشب تتحول في أماكن متعددة الى كنائس جميلة وفق النمط الروماني أي صارت مبنية بالحجر المنحوت ومزخرفة باللوحات والمناظر والألواح الزجاجية ولربما بلوحات الفسيفساء تقليداً لتلك الكنائس التـي أعجب بهـا رجال الدين الإيرلنديون خلال جولاتهم في إيطاليا •

ولم تُبَشِّر هذه النهضة الآنكلوسكسونية ، والتي كانت تدعى بفترة ما قبل النهضة الكارولنجية بالنهضة الكارولنجية فحسب إنما أخذت تعدّها بصورة مبـاشرة • وذلك أنه في الوقت الـذي بدأت فيـه معارف بيـد إشعاعها فوق إنكلترا ففي هذا الوقت نفسه بدأ المبشّرون الآنكلوسكسون عملهم التبشيري في صلب القارة • وكحال الرهبان الإيرلنديين القدامى الذين لم يكفّ المبشّرون الآنكلوسكسون عن الاتصال بهم بصورة مباشرة فإنهم نقلوا أنماط تفكيرهم وعلومهم الى البلاد التي حلّوا بها • ولم يكن القديس بونيفاس ، مصلح كنيسة الفرنجة ، سوى رسول للعقيدة المسيحية ، وهو كذلك من المثقفين وقد لذّته وخلال فترة طويلة تلاوة قصائد الشعراء الوثنيين، كما حاول شخصياً أن يقرض الشعر الذي يظهر فيه وبصورة عفوية أثر كل من ڤيرجيل وأوڤيد • فهذا الإعداد الأولي الذي يدين فيه القديس بونيفاس الى معرفته التامة باللغة اللاتينية ، لم يحاول هذا الأخير التخلّص منـه : فإصلاح المستوى الخلقي لرجال الدين يتضمن وبحكم الضرورة رفع مستواهم

الفكري • فكيف يتمكن رجل دين بدون ثقافة وغير مُزَوَّد بكتب منقولة بصورة مضبوطة ومفسّرة ومشروحة بطريقة سليمة من أن يقوم وبصورة مرضية بالمهمة التقيّة الورعة الملقاة على عاتقه ؟

وبمجرّد ظهور بونيفاس فإن هذه الأفكار بدأت تنتشر في دولة الفرنجة• وقد اهتمّ عدد من رجال الدين والملك نفسه بجمع عـــدد من المخطوطات واستحضروا قسماً منها من إيطاليا • وعنـــدما خلف شرلمان أباه في الحكم كان هذا النشاط أو العمل قد بدأ ••

وكانت مصادر المعرفة معلومة ، إنهـــا في إيطاليا ولا سيما في بريطانيا العظمى وإيرلندة حيث لم تكفّ عن أن يكون لها معجبون نشيطون ، وكانت الثقافة القديمة تتأهّب لغزو باقي أقسام أوروبة المسيحية تلك الأقسام التي كانت هذه الثقافة قد فقدتها وأضاعتها منذ عدد من السنين • ولم يكن ينقص هذه الثقافة لتأمين نجاحها وانتصارها في هذه المهمة سوى الإرادة القوية القادرة على جعل الجهود المبعثرة متوافقة ، وستوجد هـــذه الإرادة عنـــد إمبراطور الفرنجة الكبير أي عند شرلمان[1] •

٢ ــ النهضة في عهد شرلمان[2] : لا يختلف منهاج شرلمان من حيث منطلقه عن منهاج القديس بونيفاس • وبوصفه الرئيس الديني لدولة الفرنجة فإنه رغب في إصلاح ورفع مستوى أفراد رعيته الفكري لأنه رأى في رفع هذا

---

(١) راجع تفاصيل ما يتعلق بمصير الحضارة القديمة في أوروبة الغربيـــة قبل شرلمان وبصورة خاصة في : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجـــلد/٥ ، القسم/٢ ، الفصل/٣ ، ص ٢٥٧ ــ ٢٦٢ حيث تجد شرحاً مستفيضاً لهذه النهضة مع ذكر لأعلامها .

(٢) راجع تفاصيل ذلك في المصدرين التاليين :

أ ــ مجموعة موريس غروزيه M. Grouzet عن التاريخ العام للحضارات ، المجلد/٣ وهو عن الحضارة في العصور الوسطى وهذا المجلد من تأليف إدوار پيروا Ed. Perroy ، الفصل/٥ ، ص ١٣٣ ــ ١٣٦ .

ب ــ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٣ ، القسم/٢ ، الفصل/٣ ، ص ٢٦٢ ــ ٢٦٧ .

المستوى الشرط الأساسي لكل إصلاح يتناول رجال الدين • وهكذا فانه منذ بداية عهده أعلن حرباً لا هوادة فيها على جهل رجال الإكليروس وقد تساءل في أحد مراسيمه الذي صدر سنة ٧٦٩ « كيف يكون بوسع جهلاء أن يجعلوا الآخرين يعرفون القانون السماوي أو أن يعظوهم ؟ » كما تساءل في موضع آخر أنه كيف يمكن لشخص ما أن ينفـذ الى أسرار الكتابات المقدسة إذا كان لا يعرف بصورة تامة معاني الكلمات اللاتينية ؟ لذلك أصرّ بصورة خاصة على ضرورة وضع تنظيم شديد للتدريس في مملكته حيث أقيمت مدارس ابتدائية لتخريج الخوارنة ، ومدارس عليا في الكاتدرائيات أو الأديرة لإعداد وتخريج رجال الدين•ولملاحظته أنمبشّري الآنغلوسكسون كانوا في الوقت نفسه مصلحين ومربّين فإنه سرعان ما رغب في توسيع دائرة إسهامهم في إنجاز منهاجه أكثر من ذي قبل •

وثمة واحد من بين هؤلاء اعتبر المساعد الرئيسي لشرلمان أو بالأحرى مستشاره في مختلف المراحل والمُعَبِّر الأمين عن رغباته : ذلكم هو آلكوان Alcuin الذي اعتبر تلميذاً غير مباشر لبيد Bède • وقد غدا آلكوان هذا المعلّم الأكثر شهرة للمدرسة الأسقفية في مدينة يورك عندما نجح شرلمان حوالي سنة ٧٨٥ في إلحاقه بخدمته • ويعود الفضل الى آلكوان وتلاميذه الذين لحقوا به الى إمبراطورية شرلمان في إدخال مواد التعليم التي كانت تُدَرَّس في إنكلترا وطرقه وغزوها مملكة الفرنجة ، بمعنى أن رجال الدين في غاليا وجرمانيا وباقي أقسام الإمبراطورية قبلوا أن يكون أساس العـلم تلك الدورة المؤلفة من سبعة العلوم الرومانية الحرّة التي كُيِّفت وجعلت ملائمة لحاجات الثقافة المسيحية التي أكملت ، كمـا هي الحال بالنسبة الى إنكلترا ، بدراسة اللاهوت والنصوص المقدسة •

وكما هي الحال في إنكلترا فإن علم النحو قد درس بعناية خاصة ، وكان بمثابة تعويد على قراءة ودراسة الشعراء ودراسة كتّاب النثر الذين كانوا في الفترة الكلاسيكية القديمة والذين كان يُحاوَل باستمرار شرح إنتاجهم وتقليده • ثم زاد عدد الشعراء والكتّاب الذين يدرسون باستمرار بفضل

الاقتباسات التي نقلت عن المكتبات الإنكليزية أو الإيطالية ، وكذلك بفضل النسخ المنقولة التي كان ينجزها آلكوان بواسطة النسّاخ الذين هيّأهم ، وقد حوكي في هذه النسخ المنقولة نموذج المخطوطات الجميلة التي يعود الفضل فيها الى نشاط مواطنيه •

وكان لإنجاز هــذه النسخ المنقولة ، ذلك العمل المتواضع ، في الواقع مركز كبير في حياة طالب العلم في هذه الحقب • فبالنظر الى ندرة الكتب فإن نقل المؤلَّف الذي أمكن الحصول عليه بصعوبة ، بانتباه ودقة وأناقة يعتبر عملاً مقدساً كان كل مثقف يأمل أن يكون أهلاً لإنجازه • وكان ذلك من حسن حظ الثقافة القديمة ، لأنه لوحظ بحقّ أنه لولا تنافس النسّاخين لنقل تراث الثقافة الكلاسيكية القديمة لكان القليل من روائع هذه الثقافة قد وصل إلينا •

ويضاف الى عملية النسخ هذه وإلى الدراسة الحرفية لذلك الإنتــاج الأدبي القديم ومحاولة محاكاته وتحت اســم الفصاحة La rhétorique دراسة قواعد فنّ الخطابة (أو الحديث) والكتابة كما وضعها شيشرون وكاتيليان Quintilian ونماذج الرسائل التــي كتبهــا كاسّيدور وزير تيودوريك الأكبر • ثمت تأتي فيما بعد دراسة فن الجدل المدعوّ الآن بعلم المنطق وهو الذي يجعل الطالب يجابه نظريات أرسطو كما أمكنت معرفتهاعلى الاقل من خلال الترجمات والشروح التي كتبت كذلك من قبل بوييس Boèce في عهد تيودوريك وفق وجهة نظر أحد فلاسفة المدرسة الافلاطونية الحديثة وهو پورفير Porphyre الذي لم يتقيد بالأمانة التامة عنــد تعبيره عن آراء ونظريات أرسطو •

ويعتبر بوييس كذلك الرائد الرئيسي في دراسة الحساب والنظــرية الموسيقية • ويعتبر هذان العلمان ضروريين بالنسبة الى من سيغدون من رجال الدين ولا سيما العلم الأول وذلك من جرّاء الأهمية التي تَعَلَّق على القضايا المعقدة التي يثيرها تحديد تاريخ عيد الفصح وبصورة عامة الأعياد المتنقلة في التقويم المسيحي • أما علم النجوم الذي كانت فائدته العملية على ما يبدو

أقل فان الاهتمام بتدريسه كان أقل • أما بالنسبة الى ما ندعوه نحن الآن علم الهندسة فكان عبارة عن علمي الفلك والجغرافيا •

وعلى الرغم من أن الحكمة الإلهية اعتبرت الهدف الأسمى الذي حدّد بالنسبة الى عقل كل من أُعِدّ للحياة الدينية فان المعارف القديمة لم تعد تدرّس فقط إنما صارت تعتبر مجدداً كأساس متين لا يتزعزع لكل ثقافة حقيقية • وصارت العلوم أو الفنون الحرّة السبعة Les sept arts libéraux مرّة أخرى أعمدة الحكمة السبعة التي يشيّد عليها بناء العلم الحقيقي •

لكن الشيء الكبير المبتكر في الإصلاح الذي طُبّق لم يبق طوال فترة طويلة مقتصراً على رجال الاكليروس فحسب فقد آلى شرلمان على نفسه كما أجبر جميع مساعديه في الحكم على الأخذ بطريقة المحاكمة المنطقية وبفضلها تنهار أهمية رجل الدين الذي يكون زاده من الثقافة قليلا • ومن المؤكد من ناحية أخرى أن حملته على إيطاليا والتي أطلعته على عالم مترع بذكريات قديمة والتي جعلته يحتكّ ببعض المثقفين الذين كانوا مفخرة البلاطات اللومباردية الصغيرة شجعته على المضي قدماً وألاّ يتوقّف في سيره على تلك الطريق الحسنة وأن يسعى الى أن ينشر بين العلمانيين النتائج الرئيسية للحضارة اللاتينية تلك الحضارة التي أمكن العثور علبها مجدداً • وسرعان ما أضاف شرلمان الى أوامره الرامية الى فتح مدارس من أجل إعداد رجال الإكليروس أوامر أخرى ليست أقل استعجالا تتعلق بإحداث مدارس ابتدائية يرتادها أبناء عامة الشعب وسواهم ولو أنه تمنى تزويد التلاميذ ببعض عناصر ومبادىء التعليم الديني على الأقل • غير أنه اهتم بأن يفيد شخصياً من التقدّم الذي حقّقه التعليم الذي يُزَوَّد به من سيكونون من رجال الإكليروس في المستقبل ، وأن يفيد من هذا التعليم الفتيان الذين يفدون الى بلاطه لينتسبوا الى ما كان يدعى بمدرسة القصر التي كانت تُعِدّ الموظفين للدولة • وقد جُعِل قسم من الدراسة في مدرسة القصر هذه يتناول منذ ذاك دراسة ما كان يدعى بالانسانيات أي دراسة اللغة وتاريخ الأدب لكل من اللغتين اليونانية واللاتينية • وقام آلكوان نفسه باعادة تنظيم التعليم

وفق ما شرحناه • وصار أبناء الإمبراطور وأبناء أمراء أسرته والامبراطور نفسه يعتبرون قدوة في هذا المجال فلم يتردد هؤلاء بما فيهم الإمبراطور في تلقّي الدراسة والتعلّم سعياً منهـم الى تدارك السنين التي أضـاعوها بدون دراسة • وكم كان عجيباً ورائعاً رؤية تلك المنافسة النبيلة بين أولئك الأمراء حيث كان كل متهم ينصرف بوجدانه وبكلّيته الى الدراسة • إننا نعرف المقطع الشهير الذي وصف لنا فيه المؤرخ إيجينهارد كيف أن شرلمان كان يضع ألواحه التي يتمرن عليها تحت أرائك سريره ليتمرن على الكتابة في ساعات فراغه • ثم فان رسائل الإمبراطور مع آلكوان تنهض دليلا على ذلك النشاط فوق العادي الذي كان يبذله سواء بالنسبة الى دراسة الأدباء الجيّدين أم بالنسبة الى محاولة حلّ المسائل الاولية في الحساب التي كان المعـلم يطلب منه حلّها •

وهكذا غدا قصر العاهل المركز الثقافي الحقيقي في الإمبراطورية • حيث صار جميع العاملين فيه من علمانيين ورجال دين يتباهون بما تزوّدوا به من ثقافة أدبية • وصارت المحـاضرات ومناقشات المسائل النحوية والعلمية والفلسفية تلذّهم ، وكانوا يسرّون بأن يطرحوا على بعضهم بعضاً حـل الألغاز والأحاجي التي ينظمونها شعراً • وكانوا يجرون المنافسات أو المزاجلات الشعرية والادبية لكن مع حرص جميع المشتركين فيها على ألاّ يقولوا إلا ما هو سام ٍ وجدير بالإنسانيين (أي مجيدي اللغتين اليونانية واللاتينية وأدبهما) • وغالباً ما كانت هذه المنافسات الشعرية تثير استغرابنا لأن مستواها الأدبي لا يسمو على مستوى الاولاد لكنها مع ذلك دليل على بقاء ذكاء الأفراد يقظاً كما تعتبر كذلك برهاناً على انتشار الثقافة الكلاسيكية القديمة انتشاراً عجيباً في أوساط كان الجهل مخيّماً عليهـا ومتمكناً فيها وراسخاً منـذ عدة قرون •

وطبيعي ألا ننتظر في هذه المرحلة الاولى من النهضة الفكرية التي شهدتها إمبراطورية الفرنجة صدور كتب قوية مبتكرة • فلم يكن الاساتذة ولا التلاميذ قادرين بعد على تأليف إنتاج كهذا • فآلكوان نفسه لم يكن في واقع الحال

سوى رجل مثقّف رزق فكراً جيداً ونَيِّراً واضحاً وهو دؤوب ومُجِد» ، لكنه مع ذلك ميَّال نوعاً ما إلى إيذاء الآخرين ، وكان يجيد تمثّل نظريات الآخرين • إنه معلّم مطبوع وبكل معنى الكلمة ، وبوسعه أن يؤلف كتباً مدرسية تصلح للتدريس بصورة ممتازة ، لكنه لم يكن إطلاقاً مفكراً ولا فناناً•

وإن أشعار بولس دياكر ، وهو لومباردي مثقّف أفلح شرلمان في الاحتفاظ به عدة سنين في بلاطه هي أشعار كاتب رقيق لطيف • لا بل فان هذه الأشعار تتميّز من حين الى آخر بحسّ شعري جميل ، ثم فكتبه التاريخية وخاصة تاريخه الكبير عن اللومبارديين قوية • ومع ذلك ليس بالامكان أن نضفي عليها صفات عليا سامية • ولم يكن شعراء عصر شرلمان الآخرين بأفضل من دياكر حيث لا يمكن أن نجد عندهم أي فكر خلاّق مبدع ، كما نجد في أشعار معظمهم أن الكلمات والوزن مقتبسان عن الشعر القديم لا بل فالفكرة نفسها منقولة عن كتب الإنتاج الكلاسيكي القديم •

كما ظهرت لدى كتاب النثر نفس الرغبة في محاكاة النماذج اللاتينية ، ما أمكنهم ذلك • ولعل أحسن مثل هو إيجينهارد الشهير وهو مثال ذو طابع خاص•فعند وفاة شرلمان ولما رغب في كتابه تقريظ ورثاء للملك الراحل وجد أن أحسن ما يكتبه هو أن يقلّد وبصورة تامة وحرفية وحتى باستعمال نفس التعابير فأورد نسخة طبق الأصل عما كان الكاتب سويتون Suéton كتبه عن حياة الإمبراطور أغسطس •

ومع ذلك يجب ألا نهزأ بهذا العمل من حيث ان تلك الاستعانة الدائمة بالإنتاج الأدبي الكلاسيكي القديم ليست دليلاً على ضعف أدباء عهد شرلمان إنما هي نتيجة لجهد مبذول ، وهو جهد يستحق الثناء لأن أدباء هذا العهد كانوا ينشدون من وراء عملهم أن يوقفوا تدني المستوى اللغوي وتفاهة التفكير بربط إنتاجهم بالإنتاج القديم ذي القيمة الأدبية العالية • ومن هنا ظهر ذلك الاحترام الذي قد يصل الى مرحلة التقديس لكل ما هو قديم أو يظن أنه قديم ، كما ظهر التعلّق بالشكل أكثر من المعنى ذلك التعلّق الذي دفع الكثير من كتّاب هذه الفترة الى إعادة كتابة بعض الكتب التاريخية التي

نقلها كتّاب الأجيال السابقة فدوّنها أدباء عصر شرلمان بلغة سليمة ومتينة وأنيقـة •

وتلاحظ جميع هذه الصفات في ميدان الفن : حيث أن تقليد كل ما يظنّ أنه قديم غدا القاعدة المثلى • وهكذا وأسوة بالكتّاب الذين كانوا يستشهدون في إنتاجهم ببعض أبيات من الشعر القديم أو ببعض جمل من الأدب القديم ، فان الفنانين نشداناً منهم جعل التقليد تاماً استعملوا في إنتاجهم الفني بعض القطع المأخوذة من أوابد قديمة • فليزخرف شرلمان مثلا كنيسة حاضرته آخن التي شُيِّدَت وفق نموذج القديس ڤيتال في راڤينا (التي شُيِّدَت في القرن السادس) فانه لم يتردّد في الإيعاز بأن ترسل اليه ومن هناك الأعمدة الرخام والفسيفساء•وقد اجتهد الرسامون في لوحاتهم ومُزَوِّقوا المخطوطات ومزينوها بالصور في نقل نفس الزخارف التي كانت مستعملة في العهـد الروماني •

ولم يكن ذوق فناني عهد شرلمان سليماً تماماً حيث كانوا يظنون أن بعض إنتاج عصر الانحطاط في تاريخ روما ينهض دليلاً على جمال الفن الكلاسيكي : وهكذا فانهم جعلوا من راڤينا وليس من روما نفسها نموذجاً لمحاكاته • كما وأنهم اهتموا بتقليد أشعار بوييس وكاسّيدور وغيرهما وأخذوا يفضلونهم على مؤلفين أي شعراء رومان أعرق في اصالتهم • ومع ذلك فإن أولئك الأدباء والشعراء من أمثال هذين الشاعرين يعود اليهم الفضل في أنهم شدّوا أدباء وشعراء عصر شرلمان الى الأدب الكلاسيكي القديم حيث كانا مع أضرابهما صلة وصل بينهم وبين ذلك الأدب الكلاسيكي القديم • وهكذا فبفضل أدب وفن مدينة راڤينا (أي أدب عصر الانحطاط) دخل الفن الكلاسيكي عالم الفرنجة •

٣ ــ **مصائر الحضارة الغربية بعد شرلمان : ــ** (١) ــ يعتبر عهد شرلمان في تاريخ الحياة الفكرية في القرن التاسع فترة حماس الشباب • ثم أتى بعهده

---

(١) راجع تفصيل ذلك في : لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٣ ؛ ص ٢٦٧ وما يليهـا •

عهد التفكير وجمع وربط الأفكار ببعضها بعضا .

وليس معنى ذلك أن حبّ الاطلاع قد جفّ ونضب معينه ، أو أن العالم الخارجي قد توقّف عن تقديم نصيبه من المعارف الجديدة . وكانت نتيجة غزو العناصر السكنديناڤية إنكلترا وخاصة إيرلندة ، أن هاجر الى إمبراطورية الفرنجة وحتى منتصف القرن التاسع على الأقل جمهور من الرهبان الاسكتدلنديين من إيرلندة وإسكتلندة والذين اضطروا بعد دمار أديرتهم الى مغادرة بلادهم تباعاً فوصلوا فرنسا حاملين معهم أثمن مخطوطاتهم وعقلهم الذي يفيض علماً ، ذلك العلم الذي أفادوا منه في البداية كوسيلة لكسب العيش . وأفادت امبراطورية الفرنجة من هجرة بعض العلماء الأعلام الى ربوعها من أمثال سيدوليوس Sédulius الاسكتلندي و يوحنا إيريجين l'Erigène وهو إيرلندي أو اسكتلندي هذا علاوة عن عدد لا بأس به من الكتب التي لم تكن معروفة في فرنسا والتي نقلها أولئك العلماء إليها .

لكن المفكّرين والكتّاب والفنانين لن يتميّزوا منذئذ بالمعلومات التي حصلوا عليها انما بالذوق الأدبي والفني المتين وبطريقتهم الثابتة ولا سيما بنضجهم الفكري . لقد ولّى عهد المزاجلات الأدبية التي كانت تلذّ من قبل مرتادي بلاط الإمبراطور الشيخ ، بينما بدؤوا يهتمون في بلاط خلفائه بمشاغل أسمى من مهامّ الحياة السياسية يقضون فيها أوقات فراغهم . وستتعلّق الألغاز والأحاجي التي سيحاول حلّها منذ ذاك بالمسائل الهامة التي تعذّب الضمير البشري . وكان حبّ الاطلاع لدى العلمانيين أنفسهم في عهد شرلمان قد يحملهم وبفعل الظروف أحياناً على معالجة قضايا فلسفية دينية ، ونذكر على سبيل المثال أن رجالات البلاط ناقشوا بشكل جديّ مسألة الوجود الحسّي أو عدم وجود الظلمات . لكن قضايا اللاهوت الصرف بقيت معالجتها من اختصاص الكنيسة . وهكذا فان ذلك التدخل في القضايا الدينية أقضّ على شرلمان مضجعه بوصفه رئيساً للدولة . وقد جرى العكس بعد أيام هذا الإمبراطور من حيث ان المسائل الدينية سوف تتمتع بالمنزلة السامية — وسيكون نصيب الأباطرة لويس التقي أو الورع le Pieux أو شارل الأصلع

ولوثير Lothaire من الثقافة الدينية عظيماً • وسيوجّه المعلم le Chauve الأكبر بعد آلكوان وهو تلميذه رابان مور R. Maur تعليمه ونشاطه الفكري نحو اللاهوت بتسخير الآداب والعلوم الدنيوية لخدمة العلوم الدينية المقدسة ، وسَيُرَجِّح في قصائده الشعرية الموضوعات الدينية وسيكون ذلك هدف معظم أقرانه ومنافسيه الذين سيزداد الطابع الديني الورع في قصـائدهم ؛ أو على الأقل سيهتمّون بالناحية الأخلاقية •

وسيكون ثمّة شعراء وسيزداد باطراد عدد من تمكن منهم كسودوليوس الاسكتلندي أن يُبَرِّزوا ؛ وسيتميزون بطريقة في النظم أكثر حرية وسيزداد فيها الطابع الشخصي بنسبة أعلى من سابقيهم ، وسَيُوَفَّقون في صياغة قصائدهم • لكن الظاهرة التي تسترعي الانتباه هي أن الإنتاج الأدبي طيلة فترة نصف القرن التي أعقبت وفاة شرلمان سيقلّ فيها عدد التآليف الشعرية باطراد وستكون غير هامة ؛ بينما ستزداد باستمرار أهمية الإنتاج النثري : كالكتب المدرسية للتعليم والكتب الأخلاقية ، والكتب التي تؤلَّف حسبما تقتضيه الحاجة كالكتب المعالجة لقضايا حقوقية عامة أو كتب أساطين وجهابذة الفكر والتأليف (آغوبار وهينكمار ويونس) التي تعالج مسألة تنظيم الدولة والعلائق بين مختلف السلطات • وثمة كذلك رسائل تضمنت هجاءً وذماً وقدحاً ؛ وكتب عبارة عن مناقشات متعلقة بقضايا أدبية وسياسية وهي كلها تفيض عاطفة لا بل تفيض قوة لكنها تشير دائماً الى عقول غذّتها فكرات قوية ومعتادة أن تطرق موضوعات مختلفة مع ترجيح الفكرات الدينية • وعلاوة عن ذلك كان هذا الترجيح طبيعياً ومنطقياً بالنسبة الى أفراد كان معظمهم ينتمون الى الكنيسة •

وستحتلّ الأبحاث اللاهوتية البحتة مكاناً مرموقاً في هـذا الإنتاج ، ولو أن طابع النهضة الكارولنجية سيجعل هذه الكتابات تُعالَج وفق نمط تفكير جديد • وستفتح أمام مفكري القـرن التاسع الأكثر تمسكاً بالثقافة الاتباعية (الكلاسيكية) القديمة آفاق جـديدة بنتيجة اهتمامهم بدراسة نظريات أرسطو والإفلاطونية الحديثة وبنتيجة تذوّقهم إنتاج القديس أوغسطين

ولأنه تكوّنت لديهم عادة المناقشة الحرّة واستساغة إنتاج الأدب الدنيوي • وتلك الآفاق الجديدة لم تكن معروفة من قبل فاتسعت معالجة قضايا اللاهوت فجأة الى أن صارت قضايا فلسفية صرفة • وهكذا أثار بعض كبار مفكري هذه الحقبة وبحماس بعض القضايا ، التي يخشى أن تزعزع إثارتها إيمانهم ، كمسألة أن المقدّر على الإنسان منذ الأزل محتّم وقوعه ، ومسألة حرية الانسان بفضل عقله أن يختار بين الخير والشرّ • بمعنى معالجة هؤلاء المفكّرين قضية شائكة جداً وهي : هل الإنسان مسيّر أم مخيّر ؟ ففي حمأة ذلك النقاش الذي احتدم حول هذه القضايا والذي اشترك فيه في منتصف القرن التاسع جميع أقطاب رجال الفكر في إمبراطورية الفرنجة ، صار كل من اشترك في مناقشة هذه القضايا ، وبدون استثناء عواهل الكارولنجيين أنفسهم ، يعتقد أن القضية المثارة تجاوزت كثيراً أطر علم اللاهوت البحت وأنها وضعت مسألة الإيمان نفسها على بساط البحث وفي كفة الميزان •

وهكذا وبنتيجة احتكاك مفكّري هذه الحقبة بالثقافة القديمة ازداد ذكاؤهم حيوية • ثمت فإن التفكير الذي كان يغطّ وطوال أعصر في سبات عميق هبّ واستيقظ ليجد قسماً من رشاقته ونشاطه القديمين ، ولتجد اللغة شيئاً من المرونة والأناقة التي كانت تتصف بها في العصر الكلاسيكي • وفي نفس الوقت صارت عبقرية الفنانين وبنسبة كبيرة جدا أشدّ عفوية وأمانة • ولتكون ثمار الإنتاج الأدبي يانعة شهية لم ينقص تاريخ الأدب والفن في القرن التاسع إلا التمتّع بفترة أطول من الحرية والرخاء ، لكن لسوء الحظ ، وهذا ما سنراه بعيد هنيهة ، فإن الإمبراطورية التي أسسها شرلمان لم تعمّر سوى فترة وجيزة • وأوشكت الحضارة التي بعثت من جديد أن تنهار مرة أخرى ، وأن تغطّ في سباتها مجدداً وذلك من جرّاء حوادث الاضطرابات السياسية التي سيكون القرن التاسع مسرحاً لها •

تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية : لم تؤدّ وفاة شرلمان في قصره في مدينة آخن في ٢٨ كانون الثاني سنة ٨١٤ بعد حكم دام ستة وأربعين عاماً

الى حدوث اضطرابات سياسية من حيث أن انتقال ممارسة السلطة الإمبراطورية من بعده تمّ بدون نزاع أو شقاق بين الورثة وذلك لأن المنون كانت اختطفت ابنين من أولاده الثلاثة في حياة أبيهما ولم يبق لممارسة الحكم في الإمبراطورية سوى ابنه الثالث : لويس التقي أو الورع الذي آلت إليـه السيادة على جميع الأقاليم الخاضعة لحكم الفرنجة . لكن هذه الصدفة (أي عدم بقاء سوى وريث واحد للامبراطور الراحل) لن تتكرر مجدداً فيما بعد . وسرعان ما سُدّدت الى كيان الإمبراطورية الكارولنجية الراسخ ضربات من جرّاء عدم وضوح الفكرات التي قادت مؤسسي هذه الإمبراطورية عنـد تدشين الوضع الجديد .

لقد أضيف اللقب الإمبراطوري فحسب الى الألقاب التـي كان ملك الفرنجة يحملها من قبل . ثم فبما أن عادة الفرنجة جـرت أنه في يوم وفاة الملك الحاكم تقسّم مملكته بين أبنائه ، فان مفهوم إمبراطورية غربية دائمة غدا كما يبدو مهدداً بالزوال وشيكاً . لقد قسمت إمبراطورية شرلمان ، لكن مبدأ وجود واستمرار سلطة إمبراطورية تكون على الصعيد النظري على الأقل أسمى من باقي السلطات بقي مستمراً في غربي أوروبة طيـلة جميع فترات العصور الوسطى ، وأطول فترة من فترات العصور الحديثة . وذلك هو بصورة رئيسية ما يجعل المرء يهتم بالنزاع الذي سينشب منذ سنة ٨١٤ بين أنصار فكرة ترسيخ وتوطيد الفكرة الإمبراطورية (التي تقتضي الديمومة والاستمرار) والمدافعين بحماس زائد عن التقاليد الجرمانية القديمة (القائمة على مبدإ تقسيم المُلْكِ) .

ولم يبق هـذا الخلاف بين أنصار تينك الفكرتين وطويلاً مقتصراً على النظريات الصرفة ، من حيث أن النظريات ، لم تكن بالنسبة الى الكثيرين ، كما يحدث عادة في حالة مشابهة ، سوى واجهـة تختفي وراءها الأطماع الفردية . وكان هذا النزاع المحتدم بين أنصار هاتين الفكرتين قد اعتبر أولاً تصادماً بين مصالحهما الشخصية الدنيئة والخسيسة ، لكنه اعتبر من جهـة ثانية وفي واقعه وجوهره تهديداً لمصير المسيحية الغربية وضمان مستقبلها

لا سيما في الفترة التي عاد فيها خطر البرابرة الشماليين (خطر غزوات العناصر السكنديناڤية التي سنعالجها في الفصل القادم) ليهدّدها مرة أخرى . وهكذا فان شعور كبار المسؤولين في الإمبراطورية الكارولنجية ، وخاصة بعد أن أضحى خطر السكنديناڤيين محدقاً بها ، بعدم جدوى أو صلاحية نظام تقسيم المملكة (وهذا النظام هو كما أشرنا الى ذلك مراراً من رواسب تقاليد الفرنجة القديمة) المعمول به غداة وفاة شرلمان فان هذا الشعور هو الذي حدا بالعاهل الجديد وعدد من الرجال المسؤولين الممارسين للسطة الى اتخاذ قرارات في منتهى الخطورة تهدف الى عدم-اللجوء الى تقسيم مملكة أو إمبراطورية شرلمان ، لكن تلك القرارات ستؤدي بصورة أكيدة الى تأرّث الحرب الأهلية .

أولاً ــ محاولات تقوية الفكرة الإمبراطورية(١) : وفي الواقع فانه منذ بداية حكم لويس التقي أدخل تعديل بالنسبة الى أشخاص الجهاز الإداري الحاكم وسيطر تفكير جديد على البلاط : إنه تفكير رجال الدين الذين كانوا يؤلفون خاصّة أو على الأقل الحاشية العادية لابن شرلمان الذي لم يكف ومنذ طفولته عن أن يكون طيّعاً لهم وسلس القياد . وبنتيجة أن أفراد الإكليروس هؤلاء قضوا حياتهم بين الكتب ومناقشة الأفكار فانه صار لهم ميل خطر للآراء النظرية أكثر من العملية : إنهم غدوا رجال مبادىء ولا تثيرهم حوادث الحياة العادية التي يمكن أن تقع أولاً ، وهم يوالون طريقهم ودونما اكتراث بالعقبات التي تعترض سبيلهم فيه .

إن الوضع المبهم المخلخل الذي ترك فيه شرلمان مفهوم الإمبراطورية (الذي لم تكن جذوره قد رسخت بعد عند الفرنجة) ولربما كان ذلك تنفيذاً

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في المصادر التالية :

أ ــ فرديناند لوط : تاريخ فرنسا المذكور ، الفصل/٥ ، ص ٧٥ وما بعدها .

ب ــ لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٥ ، القسم/٢ ، الفصل/٤ ، ص ٢٨٠ وما بعدها .

ج ــ مجموعة موريس مولو M. Meuleau عن العالم وتاريخه المذكورة ، المجلد/٣ تأليف لوس پيتري ، القسم/٢ ، الفصل/٤ ، ص ١٩٨ وما بعدها .

لخطة مرسومة ما ، حمل رجال الدين على عدم التساهل أو السماح لخصوم الفكرة الإمبراطورية بهدم ما شيّده شرلمان • وقد لوحظ أنه وبنتيجة نفوذهم القوي ، وبعد أن اختصر لويس التقي (أو الورع) وبصـورة ذات طابع خاص المراسم (أي البروتوكول) المتعلقة بالأعمال الرسمية غير مُبْقٍ فيها سوى لقب الإمبراطور فحسب فإنه حاول غداة وصوله الى الحكم أن يقلب النظام أو الوضع السائد وذلك بإعلانه ، وبدون أن يتوقّع أحد ذلك ، في شهر تموز ٨١٧ : **وحدة الإمبراطورية وعدم إمكانية تجزئتها** ، وأنه لا يمكن تصديع هذه الوحدة بدون أن يهدم في الوقت نفسه ومن جرّاء ذلك ما أقامه الله وبدون أن يؤدي ذلك الى حـدوث فضيحة في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة • وبإهمال القواعد الأكثر قدسية لقانون الوراثة فان إرث أو تراث الفرنجة لن يقسم في المستقبل بين أولاد العاهل • وتدشيناً لهـذه الطريقة الجديدة فإن السلطة ستؤول الى لوثير Lothaire الابن البكر للويس التقي الذي نصب مسبقاً إمبراطوراً وشريكاً لأبيه في الحكم ، على حين يجب أن يعتبر ابناه الآخران ، وهما ببين ولويس ، نفسيهما سعيدين جداً لنيلهما ، وكمالكانة ، مملكتي آكيتانيا وباڤاريا في ظل خضوعهما الى سيادة أخيهما البكر ، وأنهما سيحكمان تينك المملكتين كخادمين أي كاملين وفيّين للإرادة الإمبراطورية • ويعتبر ذلك ثورة في التنظيم السياسي للدولة وأول محاولة في غربي أوروبة ترمي الى بعث مبادىء القانون الروماني العام التي كانت قد صارت نسياً منسياً •

وقد حوول وبصورة سافرة موالاة الطريق في هـذا الاتجاه • وأعلن مطران مدينة ليون ، آغوبارد ، في كتاب ألّفه في هذه الحقبة وجوب تذكّر أن جميع الشعوب الخاضعة لسلطة الفرنجة لن تعترف منـذ ذاك بسوى قانون سماوي واحـد وأن جميـع الفرنجة والآكيتانيين واللومبـارديين والبورغونديين والآلامان والسكسون (وهم رعايا الإمبراطورية الكارولنجية) ليسوا سوى جسد واحد وحّدوا في يسوع المسيح • ونصح هذا المطران الإمبراطور الجديد ألاّ يتردّد وأن ينجز هـذا العمل الوحدوي المسيحي

بضمان تطبيق قانون بشري" واحد في غربي أوروپة • وتساءل إن كان من المتسامح به أن يعيش معاً أفراد في نفس المنطقة وفي نفس البلد وتحت سقف واحد وأن يكونوا كلهم رعايا لإمبراطور واحد لكن كلاً منهم يخضع أحياناً الى تشريع خـاصّ به ومختلف عن التشريعات المتعلقة بالآخـرين ؟ ولم يكن ما ينشده هذا المطران سوى تحويل جذري" عميق للكيان الحقوقي للشعوب المنضمة الى الإمبراطورية ، من حيث أن المبـدأ الذي نظّم علائق الأفراد ببعضهم بعضاً في أوروپة الغربية طيلة عدة قرون هو مبدأ شخصية القوانين الذي كنا درسنا أصله من قبـل ، والذي نصّ على انه من حق أي فرد ، أيّاً كان العاهل الذي يخضع إليه ، أن يحتفظ بحقه الثابت في الحياة ، وأن يحاكم بموجب النظم القضائية التي كانت مرعيّة الإجراء في عهد أجداده •

وبدون أن تتقيّد حكومة لويس التقي تقيّداً حرفياً بفكرة آغوبارد فإنها مضت بحزم دونه حزم شرلمان نفسه الى تخفيف حدّة التناقض بين مختلف القوانين القومية المحليّة (أي بالنسبة الى كل ولاية على حدة) لا بل فإنها سعت الى أن تحدّ ، وبنسبة معيّنة ، من تطبيق هـذه القوانين بزيادة مواد إضافية إليها كلها أشارت جميع المراسيم الإمبراطورية إليها ، وتضمنت تلك المواد الإضافية تدابير تشريعية جديدة نصّ على أن تطبيقها سيكون عاماً وبصورة متساوية في جميع ولايات الإمبراطورية •

وأمكن بتلك الصورة ألا تكون الإمبراطورية مجرّد مجموعة من الدول منضم بعضها الى بعض • وقد سها عن بال الداعين الى تقوية الفكرة الإمبراطورية ، وعلى رأسهم آغوبارد الآنف الذكر ، أن الشعوب التي اعترفت تباعاً بسيادة الفرنجة عليها فإنها على الرغم من تبعيتها السياسية الى دولة الفرنجة ، لم تفقد وبصورة تامة طابعها الخاص أي شخصيتها وذاتيتها ، ثمت أليست كل منها جزءاً من كل أو بعضاً من كل هو الشعب المسيحي ، أو كما كانو يدعونه : « **الشعب المقدس التابع لله** Le Saint peuple de Dieu » ؟ ومن جرّاء زيادة احتكاك لويس التقي بعلماء اللاهوت فإنه لم يعد يرى الإمبراطورية سوى مظهر من مظاهر الكنيسة الكاثوليكية ، الكنيسة العاملة ، الكنيسة الداعية

الى التبشير نشداناً لجعل مناطق جـديدة وأفراد جدد يعتنقون المـذهب الكاثوليكي والذي يعتبر هو نفسه المهيمن أو الرئيس الأعلى لهذه الكنيسة •

وتبعا لذلك فقد وضح أن وجود دولة بابوية بجانب الإمبراطورية هو مستحيل منطقيا : ويجب أن يصفّى نظام الحكم غير المحدود ولا الواضح المعالم الذي قنع به شرلمان ، وأن يفسح المجال الى نظام خالٍ من أي لبس أو إبهام • وسعياً وراء ذلك استثمر الإمبـراطور في سنة ٨٢٤ حـدوث اضطرابات داخلية قامت في روما بنتيجة القيام بانتخاب حبر أعظم لم يعترف به • واعلانه وبواسطة ابنه لوثير دستورا واضحا حسم قضية علاقة رومـا بالإمبراطورية • وقد أضفي بموجب هذا الدستور على الدولة البابوية كيان محميّة فرنجية • وأبقى هذا الدستور نفسه مهام الادارة وممارسة شؤون القضاء فيها الى البابا ، كما ترك له حق تعيين موظفيها ، مع اشتراطه مثول هؤلاء الموظفين المعيّنين من قبل الحبر الأعظم وقبل ممارستهم مهام المناصب المعينين إليها بحضرة الامبراطور ، مما يفيد وعلى صعيد الواقع ان تعيين البابا لهؤلاء الموظفين يجب ان يقترن بموافقة الإمبراطور ، وأنه يجب على هؤلاء الموظفين السير على هدي توصيات هـذا الأخير • وعُيّن ممثـل للامبراطور ليقيم وبصورة دائمة في روما ليتحقق وبالاتفاق مع ممثّل البابا من حسن سير الإدارة ، وليتسلّم طلبـات الاستئناف من الأشخاص الذين صدرت بحقهم أحكام قضائية ، وليفصل بنفسه أو ليُحوّل بعض القضايا التي كانت مثار خلاف بينه وبين ممثل البابا الى مفتشي الفرنجة (Les Missi) ليدقّقوها خلال جولاتهم التفتيشية • ولم يدخل ، ومن حيث المبدأ ، أي تعديل على انتخاب البابا ، ولو أنه لوحظ ، كما أورد الأستاذ لويس هالفين وغيره ، في وثيقة يعود تاريخها الى نفس الفترة التي صدر فيها سنة ٨٢٤ والتي تعتبر بمثابة ملحق لهذا الدستور أن الإمبراطور طلب من الحبر الأعظم المنتخب الجديد ، وقبل تكريسه ورسمه في الحفل الرسمي ، أن يقسم يمين الولاء للامبراطور بحضرة ممثل هذا الأخير في روما •

وهكذا لن يعود أي عائق ، ولو على الصعيد النظري البحث ، يعترض

ترسيخ وازدياد وتوطيد سلطة الامبراطور الذي سيغدو ، وليس البابا نفسه ، رئيساً للكنيسة الكاثوليكية الغربية وذلك أسوة بما كانت عليه الحال في الدولة البيزنطية حيث كان بوسع إمبراطورها أن يدّعي لنفسه رئاسة الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) . ونزولاً عند طلب العاهل البيزنطي فان الإمبراطور الكارولنجي لم يتردّد في سنة ٨٢٥ في أن يكلّف علماء اللاهوت في ولايات إمبراطوريته بفحص المسألة الشائكة والتي كانت تثار وبصورة مستمرة وهي شرعية عبادة أو تقديس الإيقونات (صور القديسين) عاقداً العزم على أن يفرض بالنسبة الى هذه القضية قراره النهائي على بابا روما الذي لم يجد مندوحة عن قبول هذا التنازل فوق العادي عن سلطته بعد أن أفلت زمام الأمر من يده .

وهكذا فقد اصطبغت الإمبراطورية الكارولنجية بطلاء ديني أخذ وضوحه يزداد بصورة مطردة . وقد بدا الإمبراطور لويس التقي ، والذي كان يخضع لآراء وتوجيهات الرجال الأتقياء الورعين المحيطين به ، وكأنه من أفراد هيئة الإكليروس بنفس نسبة كونه عاهلاً سياسياً . أفلم يقبل في سنة ٨٢٢ الحضور الى كنيسة آتّيني Attigny بهيئة رجل عادي بسيط ليعلن توبته وندمه أمام رعاياه المجتمعين في جلسة الجمعية العامة السنوية وليلتمس من أساقفته أن يصفحوا عنه لإنزاله عقاباً وحشياً بابن أخيه الذي اتّهم بالثورة عليه ؟

وانتهى الأمر أخيراً باعتبار نظام هذه الإمبراطورية نظاماً دينياً (ثيوقراطياً Théocratique) وأن يكون الإمبراطور رئيسه . هذا وإن يكن أفراد هيئة الإكليروس الفرنجي وفي واقع حالهم يمنّون نفوسهم بأن يغدوا أسياد هذا النظام . وأثناء الاجتماع الذي عقدته الجمعية العامة في آتّيني حيث أعلن لويس التقي الورع وعلى رؤوس الأشهاد الندم والتوبة فإن أحد المتحدثين الرسميين باسم الإكليروس ، والذي كان ذا رأي مطاع بينهم ، وهو آغوبارد مطران ليون ، اشتطّ في الطلب ، وطبعاً بدون أن يلبّى طلبه ، وذلك بالتماسه أن تستردّ الكنيسة ممتلكاتها التي كانت وزّعت على الأفراد العلمانيين في ظل العهود السابقة . ثمت فإن هذا المطران لم يتردّد ، وبعد سبع سنين من

هذا التاريخ (أي سنة ٨٢٩) وأثناء انعقاد مجمع ديني Synode في مدينة باريز من أجل مناقشة قضية إصلاح الكنيسة، في أن يُذَكّر بحقيقة تَشَرُّف الإمبراطور قسطنطين الأكبر والذي يعتبر أن الأساقفة لا يؤدّون حساباً عن عملهم إلا لله بينما يخضع عواهل الدول لإشراف الأساقفة القضائي .

فهل معنى ذلك أنه سعياً وراء الوصول الى هذه النتيجة (وهي جعل سلطة الإمبراطور الكارولنجي هي العليا) يجب أن يضحّي بإصرار وتصميم بعدد من تقاليد الفرنجة ؟ وسوف يتجمَّع كل هذا الاستياء المتراكم من جرّاء التمسّك بسياسة من شأنها التضحية بعدد كبير من المصالح لحساب فكرة الوطن الواحد . وسيؤدي هذا الاستياء المتراكم ومع مرور الزمن الى انفجار مرجل الأحقاد والأطماع الذي سيصيب الإمبراطورية منه جرح قاتل .

ثانياً ــ تقسيم الإمبراطورية(١) : كانت النيران تخبو ومنذ عدة أشهر تحت الرماد . لقد زادت حوادث التخاذل والتراجع بين أفراد حاشية الإمبراطور نفسه . وقد بطش هذا الأخير وفي مستهل سنة ٨٢٨ باثنين كان قد أولاهما ثقته وهما : هوغ Hugue (والد زوجة ابنه لوثير) وهو كونت مدينة تور وماتفريد Matfrid كونت مدينة أورلئان . وقد أدانهما الإمبراطور لأنهما رفضا تنفيذاً لخطة وضعاها أن يبادرا الى مساعدة برنارد كونت برشلونة عند تعرّضه الى هجوم شنّته عليه بعض القوات المسلحة . كما فتح وفي الوقت نفسه كونت فريول Frioul حدود پانونيا في وجه عصابات البلغار . وعزل الإمبراطور هؤلاء الثلاثة مع تجريدهم من ممتلكاتهم .

ثم تفاقم الخطب في العام القادم (٨٢٩) . وذلك لأن الامبراطور ظنّ أن بوسعه وبواسطة ملحق أضافه أن يُعَدِّل الطريقة التي قسّم بها إمبراطوريته بين أولاده سنة ٨١٧ . وقد منح بموجب هذا الملحق الجديد المضاف مملكة آلامانيا (وهي تضمّ بلاد الآلامان والألزاس وريتيا Rétie وقسماً من

---

(١) راجع فصول وصفحات نفس ثلاثة المصادر التي أشرنا إليها في دراستنا لمحاولات تقوية الفكرة الامبراطورية أعلاه في صفحة ٣٠٦ .

بورغونديا) كمالكانة الى ابنه الرابع شارل الذي وضعته وفي سنة ٨٢٣ زوجتـه الثانية جوديت Judith الباڤارية • وقـد أعلنت فئة من المستائين حرّضوا من قبل الكونتين هوغ وما تفريد أنها ترى في هذا التدبير الجديد خرقاً للوثيقة المبرمة سنة ٨١٧ • وأخذ هؤلاء المستاؤون يرفعون عقائرهم بالصياح أن عمل الإمبراطور ليس في كنهه وجوهره سـوى حنث باليمين وتراجع عن العهد الذي كان قد قطعه على نفسه • والأدهى من كل ذلك أن ولي العهد لوثير الفتى الذي ذكرنا من قبل أنه نصب ومنذ تموز ٨١٧ امبراطوراً شريكا لأبيه في الحكم ، فلوثير هذا انضم وبتأثير حميه (وذكرنا أعلاه أن حماه والد زوجته هو هوغ كونت مدينة تور) الى جماعة هؤلاء المشاغبين الذين نصبوا أنفسهم حماة للنظام •

وقد والت الحوادث منذ ذاك طريقها سراعاً • وحاول لويس بادىء الأمر الصمود في وجه العاصفة بإيعازه الى ابنه لوثير أن يذهب الى إيطاليا وألا يغادرها ثانية • وبدون أن يسحب منه اللقب الإمبراطوري الذي منحه إياه منذ سنة ٨١٧ فإنه أقلع عن عادة بدأ بممارستها منـذ سنة ٨٢٥ وهي إذاعة القرارات الرسمية التي يسنّها ويتخذها باسمهما كليهما • فلم يعد يعلن تلك القرارات إلا باسمه الخاص وحده ، كما قام بتصفية عامة لجميع موظفي البلاط السابقين مقصياً المشبوهين الذين يشكّ بولائهم لشخصه ومحيطاً نفسه بأفراد حاشية جدد • فأخذ جميع المستائين يهاجمون الإمبراطورة جوديت ومحميّيها ولا سيما كونت (حاكم) برشلونة السابق الكونت برنارد موجهين إليهـا تهمة اتخاذه عشيقاً لها وأنها كانت وشيكة تسليمه منصب مدير الغرفة الخاصة للامبراطور ، أي مدير مكتبه الخاص Chambrier • ولم يحجم المستاؤون عن النيل من شخص الامبراطور نفسه ومهاجمته في حمـلة اللوم والتقريع والافتراءات التي شنّوا من أجلها حملة ضده •

وأخيراً اندلع لهيب الثورة في نيسان ٨٣٠ تلك الثورة التـي استثمرت الاستياء العام الناجم عن توجيه الدعوة المسبقة الى الجيش من أجل إرسال حملة ضد العناصر البريتانية ، على حين جرت العادة بأن تتجمع فرق الجيش

وبصورة طبيعية في مطلع فصل الصيف . ثمت فإن مثيري الاضطراب والبلبلة والذين كانوا قد نجحوا في استمالة ابن آخر للإمبراطور ، وهو پيپن ملك آكيتانيا ، والذي كانت قيادة هذه الحملة (ضد البريتانيين) قد أوسدت إليه توجهوا وزحفوا على رأس هذا الجيش الى مدينة آخن العاصمة نفسها .

أخذ جميع من في هذه العاصمة يفرّون منها وأولهم مدير المكتب الخاص برنارد الذي أطلق ساقيه الى الريح فارّاً لا يلوي على شيء حتى وصل مدينة برشلونة . هذا بينما أسرعت الإمبراطورة جوديت الى الاختفاء في دير في مدينـــة لاون Laon . وصار كل فرد من رجال القصر يسعى لأن يختبىء في مكان يجعله بمنجاة من الوقوع في أيدي الثوار . أما الإمبراطور فقد أمسى مهزوماً وحتى قبل الاشتباك بهؤلاء . وبشيء من الصلف والكبرياء فإن الإمبراطور هبّ على رأس حفنة من الرجال الذين تمسّكوا بولائهم له وإخلاصهم إليه للاشتباك بالثوار ، لكنه ما لبث أن رضخ للقوة . وهكذا فإنه تراجع وعلى رؤوس الأشهاد في مدينة كومپيەني Compiègne وبحضرة ابنه لوثير عن التدابير التي اتخذها منذ عدة أشهر فألغاها راضخاً الى أن تُسلَب زوجه جوديت جميع ما كانت تمارسه من سلطات وأن تغادر القصر لقضاء ما تبقى لها من أيام في الدير ، وأن يُسَلِّم مستشاريه الى الثوار ، وأن يرجع الكونت ماتفريد الى كونتيته (حاكم مدينة أورلئان) ، وأن يعيد مرة أخرى وبصورة فعّالة إشراك الامبراطور الفتى معه في السلطة . (وقد تم كل ذلك في نيسان سنة ٨٣٠) .

وكانت تلك المطالب في جوهرها وعلى الصعيد النظريّ البحت عودة بسيطة الى النظام الذي كان سائداً سنة ٨١٧ . ولو أنه وعلى صعيد الواقع بُعْـــدانَ بين ما آلت إليـــه الأمور مجدداً ، أي في سنة ٨٣٠ ، وبين نظام سنة ٨١٧ . لذلك لم يعد لويس التقي يفكر إلاّ في الثأر لنفسه والانتقام ممن مرّغوا كرامته في الوحل ونالوا من هيبته . ونظراً الى ان الخلاف قد ذرّ قرنه في معسكر المنتصرين ، والى أن إخوة لوثير ، ولا سيما پيپن قد اعتبروا حقوقهم غمطت فقد أفلح الإمبراطور في تصديع وحدة أعدائه بالامس

وفي التخلّص من الذين كانوا أشد إمعاناً في النيل منه وإزعاجاً له . إنه لجأ الى عزل الكثيرين ونفي سواهم ومصادرة أملاك غيرهم مُسَدّداً ضرباته وبقبضة من حديد الى من استمروا في مقاومته أو الى الذين بقوا يحبكون المؤامرات ضده الى درجة أنه لم تمض عدة أشهر حتى عادت المياه الى مجاريها. وهكذا عادت جوديت لتتربع على العرش في القصر الامبراطوري مجدداً ، وأبعد لوثير ثانية الى إيطاليا . وعاد لويس التقي أو الورع كما يبدو سيّد الامبراطورية غير منازع .

كما مضى الامبراطور بعيداً في تنفيذ مشروعه (منح قسم من إمبراطوريته الى ابنه شارل من زوجه جوديت) : إنه كان يأمل أن يجد حلاً للصعاب التي أثارها القرار الصادر في سنة ٨١٧ (وكان يقضي كما مر بنا بتقسيم امبراطوريته بين أولاده الثلاثة لوثير وبيبين ولويس حيث لم يكن قد رزق بعد ابنه الرابع شارل) وأن يستميل الى جانبه ابنيه بيبن ولويس ، لذلك فإنه أقرّ سنة ٨٣١ تدابير جديدة نشد من ورائها أن يبتّ في قضية وراثته مستخدماً ، ولحاجة في نفسه ، العبارات ذاتها التي كان أبوه شرلمان قد أوردها من قبل في سنة ٨٠٦ ، في إعلان لويس قراره بتوريث العرش من بعده ، وباستثناء إيطاليا التي تركت الى ابنه البكر لوثير . إنه أعلن أن إمبراطوريته سوف تُقَسّم الى ثلاثة أقسام (طبعاً ما عدا إيطاليا التي أشرنا الى إبقائها الى ابنه البكر لوثير) خُصِّص كل قسم منها الى واحد من أولاده الثلاثة الذين بقوا أوفياء له : فإقليم آكيتانيا الذي أضيف إليه القسم الواقع بين نهري السين واللوار ، وثمان وعشرون كونتية (إقليم أو مقاطعة يحكمها كونت) تقع الى الشمال من نهر السين فكل ذلك قد منح الى بيبين . وأعطى لويس كلاً من باڤاريا وثورانجيا وسكسونيا وفريزيا ولربما أضاف إليها مقاطعة أوسترازيا وشمالي فرنسا الوسطى ؛ بينما تؤول البلاد الاخرى الباقية الى شارل (وهو ابنه من زوجه جوديت الذي لم يكن قد ولد في سنة ٨١٧ لذلك لم يكن له أي نصيب في تقسيم سنة ٨١٧) . وقد أضيفت مادة أخرى الى هذا القرار الجديد الصادر سنة ٨٣١ ، وكانت بمثابة تهديد سافر للورثة ، نصّت

على ان الامبراطور يحتفظ لنفسه بحقّ إنقاص مساحة قسم من لا ينال رضاه من أولاده لمصلحة من سيكون أهلاً للحصول على مزيد من الشرف والسلطة. وقد تم إعلان ذلك القرار في شهر شباط ٨٣١ .

لم يكن هذا النظام الجديد الذي وضعه لويس التقي في ٨٣١ ثابت الاسس لأنه ترك لهذا الأخير ، وكما يحلو له ، أن يُدخِل عليه أي تعديل يرغب فيه ، ولم يشكّ أحد في ذلك . وفعلا فإنه ومنذ ايلول ٨٣٢ وبسبب تهمة عدم الانضباط والانقياد التي ألصقت بيبين ابن الامبراطور فقد نزعت من حصته مقاطعة آكيتانيا لمصلحة أخيه شارل الذي لم يكن بعـد قد بلغ التاسعة من عمره . ولم يمنع ذلك لويس ملك باقاريا من الثورة على أبيـه بعد ستة أشهر من هذا التاريخ لرغبته في أن يضع يده على بلاد الآلامان . ولشعور الامبراطور الأب (أي لويس التقي نفسه) أن مركزه بدأ يتحرّج ويتزعزع من جديد وان الأرض قد تميد تحت قدميه ، فانه حـاول مجدداً استمالة وكسب ابنه لوثير (الذي لم يبق له تقسيم شباط ٨٣١ سوى إيطاليا فقط) الى صفّه عارضاً عليه منحه نصف الامبراطورية فيما لو ضمن نصفها الثاني الى أخيه شارل . لكن وعلى الرغم من هذا العرض السخي فان لوثير الذي كانت الحوادث السابقة قد حفرت هوة عميقة بينه وبين أبيه ، لم يستهوه ذلك العرض وهكذا أخفق مشروع لويس التقي الجديد ولم يؤدّ إلا الى تسليم ابنه لوثير سلاحاً ليشهره ضده .

ثم اضطربت أمور الامبراطورية مرة أخرى ولم يعد فيها بجانبه لا أولاده ولا زعماء الكنيسة . ولم يلبث لوثير أن عاد من إيطاليا وعلى جناح السرعة بعد أن كان أبوه حرص على أن يبقيه مبعداً فيها . وقد رافق لوثير من ايطاليا البابا غريغوار/٤ الذي فكّر واستعد للقيام بدور الحكم ذي القول الفصل في أوروبة الغربية . وبصورة مفاجئة ، وبعد أن تخلّى عن الإمبراطور جميع مؤيديه الذين كانوا معه في معسكره في روثفيلد (ذلك المكان الذي سيطلق عليه فيما بعد لقب معسكر ساحة الكذب Champ du Mensonge) فـإن الامبراطور لويس التقي اضطر في الثـلاثين من حـزيران ٨٣٣ أن يذهب

وبمعيته زوجه الإمبراطورة جوديت وابنهما شارل لاجئاً في معسكر أولاده الثلاثة الباقين (لوثير وپيپن ولويس) الى كرم أبنائه هؤلاء •

وقد تمّ بعيد ذلك رفع الدعوى على الإمبراطور الذي أدين من قبل الأساقفة الذين حكموا عليه بالندم على فعاله وأن يعلن توبته وأن يبقى في وضعية التائب النادم لمدى الحياة • وكانت التهم الموجّهة إليـه : تدنيس المقدسات وقتل الأفراد والحنث باليمين وقول الزّور وخرق القوانين السماوية والبشرية معاً • ومما يبعث على الهزء والسخرية أن من بين التهم الموجهة إليه تحريض أفراد شعبه على الثورة (تشرين الأول ٨٣٣) •

وأخيراً وبنتيجة تلك المغامرة المحزنة فإن وحدة الإمبراطورية عادت مجدداً ولمصلحة من قبل البابا وبصورة رسمية أن يكون حامياً له وهو ذلك البائس لوثير الذي لم يكفّ وطوال سنين أربعاً عن التآمر على أبيه • أما على صعيد الواقع فقد شـدّدت فيتشرينالاول ٨٣٣ الى الامبراطورية ضربةقاضيةحيث لم يكن پيپن ملك آكيتانيا ولا لويس ملك باڤاريا مستعدين الى الرضوخ الى سلطة أخيهما ولا الائتمار بأمره • وقد استمر أولهما يؤرّخ الأعمال التي يقوم بها بسنتّي حكم ابيه الامبراطور المعزول • هذا بينما أعلن الثاني وهو لويس ملك باڤاريا استقلاله التام • وبدا واضحاً لكل ذي عينين أن كلاً منهما يريد اقتطاع جزء من الإمبراطورية ليقيم في ربوعه وما وجد الى ذلك سبيلاً دولة راسخةالأركان وطيدة الدعائم• ونظراً لأن أخاهما لويس أي الامبراطور الجديد قد ضايقهما ، لم يدخر هذان الاخوان ، پيپن ولويس ، وسعاً في عزله • لكنهما عندما لاحظا أن لوثير بدوره جـادّ في الحرص بدوره على الدفاع عن وحدة الامبراطورية فإنهما أعلنا وللمرة الثانية وبصورة فجائية أنهما يفيضان شعوراً بالحب الأبوي لأبيهما الامبراطور المعزول • وكان أن أجلساه مـرة أخرى وفي وسط مظاهر التعظيم والإجـلال على العـرش الامبراطوري وذلك في آذار ٨٣٤ •

أما بالنسبة الى الامبراطور لويس التقي نفسه والذي أعيد الى العرش ، وفي حدود أنه لن يبقى مجـرد لعبة بين أيدي أولاده فإن قصر أطماعه في

الظرف الراهن على أن يترك لابنه المفضّل شارل ، ابنه من زوجه جوديت ، أجمل وأكبر قسم من إرثه • وكان أن عمد مجدّداً الى تقسيم وتجزئة الامبراطورية التي كان الى ما قبل عشرين عاماً يؤكد أنها وحدة غير قابلة للتجزئة • وعندما نظّم الامبراطور لويس وللمرة الاخيرة قبل عدة أشهر من وفاته في ٣٠ مايس سنة ٨٣٩ مصير أجزاء امبراطوريته وذلك عقب وفاة ابنه پيپن ملك آكيتانيا (سنة ٨٣٨) ، فإنه قام بتقسيمها في هذه المرة كجرماني قحٌّ أصيل وبتّ في هذه القضية بصورة نهائية من أجل أن يبقي الى كل من ابنيه لوثير وشارل جزأين متساويين تقريباً ويشملان بلاداً في حوضي نهري الموز والسون Saône وفي جبال الألب ظاناً أنه ضمن بذلك بقاءهما متفقين هذا بينما لم ينل ابنه الثالث وهو لويس الذي كان دائم الثورة على أبيه سوى مقاطعة باڤاريا فقط •

لقد استنفدت هذه التضحية بدون أن تترك أي أثر • ومن المؤكد أن سمعة المنصب الامبراطوري لم ينل منها حتى تلك الفترة ، وأن لويس التقي بعث الى ابنه لوثير في ساعات احتضاره بالشعارات الامبراطورية ، وإن تكن تلك الامبراطورية قد بقيت اسماً أجوف وسوف لن تنهض من عثرتها ولن تسترد قوتها بعد الضربات القوية التي كان الامبراطور نفسه قد سدّدها إليها وكالها لها •

لذلك كانت فترة ثلاث السنين التي أعقبت وفاة الامبراطور لويس التقي فترة تصفية بالنسبة الى الامبراطورية • وكانت تصفية صاخبة انبرى الورثة خلالها الى الدفاع وبعناد وإصرار عن حقوقهم فتأرّث الصراع الاخوي بينهم • لقد أقر لويس التقي وفي السنين الاخيرة من حياته وتباعاً الكثير من التدابير المتناقضة التي استوجبتها الادعاءات أو الطلبات الاشد تناقضاً • وهكذا كان لكل لقبه الذي أخذ يسعى جاهداً لحمل الجميع على الاعتراف به وأنه لن يتردد في اللجوء الى السلاح لحمل هؤلاء على هذا الاعتراف • ومع ذلك فقد حدث وشيكاً أن لوثير ، الذي كان شديد النهم للحصول على المكاسب والذي كان قد قطع شوطاً بعيداً على ذلك الطريق ، أن تمادى في

غيّه فطلب أن يعترف له بالسيادة على مجموعة أقاليم الامبراطورية مما حدا بأخويه لويس وشارل الى الاتفاق • وبعد أن ألحق هـذان الأخوان هزيمة شنعاء دامية بقوات أخيهما (في ٢٥ حزيران ٨٤١) الى الجنوب الغربي من أوكسير Auxerre أبرما فيما بينهما تحالفاً مشهوداً هو عبارة عن معاهدة معونة متبادلة وذلك في مدينة ستراسبورغ (١٤ شباط ٨٤٢) وهو أول صك" رسمي استعملت فيه اللغتان الافرنسية والألمانية بدلاً من اللغة اللاتينية• من حيث أن الجنود الذين كانوا موجودين آنئذٍ لم يكن بوسعهم فهم سوى تينك اللغتين : مما ينهض برهاناً قاطعاً ، ولربما تم" حدوث ذلك لأول مرة في التاريخ أن الشعوب اعتبرت بمثابة شهود ، وأنها قيدت نفسها وبصورة مباشرة للحفاظ على عقد كانت الغاية الرئيسية منه ، ومهما كان هنالك من اعتبارات ، تدشين واقع سياسي جديد في أوروپة الغربية للصمود في وجه ومجابهة نزعة السيطرة الأمپريالية التي كانت متمثلة في شخص الإمبراطور لوثير ، وذلك بضمان هذه الشعوب التطور الحر" للمجموعتين العرقيتين اللتين تمثلهما اللغتان اللتان استعملتا في تدوين هذه المعاهدة، وهاتان المجموعتان العرقيتان هما فرنسا وألمانيا •

ولم يُعتِّم أثر هذا الاتفاق أن وضح للعيان : فإن لوثير الذي هُدِّد مجدَّداً بأن يضطر الى الاكتفاء بمملكته اللومباردية ، فاوض أخويه مع الانطلاق من مواد اتفاق أو تحالف ستراسبورغ كأساس للمفاوضة • وأخيراً أنهت معاهدة ڤردان Verdun ، وبعد مفاوضات مضنية ، هذه الفترة من النزاع الطويل • ولم يسلم بموجب هذه المعاهدة سوى اللقب الامبراطوري• ولم يعد ثمة مجال للبحث والتفكير في إقامة وحدة للعالم المسيحي في أوروپة الغربية • وسيكون منذئذٍ ثلاث ملكيات متميز بعضها عن بعض هي : **الملكية أو الدولة الفرنسية ، والدولة الجرمانية ، وتقوم بينهما دولة لوثير** — من حيث أنه يجب الاحتفاظ للإمبراطور لوثير بمملكة ذات رقعة معادلة لرقعة كل من أخويه — وهي بمثابة دولة حاجزة تتوقّف حدودها تقريباً عند مجرى نهر الإيسكو Escaut وعند هضبة الآردين ونهري الموز والسون

وجبال الكتلة المركزية والسيفين Les Cévennes من جهة ومصب نهري الإيمس Ems والراين وجبل سانت غوتارد والبحر الأدرياتيكي من جهة أخرى •

ولطالما استشهد في هذه المناسبة بأبيات من الشعر المحزنة التي نظمها فلوروس Florus أحد رجال الدين في مدينة ليون الذي أخذ يبكي في صبيحة يوم إبرام معاهدة أو تقسيم ڤردان أطلال الإمبراطورية والكوارث التي حاقت بشعب الفرنجة المجيد « الذي صار منذ ذاك مطروحاً على الأرض ومعفّراً بالتراب » • كما أخذ يتألم لضعف هؤلاء الملوك الصغار المساكين الذين يحكمون أجزاء من ملكيات • ومع ذلك يجب ألا تحجب تلك الاحزان والدموع الصفة الحقيقية للحوادث التي تمّ وقوعها • لم تكن معاهدة ڤردان شهادة وفاة الامبراطورية فحسب ، انما كانت وفي الوقت نفسه شهادة ميلاد أوروپة وشهادة ميلاد كل من فرنسا وألمانيا وايطاليا • وبالنسبه الى القسم الذي كان أقل عقلانية في هذه المعاهدة فانه ربط ، سواء أكان ذلك لخير أم لشرّ ، وبصورة حاسمة مصير تلك الدولة الغربية التي أوجدتها هذه المعاهدة من أجل لوثير والتي كان القسم الاعظم من الاراضي التابعة لها قد اقتطع من تلك المنطقة الخليطة حيث بدأ يحدث هناك تطابق تامّ بين مفهومي الفكرتين العرقيتين الرومانية والجرمانية • فتلك الدولة الحاجزة التي خصّص بها لوثير ستساعد على توضيح معالم التمييز والتفرقة بين البلاد الفرنسية والبلاد الجرمانية وتقيم في الوقت نفسه مجموعة من المناطق المتنازع عليها ، والتي كان كل من الجارين (الفرنسي والجرماني) لا ينقطع عن المطالبة بضمها الى دولته باصرار متساوٍ • وهكذا اعتبرت معاهدة ڤردان أو بالاحرى تقسيم ڤردان الاساس الذي تفرعت عنه أكبر حوادث الخصام والحروب التي أريقت بسببها وطيلة أعصر طويلة الدماء الغزيرة في بلدان أوروپة الغربية •

ثالثاً ــ استمرار وديمومة الفكرة الامبراطورية في اوروپة الغربية (١) : ــ لقد انهارت الامبراطورية الكارولنجية وليس الفكرة الامبراطورية نفسها •

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في المصادر التالية :

آ ــ فرديناند لوط : تاريخ فرنسا المذكور ، الفصل ٥ ، ص ٧٥ ــ ٧٨ •

ثمت فان رجال الاكليروس الذين زجّوا بأنفسهم في حمأة الصراع لم يعترفوا بالهزيمة ، واستمروا الى ما بعد نصف قرن ، كما سيمر بنا ذلك ، يظهرون حرصاً شديداً ما بعده من حرص على ديمومة واستمرار مبدإ وحدة أوروبة الغربية المسيحية • وصار ثمة منذ سنة ٨٤٣ ثلاث ممالك لا يمكن أن يساور أحداً شك في وجودها ، حتى ولو أن عاهل واحدة من بينها ، وهو لوثير ، استمر حاملا اللقب الامبراطوري • وقد شعرت كل من هذه الدول الثلاث أنها تتبع سياسة مختلفة تماماً عن سياسة الدولتين الاخريين ، ولو أن هناك بعض القضايا المشتركة كانت تتطلب معالجة من قبل ثلاث الدول معاً • ونذكر على سبيل المثال أن ثلاثتها كُنَّ يتعرضن الى سطو نفس القراصنة على سواحلها ، مما سنتحدث عنه في حينه • وكانت رقعة ثلاثتها تحتل الرقعة الرئيسية التي تخضع الى سلطة الحبر الاعظم الكاثوليكي الدينية • فلماذا لا تؤلّف ثلاثتها وفي ظل رعاية ذلك المتربّع على الكرسي الاقدس ثالوثاً سياسياً هادفاً الى تحقيق نفس المثل الاعلى ؟ وفعلا عقدت عدة مؤتمرات تمّ انعقاد أولها في تشرين الاول ٨٤٤ ، كما عقد أيضاً مؤتمران في سنتي ٨٤٧ و ٨٥١ • وقد هدفت ثلاثة المؤتمرات هذه أن تقيم وبصورة فعلية نظام تعاون مستمر بين هذه الدول • وقد شُنِّفَت آذان الحاضرين في تلك المؤتمرات بالتصريحات الجميلة والمعسولة حول مبادىء الشعور بالمساواة التامة وبالاتفاق الاخوي بين العواهل الثلاثة وبارادتهم في أن يشدّ بعضهم أزر بعض ، وأن يهبّ بعضهم لمد يد المساعدة الى أخويه في حالة تعرضهما الى الخطر ، وألا يقوم ثلاثتهم بأي عمل الا بنتيجة اتفاقهم التام والمسبق عليه •

لكن جميع تلك التصريحات لم تكن سوى كلمات جوفاء • ففي الوقت الذي أعلن فيه ثلاثة العواهل هؤلاء عن اخلاصهم لمصالحهم المشتركة وتفانيهم

←

ب ـ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٤ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨٥ •

ج ـ مجموعة موريس مولو M. Meuleau عن العالم وتاريخه المذكورة ، المجلد ٣ تأليف لوس پيیتري ، القسم ٢ ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ ثم ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ •

من أجلها كان كل منهم يتآمر في السر ومن وراء الستار ضد أخويه • ومن قبيل ذلك سعي لوثير الحثيث في سنة ٨٤٨ لان يتحالف مع أخيه الشقيق لويس ضد أخيه لأبيهما شارل ، ثمت محاولته في سنة ٨٥٤ الاتفاق مع شارل نفسه ضد لويس (أي ضد أخيه الشقيق أي ضد أخيه لأبيه ولأمه) • لا بل فان لويس أرسل في العام نفسه أحد أبنائه لاثارة اقليم آكيتانيا ضد أخيه • وقد بقي رؤساء ثلاث الدول هذه يلجؤون في علائقهم ببعضهم بعضاً الى هذه الوسيلة المنحطة وغير الشريفة طيلة القرن التاسع •

ومهما يكن فان تقسيم ڤردان الذي ظهر بنتيجته ثلاث الدول المشار اليها آنفاً أخذ ومع مرور الزمن يزداد رسوخاً وتوطّداً يوماً عن يوم • وقد بذل كل من شارل ولويس جهد طاقتيهما ، ولا سيما شارل ، للحيلولة دون تفتّت وتجزئة مملكتيهما الخاصتين ، وإن يكن موت لوثير ، في سنة ٨٥٥ ، وتقسيم أجزاء دولته بين أولاده الثلاثة (لوثير ٢ وشارل ولويس) قد أدّيا الى محو وفقدان ذكرى وحدة الفرنجة • ولئن بقي ثمة « امبراطور » أو بالأحرى لقب الامبراطور لكنه لم تعد لهذا اللقب الذي عثر عليه أبناء لوثير بين مخلّفات تركة أبيهم أية قيمة • ولم تتجاوز حصة من ورث اللقب الامبراطوري وهو بالتالي من سيحمله والذي صار يدعى لويس الثاني اقليم لومبارديا في ايطاليا • ولم يعد للقبه الامبراطوري أي معنى أو أي وقع في خارج نطاق ايطاليا •

ولحسن حظ عالم غربي أوروپة فان الكنيسة الكاثوليكية ممثلة بالبابوية لم تيأس من اعادة الامبراطورية• لكن ازدياد تفتّت وتجزئة أقاليم الامبراطورية وبصورة مطّردة ، وتلك الدسائس وحوادث تصادم المصالح التي جعلت من الامبراطورية الكاثوليكية بلاداً يُكِنُّ بعض سكانها العداوة الى الباقين فكل ذلك كانت نتيجته وبالنسبة الى الكنيسة والى العمل الذي نذرت نفسها من أجل تحقيقه مأساوية محزنة رأت من واجبها أن تحول دون وقوعها مهما بذلت من ثمن • وكان معنى الخلاف بين أمراء الفرنجة بالنسبة الى الكنيسة ابقاء النصرانية لا حول لها ولا قوة وجعلها تجابه وبدون أي وسيلة دفاع طغيان الوثنيــة من الشمال ومن الشرق ــ ممثلة في العناصر النورماندية

والسلافية ــ التي بدأت تشنّ الغارة عليها ٠ ثم سيكون معنى الخلاف الذي سيذرّ قرنه بين أمراء الفرنجة والذي سيكرث بلاد هؤلاء الأمراء فتح أبواب البلاد المسيحية على مصراعيها في وجه المسلمين الذين غدوا يشكلون تهديداً مباشراً للبابوية ٠ وذلك لانهم أخذوا يغيرون ومن صقلية التي بدؤوا احتلالها منذ سنة ٨٢٧ وشرعوا في محاولة هذا الاحتلال وبشكل أصولي ، على غربي ايطاليا ٠ ولا تزال ذكرى مهاجمة هؤلاء المسلمين روما في سنة ٨٤٦ عالقة في الاذهان ٠

ومن أجل تأمين الدفاع عن ايطاليا ضد المسلمين والحيلولة دون تسرّب الوثنية مجدداً الى رقعة الفرنجة على يد السكندنافيين أي النورمانديين والعناصر السلافيةفلهذا وذلكسعى البابوات بجهد لا يني وعزيمة لا تكلّ لاحلال الوئام والوفاق بين الامراء الكارولنجيين ، وأن يبقوا هؤلاء الامراء متكتّلين وملتفّين حول العرش البابوي ٠ لكن هذه المهمة كانت جحوداً ومثبّطةً للهمة استنفدت وبدون نجاح جميع جهود البابا نيقولا الاول ٠ ومع ذلك فانه لئن كان بوسع شخص ما أن يوقف عجلة التطور وأن يعود بتفكير الامراء الكارولنجيين الى ما قبل هذا العهد ، وأن يَسُودَ بينهم الوئام والوفاق فسيكون ذلك الشخص وبصورة مؤكدة هو هذا البابا نيقولا الأول الذي أمكنه الصمود وباصرار وعناد في وجه البلاط البيزنطي لرفضه تدخّل السلطة الزمنية التي يمارسها الامبراطور البيزنطي في القضايا الداخلية المتعلقة بالكنيسة معتبراً هذا التدخل افتئاتاً غير مقبول على نطاق صلاحياته وتدخلا فيها ٠ ونظراً لأن هذا الحبر الاعظم لم يكن متهاوناً بالنسبة الى المبادىء كان عليه أن يحاول ، لا بل فقد حاول فعلاً ، أن يضع حداً لتلك الدسائس التي استساغها ورثة لويس التقي الورع وسرّوا منها ٠ وقد عرف كيف يحدثهم بلهجة حازمة مفيداً من ظروفهم وضعفهم ليدّعيَ لنفسه حق فضّ خصوماتهم فيما يتعلق بالناحية الاكليريكية التي يرى لنفسه حق السيادة فيها ، وأن يضع حلاً للمسائل والقضايا مثار الخلاف بين دولهم ، وأن يقوم اذا ما دعت الحاجة الى ذلك بعزل الاساقفة أو المطارنة الذين لا يعتبرهم أهلاً لملء هذه المناصب ٠ ثم بلغت

به الجرأة حداً جعله يطلب من هؤلاء الملوك الانقياد والخضوع والاصاخة بأسماعهم لآرائه . لا بل فانه وصل الى حدّ اظهار اشمئزازه من أن بعض هؤلاء الملوك فكر في استعمال لهجة قاسية نوعاً ما في رسائله اليه . لكن ماذا كان بوسع ارادة الحبر الاعظم أن تقوم به من عمل لتوقف قوى الانحلال والتفتّت الجارفة والتي كانت تزيد من بثّ التفرقة من يوم الى آخر بين الممالك التي تفرعت عن امبراطورية الفرنجة القديمة ؟

هذا وان تكن الحوادث المقبلة قد جرت بشكل ساعد والى حدٍّ ما خطط الذين كانوا يحلمون ببعث الامبراطورية القديمة . لكن لئن برزت الفكرة الامبراطورية مجدداً الى حيّز الوجود ، لكنها لا تدين اطلاقاً بهذا الظهور الى روح الوفاق والوئام . لقد قضى القدر بأن تختطف المنون أبناء لوثير الثلاثة وهم في سنّ مبكّرة . وحدثت وفاة ثلاثتهم بصورة متعاقبة ؛ وليس من فارق بين وفاة أحدهم ووفاة أخيه قبله سوى عدد قليل من السنين ، علماً أن أحداً منهم لم يُعَقِّبْ ولداً ذكراً ليرث المنصب الامبراطوري : حيث قضى شارل ملك بروڤانس وبورغونديا نحبه سنة ٨٦٣ ، وحدثت وفاة لوثير الثاني ملك المقاطعات الشمالية ــ لوثارنجيا أو اللورين ، سنة ٨٦٩ ، بينما حُمَّ أجل لويس الثاني ملك ايطاليا وهو الذي يحمل اللقب الامبراطوري سنة ٨٧٥ . وأدت وفاة هؤلاء الاخوة الثلاثة الى حصول عميهما ، وهما شارل الأصلع Charles le Chauve ملك فرنسا ، ولويس الجرماني ، ملك جرمانيا على مغنم لم يكونا يتوقّعانه ، من حيث أن كلا منهما كان شديد الحرص على أن يُوَسِّع رقعة بلاده على حساب جاره . وبصورة مُتَسَرِّعة حاول شارل الأصلع ومنذ سنة ٨٦٣ مصادرة تركة ملك پروڤانس وبورغونديه (شارل ابن أخيه لوثير) وبدون أن يكون له أي حقّ في هذا الارث حيث كان أخوا المتوفى (وكانا ما يزالان على قيد الحياة) أحق به منه . لكنه لم يأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار ولم يأبه بها كثيراً الى درجة أنه عاود الكرّة مجدداً في سنة ٨٦٩ باحتلال ممتلكات لوثير الثاني ابن أخيه (وقد حدثت وفاته في هذا العام) . وبدون أن يكون للويس الجرماني (أخي شارل الأصلع وابن

لويس التقي) أي رادع أو وازع من ضميره فانه اكتفى بأن يشترط على أخيه ، ثمناً لقبوله بالامر الواقع اقتسام تركة ابن أخيهما . لم يبق بعد ذلك أمام الاخوين الا أن يواتيهما الحظ بوفاة الامبراطور لويس الثاني (ابن لوثير الاول ابن لويس التقي ابن شرلمان) . فشارل الأصلع الذي كان أصغر من أخيه لويس الجرماني وأكثر فعالية وحيوية وأسرع في حبك الدسائس وانجازها ، والذي كان أوشك على الهلاك في سنة ٨٦٩ ، بدأ ومنذ فترة مبكرة يلجأ الى سلاح التآمر . وفضلا عن ذلك فان البابا يوحنا الثامن ، الذي بدأ يجس خيفة من ازدياد جرأة هجمات جماعات المسلمين صار حريصاً على أن يجد حامياً له لذلك فانه بدأ يُمَهّد الطريق أمام شارل الأصلع . وهكذا فانه بمجرد حدوث وفاة لويس الثاني (الذي كان يحمل اللقب الامبراطوري) التي حدثت في ١٢ آب ٨٧٥ كانت عملية اخراج تلك المسرحية قد انتهت . وبصورة أذهلت وأدهشت لويس الجرماني تمّ تتويج شارل الأصلع امبراطوراً في روما في ٢٥ كانون الاول ٨٧٥ بمجرد حضوره الى ايطاليا وذلك في يوم ذكرى تتويج والده شرلمان نفسه . ثمت هتفت الجماهير المحتشدة في باڤيا عاصمة اللومبارديين القديمة في ٣١ كانون الثاني ٨٧٦ الى شارل كملك لايطاليا . ولم تُجْدِ جميع التدابير التي لجأ اليها لويس الجرماني ، الذي فوجىء بمسألة تتويج أخيه شارل امبراطوراً ، للحيلولة دون تمكين أخيه من بسط نفوذه على شبه جزيرة ايطاليا . كما ذهبت محاولته للاستيلاء على مملكة أخيه الفرنسية بنتيجة هجوم مفاجىء عبثاً وأدراج الرياح . وهكذا غدا شارل عاهلاً وسيّداً لثلاثة أرباع رقعة الامبراطورية القديمة ، وبدا وكأن اللقب الامبراطوري عاد ليتمتّع من جديد بما كان له من هيبة ومكانة ووقار .

وكان شارل يسير وراء سرابٍ خدّاع لم يلبث أن صدمه بصورة قاسية . ان شارل الذي كان يزيد من عدد الاقاليم الخاضعة الى حكمه كان يضاعف في الوقت نفسه الصعاب التي تحدق به ويتخبّط فيها . فكان عليه في فرنسا أن يجابه خطر نشوب الثورة وخطر غارات العناصر النورماندية . أما في ايطاليا فثمة خطر مزدوج : خطر تأرّث الثورة والخطر الناتج عن غارات

المسلمين على بعض مناطقها • لقد انهارت سلطة هذا الامبراطور عندما توفي فجأة في ٦ تشرين الاول ٨٧٧ عند سفح أحد جبال الآلب أثناء عودته وبسرعة من ايطاليا ليجابه وليتصدّى الى وضعية ميئوس منها •

وبقيت البابوية حريصة ، وبحماس منقطع النظير ، على انقاذ الفكرة الامبراطورية من الكارثة • وقد ظهر لها أن ملك الفرنجة الغربيين لم يكن كفئاً لتنفيذ مخططاتها • ولم يتمكن ابن شارل الأصلع ، وهو لويس المتعتع الملجلج le Bègue ، والذي كان ضعيف الشخصية ، من البقاء في كرسي الحكم في غربي جبال الآلب إلاّ بشقّ الأنفس ، بينما كان أولاد لويس الجرماني ، الذي كان قد توفي قبل أخيه شارل الأصلع بعدة أشهر (في ٢٨ آب ٨٧٦) في وضعية تؤَهّلهم الى احتلال ايطاليا • وهكذا حاول البابا وضع مصيره ومصير المسيحية في أيديهم طالما أنه لم يجد من هو أحسن منهم • ومن المؤسف حقاً أن كارولنجيّي ألمانيا لم يكونوا أفضل من كارولنجيّي فرنسا • وقد أصيب كارلومان ، وهو الابن البكر للويس الجرماني منذ تشرين الاول ٨٧٧ ، وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ، بشلل عام اضطره الى التنازل عن الحكم بعد أقلّ من سنتين • بينما أصيب أخوه الاصغر لويس الشاب le Jeune وكان في الثانية والثلاثين من سنيّ حياته وفي نفس السنة التي حدثت فيها وفاة أخيه الاكبر بانحطاط عام في قواه الطبيعية بصورة تدعو الى القلق ، وقد فارق الحياة سنة ٨٨٢ • وعلى غرار أخيه الاكبر فانه لم يُعَقِّب ولداً ذكراً شرعياً •

وكان أصح أولاد لويس الجرماني وأسلمهم جسماً هو شارل السمين le Gros لكنه لم يلبث أن توفي بعد خمس سنين بنتيجة اصابته باحتقان دموي في الدماغ • وقبل وفاة هذا الاخير كان البابا يوحنا الثامن قد استدعاه لروما • ووضع هذا الحبر الاعظم وبيده تاج شرلمان على رأس شارل السمين في ١٢ شباط ٨٨٢ • وظنّ أصحاب العقول الساذجة وبنيّة حسنة أن عصر الكارولنجيين الذهبي قد عاد مجدداً الى الظهور •

وقد أسهمت المصائب نفسها التي حاقت بالاسرة الكارولنجية في ابتسام

الدهر لها من جديد بعد أن كشّر لها عن أنيابه، فغدا شارل السمين ومنذ سنة ٨٨٢ العاهل الأوحد لكل من ألمانيا وايطاليا ، هذا بينما أزهق الموت أرواح الكثيرين من الكارولنجيين في فرنسا فمات فيها وفي فترة خمس سنين لويس المتعتع أو الملجلج في ١١ نيسان ٨٧٩ ، ثم مات ابناه ، لويس الثالث ، في ٥ آب ٨٨٢ ، وكارلومان ، في ١٢ كانون الاول ٨٨٤ ، لدرجة أنه لم يبق على قيد الحياة منهم سوى طفل هـو شارل الصغير (وهو الذي سيلقّب بالبسيط أو الساذج le Simple) الذي ولد يتيماً بعد وفاة أبيه لويس المتعتع ٠ ولم يسمح الخطر النورماندي بالتفكير في منحه تاج مملكة فرنسا ، لذلك فان هذه المملكة قد منحت هي أيضاً الى الامبراطور شارل السمين ٠

وكان حلماً عجيباً فبعد أن بترت أوصال الامبراطورية واقتطعت منها عدة مناطق ، وبعد أن كرثتها حروب أهلية كثيرة فان جميع أقاليم هذه الامبراطورية عادت لتحتلّ مكانها في اطار الوحدة الامبراطورية التي قامت من جديد ٠ وقد بزغ أخيراً أمام ناظري أوروبة الغربية المسيحية نور فجر عهد جديد عهد عظمة ومجد ٠ وأخيراً انبلج بالنسبة الى ثقة الحبرية العظمى الراسخة في المستقبل صبح جديد بعد اخفاق وخيبة أمل استمرا عدة سنين ٠

انه حلم غريب في الواقع لكنه حلم لم يستمر طويلا ، فسرعان ما أدرك الناس أن شارل السمين لم يكن ولا بوجه من الوجوه شرلماناً جديداً ٠ وقد وضح للجميع كيف أنه فضّل في سنة ٨٨٥ ، وعلى الرغم من قوة جيشه أن يدفع الخراج الى عناصر النورمانديين الذين كانوا محاصرين لمدينة باريز وبأن يسمح لهم بالاغارة على بورغوندية وأن يسلبوها خيراتها وينهبوها مقابل رفعهم الحصار عن باريز ٠ ولم تلبث آخر الآمال التي كانت معقودة عليه أن انهارت وتداعت ٠ ولم يكن هذا الامبراطور غير كفء لادارة دفّة الحكم فحسب انما مريض كأخويه ٠ وكان لامناص من اتخاذ قرار بتنحيته عن الحكم٠ وقد صدر هذا القرار المتضمن عزله في تشرين الثاني ٨٨٧ لا سيما ولم يتمكن منذ فترة ما من ممارسة مهام الحكم ٠ وبالاضافة الى ذلك فقد حُمّ أجله في ١٣ كانون الثاني ٨٨٨ أي بعد مرور شهرين فقط على صدور القرار بعزله ٠

وسيكون بعد هذه الفترة أباطرة ، لكنهم لم يكونوا في واقع حالهم سوى ملوك غير مشهورين لايطاليا والذين لم يُؤَدِّ حملهم للقب الامبراطوري الى أي زيادة في نفوذهم وسلطتهم ، انما سيكون هذا اللقب لقباً مُشَرِّفاً اضافياً . وسيكون العاهل الوحيد الغريب عن ايطاليا والذي كان لا يدّخر وسعاً في الوصول الى هذا اللقب الذي لم يعد يتضمن أي معنى هو آرنولف Arnulf وهو ابن طبيعي (غير شرعي) لكارلومان (الابن البكر للويس الجرماني) ووريث شارل السمين في ألمانيا . وقد نجح في الحصول عليه وبحدّ السيف سنة ٨٩٦ ، كما حصل في الوقت نفسه على عرش ايطاليا . لكن مغامرته هذه لم تكن مربحة لدرجة أن أحداً لم يدر في خلده بعد موت آرنولف هذا أن يمضي على سننه . وسيكفّ ملوك ايطاليا أنفسهم عن الحضور الى روما عملاً بالعرف الجديد الذي استمرّ مرعياً منذ منتصف القرن التاسع لتسلّم عرش الامبراطورية من يد البابا . وكان الملك بيرانجيه Bérenger ، وهو مركيز ولاية فريول الأسبق ، والذي مات في سنة ٩٢٤ آخر امبراطور من سلالة الأباطرة التي بدئت بشرلمان .

كان بيرانجيه هذا آخر الأباطرة وبقي اللقب وبالتالي المنصب الامبراطوري شاغراً بعد وفاته سنة ٩٢٤ وطوال أربعين عاماً وبدون أن يوسد لأحد . ومع ذلك فقد استمرت الفكرة الامبراطورية حيّة في الاذهان .

ولم ينقطع الافراد في غربي أوروبة عن تذكّر الايام المباركة التي كان شعب الفرنجة المجيد خلالها يحكم أوروبة . وحوالي سنة ٩٥٠ راق لراهب في دير موتنيه Montier في اقليم شامپانيا (في فرنسا) أن يُذَكِّر الناس بأن الامبراطورية الرومانية ما تزال موجودة وفي عنفوان قوتها عند جميع ملوك الفرنجة منذ وفاة الامبراطور العظيم شارل . وعندما دعت الظروف أوتون Otton ملك جرمانيا الى أن يبدي رغبته في ترسيخ وتمتين سلطته التي كانت آخذة بالنمو والازدياد من جرّاء انتصاراته بأن يضيف اليها لقباً مُشَرِّفاً لم يستول العجب على أحد حينما رأوه يطالب بلقب الامبراطور هذا ، ذلك اللقب الذي كان سلفه آرنولف قد حمله قبل عدة سنين فقط من ولادته .

الفصل التاسع

توسّع العناصر السكندناڤية في القرنين التاسع والعاشر

جعل انهيار ودمار امبراطورية الفرنجة أوروپة الغربية وللمرة الثانية تحت رحمة البرابرة الذين ما زالت عناصرهم وفيرة في شرقي وشمالي هذه القارة . ولم تلبث تلك العناصر أن استثمرت تلك الحال التي تمكنت من الوقوف عليها بسهولة من جرّاء وجودها بجوار المناطق التي كانت مسرحاً للاحداث السياسية التي أدت الى دمار تلك الامبراطورية .

ومن هذه الزاوية يُذكّر تاريخ فترة مائتي العام التي أعقبت وفاة شرلمان ، بفترة القرون الاخيرة التي عاشتها الامبراطورية الرومانية حيث غدت تلك الامبراطورية وشيكة الانهيار تحت وطأة الضربات التي كالتها لها العناصر الجرمانية . وغالباً ما تظهر هذه المقارنة بين الفترتين أوجه شبه كثيرة بينهما من حيث أنه أمكنت ملاحظة نفس الظاهرة في كلتيهما : فكان ثمة انقضاض عنيف من قبل شعوب غازية مجتاحة لم يكن هدفها من غاراتها وفي أول الامر ، كما يبدو ، سوى السلب والنهب وتدمير الحضارة . هذا ولو أن شعوب أولئك الغزاة لم تلبث أن حاولت الاستقرار على الارض التي اجتاحتها بعد تحوّلها السريع من غزاة لا همّ لهم سوى السلب والنهب الى عناصر تنشد الاستقرار في البقاع التي استولت عليها .

بدأ السكندناڤيون ، وهم من زمرة العناصر الضامة « **لرجال الشمال** » أو « **النورمانديين** » ، الباعثين للذعر وذوي القوارب السريعة ، يثيرون ومنذ نهاية القرن الثامن قلق سكان البلاد الواقعة على سواحل البحار الشمالية . ولم تشذّ تلك العناصر السكندناڤية في سلوكها عن باقي العناصر الشمالية

حيث أنه من الخطإ تصوّر هذه العناصر مجرد قراصنة عاديين خاصة وأن مقاتلتها بعد أن نشروا الذعر وعمدوا الى سلب ونهب جميع الجزر البريطانية وغاليا والاراضي المنخفضة وألمانيا وروسيا وحتى البلاد الواقعة على سواحل البحر الابيض المتوسط وعلى مضيق البوسفور فان هذه العناصر أسست مستعمرات قوية ما تزال حتى أيامنا هذه تحمل طابع وصفات مؤسسيها الأوائل •

تحدّث الاستاذ لوس پييتري عن غارات تلك العناصر السكندينافية على سواحل شمال غربي وغرب أوروپة وحتى على شرقيها منذ أيام امبراطورية شرلمان وذلك بعد أن مهّد لحديثه هذا بعرض موجز لظروف هذه العناصر الشمالية منذ انهيار الامبراطورية الرومانية ، وأنها ظلّت قابعة في شبه الجزيرة التي حملت اسمها طوال عدد من القرون الى أن استأنفت غاراتها مجدّداً على غربي أوروپة منذ القرن الثامن فقال بصدد ذلك ما معناه : « وقد أغار « رجال الشمال » على السواحل الغربية والشمالية للامبراطورية • وكان بدء انطلاق هؤلاء النورمانديين في غاراتهم التي كانوا ينشدون من ورائها السلب والنهب منذ أيام حكم شرلمان ، علماً أن هؤلاء المغيرين الغزاة لم يكونوا حديثي العهد بمهاجمة تلك السواحل الاوروپية الغربية حيث تعود الموجة الاولى منغارات هؤلاء الشماليين ، وهي موجة عناصر الكامبريين Cimbres والتيوتون الى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد حيث اجتاح مقاتلة هذه العناصر وبين سنتي ١١٣ — ١٠١ ق•م كلاً من سواحل غاليا واسبانيا وشمالي ايطاليا • وبقيت العناصر السكندينافية منذ الغارات الجرمانية على الامبراطورية الرومانية ، تلك الغارات التي اشتركت فيها بعض عناصر السكنديناقيين كالهيرول — Hérules متقوقعة في شبه جزيرتها ومنطوية على نفسها طوال عدة قرون • ولم يكن لها وطوال تلك الفترة من علائق الا مع الشعوب المجاورة لها كالشعوب الآنكلو سكسونية والعناصر الكلتية في كل من اسكتلندة وأيرلندة والعناصر الفريزية • ثمت تبلورت وببطء وظهرت الدول القومية في اسكنديناڤية في ظل ملوك أوپسالا Upsala في السويد وحول جتلند Jutland في الدانيمرك بينما بقيت

النورويج وحتى القرن التاسع مجرّد تعبير جغرافي (أي لم يقم في ربوعها حكومات قومية مستقرة) • وقد دخلت العناصر السكندناڤية باب التاريخ وصار يُتَحدّث عنها منذ بدء موجة الغارة الكبرى للشعوب الشمالية في القرن التاسع حيث سلك السويديون طريق السواحل الشرقية بصفة تجار أطلق عليهم اسم الڤاريغ les Varègues ، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم كل من الروس والاغريق والعرب ، أما النورڤيجيون والدانيمركيون الذين صاروا يدعون منذئذٍ بعناصر الڤيكينغ les Vikings فصاروا يغيرون كقراصنة على موانىء غربي أوروبة • ولم تشر المصادر المعاصرة وبصورة جلية واضحة الى أصل ومنطلق هجرة هذه الموجة البشرية الكبرى • ثمت فان أخباريّي غربي أوروبة ومؤرّخيها الحوليّين الذين أفقدتهم وحشية غارات هؤلاء رشدهم وصوابهم لم يشيروا سوى اشارات عابرة مقتضبة الى أخبار تلك الغزوات • أما القصص السكنديناڤي القومي ، النثري والشعري ، والذي تضمّن وصفاً حيّاً لها ، فكان منقولاً بطريقة التواتر الشفهي والسماع ولم يُبْدَأ بتدوينه الا في فترة متأخرة تعود الى نهاية القرن الثاني عشر ومطلع الثالث عشر • وقد ضمّت المناطق الشمالية ، على ما يبدو من الاخبار التي انتقلت بطريق ذلك القصص الشعبي القومي ، عناصر الڤيكينغ واكتظت بهم وبدأت تضيق عن استيعابهم وتأمين موارد العيش لهم فلم ير أفراد تلك العناصر مندوحة عن الاغارة على طول السواحل المجاورة وامتهان القرصنة لا سيما وكان تقدّم فنّ الملاحة في الوقت نفسه قد هيّأ لهم الوسيلة التي تساعدهم على ممارسة تلك الغارات البحرية أو القيام بذلك التوسّع البحري ••• »[1] •

البلاد السكنديناڤية وعناصر سكانها حتى مطلع القرن التاسع : ــ كانت الشعوب السكنديناڤية في الوقت الذي بدأت فيه الهجرة النورماندية الكبرى مقسمة آنذاك، وكحالها في أيامنا هذه الى ثلاث مجموعات رئيسية : **هي الدانيمركيون والنورڤيجيون والسويديون** • وقد تحدث معظم المؤرخين

---

(١) مجموعــة موريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ (تأليف لوس پييتري) ، القسم ٢ ، الفصل ٤ ، ص ٢٣٠ .

عن اسكنديناڤية وسكانها في هذه الفترة ونحن نثبت هنا ما أورده الأستاذان لوط وغانشوف في مجموعة غلوتز حول الموضوع نفسه حيث قالا ما نصّه :

« وتعتبر فترة منتصف القرن الثامن وبالنسبة الى البلاد السكنديناڤية فاتحة أو منطلقاً لعهد جديد دعاه المؤرخون عهد الڤيكينغ l'âge des Vikings : إنه العهد الذي بدأ فيه السكان العديدون الذين تتألف منهم مجموعة الجرمان الشماليين يؤلفون مجموعات عنصرية بدأت فيها اللهجات المحلية والتي كانت حتى هذه الفترة واحدة ، هذا إن لم نأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الموضعية أو الإقليمية ، تختلف مفسحة المجال الى لغات متميِّزة مختلفة هي اللغة السويدية واللغة الدانية أو الدانيمركية ولغة البلاد الشمالية le norois أو النورڤيجية ، تلك اللغات التي لم تتضح شخصيتها وذاتيتها بصورة تامة إلا في القرن الحادي عشر .

« وكانت المجموعة الدانية تحتل في هذه الحقب الجزر الواقعة الى غربي بحر البلطيق وشبه جزيرة جتلند وأقليم جنوبي السويد الحالية (هالاّند Halland وسكانيا Scanie وبيلكينج Belkinge) . بينما استقرّ النورڤيجيون على طول السواحل الغربية لشبه جزيرة اسكنديناڤية . أما السويديون فقد سكنوا الأقاليم الوسطى للسويد الحالية وهي المنطقة التي تقوم بحيرة مالار في وسطها . وتقيم في الجنوب عناصر الغوت les Gautes وهم فرع من القبائل الغوطية لكنه لم يهاجر مع أقربائه (الڤيزيغوط والأوستروغوط) . هذا في الوقت الذي سكنت فيه عناصر اللاپون Lappons شمالي هذه الشبه جزيرة مع ملاحظة أن منطقة سكنى اللاپون كانت توغل في امتدادها الجنوبي بنسبة أكثر من امتدادها الحالي (وردت في النصّ الفرنسي : إن منطقة اللاپون كانت تمتدّ حتى درجة عرض أشد انخفاضاً ـ أي أشد قرباً من خط الاستواء وهذا معناه أكثر امتداداً نحو الجنوب) .

« وكان سكان أوروپة الغربية يطلقون اسماً عاماً مشتركاً على جميع هذه العناصر فيلقّبونها بلقب النوردماني Nordmanni أي رجال الشمال وهم النورمانديون .

« ولم تكن اسكندناڤية تشكل عالماً متقوقعاً على نفسه ومنزوياً أو مغلقاً. فكان للسويد وعبر بحر البلطيق مواصلات سهلة ومتيسّرة مع بلدان السواحل الشرقية لهذا البحر ، لا بل وصلت علائق السويديين بفضل الخلجان ومصبات الأنهار في هذا البحر وعبر السهل الروسي حتى بلاد المشرق . وقد جعل موقع الدانيمرك من هذه البلاد وسيطاً تجارياً بين بحري البلطيق والشمال . كما جعلت الفيوردات (وهي الشعاب أو الخلجان الصخرية العميقة) المنتشرة على طول السواحل الغربية والجنوبية في النورويج من النورڤيجيّين سكان تلك السواحل ملاّحين مهرة لا يجارون في هذا المضمار وفتحت بلادهم في الوقت نفسه في وجه المؤثرات الخارجية »(١) .

وسرعان ما بدأ النورڤيجيون بالانتشار خارج بلادهم . وقد اعتادت هذه العناصر ، ومنذ فترة مبكّرة أن تنطلق وبسرعة من الخلجان الصخرية العميقة وهي الفيوردات Fiords ، التي هي بمثابة أودية والموجودة بكثرة على سواحلهم الغربية (حيث كانوا قد استقروا منذ فترة قديمة جداً) ، في البحار الواسعة بحثاً عن بلاد مضيافة غنية معطاء . إنهم كانوا يحبّون المغامرات . أما بالنسبة الى النظام فلم يعرفوا مطلقاً سوى النظام الذي يفرضه عليهم زعيم عصاباتهم الذي كان ينتقى بحريّة . وقد استقرت هذه العناصر ومنذ فجر القرن السابع في مناطق نائية جداً وتقع الى الغرب مقابل سواحلهم الأصلية في جزر أو أرخبيل شيتلاند Shetland (الواقعة شمالي اسكتلندة ــ إيكوسيا) وفي مجموعة جزر أوركاد Orcades (الواقعة شمالي اسكتلندة) . ثم وجدت عناصرهم بعد مائة وخمسين عاماً (أي في منتصف القرن التاسع) في فاير أوير Faer - Oeer ، لا بل اكتوت سواحل اسكتلندة نفسها وإيرلندة ومنذ العشر الأواخر من القرن الثامن بنار غاراتهم لأنهم كانوا يعملون فيها سلباً ونهباً ويخلّفون الدمار قبل مغادرتهم لها .

---

(١) مجموعة غلوتز المذكورة عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ٢ (وهذا الجزء من تأليف الاستاذين فرديناند لوط وفرانسوا غانشوف ، الفصل ٢٠ وعنوانه : العالم السكندينافي حتى نهاية القرن التاسع) ، ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨ .

بينما استهوت السويديين ، والذين كانت مناطق سكناهم الرئيسية حول مدينة أوبسال ، وعلى غرار العناصر الدانيمركية ، المناطق الواقعة الى جنوب منطقتهم . إنهم اصطدموا وحتى في شبه الجزيرة السكندينافية نفسها وفي منطقة غوتالاند Gotaland بالذات ببقايا الشعب القوطي الذي بقيت بعض عناصره مستقرة في هذه المنطقة منذ بدء هجرة بني عمومتهم في القرن الثاني للميلاد . وعلى ما يبدو فان السويديين خاضوا نضالاً مريراً ضد بقايا أولئك القوط ذلك النضال الذي فرض بذل جهود كثيرة وخلال فترات طويلة ولم ينته إلاّ في منتصف القرن الثالث عشر بإبادة وإفناء بقايا الشعب القوطي . بيد أنه وريثما يتمّ إحراز السويديين النصر النهائي على أولئك القوط (نشداناً لإزاحتهم من طريقهم لموالاة السويديين زحفهم جنوباً) أخذ هؤلاء السويديون يفتشون في المناطق الواقعة على ساحل الطرف المقابل من بحر البلطيق عن بلاد يكون بوسعهم الإيغال في الزحف عليها والتوسّع فيها وذلك عند خليجي فنلندة وريغا ، حيث لم يلبثوا أن بلغوا منطقة المواصلات النهرية التي تتمّ في نهر الدنييبر Dnieper الذي أمكنهم الوصول بواسطته الى البحار الجنوبية الطليقة (البحر الأبيض المتوسط وفروعه) ، كما كان مكّن من قبلهم كلاً من القيزيغوط والأوستروغوط من بلوغها[1] .

ولم تكن هذه الشعوب السكندينافية الثلاثة ، والتي بدأ التاريخ ومنذ القرن التاسع يُسَجّل وبصورة مُدَوّنة حوادثها، متأخرة أو جاهلة للحضارة كما كان يظنّ لأول وهلة . وكانت محاصيل بلاد أوروبة الوسطى والجنوبية قد وصلت بلادهم منذ عدة قرون . ثم فإن الحليّ والمجوهرات والأسلحة الوفيرة الترصيع والزخارف التي عثر عليها أثناء عمليات التنقيب الأثرية التي تمت في ديارهم تؤكّد أنه كان ثمّة احتكاك وثيق بينهم وبين عناصر الجرمان التي هاجرت الى جنوبي البلطيق . وفعلاً فإن الفنّ هو نفسه فنّ الجرمان هؤلاء ، ونفس الحرص على استخدام الأشكال النباتية أو الحيوانية المنسّقة

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد/٥ ، القسم/٢ الفصل/٥ ، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

من أجل الزخرفة ، ونفس مقابض السيوف والخناجر ، وأخيراً نفس أغماد السيوف مما كان قد عثر عليه وحتى القـرون الخامس والسادس والسابع في القبور الجرمانية .

كما اقتبس السكندناڤيون عن الجرمان المستقرّين الى جنوبهم الكتابة ـ وهي الكتابة الجرمانية القديمـة وتدعى بالكتابة أو الخط ذي الزوايا l'écriture runique (التي ابتدعتها عناصر القوط) والتي يعود أصلهـا كما يبدو الى الكتابة التي وضعتها عناصر القوط الساكنة في حوض الدانوب بتطوير وتغيير شكل حروف الأبجدية الإغريقية والرومانية ، وقـد انتشر استعمال هذه الكتابة (أي الخطّ) حتى وصل الى المنطقة التي كانت العناصر القوطية قد استقرت فيها قديماً في أوروپة (وهي شبه جزيرة اسكندناڤية) قبل أن توغل في زحفها جنوباً ، وإن يكن السكندناڤيون قد غيّروا ملامحها بنسبة أكبر وأنقصوا عدد حروفها . ومع ذلك فلم يعثر في تراثهم الأثري وحتى الآن على قطع أدبيـة . والقصص الأسطوري السكندناڤي الأدبي الجميل الذي يعود الى العهود القديمة (واسم هذا القصص les sagas) والذي حاول الكثيرون أن يجدوا فيه صدى لتاريخ أدب قديم فقدت آثاره ، لم يكتب في الواقع إلا في القرون الثـالث عشر والرابع عشر والخامس عشر[1] .

ومهما كان تصوّرنا لديانة تلك الشعوب السكندناڤية فإنه يجب ألا يتعدى القول عنها بأنها ديانة وثنية سمجة ، إنهـا ديانة الشعوب الساذجة والقاسية التي تلائم شعباً يعيش أفراده على الملاحة والصيد البحري والذين كانت تحدوهم وبصورة رئيسية رغبة جامحة قوية لمقاومة الظواهر الطبيعية .

عالج الاستاذ لوس پيتري قضية غارات تلك العناصر السكندناڤية على سواحل شمالي غربي وغرب أوروپة وحتى على شرقيها منذ أيام إمبراطورية شرلمان وذلك بعد التمهيد بعرض موجز لظروف هذه العناصر الشمالية منذ

---

(١) لويس هالفين ، المجموعة عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

انهيار الإمبراطورية الرومانية ، وأنها ظلت قابعة في شبه الجزيرة التي حملت اسمها طوال عدد من القرون الى أن استأنفت غاراتها مجدداً على غربي أوروپة منذ القرن الثامن ؛ فقال بصدد ذلك ما معناه :

« إن حضارة الشعوب السكنديناڤية هي خصبة مترعة بالمتناقضات • وتمثّل بعض المظاهر المادية لهذه الحضارة أشكالاً قطعت أشواطاً بعيدة في ميدان التطوّر • هذا بينما يشير ما نعرفه من مظاهرها الخلقية الى واقع شديد القرب من الهمجية • ثمت فإن معلوماتنا عن هــذه الناحية يشوبها النقص • فمثلاً نحن لا نملك بالنسبة الى الناحية الحقوقية أي وثائق معاصرة • ومع ذلك فبوسعنا التأكيد بالاستناد الى النصوص الأوروپية الغربية أن النورمانديين وأسوة بباقي الشعوب القليــلة التطوّر كانوا يطلقون العنان الى غرائزهم المتوحشة الدموية وأنهم لا يتوانون في أخــذ الثأر ، وأنهم يمارسون وبمحض إرادتهم عادة تعدّد الزوجات ، وأنهم لا يتورّعون عن الإلقاء بأنفسهم في أحضان أشنع الرذائل » •

ثم والى هذان المؤرخان الحديث عن ديانة تلك الشعوب فقالا عنهــا :
« بقيت مختلف الشعوب الجرمانية وفيّة الى الوثنية الجرمانية فقد كانوا يعبدون قوى الطبيعة ولا سيما الشمس • وتتّصل عبــادة الآلهة الرئيسية عنــدهم ، وهي تور Tor وأودين Oden وفــرو Frö ، بطقوس عبــادة الشمس • وبجانب هذه الآلهة الرئيسية فإنهم عبدوا آلهة أخرى أقل أهمية وشأنا ومن بينها آلهة الأرز les Ase والڤــان les Vane • وثمــة كذلك مذاهب شعبية أو عبادات شعبية للأشجار والينابيع وغيرها • وكانت الآلهة ترغب وبشدة في أن تقدّم إليهــا القرابين بما في ذلك القرابين البشرية • ويبدو أن تلك الضحايا كانت تقدم الى الآلهة من قبل رؤساء الشعوب أو شيوخ القبائل • ويوجد عند السويديين معبد مبنيّ من الخشب شيّد في إپسالا كان بمثابة هيكل أو معبد قومي لذلك الشعب الذي يحجّ أفراده إليــه •

« وبالنظر الى شــدّة تمسّك السكنديناڤيين بطقوسهــم الوثنية فإن

المسيحية لم تنتشر بين صفوفهم إلا بصعوبة • ثمت فإن العنف الذي عامل به الڤيكينغ الإكليروس المسيحي والكنائس أسهم في زيادة شهرتهم كعناصر عنيفة متوحشة تلك الشهرة التي تمتعوا بها عن جدارة واستحقاق • لا بل فان التجار السكنديناڤيين الذين صبؤوا الى النصرانية من أجل أسباب عملية ، سواء في الموانيء الفريزية أم السكسونية أم الانكليزية فان عقيدتهم الجديدة لم ترسخ جذورها في نفوسهم • وفضلاً عن ذلك فان البعثات التبشيرية التي قام بها إيبّون Ebbon في الدانيمرك سنة ٨٢٣ ، وبعثات القديس آنشير Saint Anchaire الى الدانيمرك أيضاً سنة ٨٢٦ والى السويد بين سنتي ٨٢٩ ــ ٨٣٠ والى نفس البلدين في سنتي ٨٤٨ و ٨٦٥ لم تترك أيّ أثر باق مستمر •

« وبالنسبة الى الكتابة فقد عرفت الشعوب السكانديناڤية الكتابة أو الخطّ المدوّر les runes تلك الطريقة في رسم الحروف التي ابتدعها الشعب القوطي على سواحل البحر الاسود حوالي نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث • وتقوم هذه الطريقة على استعمال بعض العناصر المستقاة من الأبجديتين اللاتينية والإغريقية • وقد تمّ انتشار هذه الكتابة من القوط الى معظم الشعوب الجرمانية في نهاية القرن الثالث • ومنذ ذاك فقد تطورت هذه الكتابة وبصورة خاصة لدى الشعوب السكنديناڤية وذلك حوالي سنة ٨٠٠ وقد لوحظ أنها متضمنة أبجدية مستديرة مختصرة تحوي ست عشرة إشارة عوضاً عن أربع وعشرين • وقد عثر على عدد من شواهد القبور وعليها نقوش بتلك الكتابة المدوّرة »(١) •

الحملات البحرية وغارات الشعوب السكنديناڤية على سواحل غربي وشرقي أوروبة : ــ كانت الصفة البارزة لتاريخ الشعوب السكنديناڤية في القرن التاسع زيادة حدّة الحملات البحرية التي لم تن تلك الشعوب عن توجيهها

---

(١) مجموعة غلوتز المذكورة عن العصور الوسطى ، المجلد ١ ، ج ٢ (تأليف لوط وغانشوف) ، الفصل ٢٠ ، ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩ •

ضد جميع سواحل أوروپة[1] •• كان العمل في الملاحة وممارسة التجارة الخارجية هما المجالان الرئيسيان والممتازان للنشاط الاقتصادي لتلك الشعوب الساحلية • وكانت العمليات أو الصفقات التجارية تواكب في حملاتهم البحرية ووفق ما تسمح به الظروف أعمال القرصنة والغارات على مختلف سواحل أوروپة • وقد زاد ومنذ منتصف القرن التاسع اهتمامهم بالقرصنة وطغى على اشتغالهم بالتجارة •

وبدأت العناصر النورڤيجية غاراتها منذ القــرن السابع حيث وصلت حملاتها الى مجموعة جزر الهبريد Hébrides (وهي مجموعة جزر تقع غربي اسكتلندة) ، وجزر شتلند (شمالي اسكتلندة) وغيرها من الجزر • وأقام هؤلاء النورڤيجيون في الموانىء التي احتلوها بعض المنشآت العسكرية • وكانت مراكب النورمانديين في القرن الثامن لا تكفّ عن الإغارة على موانىء غربي أوروپة ما بين سواحل شمالي اسكتلندة والسواحل الجنوبية •

ثم لم يلبث هؤلاء المغيرون أن هاجموا سنة ٧٨٧ وللمرة الأولى سواحل انكلترا ، كما هاجموا سنة ٧٩٥ سواحل ايرلندة • ويبدو أن القائمين بتلك الهجمات على سواحل الجزر البريطانية كانوا وبصورة خاصة حتى منتصف القرن التاسع من عناصر النورڤيجيين • هذا بينما كان النورمانديون الذين بدؤوا غاراتهم على مملكة الفرنجة ومنذ سنة ٨٠٠ من الدانيمركيين فحسب •

وقد توجهت وفي الوقت نفسه حملات بحرية نورماندية الى سواحل بحر البلطيك حيث بسط الدانيمركيون سيطرتهم وسيادتهم ومنــذ مستهل القرن التاسع على ميناء ريريك Reric في ديار عناصر السلاف الآبودريتيّين

---

(١) راجع تفاصيل تلك الحمــلات والغارات وبصورة خاصة في المصدرين التاليين : آ ــ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٢٩٠ ــ ٣٠٩ وقد عالجها هذا المؤلف بتفصيل زائد مع تقسيمها الى ثمانية موضوعات جزئية .

ب ــ مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة ، المجلد ١ ، ج ٢ ، الفصل ٢٠ وقد عالجها مؤلفا هذا الجزء (لوط وغانشوف) بايجاز في ص : ٥٣٣ ــ ٥٣٥ .

الذين أشرنا من قبل الى أن شرلمان كان قد بسط حمايته عليهم • لكن النورمانديين المغيرين في هذه المرة (في القرن التاسع) كانوا من العناصر السويدية • وكانوا أقاموا ومنذ القرن الثامن بعض المؤسسات على سواحل البلطيق ولو أنها لم تُعَمِّر طويلاً • • واستقر هؤلاء السويديون في القرن التاسع على سواحل فنلندة وعلى ضفاف بحيرة لادوغا جاعلين تلك السواحل والضفاف قواعد عسكرية لهم • وعلى ما يبدو انطلقت عصابات من المغامرين من تلك القواعد وأخذت تقوم بغاراتها على السواحل والموانىء المجاورة وكانوا يحملون لقب الڤاريغ Les Varègues أو الروس • ولم يلبثوا أن اجتازوا الأنهار من الشمال الى الجنوب عبر السهل الروسي حيث كانوا في بعض الأحيان يمارسون التجارة أو يكونون في أحيان أخرى مجرد غزاة مغيرين ومقاتلة ، وقد وصل سفراؤهم سنة ٨٣٩ الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية نفسها•ونجحت تلك العصابات من السويديين والتي كان يقودها بعض الأمراء في الاستيلاء على بعض المدن السلافية ومن بينها نوڤوغورد وكييڤ على نهر الدنيبير ، كما نجح أولئك الأمراء في أن يغدو سادة تلك المدن وأن يقيموا في النصف الثاني من القرن التاسع في ربوعها أول نظم حكومية في الأراضي الروسية • لا بل فقد بدؤوا ومنذ سنة ٨٦٠ يهدّدون مدينة القسطنطينية نفسها • ووضح أثرهم في روسيا من إطلاقهم أسماء سويدية على بعض المناطق أو المدن الروسية •

أسباب غارات النورمانديين : لقد تضاربت أقوال المؤرخين في إيجاد التعليل أو الأسباب الحقيقية لتلك الظاهرة التي تستثير العجب ألا وهي قيام توسّع بحري مفاجىء على مستوى واسع ، ذلك التوسّع الذي كان ميدانه الأكبر كلاً من إنكلترا ومملكة الفرنجة • ولئن لم يكن أحد تلك الاسباب وحده مقنعاً ومرضياً لكن جميع تلك الاسباب التي أدلى بها المؤرخون يمكن أن تحوي قسماً من الحقيقة وهي أن البلاد السكنديناڤية مأهولة بعناصر سكان وفيري العدد تضيق عن استيعابهم ولا سيما بالنسبة الى مساحة الاراضي القابلة للزراعة في تلك البلاد • هذا فضلاً عن قيام دول قوية في رحابها اضطرت مقاتلة المناطق الاخرى فيها والضنينين بحريتهم الى الهجرة

من أوطانهم • زد على ذلك أن الحملات البعيدة والتي تكون الغايـة منها الحصول على الأسلاب والغنائم هي بالنسبة الى من تستهويهم المغامرة المجال الطبيعي الأهم لممارسة النشاط البشري فيه • هذا ويجب ألا يفوتنا ذكر أن ازدياد حجم التجارة السكندناڤية مع كل من بلاد المشرق والمغرب أدت الى ظهور جشع أشد عنفاً في البلاد الشمالية لتملّك الثروات • وثمة عامل آخر وهو أن زيادة احتكاك السكندناڤيين بعـالم غربي أوروپة جعـل هؤلاء يقفون على ثروات هذا العالم • أما آخر سبب أورده المؤرخون لتعليل حملات السكندناڤيين البحرية وغاراتهم فهو أن مقاومة السكان في البلاد التي أغار عليها هؤلاء قد ضعفت وبدت لهم غير مجدية ولا يمكن أن تنجح في صدّ هؤلاء المغيرين في الحملات الأولى عنها • لذلك فقد أوحي الى السكندناڤيين ومنذ غاراتهم الاولى بامكانية الحصول على أسلاب وغنائم أكثر فيما لو غدت حملاتهم أشد قوة واستمراراً وأكثر تنظيماً •

استقرار العناصر الدانيمركية في انكلترا في القرن التاسع (١) : ـ لم توجّه هذه العناصر القسم الرئيسي من جهودها الى تلك البلاد في السنين التي تلت • انها بقيت في بادىء الامر في الحوض الادنى لنهر اللوار ، لا بل فانها جرؤت على قضاء فصل شتاء (٨٧٢ ـ ٨٧٣) في مدينة آنجر Angers ، ولو أنها احتفظت بأحسن جزء من نشاطها وفعاليتها الى البلاد الانكليزية الاقرب الى بلادها الاصلية والتي بدت ظروفها أكثر ملاءمة للاستقرار .•

وفعلا فانه عقب ثلاثة قرون من المحاولات العقيمة لوحظ أن الامراء الآنغلوسكسون برهنوا على عدم مقدرتهم على اعادة وحدة بريطانيا العظمى • وقد حاولت وبصورة دورية كل من مملكة نورثمبريا Northumbre الواقعة الى شمالي البلاد ، ثم مملكة مرسيا Mercie في الوسط وأخيراً مملكة ويسّكس Wessex في الجنوب فرض سيادتها على باقي الجزيرة ، تلك السيادة التي لم تكن عناصر باقي سكانها لتأبه بها • ولم تكن هذه السيادة في يوم من الايام

---

(١) راجع تفصيل ذلك في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٨ .

قوية ولا دائمة • ثم بعد فترة تطول أو تقصر تعود جواء الفوضى والتجزئة لترين على البلاد مجدّداً • وقد نجح ملك ويسّكس في الفترة التي نقوم بدراستها، وهو إيثيلريد Ethelred ، وبصورة غير قوية في فرض سيطرته على مقاطعات الجنوب ، ولو أنه لم يكن في شمال حوض التايمز في الفترة ذاتها سوى الضعف والفوضى • وكانت مملكة آنغليا الشرقية الصغرى معرّضة وبدون وسائل دفاع الى هجمات الطامعين • ولم يكن بوسع عاهل مملكة مرسيا Mercie الضعيف الصمود في وجه تلك العناصر المعادية المصممة على اجتياح واحتلال هذه الربوع ـــ هذا بينما كانت المقاطعات الشمالية على هذا الساحل الشرقي والتي تدعى بمملكة نورثمبريا ممزّقة مفككة الاوصال من جرّاء انقسام سكانها على أنفسهم حيث كان ثمة أميران صغيران يتنافسان على عرشها • ومنذ اليوم الذي ظهر فيه الدانيون في تلك الأرجاء لم يخامر أحداً شك في أن ذينك الأميرين مهزومان لا محالة •

بدأ الدانيمركيون (ويدعون كذلك الدانييّن) بشنّ هجماتهم على هاتيك الديار في سنة ٨٦٦ • وقد انقضت قواتهم على مملكة مرسيا ودخلت حاضرتها نوتينغهام سنة ٨٦٨ • ومع ذلك لم يكن إيغال الدانيمركيين في زحفهم على هذه الأرجاء سوى مجرد غارات استطلاعية لقبولهم استيفاء بعض المال كغرامة أو كفداء مقابل تراجعهم وانحدارهم الى اقليم آنغليا الشرقية حيث أمكنهم التغلّب في سنة ٨٧٠ على مقاومة الملك ادموند •

وقد زادت تلك الانتصارات التي أحرزها هؤلاء المجتاحون ، ودون كبير عناء ، من جرأتهم ، فأوغلوا في زحفهم على وادي الكينّيت Kennet ، وهو أحد روافد التايمز ويصبّ في هذا الاخير عند مدينة ريدينغ غربي لندن ، وتمكنوا عند هذه المدينة من إلحاق الهزيمة بجيش الملك إيثيلريد (وذلك في آذار سنة ٨٧١) ، ثم أوغلوا مسرعين في زحفهم جنوباً سالكين وادي نهر الآڤون • بيد أن اصرار الملك الفريد (وهو من سيدعى ألفريد الكبير) ، على المقاومة بعناد ، وكان هذا الملك قد خلف ايثيلريد في الحكم ، خفّف من خطر الدانيمركيين وأعاد الامور الى مجراها الطبيعي • وقد اضطر الدانيمركيون ،

الذين حيل بينهم (بنتيجة عدة لقاءات جرت لهم مع القوات المحلية وخاصة اللقاء الذي اشتبكوا فيه مع تلك القوات في ديلتون الواقعة على بعد عدة كيلومترات من سالسبوري) وبين موالاة زحفهم ، أجبروا على الجلاء عن مقاطعة ويسّكس وأن يبحروا منحدرين في نهر التايمز سنة ٨٧٢ ٠

وفي الواقع ما هي جدوى الالحاح في احتلال مقاطعة ويسّكس بعد أن أبدت تلك المقاومة طالما وجد الدانيمركيون الى شمالي هذه المقاطعة وخاصة في المناطق المحدقة بمصبّ نهر هامبير ، أي الشاطىء المقابل لبلادهم الاصلية ، مناطق أسهل احتلالا وهذا ما لمسوه بأم عيونهم وبرهنت لهم عليه حوادث السنيّ السابقة ؟ وهكذا وجدناهم مبحرين في هذا الاتجاه صاعدين مرة أخرى مجريي نهري الهامبير وترانت مستولين وبصورة منتظمة على مناطق من مملكة مرسيا ٠ وأخيراً فانه للاحظة عاهل هذه المملكة وبعد عدة أشهر من المقاومة أن استمراره فيها لا جدوى منه ، لذلك قرر هذا الملك ، (واسمه بورهريد Burhred) وفي سنة ٨٧٤ التنازل عن ممتلكاته التي استقرّ عليها الدانيمركيون كأسياد متمتعين بكامل حريتهم ٠

أزفت الساعة الحاسمة ، ونظراً لأن أيرلندة قد غدت مستعمرة نورفيجية فان انكلترا كانت وشيكة أن تصبح مستعمرة دانيمركية ٠ وحتى ذلك الوقت كان معظم الدول أو الممالك الانكليزية الواقعة الى الشمال الشرقي من الطريق الروماني القديم الذي يربط بين لندن وشيستر Chester (ويدعى هذا الطريق بشارع واتلينغ Watling Street الشهير) قد سقط بيد الغزاة ، وغدا تحت رحمتهم وتصرّفهم وفي متناول أيديهم ٠ وبعد صمود ملك ويسّكس الآنف الذكر فان هذا العاهل أمسى وشيك أن يسحق على يد قوات جديدة ظهرت في نفس الوقت في الشمال الشرقي ، أي في وادي نهر التايمز ، وفي الشمال الغربي ، في قناة بريستول ، لكنه صدق أعداءه القتال وصمد ببطولة فأمكنه ردّ الغزاة في جميع المناطق وفرض عليهم أخيراً ، وفي مدينة شيپنهام Chippenham في مايس ٨٧٨ صلحاً حُدّد بموجبه مصير انكلترا ، والذي لم يسمح بموجبه الى الغزاة وبصورة نهائية بالاحتفاظ بالنصف الغربي من مملكة مرسيا ٠

وبذلك نجح الآنغلوسكسون في البقاء أسياداً للاقاليم الواقعة الى الجنوب الغربي من الخط الذي يتمثل بالطريق الرومانية وهي المدعوة بشارع والتينغ ، بينما اعترف بالبلاد الواقعة الى الشمال الشرقي من ذلك الطريق وبصورة رسمية بلاداً دانيمركية •

وبقي الطابع الدانيمركي سائداً على هذه الأرجاء طيلة ربع قرن ، ثم تنازل الغزاة بعيد ذلك ، وبصورة أدق سنة ٨٨٥ الى الملك ألفريد عن لندن وبعض الاقاليم المجاورة الواقعة الى الشمال الغربي من تلك المدينة •

تأسيس دوقية نورماندیا(١) : ـ وبعد توقف المد الدانيمركي في بريطانيا العظمى أراد هؤلاء الدانيمركيون أن يُعَوِّضوا ما أخفقوا في الاستيلاء عليه في مناطق أخرى • وفي نفس الفترة التي كان فيها قسم من القوات الدانيمركية يحاول توطيد وترسيخ أقدامه في الاقاليم الإنكليزية فان غالبية تلك القوات الدانيمركية بدأت تهاجم أراضي عناصر الفرنجة • وكانت المناطق الرئيسية التي هاجمها هؤلاء الغزاة الدانيمركيون بين سنتي ٨٧٩ ـ ٨٨٥ هي أقاليم أو وديان أنهار السوم la Somme والايسكو Escaut والموز والراين • وكان القتال الذي دار في مختلف سوح منطقة العمليات العسكرية الكبيرة هذه عنيفاً للغاية• وبقيت مجاري الانهار الوسائل التي تمكّن هؤلاء الغزاة من التسلّل والتسرّب منها الى المناطق الداخلية • بيد أن هؤلاء الغزاة ، ولا سيما منذ المعارك التي خاضوها في انكلترا ، قد اعتادوا أن يُحضِروا دائماً خيولا في سفنهم ، وأن يقوموا بغزوات فرسان متكررة تمكنهم ليس من الحصول على الغنائم فحسب ، انما من القيام بغارات استطلاعية استكشافية ومن نشر الذعر بين صفوف السكان المحليين في أقاليم بارابانت والفلاندر وآرتوا •

كما أبحرت تلك العناصر صعداً في مجرى نهر السوم سنة ٨٨١ فبلغت مدينة كوربي Corbie في اقليم پيكارديا فعملت فيها سلباً ونهباً وقتلا • ولئن

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٢٩٨ ـ ٣٠١ •

تمكن ملك فرنسا الشاب لويس الثالث من الانتصار عليها في الثالث من شهر آب ٨٨١ عند نهر السوم فان مقاتلتها استأنفوا القتال والهجوم في العام القادم مفيدين من ظروف الفوضى التي خيّمت على فرنسا بسبب موت عاهلها المبكّر (في ٥ آب ٨٨٢) • وقد أتت قوات الدانيمركيين الغزاة لقضاء فصل شتاء سنة ٨٨٣ في مدينة آميان • وبلغت مآسي اجتياح أولئك الغزاة لهذه المنطقة حداً جعل المؤرخ الحولي القديس ڤاست من مدينة آرّاس Saint Vaast d'Arras الذي جرت عادته ألا يتأثّر أو ينفعل بمصاب الآخرين لكنه لم يتمكن في هذه المرة من كبت شعوره انما قال في نهاية وصفه لغارات النورمانديين (وهو الاسم الذي صار يطلق في فرنسا على العناصر الدانيمركية وغيرها من عناصر شبه جزيرة اسكندينافية) ما نصه :

« ••• ولم يكن ثمة طريق ولا ثمة مكان إلا وأرضه قد تغطّت بجثث الموتى • وكان الالم يحزّ في نفوس الجميع أمام هذه الكارثة التي كانت غاية مسبّبيها ابادة الشعب المسيحي • » •

ونظراً الى أن ملك فرنسا الجديد كارلومان لم يكن لديه من القوة ما يكفيه لردّ هؤلاء الغزاة على أعقابهم فانه دفـع اليهم في سنة ٨٨٤ الاموال مقابل انسحابهم من بلاده • هذا ولو أنهم لم يمضوا بعيداً حيث اكتفوا بالانسحاب الى لوڤان Louvain (في بلجيكا) في الدولة المجاورة الخاضعة لحكم الامبراطور شارل السمين • ووجدوا أنفسهم على مقربة من مواطنيهم الذين كانوا لأربع سنين خلت قد أغاروا على واديي نهري الموز والراين واستقروا فيهما ، وذلك لأن الدوقية النورماندية الواقعة في البلاد المنخفضة عادت في الفترة ذاتها لتكون ملجأ ومكان تجمّع خطر تغير منه وفي كل عام عصابات من القراصنة لتسطو على المناطق المجاورة • وما زال هؤلاء القراصنة يوغلون في زحفهم حتى وصلوا في نهاية سنة ٨٨٣ مدينـة دويسبورغ Duisburg بالقرب من فم الرور la Ruhr أي قرب مكان انصباب مياهه في نهرالراين حيث لم يتمكن هنري كونت اقليم فرانكونيا من زحزحتهم عن هذه المنطقة إلا بشقّ الانفس • فهذا الامير الاخير الذي آلى على نفسه ولم يدّخر وسعاً في الدفاع عن المناطق

الرينانية والمناطق الساحلية المطلّة على بحر الشمال جعل حياة أولئك الغزاة في هاتيك الديار صعبة قاسية ، ولم يزل يدفع بهم نحو الشمال الغربي ويجبرهم وبصورة منظمة على الجلاء عن المناطق التي كانوا قد احتلوها واستقروا فيها . ولقد قطع في سنة ٨٨٤ الطريق على عصابة منهم حاولت الفلات من قبضته والتسلل من جهة وادي نهر الايمس l'Ems . كما تخلّص بواسطة الاغتيال من غوتفريد Gottfrid الدوق النورماندي في البلادالمنخفضة ، ثم قام بذبح الدانيمركيين المستقرين في منطقة دورستيد Duurstede . وأخيراً فانه انقضّ في سنة ٨٨٥ على المعسكر النورماندي الموجود في مدينة لوڤان وحاصر قواتـه بقطع التموين والميرة عنها حتى عضّها الجوع بنابه .

ولم يجد الدانيمركيون الشديدو التقيّد بطباعهم الانتهازيـة مناصاً من الاذعـان والخضوع . وعلى الرغم من أنهم عزموا في قرارة نفوسهم على استئناف الكرّة مرة أخرى بمحاولة غزو أحواض أنهار الموز والراين والايسكو والتي فشلوا فيها في الظرف الآني فانهم غادروا هذه البقاع لينقضّوا على منطقة مصبّ نهر السين والتي كانوا قد أغاروا عليها منذ عشرين عاماً وعرفوا وشاهدوا عن كثب مواقعها .

بدأ الدانيمركيون آنئذٍ سلسلة طويلة من العمليات العسكرية لم تنته الا في سنة ٩١١ باستقرارهم النهائي والمعترف به رسمياً على ضفتي الحوض الادنى لنهر السين وفي قسم كبير من الاقليم الذي سيعرف فيما بعد باسم دوقية نورمانديا . لقد دخل النورمانديون في ٢٥ تموز سنة ٨٨٥ مدينـة روان . وبعد مضي أربعة أشهر شوهدت قواتهم في ٢٤ تشرين الثاني أمام أسوار پاريز . وقد قدّر مؤرخ معاصر قواتهم بثلاثين الف مقاتل . وكانت مقاومة المدينة لمهاجميها باسلة وبطولية ، كما تمكن الامبراطور شارل السمين بنتيجة مفاوضات استمرت عاماً كاملا وبمقابل دفعه الاموال لهم من جعلهم يكفّون عن مهاجمتها ويتراجعون عنها سامحاً لهم بالانقضاض على مقاطعة بورغونديا ليعملوا فيها سلباً ونهباً . هذا ولو أن حوض نهر السين غدا بكامله وفي حيّز الواقـع غنيمة باردة لأولئك القراصنة .

ولئن تمكّن ملك فرنسا الجديد ، أود Eude ، في الرابع والعشرين من حزيران ٨٨٨ من إيقاف مدّهم ومنعهم من موالاة زحفهم وذلك في مقاطعة آراغون Aragonne فان قواتهم بلغت قبل نهاية العام نفسه نهر اللوان Loing (أحد روافد السين) حيث والوا زحفهم وتوغّلهم حتى مدينة أوكسير التي أخذوا يمارسون منها تهديداً مريعاً على مدينة باريز نفسها . قرّر الملك أود آنئذٍ أن يشري في سنة ٨٨٩ رحيلهم عن هذه المنطقة بالمال . وقد بقوا زهاء سبع سنين أوفياء للعهود التي قطعوها على أنفسهم بألا تعود قواتهم الى الظهور في حوض السين. وأفادوا من فترة تلك السنين السبع في استئناف محاولاتهم السابقة في أحواض السوم والايسكو والموز والراين . هذا ولو أنه يجب ألا تفوتنا الاشارة الى أن كل نجاح دائم في هذه البقاع أمسى صعب المنـال بالنسبة اليهم : حيث سيكون كل من الملك أود في فرنسا والملك آرنولف في جرمانيا لتحرّكات عصاباتهم بالمرصاد ولم يحجما عن تلقينها درساً قاسياً اذا ما واتتهما الظروف ، كالنصر الذي أحرزه عليهم الملك آرنولف في لوڤان في تشرين الاول ٨٩١ والذي بالغ المؤرخون المعاصرون الالمان بصدده فجعلوه نصراً مبيناً بالنسبة لآرنولف وهزيمة نكراء ساحقة منيت بها قوات الدانيمركيين.

ولم تلبث الحرب الاهلية أن اندلع لهيبها في فرنسا حيث اصطدم الامير شارل أحد حفدة شرلمان بالملك أود الذي انتخب وفي ظرف عصيب بالنسبة الى فرنسا . وقد أتاحت هذه الاضطرابات والفتن التي ذرّت قرنها في فرنسا للعناصر الدانيمركية ظرفاً مواتياً لاستئناف الكرّة ومعاودة غاراتها على أقاليم حوض نهر السين . وتمكّن المغيرون في صيف ٨٩٦ من الاستقرار عند مصب هذا النهر حيث لم يعد ممكناً في المستقبل إجلاؤهم عن هذه المنطقة . وستصل غاراتهم بعيد ذلك حتى الى حوض نهر اللوار والى بورغونديا والى شامپانيا ، لا بل حتى الى اقليم اللورين نفسه . كما سنشاهد قوات تلك العناصر في حوضي نهري الواز والايسن l'Aisne . لكن ذلك كان مجرد غارات أو غزوات خاطفة لا تلبث أن تعود محملة بالاسلاب والغنائم . على حين اختلف الامر بالنسبة الى استقرارهم في حوض السين الادنى حيث لم تعد سيول مواطنيهم

تتوقف عن أن تتدفّق على هذه المنطقة . وسرعان ما تحوّل احتلالهم لهـذه الارجاء الى استعمار استيطاني حقيقي . وقد تراجع شارل البسيط ملك فرنسا عن الوقوف في وجه ذلك التيار الجارف ووجد استقرار العناصر النورماندية في حوض السين ، أي في مقاطعة نورمانديا ، وهي شمالي فرنسا كما ذكرنا، أمراً محتّم الوقوع ولا سبيل الى الحيلولة دونه . وهكذا غدا القسم الاعظم من هذه المقاطعة محتلاً من قبل العناصر الدانيمركية (وصارت تدعى في فرنسا منذئذ بالنورماندية أي العناصر الشمالية) . وتمّ في سنة ٩١١ وفي مدينة سانت كلير على نهر الايبت Saint - Clair - Sur Epte ابرام معاهدة بين عاهل فرنسا الكارولنجي ورولّون Rollon رئيس العناصر السكنديناڤية جعلت الحالة الواقعية (وهي احتلال النورمانديين لحوض السين الادنى) معترفاً بها على الصعيد الحقوقي من جراء تمكّن المستعمرين النورمانديين الشماليين من الافادة من الظروف المواتية لترسيخ كيانهم في الاقليم الفرنسي الشمالي والذي ما زال وحتى أيامنا هذه يحمل اسمهم ، فيقال له شبه جزيرة نورمانديا .

توسّع العناصر النورڤيجية بين منتصف القرن التاسع ونهاية القرن العاشر(١):

وبينما كان الدانيمركيون ينهون احتلال المناطق الواقعة على بحري الشمال والمانش والى النورڤيجيون جهودهم لاخضاع جزيرة أيرلندة ، حيث كان يتحتم عليهم أن يجابهوا ويصطدموا بطائفة من الامراء الكلتيين الصغار المثيرين للشغب والاضطراب والذين لا يخلدون الى السكينة . وسرعان ما جعلت تلك العناصر النورڤيجية والتي كانت قد استقرّت وبأعداد كبيرة في جنوب شرقي تلك الجزيرة البحر الأيرلندي بحراً نورڤيجياً . ومنذ منتصف القرن التاسع ، وعلى أبعد تقدير ، كانت جزيرة مان Man قد سقطت بأيديهم . وقد انطلقوا منها بعيد ذلك لاحتلال الساحل الانكليزي سواء في كامبرلند Camberland أم في شبه جزيرة غالووي Galloway .

(١) راجع تفصيل ذلك في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

وكانت جزر الهيبريد وأوركاد وشتلند قد خضعت ومنذ نهاية القرن التاسع الى تلك العناصر فربطتها وبصورة محكمة متينة بالوطن الأم من حيث أن النورڤيج التي كانت وحتى سنة ٨٥٠ أشد وأكثر البـلاد السكنديناڤية فوضوية أخذت أخيراً تتجه نحو الوحدة والنظام في ظل حكم الملك القوي هارالد هارفاجر Harald Haarfager ــ أو بتعبير آخر : هارالد ذي الشعور الجميلة ــ لعقده العزم على أن يجعل من السلطة الملكية حقيقـة واقعة • ونشداناً من هذا العاهل القوي أن يوطد سلطته فانه نجح في سنة ٨٧٢ وعند مدينة هافسفيورد Hafsfiord في الحاق الهزيمة بعدد من الامراء الثائرين المتحالفين ضده • ثمت أبحر بجرأة لبسط سيطرته على الجزر المجاورة لاقليم اسكتلندة شمالي انكلترة والتي كانت ملاذاً وملجأ لجميع العناصر الفوضوية الثائرة ومنطلقاً لكل ثورة •

واذا ما أوغلنا شمالا نلاحظ أن الملاحين النورڤيجيين كانوا وحتى تلك الفترة قد بلغوا سواحل آيسلندة وبدؤوا في الاستقرار في هذه الجزيرة القطبية الكبرى بين سنتي ٨٦٠ ــ ٨٧٠ • وقد أسسوا وحوالي سنة ٨٧٥ ميناء أو مدينة ريكياڤيغ Reykiavik (ميناء وعاصمة آيسلندة) ، فهنا أيضا بسط العاهل هارالد هارڤاجر سيادته على هذه الجزيرة •

استمرت هذه الحركة التوسعية في القرن العاشر وبشكل نظامي • فقد انطلق النورڤيجيون منذ فترة مبكرة من جزر أوركاد الى شمالي اسكتلندة حيث استقروا • كما أبحروا من آيسلندة ومتجهين نحو الغرب مكتشفين وبعيد قليل الشواطىء الشرقية لغروينلند Groenland التي داروا حولها ليقوموا في نهاية المطاف وفي غضون عشرين السنة الاخيرة من القرن العاشر بتأسيس مستعمرة صغيرة حوالي الجنوب • ولا يخامر أحداً شك في أيامنا هذه أن سفنهم كثيراً ما كانت ترسو حوالي العام ١٠٠٠ على السواحل الامريكية في كل من اقليمي لابرادور والارض الجديدة Terre - Neuve • ومن المحتمل أيضاً أن تكون تلك السفن قد ألقت مراسيها على شواطىء اقليم اسكتلندة الجديدة دونما محاولة من قبل تلك العناصر أن تستقر في تلك الاصقاع ،

وبدون أن تحاول أيضاً جرّ مغنم من هذا الاكتشاف للقارة الامريكية • (هذا وان تكن ثمة آراء أخرى تشير الى نجاح بعض الملاحين العرب في الوصول الى سواحل أمريكا وان كان ذلك لا يدخل في نطاق موضوعنا هنا) •

التوسّع الدانيمركي في القرن العاشر ومستهلّ القرن الحادي عشر، امبراطورية كنوت الكبير Cnut le Grand [1] : احتفظ الدانيمركيون ، بعد مَدّهم السريع الذي دارت أحداثه في القرن التاسع ، في نفس ذلك القرن وطوال القسم الاكبر من القرن العاشر بما احتلوه من مواقع • هذا ولو أنهم اضطروا في انكلترا الى التراجع أمام ضغط وبنتيجة صمود قوات ألفريد العظيم المظفرة • وكان رؤساء القوات الدانيمركية يحسد بعضهم بعضاً مثيرين بحسدهم لبعضهم الشحناء ومذكين نيران الخصومة فيما بينهم • لقد كانوا أنانيين وغير مستعدين الى التضحية بأطماعهم الخاصة في سبيل المصالح العامة المثارة قضاياها كما كانوا بحاجة الى تفكير خلاّق بنّاء ومنظم • وعلى الرغم من كل تلك النقائص فقد أحرزوا انتصارات عديدة في انكلترا • لكن مما لا ريب فيه أنهم لا يدينون بتلك الانتصارات الى صفاتهم انما الى ضعف عدوهم أو بالاحرى أعدائهم • وعلى ذلك يمكن أن نردّ وبكل تأكيد تلك الانتصارات التي أحرزوها في سوح القتال الى التجزئة السياسية التي كانت انكلترا في الظروف الراهنة ، أي في القرن التاسع ، تئنّ من وطأتها لانها أنهكت قواها • وعلاوة عن ذلك فثمة سبب آخر هو ضعف ملوك انكلترا الصغار • ومع ذلك لاح في أفق الجزر البريطانية ومنذ الربع الاخير من القرن التاسع نور فجر جديد بعث الامل والطمأنينة في النفوس • أما ذلك الامل فهو ازدياد نفوذ الملك ألفريد العظيم ، ملك ويسّكس ، بنتيجة صراعه الطويل والذي انتهى بالنصر ضد الغزاة السكندينافيين لبلاده ، وبنتيجة ما ضمّته أسرته المالكة في ويسّكس من الاقاليم الى ممتلكاتها تلك الاقاليم التي استردتها من أيدي أولئك الغزاة وبذلك حررتها من الخضوع الى نير الحكم السكندينافي •

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٣٠٢ ــ ٣٠٥ •

وهكذا زادت قوة أسرة الملك ألفريد وغدت الملكية في ويسّكس قوة دولية من الطراز الاول . وأخذت الدول القائمة في بريطانيا والمهددة بالاحتلال الدانيمركي ترنو بأبصارها وبصورة طبيعية الى دولة ويسّكس والى عاهلها المظفر ملتمسة منه شدّ أزرها وحمايتها من الوقوع بين براثن الاستعمار الدانيمركي . وما زالت مساحة دولة ويسّكس تزداد باستمرار الى درجة أن تلك الدولة غدت ضامّة عند وفاة عاهلها العظيم (سنة ٨٩٩ أو سنة ٩٠٠) لجميع أقاليم انكلترا ما عدا الاقاليم أو الدول المأهولة بعناصر كلتية (كاقليمي الغـال Galles وكورنويل) أو بعناصر دانيمركية .

سار الملك ادوارد القديم Edward l'Ancient بين سنتي ٩١٠ ــ ٩٢٠ على نهج أبيه في شنّه حرباً لا هوادة فيها على العناصر السكنديناڤية وأمكنه أن يستردّ منها ورويداً رويداً أقاليم آنغليا الشرقية l'Est - Anglie وآنغليا الوسطى ومرسيا الدانيمركية نفسها . كما نجح الملك ايتيلستان Ethelstan (وهو ابن ادوارد أي حفيد ادوارد العظيم ، وقد حكم بين سنتي ٩٢٤ ــ ٩٤٠) بعد ذلك بفرضه سيطرته أو على الاقل سيادته على جميع رحاب اقليم يورك واقليم نورثمبرلاند محققاً عملا رائعاً ولمصلحته وهو وحدة انكلترا وجاعلا تلك الوحدة حقيقة راهنة بادية للعيان . لكن هذا النجاح لا يعني أن الاسرة المالكة في ويسّكس نجحت في ترسيخ وتوطيد دعائم وأركان تلك الوحدة من حيث أن النصر الذي تمّ احرازه على يد عواهل أسرة ويسّكس (ألفريد وابنه ادوارد وحفيده ايثيلستان) على الرؤساء الدانيمركيين الذين استردت أقاليمهم لم يتبعه طرد العناصر الدانيمركية وحتى رؤسائها المهزومين من تلك الاقاليم انما أبقوا فيها ومن حولهم عناصر سكان تلك الاقاليم الذين كانت نسبة الدانيمركيين بينهم أحياناً مرتفعة جداً . لذلك كله فان البلاد التي استردت من الدانيمركيين لم تعرف طوال النصف الثاني من القرن العاشر الاستقرار التام والهدوء . وكان مرور الزمن والادارة الحازمة بوسعهما أن يُرَسِّخا جذور تلك الوحدة . هذا فضلا عن وجوب معالجة قضايا تلك الاقاليم من قبل حكامها الجدد بصبر وأناة وحنكة .

وعلى الرغم من أن تلك الاقاليم لم تنعم في الفترة القادمة بالاستقرار التام لكن ذلك لم يمنع أنه لم تنشب في ربوعها ثورات كبرى من شأنها افساد النتائج الحسنة التي حصل عليها ورثة الملك ألفريد الاوائل • نعم لم تخل تلك البلاد من الثورات ولعل أشدها خطورة هي التي اندلعت نيرانها في سنة ٩٤٠ أي في السنة التي توفي فيها الملك ايثيلستان حفيد ألفريد • لكن الجهود الكبرى التي بذلها المسؤولون ساعدت على تهدئة الاحوال • وعلى حين ظن المسؤولون أن الخطر الدانيمركي قد صُفّي تماما من انكلترا وذلك طوال الفترة ما بين ٩٥٠ ــ ٩٧٥ لكنه سرعان ما عاد مجددا في سنة ٩٨٠ • وبيان ذلك أنه في ذلك العام نفسه استأنفت عصابات دانيمركية الهجوم مجدداً على السواحل البريطانية مفيدة من جـو الاضطراب والفوضى الذي أخذ يرين على الجزر البريطانية مرة أخرى مما سنتحدث عنه بعد هنيهة •

أمـا في الدانيمرك فقـد نجح النظـام الملكي في أن يتوطّد حكمه وترسخ جـذوره ، وتلك كـذلك حـال النروج أيضـاً • وتقدمت الدانيمرك في عهد مليكها هارالد بلاتاند Harald Blaatand (أي هارالد ذي السن الزرقاء) تقدما ملموسا لا سيما بعد نجاح هذا العاهل في توحيد بلاده وصهر جميع أقاليمها ونشر الحضارة في مختلف ربوعها وخاصة انتشار النصرانية التي كثر عدد معتنقيها في البلاد • كما حقق هذا العاهل الازدهار الاقتصادي لبلاده • وبنتيجة هذا الازدهار بدأت الدانيمرك تفتش عن أسواق لتصريف بضائعها في البلاد المجاورة • وكانت أول صدمة تعرض لها العاهل الدانيمركي المذكور من جهة مملكة جرمانيا القائمة جنوبي بلاده خاصة ولم تكن قوة الدانيمرك تعادل قوة هذه الدولة لان القوات الالمانية تفوق في عَددها وعُددها القوات الدانيمركية • وهكذا وبعد تفتيش العاهل الدانيمركي عن مخرج آخر لحل أزمة بوار تجارة بلاده فانه احتل جزيرة ولان Wollin السلافية الواقعة عند طرف أو نهاية الشريان النهري الكبير وهو نهر الأودر الذي يعتبر طريقا تجاريا بالغ الاهمية • وكان الدانيمركيون وشيكي استخدامه في التجارة وعلى مقياس كبير • وزيادة على ذلك فقد ضم العاهل الدانيمركي بعض الاقاليم الواقعة شمالي مضيق سكاجراك الى ممتلكاته

وذلك على حساب جاره ملك النروج ، وكان قد أخضع هذا الاخير الى سيادته لكن كل ذلك لم يرو ظمأ الدانيمركيين الى التوسع والاستعمار .

وقد وجد الدانيمركيون ضالتهم المنشودة في انكلترا التي كانت ظروفها في سنة ٩٨٠ مواتية لغزوهم وتدخلٍ جديد من قبلهم في شؤونها . وكانت بلاد الانكليز قد مرت بفترة سلام ورخاء طويلين تدين بهما الى التفكير السياسي والناضج الذي يتمتع به دونستان الشهير Dunstan وكان مطراناً (أي رئيس أساقفة) لكانتربري Archevêque de Counterbury ، وقد رسمته الكنيسة قديساً . فبعد فترة الهدوء المشار اليها بدأت قوى الجهار الحاكم تهن وعزيمته تخور بسبب انتقال رئاسة الحكم (في انكلترا) الى طفل لم يتجاوز العاشرة من العمر واسمه ايثيلريد Ethelred الذي اتخذه خصوم دونستان واجهة أخفوا وراءها أطماعهم ودسائسهم لا بل مؤامراتهم . وقد واتى هذا الواقع الاليم المضطرب مشروع الدانيمركيين حيث كان عاملا مساعدا وحافزا لهم على استئناف غزو البلاد . وفعلا لم يتأخر ذلك الغزو . وأسوة بغارات الدانيمركيين في القرن التاسع فان غاراتهم في نهاية القرن العاشر كانت منفردة وعلى مناطق متعددة وخاصة السواحل الجنوبية التي تعرضت مختلف أرجائها في سنة ٩٨٠ الى هجمات المغيرين الدورية .

ثمت أغار الدانيمركيون سنة ٩٨٢ على كل من دورسيت Dorset ودوفون. وكان المغيرون الغزاة يختارون المناطق الضعيفة الحاميات وبالتالي المقاومة ليهاجموها . ثم توسعت الغارات الدانيمركية على السواحل البريطانية في العشر الاواخر من القرن نفسه . كما وصلت سنة ٩٩٤ امدادات دانيمركية الى المغيرين المرابطين في عدد من سواحل انكلترا وقاد هذه القوات أو المدد في هذه المرة الملك سفند Svend وهو ابن وخليفة هارالد ذي السن الزرقاء . ولم يدخر الملك سفند هذا وسعاً في الاستيلاء على مدينة لندن لكنه رجع من محاولته هذه بخفّي حنين وذهبت جهوده عبثاً وأدراج الرياح فعوّض فشله بالنسبة الى لندن بأن أطلق العنان لقواته فأعملت سلبا ونهبا وقتلا في اقليمي سوسّكس وهامپشاير قبيل عودته مع قواته تلك الى بلاده .

وصارت أقاليم انكلترا الجنوبية وأقاليم آنغليا الشرقية هدفا لغارات

الدانيمركيين المستمرة . وانتقاما من العاهل الانكليزي ايثيلريد لما لقيه رعاياه من سوء معاملة الدانيمركيين المغيرين على بلاده فانه عمد في يوم عيد القديس بريس من عام ١٠٠٢ (وذلك يصادف ١٣ تشرين الثاني) الى ذبح جميع الدانيمركيين المنخرطين في خدمته وأُسَرِهم وكان في عدادهم أخت الملك سفند نفسه مما حدا بهذا الاخير لان يقود بنفسه غارات شعبه في هذا العام على انكلترا . وبعد توقّف المعارك الكبرى بين الدانيمركيين والانكليز خلال خمس سنين ، علما أن غارات الدانيمركيين البسيطة على السواحل الانكليزية وفي الفترة ذاتها لم تنقطع ، قرر العاهل الدانيمركي سفند سنة ١٠١٣ القيــام بهجوم كبير . وهكذا فانه فاجأ الانكليز عند مصب نهر الهامبير حيث هتف له مواطنوه الدانيمركيون المستقرون في نورثمبرلاند ويوركشاير وحيّوه كملك لهم فبدأ بتحرير المقيمين في هاتيك الربوع من الحكم الانكليزي . ثم والى زحفه جنوبا حيث دخلت قواته أوكسفورد كما احتلت الولايات الجنوبيــة الغربية . وأخيرا اتجه هذا العاهل شرقا حيث أتمّ وفي غضون عدة أسابيع احتلال انكلترا التي كاد الملك ايثيلريد فيها أن يفقد صوابه فغادر بلاده فاراً وباحثاً عن ملجأ . ومن سخرية القدر أنه وجد ذلك الملجأ في كنف ابن حميه وهو ريتشارد الجيد دوق نورمانديا في فرنسا (بمعنى أن هذا الدوق دانيمركي أيضــا) .

ولا ريب في أن العاهل الدانيمركي لم يحلم في يوم من الأيام بأن يتمّ نجاح حملته وبتلك السرعة المذهلة . ومع ذلك لم ينته كل شيء بالنسبة إليه : وذلك لأن المنون اختطفته بصورة مفاجئة وهو نشوان بظفره وذلك في ٣ شباط ١٠١٤ . ووجد ابنه كنوت ، وهو ابنه الثاني وكان قد رافق أباه في تلك الحملة ، أن الحكمة تقتضيه ان يعود أدراجــه الى الدانيمرك نشدانا لتسوية مشكلة إرث أبيه مع أخيه هارالد . وقد تركت الظروف عاهل ديسّكس إيثيلريد ، الذي كان قد استدعي من منفاه في نورماندیا ، ليجابه ووحيداً الدانيمركيين . إنه أفاد من فترة انشغال كنوت وأخيه ليحاول وبنجاح استرداد قسم من الأرضين التي كان هو وابنه قد فقداها . لكن هذا العمل جاء متأخراً حيث لم يعد الحظ ليبتسم إليهما مرة أخرى .

وبعد غياب عدة أشهر عن إنكلترا عاد كنوت إليها ليحتل ومجدداً ومنذ سنة ١٠١٥ جميـع الأقاليم الجنوبية الغربية تقريباً ، وليحتل مجدداً مرسيا وجميع مناطق الشمال في العـام التالي • إنه أجبر ابن ملك ويسّكس في المعاهدة التي أبرمها معه على الجلاء عن لندن والانسحاب الى إقليم ويسّكس• ونجح كنوت أخيراً في سنة ١٠١٧ في أن يعترف به عواهل الاقاليم الانكليزية ملكاً لجميع إنكلترا •

وعند وفاة هارالد أخي كنوت سنة ١٠١٨ فإن هذا الأخير أفاد من مواتاة هذا الحادث له بأن جعل من توحيد عرشي الدانيمرك وإنكلترا حقيقة ملموسة• ولم يبق على هذا العاهل سوى إخضاع النروج لحكمه ليفوز بالسيطرة التامة على بحر الشمال وبدون منازع • وتمّ تحقيق هذه الأمنية بالنسبة الى كنوت قبيل انتهاء فترة حكمه • إنه هزم ملك النروج في سنة ١٠٢٨ وأجبره على التنازل له عن عرش بلاده • وهكذا فإنه بمجرد أن آلت الى كنوت جميـع الحقوق العائدة الى عرش النروج فانه غدا إمبراطوراً لإمبراطورية عظيمـة شاسعة الأطراف ولكنها مع ذلك من طراز جديد لأن ثمة مناطق بحرية شاسعة تفصل بين مختلف أجزائها فهي لذلك ومن هذه الزاوية أشبه بإمبراطورية استعمارية تمتد ما بين بحر البلطيق والشواطىء البعيدة لغرويئنلاند •

التوسع السويدي وتأسيس دولة روسيا(١) : ـ لا جـرم أن ما حقّقه السويديون من نجاح في حركتهم التوسعية لم يصل الى مدى النجاح الذي أنجزه الدانيمركيون • وعلى الرغم من ذلك فإن نجاحهم لم يقـل عن نجاح الدانيمركيين دلالة وأهمية • ومع أننـا غير واقفين على الدقائق التفصيلية لهـذه الحركة ، لكننا الى جانب ذلك نرى بوضوح كاف أن الروّاد من التجار السويديين والذين دعاهم الروس : ڤاريغ Varègues (وهو اسـم روسي أطلقه الروس على السويديين ، ولربما ليس له من معنى سـوى : التجار) هم الذين مهّدوا الطريق ومنذ فترة مبكرة أمام المجتاحين • وقد

---

(١) راجع تفصيل ذلك في لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

استقرّ السويديون منذ منتصف القرن التاسع على شواطىء خليج فنلندة وبحيرة لادوغاونهر فولكوف Volkhov وبحيرة إيلّمين Iiemen . وقد لاحظنا ومنذ فترة قصيرة أن الطريق التجارية الكبرى التي تصل بين بحر البلطيق والبحر الأسود بواسطة نهري ڤولكوف والدنيبير غدت مكتظة وعلى طولها ليس بمستودعات الفاريغ (التجار السويديين) التجارية فحسب إنما بالمخافر العسكرية التي ستغدو مدناً والتي كانت قمينة بتأمين حماية قوافل التجار ضد غارات قبائل البرابرة الرحّل . ومن بين تلك المخافر نوڤوغورود Novogorod وسمولنسك Smolensk وكييف Kiev وبريسلاف Pereislav . وسرعان ما نجح الضباط السكنديناڤيون الذين تولّوا رئاسة تلك المخافر في توسيع المناطق التي خضعت الى سيطرتهم لدرجة أنهم بدوا كرؤساء دول.

ولم يكد القرن العاشر أن يستهلّ إلا وكان أمير كييف السويدي قد سما على أقرانه ونظرائه ، إنه مدين بذلك الى الموقع الفريد لمقرّه ، فهو مفتاح حقيقي للتجارة الروسية ، ملتقى القوافل المنطلقة من سواحل بحار ثلاثة هي بحر الخزر (أوقزوين) وبحر آزوف والبحر الأسود . وقد حفظ التاريخ لنا أسماء هؤلاء الامراء السكنديناڤيين الأوائل لكييف ، ومن بينهم آسكولد Askold وغيره . كما عرضهم التاريخ لنا وهم باسطون وبخطاً وئيدة سيادتهم على الأمراء الفاريغ الآخرين المجاورين ومؤلفين في القرن العاشر إمارة كبيرة دعاها المعاصرون « الروسية » مستعيضين بهذا الاسم عن اسم الفاريغ القديم للدلالة على السويديين الذين استقروا على الأرض الروسية الحديثة .

وعلى الرغم من ذلك فقد تبادر الى ذهن هؤلاء السويديين الذين غدت تفصل بينهم وبين وطنهم الأم مسافة ١٥٠٠ كم ، أنه لا تكفيهم سيطرتهم على كييف لتأمين مستقبل وازدهار التجارة العظمى لأن ازدهارها سيتيح لهم تأمين مستقبل إمارتهم الجديدة . وكانت السوق الطبيعية للقوافل المنطلقة من الشمال عبر حوض الدنيبير هي كل من البحر الأسود ثم مضيق البوسفور والقسطنطينية . وهكذا رمت جهود أمراء كييف الأوائل الى أن تشقّ طريقها وبسهولة نحو السوق البيزنطية ، ونشداناً منهم الى الوصول الى هذا الهدف

لم يكونوا يتراجعون عن أيّ وسيلة • وقد لجؤوا الى قوة السلاح في خمس مرات أثناء القرنين التاسع والعاشر ليجبروا الأباطرة البيزنطيين على إبرام معاهدات تجارية مرضية معهم وذلك في سنوات : ٨٦٠ و ٩٠٧ و ٩٤١ و ٩٤٤ و ٩٧١ • وشيّهدّد أسطولهم مدينة القسطنطينية مؤكداً بهذه الوسيلة إرادتهم في الحفاظ على طرق المواصلات حرّة طليقة بين الأسواق السكندناقية البعيدة والعاصمة البيزنطية الغنية •

نتائج الهجرات السكندناقية الكبرى(١) : ـ لا يُحَدّد القرن العاشر نهاية الحركة التوسعية السكندناقية التي كانت قد بدأت منذ مائتي عام • وقد مر بنا آنفاً أن الدانيمركيين لم ينهوا بسط سيطرتهم على إنكلترا إلا في سنة ١٠١٨ ، وسنرى عبر القرن الحادي عشر أن أنسال السكندناقيين الذين استقروا في نورمانديا سيظلون أوفياء لتقاليد أجدادهم عندما انطلقوا بدورهم ناشدين احتلال العالم • ولو أنه من المؤكد في الوقت نفسه أن الهجرة السكندناقية أو الحركة التوسعية الكبرى التي درسناها شهدت نهاية القرن العاشر أو مستهل القرن الحادي عشر فصلها الختامي • وقد حان الوقت لنقيس آثار هذه الحركة ولنرى ماذا كانت نتائجها الدائمة •

ومن المؤكد أن الأطول عمراً من تلك النتائج هي التي نستنتجها من فحص خريطة العالم منذ إلقاء أول نظرة عليها ، فتلك المستعمرات السكندناقية أو الملحقات البعيدة باسكندناقية ، ومن بينها آيسلندة وغرويئنلندة تنهضان دليلاً على أن الفتوحات النورماندية لم تكن دائماً وقتية وغابرة ، ومع شدة حرص مقاطعة نورمانديا الفرنسية على أن تنصهر وبسرعة في الوحدة الفرنسية فإنها بقيت مع ذلك محتفظة بعدد من سماتها الاصلية واضحة جلية ، وما أكثر أسماء الأمكنة المشتقة من اللغة السكندناقية والمقتبسة عنها • ويُمَكّن تاريخ هذه المقاطعة الفرنسية في القرنين العاشر والحادي عشر من تأكيد بقاء الاحتكاك وخلال فترة طويلة بين سكان هذه المستعمرة الدانيمركية الذين

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٥ ، ص ٣٠٧ ــ ٣٠٩ .

استقرّوا شمالي فرنسا وبين سكان سواحل بحر البلطيق • كما بقي سكان نورمانديا محتفظين ولمدةطويلة بذكرى أصلهموبلهجة وبوسائل عيش وبطقوس وطنهم الأم • وإنه على الرغم من انصهار هذه العناصر الدانيمركية أي التي صارت تدعى بالنورماندية في السكان الفرنسيين المحليين فإن أولئك السكان المقيمين في مدينة كالفادوس وعلى ضفتي نهر السين بقوا محتفظين بطابعهم الخاص •

هذا بينما كانت آثار الاحتلال السكنديناڤي في المناطق الانكليزية أشدّ أو أقل قوة حسبما طال أمد هذا الاحتلال أو قصر • وستكون أيرلندة أولى المناطق تحطيماً للنير النورڤيجي واسترداداً لاستقلالها السياسي • وقد أفاد ملوك هذه الجزيرة الكلتيون القدامى من الخصومات والمنافسات التي أدّت الى انقسام صغار الرؤساء النورڤيجيين ليتمكنوا من أن يستردّوا من هؤلاء القسم الأكبر من مقاطعة مونستر Munster ومن أن يدفعوا بهم الى المنطقتين الساحليتين • إن السكنديناڤيين الذين زجّوا بأنفسهم وبصورة تامة في سنة ١٠١٤ في معركة كلونتارف Clontarf بالقرب من مدينة دبلن لم يتمكنوا من الثبات والصمود إلا في بعض المناطق • ولكن أحداً من أولئك الملوك الكلتيّين القدامى لم يتمكن من طرد هؤلاء المحتلين الجدد من الجزيرة نهائياً• وعندما بدأ الإنكليز باحتلال جزيرة أيرلندة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، فإنهم وجدوا فيها بقايا تلك العناصر النورڤيجية مشكّلة أقليات شديدة الوضوح بقيت لها علائق مستمرة مع بلادها الأصلية • ومع أن تلك الأقليات اعترفت أخيراً بالسلطة العليا للملوك الأيرلنديين فإنها بقيت طيلة العصور الوسطى محتفظة باستقلالها الذاتي أو بنصف استقلالها •

وقد أفلتت مقاطعة إنكلترا نفسها من قبضة الدانيمركيين في منتصف القرن الحادي عشر لكنها لتتخضع وشيكاً الى أدواق نورمانديا • وبقيت آثار الاستعمار الدانيمركي فيها واضحة وخلال أعصر طويلة في كل الأقاليم التي كان فيها ذلك الاستعمار شديد الوطأة والقبضة • كما لوحظ مثلاً في منطقة مرسيا التي حكمها الدانيمركيون أن العناصر السكنديناڤية قد عدّلت وبدّلت

العادات . ثمت فإن تنظيم المنطقة والأسماء والأشكال القضائية التي كانت تلاحظ فيها في القرن الحادي عشر تنهض دليلاً على أن الانصهار بين العناصر الدانيمركية وبين العناصر الانكليزية لم يتمّ بتلك السرعة التي ملنا في بعض الأحيان الى الاعتقاد بها ، ثم فإن دراسة أسماء الأمكنة واللهجات المحلية تؤكد أخيراً أن أثر عناصر السكان الدانيمركيين في جميع المناطق التي كانوا فيها وفيري العدد كان مُتَّسِماً بالديمومة وبأنه غالباً ما كان جذرياً عميقاً ، وتلك حال أقاليم نورثمبرلاند ويوركشاير والكونتيات الوسطى ونورفولك وسوفّولك .

وفي جزيرة مان Man حيث تكثر الأوابد السكنديناقية فإن الحكم النورڤيجي بقي حتى سنة ١١٢٦ ، وتلك حال جزر الهيبريد التي لم يقبل ملكها ماغنوس Magnus إلا في هذا التاريخ فحسب أن يتنازل عنها الى اسكتلندة . أما بالنسبة الىجزيرتيأوركاد وشتلند فلم يفقدهما النورڤيجيون إلا في سنة ١٢٣١ ، لا بل فإنهما لم تَعْتَمّا أن خضعتا وشيكاً الى الحكم الدانيمركي الذي استمر فيهما حتى سنة ١٤٦٨ . وبقيت اللغة السكنديناڤية اللغة المستعملة فيهما حتى نهاية القرن الثامن عشر .

ويتيح لنا كل ذلك أن نذكر أنه على الرغم من أن الاحتلال السكنديناڤي لم يكن مجرّد فصل قصير من تاريخ البلاد التي خضعت إليه ، وأنه على الرغم من أنه كان على مقياس أقصر من الغارات الجرمانية فإن هدفه كان مشابهاً لهدف تلك الغارات التي تمتدّ في القرون الاولى من العصور الوسطى . ومع أن تاريخ الاحتلال السكنديناڤي لتلك البلاد بقي مهملاً طيلة فترة طويلة فإنه اعتبر على الرغم من ذلك أحد الفصول الرئيسية من تاريخ أوروپة الحديثة .

الفصل العاشر

تأسيس الامبراطورية البلغارية

إنه بينما سقطت الأجزاء الشمالية الغربية من أوروبة كغنيمة باردة بأيدي السكنديناڤيين ، ففي الفترة نفسها كانت مناطق الجنوب الشرقي فيها مسرحاً لاضطرابات وتطورات جنسية وسياسية بالغة الأهمية : فالشعب البلغاري الذي كان يهيم على وجهه في السهول الروسية الجنوبية والذي تمكنت قبائله من الوصول الى نهر الدانوب وبلغت في نهاية مطافها المنحدرات والسفوح الجنوبية لجبال البلقان نجح بعد بذل جهود استغرقت قرناً من الزمن في أن يتفوّق ويسود جميع منطقة البلقان وأن يبتلع ويصهر في كيانه ، شاءت أم أبت جميع العناصر السلاڤية المبعثرة فيها ، وأن يتحوّل هو نفسه الى شعب سلاڤي أو أن يتم تحوّله الى شعب سلاڤي . فبعد كل ذلك أسس هذا الشعب امبراطورية عظمى صارت رقعتها في آخر الأمر ضامّة القسم الأعظم من مقدونية وألبانيا وبلاد الصرب وأصبحت متاخمة لأدرنة ولسالانيك وموغلة في إقليمي تساليا وإپيراوس (شمالي بلاد اليونان) . فشبه جزيرة البلقان التي بدأت ومنذ عدة قرون تكتظ بالعناصر السلاڤية أخذت هذه العناصر تتجمّع فيها ناشدة تشكيل كتلة بلغارية سلاڤية شعر التاريخ بوجودها وأخذ يرقب ما ستقوم به من أعمال عن كثب .

بحث الأستاذ الدكتور جوبسون N. B. Jopson (الأستاذ في جامعة لندن) عن أصل عناصر البلغار فقال بصدد ذلك ما نصه : « أما البلغاريّون فهم في الاصل من سلالة الهون وقد جاؤوا من الڤولغا والدون ، وكان أول وصولهم للدانوب في نهاية القرن الخامس واشتركوا في الهجوم الكبير الذي وقع على القسطنطينية سنة ٦٢٦ وكان زعيمهم أسباروخ هو الذي احتلّ

دوبروجا سنة ٦٧٩ ، وقد رحّب صقالبة بلغاريا بالغرباء المحبّين للقتال لأنهم رأوا فيهم حلفاء نافعين ضد البيزنطيين ، وعقدت المحالفات بين الشعبين واعترف الصقالبة بسيادة خان البلغار عليهم ، وسرعان ما فقد البلغاريون الأصليون لغتهم واندمجوا في السكان الأصليين بوطنهم الجديد ، وقبل أن ينتهي القرن التاسع كانوا قد أصبحوا صقالبة خُلّصاً ، وقد بلغوا أوج شهرتهم في نهاية ذلك القرن عندما امتدّت إمبراطوريتهم تحت حكم الإمبراطور شمعون من شواطىء ألبانيا مجتازة إيبيراوس ومقدونية الى بلاد المجر ...»[1]

أولا ــ ضعف الامبراطورية البيزنطية في مطلع القرن التاسع وتوسّع البلغار في حوض الدانوب :ــ إنه لمن العسير تفسير ذلك التحوّل التام الذي حدث في المنطقة اذا لم نلاحظ أنه جرى أثناء مرور الامبراطورية البيزنطية بحقبة من أسوإ الحقب التي تعاقبت على تاريخها .

لقد توفي الامبراطور قسطنطين الخامس مُخَلّفاً لابنه تركة مثقلة وامبراطورية تكتنفها المشاكل وتحدق بها الصعاب والمتاعب من كل جانب . ولم تتح فترة حكم هذا الامبراطور القصيرة التي لم تتجاوز خمس السنين له أن يجد حلاً لها . ثمت قامت مشكلة وراثة العرش من جديد سنة ٧٨٠ وفي ظروف صعبة للغاية حيث آل الحكم الى فتى في العاشرة من عمره هو قسطنطين السادس الذي مارست أمه إيريني ، وهي المرأة الطموح المستبدّة المتسلطة الوصاية عليه . وكانت هذه المرأة (اليونانية الاصل ومن مدينة أثينا نفسها) صديقة لرجال الاكليروس وخصمة لدوداً للسياسة التي اتبعها الحزب المؤيّد للحركة الايقونية منذ نصف قرن ، مما سيؤدي الى جرّ الامبراطورية ، لا بل فانه جرّها بالفعل ، الى ظهور ردّ فعل عنيف ستخرج منه الدولة البيزنطية دولة مهيضة الجناح خائرة العزائم منهوكة القوى . وقد استمرت وصاية

---

(١) تاريخ العالم ، المرجع المذكور ، نشره بالانكليزية جون هامرتن ، الترجمة العربية باشراف ادارة الثقافة العامة في وزارة التربية والتعليم في مصر ، المجلد ٤ ، الفصل ٩٤ وهذا الفصل للاستاذ ن.ب جوبسون ، وهو بعنوان : انتشار الشعوب الصقلبية ، ص ٥٣٩ .

إيريني فترة أطول بكثير من الفترة التي تمارس فيها الوصاية في الظروف العادية (أي حتى بلوغ الامبراطور القاصر سن" الرشد) . وكانت نتيجة استمرار تلك الوصايةليس فحسب اعادة إسناد السلطة والمناصب الرئيسية العليا الى الاشخاص الذين حرصت حكومة مناصري الحركة الايقونية على اقصائهم عنها بصورة منظمة انما اعادة اثارة الخصومات الدينية وشيكاً . ولم تترد"د الامبراطورة في سنة ٧٨٧ في أن تفرض على الامبراطورية اعادة عبادة الصور أي الايقونات . كما أقر"ت مجموعة من التدابير الخرقاء زادت الموقف سوءاً بقضائها وبصورة نهائية على التوازن السياسي الذي لم يتمكّن في عهود الاباطرة السابقين من الحفاظ عليه إلا بشق" الأنفس فعمّت الفوضى الامبراطورية من جديد .

وقد ثارت في سنة ٧٩٠ فرق الجيش المرابطـة في الاقاليم الآسيوية من الامبراطورية . ثم حذت حذوها معظم فرق الجيش الاخرى الى درجة أن إيريني التي أخذ الذعر منها كل مأخذ لم تعد تفكر الا في الحفاظ على حياتها فتنازلت عن وصايتها تاركة لابنها أن يعمل طليقاً (وذلك في كانون الاول سنة ٧٩٠) . هذا ولو أنها لم تعتّم وبعيد فترة وجيزة أن بدأت تعمل من وراء الستار متآمرة على ابنها وجاعلة أشد" أنصاره حماساً له ينفضّون من حوله وينقلبون عليه . وهكذا اندلع لهيب الثورة في تموز ٧٩٧ ، تلك الثورة التي أعد"ت بذكاء وفطنة والتي أرجعت إيريني الى العرش (لانها كانت المدبّرة الرئيسية لها) لتقبض على ناصية الحكم مرة أخرى بينما أوقف ابنها قسطنطين السادس وبايعاز منها وسجن وسملت عيناه وطرد من العرش .

فتلك الضربة الجريئة التي ألغيت بنتيجتها وبصورة وقحة فكرة ممارسة إيريني مقاليد الحكم كوصية والتي ترتّب عليها منح اللقب الامبراطوري الى امرأة كانت ضغثاً على إبّالة وثالثة الأثافي بالنسبة الى جو الفوضى والاضطراب الذي كان يرين على الامبراطورية في ذلك الظرف الراهن . وقد بقيت إيريني خمس سنين في دست الحكم ، ولو أنها لم تن في استهلاك نشاطها وتبديده نشداناً الى التفتيش عن الوسائل القمينة بتأخير سقوطها . هذا وان تكن الامبراطورية عندما أسقطت إيريني نهائياً في سنة ٨٠٢ ونفيت على يد رئيس وزرائها

نقفور الذي رفع فجأة الى العرش الامبراطوري بنتيجة ثورة داخلية ، فهذه الامبراطورة كانت تمرّ آنذاك بفترة عصيبة صعبة وغدت أشدّ ضعفاً من أي فترة مضت عليها في تاريخها •

وبالنسبة الى البلغار الذين لم تتمكّن قوات الامبراطورية ، في الفترة التي كانت فيها جيوشها ما تزال في عنفوان قوتها وسليمة لم تهن ولم تضعف ، من اجبارهم على الخلود الى السكينة الا بصعوبة زائدة • ففي الظرف الراهن عندما غدت الصعاب المحدقة بالدولة البيزنطية معلومة من الجميع صارت تلك الصعاب مواتية للبلغار وبصورة استثنائية • ويعجب المرء أحيانا كيف أنهم لم يحاولوا انتهاز هذه الفرصة حتى مستهل القرن التاسع • ويزول هذا العجب إن تذكّرنا أنه كان على عواهل البلغار في الفترة ذاتها وعلى الصعيد الداخلي تذليل أكأد العقبات والتغلب على الصعاب الداخلية الجمّة التي سلبتهم الاستقرار • لكن أمور البلغار تغيّرت منذ أن آلت السلطة عندهم الى كروم Kroum المرعب في سنة ٨٠٢ • فمنذ ذاك أخذ البلغار ينساحون وتوغل قواتهم مسرعة في زحفها على البلاد المجاورة يمنة ويسرة وفي جميع الاتجاهات • وكانت ضحاياهم في الغرب والشمال الغربي العناصر السلاقية المستقرة في اقليمي والاشيا والبنات وغيرها والتي أجبرت على خضوعها للبلغار وتبعيتها لهم • كما أخضعوا بعيد قليل العناصر السلاقية المقيمة في قسم من سهل المجر الشرقي •

أما بالنسبة الى إيغال البلغار في زحفهم على المناطق الجنوبية الغربية فان ملكهم كروم لم يدّخر وسعاً ومنذ سنة ٨٠٨ في أن يفتح أمام قواته طريق مقدونية • وقد أمكنه في ربيع سنة ٨٠٩ الاستيلاء على الحصن البيزنطي سارديك ــ Sardique ــ وهو مدينة صوفيا الحالية • ثم بدأت قواته توالي تقدمها في الحوض الاعلى لنهر ستروما Stromma • وكان جواب الامبراطور البيزنطي نقفور على ذلك غزو بلغاريا الشرقية في سنة ٨١١ وزحفه على رأس قواته على المقر البلغاري الملكي في بليسكا Pliska (ويقع الى الشمال من من مدينة شوملا Choumla الحالية) الذي نجح في الاستيلاء عليه تاركاً جنوده تعمل فيه سلباً ونهبا • لكن كروم ما لبث أن قام بعيد قليل بهجوم

معاكس مجبراً الحملة البيزنطية على التراجع في اتجاه البلقان • كما فاجأ تلك الحملة في ليلة ٢٦ ـــ ٢٧ حزيران سنة ٨١١ عند أحد الممرات حيث ذبح معظم أفرادها • وكان الامبراطور نقفور نفسه من بين القتلى الذين غطّت جثتهم ساحة القتال • وبعد أن عرض الملك البلغاري رأس الامبراطور وقد ثبّته في حربة أخذ يلهو بالمشهد المريع وذلك بتحويل جمجمة الامبراطور نقفور القتيل الى وعاء ليحتسي بواسطته الخمر •

ثمت انفتح في وجه البلغار طريق مقاطعة تساليا (شمالي بلاد اليونان) فانقضّ بقواته بالقرب من مدينة أدرنة على الجيش البيزنطي الذي جمعه الامبراطور البيزنطي الجديد ميخائيل رانغابيه Michel Rangabé ، صهر نقفور ، مكتفياً وبصورة موقتة بعزل مدينة أدرنة وتطويقها بقواته ليغذّ السير ويحثّ الخطا باتجاه بيزنطة نفسها التي أدى اعلان الهزائم التي منيت بها القوات البيزنطية فيها الى إذكاء نار الثورة فيها مرة أخرى •

بلغ كروم في زحفه أبواب العاصمة البيزنطية وغدا مسيطراً على البوسفور فأفاق شعب تلك العاصمة وصحا من هول الصدمة التي أيقظته من سباته فأبدل الامبراطور ميخائيل الضعيف بالقائد الارمني الفذّ ليون (وذلك في تموز ٨١٣) الذي نجح في التغلّب على تلك الصعاب وأعاد الهدوء • وقد صينت العاصمة البيزنطية من الوقوع بيد المهاجمين البلغار الذين اضطرت قواتهم الى الانسحاب في طريقها نحو الشمال • لكن لئن تنفست القسطنطينية الصعداء فان حصون اقليم تراقيا (غربي القسطنطينية نفسها) أخذت تسقط تباعاً بيد العدو البلغاري المغير • كما سقطت أدرنة نفسها بيده قبل شتاء ذلك العام ، هذا فضلا عن سقوط مدن أخرى بيد البلغار ومن بينها مدينة آركاديوپوليس وذلك بعد عدة أسابيع • وبينما كان كروم منهمكاً بحشد وتعبئة قوات جديدة مزوّدة بأدوات هامة للحصار فاجأته المنون في ١٣ نيسان سنة ٨١٤ •

وتدين الامبراطورية البيزنطية الى وفاة العاهل البلغاري كروم بالسلام الذي عاد الي ربوعها أكثر من أن تدين به الى شجاعة امبراطورها نفسه ،

وذلك بسبب أن وريث العرش البلغاري وهو أومورتاغ Omourtag بن كروم قدّر أن من غير الممكن موالاة سياسة الفتوح قبل أن ترسخ أقدامه في الحكم ويتوطّد عرشه • وقد حمله ذلك على أن يقبل غداة الانتصارات المؤزّرة التي أحرزها البلغار في اقليم تراقيا عروض السلام التي قدمها الامبراطور البيزنطي اليه • وقد ضمّت الى مملكة البلغار بنتيجة المعاهدة المبرمة بينها وبين الدولة البيزنطية في سنة ٨١٤ أو في سنة ٨١٥ أقاليم واسعة باتجاه الجنوب: جميع المناطق الواقعة في الحوض الاعلى لنهر الماريتزا Maritsa ، وبينها مدينة فيلوپوپولي Philoppopoli • وبذلك أمكن وبسرعة توسيع حدود بلغاريا[١] •

ثانياً ـ فرض السيادة البلغارية على بلاد السلاف في منتصف القرن التاسع(٢):

اهتم البلغار وطوال خمس عشرة سنة بتوطيد دعائم حكمهم منطوين على أنفسهم • وكان يتحتم عليهم قبل استئناف عهد فتوحات جديدة أن يتمثلوا ويصهروا في بوتقتهم العناصر المتنافرة التي مكنتهم فترة الفتوحات السابقة التي استغرقت اثني عشر عاما من ضمّها الى امبراطوريتهم • وقد أظهر سلاف اقليمي تيموك والبنات بصورة خاصة مقاومة وصموداً وجلداً في وجه محاولة صهرهم مدعومين في مقاومتهم هذه من قبل الفرنجة الذين جعلتهم انتصارات شرلمان في بلاد الآقار جيراناً لهم • وكان هؤلاء السلاف ينشدون من وراء مقاومتهم القضاء على وصاية البلغار عليهم • ولم يتمكن هؤلاء من اعادة بسط سلطانهم على تلك العناصر السلافية الا بنتيجة صراع شاق طويل استغرق الفترة الاخيرة من عهد العاهل البلغاري أومورتاغ ولربما امتد كذلك الى عهد خليفته مالامير Malamir (الذي حكم بين سنتي ٨٣١ ـ ٨٣٦) •

لكن البلغار عاودوا الكرّة مستأنفين الهجوم والتوسّع عند تسلّم ملكهم بريسيان Pressian الحكم (وذلك في سنة ٨٣٦) مفيدين من ضعف وانحلال الامبراطورية البيزنطية المتزايد الذي لم يتمكن المغتصب الارمني ليون الا

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٦ ، ص ٣١١ ـ ٣١٣ •

(٢) المصدر عينه ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٦ ، ص ٣١٣ ـ ٣١٧ •

أن يقيها في سنة ٨١٣ من شر كارثة عسكرية وليس من الفوضى التي خيّمت على مختلف ربوعها . وعلى العكس من ذلك فان قرار المنع القطعي لعبادة الايقونات الصادر مجدداً في سنة ٨١٥ جعل حرباً دينية داخلية جديدة تستشري مرة أخرى وكانت أقسى وأضرى وأشد عنفاً من السابقة وسرعان ما تحولت الى خصومة أو أزمة حادة بين السلطتين الزمنية والروحية . وقد كلف هذا الصراع الذي أثار وهيّج العواطف وكوامن الاحقاد الامبراطور البيزنطي حياته ، حيث قتل في ٢٥ كانون الاول سنة ٨٢٠ واستبدل برأس المؤامرة ومدبّرها وهو ميخائيل الثاني المتعتع le Bégue أو اللجلاج والذي كانت قواته التي أعدها قد وهنت وضعفت وعجزت بعيد فترة وجيزة عن قمع احدى أعنف الثورات التي لم تشهد لها العاصمة البيزنطية مثيلاً منذ حقب طويلة . وتلك الثورة هي التي أذكى أوارها أحد ضباط قصر الامبراطور واسم هذا الضابط توماس الصقلبي (أو السلاڤي) الذي بعد أن أثار آسيا الصغرى وضمن انضمام ثمانين ألف مقاتل الى جانب أنصاره استولى على العاصمة بنتيجة الهجوم الذي شنّه عليها في ربيع سنة ٨٢٢ .

أقصي ميخائيل الثاني عن العرش البيزنطي واستبدل منذ سنة ٨٢٩ بابنه تيوفيل في نفس الوقت الذي تولى فيه العرش البلغاري بريسيان . لكن تيوفيل لم يكن في وضعية أفضل وأشدّ قوة من وضعية أبيه . وقد كان البلغار يدركون وبدقّة مصاعب تيوفيل الداخلية ويعرفون تماما أنه مضطر الى تبديد قواته لمجابهة الرهبان وأنصار عبادة الصور (الايقونات) وأنه مضطر الى الصمود في وجه القوات الاسلامية في آسيا الصغرى . لذلك كله قدّر البلغار أنه لن يكون بوسع العاهل البيزنطي أن يعترض سبيل حركتهم التوسعية لا سيما ان لم يهاجموا الاجزاء الحيوية البالغة الاهمية بالنسبة الى الامبراطورية . لذلك كله وجدنا الملك البلغاري بريسيان لم يستأنف هجومه من جهة تراقيا انما انقضّ على رأس قواته حوالي سنة ٨٣٨ على المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال رودوب (في بلغاريا) وألبانيا مستوليا وضامّاً في الوقت نفسه الى مملكته جميع الاجزاء الجنوبية ليوغوسلاڤيا الحالية تقريبا . انه لم يتمكن

من الوصول ، كما كان يتمنى ، الى الامارات الصربية في منطقة الجبل الاسود حيث جوبه بمقاومة ضارية . هذا ولو أنه لم يلبث أن عاود الكرّة باستئناف الهجوم باتجاه السهل المقدوني ملبياً بعمله نفس الرغبة الملحّة في الوصول الى البحر الابيض المتوسط تلك الرغبة التي ستحمل ورثته في القرن العشرين نفسه على الاصطدام بجيرانهم البلقانيين .

وبينما كان الملك بريسيان في سنة ٨٤٧ يهدف في هذه المرة أن ينفذ الى خليج قولة Kavala فانه تمكن بالدوران من جهة الغرب حول سلسلة جبال رودوب ، أن يخضع قبائل السموليان Smoliens السلاڤية المقيمة في هـذه الربوع . لكنه اضطر وبنتيجة هجوم معاكس قامت به القوات البيزنطية على الحدود البلغارية في منطقة تراقيا أن يتراجع عن المناطق التي كان قـد بلغها قبل أن ينجح في الوصول الى الاقليم الساحلي .

وهكذا لم ينجح العاهل البلغاري في منتصف القرن التاسع في أن يكون له منفذ الى السهل الجنوبي ، ولا أن يحمل جميع سلاڤ البلقان على الاعتراف بتبعيّتهم اليه . وعبثاً ما حاول الملك بوريس الاول الذي خلف أباه بريسيان في سنة ٨٥٣ أن يُخضِع بواسطة القوة عناصر الصرب المقيمة في منطقة الجبل الاسود حيث أخفقت الحملة الثانية التي وجّهها ضدهم في سنة ٨٥٤ . كما حاول وبدون جدوى في العام القادم بذل جهد ضد عناصر الكروات في اقليم البوسنة . وليتمكن البلغار من جعل دولتهم مركزا لجامعة السلاڤ الجنوبيين Pan - Slavie بدا بديهيا وبصورة متزايدة أن القوة وحدها لا تكفي وأنه يجب على بلغاريا أن تبرهن على قابليتها لتمثّل الحضارة . وهذا ما نذر الملك بوريس نفسه لتحقيقه منذئذ مظهراً تعلّقاً زائداً بتلك المهمة .

لا ريب في أن البلغار لم يعودوا تلك القبائل البربرية السمجة التي عُرِفت في الازمنة القديمة عندما بدأت قبائلهم تغير ولأول مرة على الحدود البيزنطية في حوض الدانوب . ففي عهد الملك كروم كان كثيرون من الاسرى الذين أحضروا من منطقتي مقدونية وتراقيا قد هيّؤوا الجواء الصالحة لانتشار المسيحية ، وتمكنوا من كسب معتنقين وأنصار لها حتى بين أفراد حاشية الملك .

هذا ولو أن انتشار العقيدة الجديدة قد اصطدم بالمقاومة العنيفة وبعدم التسامح البربري اللذان أبداهما كروم وخلفاؤه الذين كانوا يخشون وبكل تأكيد أن يؤدي دمار العقيدة الوثنية القومية واعتناق الديانة المسيحية الى جعل بلغاريا تدخل في الحاضر الآني أو في المستقبل البعيد في نطاق دائرة النفوذ البيزنطي • ومن البديهي أن الملك بوريس وسعياً منه وراء وقاية بلاده من نتائج هـذا الخطر ، فانه مع ابداله موقفه غير المتسامح وغير المتساهل بازاء المسيحية نفسها ، فانه رجّح أن يستقبل في بلاده مبشّرين قادمين من الامبراطورية الكارولنجية • وقد بدأ هؤلاء المبشرون مهمتهم في سنة ٨٥٦ • لكنه من الغريب حقاً أن يدّعي بربط بلغاريا بالكنيسة الكاثوليكية أي الرومانية في الوقت الذي أخذ فيه عواهل البلغار يعدّون العدّة ويضعون الخطط ليجعلوا من القسطنطينية مدينة بلغارية • ولا يرقى الشك الى أن الشرط الاساسي لنجاح هذه الخطة هو اعتناق البلغار للمذهب الارثوذكسي وتبنّي المؤسسات الحضارية والنظم التي تتمشى أو تتجاوب معه •

لذلك كله لا يستولي علينا العجب ان لاحظنا أن بوريس بدأ بعد بضع سنين (سنة ٨٦٤) يتقرّب ويتودد الى بيزنطة ، وأن يوثّق مع الامبراطور ميخائيل الثالث ، أو مع عمه بارداس Bardas الوصي على الامبراطورية بدلا من ابن الامبراطور تيوفيل ذلك الغلام الغرّ وغير الكفء عرا ميثاق للاتحاد اعترف بموجبه بالوضع الراهن لاقاليم الدولة البلغارية التي ازدادت سعتها ورقعتها من جراء الفتوحات التي تمّت في ظل العاهل بريسيان • وكان الجزء المتمّم لهذا الميثاق هو اعتناق العاهل البلغاري ورعاياه المذهب الذي كان المبشّرون البيزنطيون يدعون اليه • وقد أثار تطبيق هذا الميثاق الكثير من الصعاب سواء من قبل رعايا بوريس الذين لم يكونوا مستعدين تماما الى التضحية بعبادة وتقاليد أجدادهم أم من قبل بيزنطة نفسها ــ وفق ما كان يتنبّؤ به ــ لانها كانت تسعى الى أن تتخذ من الدين تكأة تمكنها من بسط حمايتها على بلغاريا ، وترفض تبعاً لذلك وبصورة قطعية أن تقوم في هذا البلد هيئة اكليريكية متمتعة باستقلال ذاتي عن بطريرك القسطنطينية •

وأدّت قضية استقلال الاكليروس البلغاري هذه الى الالقاء بمعتنقي المذهب الارثوذكسي الجدد وطيلة فترة ما بين ذراعي الكنيسة الكاثوليكية • وأخيراً تم الاتفاق بين الجانبين وفق الاسس التالية : يكون الاكليروس البلغاري ، وبكامل هيأته ، ليس خاضعا الى بطريك خاص ، كما كان بوريس نفسه يرغب في ذلك ، ولكن الى مطران Archevêque لا يكفّ ، ولو من حيث الشكل ، عن الاعتراف بتبعيته الى بطريك القسطنطينية • هذا ولو أنه في حيّز الواقع يبقى حرّاً في تصرفاته وحركاته • وكان هذا الحل عادلاً نصفة لأنه صان الحق وأعطى الى البلغار ما كانت نفوسهم تتوق اليه أكثر من أي شيء آخر : وهو تأسيس كنيسة قومية • وفضلا عن ذلك وسعيا وراء ترسيخ هذا الطابع القومي للكنيسة البلغارية ولتمكين أفراد الشعب من أن يعتنقوا وبسهولة الدين الجديد فان اللغة السلافية سرعان ما غدت اللغة الرسمية للاكليروس البلغاري ، مما يؤدي الى القول بأن الشعب البلغاري سيقبل طواعية أن تبعث اليه القسطنطينية بالوسائل الكفيلة بنشر الحضارة بين أفراده ، لكنه يرغب وباصرار ويلح في أن يكون حراً طليقاً في أن ينمّي هذا التراث الثمين وفق رغبته الخاصة وكما يحلو أو يبدو له •

لذلك كله فان اعتناق بلغاريا للنصرانية هو حدث ذو أهمية بالغة ورئيسية في تاريخ بلغاريا ، لا بل في تاريخ العناصر السلافية جمعاء • وذلك لانه وفي هذا الاطار يجب ألا يكون ثمة أي تفريق بين التاريخين • وصارت اللغة السلافية اللغة الرسمية للبلغار ، ونصرانيتهم ليست مسيحية العناصر السلافية وليست المسيحية البيزنطية ، حيث قام في هذه الفترة مبشّران بيزنطيان شهيران هما : كيرلّس Cyrill وميثـود Méthode ، واللذان كان أصلهما من مدينة سالانيك ، بتأسيسها في مقاطعة موراڤيا بوضع أبجدية للسلاف كما ترجما فيما بعد الكتابات أو النصوص المقدسة الى اللغة السلافية • وبعد عودة أتباع وتلاميذ كيرلّس وميثود من موراڤيا حيث لم يتمكنوا من البقاء فيها طويلا فانهم زادوا من عدد أتباع الكنيسة البلغارية وتوصلوا في النهاية الى أن يجعلوا من بلغاريا الناشرة أو المبشّرة الكبرى بالعقيدة الجديدة ومركزاً للعالم السلافي في نفس الوقت •

عالج الاستاذ شارل دييهل Charles Diehl قضية الصعاب التي أثارتها بلغاريا في وجه الامبراطورية البيزنطية في القرن التاسع في مجموعة التاريخ العام للشعوب المشار اليها آنفاً فقال ما نصه فيما يتعلق بهذا الموضوع : « كانت حرب البيزنطيين للبلغار وبصورة خاصة الحدث الرئيسي للسياسة الخارجية البيزنطية في القرن العاشر . وقد هدّدت الامبراطورية البيزنطية ومنذ القرن السابع على يد الدولة البلغارية . وبلغ هذا التهديد مداه وصار أقوى من أي فترة مضت في مستهل القرن العاشر . فمن حيث الرقعة امتدت رقعة الدولة البلغارية حتى شملت جميع المناطق الواقعة بين شمال مجرى الدانوب وحتى البلقان ، أما من جهة الغرب فقد وصلت تلك الرقعة حتى سلسلة جبال البندوس Pinde (وهي سلسلة جبال المنطقة الغربية في بلاد اليونان) . ونجحت الدولة البلغارية على الصعيد المعنوي بعد أن تمّ في ربوعها انصهار العنصرين البلغاري والسلافي فأمكنها ذلك الانصهار أن تؤلف دولة متجانسة . كما زادت قوة الاسرة الحاكمة في ربوعها رسوخاً . وقد أفادت هذه الدولة من اعتناق ملكها بوريس النصرانية في سنة ٨٦٤ ومن انتشار هذا الدين في ربوع بلاده مما أتاح لهذه الدولة أن تؤمّن توحيد العقيدة في ديارها . وفضلا عن ذلك ، ومن جراء احتكاك دولة البلغار بالدولة البيزنطية غدا المستوى الحضاري لهذه الدولة جيدا ورفيعا . فكل ذلك كان من شأنه اغراء عواهل بلغاريا بمنافسة أباطرة البيزنطيين نشداناً للسيادة على البلقان . وكان لا مناص من أجل تحقيق تلك الاحلام العريضة من أن يوجد الزعيم الكفء القادر على تحقيقها . ولم يطل انتظار البلغار حيث سرعان مارزقوا بذلك العاهل الشديد الطموح وهو قيصرهم شمعون بن بوريس الذي حكم الدولة البلغارية بين سنتي ٨٩٣ ــ ٩٢٧ . »[1] .

ثالثاً ــ بلغاريا العظمى في عهد القيصر شمعون Simeon (٨٩٣ ــ ٩٢٧) :

لم يرو ظمأ البلغار ورغبتهم في التوسّع حتى ذلك الوقت ، فما تزال في البلقان

(١) مجموعة التاريخ العام للشعوب المطبوعة تحت اشراف الاستاذ مكسيم بوتي Maxime Petit المذكورة ، المجلد ١ ، القسم ٤ ، الفصل الثامن (وهو من تأليف الاستاذ شارل دييهل) ، ص ٢٢٤ .

جماعات سلاڤية يجب انجاز اخضاعها • هذا فضلا عن أن البلغار لم يصلوا بعد في مدّ رقعة بلادهم حتى سواحل البحر الطليق أي البحر الابيض المتوسط ومياهه المفتوحة • وأخيراً نشبت في سنة ٨٦٧ ثورة في القسطنطينية على ميخائيل الثالث وتسلّم باسيل الاول عرش أباطرتها وكان باسيل هذا هو الذي قتل سلفه في المنصب الامبراطوري • وكان الامبراطور الجديد في الاصل فلاحاً مقدوني الاصل معروفا من قبل البلغار حيث كان في شبابه من بين أسرى الحروب البيزنطيين الذين وقعوا في أيديهم • ولربما أحيا نجاح ثورة باسيل هذه في نفوس الامراء البلغار الرغبات السرية في أن تزدان رؤوسهم في يوم من الايام بوضع تاج أباطرة الدولة البيزنطية عليها • فكان مقيّضاً الى القيصر شمعون هذا ، وهو الابن الثاني لبوريس الكبير ، أن يبذل قصارى جهده لتحقيق تلك الاهداف •

وكان بوريس في الواقع بعد أن أنجز اعتناق جميع أفراد شعبه للنصرانية ، وبعد أن أمَّنَ « **سلڤنة** » شعبه la slavisation أي سيطرة الطابع السلاڤي على شعبه ، وبعد فترة حكم مترعة بالاحداث الجسام دامت ستاً وثلاثين سنة قد انسحب من الحياة السياسية في سنة ٨٨٩ الى أحد الأديرة ليتمتع بالهناءة والطمأنينة والسلام • ولم يغادر الدير منذ ذاك سوى مرة واحدة ليقوم بعمل اعتبرته الاسطورة في زمرة الاعمال الخارقة التي يقوم بها القدّيسون (من حيث أن الكنيسة البلغارية صنّفت بوريس هذا في عداد المحسنين الذين يقومون بأعمال خيِّرة) : وذلك لان ابنه البكر ڤلاديمير ، الذي كان بوريس نفسه قد نقل اليه السلطة في أول الامر قد أساء استعمالها وذلك لمصلحة من بقي في بلغاريا من الوثنيين • شهر الاب سيفه القديم وأغمده في عيني هذا الابن فسمله لانه غير أهل لتولي مهام الملك •

وبعد أن ألقى بوريس بابنه المسمول في غياهب السجن وأوسد الحكم الى ابنه الثاني شمعون ، وذلك في سنة ٨٩٣ ، عاد الى الدير ثانية ليعتزل فيه الحياة السياسية وليقتصر نشاطه في الدين على ممارسة طقوسه وأداء صلواته ولينطوي على نفسه في تأملات عميقة • وقد حُمَّ أجل الملك بوريس هذا

واختطفته المنون في ٢ مايس ٩٠٧ تقياً ورعاً مرتاح الضمير نقيّه •

وقد رسمت الوسيلة القاسية التي لجأ اليها الملك البلغاري الشيخ الطريق أمام ابنه شمعون في أن يسلك الى هدفه طريقا مستقيما وألا يبالي مهما اعترضت سبيله الى هذا الهدف الصعاب والعقبات عندما يكون عليه أن يعالج قضية تتعلق بمستقبل الشعب البلغاري • وهذا ما جعل ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره عند توليه العرش ، والذي كان من المحتمل جدا أن ينخرط في صفوف أفراد هيئة الاكليروس البلغاري على يد والده ، والذي كان متعلقا بالدراسة وكلفا بالتفكير والعبادة ، وعلى الرغم من كل ذلك فانه عندما أزفت ساعة العمل العسكري فانه عالج قضاياه بنفس قوة واصرار وعناد أجداده الى درجة حملت المؤرخين على أن يطلقوا على القيصر شمعون هذا لقب شرلمان بلغاريا •

وعلى صعيد البلاد السلافية نجح شمعون في النهاية وتغلب على المقاومة العنيدة التي كان الصرب يبدونها حتى هذا الظرف والتي كانوا يحولون بواسطتها دون تسرّب النفوذ البلغاري الى بلادهم • وكان أن أضحت القبائل الصربية المنتشرة في الاقاليم الواقعة ما بين بلغراد وبحيرة أسكي شهر تعترف برضائها أم قسراً وشاءت أم أبت بتبعيتها لذلك القيصر البلغاري ، تلك التبعية التي فرضها هذا القيصر شمعون في الجنوب على سكان مقدونية الغربيـة وألبانيا الجنوبية فاعترفوا بها عن يد وهم صاغرون • وهكذا لم يدع هـذا القيصر وفي جميع المناطق المتاخمة لسواحل بحر الأدرياتيك سوى دورازّو والمنطقةالمجاورة لها ليمارس الموظفون الامبراطوريون البيزنطيون حكمهم فيها•

صار لبلغاريا ومنذئذ قوة رهيبة أضحت تهدد وباستمرار أن تطوي تحت جناحيها ما تبقّى للبيزنطيين من ممتلكات في كل من مقدونية وتراقيا • وكان الامبراطور البيزنطي التعيس ليون السادس الذي خلف في سنة ٨٨٦ أباه باسيل الاول لا يألو جهدا في ابعاد الكارثة التي كان الجميع يشعرون أنها لا محالة واقعة ، وذلك بتركه وسماحه أولا لقبائل الهنغاريين (المجريين) أن تنساح في سنة ٨٩٥ في بلغاريا وتتوغل فيها (وسنقوم بدراسة أحوال تلك

العناصر المجرية Magyars في الفصل القادم) • كما قبل هذا الامبراطور البيزنطي في سنة ٨٩٦ وبصورة متسرّعة أن يدفع جزية سنوية الى الدولة البلغارية وذلك بعد أن بلغت قوات شمعون مدينة بابا ــ اسكي على بعد حوالي ستين كيلومترا الى الجنوب الشرقي من أدرنة وحيث بدت له وكأنها تستعد الى الانقضاض على القسطنطينية • هذا علما أن شمعون كان في الفترة ذاتها منهمكا في حربه لعناصر السلاف الغربيين وغير مهتم بتراقيا[1] •

ولم تبق الحال كذلك في سنة ٩١٣ بعيد وفاة الامبراطور البيزنطي ليون السادس الذي لم يترك لخلافته في الحكم سوى ولد في السابعة من عمره هو قسطنطين السابع پروفيروجينيت Prophyrogénète حيث أخذت الاحزاب البيزنطية تتقاسم الامبراطورية • وقد ظن شمعون ظرف الامبراطورية البيزنطية مواتياً لمشروعه في السيطرة على عاصمتها ، وأن ساعة التدخّل قد أزفت • فهذا العاهل الذي كان أبوه بوريس قد خشي التدخّل البيزنطي في أقاليم دولته ، عقد العزم على التدخّل في العاصمة البيزنطية كوسيط أو كسيّد • ولدن ذيوع خبر موت ليون السادس فانه حثّ الخطا على رأس قواته ووصل حتى أسوار القسطنطينية ولم يقبل أن يعود أدراجه الا بعد أن تلقّى الوعد (في سنة ٩١٣) في أن يكون الامبراطور الطفل ختناً له • كما استأنف الهجوم في السنوات التالية ليفرض على السلطات البيزنطية أن تحترم التعهد الذي كانت قد قطعته على نفسها • ثم تجرّأ في سنة ٩١٧ أكثر من ذي قبل عندما طلب لنفسه التاج الامبراطوري • وبما أن أميرال الاسطول البيزنطي ، رومان لوكاپين Roman Lécapène كان قد توصّل أثناء ذلك الى اختطاف الامبراطور قسطنطين السابع وزوّجه من ابنته فان شمعون أطلق قواته لتهاجم بلاد اليونان وتراقيا • وقد سقطت مدينة أدرنة في يده في سنة ٩٢١ • وبدت القسطنطينية نفسها وشيكة السقوط كذلك بنتيجة ابرام اتفاق بين المسلمين والبلغار حيث كان على القوات الاسلامية أن تدعم هجوم القوات البلغارية البرية بأسطولها ،

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٦ ، ص ٣١٧ ــ ٣٢٠ .

ففي ذلك الظرف الحرج ظهر رومان لوكاپين الذي غدا وصياً على الامبراطورية مجبراً شمعون على التراجع وذلك بتأجيجه ثورة عارمة ضد البلغار وقيصرهم شمعون في سنة ٩٢٣ قامت بها العناصر السلاڤية ولا سيما العناصر الصربية •

وبعد أن ضاعت هذه الفرصة على البلغار لم تعد ثانية وذلك لوفاة شمعون في ٢٧ مايس ٩٢٧ قبل أن تستأنف قواته الهجوم على تراقيا • لكن عهد هذا القيصر قد طال مما أتاح له اجبار السلاڤ مجدداً على الطاعة والخلود الى السكينة • كما أن معاهدة الصلح التي أبرمها ابنه بطرس في شهر تشرين الاول من العام نفسه مع رومان لوكاپين ، ولو أنها لم تتح للبلغار ضم ولايات أو أقاليم جديدة ، فانها جعلت البيزنطيين يعترفون بالمكاسب التي حققها هؤلاء في ثلاثين السنة الاخيرة • ومهما كانت تلك المكاسب عظيمة فانه يمكن انجازها في كلمات قليلة وهي : ستستولي بلغاريا منذ ذاك على أقاليم شمالي شبه جزيرة البلقان باستثناء سهل أدرنة الذي لم يتمكن البلغار من الاحتفاظ به بعد انسحاب قواتهم منه في سنة ٩٢٣ ، وباستثناء السهول الساحلية الواقعة بين تراقيا وجبل أولمبوس كذلك • ومعنى ذلك أن حدود بلغاريا قد وصلت آنئذ الى مشارف سهل مقدونية أي فيما عدا بعض التعديلات أو الاختلافات البسيطة فانها نفس حدود بلغاريا الحالية • هذا بينما وصلت حدود بلغاريا جنوبا حتى سلسلة جبال الپاندوس ووصلت الى البحر الادرياتيكي على طرفي خليج ڤالونا ، وتشمل جميع مقدونية العليا مع بحيرتي أوكهريدا Okhrida وپريسبا Prespa ، بينما ضمت في الغرب وادي نهر الدران Drin والجبل الاسود والبوسنة الشرقية وجميع صربيا •

ولم ينقص عاهل البلغار في ذلك الظرف لتغدو دولته دولة « بلغاريا العظمى » سوى تراقيا الجنوبية وسالانيك ودورازّو • وقد اعترف له بموجب المعاهدة المبرمة بلقب Tsar أي القيصر ، ذلك اللقب الذي لم يعترف به البيزنطيون وحتى ذلك الوقت الا لمن سيغدون أباطرة أي الى ولاة العهد ، وذلك بدلا من اللقب الآسيوي القديم وهو « خان » الذي حمله ملوك البلغار الى أيام بوريس • كما رفع رئيس الاكليروس البلغاري الى رتبة بطريرك

مما يساوي بينه وبين رئيس هيئة الاكليروس في الامبراطورية البيزنطيــة من حيث الرتبــة •

بحث الاستاذ شارل ديهل Diehl قضية الصراع العنيف الذي استشرى بين بلغاريا والدولة البيزنطية وذلك في عهد « خان » البلغار بوريس ثم في عهد ابنه القيصر شمعون فقال حول هذا الموضوع ما معناه : « لقد بدأ الصراع مع البيزنطيين منذ سنة ٨٨٩ بدون أن تكون له في أول الامر نتائج حاسمة • لكن الاضطرابات الداخلية التي كرثت دولة البيزنطيين بعد وفاة عاهلها ليون السادس وعندما كان ابنه قسطنطين السادس ما يزال قاصرا لم يبلغ سن الرشد أتاحت لشمعون الفرصة كي يستأنف القتال ضد البيزنطيين • وقد بلغت قوات البلغار في سنة ٩١٣ أبواب القسطنطينية ، كما تمكن هذا القيصر في سنة ٩١٤ من احتلال مدينة أدرنة• وبعد الحاقه الهزيمة في سنة ٩١٧ بالقوات الامبراطورية لم يبق عليه سوى احتلال عاصمة البيزنطيين نفسها • انه حاول ذلك فعلا في سنة ٩٢٤ • لكن النجاح في الاستيلاء على تلك العاصمة يتطلب مهاجمتها وفي الوقت نفسه من البر والبحر بينما لم يكن شمعون يمتلك أسطولا بحريا : لذلك فان مشروعه لم يُكلّل بالنجاح • وعلى الرغم من أن شمعون هذا أسهم فيتزويد عاصمته پرسلاڤاالعظيمة Preslav - la - Grande بثقافة فكرية وفنية عظيمة تلك الثقافة التي جعلته يستحق لقب شرلمان بلغاريا الذي أطلق عليه ، لكن اخفاقه في الاستيلاء على القسطنطينية ، كان صدمة عنيفة ومعولا هدم طموح الشعب البلغاري • وكان انهيار قوة بلغاريا قد بدأ قبيل وفاة قيصرها شمعون في سنة ٩٢٧ لكن حِدّته زادت في عهد حكم ابنه الطويل بطرس الذي استمر في دست الحكم بين سنتي ٩٢٧ ــ ٩٦٨ •

« وقد تسرب الضعف الى بلغاريا وببطء طوال فترة الاربعين عاما هذه وحانت ساعة الثأر منها تلك الساعة التي أزفت بالنسبة الى البيزنطيين في سنة ٩٦٨ • وهكذا فان الامبراطور البيزنطي الذي استمد العون من أمير كييف الروسي سڤياتوسلاڤ Sviatoslav هاجم بلغاريا • لكن أمير كييف هذا والذي أعجب بهذه البلاد ووافقت مزاجه وذوقه اعتصم فيها رافضا مغادرتها في

سنة ٩٦٨ . ولدن تولي يوحنا تسيميزيس Jean Tzimiscès العرش البيزنطي فان الغزو الروسي أضحى مهددا للامبراطورية البيزنطية ذاتها . لكن ولسوء حظ البيزنطيين فان الهزيمة حاقت بالقوات الروسية عند مدينة آركاديوپوليس وذلك سنة ٩٧٠ . ثم عبر الامبراطور البيزنطي البلقان في سنة ٩٧١ وحاصر سڤياتوسلاڤ نفسه في مدينة دوروستول Dorostol في سيليستريا (وهي اقليم في بلغاريا الحالية ويقع على حوض الدانوب الاسفل) وأجبره على الجلاء عن تلك البقاع . وكان أن ضمت بلغاريا مجددا الى دولة البيزنطيين . وعاد مجرى نهر الدانوب ليكون مرة أخرى بمثابة حدود لامبراطوريتهم .

« ومع ذلك فإن البلغار القاطنين عند سفوح جبال الپاندوس في بلاد اليونان استمروا في مقاومتهم للبيزنطيين بزعامة الكونت سيشمان Sischmann وأولاده . وقد واتتهم ظروف الفوضى والاضطرابات التي خيّمت على إمبراطورية البيزنطيين في أول عهد الإمبراطور باسيل/٢ وذلك بنجاح أحد أولاد سيشمان ، وهو القيصر صموئيل ، في استرداد استقلال بلغاريا في سنة ٩٧٧ و ٩٧٩ ــ ١٠١٤ . كما نجح هذا القيصر في فترة عشر السنين ، بين سنتي ٩٧٧ ــ ٩٨٨ في تحرير بلغاريا الدانوبية واحتلال مقدونية وتساليا وموغلاً في زحفه جنوباً حتى بلغ البليپونيز . وقد استغرقت مهمة القضاء على دولة بلغاريا فترة عشرين عاما قضاها البيزنطيون في محاربة البلغار فذلك بين سنتي ٩٨٦ ــ ١٠١٦ . وأنجز البيزنطيون تلك المهمة على يد إمبراطورهم باسيليوس الثاني ذلك العاهل الذي لُقّب بمبيد أو قاتل البلغار Bulgaroctone لفرط قسوته ووحشيته في معاملة البلغار بعد كل انتصار يحرزه عليهم .

« بدأ باسيليوس/٢ هجومه على بلغاريا في سنة ٩٨٦ حيث دخل الى أقاليم بلغاريا فمني بالهزيمة في شِعَب بوابة تراجان في جبال البلقان . ولم يعد هذا الإمبراطور الى استئناف القتال ضد البلغار إلا بعد عشر سنين . وقد ألحق البيزنطيون في سنة ٩٩٦ الهزيمة بقيصر البلغار صموئيل على ضفتي نهر سپيرشيوس Sperchios في بلاد اليونان (ينبع هذا النهر من

جبال الپاندوس وينصّب في بحر إيجة) مما أدى الى فقدانه بلاد الإغريق التي سرعان ما لحقت بها أقاليم بلغاريا الدانوبيـة التي سقطت بدورها في يد القوات الإمبراطورية البيزنطية ٠ وعلى الرغم من تينك الهزيمتين فإن أقاليم غربي بلغاريا استمرت محتفظة باستقلالها ولم تستطع جيوش البيزنطيين أن تنال منها منالاً أو إن تخضعها في هذه الفترة لأن عملية إخضاعها استوجبت خوض القوات البيزنطية ، وطوال خمسة عشر عاماً ، حرباً ضروساً ووحشية لا هوادة فيها وأخيراً حلت الهزيمة بالقوات البلغارية عند شِعْبِ سيمبالونغو Cimbalongou الواقـع على الطريق ما بين سيرّيس Serrès وميلنيك Melnik وذلك في ٢٩ تموز ١٠١٤ ٠ ولم يبق قيصر البلغار (صموئيل) على قيـد الحياة بعد هذه الهزيمة حيث تمّت وفاته في ١٥ ايلول ١٠١٤ ، تلك الوفاة التي كانت ايذانا بالقضاء على استقلال دولة بلغاريا وبصورة نهائية ٠

« واستغرقت عملية تهدئة البلغار وتنظيم إدارة بلادهم المحتلة مدة أربع سنين ٠ وقد أنجز باسيليوس الثاني تلك المهمة بحذر ونشاط محترماً الأعراف الإدارية وتقاليد وطباع الشعب البلغاري المغلوب على أمره ساعياً جهد طاقته وما وجد الى ذلك سبيلاً الى استمالة سراة البلغار كبار مُلاّك الأراضي الى جانبه ومحافظاً على التنظيم الديني القديم ٠ وهكذا ، ومرة أخرى ، وبعد فترة طويلة ، عادت الإمبراطورية البيزنطية لتفرض سيادتها مجدّداً على شبه جزيرة البلقان ٠ وحقّ لعالها باسيليوس الثاني أن يتيه خيلاء وزهوا وعن جدارة وذلك أثناء الرحلة التي قام بها الى بلاد اليونان في سنة ١٠١٩ أنه أكسب الإمبراطورية قوة كبرى كانت قد سلبتها ، أو لم تعرف لهـا نظيرا منذ عدة قرون »[1] ٠

ويعتبر عام ٩٢٧ في تاريخ البلغار عاماً حاسماً (وهو العام الذي توفي فيه القيصر شمعون في شهر مايس وتمكن فيه ابنه القيصر بطرس من توقيـع

---

(١) مجموعة التاريخ العام للشعوب المذكورة ، المطبوعة تحت اشراف ماكسيم يوتي ، المجلد ١ ، القسم ٤ ، الفصل ٨ وهو من تأليف الاستاذ شارل ديهل Charles Diehl ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ٠

معاهدة مع البيزنطيين اعترفوا فيها بالمكاسب التي حققتها بلغاريا في ثلاثين السنة الأخيرة بمعنى وصول حدود بلغاريا عامئذ مع قليل من الاختلاف الى حدود بلغاريا الحالية . لذلك فان هـذا العام يمثل فترة أوج قوة دولة بلغاريا) . ولم تتمكن بلغاريا منذ ذاك من الإفادة من الفرص والظروف المواتية التي أتاحت لها أن تقيم ولمصلحتها الوحـدة بين جميـع العناصر السلاڤية البلقانية . ثمت فإن الحضارة التي ظهرت فجأة في بلاط قيصر البلغار الجديد سيكون لها أثرها عـلى ذلك الشعب الذي كان ما يزال الى ما قبل فترة قصيرة بربرياً . فتلك الحضارة والرفاه أضعفا من القوة الهجومية لهذا الشعب العنيف . وفضلا عن ذلك فان عناصر الصرب التي كانت ما تزال حتى ذلك الوقت تتقاسمها الخصومات المتأججة بين مختلف قبائلهم فإن تلك القبائل قد انتهى بها الأمر الى الاتحاد وتحطيم النير البلغاري الذي كانت ترزح تحته . وأخيراً فإن الإمبراطورية البيزنطية التي استردت فجأة قوتها على يد باسيليوس الثاني مبيد البلغاريين ، حطمت الطوق المحكم الذي ضربه حولها البلغار وكادوا أن يخنقوها به في زمن قيصرهم شمعون .

ومع ذلك فثمة نقطة جديرة بالاهتمام والملاحظـة : وهي أن الشعب البلغاري سيكون كما في المستقبل ، نتيجة انصهار عناصر آسيوية وسلاڤية كان لها النصيب الأوفر في تكوينه ، وأن هذا الشعب سيبقى وبصورة نهائية على الرغم من مرور بلاده بفترات من الضعف ، قذى في عين البيزنطيين . كما وأن هذا الشعب سيبقى على الرغم من انهيار قوته عاملاً رئيسياً في التاريخ السياسي لأوروبة الشرقية .

ومن زوايا متعددة يمكن القول بأن المسألة الشرقية قد طرحت قضاياها ومنذ تلك الحقبة ، على بساط البحث .

الفصل الحادي عشر

استقرار العناصر المجرية (الهنغارية) (١)

كان لتقدم البلغار السريع في شبه جزيرة البلقان في عهد قيصرهم شمعون نتائج مشؤومة بالنسبة الى القضية السلاڤية . وكان السلاف يبدون في منتصف القرن التاسع العنصر المسيطر على المنطقة الواقعة ما بين نهري البروث Pruth (وهو نهر في رومانيا) والثيس Theiss (وهو نهر في هنغاريا) ، لكنهم بعد مضي نصف قرن لم تعد لهم أية سيطرة في هذه المنطقة حيث طغت عليهم وغمرتهم شعوب جديدة قدمت الى هذه المنطقة من الأطراف الشرقية للسهل الروسي الأعظم حيث فصلت السلاف الجنوبيين ، أي **اليوغوسلاف** ، عن سلاف الغرب والشمال مستقرة بدورها على تخوم دولة البلغار . وأهم هذه الشعوب هو **الشعب الهنغاري** ، هذا بالنسبة الى العامل السياسي على الأقل . وبصورة مخالفة لما قامت به بعض القبائل الآسيوية التي نجحت كنجاح هذا الشعب في شقّ طريق لها الى أقاليم حوض الدانوب لكنها لم تشتهر إلا باجتياح هذه الأقاليم وأنها أعملت فيها قتلاً وسلباً ونهباً وتدميراً ، فإن الهنغاريين عرفوا ، بعد حقبة قصيرة نسبياً اتسمت حركاتهم فيها بالعنف والقسوة بغية الوصول الى الاقاليم الألمانية والإيطالية والفرنسية ، كيف يستقرّون جيداً في حوض نهر الثيس وحوض الدانوب الأوسط حيث ما يزالون مقيمين حتى أيامنا هذه .

ومهما كانت الفترة الاولى من تاريخهم غامضة مبهمة فمن الضروري

---

(١) راجع تفاصيل أخبار الهنغاريين ، في مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة : لويس هالفين ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٧ ص ٣٢١ — ٣٣٢ .

والحالة هذه أن نستخلص منها هنا الخطوط العريضة والصفات العامة لهذا الشعب .

أولاً ــ وصول الهنفاريين : إننا نجهل وبصورة تامة مطبقة تاريخ العناصر المجرية (الهنغارية) قبل وصولها الى أوروبة . وتمكّن الدراسات العلمية التي أجراها العلماء على لغتهم ، والمعلومات الدقيقة التي بحوزتنا والمتعلقة بسحنتهم وطباعهم وتنظيمهم في أول مرة عرفوا فيها بعد أن اختلطوا بشعوب جنوبي روسيا أن نفترض أن مهدهم الأول هو آسيا بجوار وادي نهر الأوب l'Obe . ومن هنا لوحظت القرابة أو الصلة اللغوية بين لغتهم ولغات مختلف الشعوب الأورالية مما يحمل على التفكير أنهم من شِعبِ أو ممر . إيكاتيرينبورغ Iékatérinbourg (وهي حاليا مدينة سڤيردلوڤسك Sverdlovsk الروسية الواقعة في جبال الأورال حيث أعدمت العائلة القيصرية الروسية في سنة ١٩١٨ بعد الثورة الشيوعية) . إنهم وبدون أدنى شك آسيويون أقحاح وهم قصار القامة ذوو بشرة ترابية اللون وعيون غير كبيرة يحلقون دائماً شعور نواصيهم وهم خيّالة فرسان مهرة لا يستولي عليهم التعب والنّصب من بقائهم طويلاً مُسْتَمِرّين على صهوات جيادهم « ويظن ، كما قيل عنهم ، انهم ولدوا برفقة جيادهم » .

إنهم غزاة قساة القلوب كما وصفهم لنا المؤرخون البيزنطيون المعاصرون الذين تحدثوا عن الفترة التي انقضّوا فيها على أوروبة سالكين نفس الطريق التي كانت سلكتها قبلهم قبائل الهون الشرسة التي يقارنهم سكان أوروبة الغربية بها بصورة حدسية (نظراً لتشابه أعمال هؤلاء وأولئك) . ونظراً لاعتيادهم حياة القبائل الرحّل المستوطنة في السهوب الآسيوية ، فإنهم توزّعوا في سبع قبائل يجتمع رؤساؤها بالنسبة الى الظروف الخطيرة بينما تعمل كل قبيلة في الظروف العادية لحسابها الخاص . وتتألف مواردهم مما يحصلون عليه من تربية الماشية ومن الصيد البرّي والنهري مع ما يضيفونه إليها مما يستولون عليه من أسلاب وغنائم في غزواتهم التي تقودهم طراداً على جيادهم السريعة والقوية بعيداً عن مضارب خيامهم . وكانوا يخضعون

أثناء هذه الحملات أو الغزوات الى نظام قاسٍ • وكان رئيس كـل قبيلة يستعمل وحتى القرن العاشر السوط حيث يلهب بجلداته ظهور أفراد قبيلته ليطيعوه • وعند اقترابهم من العدو كانوا يمطرونه بوابل من السهام قبل أن ينقضّوا عليه • وعند ظهور الخطر يتراجعون بخفة أو رشاقة نادرة رائعة • وكانت قسوتهم أو حتى وحشيتهم متطرفة ولا حدود لهـا • ويذكر بعض الأخباريون المعاصرون أو القصّاص أنهم يأكلون ، وكقبائل الهون القديمة اللحم نيئاً وأنهم يشربون دم أعدائهم •

ذلكم هو الشعب الذي بعد أن جاب رحاباً شاسعة وقام برحلات بعيدة ظهر فجأة في الثلث الاول من القرن التاسع شرقي بحر آزوف • إنه أطلق على نفسه اسم **« المجـر** Magyars » • لكن هذا الشعب منذ أن بـدأ احتكاكه بالعناصر السلاقية وبشعوب أوروپة الغربية لقب بالشعب **« الهنغاري** Hongrois ذلك الاسم الذي بقي محتفظا به منذ ذاك •

فما هو السبب الذي حمل ذلك الشعب على مغادرة آسيا ؟ ولربما ردّ ذلك ، سواء بصورة مباشرة أم غير مباشرة الى الاضطرابات العـرقية أو الهجرات التي كانت كل من التركستان والمناطق المجاورة مسرحاً لها في القرن الثامن ، وذلك بعد الفتح الإسلامي لمناطق خراسان (شمال شرقي إيران) وما وراء النهر وبخارى وسمرقند (Bactrians et Sogdiane) •فمن المحتمل أن ذلك : سبّب هجرة هذا الشعب من منطقته • وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الشعب قد تعرض في هجرته الى بعض الصعاب حتى تمكن من شقّ طريقه نحو الجنوب الغربي • وكانت المنطقة الواقعة بين بحر قزوين ونهر الدون محتلة من قبل قبائل آسيوية أخـرى سبقت الهنغاريين الى منطقـة السهوب الروسية منذ النصف الاول من القـرن السابع : وتلك القبـائل الآسيوية هي قبائل الخزر وهي أمة قوية وغنية مؤلفة من تجار استقرت على أطراف الحوض الأدنى لنهر الڤولغا • وقد اعتنق قسم من هـذه القبائل الديانة اليهودية ، ولربما كان ذلك بتأثير الجاليات اليهودية القديمة الموجودة عند مضيق البوسفور ولا سيما على سواحله المتصلة بالبحر الأسود (شمالي

بحر آزوف) ، وكانت هذه القبائل في طبيعتها هادئة معطاء تحب أن تقري ضيوفها، كما يُتَطَلَّبُ عادة من شعب يعيش من التجارة. بيد أن ذلك لم يمنع أنها بقيت قوية عسكرياً لتتمكن من الصمود ، إذا ما دعت الحاجة الى ذلك ، في وجه هجرة وافدين جدد .

ويبدو أنه بعد مرور بعض الوقت أبرم اتفاق بين الخزر والهنغاريين ، وتمكّن هؤلاء من الاستقرار بالقرب من بحر آزوف بين حوضي نهري كوبان والدون ، لكنهم سرعان ما أجلوا عن هذه المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع على يد قبائل أخرى وصلت الى هذه المنطقة مهاجرة من سهوب آسيا الوسطى ، وهي قبائل البتشينيغ Petchénègues المنحدرة من العائلة الكبرى للقبائل التركية ، واضطر الهنغاريون ، الذين دفعهم الخزر نحو الغرب وأزاحتهم قبائل البيتشينيغ عن مناطق استقرارهم ، الى التفتيش عن مناطق أخرى لسكناهم غربي نهر الدون أولاً ثم غربي نهر الدينيبير . وكان خيّالتهم قد أوغلوا بعيداً في التقدّم نحو الغرب . ولقد غامروا في سنة ٨٦٢ حتى بالإغارة على جرمانيا للاستيلاء ، على غنائم . ثمت شوهدت قبائلهم بعيد ذلك بين حوضي الدنيبير والدنيستير حيث بدؤوا ينتشرون حتى الحوض الأعلى لنهر الفيستولا وحتى حوض الدانوب الأدنى ناشرين الذعر حيثما حلّوا مشتبكين بقوافل التجار ومحاولين تجريدهم مما يحملونه من أموال ومتاع ، معترضين ومعيقين في أية فترة تجارة حوض الدنيبير وهي طريق تجارة السويديين les Varègues الكبير (وكنا قد تحدثنا عن ذلك في فصل سابق) .

ثم اجتاز الهنغاريون في السنوات الأخيرة من القرن التاسع مرحلة جديدة على طريق هجرتهم حيث دفعتهم قبائل أخرى بعنف من خلفهم حتى وصلوا في النهاية الى ما وراء نهر بوغ Boug (يصبّ في البحر الأسود) والى ما وراء حوض نهر الدينستير بالقرب من مناطق بيسارابيا ومولداڤيا ووالاشيا (رومانيا الحالية) . ومنذ ذلك الوقت ستغدو العناصر السلاڤية المقيمة في هاتيك الربوع ضحاياهم . وسيقوم الهنغاريون بتبديد شمل القبائل السلاڤية

ودفعها الى جنوبي مجرى الدانوب أو الى الشمال من منطقة غاليسيا • وقد وصلوا في سنة ٨٩٢ حتى الى بلاد المورافيين حيث التمس ملك ألمانيا آرنولف وبصورة رعناء وغير حذرة ، أو على الأقل قبل مساعدتهم له • واجتـازت قبائلهم في سنة ٨٩٥ نهر الدانوب مغيرة على بلغاريا •

لكن قبائل البيتشينغ استمرت تدفعهم أمامها وبعنف • ففي نفس عام ٨٩٥ وفي العام الذي تلاه اضطر الهنغاريون نشداناً الى الفرار من تلقّي ضربات تلك القبائل أن يجلوا وبسرعة عن بسارابيا ومولداڤيا • ففي هـذا الظرف العصيب شوهد الهنغاريون يجتازون مع نسائهم وأولادهم ومتاعهم جبال الكرپات والآلب الترنسيلڤانية ليحطوا رحالهم في السهل الأوسط لحوضي نهر الثيس والدانوب ، حيث أمكنهم أن يتنفسوا الصعداء •

وكان هذا السهل في الواقع رهن إشارة أول محتلّ • ومنذ سقوط عناصر الآڤار الذين لم يُخلّفوا وراءهم سوى الدمار والأنقاض فإن عناصر السلاڤ انتشرت في هذا السهل لكن بدون أن تتمكن من أن تؤسس فيه دولة ما • فمن كان منهم في الأجزاء الجنوبية الشرقية لحقت غالبيتهم العظمى بالبلغار في إيغالهم في الزحف باتجاه تراقيا ومقدونية ، ومن كان منهم مستقراً في غربي ذلك السهل ــ وهم قبائل السلوڤين Slovènes التي سكنت على الضفة اليمنى لنهر الدانوب ، والقبائل السلوڤاكية Slovaques والموارڤية Moraves والتشيكية Tchèques التـي كانت ساكنة على الضفة اليسرى منـه ، كان يعوزها الانسجام ولم تتمكن من الصمود ومجابهة أطماع الألمان إلا بمشقة زائدة •

ومع ذلك فإن المورافيين كانوا من بين السلاڤ الغربيين هم وحـدهم الذين تمكنوا أن يسودوا في النصف الثاني من القـرن التاسع حيث أسس أميرهم روتيسلاڤ Rotislav (٨٤٦ ــ ٨٧٠) دولة موراڤيـا العظمى Grande Moravie التي ضمت أو رغبت في أن تضمّ جميع مناطق السلاڤ الغربيين بين جبال بوهيميا ونهر الدراڤ • كما وأنهـا نشدانا لعدم تسرّب الألمان الى منطقتها فإنهـا عهدت الى مبشّرين بيزنطيين (أي أرثوذكس)

باستئناف مهمة جعل أفراد شعبها يعتنقون النصرانية ، علماً أن مبشّرين من أوروبة الغربية (أي من الكاثوليك) كانوا قد بدؤوا هذا العمل. وقد توخّى روتيسلاف بعمله هذا نفس الهدف الذي كان يسعى اليه قبل ست أو سبع سنين خلت بوريس قيصر بلغاريا . ولو أن فكرة بوريس هي نقيض فكرة روتيسلاف لأن أولهما كان يريد أن يقوم مبشّرون من غربي أوروبة (أي من الكاثوليك) بجعل البلغار يعتنقون المسيحية الغربية تجنباً لتسرّب النفوذ البيزنطي الى بلاده . وكان جواب الإمبراطور البيزنطي ميخائيل/٣ على مبادهة الأمير الموراڤي أن أرسل إليه في سنة ٨٦١ أو في سنة ٨٦٢ المبشرين الداعيَيْن كيريلّس وميثود اللذين كنا من قبل تحدثنا بإيجاز عن مهمتهما . ولئن زوّد هذان الداعيان السلاف بالأبجدية وبالعناصر الأولى لتاريخ أدب قومي فإنهما لم يتمكنا بمقابل ذلك من تحقيق معجزة وهي أن يحملوا السلاف على التعلّق بالوحدة وعلى أن يكونوا عناصر انضباطية نظامية مما يعتبر كفيلاً بتمكينهم من ردّ هجمات الأعداء الذين سيحدقون بهم وشيكاً من كل جانب .

وكانت دولة موراڤيا منقسمة الى أحزاب وشيع ينافس بعضها بعضاً وكانت قوتها قد انهارت جزئيا على يد الألمان عندما بدأ الهنغاريون ومنذ مطلع القرن العاشر بمهاجمتها . وكان هؤلاء بعد اجتياحهم حوض نهر الثيس قد والوا زحفهم حيث وصلوا پانونيا (غربي المجر وشمالي يوغوسلاڤيا الحالية) حيث قضوا عليها القضاء المبرم .

ثانياً ــ غارات الهنغاريين على أوروپة الغربية في الربع الاول من القرن العاشر :

يظن المرء لأول وهلة أنه بعد أن احتل الهنغاريون سهلاً يعدّ حتى أيامنا هذه من أخصب المناطق الزراعية في أوروپة سيمارسون حياة الاستقرار بجميع متطلّباتها وسيخلدون الى السكينة . لكن ذلك الظن هو وهم وخيال لأن مغناه نسيان طبيعة القبائل الهنغارية التي لم تكن في يوم من أيام ماضيها شعباً زراعياً ، وانه نظراً لاعتيادها أن تعيش من السلب والنهب فسيكون من الصعب عليها مقاومة إغراء شنّ الغارات المربحة على أقاليم أوروپة الغربية

الغنية بعد أن أصبحت على أبواب تلك الأقاليم • ومهما يكن فإنه حتى قبل الانتهاء من تصفية قوات موراڤيا فان الهنغاريين بدؤوا بارتياد طرق إيطاليا وألمانيا للإغارة على مناطقها •

وكانت باكورة أعمالهم في هذا الميدان الغارة الأولى التي قاموا بها في سنة ٨٩٩ على البندقية في حوض نهو الپو Pô حيث انقضّوا على المنطقة بشكل غير منظم • ومنذ عزل ووفاة الإمبراطور شارل السمين (٨٨٧ـ٨٨٨)، كان بوسع من غدا ملـكاً على إيطاليا أن يتسلّم ويضع على رأسه التـاج الإمبراطوري • وكـان خليفة شارل السمين على عرش ألمانيا ، ابن أخيـه آرنولف ، قد وصل حتى رومـا لينازع السلطة دعيّين إيطاليين وهمـا : غي دو سپوليت Gui de Spoléte وبرانجيه دوفريول Béranger de Frioul لا بل فانه نجح أيضا في سنة ٨٩٤ في أن يُعترف به ملكاً على إيطاليا ثم إمبراطوراً في سنة ٨٩٦ لكنه مع ذلك لم يتوصّل الى القضاء على الانقسامات• ومهما يكن فإنه عاد الى ألمانيا قبل ثلاث سنين ، مريضاً حيث لم يعد متمتعاً بأي قدرة على العمل ، علماً أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره إلا منذ فترة وجيزة ، بقوّة وتصميم كما عوّدنا من قبل عندما اشتبك بقوات النورمانديين• فلجميع ما ذكر نلاحظ أن الميدان كان خالياً أمام الغزاة الهنغاريين فأخذوا يسرحون ويمرحون ويغيرون ويسلبون وينهبون دون أن يُجابهوا بأيـة قوة رادعة تكبح جماحهم فأطلقوا لميلهم الغريزي الى السلب والنهب كعناصر بدويّة رُحّل العنان • وقد استولوا على خيرات سهل لومبارديا وعلى ثروات البندقية • وبعد أن أتمّوا هذه المهمة عاد هؤلاء الغزاة أدراجهم في تموز سنة ٩٠٠ وهم مُحمّلون بالأسلاب والغنائم ليبدؤوا في شهر ايلول التـالي غارة باتجاه الشمال للإفادة من الفوضى التي ذرّت قرنها في ألمانيا عند وفاة آرنولف التي كانت حدثت في شهر كانون الاول الماضي بدون أن يترك وريثاً للعرش سوى طفـل في السادسة وهـو لويس الصغير « الولـد L'Enfant » •

وقد اشتدت وطأت غاراتهم على مقاطعة باڤاريا فتركوها خاوية عـلى

عروشها • كما لم تكن سكسونيا بأسعد حظاً من جراء غزوهم لها (في حزيران ٩٠٦) • ولم يُخَفِّف هجوم معاكس حدث في منطقة موراڤيا في سنة ٩٠٦ من وطأة وحدّة الغزو الهنغاري لألمانيا لأن نتيجته كانت هزيمة نكراء للقوات الألمانية أودت بحياة كونت (حاكم) منطقة الثغور والعواصم لويتپولد Luitpold الذي كان قائداً أعلى لقوات ولاية الثغور والعواصم الباڤارية ، كما أودت بحياة ثلاثة أساقفة وعدد من الكونتات (أي حكام المقاطعات) ، كما أزهقت أرواح قسم كبير من مقاتلة الجيش الألماني ، وكان ضرورياً أن تنسحب القوات الألمانية التي هوجمت عند حدود كل من النمسا وكارانثيا Carinthie (وهي مقاطعة في جنوبي النمسا) الى داخل ألمانيا حتى الى مجرى نهر الإينس l'Ennes تلك القوات التي كُلِّفت بتأمين الدفاع عن الأراضي الألمانية •

ومنذ ذاك أخذت الغزوات الهنغارية لألمانيا تزداد عدداً واتساعاً حيث هاجم الهنغاريون في سنة ٩٠٨ ثورانجيا وسكسونيا • واجتيحت في سنة ٩٠٩ باڤاريا وصوابيا Souabie وعاد العدو منهما مُحَمَّلا بالغنائم • ولم تعد السلطات في ألمانيا تحاول حتى اعتراض طريق العدو المغير أو إيقافه فعند إذاعة بدء غارة للعدو كان الجميع يفرّون من وجهه ويتنحّون عن طريقه ويحتمون في الأماكن المحصنة حيث ينتظرون • ومع ذلك فإن أحد الدوقات ، وهو دوق باڤاريا الشاب آرنولف وهو ابن لويتپولد حاكم منطقة الثغور والعواصم الذي سقط قتيلاً في سنة ٩٠٧ ، كان جريئاً جداً في سنة ٩٠٩ الى درجة أنه قام بقطع طريق العودة على الهنغاريين المغيرين على صوابيا عندما كانوا في طريق عودتهم محمّلين بالأسلاب والغنائم فاشتبك بهم آرنولف هذا ملحقاً بهم الهزيمة عند ضفتي نهر إين l'Inn وذلك في الثلاثين من تموز • وقد أحيا هذا النصر المؤزّر الثقة في النفوس • أما في العام التالي فإن الملك لويس ــ الذي لم يعد تماماً ذلك الولد ، لأنه بلغ السابعة عشرة من العمر ــ عقد العزم مع مستشاريه على القيام بعمل حاسم • إنه جمع جيشاً كبيراً من الصوابين والفرانكونيين والباڤاريين وظنّوا أن هذا الجيش اللجب سيلقي في

قلوب الهنغاريين الرعب. غير أن هؤلاء والوا فيالعام التالي زحفهم وقدبلغوا صوابيا ملحقين الهزيمة في ١٢ حزيران بفرق هذا الجيش اللجب ثم أبادوا ما بقي منها في اشتباك ثان بعد عشرة ايام عند حدود فرانكونيا وباڤاريا .

وغدا الهنغاريون أسياداً للموقف : وأخذت عصاباتهم المدمّرة تقطع ألمانيا من جانب الى آخر في سنوات ٩١١ و ٩١٢ و ٩١٣ . وقد شوهدت تلك القوات عند نهر إيسار l'Isar في قلب باڤاريا، كما شوهدت في ثورانجيا وفرانكونيا وصوابيا ، وشوهدت كذلك على ضفتي الراين الذي اجتازته في سنة ٩١٣ لتغير على إقليم اللورين .

وكان عدد أفراد عصاباتهم يزداد ويتضخّم أثناء الطريق بمن ينضم إليهم من عناصر جديدة . فقد انضم إليهم التشيكيون في سنة ٩١٥ وكان هؤلاء بقيادة دوقهم بوليسلاف Boleslav ، واجتازوا معهم سلسلة جبال مقاطعة فرانكونيا ، كما رافقوهم في غارتهم على ثورانجيا وصوابيا وسكسونيا . ولو أن الهنغاريين كانوا على العموم قادرين وحدهم على إنجاز هذه المهام . ولم تبق منطقة في ألمانيا لم تتعرض لغاراتهم . وقد وصلوا في سنة ٩١٧ حتى مدينة بال في سويسرا والتي أعملوا فيها سلباً ونهباً ومرّوا منها الى الألزاس ثم الى اللورين . كما انحدروا في سنة ٩١٨ في مجرى نهر الويزر Weser حتى مدينة بريم Brème التي نهبوها ثم جعلوها طعمة للنيران . أما في سنة ٩١٩ فقد اجتازوا مقاطعة ويستفاليا للانقضاض على اللوريين للمرة الثالثة .

وأخذت دائرة غاراتهم تتّسع بصورة تثير الرعب فظهروا في سنة ٩٢١ أمام أبواب بريسيا Bresia ، كما وصلوا في غاراتهم في شباط سنة ٩٢٢ الى پوي Pouille . إنهم نشروا الذعر في سكسونيا في سنة ٩٢٤ ثم انحدروا الى ايطاليا ، ثم في مملكة بورغونديا وفي إقليم اللانغدوك (في فرنسا) . وقد اجتازوا البندقية أثناء هبوب إعصار ، كما استولوا على پاڤيا في ١٢ آذار محرقين فيها أربعاً وأربعين كنيسة ووصلوا الى إقليم البيدمونت (أو الپيه مونت) ثم اجتازوا جبال الآلب وحوض نهر الإيزير l'Isère، كما

عبروا نهر الرون وظهروا فجأة أمام مدينة نيم Nîmes وسفكوا دماء سكان إقليم اللانغدوك الشرقي وجعلوه طعمة للنيران • وبعد مضي سنتين (أي في سنة ٩٢٦) أتى دور كل من باڤاريا وصوابيا وفرانكونيا والألزاس واللورين• إنهم أحرقوا مدينة ڤردان ونهبوا منطقة الآردين ، في الوقت الذي انقضت فيه بعض قبائلهم في الجنوب على شمالي إيطاليا مجتازة جبال الآپناين وناهبة إقليم طوسكانة ومهددة مدينة روما نفسها •

ثالثاً ــ الغارات الهنغارية الاخيرة ومعركة ليخ Lech : لقد بدا أنه ليس بوسع أحد ، سواء في الشمال أم في الجنوب إيقاف المد" أو الغزو الهنغاري• واستمر أمراء إيطاليا في منازعاتهم وانقساماتهم الداخلية وقتال بعضهم بعضاً أمام سمع وبصر مجتاح البلاد ، وأحيـانا بالتآمر معه بدون التوصّل الى الاتفاق حول انتقاء عاهل • وكان بعض عواهل أقاليم أو دويلات ايطاليـا يصر"ون على تولية برانجيه فريول ، بينما أيّد آخرون وبصورة دورية إما تنصيب الأميرالكارولنجي لويس ملك مقاطعةپروڤانس أو الدوقالپروڤانسالي هوغ ، أو تولية ملك بورغونديا رودولف الثالث • ومن المسلّم بـه أن الفوضى بلغت ذروتها • ولم تكن ظروف فرنسا الداخلية أحسن حالا" • فمنذ عزل شارل السمين فيسنة٨٨٧احتدمالنزاع بينأنصار وخصوم الكارولنجيين• وكان الملك شارل البسيط أو الساذج حفيد شارل الأصلع منهمكا وبصورة كلية في ضرورة حماية عرشه ضد أفراد أسرة روبرت القوي ، الذي كان مركيزاً لمقاطعة نوستريا في زمن جده • وأخيراً فإن تجزئة ولايات الدولة في ألمانيا استمرت وزادت حد"تها بصورة كبيرة طيلة الربع الأول من القرن العاشــر •

ولاستحالة إيجاد وريث كارولنجي حتى ولو كان ابناً طبيعياً (أي غير شرعي) فإنهم اضطروا عند وفاة لويس الطفل في سنة ٩١١ الى إيساد العرش وتسليم التاج الملكي الى دوق (حاكم مقاطعة) عادي هوكونراد Conrad حاكم فرانكونيا الذي لم يتمكن أن يفرض طاعته على أمراء باقي المقاطعات ولا أن يفصم عرا الوحدة بين مختلف ولايات المملكة • وهكذا فقدت الملكية

في ألمانيا اعتبارها ونفوذها بصورة تدريجية . وعند تعيين هنري دوق سكسونيا ليخلف كونراد في الملك ، علماً أنه كان عدوه اللدود ، فإن الأمراء المتمتعين بحقّ انتخاب العاهل قد عمدوا الى إجراء لم يشترك فيه ولم يقرّه كل من الباڤاريين والصوابيين وسكان اللورين لدرجة أن الملك سيشعر أنه معزول منزو ولا يتمتع بأي سلطة خارج دوقيّته نفسها وخارج نطاق ولاية سلفه في المنصب .

وعلى الرغم من ذلك فقد فترت وتباطأت ، في الفترة ما بين ٩٢٦ ــ ٩٣٣ ، حدّة غزوات الهنغاريين بوضوح . لا بل فإنها توقفت بصورة شبه تامة حيث نجح آرنولف دوق باڤاريا وهنري ملك سكسونيا ، ومقابل دفعهما أتاوة مالية في جعل الغزاة يغادرون بلاد كليهما ، كما أبرم كل منهما مع الهنغاريين هدنة لعدة سنين مقابل تسديده جزية سنوية لهم . وقد أفاد هنري من فترة الراحة هذه لينظم المقاومة راغباً في تأليف جيوش صغيرة حسنة التمرين وتشييد مدن وقلاع محصنة في مناطق بلاده المعرّضة وبنسبة أكثر من غيرها لخطر العدو . وتبعا لذلك فإنه عندما استأنف الهنغاريون غاراتهم بصورة مفاجئة في سنة ٩٣٣ فإن سكسونيا لم تكتو في بادىء الأمر بنار تلك الغارات ولم تصب بالدمار . على حين عادت المشاهد المروّعة والمآسي السابقة الى الأقاليم الأخرى .

وعادت مناطق إيطاليا الشمالية في سنة ٩٣٥ وبورغونديا لتكون ضحية لعنف وقسوة وسلب ونهب خيّالة العناصر المجرية (الهنغارية) . وأغار الهنغاريون في سنة ٩٣٧ على عدد كبير من المناطق هي : باڤاريا وصوابيا وفرانكونيا واللورين وشامپانيا وبيري Berry وبورغونديا ومنطقة جبال الآلب والپيدمونت ولومبارديا الغربية وطوسكانة وولايات كثيرة أخرى . وكان الهنغاريون في جميع تلك المناطق ينهبون ويقتلون ويحرقون دونما هوادة وبدون أن ترتوي غرائزهم الجشعة المدمرة . وأخيراً فإنهم أغاروا على سكسونيا نفسها حيث كان الملك هنري قد توفي في ٢ تموز ٩٣٦ وكان على أبنه أوتون Otton بذل قصارى جهده لتوطيد سلطته في وسط الثورات

التي اندلعت من كل جانب مما مكّن الهنغاريين من شقّ طريقهم في هـذه المقاطعة والنجاح في الوصول الى ويستفاليا (في آب ٩٣٨) .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد بدا واضحاً أن غارات الهنغاريين لم تعد تترى ويتوالى بعضها إثر بعض وأنها صارت تتمّ بعنف أقلّ ، وأن مقاومة قوات البلاد التي كانوا يغيرون عليها قد زادت بصورة تدريجية . ولم يشر الى أية غارة هنغارية بين خريف سنة ٩٣٨ وسنة ٩٤٢ أو سنة ٩٤٣ حيث من المحتمل أن تكون بعض القوات الهنغارية قد وصلت في هذه السنة الأخيرة حتى أبواب روما ، بينما صُدّت غاراتها في الشمال وفي العام نفسه عند مدينة ويل Wels داخل الحدود الباڤارية . وتمكن هؤلاء المغيرون في سنة ٩٤٧ من قطع كل إيطاليا من الشمال الى الجنوب ، لكنهم عبثاً ما حاولوا في سنوات ٩٤٨ و ٩٤٩ و ٩٥٠ وفي ثلاث محاولات أن يجتاحوا باڤاريا حيث ردّهم عنها الدوق الجديد هنري أخو الملك أوتون على أعقابهم واستمر يطاردهم حتى دخلوا إيطاليا . وقد استشاط الهنغاريون غيظاً لملاحظتهم أن طريق المانيا قد أوصدت في وجوههم فصبّوا جام غضبهم على لومبارديا (شمالي ايطاليا) ثم بعد اجتيازهم جبال الآلب على بورغونديا وآكيتانيا (في فرنسا) حيث قضوا صيف سنة ٩٥١ .

ثم عادت غاراتهم على ألمانيا لتنشط من جديد وبصورة مفاجئة بعد ثلاثة أعوام . فبما أن الثورة قد تأرّثت في ألمانيا فإن كتلة كبيرة جداً من الخيالة الهنغاريين تمكنت من اختراق حدود باڤاريا في شباط ٩٥٤ وأن تجتاح فرانكونيا وأن تجتاز نهر الراين عند مدينة وورمز وأن تنهب اللورين وأن تصل أخيراً الى ضواحي كامبريه مارّة بمدن ومقاطعات كثيرة .

وكانت التجربة مفيدة بالنسبة الى الهنغاريين لوقوفهم على الصعاب المحدقة بالملكية الجرمانية مما شجعهم على استئناف الكرّة فمضوا ومنذ حزيران ٩٥٥ على طريق الشمال ، وكانت أعدادهم هذه المرة لا حصر لها الى درجة أن القصّاص أو المؤرخين المعاصرين اعتقدوا أنه لا قبل لأحد بتلك الجموع الزاخرة أو السيل الجارف . وعلى الرغم من ذلك فان ملك باڤاريا

أوتون قدّر خطورة الموقف فعمد بحزم واصرار الى قمع الثورة الداخلية التي كانت تُكبّل يديه وتشلّ حركاته وجمع جيشاً لجباً وزحف على رأسه الى أوغسبورغ حيث اصطدم بالهنغاريين على ضفتي نهر الليـخ وأمكنه وفي العاشر من آب ٩٥٥ أن يحرز عليهم نصراً مبنيا الى درجة أن الهنغاريين أنفسهم وبعد أن انفرط عقد جماعتهم وتدنّت روحهم المعنوية لم يروا أمامهم من سبيل وحتى في بلادهم نفسها من الفرار فأخذت فالتّهم تتراجع وبصورة عشوائية وبسرعة وكان تراجعهم بمثابة كارثة .

رابعاً ـ أصول الدولة الهنغارية :وكانت تلك المرة آخر محاولاتهم لاجتياز النطاق أو السياج الذي أقامته أوروپة الغربية لصدّهم : لقد غدت ألمانيا موصدة في وجههم ، وكذلك الحال بالنسبة الى شمالي إيطاليا ، حيث كان ملك جرمانيا أوتون بدأ يتدخّل في شؤونها ومنذ سنة ٩٥١ وخاصة في سنة ٩٥٢ عندما أقام ولمصلحة باڤاريا ولاية من ولايات الثغور أو العواصم (أي ولاية حدود) دعاها ولاية ثغري ڤيرونا وآكيلية وهي بمثابة جبهة عريضة للدفاع تصل جنوبي ألمانيا ببحر الأدرياتيك .

ومع ذلك فقد استمر حرص الهنغاريين على الحصول على الغنائم وعلى زيادة ممتلكاتهم من جهة الشرق حيث كثيرا ما حاولوا ، وخاصة في سنتي ٩٣٤ و ٩٤٣ بلوغ تراقيا والبوسفور وسوف لن يدخروا وسعاً في تنفيذ هذا المشروع ، وستجد الإمبراطورية البيزنطية نفسها مضطرة لأن تحسب حسابهم .

أما بالنسبة الى سواد الشعب الهنغاري فإن عهـد الغارات على البلاد المجاورة قد ولّى الى غير رجعة . وهذا الشعب الذي كان مثله الأعـلى وحتى إلى ما قبل فترة وجيزة جداً حياة الترحال والغزو التي ألفها في مهاده الأولى في منطقة السهوب الآسيوية ، فإنه لم يـُعتّم أن ألف وبصورة تدريجية حياة الاستقرار التي يعيشها الفـلاح المتعلّق بأرضه وقريته . وإن التنظيم العسكري البحت الذي عرفه حتى ذلك الوقت سرعان ما أبدل بتنظيم سياسي. وبعد قليل ستلد الـدولة الهنغارية وسترى النـور ولن يتأخّر انتشار

الحضارة الأوروبية في مختلف أرجائها .

ولم يتمّ هذا التحوّل الجذري في يوم واحد، لكن من المؤكد أن الهنغاريين أظهروا مرونة تسترعي الانتباه كي يكيّفوا نفوسهم مع واقعهم الجديد أي مع ذلك النمط الجديد من الحياة الذي لمّا يكونوا قد ألفوه بعد ، ذلك النمط الذي كانت العناصر السلاقية التي سبقتهم الى سكنى البقاع التي مرّوا بها أو استقروا فيها قد سبقت الى جعلهم يألفونه ويحتكّون به .

وقد ساعد جوارهم لألمانيا في جعلهم يتمثلون نظام حياتهم الجديد ويتعلقون به . وعلى الرغم من كل ذلك فانهم عارضوا وبإصرار وعناد محاولات ((**جرمنتهم**)) . وستوفد ألمانيا اليهم ومنذ سنة ٩٧٠ أو حوالي ذلك العام مبشّرين مسيحيين . وسيحاول أسقف پاسو واسمه پيلغريم Pligrim أن يؤسس في ربوعهم وفي سنة ٩٧٣ ، وفي ظل السيادة الألمانية ، كنيسة هنغارية خاضعة لأبرشيته . لكن دوق الهنغاريين ، وهو جيزا Géza والذي كان جمّ النشاط قد عرف كيف يحبط خطة الألمان بأن قرّر أن يقوم هو نفسه بحمل شعبه على اعتناق النصرانية .

آتت تلك السياسة الحازمة والحكيمة أكلها . ولم يكن جيزا حتى ذلك الوقت سوى زعيم لشعب قد زاد عدد أفراده وبنسبة قليلة وسيبقى من زوايا عديدة بربرياً قحّاً . بينما كان ڤايك Vaïk ابنه (وقد حكم بين سنتي ٩٩٧ ــ ١٠٣٨) رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وكان هذا الابن قد عمّد منذ بلوغه العاشرة في سنة ٩٨٥ تحت اسم إيتيين Etienne وسيكون مسيحيا حقا مشبعا بالإيمان والحماس الى درجة أن الكنيسة قد جعلت منه قدّيسا . ويعود اليه وحده الفضل وليس الى أي شخص آخر في تزويد الكنيسة الهنغارية بتنظيم جعلها تتمتع باستقلال ذاتي كما حلم بذلك جيزا نفسه ، وأسوة بما قد تمّ قبل قرن مضى بالنسبة الى الكنيسة البلغارية في عهد كل من القيصرين بوريس وشمعون . وجعلت الكنيسة الهنغارية في ظل هذا التنظيم تحت إدارة رجال من الإكليروس انتقوا بعناية زائدة وكانوا قد تخرّجوا في بوهيميا من مدرسة آدالبرت مطران مدينة براغ .

كما تدين هنغاريا أيضاً الى ڤايك (أي الى إيتيين) بتنظيمها الإداري الذي كان منطلقه تقسيمها الى كونتيات أو كوميتاس Comitas تخضع كل منها الى سلطة كونت أو إيسبان Ispan (والاشتقاق من الكلمة السلاڤية ظوپان Zoupan) ويوجد على رأس هذا التنظيم بلاط يضمّ كبار الضباط على غرار بلاط ملوك جرمانيا • ولم يستغرب أحد ما قام به عاهل الدولة الجديدة منذ سنة ١٠٠١ • ورغبة منه في أن يؤكد للعالم أجمع المدى الحقيقي للسلطة التي يتمتع بها فانه قام بوضع التاج الملكي على رأسه ذلك التاج الذي باركه الحبر الأعظم سيلفستر الثاني ، مما اعتبر رمزاً حسيّاً ملموساً للانضمام النهائي للشعب الهنغاري الى صفّ الأمم المتحضرة •

الفصل الثاني عشر

أوتون الكبير واحياء الامبراطورية الغربية

لم يضع النصر الذي أحرزه ملك ألمانيا أوتون على الهنغاريين سنة ٩٥٥ في ليخفيلد حداً لتلك الاجتياحات الهنغارية المروّعة فحسب إنما رسّخ ووطّد دعائم سلطة هذا الملك المنتصر بصورة جذرية حاسمة . وغدا أوتون بفضل هذا النصر المبين وبصورة لا يرقى الشك إليها أول عاهل في أوروپة . هذا بينما كانت لهذا النصر نتيجة غير مباشرة تتعلق بألمانيا نفسها التي كانت الى ما قبل نصف قرن مجزّأة ويخيّم عليها جوّ من الفوضى وكانت محتقرة مزدارة من قبل دول أوروپة فاذا بها ، وبين عشية وضحاها ، دعيت الى قيادة شعوب وأمم أوروپة الغربية وتزعّمها وترؤّسها . وبينما كانت فرنسا ماضية على طريق الانهيار والدمار وتفكّك الأوصال ، فان ألمانيا صحت من رقدتها ونهضت من كبوتها لتغدو وبصورة فعلية مركز وحاضرة الامبراطورية الكارولنجية التي أحييت مجدّداً والتي ستبقى طيلة ثمانية قرون على قيد الحياة دونما حاجة الى دعم أو سند خارجي .

وستكون هذه الامبراطورية التي نفخت فيها الروح مرّة أخرى وجدّد شبابها بمثابة الدرع الواقية لأوروپة ، وستصان بفضلها الحضارة مرّة أخرى . وقد ذكر المؤرخون أنه لئن أطلق على القرن التاسع لقب عصر شرلمان فليس من المبالغة في شيء أن ندعو القرن العاشر عصر أوتون العظيم .

وقد اختلف المؤرخون في تقدير أهمية النصر المبين الذي أحرزه أوتون الاول في ليخفيلد سنة ٩٥٥ على الهنغاريين فثمة **أولا رأي الاستاذ اويس هالفين** الذي ذكر أن نتائج هذا النصر يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ **ترسيخ السلطة الملكية التي مارسها هذا العاهل ؛**

٢ ـ **ترسيخ وتعميق جذور توحيد ألمانيا**(تلك المهمة التي كان أبوه هنري الأول ، والذي كان في الأصل دوقاً لإقليم سكسونيا في ألمانيا قـد حرص على تحقيقها) •

٣ ـ **تمكين ألمانيا ـ الموحّدة ـ من احتلال مركز الصدارة في أوروبـة** لا سيما بعد انهيار الإمبراطورية الكارولنجية في فرنسا • وقد ساعدت كل تلك النتائج أوتون ومكّنته من إحياء الامبراطورية[1] •

وعلى الرغم مما في هذا الرأي من نصيب كبير من الصحة فاننا نرى أنه كان لنجاح هنري الأول وابنه أوتون في تخضيد شوكة ثلاثة عواهل مقاطعات ألمانيا الرئيسية الباقية ، وهي : باڤاريا وصوابيا وفرانكونيا ، بالإضافة الى إجبار معارضي توطيد سلطان الأسرة الحاكمة في سكسونيا وهي أسرة أوتون نفسه (وكان على رأس هؤلاء المعارضين ، ومنذ الفترة التي أعقبت تتويج أوتون ملكاً في صيف سنة ٩٣٦ هنري أخوه الذي اشترك في سنة ٩٣٨ في ثورة عواهل الولايات الألمانية ضد أخيه) أثر أكبر ، وذلك لان إجبار أوتون أعداءه في ألمانيا نفسها (بدون استثناء أخيه عينه) على الخلود الى السكينة والخضوع إلى سلطته هو في زعمنا السبب الرئيسي الذي مكّن أوتون من إحياء الإمبراطورية •

ولا ريب في أنه لو لم يتمكن أوتون من توحيد جميع مقاطعات ألمانيا ، بما في ذلك إقليم اللورين ، في ظل سيطرته لما استطاع مجابهة قوات الهنغاريين من حيث أن أوتون يدين بنجاحه في هذه المهمة الاخيرة الى وقوف قوات مختلف مقاطعات ألمانيا من ورائه صفاً واحداً • فكيف سيقفون من ورائه مساندين وشادّين أزره ، على الرغم من عدائهم السابق له ، لو لم يكن قد أخضعهم وضمّهم الى جانبه • وهكذا فاننا نرى أن نجاح أوتون فـي القضاء على مقاومة خصومه ، وعلى الصعيد الداخلي في ألمانيا نفسها ، وحتى

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٣٣ .

داخل دوقيته سكسونيا ذاتها ، هو الذي أتاح له أن يصدّ وبنجاح ، لا بل أن يلحق الهزيمة بالهنغاريين . لذا فالفضل في إحياء أوتون الامبراطورية لا يعود الى نصره في ليخ فيلد سنة ٩٥٥ انما الى الانتصارات المتوالية التي كان أحرزها على خصومه ومنافسيه الالمان أنفسهم وحتى منذ سنة ٩٣٨ .

هذا ويجب ألا تفوتنا الاشارة الى مغالاة بعض المؤرخين في تقدير أهمية نصر ليخ فيلد الآنف الذكر حيث وجدوا أنه يعادل في أهميته معركة بلاط الشهداء (پواتييه) . وأنه كما أوقف انتصار شارل مارتل في پواتييه المدّ الاسلامي وأرجعه عن غربي أوروپة ، فان نصر أوتون سنة ٩٥٥ أوقف كذلك المدّ الهنغاري وحال بين القوات المجرية وبين موالاتها الزحف على غربي أوروپة .

إننا في هذا الاطار نشارك الاستاذ أوغوستان فليش A. Fliche، الاستاذ في جامعة مونپيلييه (في فرنسا) رأيه بصدد ذلك ، كما نشاركه رأيه في أن نصر ليخ فيلد في ٩٥٥ جعل معاصري أوتون من الاوروبيين ولا سيما في غربي أوروپة يشعرون أن هنالك شيئاً بالغ الخطورة والاهمية قد حدث مما أسهم في زيادة نفوذ ألمانيا . وأنه كما كانت معركة پواتييه اللبنة الاولى في بناء الامبراطورية الكارولنجية لمصلحة شرلمان ، فان معركة ليخ فيلد كانت المنطلق الى إحياء الامبراطورية لمصلحة أوتون الاول .

لقد أورد المؤرخ بصدد ذلك ما نصه : « لقد لاحظ بعض المؤرخين الكثير من أوجه الشبه بين معركتي ليخ وپواتييه . ولربما كان في ذلك بعض المغالاة. ومع ذلك فانه يجب ألا نجرّد النصر الذي أحرزه أوتون من أهمية من حيث أنه بانزاله هزيمة لم يعرف لها شبيه من قبل بالبرابرة الذين كثيراً ما مرّغوا سمعة كل من ألمانيا وايطاليا وفرنسا في الوحل حينما بدا عجز سلطاتها عن الحيلولة دون قيامهم بقتل سكان تلك البلاد وتدميرها وسلبها بجشع مفرط . وقد أدى أوتون بنصره على أولئك البرابرة خدمة بالغة الاهمية الى بلاد غربي أوروپة المسيحية . وظهر لدى المعاصرين شعور بأن ثمة شيئا عظيما قد تمّ وقوعه أمام أسوار أوغسبورغ (أي معركة ليخ فيلد نفسها) على يد

ملك جرمانيا الذي ازداد نفوذه وبصورة ملموسة . ولئن كانت معركة پواتييه الخطوة الاولى نحو توحيد الامبراطورية لصالح شرلمان ، فان معركة ليخفيلد كانت بصورة لايرقى الشك اليها مقدمة لحصول أوتون العظيم على التاج الامبراطوري »[1] .

إحياء السلطة الملكية في المانيا[2] : لقد سبق إحياء الامبراطورية الغربية الذي كان الحادث الرئيسي بالنسبة الى القرن العاشر إحياء آخر لم يكن إحياء الامبراطورية ليتحقق بدونه : انه إفاقــة وتوطيد السلطة الملكية في ألمانيا . وقد ترك الكارولنجيون الأواخر ، وأول وريث لهم هو كونراد الفرانكوني ، البلاد في حالة انحلال زائد . ونظراً لأنهم لم يتمكنوا وحتى هذه الآونة من خلق شعور قومي مشترك منذ انفصالهم في منتصف القرن التاسع عن باقي مناطق الفرنجة فانهم سرعان ما وقعوا فريسة للتقسيم أو التجزئة القديمة الاولى بمجرد وهن وضعف السلطة الملكية . غير أن المجموعات القديمة للقبائل التي كان بعضها مشدوداً الى بعض برباطات متينة فانها وان أخذت في النصف الاول من القرن التاسع تتجه وبخطاً وئيدة نحو الانصهار والوحدة ، فانها سلكت وبدون أن تشعر طريقا معاكساً حتى منذ فترة حكم لويس الجرماني (٨٤٠ ــ ٨٧٦) . وقد ظهرت في داخل المملكة الالمانية دول حقيقية لها طابعها الجنسي (أو شخصيتها) القوي المميّز ، ولكل منها أخلاقها وتقاليدها القومية ولهجتها المحلية وقانونها الخاص ورئيسها : وهو ذلك الشخص الذي لم يطلق عليه سوى لقب متواضــع هــو : **الدوق** ، ولو أن سلوكه كان وبصورة واقعية سلوك العاهل المستقل ذي السيادة .

ففي الشمال ، وحتى تخوم الدانيمرك والبلاد السلافية كانت توجــد سكسونيا ، تلك المقاطعة التي لم يتمكن شرلمان نفسه إلا بمشقة زائــدة

---

(١) أوغوستان فليش ، مجموعة غلوتز المذكورة عن تاريخ العصور الوسطى ، المجلد ٢ ، القسم ١ ، الفصل ٦ ، ص ١٥١ .

(٢) راجع من أجــل تفصيل ذلك : لويس هــالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٣٤ ــ ٣٤٠ .

من نشر الحضارة بين ربوعها . وكانت الوثنية ما تزال موجودة في بعض أرجائها . كما كانت تسترعي انتباه المفكرين الحذرين بقسوة طباع أفرادها المتطرفة وبالطابع الجامد غير المتطور لحياتها السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . ودانت ثورانجيا المتاخمة بحدودها الجنوبية الشرقية لسكسونيا لحكم هذه الاخيرة . أما باڤاريا فقد حكمت من قبل أسرة حاكمة من الادواق القوميين الذين كانوا يطلقون على أنفسهم وبخيلاء وصلف لقب : « أدواق باڤاريا بفضل الله » ، والذين لم يكونوا يأبهون كثيراً بملك جرمانيا الى درجة أن عدم الاكتراث به بلغ بهم الحدّ الذي جعلهم يحذفون أية إشارة الى سنيّ حكمه ، أي عهده ، من وثائقهم الرسمية . وكانوا يُعَيِّنون بأنفسهم وبطريقة مباشرة وبدون أي تدخل خارجي أساقفة دوقيتهم ، ويتصرفون كأسياد بممتلكات الكنائس ، ويضربون السكة بأسمائهم ولهم سياستهم الشخصية ، يقومون بالحرب أو يقرّون السلام كما يحلو لهم بدون أي اكتراث بالمصلحة العليا للملكية .

وكان الشعب الآلاماني أو « الصوابي Souabe » المقيم في المنطقة الواقعة بين حوض الدانوب الاعلى وقبل فم الليخ (أي قبل نقطة التقاء الدانوب برافده الليخ Lech) وفي حوضي الراين الاعلى والاوسط وحتى الى خروج النهر من سهل الألزاس . فهذا الشعب الصوابي (الآلاماني) قد بدأ في أن يكون له طابعه الخاص الذي يميّزه عن غيره . ونصب هذا الشعب على نفسه دوقاً عرف كزميله الباڤاري أن يتصرّف بالاملاك الاميرية (أي الاملاك العامة) ، وأن يتصرف كذلك بحرية بالاسقفيات وبالأديرة وبالاملاك الكنسية، هذا فضلا عن استقلاله التام المطلق في علائقه بالشعوب المجاورة .

والى جانب جميع هؤلاء كان الفرنجة الشرقيون الذين يدعون بالفرانكونيين Franconiens يعيشون بدورهم مميزين عن الصوابيين والباڤاريين والسكسونيين وقد غدوا منعزلين في وسط جميع تلك الشعوب في كل من مناطق الپالاتينات وهيس وسهل فرانكونيا الذي مازال يذَكّرنا بالشعب الذي كان مستقرا في رحابه . ومع أن هذا الشعب عاش آنئذ في أغنى منطقة جرمانية فانه لم

يعد العنصر المسيطر على جرمانيا والمدير لشؤونها انما صار له ومنذ مطلع القرن العاشر وأسوة بالمناطق السالفة الذكر دوقه الخاص •

ومما يجدر التنويه به أنه فُكِّرَ سنة ٩١١ لدن وفاة آخر أمير كارولنجي أن من الانسب منح التاج الملكي الى دوق فرانكونيا هذا ، والذي وان لم يكن من أنسال شرلمان المباشرين فانه على الاقل منحدر من أرومته أي من أصله (لانهما فرنجيان) ، مما ينهض دليلا على أنهم كانوا إذ ذاك في المنطقة المطلّة على الضفة اليمنى للراين بعيدين جداً عن مفهوم التعبير الحديث وهو « الشعب الجرماني » •

وهناك كذلك منطقة مأهولة بعناصر من الفرنجة وهي **لوثارنجيا** Lotharingia أو اللورين ، واسمها مشتق من اسم أحد أمرائها وهو لوثير الثاني حفيد لويس التقي ، انها تمتد بين مصبي نهر الراين والإيسكو وجبال القوج وأعالي نهر الموز • وظهر في اللورين هذه مايشبه القومية الجديدة ستتطور في أطر دولة مؤلّفَة أحياناً ملكية حقيقية وأحياناً أخرى دوقية كثيراً ما كان ملك فرنسا يخاصم من أجلها ملك جرمانيا ، وغالباً ما كان ينتزعها من السيطرة النظرية التي كان يمارسها عليها هذا الاخير •

فيبدو أنه في ألمانيا المجزأة بهذه الصورة لم يعد لوريث الملوك الكارولنجيين دور ليقوم به • ومع ذلك فقد كنا نشهد في القرن العاشر ، في الفترة التي سبقت معركة ليخ ، أن أفراد الاسرة السكسونية الملكية الحاكمة الجديدة أخذوا يستردون باصرار وعناد انما ببطء السلطة الملكية التي كانت قد انهارت • وتمّ هذا الاسترداد بصورة جزئية وعلى مراحل طيلة النصف الاول من القرن نفسه • ومما يبدو غريباً أن سكسونيا التي كانت وحتى هذه الفترة مضرب المثل على سيادة الفوضى بين ربوعها هي التي أخذت على عاتقها بعد وفاة كونراد دوق فرانكونيا (سنة ٩١٨) مهمة القضاء على الفوضى التي ضربت أطنابها في جميع ربوع ألمانيا • وقد انتخب الفرانكونيون والسكسونيون دوق سكسونيا هنري الذي عقد العزم على أن يعيد للّقب الملكي قيمته وأهميته وبهاءه ، والذي كان حتى الى ما قبل انتخابه ملكا

خصماً لدوداً للفكرة الملكية فلما تم انتخابه (من قبل الفرانكونيين والسكسونيين فحسب) غدا فجأة فارس الملكية المعلم وبطلها المغوار والمدافع عنها بحماس وإصرار •

وعلى الرغم من ذلك فانه لم يتمكن في عهده ، وعلى صعيد الواقع ، من تحقيق سوى قسم من آرائه ورغباته : إنه لم يتمكن من التدخل في شؤون فرانكونيا ، واقتصر ما حصل عليه من صوابيا بعد ارساله حملة عسكرية قوية على يمين الولاء الذي أدّاه دوقها وارجاع الاملاك الاميرية الموجودة في مقاطعته والتي كان قد اغتصبها ، كما حصل على شيء بالغ الاهمية وهو حقه في التصرّف (أي تعيين) الأساقفة لأبرشيات صوابيا • أما بالنسبة الى باڤاريا فان الملك هنري المنتخب قاد حملة عسكرية هدّدت في سنة ٩٢١ دوقها آرنولف في عقر داره حيث هاجمته في عاصمته راتيسبونة ، فاضطر دوق باڤاريا الى الاعتراف بالسلطة العليا للملك هنري والتعهد بتلبية الدعوات التي يوجهها اليه سواء من أجل حضور الاجتماعات التي ستعقد ، أم من أجل الإسهام بقواته في الحملات العسكرية التي يتقرر توجيهها ، ولو أن هذا التعهد بقي نظرياً فقط • وأخيراً اقتصر النجاح الذي أحرزه الملك هنري بالنسبة الى اللورين على انتزاع هذا الاقليم من ملك فرنسا وجعل دوق اللورين جيلبرت يقسم سنة ٩٢٥ نفس يمين الولاء والطاعة الذي كان الملك هنري حصل عليه من دوق صوابيا ودوق باڤاريا •

لم يكن ما حصل عليه الملك هنري من أدواق فرانكونيا وصوابيا وبافاريا واللورين شيئاً رئيسياً لكننا نقدره حق قدره ان تذكرنا أنه كان في الوقت نفسه مضطراً الى خوض قتال مرير ضد العصابات الهنغارية للحفاظ على أراضي دوقيته سكسونيا نفسها ، وقد تعرّضنا في الفصل السابق الى غاراتها الخطرة ، وضد الشعوب السلاڤية المستقرة في مناطق الضفة اليمنى لنهر الإلب ، والتي كانت تنتظر سنوح أقل فرصة للانقضاض على الاقاليم المجاورة ونهبها •

ومهما يكن فان وضعية سكسونيا قد تحسنت بشكل ملموس وان أسرتها

الحاكمة قد رسّخت جذور قوتها الى درجة أنه عند وفاة الملك هنري في سنة ٩٣٦ فان أدواق ألمانيا انتخبوا ابنه أوتون ليخلفه في المنصب ، ذلك الشاب الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره والذي لم يكن له مزيّة سوى أنه ابن للملك الراحل هنري . وفعلا قد تم انتخابه من قبل الامراء الالمان حتى بدون مناقشة استجابة للرغبة التي أبداها ابوه الملك الراحل قبل عدة أسابيع . ومما كان ذا دلالة أيضاً ، أنه بعيد انتخاب أوتون فان وفداً هاماً مؤلفاً من أمراء وأسياد قَبِلَ التوجّه الى مدينة آخن عاصمة الكارولنجيين القديمة لإبرام وإقرار انتخاب أوتون من قبل الناخبين الاولين (دوقات المقاطعات الآنفة الذكر) ، وأنه بعد حضور الجميع الحفل الديني لتنصيب أوتون ملكاً فان كلاً من أدواق اللورين وفرانكونيا وباڤاريا وصوابيا أعلنوا على رؤوس الاشهاد احترامهم وولاءهم لأوتون بصورة لا لبس فيها ولا غموض ، ثمت فانهم قبلوا ، أثناء الاحتفالات التي جرت بعد حفل التنصيب والتتويج الديني القيام بمهام : رئيس حُجّاب ، ورئيس خدم ، وساقي الملك ورئيس الاسطبل الملكي تلك المناصب الاربعة القديمة التي أعادها أوتون من جديد منذ شهر آب ٩٣٦ .

لم يكن ذلك سوى بداية لمحاولة أوتون توطيد حكمه : فبتصميم يستدعي الاعجاب اهتم أوتون وبدون بطء ، وعلى الرغم من الصعاب التي قد تثيرها في وجهه القبائل البربرية السلاڤية والهنغارية المرابطة على الحدود ، بالحصول على ما يترتب على حفلة تنصيبه في مدينة آخن من نتائج أولية منطقية اعتقد أنه يجب أن تنجم عنه . ونظراً لانه صار يعتبر الأدواق (حكام المقاطعات) مساعدي الملك ومرؤوسيه فانه عقد العزم على ألا تكون السلطة الملكية وهمية في الدوقيات . وقد رأيناه تبعاً لذلك وبعد مرور أقل من عام على تتويجه يطلب في تموز ٩٣٧ عند وفاة الدوق آرنولف حاكم باڤاريا من وريث هذا الاخير ليس فقط يمين الولاء إنما التنازل عن حقه في تعيين أساقفة منطقته ولربما أيضا التنازل عن تعيين الكونتات (رأينا أنهم ممثلو السلطة المركزية في المقاطعات التابعة للدولة) . وعندما رفض ابن آرنولف المتوفى تنفيذ

ما طلب منه وأبدى مقاومة فان أوتون تغلّب عليه وعزله وأبدله ببرتولد Bertold أخي الملك المتوفى الذي غدا دوقاً لباڤاريا بفضل الملك وليس كما كان يقال سابقا « بفضل الله » .ثمت فان أملاك الكارولنجيين الاميرية (الملكية) الموجودة في كل دوقية والتي كان دوق كل مقاطعة مستولياً عليها . فهذه الاملاك عادت لترتبط مجدداً بالتاج الملكي وتكون من حقّه . وقد عيّن موظف دعي كونتاً أو ممثلا للقصر في كل دوقية بجانب موظفي الدوق حاكم المقاطعة لادارة هذه الاملاك وللسهر على مصالح العاهل ، وقد أنجز أوتون كل هذه الامور بسرعة وعزيمة لدرجة أنه كان يكفي أن يبدو على رأس قواته في اقليم ما فلا يعود أحد يفكر بالثورة أو الخروج عليه .

لم يتوقف أوتون عند هذا الحد . إنه لم يأل جهداً وبعناد في أن يضعف الاستقلال الذاتي لباڤاريا متخذاً من أجل تحقيق ذلك وسيلة أو أسلوباً سنراه يطبقه في المناطق الاخرى ، فقد أفاد في سنة ٩٤٧ من وفاة برتولد وأن ابنه قاصر ليعين دوقاً على باڤاريا أخاه هنري السكسوني (وهو أخو الملك وكان قد ثار على أخيه أوتون فأحب هذا الاخير أن يتألّفه ويستميله) وقد جعله في الوقت نفسه يتزوج من ابنة المرحوم الدوق آرنولف .

كما لجأ في فرانكونيا الى تدبير أشد عمقاً وجذرية أيضا . ان هذه الدوقية التي كانت وكراً للمؤامرات وفي حالة اضطراب مستمر والمتاخمة لسكسونيا وملحقها ثورانجيا لا يمكن أن تبقى بدون أن تتعرّض الملكية الى كارثة . وقد بدأ أميرها سنة ٩٣٩ بالثورة التي هدأت في أول الامر من جرّاء النصر الذي أحرزه أوتون لكنها ما لبثت أن اندلعت مجدداً بسرعة شاملة مناطق عديدة فتفاقم الامر وأمسى ينذر بسوء المصير : فانضم الى تلك الثورة جيلبرت دوق اللورين ثم مطران مايانس وأخو الملك نفسه هنري السكسوني الذي فكر الامراء الثائرون أن من الانسب أن يجعلوا أخا « الظالم » على رأس ثورتهم . ولم يلبث ملك فرنسا لويس الرابع (وكان يلقب لويس الرابع ما وراء البحار وهو ابن شارل الثالث الملقب بالبسيط وهو الذي سيتزوج من أخت أوتون نفسه) أن دعم هؤلاء الثوار . لم

يتخاذل أوتون وكان جوابه القيــام بالهجوم مع سعيه الدؤوب ديبلوماسياً لتأمين الانصار بين وكلاء أو نواب الامراء الذين كانوا يقاومونه وبجعله هؤلاء الوكلاء يشتبكون بأسيادهم في معركة على نهر الراين • وقد حدث صدفة أن توفي في هذه المعركة وتباعا كل من دوق فرانكونيا ودوق اللورين • وبعد تغلّب أوتون على خصومه ولخشية احتمال عودة تلك الحوادث المُنَغِّصة مجدداً فانه صادر دوقية فرانكونيا جاعلا أراضيها تابعة للاراضي الملكية •

بيد أن أوتون لم يجرؤ على القيام بتدبير مماثل بالنسبة الىدوقية اللورين: فمراعاة منه الى ظروف هذه المنطقة ، وليطبق التدابير التي قرر اتخاذها بصورة تدريجية مرحلية فانه أوسد في سنة ٩٤٠ تلك الدوقية الى أحد نبلائهـا المحليين وهو أوتون كونت ڤردان • وبعد وفاة هذا الاخير سنة ٩٤٤ فانه أبدله بنبيل فرانكوني هو كونراد الاشقر الذي جعل منه ختناً على ابنته • وعلى غرار دوقية باڤاريا فان دوقية اللورين ستكون منذ ذاك متعلقة بأسرته • كما ضمن بعيد قليل وبصورة مماثلة تملّك دوقيةصوابيا ليودولف ابنه بتزويجه سنة ٩٤٩ ابنة الدوق هيرمان والتي هي وريثته •

ومنذ ذلك الوقت نجح أوتون فيالتغلبعلىالصعاب : وثمة دوقياتأخرى لكن سلطة الملك بقيت مسيطرة فيها • وكنا رأينا أن أوتون عيّن في باڤاريا موظفاً كبيراً دعي كونت القصر أي ممثله (Comte palatin) ليدير ويشرف على المصالح الملكية • هذا فضلا عن قيام هذا الموظف بمراقبة حكم دوقها مراقبة دقيقة • وقد أوجدت مناصب مماثلة في كل من اللورين وصوابيا • وهذا معناه أنه علاوة عن الدوقات الذين احتفظ الملك لنفسه بحق تعيينهم فان هذا الموظف المراقب (كونت القصر) هو بمثابة ضمانة جدية لبقاء السلم داخل الدوقية سائداً ولتسيير شؤون ادارتها الداخلية بشكل انضباطي • لكن الملك لم يتوقف عند هذا الحد : وأخذت السلطة الملكية مع مرور الزمن تزج بنفسها في حياة الدوقيات حيث يتضح تدخّلها لدن تعيين الموظفين في المناصب المدنية وخاصة عند تعيين أفراد الإكليروس في المناصب الكنسية العليا ، بدون أن يتمكن الدوقات حتى من الاحتجاج على هذا التدخل ،

أو على الاقل إنهم لم يجرؤوا على الاحتجاج على هذا التدخل سوى مرة واحدة وذلك حوالي نهاية سنة ٩٥٢ • وقد نجح في هذه المرة دوق صوابيا وهو ليودولف ابن الملك نفسه في أن يجرّ وراءه للثورة على أبيه كلاً من كونراد الاشقر والغالبية العظمى من كبـار الاسياد في باڤاريا • لكن غزوة الهنغاريين المروّعة التي حدثت سنة ٩٥٤ ، كانت وحدها كافية لتقف البلاد عن بكرة أبيها ، وذلك بعد استمرار الحرب طيلة سنتين ، صفاً واحداً متراصّاً من وراء رئيسها ، ثمت فان انتصار ليخ الذي أحرزه أوتون على الهنغاريين في العام القادم قدّم الى الهنغاريين أنفسهم مثالاً رائعاً عن تصميم الملـك أوتون على مقاومتهم ومنعهم في المستقبل من غزو بلاده •

عالج الاستاذ لوس بيتري قضية الصعاب الداخلية التي جابهت أوتون الاول في بادىء الامر مورداً بصددها ما نصه : « كان يتحتم على أوتون ومنذ البداية أن يتقلّص وما وسعه ذلك قوة الادواق المحليين أي الحكام الوطنيين وإضعاف نزعتهم الاستقلالية • ومع الحرص على اجبار هـؤلاء الحكام على التقيّد بروابط التبعية التي تشدّهم الى الملكية فانه استهدف إبقاء الدوقات مجرّد موظفين من عمال تلك السلطة الملكية ، كما يجعل منهم مجرّد وسطاء فيما بين العرش وممثلي الملك على الصعيد الاقليمي : وهم الكونتات • ولم يعد هؤلاء الاخيرون الاوصال المباشرين للعاهل ، إنمـا صاروا من بين أفراد طبقة الامراء الذين يكلفون بمهمة دعوة وجمع سـائر الموظفين الممارسين للسلطة باسمه ، هذا فيما عدا تسلسل طبقات الاوصال • وقد أوضح أوتون وبجلاء وبموجب تتويجه وفق الطقوس والمراسم الدينية أنه عهد الى أربعة الادواق المحليين بالقيام بمهامٍ كبار موظفي القصر الملكي ، لكنه لم يلبث أن جوبه بثورتهم • وبعد تغلّبه عليهم وجد نفسه سنة ٩٣٧ مضطراً الى قمع ثورتهم الجامحة • فلما انتصر عليهم أخذ ، وتمشّياً مـع مصالحه ، يتصرّف بدوقياتهم • فعند وفاة دوق مقاطعة فرانكونيا قرر الملك ألا يجعل له وريثاً في المنصب : وبذلك فقدت فرانكونيا والى الابد شخصيتها كدوقية قومية وصار كونتاتها مرتبطين وبشكل مباشر بالملك نفسه •

أما بالنسبة الى باقي الدوقيات فان العاهل نفسه عهد بحكمها الى أفراد من أسرته أو من الافراد الشديدي التعلّق بالملكية • ومن قبيل ذلك فانه سلم باڤاريا الى أخيه هنري وصوابيا الى ابنه ليودولف وسكسونيا الى حاكم من حكام ولايات الثغور هو هرمان بيلّونغ H. Billung الذي اشتهر بشجاعته في القتال الذي نشب ضد العناصر السلاڤية • كما وأنه لم يتردد في عزل من ثاروا عليه من الادواق حكام الولايات ، ومن قبيل ذلك اصداره قراراً بتنحية بعض هؤلاء كختنه كونراد الاحمر دوق اقليم اللورين • وأخيراً فعلى الرغم من أن إيساد حكم احدى الدوقيات استمر مقيداً ببعض الشروط كما لو كان حكمها مجرّد منح استثمار إقطاع الى دوقها فان أوتون لم يشعر أبداً بأي إلزام نحو ابن الدوق المتوفى بضرورة منحه دوقية أبيه • ولئن قبل أن تقوم أسرة دوقية وراثية هي أسرة بيلّونغ لحكم سكسونيا فانه لم يأبه بالنسبة الى باقي الدوقيات بما يدّعيه أبناء حكامها الادواق المتوفّين من حق في وراثة مناصب آبائهم إنما عمد الى تعيين دوق حاكم جديد لكل دوقية شغر منصب حكمها تبعاً لوفاة الدوق الذي كان يشغله • وهكذا فان الادواق حكام الولايات غدوا في قبضة الملك •

لكن هذا الاخير ، وانطلاقاً من شدة الحذر عمد الى تحديد سلطات هؤلاء الحكام وتقليصها • وبتلك الصورة فان رقعة بعض الدوقيات قد ضمرت وضؤلت • وتبعاً لذلك فانه سلخ من مقاطعة سكسونيا الاجزاء الواقعة على حدودها واقليم ثوارنجيا ، كما قسمت دوقية اللورين الى دوقيتين هما اللورين العليا ، واللورين السفلى • كما اقتطعت في عهده الاقاليم الشرقية من ولاية باڤاريا وشكّلت من هذه الاجزاء كلها دوقية كارانثيا Carinthie ، ومن ناحية أخرى وعلى الصعيد الداخلي بالنسبة الى كل دوقية على حدة فان سلطات الدوق حاكمها قد أنتقصت لتقتصر على حفظ الأمن فيها واستنفار وتعبئة المقاتلة المفروضين عليها في زمن الحرب • هذا بينما احتفظ أوتون الاول لنفسه بحق تعيين الكونتات والأساقفة • وأخيراً وسعياً من أوتون الاول الى إبقاء الرقابة على الادواق حكام الولايات دائمة

ومستمرة فانه أوجد منصب الكونت ممثل القصر في الولاية (ويـدعى كونت القصـر le Comte palatin) حيث يبقى كلٌ من هؤلاء الكونتات وباستمرار في الولاية التي عـيّن فيها • لكن تعيين هؤلاء الكونتات الممثلين للقصر لم يلبث أن ألغي ولم يبق إلا بالنسبة الى ولاية اللورين حيث صار هذا الكونت يلقب بالكونت ممثّل القصر في إقليم الراين وقد غدا هـذا الكونت من أقوى أمراء ألمانيا منذ القرن الثالث عشر •

« وعلى الرغم من جميع هذه الاحتياطات والتدابير التي نشـد أوتون الاول من ورائها القضاء على النزعة الاستقلالية لدى الادواق حكام مقاطعات ألمانيا فان هـذا العاهل أخفق في مهمته وأبقى الامراء العلمانيون الحكام مناصبهم إرثية في كل مرة يشعرون فيها بوهـن وضـعف السلطة الملكية المركزية • وقد حمل هذا الاخفاق العاهل الالماني على الاعتماد على الكنيسة الكاثوليكية بإيساد حكم بعض الولايات الى الأساقفة (لأن مناصب هؤلاء ليست إرثية) • كما كان الاساقفة من جانبهم راغبين في قيام هذا التحالف والتآزر بينهم وبين الملكية الالمانية : من حيث أن أعضاء هيئة الإكليروس بقوا متعلقين بفكرة وجوب قيام عاهل قوي حام للعقيدة المسيحية وذلك أسوة بما كانت عليه الحال في العهد الكارولنجي • وفضلا عن ذلك فان دوق باڤاريا كان ، وفي الفترة التي سبقت عهـد أوتون الاول ، قد فرض أعباءً مالية كثيرة على ممتلكات الاديرة والأبرشيات ليعمد الى توزيعها على أوصاله• وهكذا فان أفراد هيئة الإكليروس أظهروا استعداداً كافياً لمساندة أوتـون الاول فيما يتعلق بممارسة أعباء ادارة المملكة حريصين على جعل القائمين بمهام هذا الحكم أو الادارة هيئة قوية الاخلاص والتعلّق بالملكية ، هذا بينما لم يتفرّط أوتون نفسه في فرض رقابة شديدة على أفراد هذه الهيئة (التي صارت غالبية أعضائها من الإكليروس وخاصة من الاساقفة) • وتبعاً لذلك فان أوتون صـار يمارس وبصورة متشدّدة وصارمة حق التملّك على جميع الاديرة الملكية والابرشيات (فغدت بمثابة ممتلكات للعاهل أي من نوع الدومين Domaine) • وكان تدخّل الملك يبدو ومنذ البداية في

تعيين الأسقف لأبرشية ما : وكان الاسقف ، ومن حيث المبدأ ، ينتخب انتخاباً من قبل رجال الإكليروس وأفراد الشعب في الابرشية • بينما كانت الأمور تتمّ وعلى صعيد الواقع بأن يقترح رجال الإكليروس الموجودون في حاضرة الأبرشية فقط ، وأوصال الاسقف (أي حكام المناطق الخاضعة لسلطته) ، على الملك تعيين أسقف ما وذلك بايفاد لجنة أو وفد الى بلاط العاهل • ولربما اضطر العاهل نفسه ، وهذا بالنسبة الى الابرشيات الهامة ، الى التوجّه الى حاضرة الابرشية لحضور ومراقبة العمليات الانتخابية • وبعد إنهاء تلك العمليات يصدر المرسوم الملكي الناص على تعيين رجل الدين المنتخب أسقفاً ••• »[1] •

وفي الواقع فان الملكية الالمانية كانت قد نجحت وحوالي سنة ٩٦٠ في أن تستردّ تقريباً جميع المناطق التي فقدتها منذ أواخر عهد الحكم الكارولنجي • وبإصرار لا مواربة فيه تمكنت هذه الملكية أن تعين مجدداً في الولايات موظفين مخلصين للفكرة الملكية ، وأن تجعل من الإكليروس ، كما كانت حاله في عهد شرلمان الأداة المساعدة الأكثر نشاطاً والأشدّ إخلاصاً لسياسة الملك ، لان أوتون بتجديده فيما يتعلق بهذه القضية تقاليد القرن التاسع فانه توصّل الى ملء الابرشيات والاديرة الكبرى برجال موثوقي الاخلاص اليه : من أقارب وأصدقاء ومحميّين يدينون اليه بكل شيء ، وسيكون سلوكهم ، كما كان سلوك أساقفة عهد شرلمان كممثلين أوفياء للسلطة المركزية • ونظراً لان الملك ضمن ألا يعكّروا صفو المناطق التي التي عيّنوا لحكمها غدا من المفيد لهم أن يُزَوَّدَهم بأراضٍ واسعة ، وأن يوسد اليهم إمارات اقطاعية حقيقية اعتبرها الملك أفضل لمصلحته من الإقطاعات التي تمنح للاسياد العلمانيين وذلك لانه لدن وفاة الاسقف أو رجل الدين صاحب الإقطاع فان هذا الاخير يعود الى الملك الذي يتصرّف به من جديد •

---

(1) لوس بيبتري ، مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الباب ٨ ، ص ٣٦٠ — ٣٦١ •

فهذه هي القضية الوحيدة التي تسمح لنا بالقول أن أوتون قد سار على الطريق التي شقّها ومهّدها التنظيم الإقطاعي الذي كان لا يزال وليداً بالنسبة الى الملكية الالمانية . وفيما عدا ذلك فانه أظهر كل الحرص على منافسة الملكية الكارولنجية باحياء طرق الحكم القديمة ولكن لمصلحته الخاصة أي سعياً منه وراء توطيد وترسيخ سلطته الملكية . وكانت الفكرة الكبرى التي أخذت عليه تفكيره في نهاية حكمه هي أن يتم إحياء الامبراطورية والذي كان قد بدأه بأن يتبنى ولحسابه الخاص السياسة الايطالية التي كان الأباطرة الأوائل من الفرنجة ينتهجونها (أي موقفهم بإزاء قضايا ايطاليا) وأن يسعى بدون هوادة الى أن يسمو بنفسه الى مستوى المنصب الامبراطوري الذي لم يعد أحد في ايطاليا يأبه به أو يكترث[1] .

أوروبة الغربية في منتصف القرن العاشر وتتويج أوتون إمبراطوراً :

بدت ملكية أوتون بالنسبة الى دول غربي أوروبة وكأنها حالة استثنائية . فمن بين جميع الدول التي تمخّض عنها تقسيم دولة الفرنجة فان ألمانيا هي الدولة الوحيدة التي لاحظنا فيها استئنافا لترسيخ السلطة الملكية المركزية . بينما أخذت الملكيات في المناطق الاخرى تنهار رويداً رويداً لمصلحة النظم الإقطاعية ، التي تقود مباشرة الى انحلال الدولة . وقد تم ذلك الانحلال ولو في الظرف الراهن على الاقل لمصلحة العاهل السكسوني الذي صار يتمتع في أوروبة بمركز قوي مرموق ، والذي لا بد وأن تؤدي الظروف في يوم من الايام الى جعله في وضعية تمكّنه من جني ثمار ذلك .

إنه تدخّل حتى ذلك الوقت وفي مناسبات شتى في شؤون فرنسا التي بدت الملكية فيها منذ نهاية القرن التاسع واهنة القوى . ولم يتمكن أنسال شرلمان من الحفاظ على مركزهم فيها إلا بمشقة زائدة وذلك بخوضهم صراعاً يائساً ضد كبار نبلاء الشمال وحوض اللوار حيث كان هؤلاء النبلاء وفي أكثر من مرة قد نجحوا في انتزاع العرش من صاحبه الشرعي (كما تمّ

---

(1) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

ذلك في عهد أودكونت باريز ، الذي صار ملكاً بين سنتي ٩٢٢ ــ ٩٢٣ ، ثم في عهد دوق بورغونديا راؤول ختن هذا الاخير الذي مارس الملك بين سنتي ٩٢٣ ــ ٩٣٦) • وعلى الرغم من كل ذلك فان الكارولنجيين لم يعترفــوا إطلاقاً بعزلهم • وقد وجدت تقاليد الاسرة مدافعين عنها وحماة أقوياء فــي شخص شارل البسيط (الذي حكم بين ٨٩٣ ــ ٩٢٩) ثم في شخص لويس الرابع الملقب بما وراء البحار (٩٣٦ ــ ٩٥٤) ، وهو حفيد وابن حفيد الامبراطور شارل الاصلع • ولكن كيف يكون العمل ضد قوات الارستقراطية الاقطاعية المتآمرة التي لا تريد أن ترى في الملكية سوى أداة أو دمية يمكن وبحسب الظروف اللعب بها والتسلّي أو تحطيمها ، والتي كانت حتى ذلك الوقت قد نسيت حتى مفهوم السلطة الملكية ؟

ففي ظل بؤسه كان طبيعياً بالنسبة الى لويس الرابع التعس أن يفتش خارج بلاده عن دعم له ومؤيّد • وقد كان في سنة ٩٣٩ قد تزوج من أخت أوتون ، لكن هوغ الاكبر كان قبل مرور سنتين أيضا قد تزوج بدوره من أخت أخرى لأوتون لذا فان الخصام تأجج بين النسيبين ، فأي ختنية على أخيته سيدعم أوتون الالماني ويؤيد ؟ وكان ذلك فرصة ممتازة بالنسبة لأوتون لإتاحتهــا له التدخل في سياسة جارية الغربيين وأن يفرض نفسه عليهمــا كحكم سامٍ •

لم يدع أوتون هذه الفرصة تفوته • وكان قد وصل في سنة ٩٤٠ إلى مقاطعة شامپانيا وتوقّف عند قصر فرنجي قديم هو آتّيني ليقدم إليه فيه هوغ الأكبر وأتباعه فروض الولاء والاحترام • ثم والى طريقه الى حوض السين حيث أجبر الأمير الكارولنجي على أن يعترف له بحقّ إبداء رأيه فيما يتعلق بمعضلة ، يمكن أن يفيد منها في الواقع ، وهي بصدد مطران مدينة رينس الذي تشمل صلاحيــاته في الشمال الشرقي منطقة هي من بــلاد أوتون نفسه •

ومنصب المطرانية هذا كان منذ عدة سنين متنازعاً عليه من قبل مرشحين إليه هما مرشح الملك لويس/٤ ، والشاب هوغ ابن أحد حلفاء هوغ الأكبر•

وقد تم إيصال هذا الشاب الى الأسقفية بنتيجة انتخاب مُزَوَّر أُجري سنة ٩٢٥ عندما كان لا يتجاوز الخامسة من العمر • كما اضطر لويس الرابع الى الرضوخ • ففي سنة ٩٤٢ بعث البابا بشارات المطرانية الى هوغ الشاب•

وقد استمر أوتون يقوم بدور الحكم والفيصل بالنسبة الى مملكة فرنسا : وقد لوحظت معونته الى الملك لويس (الذي أطلق هوغ الأكبر سراحه بعد أن احتفظ به أسيراً ولمدة سنة وأن انتزع منه حاضرة إقليم اللاوون) لاسترداد مدينة رينس بالقوة (في أيلول ٩٤٦) • ثم بعد أن جاب أوتون بسرعة وعلى رأس قسم من قواته رحاب شمالي فرنسا ونورماند يا فإنه أعاد كيفما تمّ له الأمر سلطة لويس ذلك الأمير الكارولنجي التعس •

واستقبل أوتون في عيد الفصح القادم لويس في قصر هذا الأمير الكارولنجي بمدينة آخن ببشاشة وترحيب ذلك القصر الذي ينهض دليلاً على ما كانت تتمتع به الأسرة الكارولنجية من أمجاد مؤثّلة سالفة ، والتي كانت ذكراها فقط تقضّ على أوتون مضجعه وتُنَغّص حياته (لأنه يريد الوصول الى نفس المستوى الذي بلغه شرلمان) • ثم استقبله في شهر آب في اللورين • وصار تدخّل أوتون في شؤون فرنسا يزداد يوماً عن يوم ويتمّ بصورة مباشرة • ومن قبيل ذلك تدخّله في ڤردان في تشرين الثاني عام ٩٤٧ وفي غيرها • كما قدم أوتون الى ممتلكاته في كانون الثاني ٩٤٨ أثناء انعقاد مجمعين دينيين كانا مؤلفين وبصورة كلية من أساقفة جرمانيا ومن مقدّمي أديرتها وتم انعقادهما برئاسة مطران مدينة تريڤ لحلّ خلاف ذي طابع سياسي أكثر منه ديني وهو متعلق بالانتخاب المزدوج الى مطرانية رينس • كما حضر بشخصه والى جانب لويس الرابع في كنيسة القصر الفرنجي في مدينة إينجيلهايم Ingelheim ، بالقرب من مايانس (أي في منطقة أشدّ إيغالاً في داخل مملكة ألمانيا) مجمعاً دينياً ثالثاً انعقد برئاسة أسقف إيطالي هو مبعوث البابا للنظر ليس فقط في قضية رينس ولكن بصورة عامة لدراسة موقف هوغ الأكبر بإزاء ملكه عاهل فرنسا • وكانت مهمة هذا المجمع ، وكان أعضاؤه كثيرين ولكن لم يكن بينهم سوى رعايا ملك جرمانيا الذي

بدا أثناء انعقاد ذلك المجمع وكأنه رئيس له ومهمته حمل ملك فرنسا الشاب لويس/٤ الحفيد الاصلي لشرلمان على قبول الامتثال للحكم أو القرار الذي سيصدر عن ذلك المجمع •

وزادت سلطة أوتون بعد مجمع إنجيلهايم هذا حيث لم يكفّ ملك فرنسا بين سنتي ٩٤٨ ــ ٩٥٠ عن طلب المشورة والمعونة منه • وقد ذهب لويس مرتين لزيارته كما لو كان سيّده Suzerain (في المصطلح الإقطاعي) • ولم تجْد سوى وساطة ملك جرمانيا القوي جداً لإخضاع هوغ الأكبر عامل ملك فرنسا (لويس) الى درجة أنه عند وفاة هذا الأخير سنة ٩٥٤ لم يعجب الناس ولا استغربوا ممارسة الوصاية على لوثير ابن ووريث هذا الملك من قبل واحد من أهم شخصيات جرمانيـــا في ذلك الظرف وهو برونو الشهير أخو الملك أوتون نفسه • وكان برونو هذا قد عُيّن وبناء على رغبة أخيـــه مطراناً لمدينة كولونيا ودوقاً لمنطقة اللورين •

كما زاد نفوذ ملك جرمانيا أوتون زيادة ملحوظة في المنطقة الواقعة بين جبال القوج وهضبة السيڤين والبحر الابيض المتوسط وجبال الآلب حيث قامت دولتان مستقلتان في نهاية القرن التاسع هما مملكة بورغونديا ومملكة پروڤانس انتهى بهما الأمر الى أن تنضم إحداهما الى الاخـــرى في مملكة واحدة أكبر رقعة هي مملكة بورغونديا التي تشمل قسماً كبيراً من سويسرا الحالية وجميع مناطق حوض الرون • وأفاد أوتون من تجربته الخاصة ومن ضعف الملك الصغير كونراد الذي تولى عرش هـــذه المملكة سنة ٩٣٧ فلم يتردّد في الدخول الى بلاد هذا الجار ، وفي ممارسة رقابة شديدة عليـــه كانت أشبه ما تكون بالأسر ، وفي أن ينتزع منـــه سنة ٩٤٢ وعوداً تعادل تقريبا يميناً بالولاء له • وقد وصلت الأمور بمملكة بورغونديا حداً جعلها تعتبر منذئذ بمثابة ملحق لمملكة ألمانيا • ومهما يكن فإن ذلك العاهل البائس كونراد ، والذي كان يلقب وبحق بالهادىء لم يكفّ عن إظهار الانقياد التام الى حاميه القويّ الذي لم يكن ثمة حدود لأطماعه فغدا كونراد أداة طيّعة بيده وأطوع له من بنانه بحيث كان يرسل إليه جميع النجدات العسكرية التي

يطلبها منه أو بالأحرى يقودها بنفسه إليه حسب طلب هذا الأخير سواء الى ألمانيا أم الى فرنسا أم بعيد قليل حتى الى إيطاليا نفسها ، لأن أوتون لم يلبث أن تبنّى من أجل إيطاليا ، وبصورة أكثر من بورغونديا ومن فرنسا ، سياسة تؤدي الى تسويد نفوذه تلك السياسة التي واتتها ظروف إيطاليا نفسها حيث كان سكان شبه الجزيرة هذه يعيشون منذ مطلع القرن التاسع ظروفاً قلقة ومربكة •

ولم يكن في واقع الأمر إيطاليا واحدة إنما ثلاث إيطاليات على الاقل هي : **إيطاليا الشمالية** وتتمثل بالمملكة اللومباردية القديمة والتي ما زالت حاضرتها **مدينة بافيا** • ويشار عادة الى هذا القسم من إيطاليا باسم « مملكة إيطاليا le royaume d'Italie » • **وايطاليا الجنوبية** أو إيطاليا البيزنطية والتي كانت محتـلة آنذاك من قبل العـرب المسلمين • وتوجـد بين هـذين القسمين **روما والولاية الرومانية** ، حيث آل الأمر بالبابوية الى أن تقع في ظل تبعية الى أرستقراطية محلية شديدة التعلق بالحركة والقتال وطموح ، وكان لعواهل إيطاليا الشمالية بعض النفوذ على هذا القسم الاوسط بيد أنه كان آخذاً في الضمور والتقلّص تدريجياً •

وقد توالى على روما عدد كبير جداً من الباباوات ، وبعض هؤلاء الأحبار العظام لم يبقوا في سدة الكرسي الرسولي سوى عدة أسابيع ، لا بل فإن بعضهم لم يستمر على الكرسي الأقدس سوى عدة أيام ولم يكن لهـم من الحبرية العظمى سوى رسمها أي اسمها • ولوحظ أن بعض من تربعوا على كرسي القديس بطرس لم يكونوا أكفاء وبمستوى هذا المنصب وبعضهم الآخر تسود الرذيلة أخلاقهم لأنهم أشخاص فاسدون ، وكان بعضهم ذوي أخلاق سيئة مثيرة للفضائح والذين لم يكونوا يدينون بالسموّ بهـم الى منصب الحبرية العظمى إلا لحياة الفوضى التي كانوا يحيونها ثمت لوحظ كمـا في شخص يوحنا الحادي عشر (٩٣١ ــ ٩٣٥) أن البابوية قد انتقلت الى ولد هو نتاج سلوك فاسد وغير أخلاقي لحبر أعظم سابق • فهؤلاء الباباوات الذين لم تكن لهم أية سلطة روحية غدوا أسرى بيد النبلاء لأنهم يدينون إليهـم

بمنصب الحبرية العظمى ذلك المنصب الذي كان ، وحالة هؤلاء البـــاباوات ما ذكرنا ، غير موطّد الدعائم ومهدداً باستمرار[1] .

وكان المدعو آلبيريك Albèric هو الذي يشغل منصب الحبر الأعظم في منتصف القرن العـــاشر وكان يلقب بـ : « أمير وشيخ (أي عضـــو مجلس الشيوخ) جميع الرومانيين » ، وكان في روما السيد الفعلي . وكانت ممارسته لسلطته تثير الكثير من الحسد والمنافسة لكنه كان متخلّصاً تماماً من مراقبة أو وصاية النبلاء الايطاليين الشماليين . ولم يتفق هؤلاء إطلاقاً ولم يتفاهموا أبداً حتى هذا الوقت إلا على الثورة ضد الشخص الذي توصّل الى أن يكون ملكاً يحتلّ باڤيا عاصمة الشمال والسهل اللومباردي كائناً من كان هـــذا الشخص . ثمت فإن انقلابهـــم على بعضهم أو تغيير أحدهم لرأيه بين عشية وضحاها قد غدا مضرب المثل . لذلك كانت إيطاليا الشمالية هذه تبدو غريبة في النصف الاول من القرن العاشر بالنسبة الى البحث وتقصّي الحقائق . وكان المرشحون لتملّك منـــاطق ايطاليا الشمالية وبصورة دائمة معارضين وأعداءً لبعضهم بعضاً ، كعداء مركيز فريول لأمراء پروڤانس الكارولنجيين ، وعداء الأمراء الپروڤنسيين الى ملك بورغونديا وهلمجرا . وهكذا فان عصا القيادة في إيطاليا كثيراً ما انتقلت من يد الى أخرى الى درجة أنه من الصعب علينا أن نقول من هم أولئك الأشخاص الذين كانوا الملاّك الشرعيين لها .

انجرّ أوتون في ايلول ١٩٥١ الى تلك الفوضى الضاربة أطنابها . ان بيرانجيه مركيز إيڤريه Ivrée قد حصل منذ عـــدة أشهر (في ١٥ كانون الاول ١٩٥٠) على العرش الملكي لمصلحة ابنه **آدالبرت** . وليحتاط ضـــد كل مفاجأة فانه سرعان ما زجّ في السجن بأرملة الملك السابق وهي آديلائيد البورغوندية الجميلة والشابّة والتي التفّ من حولها ودفعة واحـــدة جميع خصوم الملك الجديد . وبنتيجة أنها لم تكن بعد قد رزقت ولداً وأنه كان يجب العثور على طامع بالعرش ليتّقاوَم به مركيز إيڤريه ، فإن جميع هؤلاء ،

(١) راجع تفاصيل ذلك في لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٤٥ .

ولا سيما الأساقفة ، فكروا بصورة غريزية بملك جرمانيا الذي كان بوسعه القول أنه من أرومة آرنولف وشارل السمين (الكارولنجيين) • ولم يكن أوتون مستعداً لأن تفلت من يده فرصة كهـذه • أفليست إيطاليا الشمالية ملكاً لمن يملك ذرا جبال الآلب ، والامتداد الطبيعي لألمانيا الجنوبية ولولايتي الثغور والحدود الجرمانيـة للنمسا الحالية ، وهمـا ولاية كارانثيا وولاية كارنيول ؟ وقد كفى أوتون أن يجتاز ممر برينير Brenner على رأس قواته ليرى جميع لومبارديا جاثية عند قدميه • ونظراً الى أنه برهن عن رجاحة عقله عندما أطلق سراح الملكة آديلائيد وتزوّجها لم يكن أسهل عليـه من أن يُعتَرف به وفي الجلسة ذاتها ملكاً على إيطاليا في سنة ٩٥١[1] •

لكن الأمور تعقدت بعد عدة أسابيع واضطر أوتون أن يعود مسرعاً الى بلاده تاركاً في الظرف الراهن مشكلة إيطاليا • لأن الثورة التي كانت تتهيأ في ألمانيا والتي ستنفجر حوالي نهاية ٩٥٢ هي التي حملت أوتون على العودة الى ألمانيا • وقد رضي قبل رحيله حلاً يقضي بترك مملكة إيطاليا الى بيرانجية مركيز إيڤريه والى ابنـه مع جعلهما مجـرد عاملين أو نائبين من نواب ملك سكسونيا مع انتزاعه منهما ولاية ڤيرونا وولاية فريول جاعلاً منهما ولايتي حدود أوثغور لمصلحة باڤاريا •

هذا وإن يكن بيرانجيه وابنه قد برهنا على أنهما الاشد عصيانا والأقل طاعة من دون سائر عمال أوتون • إنهما انتزعا ڤيرونا من القوات الباڤارية لدرجة أنه غداة معركة ليخفيلد كان أوتون عاقداً العزم وأكثر من أي فترة مضت على حمل الجميع على الاعتراف بحقوقه في عرش إيطاليا • وقد كلّف في سنة ٩٥٧ ابنه ليودولف دوق صوابيا أن يبدأ مجدداً احتـلال إيطاليا • وكان ممكناً أن تنجح هذه الحملة لو لم تعاجل المنية ليودولف فوجّه بيرانجيه

---

(١) راجع من أجل ذلك : أولا ــ لويس هالفين: مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، الملجد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٤٥ •

ثانيا ــ أوغوستان فليش: مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة، المجلد ٢ ، القسم ١ ، الفصل ٦ ، ص ١٥٤ ــ ١٥٩ •

قوات انتقامية • وكانت تلك حالة لا يمكن لأنصار ملك جرمانيا السكوت عنها هؤلاء الانصار الذين غدوا وبصورة متزايدة من أمرهم على عجل •

وفي الحين الذي كان فيه أوتون يُرْجي وبحرارة زائدة ليتـدخل في لومبارديا وصلته أخبار مقلقة من روما لا يمكن أن تبقيه غير مكترث بشؤونها• لقد أثيرت فيها قضية وراثة مزدوجة ، شقّها الأول متعلّق بوراثة الأمير القوي آلبيريك الملقب كما ذكرنا « أمير وممثل الرومان في مجلس الشيوخ » ، الذي توفي سنة ٩٥٤ ، وشقّها الثـاني متعلّق بوراثة البـابا آغاپيت Agapit الذي توفي بعد عدة أشهر (سنة ٩٥٥) • ومباشرة حلّ ابن آلبيريك ، وكان ولداً في السادسة عشرة ، مكان أبيه وغدا « أميراً للرومان » أولاً ، ثم لم يلبث أن انتخب حبراً أعظم أي وكيلاً للقديس بطرس تحت اسم يوحنـا الثاني عشر • ولم يصدف أن كان مركز بابا من البابَوات من قبـل مضطربا ومزعزعاً كما في هذه المرة • كان يوحنا الثاني عشر غرًّا لا يفقه شيئاً وتعوزه التجارب هذا فضلاً عن أن حياته الخاصة هي حياة دعارة وخلاعة واستهتار • وبما أنه لم يكن له أيّ سند قوي لذلك كان في الوقت نفسه هدفاً لتهديدات الأمراء اللومبارديين في الجنوب ، ولتهديدات الملك بيرانجيه وابنه اللذين نبّهت وفاة آلبيريك فيهما أطماعاً وآمالاً جديدة • فبماذا كانا يطمعان في الحقيقة ؟ لم يشر المعاصرون الى تلك الاطماع ، بيد أنه بعـد أن رأيناهما يهاجمان الأرض الرومانية (أي منطقة روما وما جاورها) فإن مسألة الحصول على التـاج الامبراطوري وأن يضمنا تبعاً لذلك ممارسة المراقبة على روما والبابوية لم تكن بعيدة عن تفكيرهما •

عالج الأستاذ لوس پيپتري قضية تدخّل أوتون الاول في إيطاليا ذلك التدخّل الذي تمّ على مرحلتين والذي انتهى بتتويج هذا العاهل إمبراطوراً فأورد بصدد كل ذلك ما نصّه : «•••وكان لأوتون الأول سياسته الإيطالية ، تلك السياسة التي نتج عنها مع ما أدّت إليه من تدخّل في إيطاليا ، تتويجه ملكاً على هذه البلاد وحصوله على التاج الإمبراطوري وتمكين خلفائه من بعده من الحصول على تاج بورغونديا • وكان ثمة عدد من الدوافع دعت

أوتون الأول الى أن يضع لنفسه سياسة خاصــة بإزاء مشاكل إيطاليـا .
فهناك أولا أسباب اقتصادية : من حيث أن ألمانيا هي بلاد فقيرة وبمنأى عن المواصلات التجارية الدولية الكبرى . فكان ضرورياً والحالة هذه إشراك ألمانيا في شمالي ايطاليا لجعلها تحتك بتجارة عالم البحر الابيض المتوسط . وكان دوق بافاريا قد ضم ومنذ سنة ٩٤٩ إقليم آكيليه مما يتيح له السيطرة على طريق ممر برينير . كما قامت **الاسباب السياسية** بدور فعّال لحمل أوتون على التدخل في شؤون ايطاليا . وكان أوتون بتدخله هذا يظهر تمسكاً بالتقاليد الكارولنجية ، لان عواهــل كارولنجيّي فرانسيـا الشرقيـة Francia Orientalis استمروا وفي عهد آرنولف (٨٨٧ ــ ٨٩٩) يحملون لقب ملك ايطاليا . ثمت فانه صار بوسع أوتون الاول الذي وطّد سلطته على الدوقيات الالمانية ، والذي تدخل لحل خصومات الاسرة المالكة في فرنسا (وكانت تدعى آنئذ فرانسيا الغربية Francia Occidentalis) صار بوسـعه إحياء الامبراطورية وحمل اللقب الامبراطوري . كما وأن الحملة على ايطاليا من شأنها اشتراك شعوب مختلف الدوقيات الألمانية في ذلك المشروع العسكري المشترك . وأخيراً فان الاوضاع التي تردّت فيها أقاليم شمالي ايطاليا كفيلة بتسهيل مهمة التدخل الالماني . واذا ما استثنينا جمهورية البندقية ، وهي آخر ما بقي من أقاليم شمالي ايطاليا خاضعا الى سلطة البيزنطيين ، فان تلك الاقاليم تشكّل مملكة ايطاليا التي حلّت مكان مملكة اللومبارديين وأخذ عدد من النبلاء يتنازعون على عرش هذه المملكة منذ نهاية القرن التاسع . وأهــم هؤلاء المتنافسين أو المتنازعين مركيز اقليــم فريول ودوق سپوليت Spolète وملك بورغونديا وملك اقليم البروڤانس . وكان آخر فصل من مسرحية الخصومات هو الذي دارت حوادثه سنة ٩٥٠ . وبيان ذلك أن ملك البروڤانس هوغ توفي سنة ٩٤٨ كمـا لحق به ابنه لوثير بعد سنتين فآل تاج اقليم البروڤانس الى بيرانجيه مركيز إيفريه . وكمـا كانت الحال في عهد أسلافه في الحكم فقد جابه هذا العاهل الجديد عدداً من الثورات التي أقامها في وجهه كبار الملاك الاقطاعيين والكونتات وكبار أصـحاب الاملاك العقارية في المدن والأساقفة . وخشية من بيرانجيه هذا في أن

تحمل الملكة آديلائيد ، وهي أرملة لوثير ملك الپروڤانس ، الجميع علـى الاعتراف بحقها في وراثة مملكة بعلها وقد تنجح في أن يساندها جميـع أعدائه الذين سيغدون حلفاء لها ، فانه ألقى بها في غياهب السجن . لكنها فرت من محبسها ونجحت في إيصال رسالة منها الى أوتون ملتمسة منـه معونته وتأييده . هبّ هذا الملك الى نجدتها متوجّها على رأس قواته الى ايطاليا في ربيع ٩٥١ . وبعد إلحاق أوتون الهزيمة ببرانجيه غدا سيداً مطاعاً في باڤيا . وبدون أن يتم تتويجه فانه اتخذ لنفسه لقباً ثانياً حيث علاوة عن لقب ملك الفرنجة الذي كان يحمله فانه صـار يحمل بجانبه لقب ملـك اللومبـارديين ، لا بل فان زواجـه من آديلائيد رسّـخ حقوقه كوريث للكارولنجيين . ومع ذلك فان أوتون ترك مقـاليد الحكم في هذه المملكة الى بيرانجيه الذي اعترف بتبعيته إليه وسيادته عليه فغدا من بين أوصاله . وكان التدبير الاحتياطي الوحيد الذي لجأ اليه أوتون هو سلخ عدد من المقاطعات من مملكة الپروڤانس وهي ڤيرونا وفريول وإستريا التي ضمت ثلاثتها الى دوقية باڤاريا الالمانية . ثمت عاد أوتون في سنة ٩٥٢ الى ألمانيا .

« لم يكن أوتون قد أخضع وبصورة نهائية أرستقراطية مملكة ايطاليـا المثيرة للشغب والقلاقل . ولتهدئة الحال فانه أخضع سنة ٩٦٣ بيرانجيه . وبعـد عدد من السنين فان الامبراطور هنري الثـاني (وهو الوريث أو الخليفة الثالث لأوتون الاول وكان في الاصل دوقاً لبارڤاريا ، وقد حكم الامبراطورية بعد وفاة أوتون/٣ سنة ١٠٠٢ ، واستمر عهده بين سـنتي ١٠٠٢ ـــ ١٠٢٤) ألحق الهزيمة بحفيد بيرانجيه واسمه آردوان Ardoin الذي كان قد تـوّج ملكاً ثم مدّ سلطته فشملت شمالي ايطاليا . ومـع ذلك فان مملكة ايطاليا قد ضمت الى مملكة ألمانيا منذ عهد أوتون الاول وبحق الفتح . ثم جاء انتخاب أوتون الثالث من قبل جمعية جرمانية ايطالية وذلك سنة ٩٨٣ وتتويج هنري الثاني في باڤيا (عاصمة اللومبارديين القديمة شمالي ايطاليا) وذلك سنة ١٠٠٤ ليزيدا ذلك الوضـع الراهن رسوخـاً وليضفيا عليه الشرعية .

« ومنذ مقام أوتون الاول في شمالي ايطاليا وللمرة الاولى فانه حلم بأن يتتوج إمبراطوراً . وقد أوفد سفارة من لدنه الى الحبر الاعظم آغاپيت ملتمساً منه منحه التاج الامبراطوري . وبنتيجة عدم استجابة المتربع على الكرسي الأقدس لذلك الطلب فان أوتون لم يُلحّ من أجل الحصول عليه . بينما غدا أوتون وبعد عشر سنين فقط أشدّ حاجة الى ذلك اللقب الامبراطوري كما صار من الممكن جداً حصوله عليه : فكان أوتون قد جعل من الكنيسة الالمانية كنيسة قومية خاضعة الى العاهل الالماني ، لكن الرئيس العالمي الذي يعترف رجال الإكليروس الالمان بتبعيتهم اليه هو الحبر الاعظم وهو غير خاضع الى السلطة الملكية الالمانية ، هذا فضلا عن أن بوسع العلائق فيما بين أساقفة جرمانيا والبابوية أن تعكّر صفو هدوء النظام السياسي الذي شيّده أوتون . لذلك غدا طبيعياً بالنسبة الى هذا الاخير ، لا بل فانه حلم بفرض سيادته على البابا بنفس شروط وخضوع أساقفة جرمانيا اليه . ولم يكفّ نفوذ العاهل الجرماني في هذه الفترة عن الازدياد ، كما وأن جنوده وغداة النصر المؤزّر الذي أحرزه على الهنغاريين حيّوه بلقب إمبراطور . وأخذ المؤرخون الحوليّون ومنذ عام ٩٥٥ هذا ينعتونه بلقب **أوتون العظيم** Otton le Grand . واستجابة الى طلب الحبرية العظمى قرّر العاهل الالماني التوجّه على رأس حملة ثانية الى ايطاليا »[1] .

لا جرم أنه لم يكن ثمة أباطرة منذ عدد من السنين . ولقد تتوّج ملك ايطاليا لويس البروڤنسالي إمبراطوراً في روما سنة ٩٠١ ، ثمت تتوّج خصمه بيرانجيه من سپوليت سنة ٩١٥ وحدثت وفاته بعد تسع سنين فكان هذان العاهلان آخر من حمل اللقب الامبراطوري وذلك للسبب الأوحد وهو أن آلبيريك « أمير الرومانيين » وممثلهم في مجلس الشيوخ كان يحول دون انتخاب سواه الى هذا المنصب مخافة ممارسة الشخص المنتخب سلطته في المدينة البابوية تلك السلطة التي ستحدّ من سلطة آلبيريك نفسه . وعبثاً

(١) لوس پيپتري ، مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الباب ٨ ص ٣٦٥ ـــ ٣٦٦ .

ما حاول الملك هوغ في سنتي ٩٣٣ و ٩٣٦ تغيير هذا الوضع لمصلحته حيث جوبه عند أبواب روما بمقاومة عنيفة جعلته يتراجع عن اختراق مخفر حرس المدينة . كما رفض أصحاب العلاقة بصورة جازمة وقطعية أن يكون أوتون نفسه امبراطوراً وذلك عند انتخابه ملكا لايطاليا (وذكرنا أن هذا اللقب الاخير كان مقتصرا على شمالي ايطاليا فحسب) سنة ٩٥١ . وكان عامئذ قد ظهر ممكنا أن يُكَلِّف واحداً من أكبر شخصيات بلاطه وهو رئيس مستشاريه فريدريك ، مطران مايانس ، بالذهاب الى روما للاتفاق على تفاصيل دخول موكبه الرسمي العظيم الى تلك المدينة وتتويجه فيها . بيد أن موت آلبيريك في هذا الظرف الجديد جعل الطريق الى روما حرّاً طليقاً دونما معارضة . لذلك لم يعد ثمة سبب للتريث والانتظار للحصول أخيراً على ذلك اللقب الامبراطوري الذي مضت عليه فترة طويلة بدون صاحب ؛ وأن يعاد الى هذا اللقب شيء من قيمته وأهميته الاولى . وهذا ما كان الملك بيرانجيه مستعداً الى القيام به (أي أن يذهب الى روما للحصول على التاج الامبراطوري) لو لم يعلن أوتون عن عزمه في الحصول على المنصب نفسه .

كان الباباوات وموظفو البلاط البابوي خاضعين ومنذ سنة ٩٣٢ الى سلطة آلبيريك « أمير الرومانيين » الآنف الذكر . وقد نجح في الحيلولة دون انتخاب بعض المرشحين الى الكرسي الاقدس ممن لا خلاق لهم فقضى بذلك على الفضائح التي كانت تلازم عملية انتخاب بعض الاحبار العظام . لكنه كان بمقابل ذلك شديد الحرص على ممارسة سيطرته وبصورة تامة على الحبرية العظمى ولا سيما على الباباوات الذين أوصلهم الى سدّة الكرسي الاقدس . وكان آلبيريك هذا هو الذي أوعز الى البابا آغاپيت أن يرفض ملتمس أوتون الاول بمنحه التاج الامبراطوري سنة ٩٥١ . وقد تمكن ابن آلبيريك هذا ويدعى أوكتاڤيان سنة ٩٥٥ أن ينتخب حبراً أعظم متخذاً لقب يوحنا الثاني عشر جامعاً بتلك الصورة في يديه السلطة الحبرية وعضوية مجلس الشيوخ (ذكرنا أن لقب أبيه هو أمير الرومانيين) . وكانت

حياة البابا الجديد مستهترة وأخلاقه فاسدة ، وكان شديد الطموح حيث ضم الكثير من المقاطعات : وهكذا نشب خصام بينه وبين بيرانجيه الـذي هاجم الممتلكات البابوية مما حدا بيوحنا الثاني عشر الى أن يستنجد في سنة ٩٦٠ بأوتون الاول ، وقد وعده بالتاج الامبراطوري مقابل مساندته وتأييده ضد بيرانجيه فهبّ أوتون لمساعدة البابا حيث قطع على رأس قواته جبـال الآلب ووصل روما في ٢ شباط ٩٦٢ مما سنتحدث عنه •

وكان البابا يؤثر أن تتم ممارسة السلطة على روما (من قبل الامبراطور المقبل) بصورة نظرية ، ويأمل أن تكون سلطة وسيطرة أوتون ملـك جرمانيا البعيد الدار من هذا النوع ويؤثرها على السيطرة القوية أو بالاحرى الاستعباد الذي سيخضع اليه على يد ملك قومي (أي ايطالي لانه قريب من مركـز البابوية) • لذلك فان البابا لم يتردد في أن يجعل ملك جرمانيا يتدخـل في شؤون ايطاليا وأن يأتي الى روما مطالبا بوراثة العرش الامبراطوري • وقد قصد وفد بابوي أوتون سنة ٩٦٠ ليوضّح له الامور بصورة نهائية • وقد اجتاز هذا الاخير جبال الآلب في شهر آب ٩٦١ عائداً الى ﭘاڤيا حيث هُتف له بلقب ملك ايطاليا ، ثم قصد روما سالكاً اليهـا الطريق عبر إيميليا والآﭘناين ، وأخيراً حطّ رحاله وعسكر هو وقواته في ٣١ كانون الثـاني ٩٦٢ عند جبل ماريو بالقرب من كنيسة القديس بطرس حيث تمّ بعد يومين (في ٢ شباط) مشحه بالزيت المقدس وتتويجه من قبل الحبر الاعظم ، ثم سُلّم عليه بدوره من قبل جمهور الحاضرين وحيّوه بلقبـي امبراطور وأغسطس •

إحياء الامبراطورية : [1] يخطىء الناس أحياناً بالنسبة الى تقدير أهميـة ومدى الحوادث التي استعرضناها • فيـذكرون أن ثمة « إعـادة تأسيس

---

(١) راجع من اجل ذلك : ١ ـ لوس بييتري ، مجموعة العالم وتاريخه عينها لموريس مولو ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الباب ٨ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨ •
٢ ـ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٥١ •

الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » ، علما أن حوادث التاريخ كانت سنة ٩٦٢ توالي مسيرتها ومجراها الطبيعي • ولم يزود عام ٩٦٢ العالم بتأسيس جديد للامبراطورية ولا بامبراطورية رومانية جرمانية •

وكان أوتون كالأباطرة الكارولنجيين أسلافه المباشرين في تولي هذا المنصب ، باللقب الذي أسبغ عليه وهو « الامبراطور الأوغست » ليس سوى مجرد رئيس للامبراطورية فحسب أي للامبراطورية الرومانية وهو اللقب الذي صار من المعتاد إطلاقه على تلك الامبراطورية منذ القرن الحادي عشر • ولم تتغير هذه التسمية أو هذا العنوان الا في فترة متأخرة وقد استبدلت في المرحلة الاولى باسم « **الامبراطورية القديسة** Le Saint empire » ، أو الاكثر مطابقة وهو الامبراطورية المقدسة مما لم يكن في واقع الحال سوى الاسم الذي كان يطلق وفق التعابير وأسماء المناصب الادارية في الامبراطورية البيزنطية • وأخيرا (وإن يكن ذلك لم يتم قبل القرن الخامس عشر) صار الاسم الذي يطلق على هذه الامبراطورية « الامبراطورية الرومانية المقدسة للشعب الجرماني » • ولم يختلف تتويج أوتون امبراطورا عن تتويج غيره ممن تولوا المنصب نفسه كلويس البروفنسالي أو بيرانجيه السپوليتي • ولا تأتي الاهمية التاريخية البالغة لتتويج أوتون مما يدعونه من أن ثمة تجديداً أو إحياء للامبراطورية انما من صفة خاصة تمتع بها هذا التتويج وهو أنه سوف لن يمنح التاج الامبراطوري منذ ذاك الا لأقوى عاهل في أوروبة الغربية أي الى العاهل الذي يستطيع أن يعيد الى اللقب الامبراطوري سابق عظمته وبهائه وسابق قيمته بعد أن كان فقد كل اعتباره في نظر المعاصرين وغدا اسماً بدون مسمى •

فلجميع ما ذكر يكون من الاصوب أن نتحدث عن احياء الامبراطورية وليس عن اعادة تأسيسها • وبعد أن مر على النظام الكارولنجي قرن من التقهقر والفوضى فان أوتون لم يأل جهداً في أن يعيد لهذا النظام سابق قوته ومجده • وبمجرد تتويجه صار أوتون يفكر بأباطرة مستهل القرن التاسع مؤكداً ومجدداً الامتيازات التي كان شرلمان ولويس التقي قد منحاها الى

الحبر الاعظم الروماني كما لم يدّخر وسعاً في أن يعيد الى حيّز التطبيق وعلى جناح السرعة الحقوق التي كان الاباطرة الكارولنجيون يملكونها في روما تلك الحقوق التي نُصَّ عليها في وثيقة شهيرة يعود تاريخها الى سنة ٨٢٤ وبموجبها فان انتخاب الحبر الاعظم وادارة الشؤون المتعلقة بالكرسي الأقدس يجب أن يكونا تحت المراقبة المباشرة التي يمارسها الامبراطور وموظفوه . هذا بينما لم يفكر البابا يوحنا الثاني عشر بذلك ، وذكرنا من قبل أنه يؤثر منح التاج الامبراطوري الى الملك الجرماني البعيد الدار على منحه لامير ايطالي قريب . فمن هذه الزاوية أصيب البابا بخيبة أمل ، وتعبيراً عن سخطه على ما ينوي أوتون القيام به من وضعه تحت المراقبة فانه حاول إثارة الملك بيرانجيه وابنه ضد هذا السيد الجديد الذي أخضع نفسه اليه والذي لا تلين له قناة . وبينما كان البابا يريد من أوتون أن يكون حامياً له فحسب فاذا به يغدو سيداً . وبنتيجة كون أوتون أقوى من المنافسين اللذين أثارهما البابا في وجهه فانه تغلّب عليهما بسهولة ، علما أن البابا علّق أمله الاخير عليهما في آخر الامر . ثم أتى أوتون الى كنيسة القديس بطرس في روما ليرأس فيها ، في تشرين الثاني ٩٦٣ ، مجمعاً دينياً يخالف بصورة كلية المجمع الذي ترأسه شرلمان في الكنيسة نفسها في أول كانون الاول ٨٠٠ من أجل اعادة اعتبار البابا ليون الثالث ، بينما استصدر أوتون من المجمع الذي ترأسه قرارا بعزل البابا الذي ظهرت عدم جدارته أو أهلّيته للتربّع على الكرسي الاقدس في فترة متأخرة ، وأمّن في جلسة المجمع نفسها انتخاب بابا جديد هو ليون الثامن .

وعبثاً ما حاولت روما المقاومة التي وصلت فيها الى الدرجة التي جعلتها تعيد في سنة ٩٦٤ يوحنا الثاني عشر الى منصبه ، وعند وفاته التي تمت بعيد عدة أسابيع (١٤ مايس) أبدلته ببابا آخر هو الحبر الاعظم المتمتع بأخلاق فاضلة ، بنوا الخامس . لا بل فان سكان روما رفضوا عند وفاة ليون الثامن سنة ٩٦٦ أي البابا الذي أمّن أوتون انتخابه وصلت بهم مقاومتهم الى طرد خلفه الذي قبل به الامبراطور على الرغم من أن هذا الخلف هو روماني

ومن نفس أسرة آلبيريك والبابا يوحنا الثاني عشر • ولم يكن لهذه المعارضة الصاخبة التي أبدتها روما من أثر سوى تعرّضها لنقمة الامبراطور سيّدها الجديد • وقد قدم أوتون مرتين الى روما على رأس قواته ليجعلها ترضخ وأنفها في الرغام الى إرادته التي لا تلين والى ميثاق سنة ٨٢٤ الذي أعيد تطبيقه بعد أن بات نسياً منسياً خلال سنين طويلة • وهكذا اضطرت روما والبابوية الى أن تقبلا شاءتا أم أبتا ورضيتا أم قسراً أن تكونا تحت وصاية وفي ظل حماية ملك ألمانيا •

وقد ولّى العهد الذي كان فيه اللقب الامبراطوري مجرد لقب تزييني زخرفي لا جدوى منه ، وأنه كان يمنح من قبل البابا الى بعض الملوك الايطاليين القليلي الاهمية • وذكر ملك جرمانيا عن نفسه أنه شرلمان جديد وأنه شديد الحرص على أن يكون عهده استمراراً لعهود الامراء الكارولنجيين ، وأنه سوف لن يُفرّط في شيء كي يُحقّق بشخصه وحدة الامبراطورية كما كانت عليه حالها في النصف الاول من القرن التاسع • وللوصول الى تمثّل ايطاليا وصهرها في بوتقة هذه الامبراطورية فان أوتون كرّس أطول فترة ممكنة مما بقي في حياته • وبعد بقائه في ايطاليا وبدون انقطاع من صيف ٩٦١ الى كانون الثاني ٩٦٥ ، كما عاد اليها لقضاء ست سنوات متوالية مترعة بالحوادث التي أثقلت كاهله وهي بين أيلول ٩٦٦ وآب ٩٧٢ حيث أبدى حرصا زائدا على أن يعيد الامور في جميع المناطق وخاصة في الولايات الجنوبية الى وضعها السابق بعد أن تغيّر هذا الوضع كثيراً خلال القرن العاشر الذي كان وشيك الانتهاء • فهذا الموقف الصلب الذي وقفه في ايطاليا اضطر الامبراطورية البيزنطية في آخر الامر الى الاعتراف به وبحكمه وبسيطرته على ايطاليا • وبعد أن أظهرت الامبراطورية البيزنطية ازدراءً واشمئزازاً في معاملتها لهذا العاهل الجديد وذلك على غرار معاملتها لشرلمان غداة تتويجه سنة ٨٠٠ فان الامبراطور البيزنطي يوحنا تزيميسيس Jean Tsimiscès اضطر الى التسليم بالامر الواقع ليس بالاعتراف باللقب الامبراطوري الى الملك السكسوني أوتون فحسب انما بعث اليه بأميرة من أسرة

البروفيروجينيت Prophyrogénète هي الفتاة الجميلة تيوفانو ابنة الامبراطور رومان الثاني وحفيدة الامبراطور قسطنطين السابع لتزفّ عروساً لابنه أوتون الثاني •

وفيما عدا القسم الخاضع للامبراطورية البيزنطية في ايطاليا والذي تراجع أوتون بنتيجة هذا الاتفاق الذي تم بينه وبين بيزنطة عن احتلاله كان سلوك أوتون في ايطاليا سلوك السيد غير المنازع • ولطالما قصد روما ، لا بل غالباً ما كان يشاهد ، وأكثر من رؤيته في روما نفسها ، في مدينة راڤينا التي كانت حاضرة الاباطرة الرومانيين الغربيين الأواخر حيث شيّد فيها لنفسه قصراً • وقد قضى فيها أعياد الفصح ثلاث مرات في ٩٦٧ و ٩٧٠ و ٩٧١ أثناء ستة الاعوام الاخيرة التي بقي خلالها في شبه جزيرة ايطاليا • وقد عقد فيها سنة ٩٦٧ اجتماعاً عاماً حضره البابا نفسه وهبّ اليه أكثر من خمسين أسقفاً مسرعين سواء من الولاية الرومانية أم من لومبارديا حيث بدا فيه الامبراطور في عنفوان قوته يحيط به موكب مهيب من النبلاء الايطاليين • وقد أحيا ، كما يبدو ، وبالنسبة الى بعض المناطق الايطالية أحد النظم الكارولنجية القديمة وهو نظام المفتشين الملكيين الذي يمكّنه من مراقبة ادارة دفة الامور فيها والموظفين عن كثب • كما أحيا أخيراً تقليداً قديماً وهو عقد المجالس العامة الكبرى التي كانت في العهد الكارولنجي والتي صار يتم عقدها سواء في ايطاليا أم في فرانكونيا أم في اللورين أم في سكسونيا ، ولم يكن يُفرّط في شيء ليضفي على هذه المجالس طابع العظمة ذلك الطابع الذي يذكرنا بالمجالس العامة التي كان يتم انعقادها في القرن التاسع •

وكان من يحضرون هذه المجالس وفيري العدد ومنتقين بعناية • ولربما صودف فيها بعض ملوك الاقاليم المجاورة الذين يعيشون في ظل تبعية الى أوتون أو في كنف حمايته ، كملك فرنسا لوثير الذي حضر سنة ٩٦٥ اجتماعا من هذا النوع في مدينة كولونيا ، وكملك بورغونديا كونراد الذي حضر سنة ٩٦٧ الاجتماع الذي عقد في مدينة ڤيرونا • وكان هؤلاء يحضرون لتقديم احترامهم الى أوتون وللمداولة معه في قضايا تتعلق بالحكم • كما كان

يشاهد في تلك المجالس ، وذلك على غرار ما كان يحدث في القرن التاسع ، موفدو الملوك البرابرة ، كملوك الدانيمرك وهنغاريا وقيصر بلغاريا وحتى أيضا موفد الخليفة الفاطمي في مصر (سنة ٩٧٣) • ويمثل هؤلاء الموفدون بحضرة أوتون حاملين الهدايا اليه • وتجعلنا قراءة وصف تلك اللقاءات من قبل المعاصرين نظن أنفسنا قد عدنا الى أيام شرلمان المزدهرة ، ولم يكـن الامبراطور الجديد أقلّ اهتماماً بالمصلحة العامة للمناطق الخاضعة اليه مـن شرلمان نفسه • ولئن لم يعد يصدر مراسيم امبراطورية تتعلق بشؤون الديانة أو بشؤون الادارة فكثيراً ما أملى تدابير عامة لها نفس الهدف كاصداره سنة ٩٦٧ في ڤيرونا ملحقاً لمجموعة القوانين اللومباردية •

واستمر عمله يحدث أثراً فيما وراء حدود ألمانيا وايطاليا ، ليس داخـل نطاق مملكة بورغونديا فقط انما حتى في فرنسا حيث استمر هذا الاثر واضحاً ونشيطاً خلال فترة أخرى بفضل أخيه برونو Bruno مطران كولونيا •

وبديهي أن سلطة الامبراطور الجديد اكتسبت طابع الرسوخ والديمومة ، وستنتقل الامبراطورية ، كما سيقول القصّاصون أي المؤرخون الالمان الى الأسرة الحاكمة في سكسونيا ولم يكن انتقالها مجرد انتقال عابر الى ملك جرماني ما • وكما تم قديماً لأسرتي پيپن وشرلمان فان أسرة أوتون قد مشحت بالزيت المقدس على يد الحبر الاعظم : لقد رسمت الملكة آديلائيد زوج أوتون سنة ٩٦٢ امبراطورة على يد البابا في نفس الوقت الذي تـوّج فيه زوجها العظيم • كما كرّس البابا يوحنا/١٣ في عيد ميلاد ٩٦٧ بيده أوتون/٢ ابنهما كولي للعهد الامبراطوري ، كما جـدّدت هذه البادرة في عيد فصح ٩٧٢ لمصلحة الامبراطورة تيوفانو زوجة أوتون/٢ الشابّة • وبذلك بدا أوتون وأنساله وكأنهم انتقوا ومـيّزوا من قبل الله • وبفضل تتويج ابنـه مقدماً على يد البابا كولي للعهد الامر المستلهم مما كـان يتم في عهـد الكارولنجيين الأوائل فان أوتون ضمن انتقال السلطة الامبراطورية الى ابنه مما قد يحدث من مفاجآت ، وعلى العموم اعتبر كثير من الكتّاب المعاصرين أوتون الاول شرلماناً ثانياً •

التجديد والاصلاح في ميداني الحياتين الدينية والفكرية في منتصف القرن العاشر : لقد أخطأ الكتّاب بكل تأكيد لانهم في ظل أوتون لم يُحْيُوا ماضياً أو يجدّدوه ، لكننا نجد لهم عذراً في خطئهم فيما إذا فكرنا أن نتيجة سياسة أوتون لم تكن بعث الحياة في امبراطورية محتضرة فحسب انما ، وذلك بفضل استقرار الامن وعودة الطمأنينة ، اعادة ازدهار الحضارة في غربي أوروبة تلك الحضارة التي سدّد اليها البرابرة في النصف الثاني من القرن التاسع وفي مطلع القرن العاشر ضربات قوية . فاذا ما لاحظنا النهضة الجديدة في ميدان الحياة الدينية في المملكة الجرمانية في أقاليم حوضي الموز والراين، واذا ما لاحظنا يقظة الافكار واستئناف العمل أو الانتاج الفكري في جميع المناطق التي يبدو فيها أثر الامبراطور السكسوني فكيف لا تتوهم أن عهد الركود الديني والفكري قد ولى وأن أيام حكم شرلمان الجميلة ستزدهر وشيكاً .

وقد ظهرت آنذاك نخبة مختارة من رجال الدين الاذكياء ، والنشيطين الدؤوبين ، والذين تدخّلوا من قريب في شؤون الحياة الدنيوية ، ومع بقاء هؤلاء مخلصين الى قضية الدين فانهم أسهموا بنشاط في اعادة النظام والهدوء الى ربوع أبرشياتهم وقد أيّدوا بقوة الجهود المبذولة منذ عدة سنين من قبل بعض المصلحين الاتقياء الورعين الذين ظهروا في بورغونديا وفي اللورين وحتى في جميع أقاليم حوض الموز ناشدين من وراء ذلك أن يعيدوا الى الحياة الديرية صفاءها الاول . ولم يكن لهؤلاء المصلحين الورعين الذين جعلت أديرة كلوني Cluny وغورز Gorze وبروني Brogne الشهيرة ولا سيما دير كلوني مهمتهم الإصلاحية الدينية تستمر وتدوم ، ولا الأوتون نفسه في مجال الحياة السياسية أي رغبة في التجديد . لا بل فانهم امتنعوا عن القيام بأي تجديد . وقد اقتصر ما كانوا يريدونه على جعل نظام الاديرة البندكتية يعود مجدداً ، وأن يحيوا النظام الذي كانت حياة الرهبان أنفسهم تقوم عليه، والعودة الى ما كان سائداً في هذا الصدد في العهد الكارولنجي . ومن أجل ذلك فان العاهل وأساقفته قد شجعوا هؤلاء المصلحين ، علماً أن تشجيع الأساقفة لهؤلاء ، كان أكثر من تشجيع العاهل نفسه . وقد حرص هؤلاء

الاساقفة على أن يجعلوا هؤلاء المصلحين مثلا يحتذى من قبل الرهبان الآخرين وساعدوا على نشر أفكارهم • لهذا شهدنا في منتصف القرن العاشر نهضة عامة للنظام الديري في جميع بلدان أوروبة الغربية وخاصة في مملكة أوتون• وقد أسس عدد من الاديرة الجديدة ، وزاد عدد الرهبان الذين دخلوا الى الاديرة القديمة التي صارت مأهولة بعدد كبير من الرهبان ، كما أعيد الاهتمام بممتلكات الاديرة أي الاراضي الموقوفة عليها •

عالج مارسيل پاكو Marcel Pacaut الاستاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة ليون تلك النهضة الدينية وازدهار الحركة الديرية في القرن العاشر وخاصة الاديرة الكلونية فقال ما نصه : « شعر عدد من مختلف الافراد في الاعوام الاولى من القرن العاشر بوجوب بعث النشاط في الحركة الديرية وجعل مثلها العليا تزداد قوة وانتشاراً • ثمت فان الاصلاح الذي كان القديس بنوا من آنيان Benoît d'Anian (وهو مصلح حركة الاديرة البندكتية وقد عاش في القرنين الثامن والتاسع (٧٥٠ — ٨٢١) ورفع الى مصاف القديسين) قد بدأه لم يتوقف عن اذكاء حماس نفوس الاتقياء على الرغم من الكوارث التي ازدادت في أيامه (ويقصد بها غارات الشماليين والسلاف والبلغار وأخيراً الهنغاريين على أوروپة الغربية) ، وقد انحصر عمل هؤلاء الافراد (الذين شعروا بوجوب تنشيط الحركة الديرية) في اقامة أو المساعدة في بعث ما تبقى من القواعد البندكتية هذا القسم الذي يستند الى القاعدة البندكتية • وعلى الرغم من وجود خلاف في هذا القسم الباقي من تلك القاعدة من مدينة الى أخرى ومن مؤسسة ديرية الى أخرى فان النظم أو القواعد البندكتية تختلف ذلك الاختلاف الذي ينبع من جهل بعض الاديرة أو الرهبان للنص الذي صدر عن دير مونت كاسّينو (المقر الرئيسي لحركة الاديرة البندكتية) • ومن بين هذه الحركات الاصلاحية للحركة الديرية القديمة فان نظام الاديرة الكلونية لم يكن له في الاصل ما يميزه عن باقي الحركات الناشدة للاصلاح • لكن هذه الحركة الكلونية سرعان مابذّت وتفوّقت على جميع الحركات الاصلاحية الاخرى بوفرة عدد الاديرة التي انضمت الى هذه

الحركة والتي أخذت بالازدياد • وقد أمكن للحركة الكلونية وفي نهاية القرن الحادي عشر أن تستقطب أو أن تغدو مركزاً لاهم وأقوى حركة ديرية عرفتها العصور الوسطى »[١] •

وقد أعيد كذلك تنظيم مكتبات الأديرة وذلك لان النشاط الديني ، وكما كانت الحال في عهد شرلمان ، كان يواكبه نشاط فكري • وقد وضح النشاط الديني بوفرة عدد النسّاك والزهّاد الذين يعيشون في هذا التقشّف في الأديرة وباستئناف مهمة التبشير بالديانة المسيحية في بلاد البرابرة القائمة على تخوم المملكة الجرمانية • ولم يكن النشاط الفكري بأقل من ذلك • ولئن لم ينشد النسّاك المصلحون سوى أمن النفوس وطمأنينتها وذلك عن طريق ممارسة الفضائل التي نصّ عليها الانجيل ، فان رؤساء الاديرة أي مقدّميها في عهد أوتون الاول لم يكونوا من جهتهم يترفّعون عن اضافة ثقافة دينية منتقاة بعناية زائدة ، وللوصول الى هذه الثقافة الدينية كانوا ينشرون ثقافة أدبية وفلسفية عالية ما وجدوا الى ذلك سبيلاً •

وفي هذه الزاوية أيضا لم يكن طموح رجال الدين في القرن العاشر خلاّقاً بنّاءً انما اهتموا أن يعيدوا ويحيوا ويجدّدوا • انهم انصرفوا الى نسخ المخطوطات القديمة لتعويض التي أتلفت في فترة التوسّع السكندينافي أو الهنغاري • وكما تمّ في عهد شرلمان فانهم استعانوا بالمعلمين الذين تمكنوا إبّان هذا التوسع والغارات من أن يصونوا في الاديرة والكنائس المحمية جيداً روائع وكنوز الحضارة القديمة التي كان العالم ما يزال يتزوّد من معينها والحفاظ على هذا التراث • أفلا نظن أننا رجعنا القهقرى لفترة ما قبل مائة وخمسين عاما عندما رأينا أوتون يُحضِرُ بمعيته هو أيضا من ايطاليا سنة ٩٦٥ بعض المفكرين ومن بينهم غونزو Gunzo أستاذ النحو في نوڤار[٢] ؟

---

(١) مارسيل پاكو M. Pacaut : الحركات الديرية والدينية في القرون الوسطى ، وهو كتاب صدر في باريز سنة ١٩٧٠ ، الفصل ٥ ، ص ٥٢ .

(٢) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

ولا يرقى الشك الى أن ألمانيا في عهد أوتون وفيما يتعلق بالزواية الفكرية لم تصل الى المستوى الفكري الذي بلغته إمبراطورية الفرنجة في القرن التاسع عندما كانت في مستهل نهضتها الفكرية • وعلى الرغم من رغبة الامبراطور السكسوني في أن يتثقف فانه لم يتوصل اطلاقاً الى أن يفهم جيداً اللغة اللاتينية ، ولم تعد الايام الجميلة التي شهدها بلاط آخن الكارولنجي من جديد • لكن ابن أوتون الاول سيكون مثقفاً ومن رجال الفكر في عهده كما سيكون أخوه برونو مطران كولونيا من رجال الفكر أيضا ، لا بل فان روائع المؤلفات في ذلك العصر ستكتب في سكسونيا ، ومن بينها تواليف الراهبة هروتسويت Hrotswit وهي من دير غاندرشهايم Gandersheim التي ندين اليها بالقصائد التي نظمتها في مدح أوتون وبعدد من القصائد الدينية ، وبمحاورات نثرية تتعلق ببعض المشاهد الغريبة اقتبستها من طريقة الشاعر الهزلي الروماني تيرانس Terence(وكان في القرن الثاني قبل الميلاد) التي جعلتها تلائم بعض الغايات التقية الورعة •

وقل الامر نفسه بالنسبة الى أهم مؤرخي العصر وهو ويدوكيند Widukind، وكان راهباً في دير كورفيه Corvei في ويستفاليا • وعندما كتب هذا المؤرخ في ديره كتابه تاريخ السكسون كان مثله الاعلى هو أيضا أن يتقرّب ما تمكن من ذلك ، سواء من حيث الاسلوب والعرض أم من حيث الافكار من المؤرخين القدامى الذين عرفناهم في عهد شرلمان من أمثال إيجينهارد وبولس دياكر ومن ورائهم مؤرخو العصور القديمة (الإغريقية والرومانية) أي العصور الكلاسيكية ومن بينهم تيت ليف Tite Live وسالّوست Salluste • وكانت نتيجة عمل ويدوكيند متوسطة الاهمية لانه بقي سكسونياً أي ضيّق أفق التفكير ولانه لا يفقه شيئا من أمور السياسة • لكن الجهد الذي بذله والثقافة الكلاسيكية (الاتباعية) التي يغصّ بها كتابه أعطيا هذا الكتاب طابعه الخاص •

وفضلا عن ذلك فان ويدوكيند وهروتسويت كانا سكسونيين أي من ألمانيا التي لم تنتشر الحضارة في ربوعها الا في فترة متأخرة • أما في باقي

الولايات الامبراطورية فقد كانت التواليف الادبية أعلى شأناً وأسمى منزلة . ولدينا مثل هام في ملحمة شعرية تثير الاعجاب ، ومع أنه من الصعب تحديد المكان الذي نظمت فيه فمن المحتمل أن ذلك أنجز في دير القديس غـال St. Gall (في سويسرا) حوالي منتصف القرن العاشر : وقصة والتاريوس Waltharius الشهيرة أو روايةأعمالالفروسية التي قامبها البطل الشجاع والتر Walther وهي على غرار قصائد البطولة الفرنسية كأغنية أو قصيدة رولاند وقصيدة راؤول دو كامبريه الفرنسيتين[1] .

بحث الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قضية النهضة الفكرية التي شهدتها ألمانيا في القرن العاشر أي في ظل إمبراطورية أوتون/١ مثبتاً آراء كل من المؤرخين الإنكليز پول Poole ووادّل Waddel وفوليغنو Foligno مورداً بصدد ذلك ما نصه : « ربما بدا من كلامنـا السابق عـن النهضة الكارولنجية أن هذه النهضة اقتصرت على غاليا وجزء من ألمانيا ، وهيالجهات التي كانت تمثل قلب الإمبراطورية الفرنجية . ولكن حدث في القرن العاشر عندما نهضت ألمانيا في ظل الأسرة السكسونية أن انتقلت النهضة الأدبية الى شمال ألمانيا حيث ازدهرت في أديرتها . ذلك أن الإمبراطور أوتو العظيم لم يعمل على اقتفاء أثر شرلمان في الجانب السياسي فحسب بل أيضاً في الجانب الحضاري ، مما أدى الى ازدهار الثقافة في المانيا . وكان رائد تلك الحركة الفكرية برونو Bruno رئيس أساقفة كولونيا (ذكرنا أنه أخو الإمبراطور أوتون/١ نفسه) ، الذي أظهر اهتماماً بالغاً بتشجيع العلم والثقافة ، كمـا دفعه شغفه بعلوم القدماء الى تعلّم اللغة اليونانية من الرهبان الأيرلنديين في ألمانيا . وهكذا تمخضت النهضة الأدبية أو ــ السكسونية ــ عن بضعة أعلام مثل ويدوكند Widukind مقدّم دير كورڤي وأمهر كتاب التاريخ في ألمانيـا وهورتسويثا Hortswitha التي دوّنت مجموعة من القصص الدرامية في أسلوب لاتيني على درجة كبيرة من الجودة والنقاوة جعلت علماء النهضة

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٥ ، القسم ٢ ، الفصل ١٠ ، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٥ .

الإيطالية في القرن الخامس عشر يشكّون في صحة نسبة هـذا الإنتـاج إليهـا »[1] .

وتلك الزوايا أو النواحي لا يمكن أن تُشَكِّل مع نظيراتها حياة فكرية قوية إنما تشير الى يقظة الأفكار التي بدأت آثارها تلاحظ حتى في خارج نطاق الأديرة ، بين أوساط رجـال الدين العصرين أو العلمانيين . وكانت المدارس الأسقفية الموجودة بجوار حوض الموز سواء ما كان منها في مملكة فرنسا أم في ألمانيا قد أخذت في الواقع وتدريجياً تعنى بالحياة الفكرية . وقل الأمر نفسه بالنسبة الى مدرسة لييـج في عهـد الأسقف راتييه Rathier (٩٣٣ ــ ٩٥٥) ، وبالنسبة الى فترة الأسقفين إيراكل Eracle (٩٥٩ــ٩٧١) ونوتجير (٩٧٢ ــ ١٠٠٨) في هذه المدرسة . كما عنيت كذلك مدرسة رينس بتلك الحياة الفكرية وكان لها علائق وطيدة برجال الدين الألمان ، وهـذه المدرسة التي كانت مزدهرة حتى قبل القرن العاشر خرّجت في هذا القرن بعض الكتّاب الذين كان أهم من يمثلهم وبـدون شك المؤرخ **فلودوارد** Flodoard (المتوفى سنة ٩٦٦) وذلك بانتظار جيربرت الشهير الذي مارس التدريس في هذه المدرسة منذ سنة ٩٧٢ . فتلك المدارس التي دبّت فيهـا الحياة وأولئك الكتّاب الذين أحييت بفضلهم تقاليد العهد الكارولنجي في هذا الميدان ، وتلك الحياة الدينية التي استؤنف نشاطها وتفتّحت براعمهـا وازدهرت تلكم هي الثمرات الأولى للجهد الجبار الذي بذله أوتون لإعـادة القوة العسكرية والسياسية الى ألمانيـا . ومن المعلوم من ناحيـة أخرى أنه تمّ في فترة حكم أوتون ظهور يقظة للنشاط الفني الذي لم يبق مـن إنتاجه سليماً وبصورة جيدة سوى نماذج قليلة جداً لا تُمكِّن من الحديث عن هذا النشاط بصورة دقيقة ، ويجب أن نضيف الى ذلك استئناف النشاط الاقتصادي في العهد نفسه .

لكن النقطة الرئيسية التي تسترعي الاهتمام، هي أنه في خضمّ ذلك الصراع العنيف الذي احتدم مرّة أخرى بين الحضارة البربرية فإن هذه الأخيرة منيت **بالهزيمة مجددا في سوح المعركة في أوروبة الغربية** .

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، النظم والحضارة ، الباب ٩ ، الآداب ، ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ .

الفصل الثالث عشر

النظام الاقطاعي في أوروپة في العصور الوسطى

انهيار الامبراطورية الكارولنجية وظهور نظام الاقطاع : أدّى المبدأ الفرنجي القديم القاضي بتقسيم المُلك أنصبة بين أولاد الملك المتوفى وما جرّه من فتن واضطرابات داخلية وما سبّبه من حروب استعرت بين الإخوة أبناء الملوك الميروڤنجيين الى ضعف وبالتالي انهيار الدولة الميروڤنجية التي قامت الدولة الكارولنجية على أنقاضها .

لم يتّعظ ملوك الكارولنجيين بما حاق بأنسال كلوڤيس من عواهل الميروڤنجيين بسبب تمسّكهم بتقاليد قومهم من مختلف قبائل الفرنجة إنما مضوا وبصورة عامة من بعد شرلمان على سننهم من حيث الحفاظ على مبدإ تقسيم الملك بين أصحاب الحقّ من ورثة الملك المتوفى. ولئن لم تظهر مساوىء هذا النظام في أول عهد لويس التقي ابن شرلمان وذلك لأن أخوي هذا الإمبراطور كانا قد توفيا قبل موت أبيهما شرلمان نفسه سنة ٨١٤ .

ومن الثابت أن ملوك الكارولنجيين الذين حكموا في الفترة التي أعقبت وفاة شرلمان مباشرة أظهروا حرصاً شديداً على التمسّك بوحدة الإمبراطورية. لكن الخلافات التي ذرّت قرنها بين الإخوة وكرثت إمبراطورية الكارولنجيين أدّت الى تجزئة تلك الإمبراطورية . وللاحظتهم وعلى صعيد الواقع استحالة الحفاظ علك تلك الإمبراطورية فإنهم اكتفوا بأن يحافظوا على الأقل على اللقب الإمبراطوري نفسه ، ذلك اللقب الذي عُرّي من مضمونه أو مدلوله السابق وغدا أجوف أو اسماً بدون مسمى. وهكذا أمكن وتبعاً لذلك الحفاظ ، كما كان مرّ بنا ذلك من قبل ، على الفكرة الإمبراطورية أو اللقب الإمبراطوري بدون أن

يتمكن حامله من ممارسة أية سلطة فعلية في الأقاليم التي آلت إليه من تركة أبيه المتوفى •

ولم يقتصر الضعف وفقدان السلطة الفعلية على حامل اللقب الإمبراطوري فحسب إنما سرعان ما شمل ضعف السلطة المركزية الكارولنجية جميع الملوك الكارولنجيين وذلك لحساب الأسياد المحليين أي الأدواق أو نواب الكونتات حكام الأقاليم في الدولة الكارولنجية • وقد تمّت زيادة سلطات أولئك الحكام المحليين بنتيجة خطإٍ بعض عواهل الكارولنجيين ولا سيما شارل الأصلع ظناً منه أن ازدياد سلطة الحكام المحليين سيؤدّي وبطريق غير مباشر الى رسوخ قوة السلطة المركزية • بينما كانت نتيجة ذلك العكس حيث تمخّض عن زيادة قوة الحكّام المحليين تقلّص وضعف السلطة المركزية وانهيارها بالتالي وظهور النظام الإقطاعي موضوع دراستنا في هذا الفصل •

عالج الأستاذ يوسف كالميت J. Calmette قضية انهيار حكم الكارولنجيين وظهور النظام الإقطاعي فقال بصددها ما معناه ، وذلك بعد الأزمة التي استشرت في عهد لويس التقي : « •••• ولئن أخذنا بعين الاعتبار الخصومات التي ظهرت بين الأمراء الكارولنجيين : بعد إقرار تقسيم ڤردان فإنه يمكن القول بأن انهيار الدولة الكارولنجية قد تم وبصورة جذرية بنتيجة عمل التحوّل الخفي الذي نتج عنه النظام الإقطاعي • لقد انهارت كل من السلطة السياسية المركزية والأسرة الحاكمة وذلك في نفس الوقت الذي ظهر فيه مجتمع جديد •

« **التحول السياسي :** خضعت السلطة السياسية الممارسة من قبل العواهل الكارولنجيين الى تطور جذري•إنها انحلت وتفككت وببطء تحت وطأة النظم والمؤسسات التي اشتقت من الولاء الشخصي الذي كان يربط كل فرد من رعايا الكارولنجيين بالعاهل ، وهو رباط التبعية Vassalité أو الذي يربط الصانع الحرفي بمعلّمه وهي رابطة المعلمية Patronat (إن صحّ هذا التعبير) •••• لقد كانت الملكية الكارولنجية ، ومن حيث المبدأ ، متمتعة بالسيادة وممارسة لها ، وهي وريثة السلطات الإمبراطورية التي نصّ عليها

القانون الروماني العام • وهي تتمتع فضلا عن ذلك بسلطة أخلاقية عليا ، كما أضفى مشح عواهلها بالزيت المقدس وتتويج الأحبار العظام لبعضهم عليها هالة قدسية • ومع ذلك فإن يمين الولاء الذي كان يشدّ الفرد من الرعية (أي التابع الموالي) الى الملك كان بمثابة رباط شخصي • لا بل فإن أيمان الولاء التي كان الأفراد أو رعايا ملكٍ ما يؤدّونها إليه لم يعد هؤلاء يؤدونها إلا كأوصال أو تابعين الى سيدهم ، أو يؤديها بعضهم كصنّاع أو أجراء الى معلمهم الحرفي • وهذا ما كان يتمّ ومنذ عهد شارل الأصلع • إذ ذاك استولى هؤلاء الاسياد وبصورة بطيئة على السلطات العامة واستأثروا بها ، ذلك الاستيلاء الذي نتج عنه وعلى الصعيد السياسي نظام الاقطاع •••• وكان أن صارت كلمتا الاتباع (وهي تقابل les fidèles أي أفراد رعية الملوك) والاوصال (وهي كلمة les Vassaux أي محميّي السيد وهو النبيل الإقطاعي) مترادفتين •••• وكانت نتيجة ذلك أنه لئن شجع شارل الأصلع في فترة النصف الثاني من عهده جعل كل فرد من رعيته مرتبطاً وخاضعاً لسيد فإنه كان يحرص من وراء ذلك على تسهيل مهمة إدارة ولايات مملكته ، وأن يكون بوسعه ، وعن طريق أولئك الأسياد فرض سيطرته على كل فرد من رعيته مهما كان مستواه الاجتماعي • لكن هذا الحرص أدى وفي الوقت نفسه الى ظهور سلطة مريعة هي السلطة الاقطاعية التي بدأت ترسل جذورها في الارض لترسخ ••• »[1] •

جذور النظام الاقطاعي وأصوله : تتضح الصفات الاساسية للنظام الاقطاعي بجذوره التي تربطه بنظام التبعية أو الاوصال le Vasselage الكارولنجي ، ونظام التبعية أو الولاء هذا ، وبمقتضى المعنى الواسع لهذه الكلمة ، هو الذي كان موجوداً في جميع الأزمنة وفي شتى البلدان • فالتابع أو الوصل (ويقال له كذلك الفَصَل وهي أداء لنفس الكلمة الاجنبية) le Vassal بموجب مدلول هذه الكلمة منذ القرن الثامن والذي كان عبارة

---

(1) يوسف كالميت ، مجموعة تاريخ الشعوب العام لماكسيم بوتي M. Petit المذكورة ، المجلد ١ ، القسم ٤ ، الفصل ٥ ، ص ١٨٧ .

عن الرجل الخاضع أو التابع لرجل آخر ، هو من حيث المبدأ وكما كانوا يقولون عنه في تلك الحقبة **زبون أو عميل أو محمي ّ رجل حر ّ ثان ،** شريطة أن يكون هذا الرجل الحر ّ أسمى منزلة بالنسبة الى نظام تسلسل الطبقات الاجتماعية ، أو من الذين ابتسم لهم الدهر وواتاهم الحظ ّ أكثر من محميّيهم • وقد جرت العادة أن يُلَقّبَ المحميُّ حاميه بالسيد Seigneur أي الشخص المسن ّ الذي يُمَثّلُهُ في مجلس الاختيارية (وكان يدعى كذلك : مجلس الكبارية) le conseil des anciens ، أو معلّمه الحرفي Son patron • ومع ذلك فإن نظام التبعية الكارولنجي كان ، كما يذكر المؤرخون ، مختلفاً نوعاً ما عن هذا التعريف • فعند التماس حماية سيد ما فإن التابع أو الوصل الذي التمس الحماية يقسم للسيّد يميناً على أن يكون مخلصاً له بصورة مطلقة ، ويؤكد هذا اليمين بإشارة رمزية : حيث يضع الوصل يديه مجموعتين بين يدي السيد الذي التمس حمايته ويعده أن يكون وفيّاً له ودونما تحفّظ[1] •

تحدث أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة في كتاب الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا (المترجم عن الإنكليزية وهو للاستاذ كوپلاند ــ أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة ليفرپول بإنكلترا ــ وللأستاذ فينوغرادوف ــ أستاذ فقه القانون بجامعة أكسفورد ــ) عن يمين الولاء وتقليد السيد صاحب الإقطاع إقطاعه الى محميّه فأورد ما نصه : « وأركان العقد الإقطاعي هي يمين الولاء والتقليد • أما يمين الولاء فلتأديته يحضر التابع بنفسه الى سيّده الذي يمنحه الإقطاع ، وربما يكون السيد ملكاً ، أو تابعاً إقطاعياً عليه بدوره تأدية يمين الولاء للملك ، فيركع التابع أمام السيد في حضرة حاشيته ، ويضع يده في يده ويقول : « أقسم بأن أكون لك مخلصاً موالياً إخلاص التابع وولائه لمتبوعه » • وأحياناً يضيف التابع : « أتعهد بالقيام بذلك ما دمت تابعاً لك ، مقيماً على إقطاع من أرضك » •

---

(١) راجع ذلك في : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ٥ •

« ويقابل هذا اليمين ما يردّ به السيد في تقليد التابع ، إذ يُقَدِّم لتابعه علماً وعكازاً ومثالاً مكتوباً (شهادة) ، أو أي دليل آخر على الأرض الإقطاعية الممنوحة • واختلفت هذه الاجراءات باختلاف الأقاليم ، كما اختلفت صيغ اليمين والتقليد باختلاف درجات التابعين في السُّلَّم الإقطاعي ، وأدناهـم درجة الأقنان ، أي الفلاّحين ، فيتسلّم القنّ أرضه من ناطور (أي خولي) السيد الإقطاعي بعد تأدية صيغة معيَّنة من يمين الإخلاص ، وإشارة الناطور للقنّ بدخول الارض ، وتحرير محضر بذلك يودع في محفوظات محكمة السيد »[1] •

بيد أن نظام التبعية هذا أو الاوصال كان قد انتشر وعمّ اللجوء إليـه منذ فترة حكم شرلمان الى درجة رأى هذا العاهل معها الإفادة منه ، كأن يوعز مثلاً ، في حالة التعبئة العامة أي استنفار كافة قوات الإمبراطورية الكارولنجية ، الى الاوصال بالانخراط تحت إمرة وقيادة أسيادهم سعياً منه وراء تسهيل عملية حشد وتعبئة جميع القوات المؤلفة لجيشه •

ولا ريب في أن لجوء الملكية الكارولنجية الى الاسياد لحشد قواتهـا أضعف في النهاية سلطتها المركزية وقضى عليها في نهاية الشوط لذلك ليس من **مبالغة في قولنا** أن الملكية الكارولنجية كانت بتشجيعها هـذا النظـام وباستخدامها النبلاء الإقطاعيين كوسطاء بينها وبين أفراد شعبها كانت كمن سعى الى حتفه بظلفه حيث ما لبثت تلك الملكية أن انهارت من جراء ازدياد قوة واستفحال خطر أولئك النبلاء الإقطاعيين •

وبعد أن ضعفت السلطة الملكية الكارولنجية بدا للعـاهل أنه بات من الأفيد له أن يجعل الأسياد وسطاء بين السلطة المركزية ورعاياه الذين غدوا أوصالاً وتابعين لهؤلاء الأسياد ، وقد سُرَّ العاهل أنه كلّف هؤلاء الأسياد ، وتحت طائلة مسؤوليتهم أمامه بالسهر شخصياً على قيام أتباعهم بواجباتهم

---

(1) ج. و. كوپلاند و ب. فينوغرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا . ترجمه عن الانكليزية أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ص ٦٤ ــ ٦٥ . الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة ١٩٥٨ .

نحوه مما كانت نتيجته السموّ بنظــام الأسياد le Séniorat والتبعية الى مصافّ النظم العامة المطبّقة في الدولة وزيادة انتشارهما حيث أنه بدرجة ما كان يزداد ضعف أو أزمة الملكية في مختلف الدول التي ولدت من تجزئة الامبراطورية الكارولنجية بدرجة ما كان الملوك يرون تدخّل الأسياد بينهم وبين أتباع هؤلاء ضرورياً ، وبدرجة ما كان الملوك أنفسهم في الفترة التالية يوصون السواد الأعظم من رعاياهم بالانخراط تحت لواء الأسياد • وبمجرد ابتداء القرن العاشر صار شاذّاً أو غير طبيعي أن تجد شخصاً عادياً بدون أن يكون له سيّد أو حام • وأدى عجز الملوك الواضح عن التغلّب بوسائلهم الخاصة على الغزوات التي استمرت تكرث أوروبة الغربية طيلة فترة طويلة الى السير قدماً بعجلة التطور الذي كان من السهل التنبؤ بنتائجه : لقد زادت قوة السيد الى درجة غدا معها الحامي الوحيد القوي • واضطرت السلطة الملكية بصورة بطيئة وغير مرئية ولا محسوسة الى التنحّي عن كرسي الصدارة لتتبوّأه سلطة الأسياد le pouvoir seigneurial • لذلك فنحن لا نستغرب أبداً أن يعمد الممثلون الطبيعيون للملكية في الولايات ، وهــم الكونتات وموظفو الــدولة الآخرون ، في ظل تلك الظروف أن يؤلّفوا ، ولحسابهم الخاص ، جماعات من الزبائن المحميّين أو الأتباع بغية التعويض عن تناقص نفوذهم أو إبداله ، وضمور وتقلّص نطاق أعمالهم كممثلين رسميين للسلطة المركزية العامة بازدياد نفوذهم المطّرد وقوتهم كأسياد leur puissance seigneuriale . وسرعان ما صار الأسياد الذين زاد عدد أتباعهم أو أوصالهم عن أوصــال الأسياد الآخرين الأكثر نفوذاً في الدولة من حيث أنه سيكون بوسعهــم الاعتماد على هؤلاء الاوصال في الاوقات العصيبة الحاسمة • وبتلك الصورة نسي الجميع أن أولئك الأسياد كانوا بالامس موظفي الادارة العــامة ولم يعودوا يرون فيهم سوي أسياد متمتعين بقوة زائدة • وبدلاً من أن يكون بعضهم حكاماً لولايات (كونتيات) بسيطة صار بحوزتهم مجموعات من الولايات التي رأى الملك في فترة انهيار سلطته وجوب جمعها لهم أو ، وذلك هو الأعمّ ، التي تساهل بأن ترك لهم مهمة جمعها ليؤلفوا منها ولايات ثغور وعواصم (ولايات حدود marches) ودوقيات ذات رقعة كبيرة جداً أحياناً :

وهي مناطق عرفت بأنها مناطق عسكرية لكنها فقدت منذ مستهل القرن العاشر صفتها الاولى لتبدو كولايات واسعة ذات طابع إقطاعي • ولم يعد هؤلاء الأسياد حكام المقاطعات يتذكرون إلا بنسبة قليلة جداً أنهم يمارسون سلطاتهم، ولو من الناحية النظرية ، باسم الملك الذي أوسد إليهم تلك السلطات • ثم فان ألقابهم أي مناصبهم كدوقات أو ككونتات صارت وراثية ، بصورة واقعية في أول الامر ، وأخيراً ومع مرور الزمن صارت بصورة قانونية •

لاحظ الاستاذ إدوارد پروا Ed. Perroy أن ظهور نظام الإقطاع أدّى الى ضعف الملكية وفقدانها سلطاتها ، فقال بالنسبة الى هذا الموضوع ما نصه : « لم يبق في أوروبة في القرن الحادي عشر ما يشبه تلك السيطرة السياسية التي كانت تتيح للعاهل ، وبواسطة عمّاله الأوفياء في الأقاليم ، أن يُسَوِّدَ النظام والسلام داخل نطاق رقعة كبيرة من الأرض •••• » •

وبعد أن كان هذا المؤرخ قد تحدّث عن فرنسا فإنه والى حديثه عن ألمانيا وغيرها فقال ما نصه : « وفيما عدا جرمانيا التي كانت بلداً محافظاً وبقوة على التقاليد السياسية الكارولنجية ، وحيث ينضمّ فيها المنصب الإمبراطوري الى الملكية ويدعمها بغية زيادة نفوذ هذه الاخيرة بعد أن كانت طاقاتها قد استنفدت من جرّاء وفرة وتنوّع المهام الملقاة على عاتقها لا سيما وكانت جهودها مبعثرة بين كل من روما وولايات الثغور والعواصم السلاڤية فكان من شأن كل ذلك سرعة انحلال السلطة الامبراطورية • ولوحظ أنه منذ سنة ١٠٧٥ ، وكما كان قد حدث في فرنسا نفسها أو في إيطاليا الى ما قبل مائة عام خلت فإن السيادة التي كانت الملكيات تمارسها قد عُرِّيَت من أية قوة حقيقية وبدون أن يقضى عليها نهائياً فانها صارت مجرد شيء أسطوري أو خرافي • ومع ذلك فان الملك المتمتع بالقدسية تمكن وأمام ناظري الجميع من احتلال مركز الصدارة والأولوية في المجتمع وأن يَتَنعّتَ بأوصاف لا يمكن أن يتصف بها بنو البشر • وقد أَلّفَتِ الأساطير حول شخص هذا العاهل وأحاطته بإكليل من الغار السحري • إن الزيت المقدس الذي يمسح الملك بواسطته في يوم تتويجه أو تعيينه تذكر تلك الاساطير أنه مجلوب من السماء•

وأنه بوسع الملك وبلمسات من يديه أن يشفي بعض الأمراض . وعلى العموم فإن هذا العاهل الذي صار بمثابة نصف كاهن أو رجل دين والذي سما على أترابه من باقي الرجال ، وأنه ليس بوسع أحد أن يمسّه بسوء لأنه تجسيد للنظام الإلهي ، ومع ذلك فإنه وعلى الرغم من سموّ الفكرة التي كوّنها النظام الاقطاعي عن المنصب الملكي فإن الملوك أنفسهم جُرِّدوا من ممارسة أية سلطة فعلية . وأن القسم الأهم من سلطتهم لم يعد متّسماً بصفة ملكية إنما إقطاعية أو أسرية : فالملك الذي لا يمكن أن يكون تابعاً أو وصلاً لسواه يتقدّم إليه أهم زعماء المملكة ولاءهم . وأسوة بباقي الأسياد الإقطاعيين فإنه يعيش في ممتلكاته الأسرية في أملاكه الأميرية ، أي دومينه ، الإرثية كسيد للأرض وحامٍ مباشر للفلاحين العاملين عليها . وعلى الرغم من ذلك فإن تلك القوة التي تمتّع بها هذا الملك كسيد إقطاعي هي هزيلة ... »[1] .

وبمقابل ضمور سلطة الملوك السياسية وتقلّصها في ظل النظام الاقطاعي فإن هذا النظام ساعد هؤلاء الملوك على أن يجنوا منه بعض الفوائد حيث سرعان ما صار الملوك أنفسهم بمثابة نبلاء إقطاعيين . وهكذا غدا الملوك في غربي أوروبة ومنذ القرن التاسع أسياداً إقطاعيين وصار لهم أتباعهم (أوصالهم أو أفصالهم) الخاصون . وقد اهتموا بزيادة عدد هؤلاء الاتباع مستميلين بهذه الوسيلة ورابطين بأشخاصهم وبصورة متينة جميع الأعيان المتمتعين بنفوذ كبير في المملكة . وبذلك كفّ هؤلاء الملوك وبصورة تدريجية عن الظهور بمظهر العواهل . ونظراً لأنهم غدوا محتلين لقمة ذلك الهرم الاجتماعي الجديد (المنضدة طبقاته بعضها فوق بعض وفق تسلسل الطبقات في ظلّ النظام الإقطاعي) ، أو محتلين قمّة تلك السلسلة من الأوصال المحميّين والأسياد الحامين ، فإنهم طالبوا وقبل انتهاء القرن العاشر بأن يكون لهم لقب « سادة الأسياد les seigneurs des seigneurs » ذلك اللقب الذي لم يتعنّم فقهاء القانون في الفترة التالية أن منحوهم إياه . وهكذا لم يغد الملوك في ظل

---

(1) إدوارد پروا ؛ مجموعة غروزيه Grouzet المذكورة عن تاريخ الحضارات ؛ المجلد ٣ الخاص بحضارة العصور الوسطى ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ١ ؛ ص ٢٣٨ .

النظام الإقطاعي وبعد أن صار لهم محميهم وأوصالهم مجرد نبلاء إقطاعيين إنما صاروا سادة أو رؤساء لأولئك النبلاء الإقطاعيين[١] •

وبالإمكان أن نستخلص من هذا العرض إحدى الصفات الاساسية لنظام الاقطاع وتلك الصفة هي أنه نظام قائم على مشاركة حرّة بين أفراد يُشَدُّ بعضهم الى بعض بواسطة أيمان متبادلة يتعهد بعضهم بموجبها أن يسبغ حمايته على أوصاله بينما يتعهد هؤلاء في أيمانهم بالوفاء لأسيادهم • وهذا النظام مناقض للنظام الملكي الذي ينصّ على طاعة كل فرد بصورة مباشرة الى سيّد البلاد الذي يُجَسِّد في شخصه قوة الدولة •

لكن هناك صفة رئيسية ثانية لهذا النظام ظهرت بوضوح ومنذ فترة قديمة جداً وهي أن عقد المشاركة الذي يربط السيد بتابعه يبقى مُعَلَّق التنفيذ حتى يُقَدِّم الأول الى الثاني ملكاً عقارياً • وتَمَلُّك العقار كان مظهر الثروة الوحيد الذي يمكن نقله أو التنازل عنه الى الآخرين بسهولة ، وتقديم العقار الى التابع من شأنه أن يحثّه على أن يضع نفسه وطواعية تحت تصرّف السيد وتمكين هذا الاخير من الحصول على الأدوات التي تتيح له القيام وبصورة مرضية بالأعباء العسكرية المفروضة عليه والتي كانت آخذة بالازدياد وبصورة مطّردة • وذلك التنازل الشرطي والمحدود عن ذلك المُلك العقاري لقاء خدمة هو ما جرت العادة ومنذ فترة طويلة بأن يطلق عليه لقب تملّك حقّ المنفعة أي الانتفاع بريع le bénéfice ذلك العقار (وليس معنى ذلك التملّك المطلق أي تملّك رقبة العقار) • وكان ملوك الميروفنجيّين يمنحون الى موظفيهم ما دام هؤلاء على رأس العمل وقائمين بأعباء تلك المناصب حق استثمار بعض الأملاك الاميرية ــ وهي الاملاك العامة أو أملاك الدولة ــ (أي تمليكهم تلك الأملاك ملكية انتفاع لاستثمار ريعها وإبقاء ملكية رقبتها للدولة) • وكانت تلك العملية بمثابة تعويض لهؤلاء الموظفين أو منحهم أجراً ، وكان الأسياد (النبلاء) نشداناً منهم أن يكون بمعيّتهم عدد من الأتباع قد لجؤوا

---

(٢) راجع من أجل تفصيل ذلك : لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٦ ؛ القسم ١ ؛ ص ٦ •

ومنذ فترة مُبكّرة الى هذه الطريقة (منح أتباعهم حق استثمار ملك ما) ، لدرجة أن تنازل السيد عن حق الانتفاع أو تملك الاستثمار الى تابعه أي وصله صار عملاً كثر اللجوء إليه منذ عهد شرلمان ثم صار الطريقة الطبيعية المُحَدِّدة للعلائق بين السيد وأوصاله قبل نهاية القرن التاسع .

وقد حدث تلاحم بين مفهومي حق الاستثمار وواجب التبعية فلم يعد ممكناً تصوّر حق استثمار (أي ملكية انتفاع) بدون أن يكون مستثمره والمنتفع منه تابعاً ، ولا تصوّر تابع بدون أن يكون متصرفاً بملكية استثمار . لا بل فإن ملكيات الاستثمار التي منحها الملك نفسه الى حكام ولاياته (الكونتات) ، أو بصورة عامة الى الموظفين الذين يمارسون سلطته لم تعد تُعتبر كما كانت من قبل بمثابة راتب يتقاضونه لقيامهم بعمل حكومي . وهكذا لم تعد علائق الموظف بالملك علائق موظف برئيسه الأعلى أي علائق المرؤوس بالرئيس إنما صار الموظف معتبراً وصلاً أو تابعاً للملك . ثمت فان المنصب الذي كان على الموظف القيام بأعبائه لم يعد يعتبر منصباً حكومياً إنما صار معتبراً وكأنه حق استثمار أي مُلكاً مُنحَ الموظف حق استثماره والانتفاع به . وقد أورد المؤرخون أنه منذ اليوم الذي حُدِّدَت فيه علائق الملك بموظفيه وفق الطريقة المشروحة أعلاه فمنذ ذلك اليوم فقط تمّت ولادة عصر الإقطاع .

لقد أشار بعض المؤرخين وعلى رأسهم الاستاذ أوغوستان فليش الى أن هذا النظام لم يكن جديداً وإنما بدأ ظهوره على ما يُقَدَّر منذ فترة الحكم الكارولنجي ، إنه أورد حول هذا الموضوع ما نصه : « لم يكن هذا النظام الذي ندعوه بنظام الأسياد le régime seigneurial جديداً حيث أمكن تقدير وجوده منذ العهد الكارولنجي ، ويمكن ردّ أصوله الاولى وجذوره الى عهد أقدم . لقد اعتُرِف بنظام الاسياد الذي يربط شخصاً ما ، (هو التابع أو الوصل) بشخص آخر هو السيد في المراسيم الصادرة في عهد شرلمان ، بينما غدا هذا النظام في عهد هذا العاهل الكارولنجي واحداً من العناصر التي أمكن بواسطتها تكوين الدولة ، حيث كان بوسع زيد من الناس أن

ينتخب سيداً له يؤدي له يمين الولاء ، وبمقابل ذلك فان هذا السيد يسبغ على هذا الوصل أو التابع حمايته ويغدو مسؤولاً عنه أمام الملك . وغالباً ما يغدو هذا التابع وصلاً مستثمراً لقطعة أرض يمنحها له سيّده ليقوم بزراعتها مقابل بعض العوائد ، وأن هذا الاستثمار ينتقل وبصورة عامة الى أنسال هذا المستثمر .

« وقد اقترنت بعض العادات أو الأعراف بهذا العمل (إضفاء الحماية على التابع ومنحه حق استثمار قطعة من أراضي السيد) ذي الطابع الاجتماعي ، تلك العادات أو الأعراف التي وإن أدّت الى انحلال وتجزّؤ الدولة فإنها أدت الى حدوث تغيير سياسي لا يمكن تحديد مداه . وأعفى الملك كبار المُلاّك العقاريين من الرسوم الملكية التي كانت ستستوفى من أراضي هؤلاء المُلاّك الذين مارسوا شؤون القضاء وجبوا الضرائب ولحسابهم من الأفراد المستقرّين في تلك الأراضي . وتمكّن هؤلاء المُلاّك وبتلك الصورة من التمتّع ، وعلى حساب الدولة ، باستقلال يكاد يكون تاماً . وقد قبلت الدولة وهذا هو الشيء الأهم ، أن تُعَوِّض الكونتات حكام الأقاليم عن المهام التي يكلفون بالقيام بها بما ستدرّه عليهم الاراضي الاميرية الموجودة في أقاليمهم والتي تمنحهم إياها ، هذا فضلاً عن منحهم حق جباية الرسوم الملكية في تلك الاقاليم التي أوكل حكمها إليهم كممثلين أو نواب عن السلطة العامة أي عن الدولة نفسها الى درجة أن هؤلاء الكونتات الذين كانوا من قبل مجرد موظفين غدوا وفي نفس الوقت مستثمرين لأملاك الدولة ومعفيين من أداء الضرائب والرسوم الملكية المفروضة عليها . وبعد أن كان هؤلاء الموظفون مجرّد وكلاء عن الدولة وبيدها عزلهم من مناصبهم فانهم لم يعودوا مرتبطين بالسلطة المركزية إلاّ برباطات تبعية وولاء واهية. وكان هذا التحوّل في كيان الكونتات الموظفين بمثابة تغيير جذري عميق لكيانهم القديم . فبينما كان الكونتات في الأصل عمّالاً ونواباً عن الدولة في أقاليمهم غدوا أتباعاً أو أوصالاً لها . وفضلا عن ذلك كان طبيعيا أن جو الفوضى السياسية الذي خيّم على جميع أقاليم الدولة الكارولنجية في النصف الاول من القرن العاشر

قد جعل رباط التبعية والولاء الذي صار يشدّ الكونتات الحكام الى السلطة المركزية واهياً ومجرد رباط نظري فقطعت آخر صلة تبعية تربط الموظفين القدماء في العهد الكارولنجي بعاهل تلك الدولة »[١] .

وعلى الرغم من وضوح معالم عصر الإقطاع في هذه الفترة فقد ذكر المؤرخون أن المعاصرين لم يستعملوا فيها كلمة اقطاع fief ذات الأصل الجرماني . وكانت الكلمة تطلق على الماشية bétail، ثم نقلها الرومان فاستعملوها بمعنى العملة النقدية pecunia التي تقدر بموجبها الثروة . وصارت الأداة التي تُقَدّر بموجبها الثروة الشخصية عند الشعوب المستقرة هي الأرض الزراعية وليست الأنعام أو الماشية (الطرش) كما كانت الحال بالنسبة الى القبائل البدوية . كما تمّ وبصورة تدريجية طوال القرنين العاشر والحادي عشر ابدال تعبير « حق الانتفاع » بكلمة إقطاع fief ، وصار تعبير اقطاعي féodal هو الذي سيدلّ منذئذ على النظام الذي عرفته أوروبة الغربية ولا سيما فرنسا أثناء حقبة طويلة من تاريخهما . وسنحاول الآن تحديد مختلف مظاهر هذا النظام[٢] .

المظهر العسكري لنظام الاقطاع : الفروسية : تسترعي الصفة العسكرية لهذا النظام الانتباه ومنذ أول وهلة . وتعتبر كلمة تابع أو وصل في أقدم نصوص تاريخ الأدب الفرنسي مرادفة لكلمة محارب أو لشجاع حيث ورد في بعض النصوص التاريخية قولهم : « ان المقاتل الشجاع يجب أن يشتبك بالعدو بشجاعة التابع » . كما اشتقت منها كلمة Vassalement وكانت تعني في تلك النصوص القديمة « بشجاعة » . لا بل فقد صاروا في العصور الوسطى يستعملون كلمة جندي Soldat كمرادف لكلمة تابع او وصل . كما جعلت اللغة اللاتينية كلمة Miles ، ومعناها الجندي مرادفه لكلمة تابع بنفس

---

(١) أوغوستان فليش : مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة، المجلد ٢ ، القسم ١ ، الفصل ٧ ، ص ١٦٢ .

(٢) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ٧ .

اللغة وهي Vassalus • وهكذا استعملت في نصوص القرن الحادي عشر ، كلمتا : جندي miles أو تابع Vassal ككلمتين مترادفتين بدون أن يكون ثمة أي فرق بينهما •

ولم يكن التابع مجرد جندي عادي فقط انما كان الجندي الحقيقي الشجاع وفارس الحلبة المعلم الذي كان رجالات ذلك العصر يشيرون إليه بالبنان نظراً لحسن بلائه في قتال العدو • وهو في المعارك من زمرة الخيّالة أي الفرسان وسلاحه السيف والرمح والترس • وذلك لأنه لم يعد لسلاح المشاة أية أهمية منذ العهد الكارولنجي فصار المشاة يعتبرون قوة دعم وقد أهملهم كتّاب ذلك العصر الذين سيطر عليهم التفكير الاقطاعي فصاروا يصفونهم بأنهم من قوات العامة غير المزوّدين بالسلاح ، لا بل من العامة الوديعين الهادئين Plèbe pacifique الذين لا يثيرهم أي حماس الى القتال عندما يحمى الوطيس • بينما التابع هو جندي بكل ما تضمّنته هذه الكلمة من قوة • إنه وفق تعبير آخر فارس وتترجم الى اللاتينية أيضاً بكلمة miles بدون إضافة أي كلمة أخرى[1] •

وقد أثبت الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور آراء عدد من المصادر الانكليزية التي تحدّثت عن تاريخ الاقطاع وإدخال الفرسان الى قوات الفرنجة التي كانت من قبل مجرّد قوات مشاة (وهؤلاء المؤرخون هم غانشوف وباتير وستيفنسن) واعتبر ذلك جذوراً للنظام الاقطاعي فقال ما نصه : « إننا اخترنا في الاسطر السابقة أن نضرب المثل بملوك دولة الفرنجة عند الكلام عن البذور الاولى للنظام الاقطاعي ، والواقع أن هذه الاشارة المقصودة جاءت لأن تاريخ دولة الفرنجة في غاليا يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التي يمكن تسميتها إقطاعية والتي تعتبر جذوراً للنظام الاقطاعي • فمن المعروف أن محاربي الفرنجة ، كانوا من المشاة بوجه عام وإن اعتاد الملوك أن يمتطوا صهوة جيادهم في وقت الحرب • واستمر الوضع على ذلك حتى حاول شارل مارتل أن يتوسّع في نظام الخيّالة ليجعل

(١) المصدر عينه ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ٧ — ٨ •

جيشه قوة فعّالة في ميدان الحرب ، وعندئذ استكشف أن تعميم هـذا النظام يتطلب منه نفقات ضخمة لإعداد ما يحتاج اليه الفارس من حصان ودرع وسلاح ، فضلا عن أن هذا النوع من الفرسان يجب أن يتوافر لهم مورد يعيشون عليه حتى يتفرغوا لشؤون الحرب والقتال . ولما كانت موارد دولة الفرنجة محدودة في القرن الثامن بحيث لا تفي بكل هذه المطالب ، فان شارل مارتل لجأ الى حلّ يتفق وتقاليد ذلك العصر ، فسجّل أسماء المحاربين وجعلهم يقسمون له يمين الولاء ثم أعطى كلاً منهم إقطاعاً يكفي لسد مطالب معيشته على أن يبقى هذا الاقطاع في حوزته ما دام يقوم بالخدمة العسكرية . وعندما وجد شارل مارتل أنه من الصعب توافر الارض اللازمة لهذا العدد الكبير من الفرسان ، وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الاراضي الملكية على الجند ، بدأ يتطلع الى أراضي الكنيسة ليجبر رجالها على منح إقطاعات من الارض لجنوده . وعن هذا الطريق تمكّن شارل مارتل من التغلّب على ما واجهه من صعاب ، فكوّن جيشاً قوياً من الفرسان استغلّه في طرد المسلمين من جنوب غاليا وفي محاربة السكسون في الشمال . والمهم في أمر هذا التنظيم الذي وضعه شارل مارتل لجيشه والذي اقتفى أثره فيه پيپن القصير ثم شارلمان ، أنه قام على أساس إقطاعي واضح .

« وإذا كانت بذور النظام الإقطاعي قد ظهرت في دولة الفرنجة في القرن الثامن فان الظروف التي تعرّضت لها هذه المملكة بوجه خاص وغرب أوربا بوجه عام في القرن التاسع ساعدت على نموّ هذا النظام وتفرّعه . ذلك أن الحروب العنيفة التي قامت بين لويس التقي وأبنائه ، والتي استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم كانت في حدّ ذاتها كافية لأن تثير جواً من الفوضى أصبحت فيه الكلمة الاخيرة لقوة السلاح وحدها . ثم جاءت الاخطار الخارجية لتزيد من اضطراب الاوضاع لان إغارات الفيكنغ والمسلمين والمجريين على غرب أوربا ووسطها في القرن التاسع جعلت أهالي القرى والمدن والمؤسسات الدينية لا يأمنون على أنفسهم إلاّ في ظل القوات المسلحة . وفي هـذه

الأوضاع القلقة أصبح لزاماً على الرجل العادي الحرّ أن يختار أحد طريقين ، فإما أن يصبح جندياً وإما أن يصبح قنّاً ، لأنه لا يستطيع البقاء بمفرده دون سيد قوي يحميه ويذود عنه . وهكذا أخذ الملوك وكبار الأمراء وملاّك الأراضي يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم في التغلّب على ما واجههم من أخطار ، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضاً أكثر من حاجته وحاجة أسرته الى منح هذه الزيادة — على هيئة إقطاعات لأتباع له من الجنود . أما صغار ملاّك الأراضي فقد دفعتهم هذه الفوضى الشاملة التي تعرّض لها غرب أوربا في القرن التاسع الى الدخول في حماية من هو أقوى منهم وأقدر على الذود عنهم ، فيسلّم المالك الصغير أرضه لسيد قوي ، ثم يعود فيتسلّمها منه كاقطاع ، وبذلك يصبح فصلاً أو تابعاً إقطاعياً له ... »[1] .

وليسمح لزيد من الناس باستثمار إقطاع ما ، وليقبل في عداد الأتباع يجب أن يبرهن على أنه أهل وكفء لحمل السلاح . وهكذا كان لحفل تقليد السلاح الى من سيغدو تابعاً أثر بالغ الاهمية في حياة هذا الاخير ، وهو يعني الاعتراف ببلوغة سن الرشد القانوني ، من حيث أن شاباً ما يبقى غير صالح للحياة الاقطاعية ما لم يتَقَلَّدْ سلاحه ودرعه وخوذته . فكيف نعجب والحالة ماذكرنا أنهم كانوا يجعلون من تقليد السلاح عملا رمزياً يضفى عليه طابع من السموّ والرفعة من جرّاء الحفل الذي يقام بمناسبته .

ويختلف هذا الحفل بالنسبة الى الزمن والى الوضع الذي يقام فيه ، وإن يكن قد أخذ يتعقّد بصورة مطّردة ، ولو أنه اقتصر في كل زمان ومكان وبصورة رئيسية على توشيح المرشح لأن يكون تابعاً بالسلاح من قبل تابع قديم ، يكون بمثابة الإشبين بالنسبة الى ذلك المرشح ، وعلى أن يثبت هذا المرشح وبصورة عملية مؤهلاته العسكرية . لقد أطنب كتاب القصص القديم وبالغوا كثيراً في وصف هذا الحفل ولو أنهم لم يستطيعوا طمس معالم الصفة

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع المذكور ، ج ٢ ، الباب ٢ ، ص ٤٤ — ٤٦ .

البدائية الاصلية له . وقد جرت العادة في القرن الحادي عشر ، تلك العادة التي سرعان ما تعمّمت بأن يبتديء الحفل بغسل المرشح في مغطس (بانيو) ثم يغير بصورة تامة ثيابه الداخلية وكسوته أو رداءه ، أي بزّته . كما يتم أثناء حفل التعميد هذا وذلك عندما يستهلّ المعمّد حديثاً néophyte الحياة الجديدة . وفضلا عن ذلك فقد جرت العادة التي عمّ استعمالها في أن يتلقى الشاب المرشّح صفعة رمزية على رقبته (أو على قذاله) من قبل إشبينه ، بعد مساعدته له في أن يتوشح بسيفه ويتنطّق به . ثمت فللتأكد ، ولو على الصعيد النظري من المؤهلات العسكرية لهذا المرشح ، وحتى في زمن السلم ، فان حفل تقليد السلاح الى المرشح يجب أن ينتهي بخوض معركة صورية : وهكذا يقفز المرشح على صهوة جواده ويجري به الجواد مسرعاً والفارس المرشح مشرع رمحه ويتظاهر بمهاجمة دمية mannequin مسلحة وهي على ظهر جواد . ويجب على الفارس المرشح أن ينجح في ثقب ترس الدمية . وتمكّن هذه التجربة الشكلية التي يقوم بها المرشح ، في حالة عدم اشتراكه في القتال في معركة فعلية ، الخبراء الذين يؤلفون جمهور النظّارة من الحكم على مهارة ورشاقة وقوة هذا المرشح المسلح الجديد .

ومع مرور الزمن أضيفت الى هذا الحفل بعض التفاصيل أوالامور الدقيقة التي أسبغت عليه الطابع الديني الذي لم يشترط من قبل أو قلّما أضيفت الى ذلك الحفل . وقد صارت العادة بألا يتقلّد فارس ما السلاح ، إلا بعد أن يكون قبل ذلك قد ذهب لسماع القدّاس في الدير وإلا أن يكون قد قضى الليلة السابقة ليوم تقليده السلاح في أداء الصلوات . ويشترك كاهن في حفل التقليد ليبارك السيف الذي كان يوضع على المذبح قبل أن يتوشح به المرشح التابع . وغالباً ما كانت احتفالات تقلّد المرشحين للسلاح تتم بهذه الصورة في عهدي عاهل فرنسا فيليب أوغست . واعتباراً من القرن الثالث عشر صار الكاهن نفسه يرسم المرشح التابع فارساً . لكنه اعتباراً من هذا التاريخ فان الصفة الحقيقية للفروسية كان قد تسوهل بها أو غدت نسياً منسياً . ثمت فسيكون اللجوء الى تلك العادات ، في فرنسا على الاقل ، مثيراً للاستغراب ، أو قد يسيىء الى شعور بعض الافراد .

عقد استثمار الاقطاع(١) :

وبعد أن يُعترفَ بالشاب المرشح فارساً يصير أهلاً لأن يغدو تابعاً (وصلاً) . ويمكنه تبعاً لذلك أن يضع السيف الذي قلّده وشيكاً وصار يتوشح به في خدمة غيره إذا وجد السيد (النبيل) الراغب في الافادة منه ، والذي يظهر استعداده لدفع الثمن . وكان ذلك الثمن هو استثمار الإقطاع . ويُشكّل منح السيد أو تنازله عن استثمار الإقطاع الى الوصل البديل للتعهد الذي قطعه هذا الاخير على نفسه في أن ينخرط في خدمة هذا السيد النبيل . ويكون كلٌّ من تنازُل السيد عن استثمار الإقطاع وتعهد الوصل بخدمته حياتيين من حيث الناحية الحقوقية وفي حيز الواقع . وتعيد وفاة أحد الطرفين المتعاقدين الحرية الى الطرف الثاني وتجعله في حِلٍّ مما تعهد به . وعلى الرغم من ذلك فمن البديهي أن ارتباط الوصل بإقطاعه سرعان ما جَرّدَ هذا العقد من عدم استقراره . ثم تحوّل الإقطاع من استثمار حياتي الى استثمار وراثي . لكن المبدأ بقي مستمراً ثابتاً . فثمة تعليق أو توقيف لسريان واستمرار هذا العقد ، من الناحية النظرية ، لدن انتقال ملكية الإقطاع من سيد الى آخر ، أو عند إبدال الوصل التابع المستثمر لهذا الإقطاع بوصل آخر ، وفي كلتا الحالتين تحتّم الضرورة تجديد العقد بشكل صريح . وقد استمرّت الفكرة التي تنص على أن تجديد العقد في الحالتين المشار إليهما لم ينص عليه القانون وأنه تبعاً لذلك يجب التماسه لا بل دفع ثمن هذا التجديد بتقديم بدل ثمين أو هدية الى السيد النبيل (مالك الإقطاع) . وهذا البدل أو الثمن أخذ يتحول ومنذ فترة مبكرة ، ولو في بعض المناطق على الاقل ، الى رسم حقيقي أطلق عليه اسم ذو دلالة خاصة وهو استرداد أو إعادة شراء أو إبراز حق الوصل مجدداً وجعله ظاهراً ومعنى هذا الإجراء الجديد أنه بنتيجة سقوط حق الوصل فانه يجب إبرازه من جديد أو استرداده ، أي إعادة شرائه بغية الحصول على حق استثمار جديد

---

(١) ارجع من اجل تفاصيل ذلك الى : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ٩ — ١٤ .

للاقطاع من السيد . ولم تُلغَ هذه الفكرة (إعادة شراء حق الاستثمار أي تجديد العقد في الحالين المشار اليهما أعلاه) طيلة بقاء نظام الاقطاع . ولو أنه عمد بصورة تدريجية الى تخفيف شدتها الى درجة أنه لم يعد يطلب دفع بدل الاسترداد إلا في حالة تغيير نفس الوصل المستثمر للاقطاع . وقد أمكن تحقيق هذا التعديل في القرن الحادي عشر إن لم يكن قبل هذا الوقت.

لكنه لم يسه عن بال أحد إطلاقاً أن الاقطاع لم يكن في جوهره سوى الثمن الذي يدفع الى الوصل لقاء الخدمات التي تعهد هذا الاخير بالقيام بها ، وأن كل توقف عن موالاة القيام بتلك الخدمات يمكن أن يؤدي الى إلغاء العقد واسترداد السيد لإقطاعه : وهي فرضية كانت تتحقق في كل الحالات التي كان الوصل فيها يتحوّل أو ينضم الى جانب العدو ، أو يرفض بتصميم وإصرار تقديم مساعدته الى السيّد ، أو حتى في حالة وفاة الوصل المستثمر للاقطاع بدون أن يُعقِّب وريثاً ذكراً ورفض وريثته الانثى أن تتزوج بموافقة السيد ، حيث أن الضمانة الاقطاعية (أي أن يضمن السيد قيام زوج تلك الوريثة الانثى بنفس الشروط السابقة) يُرَجّحها السيد في هذه الحالة على آداب اللياقة والسلوك الدمث بإزاء السيدات .

وعلى ذلك فهناك عقد حقيقي يربط الوصل بالسيد ذلك العقد الذي وإن لم يكن ظاهراً بصورة جلية سافرة فانه على الرغم من ذلك لا يفقد قيمته كصك قانوني تنجم عنه التزامات شديدة متبادلة . وقد وصف هذا العقد بحق بأنه صك ضمان متبادل تحدّد نقطة انطلاقه كلّ من الحفلة التي تقام من أجل إعلان الوصل التابع ولاءه للسيد مالك الاقطاع والحفلة التي يمنح فيها هذا الاخير الوصل حق استثمار الاقطاع . إن الولاء أو خضوع الوصل l'hommage هو الصك الذي يعلن هذا الاخير بموجبه أنه مولى تابع للسيد ويضع نفسه تحت تصرّفه كما كانت حال زميله الذي كان يدعى « الموصى به Le recommandé » في ظل النظام الميروفنجي السابق ، وذلك عندما يضع الوصل يديه مجتمعتين بين يدي من سيكون حاميه في المستقبل والذي سيغدو في الوقت نفسه سيده حيث أن الكلمات المستعملة في ذلك الوقت

كانت تخلط عن عمد بين التبعية الشديدة التي تفرض على القِنّ بإزاء سيده وعلى الوصل بإزاء مولاه • وعندما يعلن الوصل أنه مولى تابع لهذا الاخير فانه يراد بذلك أنه سيقوم تجاهه بالخدمة الجيدة والمخلصة ، كما يتعهد بأن يكون إخلاصه اليه دونما تحفّظ ، وأنه سيكون وفق ما ستصدر اليه أوامره: « ضد أو مع الجميع ، في الظرف الحاضر الآني وفي المستقبل » • ويجيب السيد على ذلك مقسماً أن يؤدي اليه الثمن مقابل ذلك ، أي : « أن يدعمه ويساعده مع وضد الجميع » ومعلناً أنه يمنحه استثمار الاقطاع أو حسب التعبير المستعمل آنئذ « يوسد إليه الاقطاع » •

لا جرم أنه كان من البديهي أن تكون نتائج العقد الاقطاعي بالنسبة الى الوصل مخيفة جداً • وهذا ما حدا بالكثيرين ومنذ القرن الحادي عشر الى توضيح وتقليل الخدمات ، ولو من الناحية التطبيقية ، أو أحيانا بشكل قطعي ، تلك الخدمات التي كان يحق للسيد أن يفرضها على من أقر بأن يكون مولى له ومحمياً •

ولعلّ أهم الخدمات التي كان السيد ينتظرها من الوصل الذي منح حق استثمار إقطاع في أراضي ذلك السيد هي **الخدمة العسكرية** التي تعتبر علّة وجود نظام الإقطاع نفسه • ولم تكن هذه الخدمة مُحَدَّدة من حيث المبدأ إلا ضمن نطاق حاجات السيد النبيل نفسه : سواء أطلب منه الاشتراك في حملة عسكرية ، أي في الجيش ، ضد عدو ما أخذ يهدد جميع المنطقة ، أم في حملة بسيطة في ضياع السيد ، أي الاشتراك في حملة محلية كمهاجمة حصنٍ ما ، أم الاشتراك في حملة تأديبية والسهر على إقرار الامن في المنطقة ، أم أن يقوم بمهامّ حارس من أفراد قوى الامن الساهرة على سلامة المقاطعة• وكان على الوصل أن يلبي مسرعاً استدعاء السيد له دونما تلكؤ وأن يبقى تحت تصرف هذا الاخير ما وجد هذا السيد ذلك ضروريا • ولو أنه أضيفت بعض التعديلات الى تطبيق هذه الالتزامات المفروضة على الوصل لانها وجدت مرهقة جداً ولا يمكن التساهل بقبول تنفيذها والسكوت عنها • ومن قبيل ذلك أنه نُصَّ على أنه إذا تجاوز إبقاء السيد وصله تحت تصرفه عدداً من

الأيام ، كان هذا العدد بالنسبة الى المنطقة والى الفصل من السنة ، فـان على السيد في هذه الفترة الزائدة أن يعيل وصله على نفقته الخاصة •

وقد حـُدِّد في القرن الثاني عشر عدد الايام التي يبقى الوصل أثناءها تحت تصرف سيده بأربعين يوماً • ثم قـُلـِّصـَت هذه الفترة في القرن الثالث عشر بجعل عدد أيامها أقل • لا بل فانهم مضوا بعيداً في تحديد المكان الذي سيقاتل فيه الوصل كأن لا يتجاوز مجرى هذا النهر أو ذاك ، أو هذه الهضبة أو تلـك •

شرح الاستاذ أوغوستان فليش مسألة الخدمة العسكرية التي يتحتم على التابع أو الوصل أداءها لسيده فقال فيما يتعلق بها ما يلي : « لقد فـُرِضَ على التابع أي الوصل أن يعين سيده بشخصه وبماله ، ومعنى ذلك أن يؤدي له الخدمة العسكرية ، وأن يقدم له العون المالي •

« وقد وضعت في القرن الحادي عشر بعض التحديدات لهذه الخدمـة التي لم تكن مدتها من قبل محددة بأجل : ويقوم التابع بهذه الخدمة أولاً من أجل حماية حصن سيِّده • وقد فـُرِضَ على التابع أن يَهـُبّ اذا مادعت الحاجة الى نصرة سيده ويأتي مع أتباعه أو أوصاله الخاصـِّين واضعاً نفسه معهم تحت تصرّف ذلك السيد طوال المدة التي يراها هذا الاخير • وتنتج عن ذلك إساءة الاسياد استعمال هذا الحق مما أدى الى تحديده وبصورة ظاهرة • كما كانت ممارسة السيد لهذا الحق تستلزم من التابع أن يضـع حصنه تحت تصرف سيده عندما يطلب منه ذلك سواء من أجل إحباط محاولة ممكنة للثورة أم من أجل اتخاذ السيد لهذا الحصن كقاعدة دعم في خوض حرب ما ضد العدو • وعلاوة عن ذلك فانه لن يكون بوسع هذا التابع أن يشيِّد قلاعاً جديدة بدون موافقة سيده • وكان ذلك بمثابة تدابير وقائية كان من الممكن أن تكون ضرورية لكنها على صعيد الواقع وفي ظل هذا النظام ، حيث كثيراً ما وقفت القوة في وجـه الحق وقيـَّدته ، فإن تلك التـدابير الوقائية قد تكون وهمية ليس لها أي أثر فعـّال •

« كما كان يجب على التابع أن يقدم العون المالي الى سيده • وكان هذا العون في البداية متسماً بطابع تعسفي • وقد حددت في القرن الثاني عشر الحالات التي يتحتم على التابع أن يقدم فيها ذلك العون الى سيده • ولم يكن ثمة أولا أي قانون لتحديد هذه المعونة أو الظروف التي يتحتم تقديمها فيها • فاذا ما ظهرت الحاجة الى ذلك العون وجب على الوصل تقديمه • ومع ذلك فان ممارسة السيد لهذا الحق غير المحدد أو الواضح كثيراً ما أدت الى اشتطاطه في الطلب الذي لايستند الى أي مبرر معقول • فان كان الوصل ضعيفاً يتمكن السيد أن يستنزف ثروته ، أما إن كان قوياً فيكون بوسعه الصمود ورفض أداء ما يطلب منه وكثيراً ما أدى هذا الرفض الى تأرث الخصومات المسلحة بين السيد وتابعه تلك الخصومات التي اعتبرت آفة أو نقيصة القرنين العاشر والحادي عشر »[١] •

كما تحدث المؤرخ نفسه عن الخدمة التي يجب على التابع أن يؤديها في قصر سيده وعن اشتراكه في المجلس القضائي أو السياسي الذي يعقده السيد في قصره فنحيل القارىء الى ذلك المرجع[٢] •

أما بالنسبة الى خدمة التابع في بلاط سيده ، أي قصره ، وبالنسبة الى الاشتراك في عضوية المجلس القضائي أو السياسي الذي يعقده السيد في منطقته فاننا نوجز ما أورده المؤرخون بصددهما وقد ذكروا أنه فضلاً عن الخدمة العسكرية فعلى الوصل أن يؤدي خدمة أخرى في بلاط سيده ، والاشتراك في المجلس القضائي أو السياسي الذي يعقده السيد في منطقته • وتقتضي هذه الخدمة في بلاط السيد أن يحضر الوصل الى قصر سيده عندما يدعوه هذا الاخير لقضاء بعض الحاجات له وأن يذهب اليه بصورة خاصة أثناء الاعياد الكبرى وهي الميلاد والفصح والعنصرة ، لمساعدة سيده ،

---

(١) أوغوستان فليش : مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى ، المجلد٢، القسم ١ ، الفصل ٧ ، ص ١٧٥ — ١٧٦ •

(٢) المصدر عينه : مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة ، القسم ١ ، الفصل ٧ ، ص ١٧٥ •

وأن ينير سبيله بنصائحه ، وأن يعينه على حل القضايا والمشاكل التي عرضت عليه ليفضّها ، وذلك لان ضعف السلطة الملكية أدى الى لجوء الاسياد الى فض خلافاتهم فيما بينهم • بيد أن أولئك الاسياد كثيراً ما كانوا متشدّدين مع أوصالهم في وجوب حضور هؤلاء الى قصرهم أثناء المناقشات القضائية Les débats judiciaires (وذلك كما يبدو لكسب أصواتهم الى جانبهم) •

وقد ضُيِّق نطاق الواجبات الإقطاعية المفروضة على الوصل لسيده في القرن الحادي عشر وحصرت في الفئتين أو الزمرتين السابقتين (وهما الخدمة العسكرية والخدمة في قصر أي في بلاط السيد) • وكان على السيد واجبات مقابلهما نحو وصله ، ولو على الصعيد النظري : فعليه أولا أن يَهُبَّ الى نجدة وصله في حالة تعرّض هذا الاخير الى اعتداء خارجي (هذا ولو أن أمن وسلامة السيد نفسه كانا يفرضان عليه تلك النجدة) • كما كان على السيد أن يمحض وصله النصح ، وأن ينصفه إن كان مظلوماً وأن يكون عادلاً في معاملته له • فاذا ما تملّص السيد أو امتنع عن القيام بتلك الواجبات الأولية بإزاء وصله ، يعتبر هذا الاخير نفسه في حِلٍّ من التزاماته نحو هذا السيد ، هذا مع احتفاظه باقطاعه ويصير بوسعه أن ينقل ولاءه الى سيد آخر (بمعنى أن يغدو مولى أو وصلاً أي تابعاً لسيد آخر) • أما بالنسبة الى الحالة العكسية فان لم يقم الوصل بالالتزامات المحددة والمفروضة عليه بأمانة وحماس ونشاط فانه يكون بعمله هذا قد خالف بنود ميثاق أو عقد الإقطاع ويصير عرضة لأن يعلن عاجزاً عن أداء التزاماته فيستردّ منه إقطاعه •

وكانت العقود الاقطاعية في أول الأمر بسيطة لكنها لم تلبث أن صارت فيما بعد معقدة ومتشابكة الى درجة أنه أمسى ضرورياً وضع حدود أو درجات للولاء ، وأن تَبَيَّن وتتَوَضَّح في نفس الوقت مدد أي تواريخ العقود وتسلسل التعهدات المترتبة على تلك العقود • لا بل بلغ الأمر حداً (بنتيجة تَسَلُّم الوصل إقطاعات من أسياد متعدّدين) أن يُعيَّن لكل وصل سيد من الدرجة الأولى يأتي في طليعة قائمة الأسياد الذين أقسم على أن يكون مولى تابعاً أو وصلاً لهم ، هذا السيد الذي يمكننا أن ندعوه بالسيد المُمَيَّز

الذين كان أفراد ذلك العصر يلقبونه بالسيّد الأعلى Seigneur أي السيد الذي ليس ثمّة رادّ لقوله ، ولا يمكن تأخير الخدمة التي يجب على الأتباع أن يقوموا بها من أجله ، والذي يمكن ولمصلحته تحرير تابع ما من جميع الالتزامات الوصلية (أي بالنسبة الى كونه وصلاً تابعاً لعدد من الأسياد) التي تربطه بالأسياد الآخرين إن كانت مناقضة لالتزاماته نحو السيد الأعلى .

التسلسل الاجتماعي في عصر الاقطاع أو تسلسل المراتب في النظام الاقطاعي :

أدّى تشابك العلائق الاقطاعية بعيد فترة وجيزة الى جعل تلك العلائق مرتبكة معقدة مستعصية الحلّ ، لو لم تتدخل مبادىء أخرى للتسلسل الاجتماعي لحلّها، حيث أمكن بواسطة تلك المبادىء تحديد مرتبة اجتماعية لكل مُتَصرِّفٍ بإقطاع تكون متناسبة مع وضعه الشخصي .

واعتبر تملّك حصن ما أو عدة حصون ومنذ فترة مبكرة أولى وأهم وسيلة لتمييز هذا المالك عمن عداه . وذلك لأن تملّك الحصن في زمن كانت الحرب فيه تحصد باستمرار أرواح البشر وتبقى كالدّاء العضال المزمن ، كان يُمَثّل بالنسبة الى من يستطيع اللجوء إليه وأن يستقبل فيه أو أن يحمي الآخرين مجموعة من الامتيازات الهامة لدرجة أن بوسع من يملك حصناً واحداً أن يُصَنَّف آنياً في زمرة من هم في مستوى أعلى من مستوى نظرائهم وأقرانهم .

وكان الحصن معقلاً منيعاً يلجأ إليه السيد الإقطاعي وأوصاله ويعتصمون به عندما تتعرض المنطقة التي يوجد فيها إقطاع ذلك السيد النبيل (ويدعى Suzerain أو Seigneur) الى غارات المغيرين ولا سيما العناصر الشمالية . وكان تصميم هذا الحصن من الناحية المعمارية يساعد على الصمود عندما يحاصره المغيرون من حيث أن السيد صاحب الحصن (وكان الأسياد أصحاب أي مُلاّك الحصون والذين يدعون Châtelains يخزنون المواد الغذائية والأسلحة والعتاد مع وجوب توفّر المياه الكافية) يتمكن من مقاومة محاصريه طوال فترة تتناسب مع مناعة أسوار حصنه . بيد أن ذلك لم يمنع من أن يمارس

السيد مالك الحصن في حصنه نشاطاً اجتماعياً هو وأترابه من الأسياد الآخرين وذلك في زمن السلم .

تحدث الأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العدوي عن هذه الناحية مثبتاً رأي المؤرخ الإنكليزي ستيفنسن (في كتابه عن تاريخ العصور الوسطى) مورداً بصددها ما يلي : « وصارت الحصون التي بناها السادة الإقطاعيون مسرحاً لجانب عظيم من النشاط الاجتماعي لطبقة الفرسان . وكانت هذه الحصون معاقل يلجأ إليها الناس فراراً من الهجمات المفاجئة التي يشنّها الشماليون خاصة ، وشُيّدَت تلك الحصون من كتل حجرية ضخمة لتقف سداً منيعاً في وجه المغيرين ، وأعمالهم التخريبية . واشتمل الطابق الأسفل من الحصن على الآبار ومخازن الطعام والأسلحة بغية الاستعداد لأي حصار طويل . أما الطابق الأوسط فأقام فيه السيد الإقطاعي وأسرته حيث تأسست غرف فسيحة للاجتماع وأخرى صغيرة . ودأب الفرسان على عقد اجتماعاتهم مع سيدهم الإقطاعي في القاعة الفسيحة بالحصن وذلك من أجل التشاور في شؤون الحرب ، أو قضاء أمسياتهم في السمر أيام السلم »[1] .

فنحن نرى من هذا الوصف والإشارات الى الغايات التي كان الحصن يستعمل من أجلها . إنه كان بمثابة مدينة صغرى أو دار حكومة بالإضافة الى أن قلعة قد شُيّدَت فيه . وعلاوة عن ذلك ففي الحصن دار أو دور للسكن .

وأضفى لجوء أفراد هيئة الفرسان العاديين والذين لم تكن لديهم حصون الى الحصن والاعتصام به ، على السيد صاحب الحصن أهمية كبرى رسّخت نفوذه كتابع أو وصل للملك . وقد لاحظ ذلك الأستاذ لويس هالفين فقال ما يلي : « وحيثما حللنا وإلى أية منطقة ذهبنا يبدو الحصن وكأنه الخليّة التي تتناسق حولها وتنسجم بقية أعضاء الجسم ، كما يبدو من يمتلكه كرئيس لجميع أفراد كتلة الفرسان الصغار الآخرين المستقرّين كيفما كان الأمر في المنطقة السهلية بدون أن تردّ عنهم أسوار الحصن وأبراجه هجمات العدو

---

(1) الدكتور ابراهيم أحمد العدوي ، المرجع المذكور ، ص ١٢١ ، (نقلا من كتاب ستيفنسن عن تاريخ العصور الوسطى ، ص ٧٠) .

أو تقيهم منها لدرجة أن الأسياد مُلاّك الحصون Châtalains (وهـذا هو اللقب الذي كان يطلق عليهم)لم يكونوا يتزوّجون إلا من أسر بعضهم بعضاً ، كما لو كانوا يشكلون طبقة اجتماعية مُمَيَّزة Caste . وبدا البناء الإقطاعي آنئذٍ وكأنه هرم ذو أربع درجات (أو مصاطب) . تقوم في أسفله القاعدة المتينة التي تتألف من الفرسان العاديين وهم من كانوا يدعون les vavasseurs ويمثّلون أدنى مرتبة بين مراتب النبل في العهد الاقطاعي ، ولا يملك هؤلاء حصوناً . وتوجد فوق هؤلاء طبقة اجتماعية أعلى مكانة هي طبقة الأسياد ملاّك الحصون ، ويلقبون كذلك بالبارونات les Barons . وتوجـد فوق هاتين الطبقتين طبقتا الأدواق les ducs والكونتات les comtes أو الفيكونتات les vicomtes وهم الذين يحتلّون ، أو يفترض أنهم يحتلون الأقسام الإدارية الكبرى في العهد الكارولنجي . ويحتـل الملك ذروة أو قمّة هـذا الهرم الاجتماعي ، وهو الرئيس السامي الأعلى لجميع هذا التسلسل »[1] .

وبقي هذا التقسيم الاجتمـاعي القائم على التمييز والتفريق بين مختلف مراتبه وطبقاته في القرن الثاني عشر . فأخـذنا نلاحظ أولاً طبقـة ملاّك الحصون العاديين الذين ليس بحوزة أحدهم سوى حصن واحد ، ثم طبقة البارونات المالكين لحصون كثيرة . وقد لوحظ في الوقت نفسه أن عـدد المنضوين تحت لواء مالك الحصن أي المقيمين في المناطق التابعة للحصن وهي الدائرة القضائية التي يسري عليها حكم مالك الحصن، قد توقّف عن الازدياد ، وأن مظاهر الإجلال والتعظيم التي كان يحاط بها مُلاّك الحصون الجديدة أو المتصرّفون بها صارت بنسبة أقل . وقد احتفظ بلقب فرسان عاديين الى أولئك الفرسان الذين لم يكونوا محاطين بنسبة كافية من مظاهر التعظيـم والاحترام ، لا بل فإنه أوجدت حتى بين هؤلاء الفرسان العاديين درجـات متفاوتة .

وسار بصورة موازية الى هذا التطوّر تطوّر آخر تمتّع بأهمية أكبر .

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة المجـلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ١٤ — ١٥ .

حيث لوحظ في مختلف درجات هذا التسلسل الاجتماعي أنه كان سالكاً وباطراد طريقه نحو الكمال ، وكان الأسياد النبلاء قد سعوا جاهدين منذ القرن الحادي عشر وبهمة لا تني وعزيمة لا تكلّ الى أن يجعلوا وما أمكنهم ذلك ولمصلحتهم أكبر عدد ممكن من الإقطاعات في صعيد واحد تلك الإقطاعات التي كان القرن السابق جعلها منتشرة في مناطق شتى بين عدد كبير جداً من المتصرّفين • وسيكون لهذه الحركة التكثيفية أو التجميعية والتي ترمي الى جمع الإقطاعات التي بحوزة سيّدٍ ما في منطقة واحدة ، وما أمكن ذلك ، وهي التي صار يقوم بها ويحرص عليها كل من الملك نفسه أو الكونت أو حتى البارون العادي ، فهذه الحركة التكثيفية كانت نتيجتها أن تزيل ومع مرور الزمن أو على الأقل أن تقلّل كل الصفات المخجلة وغير الطبيعية لذلك النظام الذي يمكنه أن يجعل من سيد نبيل كبير مولى وتابعاً أي وصلاً لسيد وضيع أدنى منه ، بمعنى إعادة إقامة تطابق تقريبي بين التسلسل الاجتماعي الناتج عن التصرّف بالإقطاعات والتسلسل الاجتماعي لمراتب الأسياد النبلاء أنفسهم • ولو أنه لم يتمكن حتى آخر الفترة التي نتحدث عنها من الوصول الى تلك النتيجة[1] •

تغيير ملامح النظام الاقطاعي : ومع ذلك فإن النظام الإقطاعي كما أتينا على تحديد معالمه كان قد بدأ يغير ملامحه • ولم يشرف القرن الحادي عشر على نهايته حتى كانت فكرة الإقطاع نفسها قد فقدت الكثير من نقاوتها الأصلية • ولم يعد من المثير لشعور أحد أن يلاحظ أن بعض هيئات حكومية جديدة تعنى بفرض العلاوات والرسوم الجديدة • وقد أضيفت هذه التكاليف الجديدة الى التكاليف التي كانت مفروضة من قبل على الإقطاعات • وكان أن صرنا نرى مثلاً أن الإقطاع الفلاني مفروض عليه أن يقدّم في بعض الحالات والى السيد النبيل جواداً من أجل استعماله الخاص • وقد وصل الأمر حداً أنه صار يفرض على الإقطاعات في القرن الثالث عشر تقديم عجلة وقارب ، لا بل طعام غذاء الى السيد النبيل •

---

(١) راجع من أجل ذلك : لويس هالفين ، المصدر عينه ، المجلد ٦ ، القسم ١ الفصل ١ ، ص ١٥ •

ولم يبق حتى يصل الأمر بالنبلاء مـلاّك الإقطاعات الى أن يفرضوا على أتباعهم مستثمري إقطاعاتهم علاوات نقدية سوى خطوة واحدة ، لكنهم سرعان ما مشوها • وكنا تعرّضنا من قبل الى عادة قديمة ولأسباب كنـــا شرحناها آنفاً رأينا أن تجديد عقد استثمار إقطاع ما كان يقتضي أن يسترد الوصل أو يعيد شراء عقد استثمار إقطاعه أي أن يُبرِزَ حقَّه مجدداً ليجعله ظاهراً معترفاً به فهذا التجديد كان يتطلب دفع رسم حقيقي الى السيد • وبهــذه الصورة أَلِفَ الأوصال فكرة أنه لحصول أحدهم على إقطاع ما يجب عليه أن يدفع مقدماً مبلغاً محدداً من المال الى السيد صاحب الإقطاع • وهكذا لم يستغرب أحد فكرة لجوء الأسياد في بعض الحالات الى فرض مبالغ نقدية على أتباعهم ، وكانوا جدّ حريصين على تحديد هذه المبالغ مسبقاً • وقد جرت العادة أن تدفع المبالغ النقدية في ثلاث مناسبات • أما تلك المناسبات الثلاث فهي : تسديد دفع مبلغ الفدية لفكاك السيد أو ابنه البكر من الأسر ، بمعنى افتداء وريث سيده من الأسر ، ثم سداد مبلغ بمناسبة بلوغ هذا الابن البكر سنّ الرشد ومبلغ الرجال وتسلّمه لباس الفرسان من خودة ودرع وزرد وباقي القطع التي كانت تشكّل بزّة الفارس في القرون الوسطى • ثم دفع مبلغ كذلك بمناسبة زفاف الابنة البكر لسيده • ثمت أضيفت بعيــد ذلك مناسبة رابعة في مختلف ولايات فرنسا حيث صار كل وصل فيها يدفع مبلغاً ما لسيده عند سفره للاشتراك في الحملة الصليبية • وكان فرض المبالغ على الوصل في أول الأمر من أجل ظرف طارىء فوق العادة ولذلك دعيت تلك العلاوات بالعلاوات فوق العادية أو كما كانوا يدعونها بالمساعدات التي فرضت ليتمكن السيد من تدبير أموره في تلك الحالات الطارئة التي لا تكفيه موارده الخاصة للتخلّص منها مما قد يكون ذا أثر سيّىء حتى على الوصل نفسه إن لم يبادر الى إنقاذ أو مساعدة سيده لتخليصه من الورطة أو الأزمة الطارئة التي تعرّض إليها ، بيد أن هذه المساعدات المالية الإقطاعية والتي فرضت في الأصل ومن أجل ظرف طارىء سرعان ما تأصلت ورسخت ودخلت في إطار تقاليد العصر • ولم يشرف القرن الحادي عشر على نهايته حتى رأينا تلك العلاوات في بعض المقاطعات تُحَدَّد وترسخ وفق طابع خاص •

ولم يرعو الأسياد أو يتوقفوا عند هذا الحد ، إنهم فرضوا علاوات عينية كتقديم جواد الى السيد في كل فترة من السنين يُحَدَّدُ عددها ، فهذه العلاوة تمثل قيمة تجارية أو ثمناً تجارياً • وهذا ما جعل كلا من الاسياد وأوصالهم يتفقون على استبدال هذه العلاوات العينية بتسديد مبالغ يتفق عليها (كبديل أو كثمن لتلك العلاوات العينية) ، ثم والى الطرفان مسيرتهما بخطاً وئيدة على هذا المنحدر حتى أُقِرَّت إمكانية استبدال جميع الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية المفروضة على الأوصال دونما استثناء أهمها وهي القيام بالخدمة العسكرية •

استعرض الاستاذ يوسف كالميت J. Calmette مختلف العلاوات والرسوم التي كان السيد الاقطاعي يفرضها على أوصاله ، كما تحدث عن مختلف الاحتكارات التي صار يمارسها في إقطاعه وذكر بصدد كل ذلك ما نصه مبتدئاً برسم الانتقال وكان يدعى Droit de mutation ou de relief الذي صار يدفعه ابن الوصل المتوفى ليتمكن من الاحتفاظ بقطعة الارض التي كان أبوه قد منح استثمارها من قبل سيده :

« وكان يتحتم تجديد يمين الولاء من قبل الوصل أو التابع ومنح حق الاستثمار الى هذا الاخير من قبل السيد في كل مرة يتغير فيها السيد أو الوصل » •

« وبمقابل هذا التجديد وبعد دفع رسم أو بدل انتقال يدعى droit de relief يصير بوسع وريث التابع أو الوصل أن يغدو بدوره وصلا وأن يستمر في استثمار إقطاع أبيه • وهكذا لم يتمّ جعل الاقطاع إرثياً بدون صعوبة وعقبات• وحرصاً من السلطات الاقطاعية العليا على عدم تقسيم أو تجزئة الاقطاع فانها حصرت وكحالة عامة انتقال إقطاع الوصل المتوفى بابنه البكر • هذا مع إدخال بعض التعديلات على الاقطاع تختلف باختلاف الاقاليم التي يوجد فيها الاقطاع • وتتضمن تلك التعديلات منح بعض المالكانات (أي تخصيص باقي أبناء الوصل المتوفى الآخرين بامتلاك جزء من الاقطاع وبصورة حياتية) ، أو تخصيص جزء من ريع الاقطاع الى باقي أبناء الوصل

المتوفى • أما إن كان وريث الوصل المتوفى قاصراً فقد عمد الاسياد الى إقامة وصيٍّ عليه مقتبسين تلك الوصاية عن التشريع الجرماني • وهكذا فانه نشداناً من الاسياد الحفاظ على حقوق الورثة القاصرين لأوصالهم المتوفيّن فانهم **اقروا طريقة الضمان** (وتقوم هذه الطريقة على تأجير استثمار الاقطاع لفترة محدودة) ولربما غدا المستأجر الضامن (ويدعوه العوام : الضمّان) هو السيد suzerain نفسه أو أحد أقرباء الولد الوريث القاصر ، وفي حالة كون الوصل المتوفى لم يُعَقِّبْ وريثاً ذكرا إنما ابنة فانه سعياً من الأسياد الى الحفاظ على حقوق تلك الوريثات الإناث فانهم قبلوا نقل إقطاع الوصل المتوفى الذي لم يُخَلِّف سوى بنت إليها شريطة قبولها الزواج بغية قيام بعلها مكانها باستثمار الاقطاع وأداء الواجبات المفروضة عليه • وانطلاقاً من هذا السماح فان السيد صاحب الاقطاع أجاز لنفسه إما الزواج من ابنة ووريثة وصله الراحل أو أن يُزَوِّجها ممن يرضاه (وقد ذكر كثير من المؤرخين أن البنات وريثات إقطاعات آبائهن غدون مطلوبات كثيراً من أجل الزواج) • وهكذا وجد تشريع إقطاعي اقتبس من تطبيقات مختلفة في دقائقها ومنطقية في مجموعها • وقد دُوِّن هذا التشريع وصيغ بشكل قوانين حوالي القرن الثاني عشر •

« حقوق وواجبات الأوصال مستثمري الإقطاعات وأسيادهم :
يتفرع عن ولاء الوصل لسيده ومنح هذا الاخير حق استثمار إقطاعه لوصله **عقد أو اتفاق تعاقدي** تنتج عنه واجبات متبادلة • فيجب أن يمتنع كل من الطرفين المتعاقدين عن إلحاق الاذى بصاحبه انما يجب عليهما أن يتشاورا ويساند أحدهما الآخر ويشدّ أزره • وينضم الوصل الى عضوية هيئة الاوصال مرتادي وأعضاء بلاط السيد حيث تتشكّل وتتألف محكمة هذا السيد أي المحكمة الاقطاعية التي هي في الوقت نفسه هيئة تشريعية وقضائية بالنسبة الى ممتلكات هذا السيد • وللمساعدة التي تترتب على الوصل لسيده وجهان أحدهما نقدي والثاني عسكري • وفي الواقع فان المعونة النقدية الواجبة على الوصل لسيده هي عبارة عن ضريبة يجبيها هذا السيد من

وصله في مناسبات شتى حددتها الاعراف (وهي على العموم أربع مناسبات، أضاف المؤلف بين هلالين : الاشتراك في دفع فدية سيده لفكاكه من الأسر ، ودفع مبلغ محدد عندبلوغ الابن البكر للسيد سن الرشد والاعتراف به فارساً، ودفع مبلغ من المال للسيّد عندما يُزَوَّج هذا السيّد ابنه البكر، ثم أداء مبلغ آخر بمناسبة توجّه السيد في حملة صليبية كنفقات لتجهّزه) . كما أُجبِر الوصل على أداء الخدمة العسكرية لسيده سواء أكان اشتراكه في حرب هجومية أم دفاعية .. علماً أن مدة بقاء الوصل تحت السلاح كانت تختلف بالنسبة الى الظروف وكان تحديدها يتمّ أحياناً بقسوة وتشدّد وبصورة تعسفية»[1] .

وبعد أن عدّد هذا المؤرخ الحقوق التي يتمتّع بها السيد والتي لها صبغة إقطاعية صرفة أضاف إليها حقوقاً أخرى دعاها حقوق الاسياد الاقطاعيين Droit seigneuriaux أي الحقوق التي يتمتع بها هذا السيد بوصفه نبيلاً إقطاعياً ، « ونظراً الى أن هذا السيد صار يمارس نفس المهام التي كان يقوم بها الموظف الكارولنجي فان له الحق في استدعاء أتباعه (أوصاله) droit de ban أي له حق ممارسة شؤون الادارة المحلية وحفظ الامن في ممتلكاته . وتفرّع عن ممارسته لتلك الحقوق امتلاكه مطحنة عامة وفرنا عاما والخ ... حيث يُجبَر أتباعه على طحن غلالهم في مطحنة السيد وخبز خبزهم في فرنه وذلك لقاء دفعهم الإجر المُقَرَّر وبذلك يمارس احتكاراً في هذا الصدد »[2] .

ثم أورد المؤرخ نفسه وأخيراً مجموعة من الرسوم كان السيد يفرضها على وصله وهي : رسوم قضائية ، وممارسة حق ضرب السكة الخاصة ، والتي يجبر أوصاله على التداول بها . وثمة كذلك رسوم مالية وهي : رسم للتجوّل والمرور في الطرق التابعة للسيد ، ورسم يتقاضاه السيد عن بيع

---

(1) يوسف كالميت J. Calmette ، مجموعة التاريخ العام للشعوب لماكسيم بوتي M. Petit المذكورة، المجلد ١، القسم ٤، الفصل ٥، ص ١٨٨–١٨٩ .

(2) المصدر عينه ، المجلد ١ ، القسم ٤ ، الفصل ٥ ، ص ١٨٩ .

الحاجيات ، ورسم لعقد الاسواق الدورية marchés في ممتلكاته وهنالك أيضا ضريبة شخصية تجبى من البورجوازيين أي أصحاب المهن الحرّة ومن الفلاحين في أراضيه .

ثم حدث تبديل أو تشويه آخر بالنسبة الى الاسياد والى الاوصال المتصرفين بالاقطاعات . كان نظام الاقطاع نفسه يفرض وبصورة منطقية أن يكون المتصرّف بالاقطاع فارساً قادراً على القيام بالخدمات المفروضة على الاقطاع . لكن رجال الاكليروس من الفئات العليا كانوا قد تسلّلوا الى الأطر الاقطاعية . وقد تم تسللّهم هذا وبصورة أسهل من حيث أن عواهل الكارولنجيين كانوا قد جعلوا من رجال الاكليروس هؤلاء أسياداً إقطاعيين حقيقيّين عندما كلّفوهم أن يَحْضروا شخصياً الى الجيش ما فُرض على الممتلكات الكنسية من جنود تلك الممتلكات التي منحت امتياز عدم دخول ممثلي الملك إليها لحشد وتعبئة الجنود منها . وأمكن بهذه الوسيلة الملتوية إدخال الأساقفة ومقدّمي أو رؤساء الأديرة في القرنين العاشر والحادي عشر في نطاق النظام الاقطاعي ، في الوقت الذي كان فيه الاسياد الاقطاعيون أنفسهم ، ونشدانا منهم أن يستولوا على ممتلكات الكنائس والاديرة ، قد استولوا على أرفع المناصب الكنسية حاملين اليها نمط تفكير عالم الفرسان. وفي الواقع قامت في القرن الحادي عشر حركة معارضة قوية ضد هذا الارتباك أو التداخل الغريب بين أمور الكنيسة ونظام الاقطاع . ولو أن الافراد استمروا خلال فترة طويلة يقبلون فكرة أنه مهما كان رجال الاكليروس غير أكفاء ، فانه سيكون بوسعهم ، ان كانوا حقاً أتقياء وورعين ، أن يقوموا بواسطة بعض الوكلاء ببعض الالتزامات الاقطاعية المفروضة عليهم . وأنه مهما زاد إخلاص كبار رجال الاكليروس لمهامهم الدينية فانه بوسعهم أن يغدوا متصرّفين نظاميين أصوليين بالاقطاعات وحتى بالاقطاعات الهامة أحيانا ، وتلك كانت مثلا حال بعض الاساقفة الكونتات في فرنسا (أي الاساقفة الذين كانوا في نفس الوقت رؤساء روحيين وحكاماً زمنيين لبعض المقاطعات) كمدينة رينس ولانغر وشالون على نهر المارن وبوفيه ولاون ونوايون ومند Mende

والكثيرين من كبار رجال الدين في ألمانيا وايطاليا .

وتتجسد في شخص الاسقف أو الأب رئيس الدير الكنيسة نفسها أو الدير وهما وحدهما المتمتعان بوجود مستمر باق . ولذا أمكن اعتبار أن السيد الحقيقي للاقطاع ليس الأب مُقَدَّم الدير إنما المجتمع الديري الصغير الذي هو رئيسه ، وأن السيد الفعلي للاقطاع ليس الاسقف انما جماعة الكهنة في الكاتدرائية والذي هو رئيسهم . وقد قاد ذلك الى ظهور فكرة المتملّك أو المُلاّك أو الاسياد المشتركين للاقطاع وهي فكرة غدت وبدون أدنى شك مقبولة منذ الحين الذي قبلت فيه فكرة أن الالتزامات المفروضة على إقطاع ما لم تفرض لجعل مستثمر الاقطاع تابعا أو وصلا ومولى للسيد المالك انما مقابل تمتّع وتصرّف هذا المستثمر بالاقطاع أي بقطعة من الارض يمكن أن يتصرّف بها عدد من المستثمرين في نفس الوقت (أي أن تؤول كملكية انتفاع أو استثمار الى عدد من المتصرفين بها) . انها مع ذلك فكرة جديدة ، فاذا ما أمعنّا فيها النظر نلاحظ أنها لا تنطبق تماما مع منطلقنا الى دراسة النظام الذي نصفه (نظام الاقطاع) .

وتمكنت جماعات أخرى (غير رجال الاكليروس) من التسلل بواسطة هذه الثلمة الى النظام الاقطاعي . وسيشهد القرن الثاني عشر وفي نفس الوقت بداية عهد الجماعات الشعبية أو العامة وحصول أفراد طبقة العامة هؤلاء على الاقطاعات . فمنذ اليوم الذي شهدت فيه أوروبة ذلك المنظر المدهش المحيّر الذي صار فيه هؤلاء البورجوازيون (وفق المدلول القديم لهذه الكلمة أي صناع أو تجار أثروا بمعنى أنهم من أفراد طبقة العامّة) يؤدون لهم نفس أيمان الولاء هذه (أي صاروا بمثابة مُلاّك أسياد للاقطاعات) ، فمنذ ذلك اليوم شُوّه نظام الاقطاع تشويهاً غير قابل للشفاء[1] .

---

(1) راجع من أجل ذلك : آ ـ يوسف كالميت ، المصدر عينه ، المجلد ١ ، القسم ٤ ، الفصل ٥ ، ص ١٨٩ .

ب ـ لويس هالفين ، المجموعة عينها ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

ممارسة الأسياد الملاك الحكم في إقطاعاتهم [1] : ان الدور الذي أوسد الى الملوك في النظام الاقطاعي صغير جدا • وأخذ الملوك في ظل هـذا النظام يعيشون على ذكريات الماضي والآمال التي علّقوها على المستقبل • ومـارس الاسياد الاقطاعيون منذئذ الحكم الفعلي في ذلك النظام •

وحتى من خلال هذه الزاوية فان الملك أخذ يحصد ما كان نثره من بذار• لقد كان يظن في العصور الماضية أن من الانسب لادارة دفّة الحكم بصورة أسهل أن يلجأ الى كبار الملاّكين وذلك ابتغاء حسن سير العمل في عدد من المصالح العامة • وكانت جباية الضرائب المباشرة قد أنيطت منذ الفترة الاخيرة من عهد الامبراطورية الرومانية برؤساء الممتلكات الكبرى • كما جرت العادة كذلك بتكليف هؤلاء بجمع الجنود المفروضين على مناطقهم أثناء وقوع الحرب • كما كان يطلب منهم التدخل لتسهيل مهمة القبض على الجناة وتسليم الذين صدرت بحقهم أحكام من قبل السلطات القضائية ، وقد نتج عن كل ذلك أن ازداد سريعا وبنسبة كبيرة دورهم في مناطقهم كما توسعت سلطاتهم ورسخت : من حيث أنهم اعتادوا مخاطبـة المتصرفين باقطاعاتهم بلهجة الاسياد ، أو كما تنص عليه القوانين الرومانية • انهـم تعودوا أن يتحدثوا بلغة الاسياد الى الرجال المقيمين على أراضيهم •

وفضلا عن عدم مقاومة الميروفنجيين والكارولنجيين لازدياد نفوذ هؤلاء الملاّك الكبار فانهم أبقوا على الامتيازات التي كان هؤلاء متمتعين بها ولم ينالوها بسوء • لا بل فانهم زادوا من امتيازات بعض أولئك الملاّك وضوحاً وانتشاراً بالاعتراف لهم بصورة صريحة بالحق في جباية الضرائب لمصلحتهم الخاصة واعتبارهم قد أبرؤوا ذممهم بمجرد تسديد ما يعادل المبلغ الـذي جمعوه من حصيلة الضرائب بشكل هبات سنوية الى الملك وبالسماح لهـم بممارسة مهامّ القضاء بين سكان المناطق الخاضعة اليهم • وكانت الملكيـة قد سمحت الى موظفيها منذ النصف الثاني من القرن التاسع ، ولربما منـذ

---

(1) راجع تفصيل ذلك في لويس هالڤين ، المجموعة عينها ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ١٧ — ٢٠ .

فترة أقدم ، بتملك ممتلكات كثيرة في المناطق التي أوسدت إدارتها اليهم لدرجة أنه أمسى من الصعب فيما بعد التمييز بين هذه الاراضي الخاصة وبين الاراضي الاميرية التي كانت قد منحت اليهم بصورة موقتة لقاء المهام التي كانوا مكلفين بها والخدمات التي كانوا يؤدونها • ثمت فهذا الالتباس بين الاراضي العائدة لاملاك الدولة وأراضي الاملاك الخاصة ، زاده تعميم صيرورة المناصب الحكومية وراثية تعقيداً ، وأدّى الى ظهور تعقيدات كثيرة أخرى لدرجة أنه أمسى مستحيلاً مع مرور الزمن تحديد خط فاصل بين النشاط الذي يبذله موظف الدولة لمصلحة المنصب الحكومي الذي يليه أو الذي يبذله لمصلحته الخاصة بوصفه ملاّكاً عادياً •

ورويداً رويداً أخذت الدولة تبدو وكأنها قسّمت إدارياً وسياسياً • وأصبح ممكناً أن يقال منذ الفترات الاولى من عصر الاقطاع أنه لم يعد الملوك أنفسهم يمارسون أعباء الحكم إنما يمارسها الاسياد النبلاء •

طرق الاستاذ أوغوستان فليش موضوع تقلّص النفوذ الملكي وتدهور وانحلال الملكيات في ظل النظام الاقطاعي مورداً حول هذا الموضوع مامعناه: « وقد علقت بعض الأعراف والتقاليد بولادة النظام الاقطاعي تلك الاعراف والتقاليد التي بتسبيبها انحلال وضعف الدول الملكية بدأت عهد تحوّل على الصعيد السياسي • لقد ترك الملك ممارسته للحقوق الملكية على أراضي كبار الملاّك العقاريين الذين عمدوا الى ممارسة الشؤون القضائية وجباية الضرائب لحسابهم الخاص متوَصّلين بعملهم هذا ، وعلى حساب الدولة نفسها ، الى تحقيق استقلال يكاد يكون تاماً في ممتلكاتهم • لقد خلط الملك ، وتلك هي أهم المراحل الحاسمة التي أضرّت بمصالحه ، بين طبيعة المناصب التي كان يوسدها الى عمّاله وموظفيه les offices وبين الفوائد والارباح les bénéfices التي تنازل عنها للكونتات حكام الولايات ، الذين يمثلون السلطة العامة ، وبدلاً من أن يُخَصّص لهم الملك رواتب فانه ترك لهم استثمار أملاك الدولة وجباية الرسوم الملكية داخل نطاق حدود منطقتهم الادارية ، الى درجة أن الموظفين الملكيين هؤلاء سرعان ما غدوا وفي الوقت نفسه مستثمرين

للاملاك أو الاراضي الاميرية ومعفيين من الضرائب ومن باقي الواجبات الى درجة أن هؤلاء الاشخاص بدلا من بقائهم عمّالاً للملك ومسؤولين أمامه وبوسعه أن يعزلهم من مناصبهم فانهم لم يعودوا مرتبطين بالسلطة المركزية بسوى رباط الولاء الواهي . وفعلا كان ثمة ثورة حقيقية من جرّاء إبدال الكيان السياسي للكونتات حكام الولايات الذين كانوا في الاصل ومن قبل عمّالا فغدوا موالين fidèles أو أوصالا vassaux لها . لا بل أبقى جوّ الفوضى السياسية الذي ران على جميع المناطق في النصف الأول من القرن العاشر ولاء هؤلاء الكونتات مجرّد ولاء نظري وقطع آخر الروابط التي كانت تشدّ الموظفين الكارولنجيين الى السلطة الملكية » .

ثم والى المؤرخ حديثه عن ضعف السلطة الملكية فقال ما نصه في حديثه عن نتائج النزاع بين الاسر الملكية الحاكمة : « ولقد مرّ بنا كيف أن جميع الملكيات غدت وفي الفترة ذاتها فريسة لخصومات أسرية أدت الى زعزعة السلطة الملكية . ولينجح العواهل في الحفاظ على تيجانهم التي بدأ المنافسون يحاولون باصرار وعناد نزعها منهم صار شغل الملوك الشاغل أن يضمنوا تأييد ودعم أتباعهم لهم . ثم أفليست أنجع وسيلة للحصول على ذلك الدعم والتأييد أن يتنازلوا لهؤلاء الاتباع عما تبقى لهم من امتيازات قليلة . وهكذا فان الحكام المحليين للولايات من دوقات ومراكيز وكونتات والذين كانوا ومنذ فترة الحكم الميروفنجي يتقربون من العاهل ملتمسين دعمه وتأييده لنفوذهم قبل بدئهم بممارسة مهامّ المناصب التي أوسدت اليهم . فهؤلاء كلهم غدوا أوصالا وتابعين للملك الذي صار وانطلاقا من كونه ، وعلى صعيد النظام الاقطاعي ، سيّدهم ، يكتفي منهم بيمين الولاء والتبعية بدون أن يتمكن من ممارسة أية رقابة على أعمالهم . وفضلا عن ذلك فان تلك المناصب الكبرى (مناصب حكم الولايات قبل النظام الاقطاعي) التي حوّلها هؤلاء الى إقطاعات كبرى أخذت تنتقل وبالوراثة الى أبنائهم الى درجة أنه تشكلت أسرات إقطاعية حاكمة وراثية كانت بمنجاة من الخضوع الى سيطرة الملك » .

وبعد إيراد المؤلف أسماء الاسر الاقطاعية الكبرى في كل من فرنسا

وألمانيا أضاف الى ذلك قوله : « وبتلك الصورة رسخت جذور نظام الولاء الشخصي الذي أُبطل في ظلّه أي تدخل من قبل السلطة المركزية في الولايات التابعة لها والتي غدت مجرد إقطاعات مستقلة يمارس الاسياد النبلاء حكمها .

« وهذا التطوّر الذي تم حدوثه في جميع الدول الملكية في غربي أوروبة لم يتوقف فيها كلها عند نفس المرحلة . وتتج عن ذلك اختلاف في أوضاع تلك الدول ذلك الاختلاف الذي لا يمكننا أن نتوسع أو أن نلحّ في تفصيله : وهكذا لم يكن المظهر الخارجي لنظام الاسياد أي للنظام الاقطاعي واحداً بالنسبة الى كل من ألمانيا وايطاليا وفرنسا »(١) .

وكان للسيد الملاّك في الاقطاع موظفوه وضباطه (وهم ضباط درك أو المدراء والأوصياء والمشرفون على صيانة الطرق والقضاة والفيكونتات (وهم دون الكونتات حكام الولايات مرتبة) ورئيس القضاء) ليمارس حكم أتباعه أي أوصاله ، مهما كانت الفئة التي ينتمون اليها : كالمستثمرين الصغار الاحرار والرجال الاحرار وهم الذين يستأجرون أراضيه مقابل بدل إيجار ، وثمة المرابعون الذين يستأجرون أراضيه مقابل أن يتقاسموا معه غلاّتها ، والملتزمون ، وبعض الافراد المقيمين في غاباته ، والمعمّرون وكانوا بمثابة نصف أحرار ، ثم الاقنان . ولئن كان هذا السيد الملاّك محتلاّ مكانة سامية في تسلسل المراتب الاقطاعية ، فانه يكون لديه ضباطه الكبار وبلاطه . وهو يمارس القضاء في منطقته حيث يحكم لرعاياه أو ضدهم ، ويجبي الغرامات التي يحلو له أن يفرضها . وهو يجبي لمصلحته الخاصة الضرائب التي يظنّ أن من حقه جبايتها وفق التقليد والعادة ، لكن الافراد الخاضعين لحكمه يحتجون عليها بنعت تلك الرسوم المطلوبة منهم ودونما تمييز بالعادات السيئة، والضرائب الشخصية العادية (ضريبة الرأس) وهي بصورة عامة الرسوم أو المكوس التي كان يجب على المتصرّفين بالاقطاعات تسديدها . وهنا أيضا

---

(١) أوغوستان فليش : مجموعة غلوتز لتاريخ العصور الوسطى المذكورة ، المجلد ٢ ، القسم ١ ، الفصل ٧ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ .

الضرائب الشخصية أو ضريبة الرأس فوق العادية وتسدد عندما يكون السيد نفسه مضطراً الى تسديد الضريبة غير المباشرة التي كانت تدعى ضريبةالمساعدة الى مالك الاقطاع ، والرسوم العقارية ورسوم الدخولية ورسوم المرور والرسوم المفروضة على نقل أو بيع السلع ، والسخرات المفروضة عليهم من أجل صيانة الطرق وأبنية الاسياد ، ومن أجل استثمار أو إصلاح الاراضي التي سيستثمرها السيد لنفسه واعدادها للزراعة ، والاشتراك في نقل المؤن والعتاد للجيش • وقد يُفرَض عليهم أحيانا إيواء واطعام السيد وحاشيته والانضمام الى المراقبين والحرس ، وتأدية الخدمة العسكرية الفعلية اذا ما دعت الحاجة الى ذلك من حيث أنه لا يمكن لجيش مؤلف من الفرسان فحسب الاستغناء كلياً عن المشاة •

وأخيراً فان السيد افتئاتاً منه على حقوق الدولة واغتصابا لها ، علماً أن ذلك لم يكن واحداً من تعدّياته وافتئاتاته الصغرى ، صار يمارس في جميع رقعة المنطقة الخاضعة اليه سلطات قوات الشرطة والامن • وعلى غرار ما كان يقوم به الملوك الكارولنجيون قديماً وممثلوهم فان السيد هو الذي يبتّ في شؤون التجارة وهكذا فانه يحدّد وفق ما تتطلبه مصالحه الخاصة وأوقات فراغه تاريخ البيع السنوي للنبيذ الجديد المعصور في كروم أراضيه ، مما كان يدعى إعلان بيع النبيذ ، كما كان يحتفظ لنفسه بحق اقامة المعارض والاسواق • كما وأن السيد تمادى ووصل الى أبعد من ذلك بانتحال سلطات قوات الشرطة عندما منع أن يطحن القمح الا في مطاحنه ، وأن يخبز الخبز ألا في أفرانه ، وأن يعصر العنب إلا في معصرته وألا يوزن شيء إلا باستعمال صنجاته • ومن المسلم به أن جميع هذه الاحتكارات التي يُصِرّ بشدّة على ممارستها كانت تدرّ عليه أرباحاً طائلة •

وكان السيد يعمل في جميع الميادين وكأنه رئيس دولة حقيقي • فاذا ما أعلنت الحرب فانه يلجأ من أجل أمن منطقته الى جميع التدابير التي يرى أن الظرف يتطلّبها : كمصادرة الخيل والمؤن وتعبئة الجنود والسخرات الاستثنائية غير العادية لجعل التحصينات جاهزة والخ •• أما في وقت

السلم واذا ما دعت الحاجة الى ذلك فانه يفرض الرسوم على السلع ولمراقبة البيع بالمفرّق ، وليمنع فتح حانوت ما .

وهكذا فقد تجزأ مبدأ السيادة الى أقسام لا يمكن حصرها أو عدّها ولو أن المبدأ نفسه استمر قائما . وفي اليوم الذي ستجد فيه السلطة الملكية نفسها قوية الى الحدّ الذي سيسمح لها باستمرار هذه السيادة المجزّأة تدريجياً فانها ستجد العناصر التي كانت السلطة الحكومية قد احتفظت بها بعناية تامة مبعثرة بعد أن جعلت تلك السلطة الملكية هذه العناصر تفلت من يدها [1] .

الحياة في ظل النظام الاقطاعي : بيد أنه ريثما تجد الملكية نفسها قادرة على تنظيم شؤونها الداخلية أي تنظيم شؤون بيتها ، كما كان يقال ، سيكون النظام الاقطاعي قد انحلّ وفسد وتحوّل الى فوضى مروّعة . واذا لم يجد الاسياد الموجّهة حياتهم نحو الحرب والطعان ، والمنظمة من أجل خوض المعارك ، ميداناً خارجياً ليمارسوا فيه نشاطهم وحبهم للقتال فانهم يتنازعون فيما بينهم ويتقاتلون . وهكذا كان ثمة تعبير مبتذل متداول على الالسنة في القرن الحادي عشر حيث كانوا يصفون أفراد الاكليروس بأنهم المصلّون والشعب بأنه الذي يكدح بينما يصفون الفارس بأنه هو الذي يمارس القتال.

ويتمرّن الشاب المولود في أسر الفرسان منذ أن يصير يافعاً على حمل السلاح فيعمل حاملا لسلاح فارس ما عند ما تدور رحا المعارك . ان حياة الفرسان بالنسبة الى هذا الشاب وبالنسبة الى السيد النبيل نفسه قاسية . وما كان يسمى بالقصر كان مجرد تلّ منحدر أمامه منحدر قوي أو تلّ طبيعي أو غير طبيعي وكانوا يسمونه العرصة المنفصلة والمرتفعة وكانت مُسَيَّجة ومحاطة بأوتاد في أول الامر ثم لم تلبث قطعة الارض هذه أن أحيطت بجدران من الحجارة تتقدمها حفرة عميقة تجتاز بواسطة جسر متحرك

---

(١) راجع من أجل ذلك : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ١٩ — ٢٠ . وما أوردناه من رأي يوسف كالميت قبل هذا القسم ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

وقد شُيِّد برج قوي فوق هذه الارض وهو الذي صار يدعى برج القصر الذي صار الحجر يستعمل تدريجياً في بنائه بدلا عن الخشب • ولم يكن المظهر الخارجي لهذا المقر المُعَدّ لسكنى السيد النبيل مغرياً • وكتدبير وقائي لم يكن لهذا القصر سوى باب واحد يدخل منه وهو أعلى كثيراً من مستوى الارض وبمستوى الطابق الاول • وليصل المرء الى هذا الباب يتسلّق أرضاً مائلة أو سُلّماً يمكن أن ينقل بسهولة من في حالة الخطر • ويدخل من هذا الباب الى غرفة كبيرة سيئة الإنارة ينفذ اليها النور من كوات موجودة في جدارها السميك • وهي الغرفة الممتازة التي يُنامُ فيها ويُؤْكَلُ فيها ويعقد فيها السيد النبيل الجلسات • وهناك حفرة في وسط أرض هذه الغرفة وضع فوقها باب متحرّك ينزل منها الى مستودع صغير كُدّست فيه المؤن ليتمكن السيد النبيل من مقاومة الحصار طويلا إذا ما حوصر قصره • وثمة كوة أخرى في سقف هذه الحجرة يصعد بواسطتها الى الاجزاء العليا من البرج والى الطريق التي يراقب منها الحارس بواسطة كوّات الشرفات والمناطق القريبة من القصر ، حيث كان على أتم استعداد لان ينذر من في القصر بدنوّ العدو • ففي هذا السجن العتيق المشؤوم كان يمر قسم من حياة السيد ، هذا إن كان محظوظاً ولم يضطر الى العيش في المنطقة السهلية المنبسطة التي ليست فيها أية عوارض طبيعية تمكن من الدفاع عنها •

ولوقاية جسم الفارس أثناء القتال فانه إما أن يرتدي قميصاً من الجلد مغطّى بقطع معدنية ، أو أن يضع رداء كاملا من الزّرد ، وهو الاكثر انتشاراً واستعمالا والذي كان قسمه العلوي بمثابة غطاء للرأس ويغطي القذال والجمجمة • أما الرأس فهو مغطى بخوذة مخروطية الشكل • وهناك الترس الطويل المُعَلّق على صدر الفارس ، والسيف العريض المعلق بجانبه والرمح في قبضته وهو على سرج جواده السريع ، وكان على السيد أن يبقى دائماً متأهباً ومستعداً لمجابهة الخطر • وفي ربيع كل عام كان من الممكن أن تندلع الحرب لسبب بسيط ، تلك الحرب التي من الخطإ تصوّرها وكأنها مناورات عسكرية ممتازة إنما هي على العكس من ذلك حرب ضروس

مـُرَوِّعة تـُغـَطـّي فيها جثث القتلى وجه الارض وحيث يقوم العدو بمهاجمة القلاع بعد أن يتم اشتباك صفوف قوات الفريقين • انها حرب لا يصان فيها شيء ولا يحترم فيها شيء من المزروعات أو المساكن أو الكنائس أو الاديـرة التي يؤدي فيها الرهبان صلواتهم من أجل راحة وسلام نفوسهم ، وهـي حرب مشؤومة ومنحوسة لدرجة أن رجال الدين لم يدّخروا وسعاً ومنـذ نهاية القرن العاشر وبكل الوسائل التي كانوا يستطيعون استعمالها للحد من نتائجها ومنع نشوبها باقامة عراقيل عديدة في وجهها: كمحالفات النبلاء لتوطيد السلام ، ومنح امتيازات خاصة تضفي سلام الله وأمنه على بيوت العبادة وعلى الممتلكات الكنسية وكذلك على المحراث والطاحون والابنية ذات النفع العام وجعلها تنعم به ، وفرض فترات هدنة اجبارية أو هدنات الله وذلك في أيام الاعياد أو في الايام المشهورة • إنها أيام مقدسة وذلك لما تتطلبه هذه المناسبات من القيام بامور تتعلّق بالدين •

وكانت الحرب في الواقع حسنة بالنسبة الى السيد النبيل وتوافقه الـى درجة يمكن اعتبارها سرّ وجود السيد النبيل الاقطاعي لدرجة أنه ان لم يقم بها بصورة فعلية فانه على الاقل يتمرّن على خوض معاركها • وكانوا يقومون في هذه الفترة على ما يبدو بالاعياد ذات الطابع العسكري التي تتم خلالها المبارزات بين الفرسان والتي زاد انتشارها كثيراً في القرن الثاني عشر • وكان هذا العيد في حدّ ذاته عبارة عن معركة حقيقية ، وغالبا ما كانت تؤدي الى مصرع بعض الفرسان • انها في واقعها مجرد نموذج مُصَغَّر عن المعركة الحقيقية وعند توقف تلك الاعياد كان الفرسان يستعيضون عنها بمبارزة الدمية التي كانت تلبس درع فارس وكان الفرسان المسلحون يهاجمونهـا على جيادهم المسرعة وبأيديهم الرماح مشرعة ليبرهنوا الى جمهور النظّارة عن رشاقتهم • كما كانت هناك ممارسة رياضة المبارزة بالسيف على الجياد • ويضاف الى هذه التمارين الشرسة والقاسية الصيد بواسطة كلاب الصـيد والصيد بواسطة الصقر • ومع ذلك فقد كانت هذه التمارين تتوقف من حين لآخر لكن بعد اقامة ولائم عظيمة جدا يكثر فيها تقديم لحوم الصيد والاطعمة

التي أضيفت اليها التوابل بنسبة كبيرة والتي تدعو الانسان الى الشراب . وكانت تقام مباريات في لعبة الشطرنج أو القموع (الكستبان les dés) كما كانت الحال أيام محاربي العهد الهومري (في بلاد الإغريق) . لا بل فان الديانة نفسها بقيت في عصر الاقطاع ديانة ذوي النفوس الساذجة البسيطة ، ومن غير الممكن الإفاضة في الحديث عن نعومة المرأة وابتسامتها في هذه البيئة التي لم تكن العروس فيها في العادة إلا كما وصفت بصورة عادلة « انها مسترجلة ذات خلق عنيف » وكانت غريبة عن معظم الاعمال التي تظهر رقّة وعذوبة ورشاقة النساء .

وستكون طباع الأفراد في القرن الثاني عشر أقل قسوة وعنفاً . وأسهم تاريخ الادب الذي ازدهر في تهدئة الافكار ، وصارت الحياة عذبة ولو أنها بقيت خلال فترة طويلة يحركها ذلك الحماس العسكري المتّقد والذي لايمكن بدونه تصوّر التنظيم الاقطاعي ، ولم يكن ممكناً إعادة تكوين المجتمع وتزويده بتربية جديدة إلا بتغيير هذا النظام الاقطاعي في مراحل متعاقبة والقضاء على النتائج السيئة الفاسدة التي ترتبت على عدة قرون من الفوضى[1] .

---

(١) راجع من أجل تفصيل ذلك : آ ما أوردناه في دراستنا في هذا الفصل عن التسلسل الاجتماعي في عصر الاقطاع ، ص ٤٥٢ ـ ٤٥٣ أعلاه ، من رأي للمؤرخ الانكليزي ستيفنسن أثبته الدكتور ابراهيم احمد العدوي .

ب ـ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات عينها ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ١ ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

الفصل الرابع عشر

أوروبة في القــرن الحادي عشر

الكنيسة(١) :

إنه لئن تمكن المجتمع الاقطاعي المو ّار بالحياة والمضطرم بالحركةوالشرس الطباع من احتلال أقاليم أوروبة الغربية ، أي واجهة المسرح ، فهذا لا يعني إطلاقاً أنه صار بوسع هذا المجتمع أن يسوس العالم آنئذ . وبعد أن جرف تيار دمار جميع القيم في فترة انهيار الدولة الكارولنجية الكنيسة فــان هذه الاخيرة تمكنت من الصمود والبقاء . وقد تسلمت نخبة من الرجال البارزين والمشهورين بسعة أفق معارفهم وبضمائرهم اليقظة السامية وبإرادتهم القوية إدارة الكنيسة للحيلولة دون غرق مركبها وحدوث الكارثة . وتمكنت هذه الكنيسة القوية بتقاليدها العريقة التي تعود الى ما قبل عدة قرون أن تكون الأداة الوحيدة التي استقطبت الجهود الخيِّرة في وسط الفوضى التي عمّت جميع بقاع العالم . ولربما كانت هذه الكنيسة قوية بنسبة أعلى من جرّاء نفوذها المتفوّق الذي أمكنها الحفاظ عليه في جميع البيئات بنتيجة الثقافة الرفيعة التي كان رجالها متمكّنين منها . ولم تبد هذه المؤسسة الدينية في القرن الحادي عشر السلطة المـُعـَدّلة الاولى التي خفّفت من وقع ظالم الطبقة الحاكمة لأفراد رعيتها فقط إنما ظهرت وكأنها السلطة القــادرة على ممارسة أعباء الحكم . وكانت تنشد إحياء واعادة مفهوم الدولة الذي بدونه سيكون مآل الكنيسة نفسها الى الفوضى . وقد عملت من أجل تحقيق هذا الهدف وفق خطة جلية واضحة ، كمــا تميّزت خطتها هــذه بوجهات

---

(١) راجع التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع في : لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة، المجلد٦ ، القسم١ ، الفصل ٢ ، ص: ٢٣ ــ ٤٥ .

نظر دائمة وثابتة • ونظراً لان نجاح عملها كان متعلقاً بالسلطة التي تتمتع بها ، وبالفكر الانضباطي الذي كان يدفع رجالها ، لم يكن مستغرباً أن تستهل هذه المهمة الكبرى بالسعي قبل كل شيء الى اعادة تنظيم نفسها واصلاح شؤونها •

حركة اصلاح الكنيسة في منطقة كلوني Cluny **(في مقاطعة نهري السون** Saône **واللوار ، وفي بورغونديا) والافكار الكلونية** Les idées Clunisiennes :

لقد تمّ هذا الإصلاح للكنيسة على عدة مراحل :

كان أفراد الإكليروس العلماني ، أي غير النظامي Le clergé séculier : قد تساهلوا ومنذ القرن العاشر وفي مناطق مختلفة بأمور العقيدة والاخلاق• لذا فان حركة ورعة قوية والحاجة المُلِحّة الى قيام حركة دينية واضحة المعالم قد دفعا طائفة من النفوس القلقة الى الانتساب الى الأديرة التي أخذت تنهض تباعاً من كبوتها وتصلح نفسها بعد أن دمرتها غارات العناصر النورماندية والمجرية أو الإسلامية •

وهكذا بدأت تشاد فوق الارض تلك الابنية التي سيقيم فيها المؤمنون صلواتهم ، تلك الابنية الدينية التي لم يُقَصِّر النبلاء الذين كانوا مهتمين بتأمين السلام والطمأنينة لنفوسهم في الإنفاق عليها وبسخاء • وقد وجد بين بعض أولئك النبلاء من تمتّع بشهرة القديسين ومن كان يخضع بعقله الى أهم التقاليد الديرية • ونتج عن سخائهم في الإنفاق على تشييد الأديرة أنهم حصلوا وشيكاً على نفوذ خارق للعادة •

ولم يكن ثمة دير يعادل في أهميته دير كلوني بله أن يتفوّق دير ثان عليه ، ذلك الدير الذي أسسه سنة ٩١٠ في إقليم كلوني ، (مقاطعة الماكون Macôn) دوق إقليـم آكيتانيا غليوم • وقد تحدث الاستاذ مارسيل پاكو Marcel Pacaut عن الظروف التي أقام فيها دوق آكيتانيا ديراً في ممتلكاته في كلوني (جنوب غربي فرنسا) ذلك الدير الذي يتبع ومن حيث المبدأ نظام الأديرة البندكتية • هذا ولو أن الاسم الذي سيغلب على هذا الدير والأديرة التي ستلحق به هو اسم المكان الذي أسس فيه ، وهو كلوني ،

فقال الاستاذ پاكو ما معناه : « لقد وهب شخص يتمتع بمركز سامٍ في المجتمع وفي ١١ أيلول ٩٠٩ ، وهو المدعو غليوم الرابع دوق إقليم آكيتانيا وكونت مقاطعة ماكون ، ممتلكاته ليؤسس فيها دير بندكتي • وقد أوضحت وثيقة الوقف أو الهبة الاهداف التي حدت به الى تقديم هذه الهبة الى كل من الحواريين بطرس وبولس » والشكليات التي روعيت أثناء تقديمه هذه الهبة لذينك الحواريين الرسولين والتي يجب أن تبقى دائما مرعية • وقد أرفق المتبرع في الوثيقة « الحجّة أو البراءة » التي تمّ التنازل بموجبها عن ملكيته للاراضي التي سيتم تشييد الدير فوقها وملحقاته صك تنازله عن ملكيته لتلك الاراضي بجميع الإيضاحات والتحديدات الضرورية •

« إنه شرح وقبل كل شيء الحوافز التي حدت به الى التنازل • (وبعد إيراد صاحب الوقف أو المتبرع الاسباب التي حملته على التبرع والتي لا نجد ، تجنّبا للتطويل ، داعيا لاثباتها هنا) ، أضاف المؤلف ما نصه :

« وتضفي هذه الاسباب والشروط ، الصفة الاولى على تلك المؤسسة الكلونية : لقد وهب الدوق ملكه الى القديسين بطرس وبولس ، أي الى الكنيسة الكاثوليكية الغربية التي تقبّلت منه التملّك الفعلي لذلك الدير الجديد • وكان المتبرع يرمي من وراء تلك الوسيلة تجنيب الدير الذي أسسه أيّ تدخّل خارجي ، مقصياً بتلك الوسيلة أي امتياز قد يدّعيه زيد من الناس بأنه صاحب حق ما في المتلكات الملحقة بدير كلوني ، حتى ولو كان ذلك المدّعي هو المتبرع نفسه أو أحد أنساله ، ومُجَنِّباً الدير كذلك أيّ تدخّل حتى ولو كان من جانب البابا نفسه • وبمقابل ضمان المتبرع الواقف وبصورة قانونية أصولية أن تضفي الحبرية العظمى وبصورة رسمية حمايتها على ذلك الدير وضماناتها له فانه اشترط في صكّ الوقفية تسديد رهبان دير كلوني عشر وحدات نقدية فضية كل خمس سنين لصيانة وترميم قبري الرسولين •

« وقد وضح الهدف الذي نشده الواقف لدير كلوني ويتعلق بصيانة ملكية هذا الدير من أن تتلقّفها أيدٍ علمانية سواء بطريقة مباشرة أم غير

مباشرة . لا سيما وكانت الحبرية العظمى في هذه الحقبة مجرّدة من أية سلطة فعلية تمكنها من السهر على وضع شروط الواقف موضع التنفيذ . لكن ذلك لم يمنع استمرار البابوية في الفترة ذاتها وخارج ايطاليا متمتعة بنفوذ كبير خاصة وأن القرار الذي ستصدره ضد أي مفتئت على ممتلكات ذلك الدير هو أقوى بكثير وأشد وقعاً في النفوس من القرار الذي ستصدره أية سلطة أسقفية ومهما بلغت أهميتها ومنزلتها . وفضلا عن ذلك فان إلحاق ملكية هذا الدير بممتلكات القديس بطرس الخاصة يقيها أي تدخل مزعج أو افتئات عليها من قبل أحد الاساقفة (ويقصد بذلك : الاسقف الذي يقوم دير كلوني داخل نطاق أبرشيته) .

« كما اشترط واقف الدير استثناء خضوع ديره من أن يبسط أي سيد علماني سيطرته عليه .

« ثمت فان إقصاء الاسياد العلمانيين عن بسط نفوذهم على الدير جعل هذا الدير حرّاً في ممارسة جميع شؤونه والتي يأتي في مقدمتها انتقاء رهبان الدير ، بدون ممارسة أي ضغط عليهم ، مقدّم ديرهم وتلك أول عملية رئيسية في النظام البندكتي الذي نشد غليوم الورع رؤيتها مطبقة في ديره في كلوني .

« وقد أشار واقف الدير أخيراً وفي نهاية حجّة الوقف الى الأخطار والعقوبات التي سيتعرض اليها مخالف تلك الشروط مما أضفى على دير كلوني شهرة فائقة قلّ أن تمتّع بها دير مماثل .

« وهكذا ظهر في كلوني دير رأى النور بفضل إرادة وحزم زعيم علماني قويّ وثريّ وكان مقتنعاً بوجوب مدّه يد المعونة الى رجال الإكليروس بمنحهم ملكاً عقارياً ، والذي كان مدفوعاً الى هذا العمل بعاطفة خيِّرة وصادقة من التقى والورع حملته على أن "يشَيِّدَ" مؤسسة كفيلة بأن تغدو ملاذاً وملجأً للحياة الديرية الاصيلة »[1] .

---

(١) مارسيل پاكو M. Pacaut ، المرجع المذكور ، الفصل ٥ ، ص ٥٢ ــ ٥٤ .

اطمأن رهبا ن دير كلوني هذا ، وبموجب البراءة التي سمح لهم بموجبها باقامةديرهم وجعله متمتعاً بامتيازات كثيرة ، بأن ينتقوا وبملء حريتهم الأب مقدّم ديرهم ، وأن يحموا ديرهم هذا والى الابد من تدخّل النبلاء الضار في شؤونه . وهكذا تمكن رهبان دير كلوني من أن يغدوا قدوة لسواهم من الرهبان أو أن يكونوا بمثابة مدرسة أو طريقة ديرية بالنسبة الى جميع بلدان أوروپة سواء في فرنسا أم في المانيا أم في اسبانيا أم في انكلترا حيث صار رهبان الأديرة الاخرى يحاولون أن يحاكوا سلوكهم وأن ينسجوا على منوالهم . وقد زادت امتيازات رهبان هذا الدير بصورة استثنائية الى الدرجة التي أوشكت أن تجعلهم مستثنين من الخضوع الى سلطة أسقف المنطقة ليربطوا مباشرة بالكرسي الاقدس مما حمل الكثير من المؤسسات الديرية على طلب الانضواء تحت زعامة الدير الأم (أي دير كلوني نفسه) ، وعلى أن تطلب مثله التمتّع باستقلال ذاتي نظري ، مؤثرين ذلك على أن يكون إيمانهم أو تقاهم وورعهم على الدوام مهدداً من قبل افتئات نبلاء المنطقة عليه أو من قبل رئيس هيئة الإكليروس فيها . وآثر معظم الأديرة الانضمام الى دير كلوني وأن تُطبِّقَ أنظمته ولو أفقدها ذلك شخصيتها .

وهكذا فانه انضمت مئات ومئات من الاديرة حوالي سنة ١١٠٠ الى دير كلوني وغدت بهذه الصورة تابعة اليه ، لدرجة أن رئيس هذا الدير صار يلي الحبر الأعظم أهميةً في العالم المسيحي . ولم تكن وضعية هذا الدير قد بلغت ذلك المستوى تماماً في منتصف القرن الحادي عشر ، ومع ذلك أصبح كثير من الاديرة اذ ذاك يأتمر بأمر دير كلوني الذي يُعيِّن مقدّميها ، وصارت مجموعة تلك الأديرة تُشكِّل عبر الحدود السياسية للدول التي تقوم فيها إمارات إقطاعية وممالك ، بمثابة شبكة واسعة من بيوت العبادة تحدوها رغبة واحدة أو هدف واحد ، وتخضع الى نفس الاندفاع أو العاطفة الدينية وبمثابة ملاجىء يأوي اليها المرء لينطوي فيها على نفسه وليقيم فيها صلواته ، كما كانت مدارس تُدَرِّسُ موادَ لا تنشد من ورائها أي عرض أو منفعة إنما تُدَرِّس علم اللاهوت الذي كان إشعاعه يتجاوز كثيراً جدران

رواق أو ساحة ديرهم[١] .

ولم يستأثر دير كلوني وحده بهذا الدور الطليعي كدير رئيسي أي دير أم للحركة الاصلاحية التي اهتمت باصلاح الحياة الديرية في أوروبة والتي بدأت منذ القرن العاشر . ففضلا عن الحركة الكلونية هذه ظهرت آنـذاك حركات إصلاحيات أخرى ومن بينها الحركة التي قامت في أحد أديرة ايطاليا وهو دير كامالدولي Camaldoli (فـي مقاطعة طوسكانة) الـذي أسسه القديس روموالد Romuald في مطلع القرن الحادي عشر ، ولو أن دوره الطليعي الرائد كدير رئيسي أي دير أم لحركة ديرية كان لا يزال متواضعاً . وقد التفّت في سنة ١٠٧٢ ، إبّان فترة ازدياد أهمية دير كلوني ، عدة أديرة ايطالية فقط حول دير كامالدولي ، في اقليم طوسكانة ، الـذي تزعمها . وعلى الرغم من **نظام التنسك** la discipline érémitique الذي أُجْبِر الرهبان الكامالدوليون (أي رهبان دير كامالدولي الايطالي) أنفسهم على التمسك به فان أهميتهم لم تبلغ مطلقاً مرتبة رهبان دير كلوني الفرنسي الأتقيـاء والورعين والنشيطين ولا سيما « الرهبان السود » .

عالج الاستاذ لوس بيتري مسألة اصلاح الحياة الديرية التي نذرت بعض الأديرة ومنذ القرن العاشر نفسها لتحقيقه والذي كان دير كلوني الآنف الذكر واحـداً من بينها فقـال بالنسبة الـى هـذا الموضوع وتحت عنوان : **الكنيسة تصلح نفسها** ، ما نصه :

« **اصلاح الحياة الديرية** : أُعِدّ الإصلاح الذي كانت الكنيسة بحاجة اليه وتهيّأ على أيدي الرهبان . وقد تبنّت أديرة كثيرة منتشرة في معظم بقاع غربي أوروبة نظاماً صارماً وقاسياً . واستقبلت تلك الأديرة عدداً من المسيحيين المتعلّقين بالمثل العليـا للنصرانية والذين كان يحزّ في نفوسهم ما تردّت اليه أخلاق أفراد هيئة الإكليروس من فساد . وتضاعف منذ القرن العاشر عدد الحركات الديرية الناشدة للاصلاح والراغبة في أن تحذو حذو النظام

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

البندكتي ، ففي انكلترا أوجد دونستان Dunstan نظاماً ديرياً قاسياً في غلاستونبري Glastonbury . وبعد أن غدا دونستان هذا أسقفاً لكانتربري Canterbury (بين سنتي ٩٦٠ ــ ٩٧٥) فرض على عدد من الأديرة نظاماً موحّداً مقتبساً وبنسبة كبيرة من الفكرات الإصلاحية التي عمّ انتشارها في أديرة البرّ الاوروبي .

« كما أعاد جيرارد دو بروني Gérard de Brogne في إقليم اللورين تنظيم الأديرة في ذلك الإقليم . أما يوحنا فانديبه Jean Vandiers فقد اهتم باصلاح الحركة الديرية في غورز Gorz بالقرب من ميتز ، ذلك الاصلاح الذي أخذ يشعّ على ألمانيا منتشراً في كثير من أديرتها حتى كل من فولدا Fulda وإينسيدلين Einsiedlen.هذا بينما حاول القديس روموالد Romuald التقريب بين المثل العليا لحياة الرهبنة الانعزالية التي يراها الأشدّ قرباً من الحياة المثالية الكاملة والحياة الرهبانية الديرية التقليدية : وهكذا فإنه أنشأ في كامالدولي (في ايطاليا) مؤسسة ديرية أو حركة قلّص فيها دور الحياة الاجتماعية للرهبان في ذلك الدير حيث يقضي الرهبان فيه سحابة أيامهم في أكواخ منعزل بعضها عن بعض ، كما أنشأ مؤسسة ديرية مماثلة في فونت آفيلاّنا Fonte Avellana »[1] .

ثم زاد الاحتكاك بين رجال الإكليروس النظاميين ورجال الاكليروس العلمانيين وصارت صلاتهم وديّة ومتينة بصورة لن تصل الى مثلها في المستقبل . ولم يبق الرهبان الكلونيون منطوين على أنفسهم في ديرهم انما صاروا يجوبون أنحاء البلاد ناشرين ، وبواسطة أحاديثهم ونمط معيشتهم الذي كان مثلا يحتذى ، المبادىء الدينية التي نذروا وكرّسوا حياتهم من أجلها ، محاولين قيادة الكنيسة الكاثوليكية والاخذ بيدها الى الاصلاح الذي آلوا على أنفسهم القيام به وتطبيقه . وكان بديهياً أن تجابههم معارضات قوية ، من حيث أن استقلالهم وقوتهم ، ومواردهم التي كانت تزداد باطراد ،

---

(١) لوس پيپتري : مجموعة موريس مولو M. Meuleau عن العالم وتاريخه المذكورة ، المجلد ٣ القسم ٤ ، الفصل ٩ ، ص ٤١١ .

فكل ذلك أثار الحاسدين ضدهم • وكان طبيعيا ألا يتسامح الاساقفة وألا يتساهلوا بالنسبة الى امتيازات الكلونيين الناصّة على استثنائهم من الخضوع الى سلطتهم • ولم يكن لعظاتهم في أن تكون حياة الانسان متقشفة وبوجوب العودة الى التعاليم الدينية الاولى صدى مستحب ولو أنها كانت تتجاوب مع بعض الضمائر اليقظة وتوءكّد في هذه النفوس رغبات داخلية الى الاصلاح تلك الرغبات التي كانت تصطدم وبعنف مع الحقيقة القاسية •

الكنيسة الكاثوليكية والنظام الاقطاعي : قضية منح رجال الدين مستثمري الاقطاعات حقّ استثمارها من السلطات المدنية ، أي قضية التقليد العلماني La question de l'investiture : وفعلا كان ثمة عدد كبير من رجال الدين تلقوا في المدارس الاسقفية ، التي اعتبر القرن العاشر فترة ازدهارها ، ثقافة دينية عالية الى الدرجة التي تسمح لهم أن يقدّروا مدى الخطر الذي تتعرض اليه الكنيسة الكاثوليكية كلها • لقد انخرط رجال الدين هؤلاء في ملاكات وأطر النظام الاقطاعي من جرّاء ما آل اليهم من ممتلكات عقارية غالباً ما جعلتهم في الوقت نفسه في عداد كبار النبلاء أصحاب السلطة الزمنية ورعاة للنفوس (رجال دين) ، كما اضطروا من جهة ثانية بفضل الثقة التي أولاهم إيّاها الملوك أو أوصالهم الى التدخّل في شؤون الحياة العامة التي كانت التوجيهات التي يتلقونها من هؤلاء وأولئك تجعلهم وبصورة خاصة أكفاء لمعالجتها • وكان أن انغمس جميع رجال الدين العلمانيين ، من أعلى الى أدنى منصب بينهم ، في التنظيم الاقطاعي وغدوا أسرى له • وكانوا يظنون إمكانية الحصول على فوائد هذا النظام بدون تعريض مناصبهم الدينية الى أي خطر • فكان لزاماً عليهم شاؤوا أم أبوا القيام بالواجبات المشكلة للالتزامات المترتبة عليهم مقابل تمتّعهم بتملّك الاراضي ، وأن يخضعوا الى قواعد التبعية والولاء التي تشدّهم الى أصحاب تلك الاراضي ، وبالتالي أن يلتمسوا من النبلاء أصحاب الإقطاعات عند بدء ممارستهم لاعباء مناصبهم الدينية أن يمنحوهم حق استثمار تلك الاقطاعات المرتبطة بتلك المناصب • فكيف يمكن في ظروف كهذه تجنّب افتئات السلطة المدنية على حقوق السلطة الدينية ؟ كان رجل الدين المستثمر لارض ما يعترف أنه وصل

وتابع الى مالكها ، فطبيعي والحالة هذه أن يجعل رجل الدين هذا نفسه شبيهاً بالمستثمر العادي البسيط للاقطاعات . وكان من المحتّم أن يحصل السيد صاحب الاقطاع الذي التمس منه رجل الدين منحه حق استثمار هذا الاقطاع أن يشترط في أول الامر ، لمنح ذلك الحق الى مستثمر متمتع بصفة غير عادية ، من حيث أنه المستثمر الوحيد الذي لا يشترط القانون انتقال الاستثمار الى ذريته من بعده (لانه رجل دين وخاضع أثناء ممارسته أعباء منصبه الديني الى تنقلات عديدة ، بمعنى أنه غير ثابت في مكان محدّد وليست له ذريّة لانه عادة غير متزوّج) أن يكون له ، كسيّد مالك ، حق الإشراف على إقطاعه ، كما طلب بعيد ذلك أن يكون له حق التدخّل فيه[1] .

وقد مرّ بنا آنفاً أن رؤساء الدول كانوا من قبل يتدخلون وبصورة فعّالة في تعيينات رجال الدين في بلادهم مستندين الى سلطتهم السيادية العليا والى الضرورة التي يجدون أنفسهم فيها بوجوب تأمين موظفين جيدين من أجل مختلف المناصب العامة التي يحتفظون بها الى كبار رجال الدين . لكن الشرّ صار أعمّ وتفاقم عن ذي قبل وصار ذا طابع جديد بالنسبة الى منح حق استثمار الممتلكات الزمنية . لقد صار بوسع الامير الحاكم أو السيّد النبيل مالك الاقطاع أن يتخذا من منحهما حق استثماره الى رجل الدين أداة للمساومة أو الاساس الذي تقوم عليه الصفقة الحقيقية : وأدى ذلك الى ظهور حركة المتاجرة بالمقدسات أو بيع الممتلكات أو المناصب الدينية مما عرف باسم **الحركة السيمونية** Simonie (التي غالباً ما أدانتها وشجبتها المجامع الدينية) والتي تشير اليها النصوص المعاصرة أحيانا بصورة مبالغ فيها ، كما تشير اليها في أحيان أخرى بدقة مريعة . وصار الحفل الذي يمنح فيه من يشغل منصباً دينياً سامياً حق استثمار الاقطاعات هو العمل الرئيسي بالنسبة الى هؤلاء الموظفين الدينيين الأعلين . ولم يعد للاحتفالات ذات الطابع الديني والمتعلقة بممارسة هذا الموظف السامي مهام منصبه الديني سوى

---

(١) راجع من اجل ذلك : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات الآنفة الذكر ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

أهمية ثانوية اذا قورنت بالحفل البالغ الأهمية الذي يعلن السيد النبيل أثناءه أنه يوسد الى الموظف الديني الكبير الجديد الممتلكات المادية المتعلقة بمنصبه الكهنوتي والمرتبطة به . وبما أنه كان طبيعياً أن يرافق حفل أي استثمار اقطاعي تسليم شيء رمزي يشير الى بدء ممارسة الاستثمار ، فان العرف قد جرى بأن يمنح الاساقفة حق استثمار اقطاع ما بأن يعطوا شارات منصبهم نفسها وهي ــ عصا الأسقفية وخاتمها ــ . وبذلك أمكن الظن أنه حتى ممارسة التملك الحر للمنصب أضحت رهنا بارادة الامراء .

وفي الواقع أنه لو لم تنظم هذه الامور بعض التنظيم لكان ممكناً وبسرعة أن تتحول الكنيسة الى درجة لن يكون معها رجال الاكليروس العاملون فيها سوى امتداد للنظام الاقطاعي ، ولكان ذلك بمثابة دمار تسلسل المراتب الاكليريكية .

أشار الاستاذ لوس بييتري الى تلك المساوىء ولا سيما قضية السيمونية أو المتاجرة بالمناصب الدينية فقال عنها ما نصه بعد اشارته الى انحلال المستوى الخلقي لرجال الإكليروس وانهيار وتدهور أخلاق أفراد تلك الهيئة الى الحضيض واشارته الى رغبة بعض الاحبار العظام في القضاء على تلك المساوىء ولا سيما البابا غريغوار/٧ فأورد بصدد كل ذلك ما يلي : « لقد مهدت عودة النشاط الى الحركة الديرية في غربي أوروبة الى الاصلاح الكبير الذي نفذته البابوية في القرن الحادي عشر .

« وكان علماء الاخلاق ومنذ مستهل القرن نفسه ، والذين أخذ عددهم بالازدياد بصورة مطردة قد قاوموا التدني الخلقي لافراد هيئة الاكليروس حيث نبهوا وذكروا بأن قواعد القانون الكنسي تفرض العفة والطهر على كبار رجال الدين ، وأنه لما يثيرهم ويزيد من سخطهم ملاحظتهم أن كبار رجال الدين لم يعد بعضهم متقيداً بذينك الخلقين الساميين . ثمت فان أحد رجال الدين وهو بطرس داميانيPierre Damien الذي غدا أسقفاً لمقاطعة أوستياOstie في ايطاليا سنة ١٠٥٧ لم يحجم عن الاشارة الى أن غالبية أفراد هيئة الاكليروس قد انهارت أخلاقهم وانحلت وأنهم وقعوا فريسة

بين براثن النمرات الغرثاوات والافاعي السامّة ٠٠ » ٠

وبعد أن أشار المؤرخ الى الفوضى التي بدأت ترين على مجتمع رجال الدين تلك الفوضى التي قاومتها وجابهتها المثل الاخلاقية النصرانية أورد ما نصه حول قضية الفوضى هذه وبالنسبة الى حركة بيع المناصب الكنسية والمتاجرة بها تلك الحركة التي درج المؤرخون على دعوتها بالحركة السيمونية : « وقد تعرضت تلك الفوضى وقوومت منقبل الاخلاقية النصرانية التي أطلقتعليها لقب:**الحركة النيقولائية** :Le nicolaïsme أيالمنهاجالاصلاحي للرهبان الذين كانوا يحملون اسم نيقولا (كنيقولا/١ أو العظيم ونيقولا/٢ وغيرهما) : « وكان ثمة أيضاً **السيمونية** Simonie وقامت تلك الحركة على المتاجرة بالمناصب الدينية وبيع أهمها وهما منصب مقدّمي الأديرة وأساقفة الأبرشيات ٠٠٠ وسعياً من رجال الدين المصلحين الى مقاومة تلك المساوىء فانهم لم يترددوا في مهاجمة أصلالشر ومنبته وهو افتئاتات السلطاتالعلمانية التي كثيراً ما أوجدت المناسبات لانتشار الحركة السيمونية أي المتاجرة بالمناصب الدينية : ويتجلى أصل أو منبع الشر في أمرين اثنين هما : الهدايا التييعد رجلالدينالراغبفيالحصولعلىأبرشية أو دير من نبيلعلماني، بتقديمها الىذلك النبيل ، والوعود التي يقطعها هذا الرجلالاكليركيلذلكالنبيلالعلماني إن أقرّ تحقيق مطلبه ٠ ولم يهاجم دعاة الاصلاح تفاقم هاتين النقيصتينفحسب إنما هاجموا في الوقت نفسه إيساد الامراء العلمانيين عند تعيينهم الاساقفة وكبار أفراد هيئة الإكليروس ، وحتى لو لم يستوفوا المال من طالبي تلك المناصب ، أثناء الحفل الذي يقام بمناسبة تقليدهم تلك المناصب ، ممارسة حقوق زمنية باستعمال رموز تشير الى السلطة الروحية-أي بتسليم طالب الاسقفية عصا الاسقفية وخاتمها مما كان يؤدي الى ارتباك كبير ٠ اذ من المؤكد أن تلك الحفلة وهي : **التقليد العلماني** لا يمكن أن تقوم مقام الحفل الديني الذي يؤدي الى سيامة الاسقف حيث لا يمكن الاستغناء عن الحفل الديني لتنصيب من سيشغل تلك المناصب الدينية ٠ ومع ذلك كله فان لا يمكن القيام بالحفل الديني لسيامة الاسقف إلا إن كان قد ُقلّد من قبل تقليداً

(م ٣١)

علمانياً على يد الامير العلماني ... »[1] .

البابوية والاقطاع في النصف الاول من القرن الحادي عشر : إنه منذ أن عادت الإمبراطورية مجدداً لمصلحة أوتون الكبير فان الكرسي الأقدس لم يتخلّص من وصاية الامراء الالمان . ولم يتمكن أحد طيلة خمسين عاماً من تسنّم العرش البابوي ، إلا بعد أن يحوز الرضاء التام للاباطرة من أسرة أوتون عنه . ولم يتمكن أحد من ادارة شؤون الكنيسة الكاثوليكية بدون أن يتفق معهم . لكن هذا لم يمنع أن انتقاء الأباطرة من أسرة أوتون للباباوات كان في معظم الحالات ممتازاً : ونأخذ على سبيل المثال البابا سيلفستر الثاني (٩٩٩ ــ ١٠٠٣) واسمه الاصلي جيربرت وهو من مواليد مدينة أوريّاك (مدينة فرنسية تبعد ٥٤٨ كم الى الجنوب من باريز) وكان قبل تعيينه مطراناً لمدينة راڤينا (في ايطاليا) ومفتشاً دينياً لمدارس أسقفية رينس (في فرنسا) ثم انتخب بابا بنتيجة شموله بعطف سيّده وحاميه الإمبراطور أوتون/٣ . ومن المؤكد أن نشير بعد ذلك الى أن البابوية أمست أمورها كذلك معقدة متشابكة . وعندما أدّى موت الامبراطور أوتون الثاني الطارىء وغير المنتظر الى انهيار القوة الالمانية فانه لم تكن للرصانة المصطنعة التي أظهرها العواهل الالمان الجدد من نتيجة سوى تذليل العقبات في وجه دسائس أنصار كريساتنيوس في روما (وكريساتنيوس كان يشغل في روما منصب التريبيون ، وكان الترابنة من المدافعين عن حقوق الشعب عند الرومان القدامى وهم بمثابة القضاة عند الرومان . وقد خنق كريساتنيوس البابا بنوا السادس وحاول أن يعيد النظام الجمهوري القديم الى روما وقد حكم عليه الإمبراطور أوتون/٣ بالاعدام ونفّذ فيه الحكم سنة ٩٩٨) ثم دسائس خصومهم كونتات مدينة طوسكولوم الصغيرة .

وقد تنازعت هاتان الاسرتان الاقطاعيتان (أسرة كريساتنيوس وكونتات طوسكولوم) التاج البابوي الى أن كتب الفوز سنة ١٠١٢ الى الطوسكولانيين

---

(١) لوس پيتري : مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الفصل ٩ ، ص ٤١٧ .

فأمكنهم رفع أحد أفرادهم ، وهو تيوفيلاكت Théophylacte (ابن الكونت غريغوار) الى سدة العرش البابوي ذلك العرش الذي لم يتنازلوا عنه بسهولة في المستقبل • وبقي الطوسكولانيون مستأثرين بمنصب الحبرية العظمى الى سنة ١٠٤٥ ومتناقلينه فيما بين أفراد أسرتهم ولو أنهم لم يكونوا أكفاء لمارسة مهامهذا المنصب• وليس من شكفي أن أولباباوات الطوسكولانيين، تيوفيلاكت ، الذي رسم تحت اسم بنوا الثامن ، كان الى أحد ما في مستوى هذا المنصب الديني الذي سمت به السياسة اليه ، لكن أخاه رومانوس الذي خلفه في الحبرية العظمى سنة ١٠٢٤ وتحت اسم يوحنا التاسع عشر ترك عمداً المنصبين المدنيين اللذين كان يشغلهما وهما منصب قنصل وشيخ الرومانيين ليغدو حبراً أعظم • وبنتيجة فضيحة لم يسبق لها نظير من قبل وذلك بفرض الكونت آلبيريك Albéric (الابن الثالث للكونت غريغوار) في سنة ١٠٣٣ انتخاب ابنه ، الذي لم يكن قد بلغ عامئذ سوى الثانية عشرة من سني حياته ، باباً أي رئيساً أعلى للكنيسة الكاثوليكية تحت اسم بنوا التاسع ، علماً أن حياته لم تكن فاضلة ولا تقية ورعة الا بصورة متوسطة • وعندما بلغ بنوا التاسع هذا سنّ الرشد ومبلغ الرجال زاد من الفضائح وجعل وضعية البابوية متردية وذلك أنه عندما كان في سنة ١٠٤٥ في عسرة فانه قايض لقاء مبلغ كبير من المال على التاج البابوي فقبض ذلك المبلغ من إشبينه يوحنا غراتيان Jean Gratien وسلمه المنصب البابوي فدعي يوحنا هـذا باسم غريغوار السادس • ولم تمنع هذه الصفقة بنوا من أن يطلب بعد عدة أشهر استرداد منصبه عارضاً تسديد المبلغ الذي كان قد قبضه في الصفقة السابقة •

تدنّت قيمة المنصب البابوي الى الحدّ الذي جعل الناس في سنة ١٠٤٦ يرون كخلاص وتحرر ما قام به ملك جرمانيا هنري الثالث بأن طرد من الكرسي الأقدس هذين البابوين غير العاديين اللذين كانا يتنازعان تسنّم سدّته ، كما طرد باباً ثالثا ، وكان قد ظهر فجأة في سنة ١٠٤٤ كمنافس لهما واسمه يوحنا وكان أسقفاً لمقاطعة سابينا (في وسط إيطاليا) ، وكان أنصار

كريساتتيوس قد انتخبوه حبراً أعظم تحت اسم سيلفستر الثالث • وأدى قرار عزل هؤلاء البابوات الثلاثة الذي اتخذه المجمعان الدينيان المنعقدان في سوتري وروما (في ٢٠ و ٢٣ كانون الاول ١٠٤٦) الى وضع البابوية مجدداً في قبضة العواهل الالمان الذين سعياً منهم الى الحفاظ على سيطرتهم عليها فانهم جعلوها وحتى منتصف القرن الحادي عشر وقفاً على رؤساء الإكليروس الالمان •

وهكذا أضحت وضعية الكنيسة الكاثوليكية في منتصف القرن الحادي عشر هي كالتـالي : فمن جهة ساد في دير كلوني والاديرة الفرعية المنضمة اليه أو في الاديرة التي حصلت على امتيازات معادلة لامتيازات هذا الدير مفهوم واضح وضرورات القيام بالطقوس واقامة كنيسة مستقلة ، أو كما ذكروا تكون سيدة نفسها ، ومن جهة اخرى وجوب حشر الإكليروس العصري أو العلماني في أطر المجتمع الاقطاعي وأن ينضوي هذا الاكليروس وبصورة مطردة تحت لواء أولئك الاسياد الذين تلقى توجيهات بصددهم ووجوب رفعهم الى مستواه •

أثار هذا التناقض القلق كما يبرهن على ذلك مثال البابوية نفسهـا ، وصار بوسع تدخل السلطة العلمانية أن يدمِّر وبصورة تامة التفكير الديني الحقيقي السليم من أساسه • ويجب ألا نصدق جميع الانتقادات الموجهـة الى رجال الدين في هذه الفترة بتفكير الافراد الشديدي الحرص على تقصّي نقائصهم وعيوبهم أي بتفكير الناقمين والساخطين عليهم وبموجبها اعتبرت الكنيسة الضامة لفئات من الإكليروس العصريين العلمانيين مركزاً حـوى وبصورة متنافرة عناصر متباينة تمثلت فيها أفظع المساوىء والقباحات • ونحن على يقين من أن أولئك النقّاد أو الوعّاظ كانوا أميل الى المبالغة في تقدير هذه المساوىء والى رفع عقائرهم بأصوات جهورية وجعل سامعيهم يعتبرون حالة الكنيسة قاتمة سوداء تبعث على التشاؤم • بيد أنه حتى ولو لم نخدع بالمبالغات التي تضمنتها انتقادات هؤلاء النقاد يجب أن نقر أن الكنيسة أخذت تنزلق على منحدر خطر ، وأنه حتى ولو كان من النادر عقد صفقات مشينة

بيع فيها المنصب البابوي كتلك التي تم عقدها بين بائعين سيّئين هما البابوان بنوا التاسع وغريغوار السادس ، فان المساوىء التي كانت ترافق عمليات التعيين في المناصب الإكليريكية أدت في نهاية الامر الى تشويه الصفة الحقيقية للمناصب الكهنوتية ، وأن الفرق بين المستوى المعنوي لحياة رجال الدين ولحياة الافراد العلمانيين بدأ يبعث الغمّ والكدر . وهكذا أخذ رجال الدين من الفئات الدنيا يدعون وبصورة تدريجية الى قاعدة التبتلّ التي كانت مفروضة عليهم ، تلك القاعدة التي صار بعض من فرضت عليهم يصفونها بأنها خبث .

وعلى العموم فان القضية الموضوعة على بساط البحث ، ومهما كانت الوسيلة التي عرضت بموجبها هذه القضية ملتوية ، هي الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية ، أو بتعبير أفضل : تحرير الكنيسة هذا التحرير الذي سيكون بوسعه وحده تمكين رجال الدين من استرداد توجيه أو ادارة الكنيسة الذي كان قد أفلت من أيديهم في فترة بدا فيها أن ثمة دوراً رئيسياً ألقي على كاهلهم في المقاومة الضرورية لمبادىء النظام الاقطاعي تلك المبادىء التي كان من شأنها تسديد ضربة قوية الى كيان الكنيسة قد تمزّقه وتحلّه[1] .

تحرير الكنيسة الكاثوليكية منذ فترة بابوية ليون التاسع الى بابوية الاسكندر الثاني : (١٠٤٩ ـ ١٠٧٣ م) : شاءت الصدفة أن يتولى الملك في جرمانيا آنذاك هنري/٣ (١٠٣٩ ـ ١٠٥٦) وهو عاهل مثقف وورع وقد اقتنع بصورة صادقة بضرورة الاصلاح ، ولو أنه كان في الوقت نفسه متعنتاً الى درجة أنه لم يُقَدِّر أبعاد النتائج السياسية المحتمة لذلك الاصلاح . ولقد نشد وبكل أمانة واخلاص التعاون مع الرهبان الكلونيين ومعتنقي مبادئهم أو منافسيهم ، وكانوا خاصة وفيري العدد في مقاطعة اللورين ، لإعادة القيمة

---

(١) راجع من أجل ذلك : آ ـ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

ب ـ لوس پييتري : مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الفصل ٩ ، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ الذي أورد المساوىء وروّاد الاصلاح من الباباوات .

المعنوية لرجال الدين العصريين ، بدون أن يفهم أنه بمجرد الشروع في تطبيق هذا المنهاج وانه لا مندوحة ولا مناص من منع تدخلات السلطة المدنيـة في الشؤون الكنسية الامر الذي لم يكن مستعدا الى التراجع عنه • وهكذا فانه لم يأل جهدا في ايساد المناصب الاكليريكية الى أسمى الافراد المحترمين والى الميالين الى المبادىء الكلونية •

تحدث الاستاذ أوغوستان فليش عن نشأة هذا العاهل الامبراطوري الجديد ، هنري/٣ ، وعن ثقافته وعن ميله الصادق الى الاصلاح وتمسّكه بمبدإ السيطرة على الكنيسة الكاثوليكية وعلى الحبرية العظمى وباقي كبار أعضاء هيئة الاكليروس في طول امبراطوريته وعرضها فقال بصدد كل ذلك ما يلي : « لم يكن لهنري/٣ من العمر عندما خلف أباه على العرش الامبراطوري في حزيران ١٠٣٩ سوى اثنين وعشرين عاما • وقد أشرفت أمه جيزيل Gisèle على تربيته التي عهد بها الى برونون Brunon أسقف أوغسبورغ والى جيلبرت أسقف فريزينغ Freising ، وكان وفي الوقت نفسه أرفع ثقافة وأكثر تديّناً من أبيه مع أنه ورث عن هذا الاخير غرائزه المحبة لممارسة السلطة وقد اعتبر نـدّاً لهنري/٢ من حيث تواضعه وكراهيته العمياء للمتاجرة بالمناصب الدينية (السيمونية) والى نشاطه الاصلاحي الخلاّق ، ذلك النشاط الذي أكسبه تقريظ السلطات الكنسية المتحمس • لكنه وفي الوقت نفسه وأسوة بهنري/٢ كان شديد الحرص على البقاء كسيّد مطلق التصرف بالاسقفيات دونما استثناء لأسقفية روما نفسها ، والتي كان ينشد بقاءه حرّ التصرف بها من حيث تعيينه وعزله رجال الاكليروس الذين يتولونها ، ولا يمكنه أن يتصور وجود كنيسة كاثوليكية بدون أن يكون هو نفسه رئيسها الاعلى • وكانت لديه فكرة سامية جدا عن المنصب الامبراطوري ، ومن هذه الزاوية فانه يتميز عن سلفيه المباشرين في المنصب الامبراطوري »[1] •

وكانت أولى المشاغل أو بالاحرى المشاكل التي اهتم هنري/٣ بوضع حلّ سلمي

---

(١) أوغوستان فليش : مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، الفصل ١ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

لها هي المشكلة الايطالية ولا سيما تهدئة الثورة التي كان مطران مدينة ميلانو في ايطاليا قد أعلنها على أبيه كونراد الثاني • فبمجرد تولي هذا الامبراطور العرش أظهر تنكّره للسياسة القمعية القاسية والعنيفة التي انتهجها أبوه بإزاء هذا الاكليركي ومؤيديه • ومع أن هنري/٣ لم يعلن وبصورة رسمية استنكاره لموقف أبيه واشمئزازه منه فانه حرص على اظهار احترامه للقوانين الكنسية • ومن قبيل ذلك فانه حلّ وشيكاً وبعيد وفاة أبيه كونراد/٢ الحملة التي كانت وشيكة الزحف على ايطاليا فلم يُعَتّم أن جنى ثمرة ذلك الموقف السمح الكريم حيث سرعان ما تأثر مطران ميلانو بهذه البادرة فقصد في سنة ١٠٤٠ ألمانيا مقدما خضوعه الى هنري/٣ ومقسما بين يديه على الولاء ، وحصل بمقابل ذلك على الصفح عنه واعادته الى منصبه الهكنوتي • وكانت النتيجة المباشرة لذلك الموقف هدوء الفتنة التي كانت قد ذرّت قرنها في ايطاليا في عهد أبيه مما أتاح للعاهل الالماني الجديد أن يوجّه نشاطه واهتمامه نحو الحدود الشرقية لامبراطوريته حيث سيشغله فيها كل من العناصر السلافية والهنغارية طوال فترة سبع السنين القادمة •

وكان هنري/٣ ، كما أورد الاستاذ لويس هالفين : « قد ذهب بنفسه في سنة ١٠٤٨ لاحضار أسقف مدينة تول من أبرشيته ليوسد اليه عرش القديس بطرس جاعلا منه البابا ليون/٩ الذي كان متعلقا بالاصلاح منذ نعومة أظفاره ، والذي أثبت ماضيه أنه لا يمكن أن يتساهل اطلاقا في القضايا المتعلقة بعقيدته أو بضميره • وعلى الاقل فان ليون/٩ بدا حكيما في أنه لم يستبق الحوادث وأنه قصر مهمته ، ولو طيلة فترة موقتة ، على تطهير وتصفية رجال الدين وطرد الكهنة السيّئي السمعة والسيمونيين أي المتاجرين بالمناصب الدينية ، واعادة تطبيق قواعد النظام الاكليركي القديمة التي عمد شخص أغفل ذكر اسمه الى جمعها وتنسيقها بشكل قوانين منذ صبيحة اليوم الذي تسنّم فيه هذا الحبر الاعظم الكرسي الاقدس وجعلهـــا في هيئة مجموعة قوانين صار من المعتاد أن يطلق عليها اسم مجموعة القوانين الكنسية المقسمة الى أربعة وسبعين قسما • وقد انعقد عدد كبير من المجامع الدينية برئاسته منذ سنة ١٠٤٩ سواء في ايطاليا أم في فرنسا أم في المانيا ، أي بعيد تسلمه العرش البابوي هذه

المجامع التي كانت ايذانا ببدء صراع قوي ضد جميع من كانوا ، لسبب ما ، يتلطخون سمعة الكنيسة وينالون منها ، لكن ليون التاسع توفي في نيسان ١٠٥٣ بدون محاولة اجتثاث المساوىء من جذورهـا وبدون السعي الى الاصطدام بالعاهل الذي يدين اليه بالسمو به الى منصبه الرفيع »[١] .

والت تلك الحركة الاصلاحية غداة موت هذا الحبر الاعظم مسيرتها وتوسعت ولا سيما منذ وفاة هنري/٣ سنة ١٠٥٦ وأثناء الفترة الطويلة التي بقي خلالها ابنه هنري/٤ قاصرا وتحت الوصاية حيث لم يبلغ لدن تسلمه العرش سوى ست سنين ، مما أطلق أيدي البابوات ومستشاريهم فصاروا يجدون أنفسهم أحرارا للقيام بأي اصلاح بعد أن كانت حريتهم مقيدة حتى هذه الفترة . وقد جرؤوا منذ البداية على اصلاح الشؤون الادارية المتعلقة بالبابوية نفسها ، ووصل بهم الامر حتى اجراء انتخابات حقيقية لتعيين باباوات جدد مكتفين برجاء البلاط الجرماني التصديق على تلك الانتخابات فقط . وبهذه الصورة أمكن سنة ١٠٥٧ تعيين الاب فريدريك ، وهو من مقاطعة اللورين ، وكان رئيس دير جبل كاسينو في ايطاليا ، حبراً أعظم تحت اسم ايتيين التاسع . وبتلك الصورة أيضا اكتفى هؤلاء المصلحون بأن يلتمسوا سنة ١٠٥٨ موافقة الامبراطورة الجرمانية الوصية على تعيين جيرارد أسقف فلورنسة بابا تحت اسم نيقولا الثاني . وبذلك أمكن لرجال الدين استرداد زمام المبادهة للقيام بأي عمل بعد أن كانوا فقدوها منذ قرن .

وقد قدّر نيقولا/٢ الصعاب التي ستكتنف طريقه ، وهذا ما برهن عليه ذلك البيان الطويل المدوّي الذي نشره سنة ١٠٥٨ أحد كبار رجال الدين الملحقين بمعية البابا ، وهو الكردينال همبرت ، ضد المتاجرين بالمناصب الدينية . وانتقد هذا الاخير ولاول مرة وبصورة مكشوفة مسألة التقليد العلماني للاساقفة بواسطة عصا الاسقفية وخاتمها ، هذا على الاقل ان سبق هـذا التقليد سيامة الاسقف الدينية ، انه جرؤ على فضح اساءة العواهل

---

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣١ .

والنبلاء استعمالهم لسلطتهم وذلك عند الغاء الترتيب أو التسلسل المنطقي للاشياء مما أتاح لهم أن يتصرفوا في الواقع بالمناصب الاكليريكية متذرّعين بحجة أن المتلكات المرتبطة بهذه المناصب الدينية تقع في المناطق التي يحكمونها .
ولم يعد ممكناً منذ ذاك أن نستغرب أن أول ما قام به البابا نيقولا/٢ من أعمال هو اعلانه في شهر نيسان ١٠٥٩ القرار الذي اتخذه المجمع الديني الرامي الى أن يؤمّن وبصورة نهائية حرية الانتخابات البابوية ، وأن يمنع في المستقبل أثناء عطلة الكرسي الاقدس ، تدخّل السلطة الزمنية في تلك الانتخابات . وقد ذكّر هذا البابا بالقواعد الكنسية المتعلقة بانتخابات الاساقفة ليطلب أن تتمتع هيئة الكرادلة أو مجمعهم بأن تمارس وحدها حق انتخاب رئيس الكنيسة الكاثوليكية مع تحفّظ واحد ينص على حصول هذه الهيئة على موافقة باقي أفراد الاكليروس في الابرشيات وعلى موافقة أتباع المذهب الكاثوليكي . ولم يعد يشار الى موافقة الامبراطور على هذا الانتخاب أو التعيين الا كرمز أو كاشارة لاحاطة هذا العاهل بالاعتبار والاحترام ، وليتمكن وبصورة أفضل من تجنّب عودة الاحداث التي رفعت بعض صنائع ملك جرمانيا الى سدة الكرسي الاقدس ، فقد نُصَّ على أنه فيما عدا قيام بعض ظروف استثنائية ، فان انتخاب الحبر الاعظم سيتم دائما في روما ولمصلحة أحد أفراد الاكليروس الرومان أنفسهم .

كما نص أحد قوانين هذا المجمع الديني الذي أعلن في ختام جلساته هذا القانون الذي نص على أن يحظر على كل عضو من أعضاء الاكليروس وعلى كل كاهن أو قس أن يحصل على كنيسة من يدي رجل علماني مهما كانت الطريقة التي تم بموجبها الحصول على تلك الكنيسة ، وسواء أكان منح هذه الكنيسة مجانا أم أدى الى تكبد نفقات باهظة : وكان ذلك بمثابة الحكم أو الادانة الرسمية للمساوىء التطبيقية التي كان الكردينال همبرت قد وجّه اليها منذ فترة وجيزة الانتقاد اللاذع الصارم غير المنتظر والذي كان لوحده فقط بمثابة منهاج اصلاحي واضح[1] .

---

(١) راجع من أجل ذلك : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣١ — ٣٢ .

ولم يرجىء موت البابا نيقولا/٢ (تموز سنة ١٠٦١) وضع هذا القانون موضع التنفيذ ، من حيث أن الخليفة الذي وضعه الكرادلة للبابا الراحل ، وهذا الخليفة هو أسقف مقاطعة لوك Lucques واسمه Anselme الذي حمل اسم الاسكندر الثاني ، كان أقل استعدادا من جميع الآخرين لأن يحسب حسابا لجميع المعارضات التي كانت وشيكة الظهور والتي سرعان ما تحولت الى صراع مكشوف . وكان هذا البابا قد ذاع صيته وعن جدارة أنه قد انحاز منذ فترة طويلة الى جانب تأييد الحركة الاصلاحية . هذا فضلا عن كونه ذا فكر سديد ويدافع بإصرار وعناد عن رأيه بدون أن تلين له قناة . وقد لوحظ عليه قبل انتخابه لمنصب الحبرية العظمى بعدة سنين أنه أيّد وبحماس جماعة من محبّذي الاصلاح الهادئين الذين لم يكن بوسعهم رفع عقائرهم بصوت مجلجل مطالبين بالاصلاح وقد دعوا بالپاتار Les Patares أو ملتقطي وجامعي الخرق البالية كما كانوا يدعون للهزء بهم . وكان هؤلاء الدعاة الهادئون الى الاصلاح قد أثاروا المسيحيين الكاثوليك في أبرشية ميلانو ضد القسّيسين المتزوجين وضد من كانوا متهمين ببيع المناصب الكنسية . واعتبر انتخاب هذا البابا على يد الكرادلة عملا تجلت فيه الشجاعة ولو أنه اعتبر في الوقت نفسه تحديا ممكنا أن ينقلب ضدهم أي ضد الحركة الاصلاحية لو أظهر البلاط الجرماني المدعوم من قبل أعداء الاصلاح من أفراد الاكليروس مزيدا من الحزم[1] .

لقد استشاط البلاط الجرماني غضبا لان الكرادلة لم يستمزجوا رأيه ولم يستشيروه في أمر انتخاب الاسكندر/٢ فحاول مجابهة منتخب الكرادلة بتعيين بابا ثان هو كادالوس Caldalus أسقف مدينة پارما الذي حمل اسم هونوريوس/٢ ، غير أن البلاط لم يؤيد بقوة هذا البابا الثاني لدرجة أنه أضحى مجردا من أية قوة بعد عدة أشهر . هذا بينما أيّد جميع أفراد الاكليروس بما فيهم الالمان ومنذ ١٠٦٢ البابا الاسكندر/٢ الذي لم يلبث أن اهتم في أن يكون حل جميع القضايا المعروضة عليه بحرية تامة وجريئة جدا بدون

(١) المصدر عينه ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٢ ــ ٣٣ .

أن يحسب أي حساب للعاهل الالماني • ونذكر على سبيل المثال أنه استدعى أفرادا من الاكليروس يتمتعون بمنزلة سامية في المانيا كرؤساء الهيئة الاكليريكية في مدن كولونيا ومايانس وبامبرغ الالمانية ليمثلوا أمام القضاء في محكمته • لا بل فثمة شيء آخر أكثر تطرّفا وهو أنه أمكنه اجبارهم على الحضور الى المحاكمة• كما وانه أجبر أحد الاساقفة المعيّنين من قبل الحكم الملكي ، كأسقف مدينة كونستانس ، على الانسحاب من منصبه • انه لم يكن يتراجع امام امكانية اثارة خصومة مباشرة بينه وبين الامبراطور الشاب الذي كان قد تحرر من وصاية أمه منذ سنة ١٠٦٥ بعد بلوغه سن الرشد • كما برهن على ذلك برفضه أن يكون الخلف الشرعي لأسقف ميلانو ، وهو غي Gui المتوفى سنة ١٠٧١ الرجل الذي كان العاهل الشاب مستعدا لفرضه ولو بالقوة حبراً أعظم • وهكذا أصدر البابا الإسكندر الثاني سنة ١٠٧٣ قرار حرمان بتهمة المتاجرة بالمناصب الدينية بحق بعض الافراد الذين كان من بينهم مستشارو هذا العاهل •

ولم يعد ثمــة شك في أنه أنجز على يد الحبر الاعظم الإسكندر/٢ الإصلاح التام لافراد هيئة الاكليروس في مختلف مراتب نظامهم المتسلسل ، وأنه في عهد هذا البابا جرؤ دعاة الإصلاح على موالاة طريقهم قدماً ، وأنهم سيبرهنون على ذلك وبصورة أفضل أيضا في عهد خلفه غريغوار السابع •

عالج الاستاذ لوس بيتري قضية تاريخ البابوية في فترة ثلاثة أربــاع القرن الاولى من القرن الحادي عشر والتي كانت مترعة بالاحبار العظــام الداعين الى قيام الحبرية العظمى باصلاح نفسها وأن تبطش وبشدة بالسيمونيين من رجال دين وعلمانيين ، وأن تتحرر البابوية من وصاية الاباطرة عليهــا فقال بصدد هــذا الموضوع ما نصــه : « لم يكن غريغــوار/٧ أول قائم بذلك التجديد أو الاصلاح الروحي فمنذ حبرية البابوات الالمان (الذين حرص الإمبراطور أوتون العظيم وخليفتاه على إيساد الحبرية العظمى اليهم) فان الاحبار العظام الذين تربعوا على عرش القديس بطرس في ظل حكم الاباطرة الاوتونيين فان أولى الرغبات الناشدة للاصلاح قد بدأت ترى النور

وتظهر بجلاء ، ومصداق ذلك الاسماء التي حملها أولئك الباباوات المصلحون وهي أسماء باباوات روما القديمة ، كداماس وليون وغريغوري والخ •••• ثمت ظهرت أول إمارات استقلال الحبرية العظمى عن السلطة الامبراطورية • لقد دعم ليون/٩ (١٠٤٨ ــ ١٠٥٤) الحركة الاصلاحية التي انطلقت من دير كلوني • واعتبر انتخاب إيتيين/٩ الـذي كان من قبل مقـدما لدير مونت كاسينو (البندكتي) والذي هو أخو غردفروا دوق إقليم اللورين ، ذلك الانتخاب الذي تم بعد عدة سنين (من انتخاب ليون/٩) كان تحدياً لحرص السلطة الامبراطورية على السيطرة على الحبرية العظمى • وقد رفع هـذا الراهب الى سدة الكرسي الاقدس أي كرسي القديس بطرس وحتى بدون استشارة الامبراطور هنري/٣ • ولتبرير ذلك الانقلاب الفعلي فان الكردينال همبرت والذي كان الى ما قبل عدد من السنين خلت قاصداً رسولياً فـي القسطنطينية ، وضع في سنة ١٠٥٨ كتابا هاجم فيه السيمونيين المتـاجرين بالمناصب الدينية • ومنذ تلك الفترة تبلورت الاسس التي سيقوم عليهـا الاصلاح الغريغوري وتنص على وجوب امتناع الامبراطور عن التدخل في انتخاب كل من الحبر الاعظم والاساقفة •

« كما وأن حماس همبرت الذي اشتد لمنطق منهاجه الاصلاحي فان ذلك الحماس نفسه أوصله الى تأكيد فكرة سمو السلطة الروحية (البابوية) على السلطة الزمنية •

« وبنتيجة انتخاب نيقولا/٢ الى الكرسي الأقدس فان عمليـة ايصال إيتيين/٩ الى المنصب ذاته والتي تمت بطريق القوة قد غدت مشروعة • وقد عمدالبابا الجديد (أي نيقولا/٢ الذي استمر عهده بين سنتي ١٠٥٩ ــ ١٠٦١) وبعيد عدة أسابيع من انتخابه الى عقد مجمع في اللاتران حددت فيه شروط انتخاب الحبر الأعظم •

« وكان مما أوصى به نيقولا/٢ أن يتم انتقاء الحبر الأعظم المنتخب من بين أفراد هيئة الاكليروس في الكنيسة الرومانية نفسها ، هذا فيما لو وجد بينهم رجل الدين القادر على القيام بمهام الحبرية العظمى » • كما أضاف البابا نيقولا

بعد ذلك أن انتخاب البابا حالياً يجب أن يتم بدون أن يكون ثمة أية مراقبة ، أو تدخّل فعلي من قبل ابننا هنري الملك الحالي لألمانيا والذي سيغدو بمشيئة الله إمبراطوراً. فهذا الرأي الذي يبدو غامضاً سوف يعود بالكنيسة الكاثوليكية في ممارستها لانتخاب الأحبار العظام الى الأعراف التي كانت سائدة من قبل والتي كان لوثير/١ (ابن شرلمان) قد ألغاها في القرن التاسع »[١] .

بداية عهد حبرية غريغوار السابع (١٠٧٣ ـ ١٠٧٦) والصراع بينه وبين الامبراطور بغية السيطرة على الكنيسة : كان البابا الجديد قد انحاز ومنذ فترة طويلة الى جانب آراء الاصلاحيين . وقد انضم غريغوار/٧ هذا ، وكان اسمه آنذاك هيلدبراند Hildebrand ، ومنذ حبرية ليون/٩ (١٠٤٨ ـ ١٠٥٣) عندما كان مجرد شمّاس يتولى التعميد والوعظ في الكنيسة ، ثم عندما ترقى الى المناصب العليا كمنصب رئيس الشمامسة في الكنيسة الكاثوليكية ، الى الحركة الاصلاحية الرامية الى اصلاح ادارة الشؤون البابوية حيث كان نفوذه آخذاً بالازدياد . ولا يرقى الشك الى أن هيلدبراند هذا لم يقف بمعزل عن اتخاذ البابا الاسكندر/٢ القرارات الأشد خطورة إنما وقف منها موقف المؤيد . وأنه كان بكل تأكيد متعاطفاً ومحبّذاً للآراء التي أبداها هذا الأخير بإزاء أفراد الاكليروس الألمان. وأنه تبنّى خطة واضحة للعمل حيث أعلن موقفه المناوىء لهؤلاء بصورة لا لبس فيها ولا غموض .

كما تجاوز البابا غريغوار/٧ تلك الخطة غير آبه بما قد يثيره منهاجه من غضب شديد وعقد العزم منذ بدئه بممارسة أعباء منصبه الجديد بأن يُصفّي أثر السلطة المدنية من حياة الكنيسة وذلك باخضاعه الملوك والنبلاء الى سلطة الكرسي الأقدس الفعلية . وقد بدت له الظروف مواتية حيث كان ملك جرمانيا هنري/٤ مضطراً في ممتلكاته الى مجابهة ثورات كانت تحتجز جميع قواته وتستأثر بجميع انتباهه واهتمامه ، بينما كانت فرنسا في ظل عاهلها الذي فقد اعتباره تمر بفترة فوضى اقطاعية . وسرعان ما استبق غريغوار الحوادث

---

(١) لوس پييتري ، مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الفصل ٩ ، ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

فأخذ يتحدث ويعمل كرئيس أوحد وغير منازع لجميع الكنيسة الكاثوليكية ، كما لو لم تتدخل من قبل أية سلطة مدنية علمانية بين الحبر الأعظم الروماني وأفراد هيئة الاكليروس القوميين (المحليين) • وقد بعث قاصديه الرسوليين (مبعوثيه أو مندوبيه) الى جميع البلاد المسيحية مع تكليفهم بمهمة تطبيق الاصلاح بدون هوادة أو تلكؤ وأن يسهروا بعين يقظة على تطبيق القرارات السابقة بحق رجال الدين المتزوجين وبحق التعيينات الى بعض المناصب الكنسية المشتراة بواسطة المال • وقد أوعز الى المطارنة بوجوب عقد مجامع دينية محلية على صعيد ولاياتهم لاتخـاذ قرارات بشأن التدابير التفصيلية المطابقة للتوجيهات المرسلة اليهم مع القاصدين الرسوليين • وكان المطارنة والأساقفة المناهضون لهذه السياسة يستدعون فوراً الى روما لتقديم ايضاحات عن سلوكهم • وكثيرون من هؤلاء أوقفوا عن موالاة ممارسة مهام مناصبهم أو عزلوا منها بعد أن تلقوا إيعازاً من البابا بالمثول أمام مجمع ديني روماني • وعندما عوقب ليمار مطران مدينة بريم Brême في كانون الثاني ١٠٧٥ بإيقافه عن عمله نحا باللائمة على البابا بأنه يعامل الأساقفة بنفس المعاملة غير اللائقة والخالية من أي احترام التي يعامل بها وكلاء أعماله •

زاد عدد المتذمّرين من رجال الدين من معاملة البابا غريغوار/٧ لهم • وقد ُوجّهت انتقادات لاذعة الى هذا الحبر الأعظم أثناء انعقاد مجمع مدينة إيرفورت le synode d'Erfurt (تشرين الاول ١٠٧٤) وورد فيها أنه لايمكن أن يرضي تشدّد واشتطاط هذا البابا سوى رجال الدين المنتقين من بين الملائكة • لكن غريغوار لم يأبه بكل تلك الاعتراضات وأصم أذنيه عن سماعها ووالى السير على طريق الاصلاح • وقد أخذ على عاتقه في ١١ كانون الثاني ١٠٧٥ جعل المؤمنين الكاثوليك ينفضّون من حول رجال الاكليروس الذين شروا مناصبهم بالمال أو الذين يقومون ببيع المناصب الدينية أو الذين كانوا يضعون العراقيل في وجه تطبيق قاعدة التبتّل على رجال الدين • انه استشاط غضباً لدرجة أنه طلب أن يشدّ الجميع أزره ويساندوه مبتدئاً بكبار الأمراء الاقطاعيين لمنع رجال الاكليروس هؤلاء وأولئك ولو باللجوء الى القوة اذا

ما دعت الحاجة الى ذلك من ممارسة أعباء مناصبهم الدينية ، أو لجعلهم في وضعية يستحيل عليهم معها القيام بتلك الأعباء • وهذا التدبير الذي لجأ اليه البابا هو في نهاية المطاف قاسٍ وخطر أيضاً من أجل مجموعة أفراد هيئة الاكليروس ، التي كانوا يدّعون أنهم ينشدون اصلاحها ، أو من أجل رجال الدين المشبوهين الذين كانوا يبغون وبشتى الوسائل حملهم على الرضوخ والخضوع • وذلك لان ذلك الاستنجاد بالسلطة المدنية ، التي كانوا يمنعونها في النواحي الاخرى من أي تدخّل في شؤون الكنيسة كان يعتبر اعترافاً من البابا بعجزه ذلك العجز الذي لم يتوان خصوم البابوية عن استثماره وشيكاً وبصورة مباشرة لمصلحتهم • وبعض هؤلاء الخصوم ، وهم العلمانيون ، حوّلوا المعركة الدينيـة التي كانوا يخوضونها ضد البابويـة الى معركة سياسية ، هذا بينما نصب الخصوم الآخرون ، وهم من رجال الدين ، أنفسهم حماة وذادة عن الاستقلال القومي •

وقـد ُقدّر بصورة عامة ، لا سيما وأن النصوص المعاصرة تخلو من الوضوح والدقة ، أن غريغوار/٧ بلغ منذ نهاية شباط ١٠٧٥ ذروة تحدّيه السافر والذي لا يمكن التنبؤ بنتائجه ، للعالم الاقطاعي وذلك بمنعه المطلق كل أسقف أو أي رجل دين آخر من أن يتسلّم تعيينه الى منصبه الديني من سلطة مدنية علمانية• وحتى لو كان هذا الامر لم يتم بهذه الصورة فمن المسلّم به أن الموقف الذي وقفه البابا بالنسبة الى قضية تعيينات أفراد هيئة الاكليروس منذ ذاك وخاصة بالنسبة الى ألمانيا والى ايطاليا كان بمثابة جحود مستمر دائم لحق الملوك ، الذي كان هؤلاء العواهل الزمنيون قد مارسوه الى هـذه الفترة ، وبدون أن توضع في وجهه أية عراقيل ، في التدخّل لتعيين جميع أصحاب المناصب الدينية في دولهم • وصار الجميع يشهدون ، من هـذه الزاوية ، منظراً مبتذلا الى حدٍّ ما ، وهو تسلّم ملك ألمانيا ، وبدون أي سابق علم أو استمزاج رأي ، صورة لقرار صادر عن الإدارة البـابوية في روما متضمناً عزل أسقف مدينة بامبرغ وبأن الامر صدر عن هذه الإدارة باللجوء الى تمكين خلفه من تسلّم مهام هذا النصب •

أما هنري الرابع فكان من جانبه يتجاهل وجود السلطة البابوية ، ولتأكّده في الظرف الراهن من أن السواد الاعظم أو على الاقل القسم الاكثر نشاطاً وفعالية من رجال الاكليروس يقفون بجانبه ، فانه لم يكتف بألا يتزحزح قيد أنملة عن موقفه ، أو أن يبدي أي تنازل أو تساهل مهما كان ضئيلا فحسب انما أخذ يسعى جاهدا الى الرجوع عن الامتيازات التي منحت في حياة أبيه دعما لقضية الاصلاح • وقد مارس سلطته الخاصة في ملء مناصب جميع الابرشيات الشاغرة • ومن المسلم به أن جميع أفراد الاكليروس الذين انتقاهم لتلك الشواغر كانوا دونما استثناء خصوما ألدّاء للسياسة البابوية • وهكذا فإنه عيّن أسقفين ألمانيين لمدينتي فيرمو وسپوليت الايطاليتين ، وجعل مطرانا لمدينة ميلانو أحدالخصوم العنيفين لحركة « جامعي الخرق البالية les Patares » الاصلاحية ، وأوفد من أجل ادارة دفة الحكم في لومبارديا أحد مستشاريه وهو الكونت إيبرهارد Eberhard الذين كان البابا قد حرمهم •

واعتبارا من هذه الفترة أضحى النزاع بين البابا غريغوار/٧ والامبراطور هنري/٤ محتملا ومفترض الوقوع • فمن هو الذي سيتغلب على خصمه ؟ أهو غريغوار الذي كان يعتقد جازما بضرورة عمله الاصلاحي ؟ لكنه كان متشددا صلبا الى درجة العناد على الرغم من بلوغه الستين من عمره • وكان حتى هذه الفترة قد قطع شوطاً طويلا على درب الاصلاح فلم يعد بوسعه التراجع • أم هو هنري الرابع الذي كان ما يزال في عنفوان شبابه (في الخامسة والعشرين من العمر) والواثق من نفسه ، والذي كان مدفوعا ومُحَرَّضا على مقاومة البابا من قبل أفراد الاكليروس الوفيري العدد والذين كانت روما قد بدأت بمهاجمتهم ؟ فهذا السؤال المزعج والذي كان كل شيء ما عداه من باقي أوجه الخلاف يتهاوى وبصورة فجائية من تلقاء نفسه أمامه • وقد استشرى بين هذين الرجلين اللذين بدأا يتجابهان نزاع عنيف ومبارزة حادة ولربما ستكون نتيجتها ضارة بمصلحة احدى هاتين الشخصيتين والقضية التي صار يعتبر المدافع عنها أو بطلها •

لقد بدأت فعلا الهجمات الاولى بين قوات الخصمين فكان ثمة معركة

كلامية . وقد وجّه البابا غريغوار الى خصمه رسالة في ٨ كانون الاول ١٠٧٥ ضمّنها بركته الرسولية لكنه حشر فيها عبارة تبعث القلق نصّت على ما يلي : « هــذا ان بقي مطيعا كما يمليه عليه واجبه كعاهل مسيحي نحو الكرسي الرسولي » . ثمت فإن تلك الرسالة التي هي في حد ذاتها دعوة الى العاهل كي يعترف بذنوبه ويطلب الصفح عنها قد صيغت في عبارات مُتَّزنة ملأى بالكلمات المعسولة . لكن ذلك كان بمثابة الهدوء الذي ينذر بهبوب العاصفة . وكان الشعور الحقيقي للبابا المحتدم والمستشيط غيظا يظهر في أكثر من موضع وراء كلماته العذبة . وكانت السطور الاخيرة في هذه الرسالة تثير كأداة تهديد مُقَنَّعة الى حد ما وتنذر بسوء المصير الذي كان الله تعالى قد أعده الى شاؤول لإهماله تحذيرات وتنبيهات النبي صموئيل .

وتوالت الحوادث في الاسابيع التالية سراعا . وقد تزعزعت المكانــة الشخصية التي كان يحتلها غريغوار/٧ في روما نفسها . ففي ليلة عيد الميلاد كان البابا وشيك أن يقضي ضحية مؤامرة حبكت خيوطها جماعات من العصابات نجحت في احتجازه سجينا لعدة ساعات . وظن هنري/٤ أن بامكانه الافادة من ضعف خصمه ، كما حسب أن الوقت قد حان لتسديد ضربة قوية الى هذا الخصم . وهكذا فانه حمل في مجمع ديني (اقليمي) عقد في مدينة وورمز في ٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦ أربعة وعشرين أسقفا ألمانيا وأسقفين ايطاليين – هما أسقفا ڤيرونا ونابولي – على اتخاذ قرار بعزل البابا لانه غير كفء لممارسة أعباء منصبه ، والذي لا يستمد سلطته ، كما أكّدوا الا بالغش والتزوير . ومع ذلك فانه لم يمارس تلك السلطة الا فيما هو مخالف للقوانين الكنيسة ، والذي بإساءته استعمال سلطته سيمهّد الى القضاء على منصب الاسقفية الذي لا يهتم به اطلاقا ولا يعنى الا بأن يوسعه سبّاً وشتماً ، والذي أوسد ادارة أمور الكنيسة الى حنق وهيجان وغيظ أفراد طبقة العامة (وذلك تعريضاً بأفراد هيئة جامعي الخرق البالية) . ناشرا بعمله هذا الفوضى في كل نواحي الادارة وجاعلا الديانة المسيحية تسقط في الهاوية . ثم أضاف هنري الى قرار العزل الذي صيغ بعبارات في منتهى العنف رسالة من عنده يوعز فيها

الى الحبر الاعظم بوجوب التخلي عن منصبه كتبها بلهجة وقحة زادت من وقع قرار العزل في نفس البابا . ومن قبيل ذلك أنه استهل رسالته بتوجيهها : « الى المدعو هيلدبراند (أي اسم البابا غريغوار/٧ قبل انتخابـه) بدون اضافة أية عبارة تقدير واحترام » أن الامبراطور يأمره (استنادا من الامبراطور الى اللقب الذي يحمله أباطرة الفرنجـة من قبل وهو : بطريق الرومانيين Partice des Romains) « بأن ينسحب في الحال » . وكان جواب البابا على ذلك القرار بعد ثلاثة أسابيع حيث أصدر قرارا بحرمان العاهل الذي أضاف اليه عبارات مصاغة بنفس اللهجة التي استعملها خصمه في رسالته اليه مانعا ذلك الملك الكافر الملحد « باسم الاب والابن والروح القدس » منذ هذه الآونة من ممارسة السلطة سواء في المانيا أم في ايطاليا . كما دعا البابافيختام رسالته جميع المسيحيين الى الخروج عن طاعته والى الابد .

وقد زعزعت تلك المبادهة أو ذلك الردّ المفرط والمجاوز للحدود الذي ردّ به غريغوار على خصمه وضع هنري وجعلته متداعيا واهنا فأخذت الارض تميد تحت قدمي هذا الامبراطور الذي لم يكن قد نجح بعد في استمالة جميع رجال الاكليروس الالمان والايطاليين . لا بل فان كثيرين من الذين أيدوه في أول الامر في موقفه من البابا أخذوا يترددون ويحجمون عن تقديم دعمهم الى شخص محروم . وفضلا عن ذلك فقد بدأ الاضطراب يزداد عنفا في الاوساط الاقطاعية . وبدا للأمراء الاقطاعيين أن الظرف مواتٍ لإذكاء نار ثورة جديدة على العاهل الالماني ، تلك الثورة التي يظن كثيرون أن رسل البابا لم يألوا جهدا ولم يدخروا وسعا في تفجيرها مثيرين ضد الامبراطور قرار العزل الذي صدر بشأنه (قرار الحرمان ودعوة رعاياه الى شق عصا الطاعة عليه) .

أفقد ذلك الموقف العنيف الذي وقفه الإمبراطور هذا الاخير أي أمل بالنجاح . وهكذا فانه أجاب على قرار الحرمان الذي بُلّغ إليه برسالة مترعة بالسباب موجهة « الى هيلد براند رجل الدين الغشاش » والتي ختمها باعتباره منذوراً الى الهلاك الأبدي . وعبثاً ما حاول الامبراطور وبواسطة دعـاية قوية استمالة الرأي العام الى جانبه . وقد انطلقت الشرارة الاولى للثورة

في بداية فصل الصيف وقد بدأها النبلاء السكسون الذين لم يلبث أمراء جنوبي ألمانيا أن حذوا حذوهم فيها وانضموا اليهم • ومع ذلك فان البابا غريغوار تظاهر في رسالته الموجهة الى الثوار في ٢٧ أيلول بأنه حكيم وأنه لا يحب الانتقام حيث دعاهم رسميا أن يصغوا الى صوت الرحمة اذا تاب ملكهم وأناب وعاد صادقاً إلى رحاب الله • ولكن هذه الامنية التي مُنّي بها العاهل بحصوله على العفو قرنها البابا بتقييدات بالغة الاهمية ؛ ثم أضاف هذا الاخير الى خاتمة رسالته أنه في حالة عدم إعلان المخطىء المذنب ندمه وتوبته فإنه سيصار الى انتخاب عاهل جديد مكانه وذلك بالاتفاق مع الكرسي الاقدس •

وقد وصلت رسالة البابا غريغوار الى الامراء والأساقفة الالمان عندما كانوا مجتمعين في مدينة تريبورTribur ، حيث اقترحوا المناقشة حول مصير الملكية • أما هنري الرابع الذي كان معسكراً في أوپنهايم بالقرب من هذا المكان ، فإنه سعياً منه وراء تجنّب ما هو أدهى وأمر ولكسب الوقت فإنه قبل أن يضع مصيره بين يدي البابا الذي كان أعضاء مجلس الدييت قد دعوه الى الحضور الى المانيا ليرأس مجمعاً دينياً إقليمياً سيعقد في مدينة أوغسبورغ في الثاني من شباط القادم • وحتى ذلك التاريخ فان الملك تعهد الى جانب أمور أو تعهدات أخرى ، أن يبعث الى البابا برسالة يلتمس فيها العفو البابوي ، وأن يقطع علائقه بجميع من صدرت بحقهم قرارات حرمان من الكنيسة ، وأن يتنازل بصورة موقتة عن العرش ، وأخيراً أن يذهب الى مدينة سبيرSpire للمقام فيها تحت مراقبة مندوبين ينتقيهم مجلس الدييت • وقد أجبر جميع الحاضرين على أن يقسموا الواحد تلو الآخر وأن يدوّنوا ويوقّعوا على ما تعهدوا به في قسمهم على أن ينفضّوا من حول الملك نهائياً اذا لم يتلقّ من البابا وحتى مطلع شباط قراراً بتبرئته العامة والشاملة •

وكان النجاح الذي حققته البابوية فوق ما كان يؤمله أنصارها • ولم يحلم غريغوار أبداً أن يكون ثمة تأكيد مُدَوٍّ للمبادىء التي كانت جماعة المصلحين المتحمسين ، والذي كان هو نفسه واحداً من بينهم ، تسعى حثيثاً

وبدون أن تنجح تماماً لتطبيقها منذ ربع قرن • وذلك لانه لم تكن سلطة الملك وحده التي حـُدّدت وضعفت ، لا بل فإن القرارات التي اتخذت في مدينة تيبور لم تشر فقط الى النصر الذي حققه البـابا بإرادته على السلطة الملكية انما هي في حدّ ذاتها تحقيق للمنهاج الإصلاحي الذي دعا اليـه دير كلوني وتحقيق لآراء الاحبار العظام ليون/٩ ونيقولا/٢ والإسكندر/٢ المصلحين • أما الذين كان البابا قد حرمهم من أجل متاجرتهم بالمناصب الدينية، فهؤلاء جميعاً قد صفّوا تماماً وبصورة نهائية[1] • ثمت فان السلطات المطلقة التي يمارسها الحبر الاعظم فيما يتعلق بالشؤون الإكليريكية قـد رسخت وتوطّدت ، ولم يعد ثمة مجال للمناقشة حول قضية استقلال السلطة الروحية لأنها جعلت خارج نطاق المناقشة وأضحت أمراً مسلماً به ، لا بل فان سمو هذه السلطة قد اعترف به بصورة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام • وهكذا بدت الكنيسة وكأنها سيدة العالم[2] •

وعلى الرغم من ذلك النصر المؤزّر الذي حققته البابوية فان موقف البابا غدا أقل قوة مما كان يبدو عليه في أول الامر • إن البابا الذي سمح بأن ينقاد الى معالجة القضايا السياسية فانه ربط بعمله هذا ، شاء أم أبى ، مصير الكنيسة أو قضيتها ، بمصير العناصر الثائرة في ألمانيـا ، الذين لم يكونوا على العموم مهتمين بتحرير رجال الدين من سلطة الامبراطور • وكان هذا العمل من جانب البابا تورّطاً كبيراً سوف يندم عليه وشيكاً ، والذي كاد أن

(١) وهؤلاء هم : مطران مدينة كولونيا وأساقفة مدن بامبرغ وستراسبورغ وبال وسبير ولوزان وزيتز Zeitz وأوسنابروك Osnabrücks .

(٢) راجع من أجل حبرية غريغوار ٧ ونجاحه في صراعه مع الامبراطور المصادر التالية :

آ ــ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٣ ــ ٣٩ .

ب ــ لوس پيتري ، مجموعة العالم وتاريخه لموريس مولو M. Meuleau المذكورة ، المجلد ٣ ، القسم ٤ ، الفصل ٩ ، ص ٤١٧ ــ ٤١٩ .

ج ــ أوغوستان فليش ، مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة ، المجلد ٢ القسم ٢ ، الفصل ٤ ، ص ٣٦٠ ــ ٣٧٣ .

يفسد وفي وقت ما جميع النتائج التي حققت . وقد كلّف هذا العمل البابا بعد أن توالى نجاحه طوال ثلاث سنين أن يخوض صراعاً شاقاً طيلة ثماني سنين ، وكان هذا الصراع وبصورة خاصة مريراً وجحوداً . وأثناء هذه الفترة غالباً ما حُرِّك هذا الصراع واستثمر من قبل الاحزاب بصورة أكثر من أن يستهدف تسويد وجهات النظر العليا للكنيسة الكاثوليكية ».

ووقع البابا ومنذ البداية ضحية خبث ومكر خصمه . ولم يشكّ أحد في طبيعة القرارات التي سيتخذها مجلس الدييت المقبل الذي سيعقد في مدينة أوغسبورغ بإزاء الملك . وكان يبدو مستحيلا أن ينجح الملك هنري/٤ في التخلّص ولصالحه من الدعوى التي أقيمت ضده آنذاك ، ولا جرم أن غريغوار نفسه كان ينتظر أن يكون له في هذا المجلس القول الفصل والكلمة العليا وأن يمارس دور الحكم الذي دعاه أمراء وأساقفة جرمانيا الى القيام به . وقد بدأ الحبر الاعظم رحلته الى أوغسبورغ . وبينما كان في طريقه الى ماتنو التي أعلن أنه سيصلها في الثامن من كانون الثاني أخبر وبدون سابق انتظار أن هنري/٤ وصل الى لومبارديا بعد سلوكه طريقاً طويلة ملتوية مارا بمقاطعة بورغونديا وجبل سينيس Cénis . احتاط البابا للامر وتراجع بعيد ذلك الى مدينة كانوسّا عند سفح جبال الآپناين حيث كان واثقاً من أنه سيجد كرم الضيافة واذا ما دعت الحاجة الحماية عند ماتيلدا كونتيسة طوسكانة . ولم يتعتّم أن عرف الهدف الذي كان يسعى اليه من أعلن في مدينة تيبور أنه تاب وأناب : وكابن مطيع للكنيسة فإنه التمس من البابا تبرئته التامة .

كانت حيلة هنري/٤ سمجة ومكشوفة فلم يكن يفكر إلا بكسب الوقت وأن يفسد الاتفاق الذي تمّ بين البابا والامراء الالمان ، الذين كان يريد مفاجأتهم بالامر الواقع الجديد العظيم ألا وهو مصافاته ومصالحته مع الكنيسة الكاثوليكية . لم يخدع البابا بما كان ينشده هنري/٤ . لذا وجدناه يصمّ أذنيه عن التماس هذا الاخير . لكن الوقت يمرّ ، والتاريخ المحدّد لافتتاح مجلس الدييت في أوغسبورغ أخذ يقترب . وتمكن هنري في آخر محاولاته من اقناع الأب هوغ Hugues مقدّم دير كلوني والكونتيسة ماتيلدا

نفسها اللذين تغلبا في النهاية على رفض البابا ومقاومته القوية • وفي ٢٨ كانون الثاني ، وبما أن هنري كان مثل أمام باب قصر كانوسّا (حيث ينزل البابا) للمرة الثالثة خلال ثلاثة أيام وهو مرتدٍ الزيّ العادي للتائبين (وهو ثوب خشن من الصوف الاسمر اللون) وكان حافي القدمين ، فان البابا رضخ ورضي أن يستقبله مقابل وعد بسيط من هنري بالخضوع الى قرار الحبر الاعظم ، وأن يقبل حكمه بالنسبة الى قضايا المانيا ، وأن يُسَهّل له اجتياز جبال الآلب ، وألا يقوم في المستقبل ضد مجده وقداسته • فكل تلك التعهدات أمكنت ذلك المذنب التائب من الحصول على قرار بإلغاء قرار الحرمان الصادر بحقه وأن يعاد اليه اعتباره بقبوله في عداد جماعة المؤمنين •

وكانت نتيجة ذلك فوق ما كان يصبو إليه هنري/٤ • فعلى الرغم من الرسائل التي أوضح البابا فيها الموقف وبعث بها على جناح السرعة الى الامراء الالمان فان الاثر الذي تركه موقف البابا عند أنصاره في ألمانيا كان سيئاً للغاية • وقد أكد لهم البابا أن التبرئة التي حصل عليها هنري لا تتعلق إطلاقا بنتيجة النزاع السياسي الذي كان البابا غير حذر عندما انزلق فيه • وألقى البابا على عاتق الامراء مسؤولية تأخر حضوره معلناً أنه انتظر بدون جدوى وصول الحرس الذي سيرافقه ويواكبه في رحلته ، لا بل فان حرص البابا على تبرير موقفه مسبقاً يشير الى الطابع الحقيقي لذلك الحادث • وهكذا فان لقاء كانوسّا (الذي تمّ بين البابا وهنري/٤) عوضاً من أن يكون نصراً مبيناً للبابوية كما ظن كثيرون خلال فترة طويلة فانه كان تراجعاً من قبل البابا ، هذا بالاضافة الى أن الامراء الالمان مالوا الى اعتبار هذا الموقف خيانة من البابا • وقد استنتج هؤلاء الامراء من ذلك الموقف أنه لن يكون بوسعهم أن يُعَوّلوا على تحكيم البابا • ولإعلانهم أنهم سيأخذون على عاتقهم أمر عزل هنري/٤ فانهم انتخبوا في مدينة فورشهايم خليفته وذلك في ١٥ آذار ١٠٧٧ ، ووقع اختيارهم على رودولف دوق مقاطعة صوابيا ، هذا فضلا عن أن هنري/٤ نجح وبدون بذل جهد كبيرفيأن يستميل الى جانبه عدداً كبيراً من الانصار ليقاوم الامير المنتخب لخلافته ، كما نجح في استمالة

بعض الانصار حتى من بين رجال الأبرشية أنفسهم[1] .

السنوات الاخيرة من حبرية غريغوار ٧ (١٠٧٧ ـ ١٠٨٥) ووفاة هذا الاخير:

لم يعتبر المؤرخون وقوف الامبراطور على باب حصن ماتيلدا كونتيسة طوسكانة في كانوسّا ذلك الحصن الذي حل فيه البابا غريغوار/٧ وإعلانه توبته وندمه وقبول البابا بعد لأي تلك التوبة ورفعه قرار الحرمان عن الامبراطور وقبوله مجدداً في جماعة المؤمنين نصراً مؤزراً لذلك الحبر الاعظم ، كما لم يعتبروه بمقابل ذلك استسلاماً منه لخصمه الامبراطور . وقد استمر النضال وبعنف بين خصمي الامس وكانت سوحه الاولى في ألمانيا نفسها ، علماً أن مركز الامبراطور هنري قد تحسّن كثيراً عن ذي قبل . ولم يُلْقِ كبار الامراء الالمان من أعداء الامبراطور السلاح ، انما مضوا قدماً في مناصبته العداء بإعلانهم حماه رودولف أمير صوابيا ملكاً على ألمانيا. بينما وجد الامبراطور هنري الكثيرين من المؤيدين الالمان بين صفوف صغار أمراء ألمانيا وبين سكان المدن التجارية الغنية كمدن مايانس وورمز وكولونيا وفي المدن اللومباردية في ايطاليا وعلى رأسها مدينة ميلانو نفسها حيث زاد عدد أنصاره في تلك المدن عن ذي قبل . وقد ساد في تلك المدن المزدهرة شعور البورجوازيين المتزايد بوجوب التحرّر من سيطرة كبار الامراء الاقطاعيين . كما رغبت تلك المديريات Communes في أن تغدو مدناً حرّة خاضعة لسلطة الملك المباشرة . وعند وثوق الامبراطور هنري من أنه بوسعه الاعتماد على دعم ومساندة مؤيديه هؤلاء فان مركز الملك رودولف الصوابي الذي انتخبه أعداؤه بدأ يتزعزع وأخذت الارض تميد تحت قدميه . ولم تعد حدود المنطقة التي تمسكت بولائها لرودولف هذا تتجاوز الا بنسبة ضئيلة جداً إقليم سكسونيا . وغدا واضحاً أن هنري لن يتمكن وبالإقناع فقط من حمل السكسونيين العنيدين على الانضمام اليه وانماصار بوسعه وكما يبدو التغلّب عليهم وبواسطة القوة .

---

(١) راجع ذلك في لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ .

ونجح الملك هنري في الوقت نفسه وبواسطة المفاوضات وبدبلوماسيته في أن يثير الخصوم ضد البابا فلجأ طوال سنتي ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨ الى جميع الوسائل الممكنة ومن بينها الحيلة والخبث وبذل الاموال والوعود لانصار البابا كي ينقلبوا عليه وينفضّوا من حوله حتى غدا هنري الخصم المحنّك الذي لا يتورّع عن اللجوء الى أحط الوسائل الكفيلة بالنيل من البـــابا . وكان هذا الاخير واثقا من السلاح الذي بات في يده وهو صيرورته الفيصل الذي سيبتّ في الخلاف المستحكم بين هنري وخصومه من الامراء الالمان بينما لم يأل هنري في الوقت نفسه جهدا في تجريد سلاح البابا من مضائه وحدّته . وتنفيذاً لتلك الخطة المرسومة فإن هنري استمر وبصورة علنيـــة يعلن عن قبوله تحكيم الحبر الاعظم فيما شجر بينه وبين الامراء الالمان من خلاف لا سيما وكان هو نفسه قد وافق على حضور البابا جلسات مجلس الدييت الذي سيتم انعقاده في أوغسبورغ . وأخذ يتظاهر وبنشاط زائد أنه ينجز الاستعدادات الكفيلة بتأمين رحلة هنيئة وسفر ممتع ومقام مريح للحبر الاعظم في رحلته المنتظرة الى المانيا الى درجة أن البابا وخلال فترة طويلة لم يجد ما من شأنه توجيه اللوم من أجله الى خصم الامس وليتخذ منه ذريعة لمناصبته ومجدداً الملك هنري العداء . هذا بينما كان هذا الاخير ويصورة سرية لا يدّخر وسعاً في إقامة أكأد العقبات على الطـــريق الذي سيسلكه البابا الى ألمانيا . وفضلا عن ذلك فقد قامت في وجه رحلة البابا الى ألمانيا صعاب أخرى لم يكن لملك ألمانيا يد" في إثارتها ، ومن قبيل ذلك استشراء الفتن والاضطرابات في روما نفسها ونشوب القتال في جنـــوبي إيطاليا . وهكذا وعلى الصعيد الداخلي الصرف وجد البابا في ايطاليا مايشغله عن القيام بتلك الرحلة الى ألمانيا وبذلك لم تتح له الفرصة لحضور جلسات مجلس الدييت المرتقب في أوغسبورغ .

عالج الاستاذ كارل غريمبرغ قضية العلائق بين الامبراطور هنري/٤ والبابا غريغوار/٧ طوال السنوات الاخيرة من حبرية هذا الاخـــير مورداً ما نصه : « وهكذا وجد البابا في السنوات التالية في شخص الملك هنري خصماً مُحَنَّكاً وعنيداً هذا بينما زاد موقف هنري في ألمانيا قوة . وقد

بقي الحبر الاعظم ، وما سمحت له ظروفه بذلك ، حيادياً بالنسبة الى قضية ممارسة السلطة في ألمانيا ، هذا ولو أنه عندما لاحظ الظرف مواتياً ليسدّد الى خصمه ضربة قوية فانه لم يستنكف عن القيام وبصورة مُدَوِّية بدور الفيصل الذي سيبتّ في قضية الخلاف بين هنري وخصومه. وعندما استشعر هنري بقوته رغب في وضع حدّ لذلك الوضع بفرض إرادته وبدون مواربة على الحبر الاعظم وكان ما ينشده من هذا الاخير أن يصدر قرار حرمان ضد رودولف أمير صوابيا (الذي انتخبه خصومه ليخلفه في المنصب الملكي). لكن البابا غريغوار لم يكن سلس القياد ليرضخ الى ما يفرضه عليه خصمه لمجرد تهديده من قبل هذا الاخير بعبارات وبكلمات طنّانة جزلة . لذا قرر البابا ألا يقيم في وجه خصوم هنري في ألمانيا أية عقبة تحول بينهم وبين تأييدهم الفعلي لرودولف . وهكذا فإنه أثناء انعقاد مجمع ديني في روما سنة ١٠٨٠ أصدر البابا قراره وللمرة الثانية بحرمان الملك هنري وأنصاره كما أعلن وعلى رؤوس الاشهاد عزل ذلك « الملك المغتصب الحانث بيمينه » وذلك بسبب صلفه وكبريائه وخروجه على طاعة الكرسي الاقدس وخداعه وبعبارة أخرى لانه عارض ممارسة الحبر الاعظم لدور الحكم الفيصل . وبمقابل ذلك فقد اعترف البابا برودولف ملكا وذلك مكافأة له على تواضعه الجمّ وطاعته واستقامته .

« لكن قرار الحرمان الجديد الصادر بحق الملك هنري لم يترك نفس الاثر الذي كان للقرار الاول الذي صدر قبل أربع سنين . من حيث أن إعادة عرض مشهد ما بقصد التأثير على جمهور النظّارة هو دائماً قضية دقيقة وغير مضمونة . وهكذا لم يؤد قرار الحرمان الثاني الى خذلان انصار هنري له وبقي ملتفاً حول هذا الاخير جميع من كانوا ينشدون الحفاظ على وحدة واستقلال مملكة ألمانيا في ظل عاهل قوي . هذا بينما انضم الى جانب خصوم هنري جميع الراغبين في دمار السلطة الملكية . وقد بلغت قوة الملك هنري حداً جعله يجيب على الهجوم الذي فاجأه به البابا بعقد مجمع ديني كبير حضره كثيرون من أفراد الاكليروس الالمان والايطاليين حيث اتخذ قرار بعزل غريغوار من منصبه الحبري .

« ولتبرير أعضاء هذا المجمع موقفهم فانهم حشروا في حيثيات قرار الحرمان الاسباب أو بالاحرى التهم الملفقة التي وجهت الى : « الراهب هيلد براند الكذاب ، الى المدعي بأنه البابا غريغوار/٧ » كما أضيف الى ذلك التلفيق تهم أخرى خبيثة وكاذبة . ثم انتخب المجمع خلفاً لغريغوار أحد الاساقفة اللومبارديين والذي كان متمتعاً بتقدير عالمي والذي كان أكثر أنصار الملك هنري نشاطاً . وقد اختار هذا البابا الجديد اسم كليمانت/٣ . لكن غريغوار سرعان ما أصدر قراراً بحرمان البابا المنتخب الجديد ، كما كان غريغورا يتحرق شوقاً للاشتباك بخصومه ولطرد ذلك « الجاني » (ويقصد به البابا الجديد) من مدينة راقينا التي استقر فيها موقتاً : وهكذا وجد في هذا الظرف حبران أعظمان وملكان من أجل جرمانيا ، لكن أحد الملكين أصيب بعد عدة أشهر بجرح مميت في معركة خاضها ضد هنري .

« وغدت روما الهدف الذي صار هنري يرمي الوصول اليه ، وصار لا مندوحة له عن التوجه اليها لمحاكمة غريغوار وإسناد الكرسي الاقدس الى كليمانت/٣ بدلا منه . وتحقيقا لذلك فانه توجه سنة ١٠٨١ اليهـا . إنه لم يأتها بثياب التائبين النادمين في هذه المرة انما على رأس جيش قوي . وقد بدأت مفاوضات طويلة مع كل من سكان روما وغريغوار نفسه . ولم يتمكن هنري من الاتفاق مع سكان تلك المدينة الا في سنة ١٠٨٤ . ولم يتمكن غريغوار من أن يحول دون دعوة انعقاد مجمع ديني في روما برئاسة الملك ولمحاكمته . وقد استدعي غريغوار ثلاث مرات ليمثل أمام المجمع وبالنظر الى أنه لم يأبه بتلك الدعوات الثلاث فان المجمع اتخذ قراراً بعزله وحرمانه . اذ ذاك أجلس كليمانت على الكرسي الاقدس ومن يديه تلقى كل من هنري وزوجه برتا Berthe التاج الامبراطوري »[1] .

وعلى الرغم من الهزيمة التي حاقت بالبابا غريغوار فانه لم يرضخ أو يستسلم لواقعه الجديد انما رأى في هزيمته خسارة للقضية النبيلة التي نذر

---

(١) كارل غريمبرغ : مجموعة ماربواط للتاريخ العالمي المذكورة ، الجزء ٤ ، ص ١٧١ ــ ١٧٣ : الترجمة الفرنسية من قبل الاستاذ جورج دومون

نفسه من أجلها وجعل من نفسه بطلا لها . وقد ارتكب خطأً متهوراً وبدون تروٍّ أو تعقّل لاستنجاده بعصابات النورمانديين التي لا تجيد سوى السلب والنهب . وكان النورمانديون قد أتموا الى هذه الفترة وبقيادة زعيمهم الدوق روبرت غيسكار R. Guiscard احتلال جنوبي إيطاليا . أما حضورهم لنجدة الحبر الاعظم فكان بمثابة كارثة مأساوية بالنسبة الى روما . وقد شقّ النورمانديون ، الذين بلغوا ثلاثين ألف المقاتل ، طريقهم الى روما وفيها بالحديد والنار وأتوا (في ٢٤ مايس ١٠٨٤) لإخراج البابا المحاصر من حصن سانت آنج (أي القديس الملاك) . وفي وسط ركام الانقاض التي كان الدخان ما يزال يتصاعد منها فانهم أعادوا هذا البابا (غريغوار) الى قصر لاتران الذي فرّ منه البابا الثاني (كلميانت/٣) ، وذلك في الوقت الذي أتمّ فيه هؤلاء النورمانديون سلب وحرق المدينة بوحشية سريعة . وقد أفقدت تلك القسوة أو الوحشية التي ظهرت ممن أتوا الى نجدة غريغوار/٧ هذا الاخير جميع السمعة التي كان ما يزال متمتعاً بها حتى هذا الوقت عند قسم من الرومان . وقد اعتبر هذا البابا مسؤولا عن المصائب التي نزلت بمدينة روما ، واتّهم وبدون مبالغة ، أنه استمر بعد المأساة الوحشية يعامل روبرت غيسكار ، رئيس النورمانديين ، كحليف له يفيد من خدماته ويسخّره ضد أنصار خصمه البابا الجديد . وقد أجبر غريغوار بعيد ذلك على الرحيل عن مدينة روما وأن يودعها الوداع الاخير وأن يذهب منفياً الى دير مونت كاسّينو ، ثم الى بينيڤانت ثم الى ساليرن وذلك في حماية النورمانديين الذين بقوا وحدهم أوفياء له . وقد انطفأت حياة هذا البابا وبصورة محزنة تلك الحياة التي قضاها في خدمة فكرة عظمى . انه عرف وبصورة دورية الظفر المؤزّر والنصر المبين وأمرّ الهزائم . وكانت آخر الكلمات التي تفوّه بها عندما كان يُحتَضَر مقطعاً شهيراً من التوراة ورد فيه : « إنني أحببت العدل وكرهت الكفر والإلحاد ، لذلك فها أنذا أموت في المنفى » . إنه قضى في الواقع ضحية رفضه التساهل بالنسبة الى ما كان يعتبره بمثابة الحقوق التي لا يمكن نقضها والتي تتمتع بها الكنيسة وبالنسبة الى العرف

الكنسي الاصيل[1] .

البابا أوربان الثاني وما أحرزته الكنيسة من نصر على يـديه : عاد التفكير الإقطاعي الى السيطرة عند وفاة غريغوار/٧ (٢٥ مايس سنة ١٠٨٥) . وقد أتاحت الاخطاء التي ارتكبها الرئيس الاعلى للمسيحية الـى الامبراطور هنري/٤ وأتباعه من باقي الامراء الحكام الزمنيين الإفادة من وضعية كانت بصورة عادية مواتية لمشاريع الكنيسة . ولم تلاحظ تلك اليقظة الخطرة للطقوس القديمة والوهن البادي الملحوظ على السلطة البابوية في ألمانيـا وشمالي ايطاليا فقط انما في فرنسا وانكلترا أيضا . ويمكن القول بأن تراجع الافكار الدينية غدا واضحاً بادياً للعيان في جميع بقاع أوروپة الغربية وفي انكلترا خاصة حيث كان الاصلاح في بادىء الامر ، وبفضل نشاط رئيس أساقفة كانتربري لانفران Lanfranc قد قطع شوطاً طويلاً ، لكن المستقبل أخذ يبدو بألوان دكناء قاتمة . وقد عزلت بريطانيا في ظل حكم الملك الجديد غليوم الاشقر Le Roux (١٠٨٧ — ١١٠٠) وهو ابن غليوم الاول الفـاتح Le Conquérant (وقد حكم بين سنتي ١٠٢٧ — ١٠٨٧) عن السلطة البابوية . وقد بقي منصب مطرانية أو رئاسـة أساقفة كانتربري بنتيجة خطة مرسومة شاغراً طيلة خمسة أعوام (بين ١٠٨٩ — ١٠٩٣) ، وسواء بالنسبة الى مناصب الاساقفة أم بالنسبة الى مناصب مقدّمي الأديرة فان تلك المناصب عادت لتباع بيع السلع وبصورة مثيرة للفضائح . وكان كبار رجال الإكليروس القائمين على رأس مناصبهم والذين حاولوا الصمود في وجه اشتطاط الملك أو وزيره الاول رونوف فلا مبارد النورماندي يجبرون على الاستقالة من مناصبهم . لكن عودة المساوىء كانت بصورة آنيـة موقتة . وعلى الرغم من كل شيء فان المنهاج الاصلاحي الـذي ضحى غريغوار/٧ بحياته من أجله ما زال يوالي طريقه قدماً . وقد كثر عدد كبار

---

(١) راجع من اجل ذلك : آ — كارل غريمبرغ المصـدر عينه ، ج ٤ ، ص ١٧٣ — ١٧٤ .

ب — لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٤٢ .

رجال الإكليروس في أوروبة الذين تأثروا بمنهاج هذا البابا وصار العواهل هنري/٤ في ألمانيا وفيليب/١ في فرنسا وغليوم الاشقر في انكلترا مضطرين لأن يحسبوا حساباً لهؤلاء الاصلاحيين فان أتيح للكرسي الأقدس أن يشغله حبر أعظم أكثر مرونة وواقعية من غريغوار ، وأن يكون قادراً على تكييف أطماعه مع الإمكانيات المباشرة ، وبدون أن يفكر بالوصول قفزاً الى نهايـة طريق الاصلاح (أي أن يصل دفعة واحدة الى هدفه) فلئن وجد حبر أعظم يتمتع بهذه المزايا فستتمكن الكنيسة وشيكاً من استئناف وموالاة طريقها الصاعد ، طريق الإصلاح •

وهذا ما تمّ حدوثه بالفعل في حبرية أوربان/٢ (وكان أسمه الاصلي أود Eude) وهو راهب كلونيزي قديم عينـه غريغوار/٧ الى منصب أسقفية أوستيـا Ostie (ميناء مدينة روما القديم ويقع بالقرب من مصب نهر التيبر) الذي خلف سنة ١٠٨٨ البابا فيكتور/٣ ، الذي كان في الوقت نفسه تقياً وضعيف الإرادة ، في منصب الحبرية العظمى • وتمكّن أوربان بحزم لا يستبعد المهارة والحذق من إذكاء حماس الاساقفة المحبّذين للاصلاح • وبعد أن كان حماس هؤلاء قد فتر وتثبّطت هممهم فان أوربان/٢ لم يأل جهداً في جعل الامراء ينفضّون من حول هنري/٤ وأن ينظّم ضده حزب معارضة قوي ، ولا سيما سنة ١٠٨٩ حينما زوّج الامير الشاب ويلف Welf ابن دوق باڤاريا الـذي كان هنري/٤ قد جـرّده سنة ١٠٧٧ من دوقيته هذه ، من ماتيلدا كونتيسة طوسكانة الحليفة الوفية للكرسي الاقدس • ولم يتوفّر في هذا الزواج الانسجام والتوافق الا بصور متوسطة بالنسبة الـى اللياقة والموافقة الشخصية فالزوج ويلف كان في السابعة عشرة من العمـر بينما تجاوزت عروسه الاربعين • ومع ذلك فقد كان هذا الزواج عمـلاً سياسياً بارعاً هدف البابا من ورائه أن يعزل عن سلطة الامبراطور جميع البلاد الواقعة في جنوبي ألمانيا وشمال إيطاليا ليجعل منها كتلة خـاضعة الى النفوذ البابوي •

وعبثا ما حاول هنري الرابع منع حدوث النتيجة التي هدف اليها البابـا من وراء هذا الزواج : وبعد أن حقق الامبراطور بعض الانتصارات فـي

لومبارديا (١٠٩٠ ــ ١٠٩١) فانه لم يعد له حول ولا قوة بإزاء العمل المنظم والاصولي الذي كانت الديبلوماسية البابوية تواليه بصبر وأناة ضده حتى بين أفراد حاشيته أنفسهم . ولئن تمكن البابا صنيعة الامبراطور (وهو البابا كليمانت/٣) من العودة الى روما والبقاء فيها طيلة فترة ما ، ولئن اضطر أوربان/٢ الى اللجوء الى بلاد النورمانديين في الجنوب، لكن الآية ستنعكس منذ سنة ١٠٩٢ ــ ١٠٩٣ . وبدون أن يملأ هذا الحبر الأعظم الدنيا صياحاً ، وبدون أن يصدر قرارات حرمان مُدَوِّية فإنه عرف كيف يجعل الافكار في شمالي ايطاليا وفي ألمانيا نفسها تميل اليه . إنه جمع المؤمنين وجعلهم يلتفّون من حول كونراد بن هنري/٤ ، وهو شاب هادىء ، وكان قد عُيِّن لوراثة عرش أبيه منذ سنة ١٠١٧ ، والذي لم تلبث لومبارديا أن انضمت اليه . فمن هذه المنطقة وبالاتفاق التام مع الكونتيسة ماتيلدا وزوجها على أن تسدّ ممرات جبال الآلب.ومنذ مطلع شهر آذار غدا موقف أوربان/٢ وكان قد عاد الى روما منذ عدة أشهر قوياً متيناً الى درجة تمكن هذا البابا معها من الحضور الى مدينة پليزانس Plaisance في ايطاليا ليرأس مجمعاً دينياً حضره ، كما يؤكد بعض المؤرخين الحوليين، أكثر من أربعة آلاف رجل دين وأكثر من ثلاثين ألف علماني . ومن وفرة عدد المؤمنين الذين لبّوا مسرعين نداء الحبر الاعظم يمكننا تقدير أهمية التقدم الملحوظ الذي حققه هذا الاخير . وبعيد ذلك فان الملك كونراد نفسه (ولي عهد هنري) أحاط البابا في مدينة كريمون Crémone بجميع مظاهر الاحترام مقسماً له على الوفاء ومتعهداً أن يخدم الكنيسة بصدق وإخلاص .

واتخذت رحلة أوربان/٢ اذ ذاك طابع الرحلة المظفّرة . وعلى حين انهار هنري/٤ وقبع في منطقة ما في شمالي ايطاليا ، فان البابا الذي أضحى واثقاً من نفسه توجّه بهدوء نحو غاليا حيث كان مزمعاً عقد مجمع ديني كبير آخر . اجتاز البابا جبال الآلب في شهر تموز ثم وصل في ١٥ آب الى مدينة پوي Puy . ثم جاب بلاد وادي الرون مُكتّلاً ومُجمّعاً على طريقه سواء في مملكة فرنسا أم في بورغونديا العائدة الى الامبراطورية (بين نهري الرون Rhône والسون Saône وجبال الآلب) أنصار البابوية .

ثمت بعد أن مرّ البابا بمدن ليون وكلوني وماتون وأوتونAutun وصل الى مدينة كليرمونت المحددة لانعقاد المجمع الديني الذي افتتح في ١٨ تشرين الثاني وقد حضره وفق التقديرات الاكثر اعتدالاً قائمة من المطارنة والاساقفة ومائة من الآباء مقدّمي الأديرة هذا إن اكتفينا بالحديث عن كبار رجال الدين فقط •

وفي هذا الظرف فان البابا الموجود في فرنسا نفسها لم يتردّد في اصدار قرار بحرمان ملك فرنسا نفسه فيليب الاول من أسرة الكابيت وذلك من جرّاء حياته الخاصة • كما اتخذ موقفاً حازماً ضد افتئات السلطة الزمنية على السلطة الكنسية العليا بالنسبة الى تعيين الاساقفة وتولّيهم مناصبهم • وقد وطّد مركزه كالرئيس صاحب السيادة على جميع الكنائس المسيحية وطلب من الملوك والنبلاء ، والعلمانيين العاديين الطاعة الحرفية العمياء لقراراته • وأخيراً سرد البابا في ٢٧ تشرين الثاني وفي الهواء الطلق عند أبواب مدينة كليرمونت موعظة ارتجالية وخطب في الجماهير التي هبّت لسماعه ، وفجأة رفع هذا الحبر الاعظم عقيرته وبصوت جهوري مرتجف من الانفعال ليذَكّر المؤمنين بأن واجب خدمة الله يدعوهم ، وأن قبر المسيح هو في أيدي الكفرة (ويريد بهم المسلمين) ، وأن الحجاج لايتمكنون من الوصول إليه إلا بعد ألف محاولة ومقاساة الآلام ، وان الديانة المسيحية نفسها مهددة بدمار وشيك الحدوث اذا لم يبادر المسيحيون المتنازعون في غربي أوروبة الى إيقاف منازعاتهم ليهبّوا مسرعين الى نجدتها • وقد برهنت الصيحات الحماسية التي ردده فيها المستمعون « تلك هي مشيئة الله » والتي ردّ بها مرسلوها على خطاب الحبر الاعظم أنه مهما كان الحكام أقوياء ومستبدّين ، ومهما قست قلوب الافراد وأخلاقهم في ظل النظام الاقطاعي فان للكنيسة دورها الذي يتحتّم عليها أن تقوم به • وبما أنها تقود الرجال فان ثمة أفقاً للعمل لا نهائيّ الابعاد قد انفتح أمامها[1] •

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في : آ ــ كارل غريمبرغ ، مجموعة مارابوط عن التاريخ العالمي المذكورة ، ج ٤ ، ص ١٧٤ ــ ١٧٥ •

ب ــ لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٢ ، ص ٤٢ ــ ٤٥ •

الفصل الخامس عشر

أمراء الاقطاع في أوروپة
وتوسّعهم في تلك القارّة قبل الحروب الصليبية

تشمل دراستنا في هذا الفصل ثلاثة أقسام **نعالج في أولها قضية : احتلال النورمانديين لجنوبي ايطاليا ولجزيرة صقلية** وتمثل هذه القضية أول مراحل الاحتكاك بين أمراء الاقطاع في أوروپة الغربية والقوات الاسلامية التي كان قسم منها مستقراً في صقلية ونجاح قوات النورمانديين في إجلاء المسلمين عن تلك الجزيرة وإقامة دولة لأولئك النورمانديين في الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة ايطاليا وفي جزيرة صقلية •

ونتنــاول في القسم الثاني دراسة احتــلال النورمانديين لانكلترا وبسط حكمهم عليها وإقامة دولة لهم في ربوعها •

أما في القسم الثالث فاننا نــدرس المرحلة التمهيــدية للحروب الصليبية وتقتصر دراستنا في هذا القسم على الاشتباك بين أمراء الاقطاع في جنوبي فرنسا بصورة خاصة والمسلمين الذين كانوا في اسبانيا •

نشد البابا أوربان/٢ من وراء دعوته أمراء الاقطاع في أوروپة لقتال المسلمين تحت راية الصليب واستخلاص الاماكن المقدسة في فلسطين منهم استخدام قواتهم التي كانت ومنذ فترة طويلة تستنفد طاقاتها وبنجاح خارج حدود مناطق هؤلاء الامراء • كما كان الحبر الاعظم يهدف فضلاً عن ذلك تأمين مصالح أوروپة المسيحية التي بدأت تعاني من بعض مساوىء نظامها الاجتماعي • كما أضحت أوروپة الغربية مهدّدة بزيادة عدد الولادات عن الوفيّات وما ستجرّه تلك المشكلة في ذيلها من اضطرابات اجتماعية ، من

حيث أن الأعراف السائدة في النظام الاقطاعي قضت بأن تكون وراثة إقطاع الأب المتوفى محصورة في ابنه البكر . فالمشكلة التي طرحت نفسها على المجتمع الاوروبي في ظل ذلك النظام هي : ماذا سيكون مصير ذلك الجيش اللجب من الأولاء الثنيين ؟ (جمع ثني وهو الولد الثاني الذي يأتي بعد الابن البكر ويقابله بالفرنسية Cadet . ويمكن تعميم تلك التسمية على الاولاد الثالث والرابع والخامس والخ ... الى درجة أنه من الممكن أن يشمل تعبير : الأولاد الثنيين جميع أولاد الاب باستثناء ابنه البكر) .

كان ممكناً وطبيعياً كذلك أن تفتر ولربما تسوء العلائق في أسرة ما بين الابن البكر ، الذي إن لم يكن قد استأثر بكامل إقطاع أبيه فانه على الاقل فاز منه بنصيب الاسد ، وبين باقي اخوته الذكور . وكثيراً ما لجأ أولئك الاولاد الثنيون في مجتمع غربي أوروبة الى الدسائس والخداع وقطع الطرق التي عاثوا فيها فساداً . وللاحظة البابوية ما قد تجرّه تلك المشكلة على المجتمع الاوروبي وجدت في الدعوة الى الحروب الصليبية فرصة مواتية لإيجاد عمل لتلك الآلاف المؤلفة من الفرسان (الابناء الثنيين) فقد تتيح لهم تلك الحروب فرص الحصول على اقطاعات خارج أوروبة خاصة وأن العرض مغرٍ ويستحق المغامرة من أجله ففيه من جهة تلبية للشعور الديني في كل نفس مسيحية (استخلاص الاماكن المقدسة من أيدي المسلمين الذين كان البابوات والمؤرخون ينعتونهم بالكفرة les infidèles) ، وفيه كذلك مران للفارس على الحرب والنزال فبدلاً من أن يقتل أخاه أو ابن عمه أو أحد أفراد مجتمعه فليقتل كافراً أو ليقتل على يديه فيرزق الشهادة بما أُعدّ لها من مثوبة وغفران . هذا فضلا عن أن تلك الحروب تؤمن له الربح المادي (الاسلاب والغنائم) وترضي حبه للاطلاع على المجهول .

لمّح الاستاذ لويس هالفين الى هذه المشكلة الاجتماعية وكيف أن دعوة البابا الى الحروب الصليبية وجدت صدى في نفوس سامعيه في مجمع كليرمونت الآنف الذكر فقال هذا المؤرخ بصدد تلك المشكلة ما معناه : « ... وكان كافياً أن يزيد فائض من الولادات عن الوفيات ليزداد كثيراً

عدد الفرسان الراغبين في الحصول على الاقطاعات • ففي بعض الولايات كنورمانديا حيث يتكاثر السكان بسرعة فإن عدد الأولاد الثنيين (les Cadets) يكثر الى حدٍّ لا تستطيع أسرهم معه أن تؤمّن لهم أعمالاً ملائمة أو مكاناً لائقاً في المجتمع فيضطر هؤلاء الثنيون الى المهاجرة من موطنهم حيث يتؤجّر كل منهم سيفه ويجعل نفسه في خدمة الآخرين أو يجري وراء المغامرات التي تعادل أرباحها مخاطرها • وكان الحصول على الغنائم التي يستولى عليها من الاغارة على مناطق نائية مغرياً الى درجة أنه حتى النبلاء أصحاب الاقطاعات المتمتعين بثروات كبيرة والمفيدين من ريع أراضيهم استهوتهم حياة السعة واليسر هذه والتي تلبّي في الوقت نفسه رغبات الفرسان الشجعان محبّي الطعان والنزال والتي لا يعود المرء منها خالي الوفاض صفر اليدين • وكانت تلك الغارات أكثر جدوى وأوفر ربحاً إن تمت في مناطق أبعد ولا سيما على بلاد شعوب عدوة وخاصة على بلاد المسلمين الذين يعاملهم المغيرون بصورة لا إنسانية بدون ان يجد هؤلاء المغيرون رادعاً أو وازعاً من ضمائرهم ليكبحوا جماح نفوسهم وغرائزهم •

« وفضلا عن ذلك فلطالما تحوّلت تلك الغارات أو الغزوات البعيدة الى حروب توسّع وفتوح • وقد حدا النجاح الذي صادفه المغامرون الأوائل الى انضمام عدد كبير من الأقارب والأصدقاء والمواطنين اليهم فيما إن لاحظوا أن من الممكن وبسهولة الحصول على الربح • ثمت وتحت وطأة الظروف والحوادث تنتظم هذه العصابات المغيرة وتتحول الى جيوش إقطاعية نظامية توسد قيادتها الى عدد من النبلاء المشتركين فيها • وأخيراً ، وأسوة بما كانت عليه الحال في بادىء الأمر تحلّ الفتوحات المنظمة محل الغارات من أجل الحصول على الأسلاب والغنائم •• »[1] •

إنه من الصعب أن نفي حروب أمراء الإقطاع التوسعية حقها من الأهمية حيث ساعدت ، وعلى غرار الحروب التي خاضتها الدول الكبرى للاستيلاء

---

(١) لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٦ ؛ القسم ١ ؛ الفصل ٣ ؛ ص ٤٦ •

على المستعمرات (خاصة وتجمعها بتلك الحروب الاستعمارية صفات مشتركة عديدة) ، وكما يقول مؤرخو الغرب على نشر الحضارة التي سيبدأ ازدهارها بعيد قليل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في فرنسا أولاً ثم في باقي بلدان أوروبة الغربية • وقد أسهم غدوّ ورواح النبلاء الإقطاعيين ، الذين اشتركوا في تلك الحروب الإقطاعية التوسّعية ، بين شمالي إنكلترا وسواحل الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في التوحيد المعنوي والخلقي لأوروبة والى حدٍّ ما في توحيدها الجنسي • وكان للحوادث الرئيسية على غرار استعمار العناصر النورماندية في القرن الحادي عشـر لجنوبي إيطاليا وإنكلترا ، وكاحتلال مقاطعات شمالي اسپانيا على يد جيوش الفرسان البورغونديين والشامپانيين Champenois واللانغدوكيين أو الغاسكونيّين (وهي مقاطعات جنوب شرقي وجنوب غربي فرنسا) ، أو ما سيتمّ فيما بعد في فترة الحروب الصليبية من احتلال لسورية وتراقيا والپليپونيز مما اعتبر مراكز لتوحيد نبلاء فرنسا وايطاليا وألمانيا الإقطاعيين وجعلهم يتساندون ويتآزرون • فكل تلك الحوادث اعتبرت عوامل رئيسية وسيكون لها صداها وآثارها الكبرى على مستقبل العالم[1] •

احتلال النورمانديين لجنوبي ايطاليا وصقلية : من الممكن تحديد المراحل الرئيسية للتوسع النورماندي في ايطاليا وصقلية بوضوح • وقد كان منطلق هذه الحرب التوسعية هو قصة بعض المغامرين المعوزين المتواضعة والتي لم تضف عليهم أية هالة من المجد • ورغبة من هؤلاء المغامرين في الافادة من جو الفوضى الذي كان يرين على جميع بقاع جنوبي شبه جزيرة ايطاليا فانهم أجّروا سيوفهم وسواعدهم الى من ينقدهم ثمناً أبهظ : كإلى زعيم للثوار في منطقة باري Bari كان يسعى حثيثاً الى التخلّص من الحكم البيزنطي الذي كان ما يزال وحتى نهاية العشر الأوائل من القرن الحادي عشر قوياً في مقاطعة پويّ Pouille ، أو في سنة ١٠١٨ الى صغار الأمراء اللومبارديين في كل من مدن كاپو Capoue وبينيڤانتو Bènèvent أو سالرنو ، أو في حوالي سنة ١٠٢٥ الى رئيس الادارة البيزنطية في ايطاليا ، وكان يلقب

---

(١) المصدر عينه ؛ المجلد ٦ ؛ القسم ١ ؛ الفصل ٣ ؛ ص ٤٧ .

« الكاتيپان le Catépan » أو في سنة ١٠٢٩ الى دوق مدينة ناپولي ، أو الى غير هؤلاء الآنفي الذكر • وسيّان عند اولئك المغامرين الجانب أو المعسكر الذي سيقاتلون من أجله • وبسهولة ويسر فانهم ينفضّون ، وكمرتزقة مأجورين عاديين ، من حول الأمير الذي كانوا يقاتلون الى جانبه لينضموا الى عدوه • ولا يمكن من هذه الزاوية ، ومع ملاحظة جميع الاعتبارات ، أن نُعِدّ أولئك المغامرين سوى مرتزقة هذا على الرغم من انتمائهم الى طبقة اجتماعية اسمى من تلك التي يجمع منها المرتزقة العاديون • وبنتيجة كون اولئك المغامرين فرساناً ، أي من طبقة النبلاء ، فان الأجر الذي كانوا يتقاضونه هو أعلى من الأجر الذي يتناوله المرتزقة العاديون • ولا نعجب الآن أن دوق ناپولي أوسد سنة ١٠٢٩ الى أحد أولئك الفرسان المغامرين المرتزقه واسمه رونوف Renouf حكم مدينة آڤيرسا الصغيرة الواقعة على الحدود الشمالية من دوقيته وضاحية تلك المدينة ثمناً لانضمامه الى جانبه •

تعرّض الأستاذ كارل غريمبرغ الى بداية قصة وصول الفرسان النورمانديين الى جنوبي ايطاليا فيما يشبه قصص المغامرات مشيداً ببطولات أولئك الفرسان الروّاد الأوائل الذين تمّ وصولهم الى تلك الأرجاء بينما كانوا في طريق عودتهم الى بلادهم من الحج ، ونحن نلاحظ أن ثمة مبالغة وإطناباً في وصف المؤلف لشجاعة أولئك الفرسان الأربعين الذين تحدّث عنهم حيث ما أشبه حديثه عنهم بالحديث عن الأبطال الاسطوريين فقال بشأنهم ما نصه : « إن ميناء سالرنو (جنوب غربي ايطاليا) الذي كان جماعة من المسلمين[1] قد ضربوا الحصار عليه في سنة ١٠١٦ ، أتاه وبمحض الصدفة المدد والنجدة عن طريق عدد من الفرسان النورمانديين العائدين الى ديارهم من الحجّ • ونظراً إلى تعطّش هؤلاء الحجاج الى المغامرات فإنهم انتهزوا تلك الفرصة السانحة التي أتاحت لهم منازلة اعداء المسيح • وقد تجلت البطولة في اشتباكهم

---

(١) لنلاحظ ان المؤلف وغالبية مؤلفي الغرب ينعتون المسلمين ـ من العرب أو البربر ـ الذين هاجموا اوروبة الغربية في العصور الوسطى اما بلقب النهّابين Sarrasins أو بلقب الكفرة Infidèles .

بأولئك المسلمين من حيث أنه على الرغم من عدم تجاوزهم الأربعين مقاتلاً فإنهم نشروا الذعر في صفوف العرب ونجحوا في إنقاذ تلك المدينة . وبعد أن عاد هؤلاء الفرسان الى بلادهم (دوقية نورماندیا شمالي فرنسا) فانهم حدثوا أترابهم من الفرسان النورمانديين أنسال الڤيكينغ بأخبار مغامرتهم مما أغرى فرساناً نورمانديين مغامرين غيرهم بالسفر الى تلك الارجاء حيث كما يبدو محتملاً أن أمراء تلك الديار استأجروهم كمرتزقة للانخراط في صفوف قواتهم . وأخذت مجموعات جديدة من المغامرين النورمانديين تقصد في كل عام تلك البلاد البعيدة وهي رحاب جنوبي ايطاليا حيث يؤجّر أفرادها سيوفهم وسواعدهم للعمل في خدمة أمراء تلك الربوع . وكانت الدفعات الاولى من أولئك الفرسان تعرض في هذه البلاد أن تشدّ أزر حكامها بتعهّد أفرادها بالعمل لديهم كمرتزقة . ولم تعتّم أعداد هؤلاء الفرسان ، الذين توالى وصولهم الى تلك المناطق ، أن غدت وفيرة بحيث أغراهم ضعف الحكام المحليين بالتحّول من مرتزقة في خدمة هؤلاء الحكّام الى قوات تعمل لحسابها الخاص وتنشد احتلال أقاليم هذا القسم من ايطاليا مؤسسة فيه مستعمرات خاصة بها تحكمها وتمارس سيادتها عليها. وسرعان ما تحوّلت تلك المستعمرات في ظل قيادة أحد هؤلاء الفرسان النورمانديين وهو روبير غيسكار R. Guiscard وعدد آخر من زملائه الى دولة نورماندية هامة ... »[1] .

وبمجرد انتشار خبر تلك الفائدة غير المنتظرة التي حصل عليها رونوف النورماندي في دوقية ناپولي جنوبي ايطاليا سارع اليها عدد من الفرسان النورمانديين الخاويي البطون مؤملين الحصول بدورهم على إقطاعات من مواطنهم رونوف فأتيح لبعضهم تحقيق ما كان ينشده . وسرعان ما زاد عدد أوصال رونوف هذا (أي نوابه من النورمانديين في حكم الاقطاعات) في بلاطه . ورغب أدواق وأمراء المنطقة المجاورة في خطب ودّه ومحالفته . واعتبر النبيل أو بطريق مدينة آمالفي نفسه سعيدا جدا ان تزوج رونوف

(١) كارل غريمبرغ ؛ مجموعة مارابوط عن التاريخ العالمي المذكورة ؛ ج ٤ ؛ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

من ابنته • وطبيعي وحالة جنوبي ايطاليا ما ذكرنا أن يفيد ذلك المغـامر النورماندي من تلك الصداقات غير المنتظرة التي عقدها مع الأمراء المحليين والتي شدّت الكثيرين منهم اليه في التوسّع على حساب جيرانه ، وبعيـد اثني عشر عاماً من استقرار رونوف في آڤيرسا فان المناطق التي ضمها قد زادت الى درجة جعلته يستولي سنة ١٠٤٢ على مدينة غاييّت Gaëte على بعد ستين كيلو مترا من عاصمته •

وقامت عدة ثورات على الحكم البيزنطي في البلاد الواقعة الى جنوبي المنطقة المشار اليها • وقد أتاحت تلك الثورات الى مجموعة جديدة من الفرسان النورمانديين الفرصة في الوصول الى تلك المنطقة الجديدة والمقام فيها ونخص بالذكر من بين تلك المجموعة النورماندية الجديدة ثمانية إخوة من أصل اثني عشر ولداً لنبيل إقطاعي غير شهير من مدينة هوتڤيل Hauteville (في نورماندیا) • أقام هؤلاء الإخوة في جنوبي ايطاليا وأخذوا يشيدّون الحصون والقلاع للاعتصام فيها • وقد نجحوا في إثارة السكان الاغريق في تلك المنطقة (وكانت تدعى قديماً بلاد الإغريق الكبرى) وإثارة العناصر اللومباردية وإثارة كل من أنصار الامبراطور الجرماني والبابا بعضهم ضد بعض إلى أن تمكنوا بعد عدد من السنين التي خاضوا خلالها نضالاً لسنا واقفين على تفاصيله من الاستيلاء على عدد من الأقاليم المجاورة التي تألف منها بعد جمعها الى بعضها بعضاً دوقية پوي Pouille وكالابريا النورماندية •

بحث الأستاذ س• و• بريفت ــ أورتون (في المجلد الرابع من مجموعة السير جون ا•هامرتن عن تاريخ العالم) ، وتحت عنوان **مغامرات النورمانديين**، وصول الكثير من الأمراء النورمانديين من شمالي فرنسا الى جنوبي ايطاليا مشيراً الى وصول رونوف وسواه ومورداً بصدد ذلك كله ما يلي : « ••• وقبل ذلك بقرن من الزمان (أي قبل غزو ويليم الفاتح ــ النورماندي ــ إنكلترا واحتلالها) ، أدت سلسلة من المغامرات الشخصية المماثلة لهذه الى تأسيس المملكة النورماندية الثانية ، ألا وهي مملكة صقلية فان بعض الحجاج النورمنديين الى مقـام القديس ميخائيل (سانت ميشيل) رئيس الملائكة ،

قابلوا عام ١٠١٥ في بونت غارغانو الثائر الآپولي ميلو • وكانت آپوليا (إقليم في جنوبي ايطاليا) اللاتينية في ذلك الوقت تمور بالتبرّم من حكامها الاغريق فبحثت عن الجنود المرتزقة النورمنديين وحصلت عليهم • ومع أن الثورة الفعلية أخمدت في مقاطعة كاناي الشيرة فإن الثوار كانوا قد عرفوا قيمتهم التي تجلّت وحتى في معركة خاسرة •

« وبعد سنوات قلائل من ذلك الوقت نجد رينولف Reinulf النورمندي مأجوراً لدوق ناپلي ثم نجده يصبح كونت آڤيرسا Aversa • وكان هذا بداية استقرار النورمنديين وحكمهم في جنوبي ايطاليا • ثم ظلت هجرتهم اليها لا تفوقها هجرتهم الى أية جهة أخرى حتى تمّ فتح انكلترا • ذلك أن أسراً كاملة مثل أبناء تانكرد جاءت على دفعات من هوتڤيل (في مقاطعة نورمانديا في فرنسا) ليحصلوا على الارض والثروة بحدّ السيف • وأصبحت أڤرسا الآن مركزاً خاصاً لهم ولم يعودوا بعد مجرد فرق من المرتزقة ، وسرعان ما اشتعلت نيران الثورة في آپوليا ثانية فاستخدمهم أمير ساليرنو هذه المرة وظفروا تحت قيادة أبناء هوتڤيل بمستعمرة ثانية اقتطعت من آپوليا البيزنطية »[1] •

وقام بعض أولاد تنكريد رئيس مدينة هوتڤيل ومنذ فترة مبكرة بدور أهم من أدوار رفاقهم في السلاح • وصار الثلاثة الكبار منهم ، وهم غليوم ذو الساعد الحديدي Guillaume Bras - de - Fer (المتوفى سنة ١٠٤٦) ولا سيما درو Dreu وأونفروا Onfroi (أوهمفري) (المتوفيان سنة ١٠٥١ وسنة ١٠٥٧) يبدون وكأنهم نبلاء إقطاعيون صغار • وتوالى وصول بعض الفرسان من مقاطعة نورمانديا الفرنسية وأحيانا من مقاطعات فرنسية أخرى للخدمة في صفوف والى جانب نواب أي أوصال أولاد تنكريد الآنفي الذكر ولمساعدتهم على التخلص من بقايا البيزنطيين الموجودين في المنطقة وطردهم الى البحر • ولم يبق من هؤلاء الرعايا البيزنطيين منذ سنة ١٠٥٥ سوى

---

(١) بريفت ــ أورتون ، في مجموعة السير جون هامرتن عن تاريخ العالم المذكورة ؛ المجلد ٤ ؛ الفصل ١٠٠ ؛ ص ٦٩٩ •

العناصر المقيمة في مـدن باري وبرنديزي وتارانت وفي الضواحي المتاخمة لتلك المدن ، وأخذوا كلهم يتراجعون الى كالابريا • هـذا على حين والى النورمـانديون المستقرون في مدينة پوي" فـي منطقـة آبروز Abruzzes وعلى الرغم من الجهود التي بذلها البابا ليون/٩ ، زحفهم نحو بينيڤانتو للالتقاء بمواطنيهم النورمانديين المستقرين في مدينة آڤيرسا • وقد أمكنهم وبعيـد قليل قطع مرحلة جديدة • فبعد أن زادت قوة العناصر النورماندية المقيمـة في شبه جزيرة إيطاليا بوصول مقاتلة جدد أغراهم نجاح تلك العناصر بالقدوم ، التف" نورمانديو ايطاليا حول ابن آخر لتنكريد هو روبير غيسكار الشهير الذي أنجبه أبوه من زوجة ثانية • وسرعان ما اشتهر روبير هذا بما تمتّع به من صفات بارزة كقائد فذ" رئيس وكحاكم مـُدَبـِّر • وسينجز في عهد روبير هذا المترع بالحوادث الجسام تحويل مختلف الامارات الاقطاعية التي أوجدتها المغامرات السابقة الى دولة إقطاعية كبرى تمتد" رحابها تقريبا بين مقاطعة الآبروز (المنطقة الجبلية الواقعة في جبال الآپناين في وسط إيطاليا) وجنوبي جزيرة صقلية • وسيكون روبير هذا وعن جدارة المشيّد الحقيقي لعظمة ومجد النورمانديين في ايطاليا •

وبدا النجاح الذي حققه هذا الأمير وحتى منذ سنة ١٠٦٠ عظيما • فثمة ضم" أراضٍ جديدة وفي مقدمتها إمارة كاپو التي استولى ريتشارد كونت آڤيرسا عليها سنة ١٠٥٧ وغدا حماه • وكان روبير نفسه وبمساعدة أخيه روجير قد أنجز في صيف ١٠٦٠ احتلال منطقة كالابريا الممتدة الى اقليم ريغيو Reggio (أوريجيو) وهو آخر معقل لانصار وحاميات البيزنطيين في ايطاليا ، بينما استمرت مدينتا باري وبرنديزي الواقعتين في اقليم الپوي في مقاومة النورمانديين • وعلاوة عما ذكر فقد كفّت البابوية عن اعتبار العناصر النورماندية مجرد عصابات سلب ونهب وأعداء للكنيسة ملتمسة على العكس دعمها وتأييدها • وعلى غرار عـلائق البابا سيلڤستر/٢ في مطلع القـرن الحادي عشر بإيتيين الأول المؤسس التقي الورع لمملكة هنغاريا فان البابا نيقولا/٢ اعتبر الأمير النورماندي روبير غيسكار أثناء اجتماعه بـه

في ميلفي Melfi في ٢٣ آب ١٠٥٩ في عداد محميّي القديس بطرس مقابل وعد روبير للحبر الأعظم أن يسدّد له رسماً سنوياً بسيطاً . وبذلك لم يعد روبير ورسمياً مجرّد رئيس عصابة إنما غدا عاهلاً اعترف له الحبر الأعظم ومسبقاً بتملك كل من پويّ وكالابريا وملحقاتها ، وحتى بتملّك جزيرة صقلية نفسها والتي كان يستعد للاستيلاء عليها .

وفعلا فإن روبير غيسكار وجّه منذ سنة ١٠٦٠ قواته الى صقلية حيث كان أخواه غليوم ذو الساعد الحديدي ودرو Dreu قد قاتلا فيها سنة ١٠٣٨ لحساب الإمبراطورية البيزنطية التي بذلت آنذاك جهداً مستميتاً لاستخلاص الجزيرة من حكم المسلمين . وكانت مدينتا ميسينا وسرقوسة Syracuse قد أمكن استخلاصهما من حكم هؤلاء . لكن الدولة البيزنطية تركت في سنة ١٠٤٠ هذا المشروع فعادت جزيرة صقلية لتخضع بكاملها مجددا الى الحكم الإسلامي . هذا بينما لم يعد بوسع حكام الجزيرة المسلمين الاستمرار منذ سنة ١٠٦٠ في المقاومة لعدم تلقّيهم منذئذ أي مدد من السلطات الإسلامية في تونس التي كانت صقلية تابعة إليها ، بالاضافة الى الخطة الرشيدة التي اتبعها روبير في الهجوم لا سيما وأنه لم ين عن إمداد قواته المحاصرة للجزيرة باستمرار على الرغم من أن عدد المحاصرين للجزيرة لم يكن كبيراً . وبعد فترة حصار دامت ربع قرن أنجز النورمانديون استرداد صقلية بتمامها . وكان روبير قد أناط بأخيه الكونت روجير قيادة الفرسان المحاصرين لصقلية . وكثيراً ما قام هذا الأخير بالهجوم مع قواته على ميسينا ، كما حاول مراراً كذلك أن يشقّ لقواته طريقاً الى الشمال من جبل إتنا Etna ليهاجم مدينة پالرمو وليتجه شرقاً نحو كاتان Catane . وقد زادت ووضحت النتائج التي حققها النورمانديون في هذه البقاع منذ سنة ١٠٦٤ ، وتمكن روجير بفضل دعم الحبر الأعظم المعنوي له حيث بعث إليه وبصورة رسمية ببركته الرسولية ، وبفضل المساعدة المادية التي كان أخوه روبيرغيسكار لا ينقطع من حين لآخر عن تقديمها اليه بوصوله شخصياً على رأس قوات مدد ودعم الى سوح القتال والاشتراك في بعض المعارك الى جانب أخيه فإنه

تمت لروجير سنة ١٠٦٦ السيطرة على الساحل الشمالي لصقلية . ثم أحرز في سنة ١٠٦٨ نصراً في معركة خاضها على بعد حوالي ٢٠ كيلو مترا الى الجنوب الشرقي من مدينة پالرمو التي استولى عليها كذلك بعد محاصرتها سنة ١٠٧٢ . وقبل ستة أشهر من هذا التاريخ فان وحدات من الاسطول أبحرت من ريغيو مدداً لروجير متوجهة الى كاتان التي لم تلبث أن استسلمت. وتابع روجير وبصورة منظمة احتلال أقاليم الساحلين الشرقي والغربي . هذا بينما والى هذا الأمير النورماندي تقدمه في وسط الجزيرة متغلباً وبصعوبة على العقبات التي وضعها المسلمون في طريقه ومشيداً الحصون والقلاع القوية في كل منطقة حلّت بها قواته ومعدّة لتكون مراكز استناد لهذه القوات [١] .

وعند وفاة روبير غيسكار في تموز ١٠٨٥ لم يكن قد بقي في الجزيرة سوى المنطقة المثلثة الشكل الواقعة بين مدن كاستروجيوڤاني Castrogiovanni وجيرجانتي Girgenti وسرقوسة وستأزف ساعة سقوط هذه المنطقة بيد النورمانديين ، وقد سقطت فعلا بيدهم بين سنتي ١٠٨٦ — ١٠٨٧ . وبعد أن اضطر المسلمون الى الاكتفاء بأقصى الجنوب الشرقي من صقلية فانهم استمروا يقاومون زهاء ثلاث أو أربع سنين أخرى حيث سقط سنة ١٠٩١ آخر معاقلهم فيها وهو نوتو Noto وهو التل الواقع في أقصى جنوبي الجزيرة. وكان سقوط كل من باري وبرانديزي قبل عشرين عاماً أي سنة ١٠٧١ قد جعل من روبير غيسكار السيد غير المنازع لإقليم اليوي ، ثم أضاف الى هذه الولاية والى كالابريا المنطقة المتوسطة ، كما أضاف إليها وعلى المنحدر الغربي لجبال الآپناين دوقية آمالفي Amalfi التي استسلمت اليه سنة ١٠٧٣ ثم إمارة سالرنو التي استولى عليها بالقوة سنة ١٠٧٦ ، وذلك في الوقت الذي كان فيه نوابه (أوصاله) يستقرون في ولاية الآبروز .

وقد طرد البيزنطيون نهائياً من إيطاليا في نفس الوقت الذي أمكن خلاله

(١) لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٣ ، ص ٤٩ — ٥٠ .

وبصورة تدريجية إجلاء المسلمين عن صقلية ، لا بل فان القوات النورماندية ستقاتل البيزنطيين لتستخلص منهم السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك •
وتمكنت حملة كانت قيادتها قوية وبارعة سواء أكان قائدها روبير غيسكار نفسه أم بمعونة ابنه بوهيموند Bohèmond وخلال سنتين من احتلال مقاطعة إيبيراوس (شمال غربي اليونان) وإيلليريا وأن توالي تقدمها مجتازة جبال آلبانيا ومنطقة تساليا حتى مدينة أوسكود Uskud الواقعة في حوض نهر الفاردار الأعلى وحتى مدينة لاريسّا على بعد عدة مراحل من خليج فولو ، وقد تطورت الحوادث بشكل بعث في نفس الإمبراطور البيزنطي آلكسي كومنين القلق خشية منه على علائق بلاده مع الغرب ، بينما خشيت البندقية من إيغال النورمانديين في زحفهم شرقاً وشمالاً بشرق على عاصمتها لذلك قررت الدولتان البيزنطية والبندقية الاتفاق معاً للصمود في وجه هذا الغازي الجديد •

وبدأت هذه الدولة النورماندية الفتية التي قامت في كل من إيطاليا وصقلية تشعر بقوتها وتطمئن الى هذه القوة الى درجة جعلتها تهدّد جاراتها وتقوم بدورها في السياسة الأوربية[1] •

احتلال النورمانديين لانكلترا : جعل قرب السواحل الإنكليزية بريطانيا العظمى البلاد المنتقاة من قبل الفرسان الهائمين على وجوههم والذين يعودون بأصلهم الى شبه جزيرة نورمانديا الفرنسية • وكانت العلائق بين ساحلي بحر المانش وعلى الدوام كثيرة ومتينة • لا بل فانها زادت وفرة ومتانة بعد حروب توسّع العناصر السكنديناقية التي كانت نتيجتها استقرار عناصر من المحتلين

---

(١) راجع من أجل تفاصيل ذلك : آ ــ كارل غيريمبرغ : مجموعة مارابوط للتاريخ العالمي المذكورة ، المجلد ٤ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٩ •

ب ــ بريفت أورتون ، مجموعة تاريخ العالم لجوهن هامرتن ، المجلد ٤ ، الفصل ١٠٠ ، ص ٦٩٩ ــ ٧٠٠ ، والمجلد ٥ ، الفصل ١٠٤ ، عنوان المقال : مملكة صقلية في عهد النورمانديين للاستاذ غاردنر ، ص ٤١ ــ ٦١ ولا سيما عن الحضارة •

ج ــ لويس هالفين : مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة : المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٣ ، ص ٤٩ ــ ٥١ •

أو المستعمرين تربط بينها وشائج القربى على كلا الساحلين . كما زادت روابط المصاهرة بين العناصر النورماندية والآنغلوسكسونية تلك العلائق الأسرية متانة . ولم يعجب أحد من مشاهدة واحد من أنسال الفريد العظيم الأواخر ، وهو الملك **إيثاريد** ، يخطب لنفسه في نهاية القرن العاشر ابنه دوق نورمانديا ريتشارد الجيد .

وصارت الحياة السياسية لإنكلترا منذئذ مرتبطة ومتداخلة أكثر من أي وقت مضى في حياة نورمانديا السياسية . وعند وفاة العاهل الدانيمركي كنوت سنة ١٠٣٥ فان الظرف بدا مواتياً للدوق غليوم ابن الخليلة (أو ابن السفاح) ، وهو الذي سيدعى غليوم الفاتح للتدخل في شؤون المملكة المجاورة وذلك من أجل إعادة الأسرة الحاكمة الآنغلوسكسونية في ويسّكس لمصلحة ابن إيثاريد Ethelred وهو إدوار التقي الذي أكسبه تقاه لقب إدوار المُعتَرِف le Confesseur . وبعد أن كان إدوارد هذا قد عاش في بلاط حاضرة نورمانديا ، روان ، منذ سنة ١٠١٣ عندما أمّها أبوه طالباً اللجوء إليها صار هذا الأمير يعتبر بمثابة ضابط من ضباط دوق نورمانديا ، ولوحظ أن إدوار هذا وصل الى الجزيرة البريطانية وبرفقة حاشية كانت بمثابة أعضاء أركان حربه ، وهم من النبلاء ومن أفراد الإكليروس النورمانديين فأخذ يوزع عليهم وبسرعة الإقطاعات والمناصب وألقاب الشرف . ومن المؤكد أن تلك الوسيلة سيئة ولم تكن كفيلة بجعله يكسب ثقة رعاياه الجدد . وقد أثار بعمله هذا معارضة عنيفة ضده من قبل النبلاء الآنغلوسكسونيين ، وخاصة من قبل أحدهم وهو غودوين Godwin وكان قوياً جداً وذا نفوذ . ومن المحتمل أن استمرار الفوضى في إنكلترا لم يكن يبعث استياء الدوق غليوم ، لأن هذه الفوضى لم تلبث أن خدمت أطماعه . وذلك لأن تسلّل أولاد الكثير من الأسر النورماندية الى الأرض الانكليزية واستقرارهم فيها تدريجياً وببطء مدعوين من قبل حاشية الملك إدوار سيكون استهلالاً وتوطئة لعمليات أوسع وذات طابع غير سلمي .

وأخيراً أزفت ساعة العمل سنة ١٠٦٦ لقد مات الملك إدوار في ٦ كانون

الثاني من هذا العام بدون أن يُعقِّب فاستولى هارولد بن غودوين على الحكم • غير أنه حسداً من باقي النبلاء (البارونات) له لوصوله الى الحكم فإن هؤلاء لم يؤيّدوه بقوة•ولم يجد تأييداً قوياً سوى في مقاطعة ويسّكس• وهبّ النبلاء النورمانديون الذين شعروا أنهم أول المهدّدين من جراء تولّيه الحكم ، الى طلب النجدة • فكيف نعجب والحالة ما وصفنا أن يقنع دوق نورمانديا وبسهولة طائفة من نوابه (أوصاله) الأغنياء والفقراء بأن يهبّوا مسرعين بمعيته ليحاولوا الإثراء في بلاد الانكليز ؟ ولم تكن الحال الآن كالحملة على ايطاليا أي القيام بمغامرة في بلاد نائية• وكان التجار النورمانديون من مدينة روان وغيرها من مدن السواحل النورماندية الذين كانوا يرتادون السواحل الانكليزية منذ عدة سنين كثيرا ما حدّثوا مواطنيهم عن سهولة ذلك العبور القصير (لبحر المانش) وان كل فرد منهم كان يعلم مسبقاً بأنه ليس ثمة ضرورة في هذه المرة بأن يكون الاشتراك في الحملة التي يدعوهم الدوق بصفتهم رعاياه الى الانخراط في صفوف مقاتلتها سبباً لمغادرة أحدهم أرض وطنه ومهده بدون التفكير بالعودة اليهما •

أما بالنسبة الى غليوم نفسه فان صدّقنا ادعاءه انه لا يعمل في هذا الظرف إلاّ بوحي من أسباب نقية طاهرة : حيث قدم ليطرد من العرش الطاغية الكافر المغتصب هارولـد الذي استولى عليه ضـد حقـوق الأسرة الحاكمـة الآنغلوسكسونية الذي ادعى أنه خير من يمثلها • وهذا التأكيد هو من نافلة القول اذا ما تذكرنا أنه ابن غير شرعي للدوق روبرت الأول العظيم ، لذا فهو ابن عم غير شرعي وبطريق غير مباشر وبدرجة قربىهي نسبياً بعيدة للملك إدوار • فإدوار المُعَرِّف أي الملك المتوفى هو ابن عمة أبي دوق نورمانديا غليوم • كما أضاف هذا الأخير الى ذلك الادعاء بأنه كان تلقى من قبل وعداً من إدوار المُعَرِّف ومن هارولد نفسه بمنحه عرش إنكلترا [1] •

---

(١) لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٣ ، ص ٥١ ـ ٥٣ . راجع بصورة خاصة شجرة النسب التي توضح درجـة قرابة غليـوم (أو وليم الفاتـح) بإدوار المُعَرِّف في حاشية ص ٥٣ .

وعلاوة عن جميع ما ذكر لم يكن ثمة في هذه الآونة من يستطيع منازعة غليوم جدياً ومنافسته لنيل هذا العرش • إنه أحرز النصر منذ أول اشتباك حدث بينه وبين خصومه في ١٤ تشرين الاول ١٠٦٦ شمالي إقليم هاستينغ Hastings حيث لقي هارولد مصرعه • ثم والى غليوم زحفه على لندن التي استسلم اليه سكانها بدون قتال • وتمّ تتويج غليوم في عيد الميلاد في ويستمنستر ، ثمت احتل بسهولة الكونتيات الواقعة الى شرقي وجنــوب شرقي هذه المدينة •

هذا بينما قام غليوم في أقاليم الغرب والوسط ببعض المناورات وعرض قواته مما كان كافياً لإخضاع التصميم الكاذب الذي أظهره بعض النبلاء الآنغلوسكسون لمقاومته : فلم يكد هذا الفاتح (وهو اللقب الذي صار يطلق على غليوم) يصل على رأس قواته أمام اسوار إكسيتير Exeter في آذار ١٠٦٨ حتى تمّ له إخضاع اقليم دوڤونشاير ، لا بل وبعد عدة أشهر من هذا التاريخ فان مجرد ذيوع قدومه الى منطقة وارويك Warwick قد أدى الى استسلام أقاليم وارويك وليسستر ونوثينغهــام • أما بالنسبة الى شمالي البلاد حيث وجد الملوك الآنغلوسكسون صعوبة في بسط سلطانهم على تلك الرحاب فإن مهمة غليوم كانت أشقّ ، حيث قاوم النبلاء حكام إقليم نورثمبرلاند غليوم وصمدوا في وجهه كما استنجدوا بالأمير سفند ابن أخي الملك كنوت ووريثه على عرش الدانيمرك • وقد بعث اليهم سفند في آب ١٠٦٩ أسطولاً كبيراً لنجدتهم بقيادة أخيه وابنيه الكبيرين • وقد سقطت يورك التي اعترفت بتبعيتها الى غليوم بأيديهم • وأدى انتشار خبر هذا الانتصار الى نشوب ثورات في عدد من المقاطعات تلك الثورات التي أقلقت الجيوش النورماندية• لكن غليوم أجاب على ذلك بعنف وقوة فحاصر بعض المدن التي اضطرت الى الاستسلام له • وأخيراً فان الدانيمركيين الذين لوحقوا وحوصروا عند مصب نهر الهمبر أبحروا مسرعين وعائدين على سفنهم في صيف ١٠٧٠ •

أورد الأستاذ پريڤت أورتون لمحة عن حياة غليوم الفاتح (أو وليم) كما ذكر الأسس التي أقام عليها نظام حكمه لإنكلترا بعد أن أتمّت قواته

احتلالها فذكر بصدد كل ذلك ما نصه «كان وليم الفاتح ـ كما سمّي فيما بعد ـ يمثّل الشخصية النورمندية الى آخر حدودها حتى ليبدو أنه كان على النقيض منها وأنه كان ذا صفات شاذّة ، وذلك أنه كان يتمتع بصفات جنسه القوية في أكمل صورة لها . فقد كان طويلاً ضخماً بارعاً وقنّاصاً لا يدركه التعب ، فمكنته قوته البدنية هذه من اقامة حكومة شخصية بكلّ ما في الكلمة من معنى ، ومن التمتع بالرحلات الدائمة بوصفه ملكاً من ملوك العصور الوسطى يتنقل من مقاطعة الى مقاطعة ليستهلك إنتاجها ويحتفظ بإنتاجه هو . وكان وليم يتمتع الى جانب ذلك بقدرة حقيقية على القيادة ، وهي صفة من أندر الصفات في أيامه . ودليل ذلك تحركاته الحربية البارعة في هيستنجز Hastings (وتلفظ بالفرنسية هاستينغ) وڤارڤيل وفنّه في تدبير الخطط الذي يستحق أن يذكر مع تحركاته على قدم المساواة والذي تبدّى في خطة عزله للندن . ومما هو جدير بالذكر حقاً مهارته الدبلوماسية التي استطاع أن يكسب بها مباركة البابا لهجومه على انكلترا والتي جعلت ما قام به من اعتداء لا مبرّر له يبدو وكأنه حرب مقدسة .

« إن أعظم صفاته كانت قوة إرادته الخارقة وقدرته العجيبة على تنظيم وإدارة الأعمال . وقد قال في ذلك مؤرخ أخباري سكسوني « لا بد أن يريد الناس كل ما يراه الملك إذا أرادوا أن يعيشوا أو يحتفظوا بأراضيهم أو أملاكهم أو امتيازاتهم » . كذلك كان وليم . « صارماً غضوباً جداً » وقاسياً في الحقيقة لا يرحم أبداً . مصداق ذلك ما فعله بيوركشاير حين قاومته . فقد نظم تدميرها وتخريبها حتى جعلها صحراء هامـــدة . أما عن قدرته في إدارة الأعمال فيكفينا أن نشير الى أنه نظم حملة فتح إنكلترا وأعاد توزيع أراضيها وتنظيم حكومتها كما نجح فيما لم ينجح فيه أحد من قبل ، وهو مسح أراضي انكلترا وتسجيلها في سجل عرف « بكتاب يوم الحشر Domesday Book » .

« وقد استغرق فتح انكلترا الذي بدأ في هيستنجز عام ١٠٦٦ حوالي خمس سنوات حتى تمّ ، أما عملية إعادة تنظيم المملكة فقد استغرقت وقتاً أطول ، ولم تنته إلا بوضع « كتاب يوم الحشر » عام ١٠٨٦ إذ كانت انتهت حينئذ ... » .

وبعد أن تحدّث المؤلف عن هجرة النورمانديين والمغامرين الفرنسيين للمقام في انكلترا تطرّق الى بحث اعادة تنظيم الكنيسة الإنكليزية على يد رجال الدين الفرنسيين المتحمسين فقال ما يلي : « وكان ذلك أبرز ما يكون في الكنيسة ، فان جماعة من رجال الدين الفرنسيين المتحمسين المسارعين للعمل ، على رأسها لانفرانك اللمباردي كبير أساقفة كنتربري الجديد جاءت لتعيد اليها نظامها وتزيد كفاءتها وتدخل اليها شيئاً جديداً من الفن والتفكير . كذلك بدأ البناء بحماسة ، ونقل النورمنديون الى انكلترا الطراز الرومنسي Romanesque السائد بنوافذه الصغيرة وعقوده المستديرة وأعمدته الضخمة . وأخذوا يملؤون البلاد بالكاتدرائيات والأديرة والكنائس من هذا الطراز متخذين لها كثيراً من أفكار الزخرفة الإنكليزية التي تصادفهم . وقد أنشؤوا محاكم دينية منفصلة ، على غرار النظام النورماندي ــ ربما بدت شيئاً من المساوىء في الأزمنة التالية ــ ولكنها كانت تعني في ذلك الوقت إدخال نظام أحسن للحكم في بعض القضايا وإدخال مثال عملي للمحاكمة المستندة الى الدليل والقانون .

« وكان وليم ينوي قطعاً أن يحكم إنكلترا كما يحكمها ملوكها الأصليون وكأنه خلف لهم فرفض أن يكون تابعاً للبابا حين استحثه على ذلك ، لأن أحداً من الملوك الإنكليز السابقين لم يفعل ذلك . كذلك لم يكن في نيته أن يقضي على الاستقلال الذي وجده أو على الحكومة القائمة ، وإنما يقصد التجديد حقاً فأبقى على النظم الأصلية التي كانت تسير سيراً دقيقاً وتزيد من قدرة الحكومة وقوة العرش وخاصة اذا كان لها ما يقابلها في النظم النورماندية التي خبرها ... »

وبعد أن بحث المؤلف إدخال وليم نظام الإقطاع الى إنكلترا وأورد أثر هذا النظام في ترسيخ سلطته الملكية تابع كلامه قائلا : « لذلك أدخل وليم النظام الإقطاعي الصارم الذي عرف في نورمنديا أنه عامل هام لاكتمال سلطته الدوقية بما فيه من نظام اقطاع الأرض والخدمة العسكرية .

« وهكذا أصبح الملك هو الذي يملك جميع الأراضي في إنكلترا حتى أراضي الكنيسة

التي لم تصادر . فكانت الأراضي الصالحة للزراعة والتي لا تدخل ضمن ضياع الملك الخاصة ، تمنح للناس على أساس نظام التبعية الاقطاعي أي في مقابل الواجبات والمسؤوليات التيرأيناها في نورمنديا. وبذلك أصبح عدد الفرسان الذين يؤدّون الخدمة العسكرية للملك من البارونات ومن الكنيسة معاً ، حوالي خمسة آلاف فارس . ولما كان التابع الإقطاعي يدين بالولاء للملك أولاً ، وكان حقيقة يقرّ بهذا الواجب شخصياً بتأدية « يمين سالسبري » الشهير ، فقد زاد مركز الملك قوة حيثما ساد قانون الإقطاع . كذلك ساعدته ضياعه الخاصة الشاسعة التي كانت موزّعة توزيعاً جيداً على أن يؤدي واجباته القضائية ... كما أننا نجد سمة أخرى من سمات التنظيم الذي وضعه وليم أنه قضى على الأقاليم الإقطاعية الكبيرة ولم يمنح أحداً اقطاعات كبيرة إلا على الحدود مثل حدود ويلز . كذلك وزّع الأراضي على معظم البارونات توزيعاً مشتتاً بحيث لا يمكنهم أن يجمعوا شملهم للثورة في وجهه ... »[1] .

وقد أمكن منذ ذاك القول بأن احتلال إنكلترا قد أنجز . غير أن غليوم لم ينتظر حتى هذه الفترة ليضفي على الاستعمار النورماندي الذي كان قد تقدم كثيراً في عهد إدوار طابعاً جديداً وليجعله أنشط من ذي قبل . فلم يكن ثمة ولاية إنكليزية إلا وصادرت فيها قوات الاحتلال الاراضي لتعمد الى توزيعها على النبلاء النورمانديين الكبار منهم والصغار وحتى على الفرسان الذين لا يتمتعون بأية أهمية . وقد نقل الملك النورماندي وبصورة غريزية النظام الاقطاعي كما كان سائداً في بلاده الاصلية الى انكلترا حيث أمكنه في غضون فترة قصيرة إعداد الأطر القوية لنوابه على حكم المقاطعات (أوصاله) الذين انتقاهم بصورة عامة من بين مواطنيه الشديدي الاخلاص والتعلّق بسياسته .

وسرعان ما آتت هذه السياسة أكلها ، وبينما لم يكن مفهوما الإقطاع وحكمه من قبل نائب السيد أو الوصل مقترنين ببعضهما بصورة محكمة قوية

(١) بريفت أورتون : مجموعة تاريخ العالم : جون هامرتن ؛ المجلد ٤ ؛ الفصل ١٠٠ ؛ ص ٦٩٥ ــ ٦٩٧ .

في بريطانيا العظمى في عهد إدوار المُعَرِّف ، وأن نظام إدارة الأراضي la tenure (وليس لهذا النظام علاقة متينة بنظام الاقطاع) بقي معمولاً به وبنسبة كبيرة علماً أنه نظام مستقل عن منح الإقطاع ليستثمر الى وصل أو نائب عن صاحب هذا الإقطاع ، وقد لوحظ أنه عندما أجريت عملية تحديد (Cadastre) عامة لأراضي المملكة وذلك سنة ١٠٨٥ لم يبد أمام أعين الضباط المكلفين بإجراء التحقيق التمهيدي لا مدير للإقطاع (النائب أو الوصل) ولا إقطاع ، إنما وجدوا كما سيقول المشرّعون الفرنسيون فيما بعد أرضاً بدون سيّد باستثناء الارض التي احتلّها العاهل نفسه . وقد وجدت من ناحية أخرى إقطاعات علمانية (أي أصحابها من غير رجال الدين) واقطاعات إكليريكية (تعود الى رجال الإكليروس) وبأعداد كبيرة بأيدي النبلاء الذين هاجروا من فرنسا ، وذلك لأن القليلين من البارونات النورمانديين قاوموا الإغراء بعبور بحر المانش ليحصلوا في الأرض الإنكليزية على فائض زائد كبير من القوة ومن الثروة، وقد منح بعضهم كونتيات كبرى ككونتيات كنت Kent وكورنويل وسوّريه Surrey وغيرها . وقد منح أكبر عدد ممكن من النبلاء النورمانديين إقطاعات أقل أهمية ، ومنح بعضهم قطعاً بسيطة من الأراضي الأميرية (الدومين أي أملاك الدولة) ، لكن سواء أكانت تلك الاقطاعات الممنوحة هامة أم غير هامة فانها كانت كافية لحمل ذلك العدد من النبلاء النورمانديين على الاستقرار في انكلترا التي صارت تعتبر منذ ذاك ، وهنا الشيء الجديد ، امتداداً لأوروبة الغربية .

التوسع الاقطاعي في شبه جزيرة إيبريا : بعد أن اضطر المسلمون المستقرون في صقلية ، وتحت وطأة الضربات التي تعرضوا لها على يد النورمانديين ، مما كنا قد تعرضنا له في القسم الأول من هذا الفصل ، الى النزوح عن تلك الجزيرة التي كانت تدعى درّة أو لؤلؤة البحر الأبيض المتوسط فانهم اضطروا بعيد ذلك الى خوض نضال شاق ومرير وطويل آخر في إسپانيا أدّى في فصله الختامي الى تقلّص الحكم العربي الاسلامي من شبه جزيرة إيبريا ثم الى إجلاء هؤلاء العرب المسلمين عن تلك البقاع في النهاية.

وكان المسلمون من عرب وبربر قد اضطرهم الأمراء الكارولنجيون

الى النّزوح عمـا بقي بأيديهم من أقاليم غاليا بعـد معركة بلاط الشهداء ومـع ذلك فقد رسخت سلطتهم في إسپانيا وتوطـدّت دعائمها • وقد حمل الأمير الأموي عبد الرحمن الثالث ومنذ سنة ٩٢٩ لقب الخلافة معيداً توحيد جميع بقاع شبه جزيرة إيبريا التي اعتنقت الإسلام قاطعاً بعمله آخر صلة مهما كانت واهية كانت تشدّ هذا البلد المسلم الى الخلافـة العباسية في بغداد ، إنه أتاح بعمله هذا إقامة دولة قوية حول حاضرته قرطبة نعمت بعصرها الذهبي في حوالي منتصف القرن العاشر • وقد استولى أمويّـو الأندلس وفي الفترة ما بين ٩٣١ ـ ٩٧٤ على أقاليم المغرب العربي التي كانت من قبل خاضعة للحكم الفاطمي •

ولم يلبث هؤلاء الأمويون أن تحولوا نحو الشمال للاشتباك بجيوب المقاومة المسيحية التي كانت ما تزال في شمال وشمال غربي شبه جزيرة إيبريا فأمكنهم احتلال برشلونة سنة ٩٨٦ ؛ كما وصلت قوات المسلمين حوالي منتصف القرن الحادي عشر الى قلب اقليم قطالونيا حيث بدؤوا يهددون مجدّداً باجتياز حدود جبال الپيرينيه (البرانس) الفاصلة بين إسپانيا وفرنسا •

وقد واكبت تلك الانتصارات البرية أيضاً انتصارات بحرية لعل أهمها احتلال جزيرة سردينية وغارات قاموا بها على موانيء وجزر كثيرة في تلك المياه لعل أهمها غزو پيزا Pise في ايطاليا (في سنتي ١٠٠٥ و ١٠١٦) وغزو ناربونة سنة ١٠٢٠ •

ووضح لأوروپة الغربية منذ مطلع القرن الحادي عشر وتبعاً لذلك خطر **هجوم إسلامي ثانٍ** على الدول المسيحية في غربي أوروپة • هذا ولو أن الانقسامات الداخلية التي كرثت دولة أمويي الأندلس حالت بين المسلمين وبين أن يجنوا أية فائدة مما حصلوا عليه من انتصارات مؤزّرة • ولازدياد عدد الثورات الداخلية في صميم الخلافة الأموية فان صرحها السامق في الجوّ لم يلبث أن انهار فقامت على أنقاضها إمارات أو دويلات ، أو بحسب تعبير العصر « **دول طوائف الملوك** » • ولم يبق في عهد التجزئة هذا من قوة كفيلة باستئناف المدّ العربي الإسلامي على أوروپة الغربية إلا لدولة سرقسطة وذلك في ظل أميرها المقتدر (وقد حكم بين سنتي ١٠٣٩ ـ ١٠٨١) التي تمكنت من

ضم عدد من الإمارات الإسلامية نخصّ بالذكر منها **العريضة وهويسكا** ••• ومهما يكن فان خلافة أمويي الأندلس التي ضعفت بفعل تجزئتها لم تعد تبدي نفس المقاومة التي كانت تبديها في ظل الخلفاء الأمويين الأوائل في الأندلس •

وجدت دول أوروبة الغربية المسيحية الظرف مواتياً لتحاول النصرانية استرداد تلك البقاع التي كان العرب والبربر المسلمون قد انتزعوها منها • وقد وقع العبء الأكبر من هذه المهمة على عاتق الفرسان النبلاء الاقطاعيين في فرنسا وفي غيرها وفي ظلّ تشجيع الأحبار العظام حيث كان ثمة ما يشبه حملة صليبية[1] •

وعلى الرغم من أن عمل الفرسان الفرنسيين في إسپانيا لم يؤدّ الى نتائج سياسة حاسمة فانه تمكن مقارنته بجهد النبلاء النورمانديين في انكلترا وايطاليا وصقلية ، هذا فضلا عن اتخاذه وبصورة أوضح من صقلية طابع الحرب المقدسة (الصليبية) التي دعت اليها الكنيسة ضد المسلمين •

ولم يكن ثمة حتى سنة ١٠٦٤ سوى محاولات إفرادية قامت بها بعض مجموعات من الفرسان الذين قدموا الى إسپانيا عارضين خدماتهم وسيوفهم على بعض عواهل الملكيات المسيحية الصغيرة التي بقيت في شمال غربي شبه الجزيرة أو في المناطق الواقعة على سفوح جبال البيرينيه والتي بدأ انهيار الخلافة الأموية في قرطبة يظهرها بعد أن كانت تعيش في الظل منعزلة منطوية على نفسها• وقد بدأ مسيحيو إسپانيا الذين بقوا طوال مدة طويلة محصورين ومتكتّلين في جبال البيرينيه وفي جبال كاتابريك يتقدون حماساً منذ مطلع القرن الحادي عشر •وحدت بهم الفوضى التي انتشرت بين صفوف جيرانهم المسلمين الى تنظيم شؤونهم وتجمّعهم تحت راية رؤساء أو قادة جريئين وأن يحققّوا ، ولو من أجل كيانهم ووضعهم السابق بعض النجاح والتقدم في

---

(١) ارجع الى تفصيل ذلك في : أوغوستان فليش : مجموعة تاريخ العصور الوسطى لفوستاف غلوتز المذكورة ؛ المجلد ٢ ؛ القسم ٢ ؛ الفصل ٨ ص ٥٤٨ — ٥٤٩ •

مناطق سكناهم في الشمال الغربي حيث لم يتمكن المسلمون منذ فتحهم إسپانيا من بلوغ داخل تلك المناطق • ثم تطوّر هذا النجاح وتوسّع بشكل ملحوظ وذي دلالة • وبدأ هؤلاء المسيحيون زحفهم وتوغّلهم من تخوم مدينة ليون الصغرى القائمة عند سفح جبال كانتابريك ، ومن مدينة بورغوس Burgos الواقعة الى الشمال الشرقي من هضبة قشتالة القديمة ، باتجاه حوض نهر الدورو Duro لا بل كان ملك قشتالة فرديناند/١ والذي تخضع له في الوقت نفسه كل من مناطق قشتالة وليون وآستوريا وغاليسيا ، قد نجح منذ سنة ١٠٥٥ في تَخطّي المجرى الأدنى لهذا النهر ولمسافة كبيرة وأن يضم الى منطقته في سنة ١٠٦٤ إقليم ومدينة كوايمبر (وهي في البرتغال) •

هذا بينما كان السكان في مناطق سفوح جبال الپيرينيه ، والذين كان المسلمون يحدقون بهم من كل جانب ويجبرونهم على أن يخلدوا الى السكينة، يوالون الاستعداد لانطلاقهم • علماً أن سكان منطقة النافار الواقعة الى غربهم قد نجحوا وبقيادة ملكهم سانش العظيم Sanche le Grande (وقد حكم بين سنتي ١٠٠٠ وحوالي ١٠٣٥) في شق طريق لأنفسهم باتجاه حوض نهر إيبرو l'Ebre الذي تمكنوا من عبوره • ولم تحل وفاة عاهلهم المذكور دون موالاة زحفهم سنة ١٠٤٥ واحتلال مدينة كلاهورا • وبما أن المسيحيين المقيمين في المناطق الجبلية الواقعة في وسط شبه الجزيرة والمستقرين في الوديان العليا لمنطقة الآراغون وغيرها لم ينجحوا في اختراق النطاق الذي ضربه المسلمون حولهم فانهم حاولوا في ظل ملكهم رامير الأول (١٠٣٥ ــ ١٠٦٣) أن يجدوا مخرجاً في أقصى مناطقهم الشرقية حيث انحدروا ببطء مع مجرى نهر سينكا حتى دخوله في السهل • أما المسيحيون القاطنون في أقصى الطرف الشرقي من جبال الپيرينيه ، أي في المنطقة التي كانت تدعى أيام الكارولنجيين ولاية الحدود الإسبانية فقد بدؤوا زحفهم بقيادة كونت برشلونة (الذي حكم بين سنتي ١٠٣٥ ــ ١٠٧٦) على طول المنطقة الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط باتجاه تارّاغونة Tarragone ، كما زحفوا في الوقت نفسه بواسطة الوادي الأعلى لنهر سيغر Segre باتجاه بالاغير Balaguer والعريضة

Lérida البعيدة[1] .

وغالباً ما قبل مسيحيو هذه المناطق ولا سيما المستقرين في مناطق جبال البيرينيه ، وفي مناسبات شتى دعم الفرسان الفرنسيين وشد أزرهم في مجابهة المسلمين ، لا بل فانهم كثيراً ما التمسوا هذا الدعم بأنفسهم . وعلى العموم كان مسيحيو شبه جزيرة إيبريا عناصر جبلية قوية الشكيمة شديدة المراس ، وذلك باستثناء المناطق الواقعة بجوار جيرونة وبرشلونة . وكان هؤلاء المسيحيون أكثر استخداماً للفأس (البلطات) في القتال من استخـدام السيف والرمح . وكان أن اعتبروا أنفسهم سعداء أن وجدوا بين صفوف النبلاء الاقطاعيين في فرنسا حلفاء لهم (لاستخدام هؤلاء السيف والرمح في معاركهم) لم يساوموهم ولم يطلبوا أي ثمن لخدماتهم سوى نيل حصتهم من الأسلاب والغنائم أو حصتهم من المناطق التي ستستخلص من المسلمين في حال نجاحهم في إجلاء هؤلاء عنها .

وقد وصل إسپانيا سنة ١٠٨١ نبيل نورماندي عاديّ الأهمية هو روجير دو توسني Roger de Tosny ، كما وصل بعيد ذلك جماعة من الفرسان البورغونديين للاشتراك في القتال الدائر في قاطالونيا بقيادة كونت برشلونة المذكور . كما وصل البلاد سنة ١٠٢٧ دوق غاسكونيا سانش غليوم على رأس عدد كبير من فرسان مقاطعته لدعم جهود ملك الناڤار ضد قوات أمير سرقسطة المسلم .

وفضلاً عن أن تلبية حبّ القيام بالمغامرة والحصول على الربح المـادي (الأسلاب والغنائم والتعويضات من الأمراء المسيحيين الإيبريّين) كانا من الأسباب الجوهرية التي حملت النبلاء والفرسان الفرنسيين على أن يهبّوا الى قتال المسلمين في إسپانيا الى جانب إخوانهم مسيحيّيها ، فان هؤلاء النبلاء والفرسان كانوا يرجون المغفرة التي ستكون من نصيب المشتركين في تلك الحرب المقدسة التي سيخوضونها ضد أعداء الديانة المسيحية . ولم تحجم

---

(١) راجع تفصيل ذلك في : لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد ٦ ؛ القسم ١ ؛ الفصل ٣ ؛ ص ٥٥ — ٥٧ .

الكنيسة عن استخدام نشاط هؤلاء النبلاء الزائد وفعاليتهم وتسخيرهما لخدمة قضية عزيزةعليها فعمدتبواسطة رهبان الأديرةالكلونية ثم بواسطة البابوات الذين تبنّوا آراء أولئكالرهبان، الىتشجيع وتنمية هذا الاملفينفوس أولئك النبلاء واتباعهم بنوال المغفرة • وقد أوضح البابا الاسكندر الثاني سنة ١٠٦٣ الأهمية التي يعلّقها علىتدخّل فرسان أوروبة الغربيةفيإسپانيا بمنحةالغفران الى كل من سيقاتل المسلمين في تلك البلاد • وكان أن عبرت شعاب جبال البيرنيه اليها مجموعات غير منسجمة ولا متجانسة من الفرسان النورمانديين والبورغونـديين والبروڤانسيين واللانغدوكيين وخاصـة من الغاسكونيين والآكيتانيين فوصلها بعضهم بقيادة دوق آكيتانيا وغاسكونيا (غي جيوفروا Gui - Geoffroi) • وعبر بعضهم تلك الجبال من شرقها ولربما وصل هؤلاء الى اسپانيا بقيادة فارس مغامر نورماندي شهير هو غليوم من مدينة مونتري الذي بعد ان برهن عن شجاعة فائقة في خوض المعارك التي دارت جنوبي ايطاليا ، دخل أو كان وشيك الدخول في خدمة البابا • وقد ردّت تلك المجموعات التي وصلت الى اسبانيا المسلمين الى سهل سينكا Cinca ثم حاصرت مدينة بارباسترو الصغيرة ودخلتها بعد شهر مستولية على غنائم لا حصر لها (وذلك في آب ١٠٦٤) •

وقد أنيطت حراسة هذا الموقع بنبيل بسيط من نورمانديا السفلى هو روبير كريبان R. Crépin فاسترده المسلمون بسرعة (في نيسان ١٠٦٥) ، وبقي الكثيرون من الفرسان الذين وصلوا اسپانيا والذين أحرزوا بعض الانتصارات على المسلمين مقيمين فيها وأخذوا يحاولون التأثير على أقاربهم وأصدقائهم ليوافوهم اليها • ويعود الى هذه الفترة توافد جماعات البيارنيه (وهم سكان سفوح جبال البيرنيه في فرنسا) الى اسپانيا منضمين الى قوات كل من مقاطعتي الآراغون والناڤار التي لم تكفّ عن قتال المسلمين جنوبي المنحدرات الوسطى من جبال البيرنيه • ثمت دُعِمَت هذه القوات سنة ١٠٧٣ بجيش من فرنسيّي الشمال وصل الى البلاد بقيادة كونت مقاطعـة روسي وكان قد صار منذ عدة سنين حَمَاًالملك آراغون • ولم تكتف البابوية

في هذه المرة بتحبيذ المشروع وإطراء المشتركين فيه إنما دعت وبلسان الحبر الأعظم غريغور/٧ الأمراء المسيحيين الى دعمه بقواتهم ، مع طلبها المسبق بالسيادة على جميع الأقاليم التي ستسترد من المسلمين .

ولم يكن ما قامت به الدعاية البابوية نشداناً الى الحفاظ على نشاط النبلاء الفرنسيين بالشيء القليل وذلك لأن القتال في شعاب البيرينيه مهمته جحود وغير مدرّة للربح ، وهو أشد قوة وعنفاً مما كان عليه القتال في سهول انكلترا الواسعة أو على سفوح جبـال الآپناين في ايطاليا . أو منحدرات جبل إتنا Etna في صقلية .

لقد ردّ الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور نجاح تلك الدعوة الصليبية لاستخلاص اسپانيا من أيدي المسلمين الى عاملين اثنين : أولهما هو انحلال النفوذ السياسي للمسلمين في الأندلس في أوائل القرن الحادي عشر. أما العامل الثاني الثاني فهو دخول منطقة غربي أوروپة مرحلة جديدة من مراحل تاريخها هي مرحلة اليقظة والإفاقة التي بدأت منذ القرن الحادي عشر فقال بصدد كل ذلك مثبتاً آراء كل من الأساتذة دوزي Dozy وإيّر Eyre وباركر وپاتنير Painter ، ما يلي : « ثم كان أن أخذت عوامل الضعف تسري حثيثاً في جسم خلافة قرطبة منذ أوائل القرن الحادي عشر ، حتى ان وفاة الملك المنصور (وهو الحاجب) سنة ١٠٠٢ تعتبر نهاية المرحلة التي وصلت فيها تلك الخلافة أقصى درجات عظمتها وقوتها ، بحيث لم تنته سنة ١٠٣١ إلا كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت فعلاً » .

وبعد أن أشار المؤلف الى أن تدهور النفوذ السياسي للخلافة الأموية في الأندلس لا يعني تدهور حضارة العرب في ذلك القطر في الفترة ذاتها فانه والى حديثه قائلا : « أما الأمر الثاني فهو أنه في الوقت الذي أخذ الانحلال السياسي يدبّ في جسم الدولة الاسلامية بالأندلس ، دخل غرب أوروپة مرحلة جديدة من مراحل تاريخه ، وهي مرحلة اليقظة والإفاقة التي بدأت منذ القرن الحادي عشر بعد أن انكشفت غمّة العصور المظلمة وزالت معظم الأخطار العديدة التي ظلت تهدد الغرب الأوروپي طوال الشطر الأول من العصور

الوسطى ، وبدأت تنفتح أمام الغرب آفاق جديدة بدت واضحة في النشاط الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي والتنظيم السياسي • وبعبارة أخرى فان الغرب الأوروبي أخذ ينهض من سباته في الوقت نفسه الذي بدأت دولة المسلمين في اسبانيا تتعرض للانحلال والتفكك مما أتاح الفرصة أمام المسيحية الغربية لاسترداد هذا الجزء الضائع من صميم الوطن الغربي •

« وقد ظهر اتجاه يرمي الى حثّ نبلاء فرنسا على محاربة المسلمين بالأندلس منذ أوائل القرن الحادي عشر عندما تبنّى هذا الاتجاه أحد الرهبان الكلونيين • وفي ذلك الوقت كانت الكنيسة تسعى جاهدة لوقف الحروب بين الأمراء وإقرار السلام فلم تجد وسيلة خيراً من أن توجّههم نحو حرب المسلمين ؛ في حين رأى رهبان الأديرة الكلونية في ذلك فرصة طيبة لنشر نظامهم الديري في إسپانيا وتدعيمه مادياً ومعنوياً • وكان أن صادفت هذه الدعوة قبولاً في نفوس كثير من الأمراء المغامرين ، فنزح بعضهم الى إسپانيا سنة ١٠١٨ ومعهم أتباعهم لحرب المسلمين • وفي سنة ١٠٣٣ توجهت الى إسپانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء بورغونديا • ثم تكرّر تدفق هذه الجموع الصليبية على إسپانيا سنة ١٠٦٣ وسنة ١٠٧٣ حتى كانت سنة ١٠٨٥ وهي السنة التي شهدت وصول قوة ضخمة الى إسپانيا بزعامة بعض الأمراء البورغونديين وكونت طولوز •

« ومن الواضح أن المسلمين في الأندلس لم يستطيعوا مطلقاً في وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه الجزيرة ، وإنما ظلت بعض الجهات ــ وبخاصة في الشمال ــ خارجة عن النفوذ الإسلامي فقامت بها دويلات مسيحية مستقلة • وفي الوقت الذي سقطت الخلافة الأموية في قرطبة كانت هناك أربع دويلات مسيحية في شمال إسپانيا ، هي مملكة ليون ومملكة ناڤارى (نواره) وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة • وكانت الزعامة في أواخر القرن العاشر وأوائل الحادي عشر بين هذه الدويلات المسيحية في إسپانيا لمملكة ناڤارى الذي أخذ ملكها سانشو Sancho (شانجة) ٩٧٠ ــ ١٠٣٥ يوَجّه جهوده ضد جيرانه المسيحيين بدلاً من المسلمين حتى

اتخذ لقب إمبراطور واستطاع قبل وفاته أن يسيطر على جميع إسپانيا المسيحية ما عدا المارك الإسباني (أي ولاية الحدود أو الثغور الإسپانية التي أوجدها شرلمان) ... » [1] .

ونظراً لأنه لم يكن بوسع الفرسان الأوروپيين (الذين كما ذكرنا وصلوا الى ربوع اسبانيا لشد أزر سكانها المسيحيين في إجلاء المسلمين عن ربوعها) القتال بشكل صفوف عريضة فإن مركزهم في الاشتباك بالعدو لم يكن متكافئاً لأنهم يشتبكون بعدو سريع الحركة ومعتاد على نصب الكمائن والذي نجح في أن يحبط وبسهولة خطة القتال التي وضعها الرؤساء الإقطاعيون . وقصد هذه البلاد سنة ١٠٧٨ جيش جديد من البورغونديين قاده دوقهم هوغ/١ بنفسه ، ويبدو أن هذا الجيش أوقف في منطقة سوبراب Sobrabe العليا ولم يتمكن من موالاة طريقه . لذلك كله فإن الفرسان الفرنسيين غدو أميل الى تركيز القسم الرئيسي من جهودهم في المنطقة الغربية . وقد آثروا الاشتراك في القتال الى جانب ملك قشتالة لا سيما وكانت قواته تخوض المعارك في أرض مكشوفة مما يساعد على القيام بغارات كبرى أو القيام بالمناوشات التي كثيراً ما لجأ إليها نبلاء أو قادة قوات الفريقيين (من المسلمين والمسيحيين الإسبان) .

وتمكن عاهل قشتالة فرديناند/٢ من الوصول في سنة ١٠٦٥ وأثناء غارة من هذا النوع وبجرأة تكاد تكون من التهوّر الجنوني الى الطرف الآخر من شبه الجزيرة الى أسوار مدينة بلنسية التي احتلها . وبديهي أنه سيضطر وشيكا الى الجلاء عنها وأن يعود الى اجتياز اسپانيا من طرف الى آخر . ثمت فان وفاة هذا العاهل والصعاب الداخلية التي أثارتها هذه الوفاة بين أولاده الثلاثة سانش الثاني وألفونسو/٦ وغراسيا فكل ذلك حمل القشتاليين على التريّث فترة طويلة . وبعد أن جمع ألفونسو/٦ في النهاية كل تركة أبيه بين يديه فانه عمد ومنذ سنة ١٠٧٢ الى استئناف القتال .

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ؛ أوربا العصور الوسطى ؛ المرجع المذكور ؛ ج ١ ؛ التاريخ السياسي ؛ الباب ١٩ ؛ ص ٥٥٩ — ٥٦١ .

وأخذ الفرسان الفرنسيون يصلون مجدداً الى المناطق الواقعة جنوبي جبال البيرينيه وهم توّاقون الى الاشتراك في حرب أظهرت معاركها الاولى أنها ستكون مُدِرّةً للربح وتُمكّن المشتركين فيها من الحصول على مغانم وفيرة • وكانت جمهرة الفرسان الوافدين في هذه المرة من البورغونديين الذين حملهم زواج ألفونسو/٦ ملك قشتالة بابنة دوقهم على المبادرة مسرعين الى نجدة صهرهم • ومصداق أن تلك الحرب ستكون مُدِرّة للربح بالنسبة الى المشتركين فيها ، أن ألفونسو/٦ تمكّن في ٢٥ مايس ١٠٨٥ ، ولو في الحقيقة بعد حصار دام عامين من احتلال مدينة طليطلة وجميع بلدان إقليم قشتالة الواقعة بين نهري الدورو والتاجة • وبلغت الهزة التي أحدثتها تلك الانتصارات في صفوف المسلمين درجة من العنف جعلت مقاومة الامراء حكام جميع المدن تنهار • وبعد أن كسرت حدّة مقاومة المسلمين أطبقت عليهم جيوش المسيحيين من كل جانب فلم تعد قوات قشتالة هي القائمة وحدها بعبء الاشتباك بالمسلمين انما دعمتها قوات كل من مقاطعتي الناڤار وآراغون• وبدأت هذه الجيوش المسيحية هجومها المفاجىء وأخذت تغذّ السير لبلوغ حوض نهر الإيبرو • واتجه الناڤاريون والآرغونيون نحو مدينة توديلاّ (على نهر الإيبرو) ، بينما توجّه القشتاليون نحو سرقسطة وتعتبر الى جانب طليطلة من بين العواصم الكبرى لأملاك المسلمين في شمال اسپانيا •

لقد أورد الاستاذ أوغوستان فليش أحداث فترة نصف القرن الواقعة بين سنتي ١٠٣٥–١٠٨٥ أي حتى سقوط طليطلة بيد آلفونسو/٦ فقال مامعناه: « **الصليبية الفرنسية الاولى على اسپانيا (١٠٦٣ – ١٠٦٥)** : لم تشكل وحتى منتصف القرن الحادي عشر حملة صليبية بما تتضمنه هذه الكلمة من معنى • لا بل فانه عند وفاة سانش الكبير (١٠٣٥) هدأت العلائق بين كل من المسلمين والمسيحيين • ثمت فان خليفة سانش في إقليم الناڤار ، وهو غراسيا Gracia ، اقتصر نشاطه على بعض المعارك التي رسّخت جذور حكمه في منطقة الحوض الاعلى لنهر الإيبرو • أما معاصره أمير الآراغون راميرو/١ فسعى الى الحصول وبالمفاوضة مع المسلمين على امتيازات للنصارى في دولتي

سرقسطة وتوديلا ، ومع ذلك ولاسباب لا يمكن أن ترى بوضوح فانه استأنف الهجوم ضد المسلمين بزحفه في سنة ١٠٦٣ على باربسترو . لكنه في الوقت الذي كان فيه يحاصر غرادوس (مايس ١٠٦٣) اغتاله أحد المسلمين.

« أثار هذا الحادث المأساوي اشمئزازاً عميقاً ليس في اسبانيا فقط انما في جميع بقاع غربي أوروبة ، وكانت البابوية أول من استُفِزّ وأُثير لذلك. وقد فكر البابا الإسكندر الثاني بأن ترسل الى اسبانيا حملة غايتها تأخير وقوع الكارثة أو الخطر ، وهو الناجم عن الاغتيال الذي تمّ وقوعه في غرادوس ، الذي لم تكن الحبرية العظمى وحتى الظرف الراهن تُقَدِّر مداه أو أبعاده . واستجابة الى دعوة الحبر الاعظم الروماني فإن غليوم من مونتروي (في فرنسا) جمع حملة في جنوبي ايطاليا ، كما جمع أحد أبناء مقاطعة شامپانيا الفرنسية وهو إيبل دو روسي Eble de Roucy وهو حمو سانشو راميريز Ramirez فرقة من شرقي فرنسا انضم على رأسها الى القوات النورماندية (المحتشدة في جنوبي ايطاليا) ، وأخيراً فإن سكان آكيتانيا انضموا كذلك الى الحملة نفسها وبقيادة دوقهم غي غودفروا الذي عُيِّن قائداً أعلى للقوات الفرنسية الايطالية . وهكذا فإن عالم غربي أوروبة واستجابة منه الى أوامر البابا انقضّ على المسلمين في اسپانيا وبذلك تكون الفكرة الصليبية قد رأت النور .

« وقد نجحت الحملة في البداية وفوق ما كان مُؤمَّلاً لها . وانقضّ الآكيتانيون في ربيع ١٠٦٤ على وادي نهر الإيبرو حيث التقوا بغليوم من مونتروي وحاصروا معه مدينة باربسترو التي تمكنوا من دخولها في نهاية تموز ١٠٦٤ ... (ثم وصف المؤرخ الاعمال الوحشية التي قام بها المهاجمون في المدينة ...) .

« **استيلاء ألفونسو/٦ على طليطلة سنة ١٠٨٥ :** غدت حال المسلمين في السنوات التالية مزعزعة . ومع ذلك فقد بقيت الفكرة القائلة بوجوب تخليص شبه جزيرة إيبريا من حكمهم عالقة في الاذهان . وأدى زواج ملك قشتالة ، آلفونسو/٦ ، من إحدى أخوات هوغ دوق بورغونديا الى ازدياد وصول

النبلاء البورغونديين الذين قادهم هوغ نفسه . أما في آراغون فان سانش راميريز (١٠٦٣ ـــ ١٠٩٤) فانه بعد أن ضم إقليم الناڤار الى مملكته (١٠٧٦) استقطبت فكرة استرداد النصرانية لإسپانيا وإجلاء المسلمين عنهـــا تفكيره وملكت عليه مشاعره فلم يَدَّخر وسعاً في تسهيل تحقيقها ... إنه استأنف القتال سنة ١٠٨٠ ذلك القتال الذي استمرت البابوية في حبرية غريغوار/٧، كما في عهد الإسكندر/٢ تحضّ عليه ، وحيث أوسدت في هذه المرة قيادة القوات الى بطل بارباسترو وهوغي غودفروا دوق آكيتانيا ... وقد ساعد انقسام الامراء المسلمين واختلافهم حول وراثة المقتدر أمير سرقسطة ، وذلك بين سنتي ١٠٨١ ـــ ١٠٨٥ ، المسيحيين الإسپان الذين استمروا يتلقون الدعم والمدد من الآكيتانيين واللانغدوكيين الذين يقودهم ڤيكونت ناربونة وكونتا كركسونة وبيغور مما أدى الى تشبيت تفوّقهم باحتـــلال المناطق المجاورة لبارباسترو وتوديلاّ . كما احتل آلفونسو/٦ وفي الوقت نفسه (مايس ١٠٨٥) طليطلة مُتَوِّجاً بذلك الانتصارات التي أُحرِزت ... »[1] .

الصراع ضد قوات المرابطين في اسبانيا :[2] لقد أسكرت المنتصرين نشوة الظفر فلم يلاحظوا تجمّع العاصفة في الأفق ونذر قرب هبوبها . وعلى حين كانت قوات المسلمين في اسپانيا تهن وتضعف وبدأت بالتراجـــع عن الكثير من الاقاليم التي كانت بحوزتها فإن جماعات من المسلمين المتحمسين خرجت من فيافي الصحراء الكبرى وبدأت باحتلال المغرب (مراكش) . وقد أطلق على هذه الجماعات اسم **المرابطـين** وهم عبارة عن جماعات كانت تعيش عيشة التقشّف زاهدة متنسّكة وكان أفرادها في الأصل منزوين في بعض الزوايا يؤدون فرائضهم ويقومون بأعمال البرّ والإحسان وكانوا يعيشون عـــلى تخوم الصحراء الكبرى في جزيرة تقع في وسط نهر السنغال أو في وســـط نهر النيجر حيث أسسوا فيها وفي منتصف القرن الحادي عشر زاويتهم الدينية

(١) أوغوستان فليش ، مجموعة غلوتز لتاريخ العصور الوسطى ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٥٥٢ ـــ ٥٥٣ .

(٢) راجع تفاصيل ذلك في : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٣ ، ص ٦٠ ـــ ٦٢ .

(أو ملجأهم) ويدعونه الربـاط . وكان شيخهم هو التقي الورع عبد الله ياسين قد هاجر من منطقة منخفض السوس في أقصى الجنوب الغربي مـن مراكش . ثم انضم اليهم جماعات البدو زرافات بالمئات ثم بالآلاف . وبفضل تلك الجموع الغفيرة التي انضمت اليهم فانهم فكروا بالعودة بالإسـلام الى صفائه الأول وتعاليمه الاولى كما كانت في عهد الرسول . ولاعتبارهم أنفسهم جنود الله فانهم أعلنوا الجهاد على المناطق المجاورة حيث كانوا يلقون المواعظ ويستولون على الأسلاب والغنائم . ثم وسّعوا نطاق دائرة نشاطهم باحتلال منطقة تقع في الصحراء المراكشية الى الجنوب الشرقي من جبال أطلس العليا ، وهي منطقة الطفيلة Tafilelt (وذلك في سنة ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦) بالانقضاض الى الشمال منها على مدينة سجلماسة التي اعتبروها بؤرة ووكراً للفسق والاستهتار بأمور الدين فأعملوا فيها سلباً ونهباً وقتلاً ، كما احتلوا منطقة السوس . ولم يلبث شيخهم وزعيمهم ابن ياسين أن حُمّ أجله سنة ١٠٥٩ . ثم اجتاز المرابطون جبال الاطلس بزعامة شيخهم الجديد يوسف بن تاشفين ضامين اليهم مراكش ومخضعين مدن وجـدة وتلمسان ووهران وغيرها من المدن وبلغوا في نهاية المطاف أسوار مدينة الجزائر نفسها سنة ١٠٨٢ .

فهل يرضى المرابطون بانهيار قوات المسلمين تحت وطأة هجمات قوات المسيحية في إسپانيا ، أي على بعد عدة مراحل من طنجة ؟

فبعد أن وصلت أخبار الانتصارات التي أخذت تترى وتتوالى على القوات المسيحية في إسپانيا أصاخ شيخهم يوسف بن تاشفين بسمعه الى من التمسوا منه التدخّل هناك لإيقاف المدّ المسيحي والحيلولة دون انهيار المقاومـة الإسلامية في وجهه . وهذا ما حدا بهذا الزعيم الى إيقاف زحفه المظفر عبر بلاد المغرب والانتقال بقواته الى الاندلس حيث نزل الى البر في الجزيرة في ٣٠ حزيران ١٠٨٦ ولم يتوقف انما بدأ زحفه مباشرة نحو الشمال الغربي . ولربما كان ينوي شنّ الهجوم على قوات قشتالة من خلفها . وعندما تمّ لقاؤه بجيش آلفونسو/٦ في ٢٣ تشرين الاول في سهل زلاّقة فانه أنزل به هزيمة شنعاء وكان ذلك الجيش قد تورّط في أن يهبّ على جناح السرعة

للقاء قوات ابن تاشفين فيما وراء مجرى نهر التاجة •

وبعد أن تبدّد شمل القوات المسيحية وانتثر عقد جماعتها وتراجع فالتّها نحو الشمال وأوشك مسيحيو إسپانيا كلهم أن يُزَجّ بهم في مأزق حرج للغاية لو لم يبادر نبلاء الإقطاع الفرنسيين الى نجدتهم مسرعين مضاعفين جهودهم في هذا المضمار • وقد عبرت سنة ١٠٨٧ جبال الپيرينيه أربعة جيوش فرنسية تمّ جمع مقاتلتها وعلى جناح السرعة من سائر ولايات فرنسا • وتألفت هذه الجيوش من قوات بورغوندية وشامپانية ولانغدوكية ومن پواتييه وليموزان وغاسكونيا ومن نورمانديين وفرسان جزيرة فرنسا لكن هذه القوات على وفرتها كانت مفتقرة الى التجانس والانسجام بنسبة أكثر من القوات التي وصلت الى الربوع الاسپانية سنة ١٠٦٤ ، كما كانت مفتقرة الى الترتيب والنظام وكانت متحمسة جداً وتنشد الاستيلاء على مدينة توديلا ولكن بدون جدوى •

وعلى الرغم من ذلك الفشل لم يتسرّب اليأس الى الفرسان الفرنسيين ولا الى الفرسان الإسبان • وقد نبه في هذه الفترة ذكر البطل القشتالي رودريغودياز Rodrigue Diaz الذي أكسبه النصر الذي أحرزه في إحدى المعارك لقب Compidoctor اللاتيني (أي الخبير في الفنّ العسكري) هذا اللقب الذي نحت في اللغة الاسبانية فغدا **كومبيادور** Compeador والذي انتقل الى الأنسال فيما بعد تحت لقب **السيد**(أو سيدي) ومعناها النبيل ، الذي أطلقه المسلمون عليه وكان كثيراً ما قاتل في صفوفهم كفرد من المرتزقة ••• إنه زحف على مدينة بلنسية واحتلها من المسلمين في ١٥ حزيران ١٠٩٤ بعد أن دام حصارها عشرين شهراً • غير أنه في معظم المعارك التي دارت رحاها في هذه الحقبة كان الفرنسيون والإسبان يشتركون في القتال الى جانب بعضهم بعضاً • فبعد اتفاق الجانبين زحفت جميع تلك القوات ومنذ سنة ١٠٨٨ على هويسكا Huesca التي دخلتها سنة ١٠٩٦ ، وعلى بالاغير Balaguer التي لم يستولوا عليها نهائياً إلا في سنة ١١٠٦ • كما اتفقت تلك القوات على استئناف الغارات على البلاد الاسلامية وحتى المريّة ومرسية • ووصلت هذه

القوات في البرتغال مصب نهر التاجة محتلة في ١٠٩٣ مدنا من بينها مدينة ليشبونـــة •

وزادت أواصر الزواج الوشيجة بين الفرنسيين والإسبان علائقهم متانة حيث تزوج أفراد من أهم الاسر الاقطاعية الفرنسية من الاسر المالكة في شبه جزيرة إيبريا • وكثر كذلك عدد الاسر الفرنسية التي استقر أفرادها فـــي البلدان التي استردت من المسلمين ، من حيث أنه في كل مرة كان يتمّ فيها الاستيلاء على مدينة أو على إقليم من أيدي المسلمين فانه كان يوزّع عـــلى الفرسان الذين شدّوا أزر مسيحيي إسپانيا قطع هامة من الاراضي • ومن قبيل ذلك أن هنري البورغوندي (أخا دوق بورغونديا) تزوج في نهـــاية ١٠٩٤ من ابنة غير شرعية لآلفونسو/٦ اسمها تيريزا ومنح مكافأة له على خدماته كوتنية البرتغال • كما تزوج أمير آخر من الاسرة البورغوندية نفسها واسمه ريموند ، من ابنة ، شرعية في هذه المرة ، لآلفونسو/٦ وتلقى مـــن عاهل قشتالة هذا إمارة واسعة في غاليسيا في البرتغال •

لذلك لا نعجب أنه عندما جلجل صوت الحبر الاعظم أوربان/٢ مدوّياً في مجمع كليرمونت داعياً الى الحرب الصليبية أن يلاحظ أمراء قشتالـــة وآراغون وبرشلونة الاسبان استمرار تدفّق أولئك المتطـــوعة الفرنسيين الممتازين على بلادهم حاملين اليها والى جانب قوتهم وشجاعتهم حضارة غربي أوروپة التي بدأت تتفتّح آنذاك على الارض الفرنسية •

الفصل السادس عشر

أسباب الحروب الصليبية

الحملة الصليبية الأولى واسترداد الصليبيين لبعض بلاد الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط

أسباب الحروب الصليبية : إنــه لمن نافلة القول أن نجد فــي دراستنا لاسباب حروب أضفي عليها طابع ديني أن يكون ثمة سبب أو أسباب دينية لها • وكان ذلك السبب أو الحافز الديني هو تصوير بعض من حجّــوا الاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين سوء أحوال الحجاج المسيحيين الغربيين ومسيحيّي بلاد الشرق الأدنى وما يلقونه مــن عنت واضطهاد السلطــات السلجوقية التركية المسلمة السنيّة أو الفاطمية الشيعية • فهؤلاء وأولئــك كانوا بزعــم الحجاج من غربي أوروبة يسومون المسيحيين سوء العــذاب وينكّلون بهم نكالاً أليما • ثم جاء استنجاد العاهل البيزنطي ألكسي كومنين الذي أوشكت إمبراطوريته أن تنهار وبصورة نهائية لو أجهز السلاجقة عليها غداة معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١ فرسّخ ذلك الحافز أو السبب الديني في تفكير الحبر الاعظم الذي بدأ يفكر جدّياً بحلّ كفيل بوضع حدّ لسيطرة الاسلام على تلك الاماكن •

بيد أنه بمقابل ذلك يجب ألا يسها عن بالنا أنه من المبالغة أن نشير الى أن ذلك الحافز الديني كان السبب الأوحد الذي حدا بالبابوية الى الاستجابة الى طلب النجدة الذي وصلها من الإمبراطور البيزنطي الآنف الذكر • **هذا** على الرغم من أن معظم مؤرخي أوروبة القدامى ومن تأثّر بهم من المؤرخين الحديثين جعلوا الاسباب الدينية الدافع الرئيسي لتلك الحروب •

لقد أغرت الحروب الصليبية في فلسطين وبنسبة أعلى من الحروب في إسپانيا والتي أسهمت في إجلاء المسلمين عن شبه جزيرة إيبريا ، مما كان مر بنا في الفصل السابق ، جمهرة نبـــلاء غربي أوروپة النشيطين والمحبين للحركة والمغامرة على الاشتراك فيها ، من حيث أن فكرة تحرير الاماكن المقدسة التي يضاف اليها جهل أولئك النبلاء الفرسان بالصعاب التي سيضطر المشتركون في تلك الحروب الى مجابهتها تعطينا فكرة عن السذاجـــة التي تقترن في عقول أولئك السذّج بالتصورات والحلول المغــرية • أليست بلاد المشرق التي ينوون السفر إليها هي بلاد ألف ليلة وليلة ، وهي المعين الثارّ الـــذي لا ينضب لتلك الثروات العظيمة ، ولتلك التوابل وللبخور واللبان والعاج واللآلىء وللحجارة الكريمة النادرة التي أدت المتاجرة بها الى إثراء البيزنطيين وجمهوريات إيطاليـــا ، والتي كان الكثيرون ممن قرروا الاشتراك في تلك الحرب ، وفي قرارة نفوسهم ، يفكرون بأنه آن الأوان لهم أخيراً كي يتمتعوا تماماً وبدورهم بتلك السلع وليحصلوا على الثروات •

وعلى الرغم من كل ذلك يجب ألا تفوتنا ملاحظة الخـــلاف الجـــذري العميق بين الحروب الصليبية والحملات التي كان فرسان عصر الإقطاع لاينون عن الاشتراك فيها في أوروپة والتي كان الشعور الديني فيها كحافز أو كسبب ضعيفاً ، بينما لم يكن منطلق المقاتلة الصليبيين الى فلسطين ، ولو على الصعيد النظري البحت ، أو من حيث المبدأ نشداناً الى تحقيق ربح مادي أي الحصول على الاسلاب والغنائم إنما كانت تلك الحروب في واقعها النظري فقط مشروع حرب أعدتها ونظمتها البابوية من أجل تحقيق هدف ديني وليس مادياً •

عالج الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور قضية أسباب الحروب الصليبية وردّ مزاعم الكثيرين من المغرضين الذين شوّهوا الوقائع بدون أن يكون لهم من هدف سوى النيل من سمعة المسلمين ومبادىء الاسلام التي فرضت على المسلمين رعاية أهل الذمّة • كما دعم المؤلف المذكور رأيه بآراء مؤرخين عديدين من المشهود لهم بالنزاهة والتجرّد فقال بصدد كل ذلك ما نصه : « حقيقة إن الحركة الصليبية لها في اسمها وطريقة الدعوة لهـــا

والروح التي كيّفت بعض أحداثها ما يجعل الصفة الدينية واضحة فيها . ولكن ليس معنى هذا أن التيار الديني هو المسؤول الوحيد عند إثارة تلك الحركة والقوة الوحيدة الموجهة لها . وإن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعي نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيراً ما فترت في بعض حلقاتها ، وأن الباعث الديني كثيراً ماذاب وسط التيّارات السياسية والاقتصادية بوجه خاص .

« وللوقوف على قيمة الباعث الديني في الحركة الصليبية يجدر بنا أن نتأمل أوضاع الحياة في الغرب الاوروبي في العصور الوسطى وما اعترى تلك الاوضاع من تطورات حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وذلك حتى لا تنزلق في الطريق نفسه الذي انزلق فيه كثير من المؤرخين السابقين ، وهم الذين اعتادوا أن يستفتحوا كلامهم عن الحروب الصليبية بالمبالغة في سوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية في العصور الوسطى وما تعرضوا له من اضطهادات وحشية ، وكيف أن كنائسهم خرّبت وأديرتهم أغلقت وطقوسهم عطّلت ... فضلاً عما لاقاه حجاج بيت المقدس من عقبات وما تعرّضوا له من معاملة سيئة من حكام البلاد الاسلامية التي مرّوا بها .. » .

وبعد أن شرح المؤلف أحكام الشرع الإسلامي الحنيف لمعاملة كل من المسيحيين واليهود والى حديثه قائلا ما يلي : « ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الاسلامية عيشة هادئة هانئة ، تشهد عليها الرسالة التي بعث بها تيودسيوس بطرق بيت المقدس سنة ٨٦٩ الى زميله إغناتيوس بطرق القسطنطينية ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أيّ تدخّل في شؤونهم الخاصة . وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أيّ أذى أو تعنّت » . حقيقة إن التاريخ يشير الى تعرّض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان الاسلامية لنوع من الضغط والاضطهاد ، ولكن هذه حالات فردية شذّت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها ، وهي

التسامح المطلق مع أهل الكتاب . واذا كان بعض المؤلفين الاوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلاً على تعسّف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية ، فلعلّ هؤلاء الكتّاب نسوا أو تناسوا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى . وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين/١ من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية ، وما قام به شرلمان في القرن الثامن من فرض المسيحية على السكسون والبافاريين بحدّ السيف ، حتى أنه قتل من السكسون وحدهم في مذبحة فردن الشهيرة أكثر من أربعة آلاف فرد جملة واحدة ؛ وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشية وقسوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين البروسيين واللتوانيين وغيرهم من الشعوب السلافية قرب شاطىء البحر البلطي . هذا كله فضلاً عما أتاه المبشّرون الجزويت في القرن السابع عشر من عنف لنشر المسيحية في الهند .

« ويضيف أحد كبار المؤرخين الاوربيين أن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرّض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالذات لا يصحّ أن تتخذ بأي حال سبباً حقيقياً للحركة الصليبية ، لان المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظلّ الحكم الإسلامي ، فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، وإنما سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعوا في مكتباتها كتباً دينية متنوعة في اللاهوت . ومن الواضح أن مثل هذه الروح السامية التي عومل بها المسيحيون في البلدان الاسلامية لا ينتقص من قدرها إطلاقاً ما قام به رجل عرف بشذوذه ـ مثل الخليفة الحاكم بأمر الله ـ من تصرّفات تجاه أهل الذمّة . ولم يكد الحاكم يموت سنة ١٠٢١ إلا وعاد المسيحيون في مصر والشام يحظون بما ألفوه دائماً من رحابة صدر الاسلام والمسلمين ، كما عقد الصلح بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية ، وصار البيزنطيون يشرفون

على كنيسة القيامة في بيت المقدس ، ثم وفد الحجاج كعادتهم يزورون الاماكن المقدسة في أمن وسلام .

« وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر قد دأبوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة ، فان هناك أكثر من مؤرخ أوروبي مسيحي منصف قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالاً من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الامبراطورية البيزنطية نفسها .

« وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر ، إنما كان مردّه الى الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لانه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم »[١] .

لا مرية في أن الشعور الديني العام في العصور الوسطى كان قوياً ، وليس من شك في أن البابوية وجهت الدعوة الى مختلف طبقات شعوب أوروبة باسم الدين (لاستخلاص مقدسات المسيحيين من أيدي الكفرة) ، كما وأن الامبراطور البيزنطي نفسه أضفى على طلبه النجدة من البابا طابعاً دينياً

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، الفصل ٢ ، الباب ١ ، ص ٢٨ ــ ٣١ ، وهو كتاب في جزأين نشرته مكتبة الأنغلو المصرية في القاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ . أما الآراء المستقاة تباعا من المصادر الغربية فهي :

آ ــ Iogra (N) : Brève Histoire des Croisades; Paris 1924, PP : 1 - 2

ب ــ Thompson (J. W.) : Economic and Social History of the Middle Ages (2 Vol. London 1959)

ج ١ ، ص ٣٨٥ والمصدر عينه ، ج ١ ، ص ٣٩١ .

ج ــ فازيليف ج ١ ، ص ٢٩٣

— Vasiliev (A. A.) : History of the Bysantine Empire (2 Vol. Madison 1961)

د ــ سيتون ، ج ١ ، ص ٧٤

— Setton (K. M.) : A. History of the Crusades (2 Vol. Pensylvania 1958)

حيث لم يلتمس عون عواهل وأمراء وأفراد شعوب أوروبة ، كما نص عليه طلب النجدة وكما صوّره أعضاء وفد الإمبراطور البيزنطي للمجتمعين في مجمع پليزانس الديني في شمالي إيطاليا (ولاية إيميليا) إلا من أجل حماية الديانة المسيحية • وهذا ما نراه بوضوح فيما أورده الاستاذ أوغوستان فليش بصدد ذلك حيث ذكر ما نصه : « لقد وصلت الى البابا أوربان/٢ أثناء ترؤّسه مجمع پليزانس الديني المنعقد بين أول آذار ١٠٩٥ والسابع منه سفارة بعث بها الإمبراطور البيزنطي ألكسي كومنين « ملتمساً وبإلحاح من البابا دون جميع أتباع المسيح أن يمدّوه بنجدة للدفاع عن الديانة المسيحية » ومن المحتمل أنه نشداناً من مبعوثي الإمبراطور ألكسي أن يستثيروا عطف وشفقة أعضاء ذلك المجمع الديني والمسيحيين الذين حضروا جلساته فانهم صوّروا لجميع هؤلاء لوحة مثيرة عن الآلام التي تحمّلها المسيحيون الشرقيون بنتيجة اضطهاد السلاجقة الاتراك لهم ، وبما أن الحبر الاعظم أوربان/٢ كان بطبعه انفعالياً وشديد التأثّر بآلام وأبؤس الآخرين فانه أخذ يفكر وبصورة تدريجية بتعبئة جيش قوي من غربي أوروپة تناط به مهمة تحرير الأراضي المقدسة ووضع حدّ للتعصب السلجوقي »[1] •

لكن هذا الطلب الذي تقدم به عاهل بيزنطي الى المتربع على الكرسي الاقدس لم يكن الأول من نوعه • فبعد أن بدا لأباطرة الدولة البيزنطية عجزهم عن الصمود في وجه الإفاقة الاسلامية التي أحيت الخلافة العباسية في ظل السلاجقة ، وأن الانهيار المحتّم بات قاب قوسين أو أدنى من الدولة البيزنطية ولا سيما بعد النصر المؤزر الذي أحرزه ألب أرسلان السلجوقي عليها في معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١ ، إذ ذاك وجدنا الامبراطور البيزنطي ميخائيل/٧ (وكان قد خلف الامبراطور رومان ديوجينيس الذي وقع في أسر السلطان السلجوقي) يرسل الى البابا غريغوار/٧ مستنجداً به وقد أغراه ومنّاه أنه في حالة إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الامبراطورية البيزنطية وأراضيها

(١) أوغوستان فليش ، مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، الفصل ٢٨ ، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

في آسيا الصغرى فإنه يردّ الجميل للبابوية بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية[1] .

لم يهمل البابا غريغوار/٧ أمر طلب النجدة هذا إنما أولاه ما يحتاجه من عطف ورعاية فبعث الى عواهل أوروپة وأمرائها يشرح لهم واقع أحوال الدولة البيزنطية التي إن لم تهبّ أوروپة الغربيــة إلى نجدتها فسوف لن تقوى على الصمود في وجه المدّ الإسلامي السلجوقي وستنهار حتمياً . هذا فضلاً عن ادعائه أن المسيحيين في الشرق الادنى مضطهدون من قبل السلاجقة وأن واجب إخوانهم في غربي أوروپة أن يهبّوا لنجدتهم وشدّ أزرهــم . لكن انشغال هذا الحبر الأعظم في النضال الشاقّ المرير الذي خاضه ضد الإمبراطور هنري/٤ ، مما كنا أوردناه في حينه ، حال بينه وبين تحقيق إرسال نجدته .

وأثناء تولّي أوربان/٢ منصب الحبرية العظمى (١٠٨٨ ــ ١٠٩٥) وبعد أن لاحت له تباشير نجاح مشروعه الرامي الى الإفادة من انقسام المسلمين في إسپانيا على أنفسهم وإخراجهم من هذا البلد بدا له أن يُحقّق فائدة مزدوجة بالنسبة الى البابوية وعلى حساب كل من الدولة البيزنطية نفسها من جهة ، والدولة الفاطمية (التي كانت قد احتلت مدينة بيت المقدس) والإمارات السلجوقية والعربية في بلاد الشام من جهة ثانية . إنه أولا بتلبيته استغاثة الدولة البيزنطية يفيــد من الحرب التي ستدور في ربوع الشرق الادنى لاستخلاص الاماكن المقدسة في فلسطين لإعادة سيطرة البابوية على الكنيسة البيزنطية الشرقية المنشقّة[2] .

إنه لمن الطبيعي ألا يسفر الحبر الاعظم عن نيته في أنه ينشد من وراء

---

(١) ورد في كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور عن الحركة الصليبية ، ج ١ ، الباب ٣ ، الفصل ١ ، ص ١٢٩ نقلا عن مجموعة كمبردج عن العصور الوسطى ، المجلد ٥ ، ص ٢٧٠ .

(٢) ورد ذلك في كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور عن الحركة الصليبية المذكور ، ج ١ ، الباب ٣ ، الفصل ١ ، ص ١٣١ .

الحملة الصليبية تحقيق هدفين اثنين : أولهما ، وهو الظاهر الذي أشار اليه عندما صوّر لمستمعي خطبته في مجمع كليرمونت ، تحرير القبر المقدس والاماكن المقدسة من سلطة المسلمين • بينما أبقى **الهدف الثاني** ، **وهو** كما أشرنا الى ذلك أعلاه ، إعادة فرض البابوية لسيطرتها على الكنيسة الشرقية مما كان العاهلان البيزنطيان (ميخائيل/٧ وألكسي دوكومنين) قد أغريا به كلاً من الحبرين الأعظمين غريغوار/٧ وأوربان/٢ ، سراً لم يبح به إلى جماهير مستمعي خطابه في كليرمونت • ومع ذلك فمن العدل ألا نتّهم المتربّع على الكرسي الاقدس بأنه كان يرمي من وراء إرسال الحملة أو الحملات الصليبية تحقيق أي ربح مادّي •

وسواء أفكر أوربان/٢ في استخدام توجيه الحملة الصليبية لإعادة فرض سيطرة البابوية على الكنيسة البيزنطية الشرقية أم لم يفكّر فإنه لا مرية في أن غايته ، وعلى الصعيد المسيحي الصرف ، كانت روحية سامية نبيلة • لكن الى أي مدى يمكن أن نردّ اشتراك العناصر الكثيرة التي تجاوبت مع دعوة الحبر الاعظم واستجابت لها وأعلنت عن رغبتها في التطوّع في تلك الحملة الى نفس الشعور الديني العميق والعارم الذي كان يجيش في صدر الحبر الأعظم ؟ لقد لبى الكثيرون من مستمعي خطبة أوربان/٢ وبصورة لا يرقى الشك إليها تلك الدعوة السامية تحدوهم نفس رغبة الحبر الاعظم في استخلاص قبر السيد المسيح وباقي الاماكن المقدسة من أيدي المسلمين لكن بمقابل ذلك وجد كثيرون ممن أعلنوا عن استعدادهم للانخراط في سلك تلك القوات الصليبية إما جرّاً لمغنم مادّي أو لأي اعتبار آخر • ومع ذلك يجب ألا نجرّد هؤلاء من أنهم تأثروا في بداية الامر وتحت وطأة سريان عدوى الحماس الديني اليهم أو الانفعال الذي نتج عن سماع خطبة أوربان/٢ وهو يهيب بالمسيحيين عامة الى استخلاص القبر المقدس وكنيستي القيامة والمهد وغيرهما « من أيدي الكفرة » (كما ورد في خطبة البابا نفسها les infidèles) • بيد أن هؤلاء سرعان ما شوّهوا الهدف الديني المسيحي الذي نشده البابا وحوّلوا تلك الحملة الصليبية ، وكما ذكر أحد المؤرخين

المعاصرين وهو الاستاذ لويس هالفين ، الى حملة استعمارية غايتها الربح المادي وقد ذكر هـذا الاستاذ بصدد ذلك ما نصه : « ... لم يكن منطلق المقاتلة الصليبيين الى فلسطين ، ولو من الناحية النظرية البحتة ، من أجل الحصول على الربح المادي ، أي الحصول على الأسلاب والغنائم ، انما كانت هـذه الحرب في واقعها مشروع حرب أعدّتها ونظمتها الكنيسة من أجل هدف ديني بحت وليس مادياً . فالكنيسة راعها وهي محقّة في ذلك ، التهديد القويّ الذي مارسه السلاجقة الاتراك بعـد أن باتوا قريبين جداً من أوروپا ، على أوروپا المسيحية جمعاء . وهكذا كان الهدف الأوحد الذي حُدّد بشكل سافر الى المشتركين في تلك الحرب هو استخلاص القبر المقدس . وسعياً وراء تجنّب لجوء بعض من كان الاهتمام بالحصول على الربح المـادي يستقطب تفكيرهم إلى التقليل من نوعية وصفة اشتراكهم وإسهامهم في تلك الحرب المقدسة فقد حرص الداعون اليها بقدر ما فكروا بهذه الزاويـة أن يتركوا وبصورة مبهمة مسألة مصير الاراضي التي يؤملون أن تحتلها الجيوش الصليبية .

« وبعد أن تم الانتقال فيما بعد الى حيّز الواقع والاصطدام بالحقائق بدأ الكثيرون يتصورون الاشياء من زاوية أكثر موضوعية . وحتى قبل أن تطأ أقدام النبلاء الأرض المقدسة فإن هؤلاء رجعوا الى نفوسهم وجرؤوا أن يتمنّوا تحقيق بعض الرغبات المادية التي لا تنسجم أبدا مع أطر المشاعر السامية والجهود التقية النبيلة التي أظهروا أول الامر للعالم منظرها الخلاّب . اذ ذاك اتخذت الحرب الصليبية طابع حملة استعمارية سيقارن نجاحها بنسبة أقل فيما يتعلق بالنتائج الدينية التي يُحصلُ عليها من أن تقارن بسعة ومتانة المناطق التي ستحتل من أراضي العدو . ثمت فإن البابوية نفسها اذا ما عالجنا القضية من زاوية أن هذا الموقف الذي اتخذته سيضمن سلام أوروپا ويزيد ، فوق ما يتؤمّله كل مفكر ، ساحة عملها الشخصي . فالبابوية والحالة هذه لم تكن تستطيع في نهاية الأمر إلا أن تتعامى وتغض طرفها وتُسرّ في أنهـا استطاعت وبصورة مفيدة أن توجّه غرائز القتال التي كانت لدى النبـلاء

الاقطاعيين نحو أهداف خيِّرة معطاء »[1] •

وبعد أن أوضحنا الاهداف التي نشدتها البابوية من توجيه الحملات الصليبية وألمحنا الى الفارق بين تلك الاهداف وتلك التي رغب الذين تطوّعوا في تلك الحروب من عواهل وأمراء ونبلاء اقطاعيين ومدن تجارية وطبقات العامّة في تحقيقها وعلى صعيد الواقع من اشتراكهم في الحروب ، أو بكلمة ثانية : ما هي الاسباب التي حملت جميع هؤلاء على الإصاخة بأسماعهم الى دعوة البابا لهم بالسفر الى البلاد المقدسة وخوض الحرب فيها ضد السلاجقة المسلمين وغيرهم من القوى الاسلامية ؟؟ اننا نرجّح أن أقوى الاسباب وبجانب الحافز أو العامل الديني : هما السبب الاقتصادي والسبب الاجتماعي• وسنطرق الآن دراسة كل من هذين السببين • لكن وقبل ذلك نرى لزاماً علينا أن نثبت ما أثبته الاستاذ تومپسون بسبب ضعف العامل الديني كعامل أوحد أهاب بمن اشتركوا في تلك الحملات الى التطوّع فيها ونحن ننقل هنا رأي الاستاذ الموما اليه عن كتاب الاستاذ سعيد عبد الفتاح عاشور حيث ورد فيه حول هذه القضية ما يلي : « أما عن جمهرة الصليبيين الذين استجابوا لنداء البابوية وخرجوا قاصدين الشرق الادنى ، فلم يكن الهدف الديني هو الهدف الرئيسي الذي دفع الغالبية العظمى منهم الى المشاركة في الحركة الصليبية • وقد اعترف كثير من المؤرخين الاوربيين الذين عالجوا هـذا الموضوع بأن غالبية الصليبيين الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية تركوا بلادهم اما بدافع الفضول أو لتحقيق أطماع سياسية ، واما للخلاص من حياة الفقر التي كانوا يحيونها في بلادهم في ظل النظام الاقطاعي ، واما للتهرّب من ديونهم الثقيلة أو محاولة تأجيل سدادها ، واما فراراً من العقوبات المفروضة على المذنبين منهم ، واما لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية في بلاد الشرق • وأي وازع ديني كان عند ألوف الصليبيين الذين شاركوا في الحملة الصليبية الرابعة ، والذين اتجهوا نحو القسطنطينية ــ وهو البلد

---

(١) لويس هالفين مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٤ ، ص ٦٤ •

المسيحي الكبير – لينهبوا كنائسها ، ويسرقوا أديرتها ويعتدوا على أهلها بالقتل والضرب وهم جميعاً اخوانهم في الدين ؟؟ وهكذا يبدو أنه اذا أردنا أن نعرف الاسباب الحقيقية للحركة الصليبية ، فعلينا بالبحث في الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في غرب أوربا في القرن الحادي عشر »[1].

أولا – السبب الاقتصادي : كانت الاحوال الاقتصادية لمعظم بلدان غربي أوروپة في نهاية القرن الحادي عشر ، أي في نفس الفترة التي وجّه الحبر الأعظم فيها دعوته الى التطوّع في الحملة الصليبية التي كان مزمعاً توجيهها الى الاماكن المقدسة ، سيئة للغاية . وكانت أحوال فرنسا الاقتصادية بالذات أسوأ بكثير من أقطار غربي أوروپة وهذا ما ردّ اليه كثيرون من المؤرخين سر زيادة نسبة المتطوعة من الفرنسيين في الحملة الاولى عن متطوعة باقي دول غربي أوروپة حيث أكّد بعضهم انتشار المجاعة في ربوع فرنسا في نهاية القرن نفسه ، وأن تلك المجاعة أدت الى ندرة الأقوات والغلاّت وان وجد الشيء اليسير منها فان أثمانه بلغت نسبة عالية جدا . لا بل أكّد بعض المؤرخين الثقات أن تلك المجاعة اضطرت الكثيرين الى أكل الاعشاب والحشائش واطلاق تجار اليهود العنان الى غرائزهم الجشعة فاحتكروا الأقوات وافتعلوا وجود أزمة في الخبز مما أتاح لهم جني أرباح فاحشة[2] .

كما لم يسهُ المؤرخون عن الاشارة إلى الأثر السيّىء الذي تركته حروب النبلاء الاقطاعيين فيما بينهم في الحياة الاقتصادية من حيث أنها كانت ضغثاً على إبّالة لأنها زادت من وطأة المجاعة بإتلاف المحاصيل وتعطيل اليد العاملة في الحقول ، كما أدت تلك الحروب الى بوار التجارة وشل حركة المبادلات

---

(١) مذكور في كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور عن الحركة الصليبية المذكور ، ج ١ ، الباب ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٣ – ٣٤ نقلا عن كتاب تومپسون وهو
Thompson : Economic and Social History of the Middle Ages; Vol. 1, PP: 302, 392.

(٢) راجع المصدر عينه ، ج ١ ، الباب ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٤ حيث اثبت المؤلف رأي كل من Guibert Nogent وتومپسون Thompson .

التي كانت تتم وعلى مستوى الاقطار والاقاليم بعد أن دُمّرت الطرق وعاث فيها الاشقياء فسادا . وهذا ما حمل الكثيرين من الجياع ذوي البطون الخاوية على التطوّع تحت راية الصليب حيث أتاحت الحروب الصليبية لهم أملا جديدا ووسيلة كفيلة بخلاصهم من واقعهم الاليم والفرار من عيشة التبلّغ أو المعيشة الضنك التي يحيونها الى تذوّق بلهينة العيش في جواء معطاء خيّرة « هي جواء ألف ليلة وليلة » .

وكانت النتيجة الحتمية لسوء الاحوال الاقتصادية في تلك الفترة في غربي أوروبة عامة وفرنسا خاصة أن تطوّع في الحملة التي دعا إليها الحبر الأعظم أوربان/٢ في كليرمونت جموع غفيرة من الفقراء والمساكين والملاحقين قضائياً وكان هؤلاء يستوحون بطونهم الخاوية أكثر من العمل بوحي من عقيدتهم الدينية بدليل ما قاموا به من أعمال سلب ونهب وقتل في البلاد المسيحية التي مرّوا بها قبل بلوغهم العاصمة البيزنطية مما لا يمكن اطلاقاً أن يكون بوحي من شعور ديني .

ألحّ الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور على تلك الاسباب الاقتصادية مورداً رأي الاستاذ هيد Heyde (صاحب كتاب تجارة الشرق الادنى الذي صدر في لايبتزيغ في ألمانيا سنة ١٩٣٦) فقال ما يلي بالنسبة الى هذه الزاوية الاقتصادية : « ثم ان الباحث في تاريخ الحركة الصليبية يلحظ حماسة منقطعة النظير من جانب المدن التجارية في إيطاليا وغير إيطاليا من الغرب الاوروبي للمساهمة في تلك الحركة سواء بعرض خدماتها بنقل الصليبيين عن طريق البحر الى الشرق ، أو في نقل المؤن والاسلحة وكافة الامدادات الى الصليبيين بالشام ، أو مساعدة الصليبيين في الاستيلاء على الموانىء البحرية ببلاد الشام ، وتقديم المعونة البحرية للدفاع عن هذه الموانىء ضد هجمات الاساطيل الاسلامية . وهنا أيضاً نستطيع أن نقرر أن جمهوريات ايطاليا البحرية لم تكن مدفوعة الى تقديم جميع تلك المساعدات للصليبيين بوازع ديني ، وانما جرت وراء مصالحها الاقتصادية الخاصة ، ورأت في الحروب الصليبية فرصة طيبة يجب اقتناصها لتحقيق أكبر قسط من المكاسب الذاتية

على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً • وسنرى في صفحات هذا الكتاب أن البندقية لم تتورع عن تضليل حملة صليبية كبرى فوجهتها نحو غزو القسطنطينية ــ وهو البلد المسيحي الآمن ــ بدلا من أن تتركها تسير في طريقها الطبيعي المرسوم لها ضد المسلمين ، وكان ذلك عندما رأت البندقية أن مصالحها المادية الصرفة تتطلب مهاجمة القسطنطينية وليس غزو مصر •

« والواقع أن الصليبيين بالشام كان لا يمكنهم الاستغناء عن مساعدة أساطيل « الثلاثة الكبار » ــ البندقية وجنوة وبيزا ــ حيث أن هذه الاساطيل قامت بدور فعّال في ربط بلاد الشام الصليبية بالغرب الاوروبي • واذا كانت هذه الجمهوريات الايطالية قد قدمت المساعدة المطلوبة للصليبيين فانها لم تفعل ذلك إكراماً للكنيسة وابتغاء لمرضاة الله ، وانما مقابل معاهدات عقدتها مع القوى الصليبية بالشام وحصلت بمقتضاها على امتيازات اقتصادية هامة • ففي معظم موانىء الشام ومدنه الكبرى التي استولى عليها الصليبيون ، تمتعت المدن الايطالية التجارية بإعفاءات خاصة ، فضلا عن شارع وسوق وفندق وحمام ومخبز خاص بتجار المدن الايطالية التي قدمت خدماتها لحاكم الامارة الصليبية التي تبعها الميناء • ولم تلبث مرسيليا بجنوب فرنسا أن حذت حذو المدن الايطالية فحصلت على امتيازات كبيرة لتجارها في عديد المدن الصليبية بالشام ، اذ منح الملك بلدوين/٢ ملك بيت المقدس تجار مرسيليا حيّاً خاصاً بهم في مدينة القدس ذاتها سنة ١١١٧ ، ثم أعفاهم الملك فولك من الضرائب بعد ذلك ، حتى لجأ الملك بلدوين/٣ سنة ١١٥٢ الى منحهم امتيازات واعفاءات من الضرائب في كافة الموانىء الصليبية في فلسطين •

« وهكذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية استغلالية واضحة • فكثير من المدن والجماعات والافراد الذين أيّدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ونزحوا الى الشرق لم يفعلوا ذلك لخدمة الصليب وحرب المسلمين وانما جرياً وراء المال وجمع الثروات واقامة مستعمرات ومراكز ثابتة لهم في قلب الوطن العربي ، بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها ، والحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة • حقيقة أن الاستعمار بمعناه

الحديث لم تتضح معالمه الا بعد الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر ، ولكن ليس معنى ذلك أن العالم لم يعرف الاستعمار منذ أيام الفينيقيين واليونانيين القدامى . وفي العصور الوسطى كانت الحروب الصليبية « أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الامم الاوروبية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق » ، وذلك على قول أحد المؤرخين المحدثين »[1] .

ثانياً ــ السبب الاجتماعي : ضـمّ مجتمع العصور الوسطى في أوروبة الغربيـة ثلاث طبقـات ، وكانت اثنتـان منها مغلقتين وهمـا : طبقة الأسيـاد وهم النبـلاء الاقطـاعيون مـُلاّك الاراضي ويرأس هـذه الطبقـة الملك نفسـه ، وقـد ذكرنا من قبـل أنه كان بمثـابة سيّد أولئك الأسيـاد les seigneur des seigneurs ، ويلحق بهذه الطبقـة أفراد طبقة الفرسان . ولا يمكن لأحد أفراد طبقة العامة ، ومهما سمت منزلته ومهما عظمت ثروته أن يـُقـْبـَلَ في هذه الطبقة لأن أفرادها كانوا الارستقراطية المالكة للأرضين فكانوا سراة القوم (وهم الارستقراطية) بحسب انحدارهم من أبوين نبيلين .

أما الطبقة الثانية المغلقة فهي طبقة العامة وهم الفلاحون الذين يشملون الأقنان ورقيق الارض ويحتل أفراد هذه الطبقة أسفل الهرم الاجتماعي في مختلف دول العصور الوسطى . أما بالنسبة الى رقيق الارض ، الأقنـان ، فقدكانوا ثابتين عليها وليس بوسعهم مغادرتها فهم كما قيل عنهم « مـُسمـَّرون » على الارض يملكهم السيد صاحب الارض التي يعملون عليها وكانوا يباعون معها الى المالك الجديد . وسواء أكان الفرد في هذه الطبقة من الفلاحين أم من الأقنان رقيق الارض فان أوضاعه كانت سيئة للغاية فيحيا معيشة ضنكا وفي ظل الفاقة والعوز ، وليس من أمل لافراد هذه الطبقة البائسة المعدمة في تحسين أوضاعهم .

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر عينه ، ج ١ ، الباب ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ، نقلا عن كتاب هايد (ج ١ ، ص ١٣١ ــ ١٣٣) وكتاب تومپسون (ج ١ ، ص ٣٩٧) .

وثمة طبقة ثالثة لم تكن مغلقة انما تفتح ، ولو من حيث المبدأ ، لمن تتوفر فيه الكفاءات العلمية الدينية ، انها طبقة رجال الدين ويشمل أفرادها فئتي الاكليروس وهما : الاكليروس العلماني أو الدنيوي ، وهم هيئة رجال الدين الذين منهم الاساقفة والمطارنة والبطارقة والكرادلة والخ ... ثم الاكليروس النظامي وأفراده هم الرهبان سواء أكانوا من الانعزاليين أم من الديريين . فهذه الطبقة مفتوحة في وجوه من توفرت فيهم الكفاءات العلمية الدينية من جهة وفي وجه التائبين الذين يهجرون الحياة العصرية حياة الآثام والخطايا ليلتحقوا بأحد الأديرة حيث ينقطعون الى العلم وممارسة حيـاة الفضيلة والعبادة . ولربما انضمّ وفي أحيان كثيرة أفراد من طبقة النبلاء إلى إحدى تينك الفئتين .

وقد عاش أفراد طبقة الفلاحين في ظل ظروف سيئة للغاية وما بقوا في ذلك النظام الاجتماعي فلا سبيل الى تحسين أوضاعهم الاجتماعية فوجدوا متنفساً لهـم في دعوة الحبر الأعظم أوربان/٢ والراهب بطرس الناسك وأترابه للفكاك من حياة الذل والهوان والضعة وللتخلص من عقدة الصغار الاجتماعي التي كانت تلازمهم ما داموا على قيد الحياة . وهكذا وجدنا الآلاف المؤلفة من الفلاحين تستجيب الى دعوة بطرس الناسك مؤملة في أن تحيا حياة أفضل والا فالموت في الرحاب المقدسة لا سيما بعد أن ناءت كواهلهم بالاعباء النوعية والعينية المفروضة عليهم الى السيد النبيل الذي يعملون في أرضه وللتخلص من السخرات التي يؤدونها عن يد وهم صاغرون .

لقد صور لنا الاستاذ الدكتور سعيد عاشور حياة البؤس والفاقة التي كان يعيشها الفلاحون في غربي أوروبة في العصور الوسطى كما تعرّض إلى مختلف الاعباء العينية والنوعية التي كانوا يحملون ولو قسراً على أدائها ، كما حدثنا عن السخرات التي أنّ من وطأتها الفلاحون وكيف أنهم لبّوا مسرعين الدعوة الى التطوع في الحملات الصليبية مثبتاً آراء المصادر الانكليزية التالية (بواسونّاد Boissonade وهيتون Heaton وباتنير Painter) حيث ذكر بصدد كل ذلك ما نصه : « والواقع أن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب

أوروبا عيشة منحطة في ظل نظام الضيعة حيث شيّدوا لأنفسهم أكواخا قذرة من جذوع الاشجار وفروعها غطّيت سقوفها وأرضيتها بالطين والقش ، دون أن تكون لها نوافذ أو بداخلها أثاث عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الادوات الفخارية والمعدنية (نقلاً عن بواسونّاد Life and Work in Medival Europe, p. 85) . وكان معظم أولئك الفلاحين من العبيد والأقنان الذين ارتبطوا رباطاً وراثياً بالارض التي يعملون عليها ، وقضوا حياتهم محرومين من أبسط مبادىء الحرية الشخصية ، فكل ما يجمعه القنّ يعتبر ملكاً خاصاً للسيد الاقطاعي لأن القنّ محروم ، حتى من الملكية الشخصية .

« ثم ان أولئك الفلاحين عاشوا مثقلين بمجموعة من الالتزامات والخدمات فكان عليهم أن يقدموا خدمات معينة للسيد الاقطاعي مثل فلاحة أرضه الخاصة ، فضلا عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل انشاء طريق أو حفر خندق أو اصلاح جسر . كذلك كان على الفلاحين دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يتعيَّن على قنٍّ دفعها سنوياً رمزاً لعبوديته ، هذا عدا الضرائب المفروضة على ماشيته وما تنتجه أرضه من خضراوات (نقلاً عن هيتون : Heaton : Economic History of Europe P : 95) . فـاذا أضفنا الى ذلك الاحتكارات العديدة التي ألزم الفلاحون بقبولها ، أدركنا مدى الهوان والذلّة التي عاشت فيها غالبية الشعب الاوروبي في القرن الحادي عشر . فالسيد الاقطاعي صاحب الضيعة هو الذي يمتلك طاحوناً وفرناً ومعصرة بل أحياناً البئر الوحيدة في الضيعة . وفي هذه الحالة يصبح كل قنٍّ ملزماً باحضار غلّته الى طاحونة السيد لطحنها ، ويحمل خبزه الى فرن السيد لخبزه ، وكرومه وزيتونه وتفاحه الى معصرة السيد لعصرها ... كل ذلك مقابل أجور معينة يقدمها الأقنان والفلاحون لسيدهم الاقطاعي وهم صاغرون . فاذا امتلك فلاح طاحونة يدوية ، وغير ذلك من الاجهزة التي من حق السيد الاقطاعي أن يحتكرها ، صار ذلك جرماً خطيراً يحاكم عليه . (نقلاً عن پانتير Painter : Meddival Society; P: 51) .

« وهكذا ظلت الغالبية العظمى من الناس في غرب أوروبا يحيون حياة

شاقّة مليئة بالذل والهوان • وكان ذلك في الوقت الذي علت فيه الدعوة للحرب الصليبية ، فوجدت تلك الالوف من البؤساء في الغـرب الأوروبي فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا • ومهما يكن في الدعوة الجديدة من أخطار فان أخطارها هانت أمام الفاقـة والهوان والذلّة التي كتب على جمهرة العوام أن يعيشوا فيها في غرب أوروبا دون أمل في الخلاص • فاذا ماتوا في تلك الحرب الصليبية الجديدة فإن الموت كان أحب اليهم من الجوع والذل والعبودية • وان وصلوا الى الاراضي المقدسة سالمين فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلاً في بلادهم الاصلية •

« ومن هذا يبدو جلياً أنه اذا كانت ألوف العامة من أهل غرب أوروبا قد أسهموا في الحركة الصليبية فانما دفعتهم الى ذلك عوامل اجتماعيـة واقتصادية هامة ،فوجدوا في تلك الحركة منفذاً الى حياة أفضل • ونستطيع أن نقرر أنه لو تيسّرت لتلك الجموع في بلادهم الاصلية حياة حرة وقدراً مناسباً من كرامة العيش لما غامروا بترك أوطانهم جرياً وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها »[1] •

ثالثاً ـ السبب السياسي : كان للسبب السياسي أثر قوي في حمل الكثيرين من نبلاء غربي أوروبا على الاستجابة الى دعوة البابا لهم بالتجهّز لحرب المسلمين المسيطرين على الاماكن المقدسة واستخلاص تلك الاماكن منهم تأميناً لأداء اخوانهم في الدين حجّ تلك الأماكن المقدسة بدون التعرض إلى اضطهاد وإرهاق السلاجقة المسلمين أو سواهم • لا بل فان الكثيرين من المؤرخين أشاروا الى أن عدداً كبيراً من الأمراء الذين لبّوا دعوة الحبر الأعظم بالخروج الى حرب المسلمين لم يصيخوا بأسماعهم إلى تلك الدعوة إلا تحت وطأة ضغط المتربع على الكرسي

---

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر عينه ، ج ١ ، الباب ١ ، الفصل ٢ ، ص ٣٨ ـ ٤٠ . وفي هذا الرأي بعض الاقتباسات التي أشرنا اليها أعلاه .

الأقدس وتهديدهم ، ولو بصورة غير مباشرة ، بالحرمان ان بقوا في زمرة القاعدين الذين لم يهبّوا الى نصرة ودعم الفكرة الصليبية .

وفضـــلا عن ذلك فإن نظام التركات أو نظام الإرث المطبّق آنئذ كان يقضي بأن يُخَصَّ الابن البكر للنبيل مالك الاقطاعات بوراثة اقطاعات أبيه مما أدى الى نشوء فئة من **النبلاء الثنيين** (أي الاولاد الثاني والثالث والخ... للسيد مالك الاقطاع ويدعون عادة les Cadets) الذين لم تؤل اليهم أيـة حصة من تركة أي من اقطاعات آبائهم . فلما قامت الدعوة الى التطوع في الحملات الصليبية وجد فيها أفراد تلك الفئة من النبلاء ضالتهم المنشودة لإتاحتها لهــم فرصة ذهبية لحيازة الأراضي واكتساب الشهرة في ســوح القتال . وهكذا كانت الحركة الصليبية بالنسبة الى هؤلاء المفلسين كوسيلة للرزق وامتلاك الاراضي وكسب الشهرة . فما فات هؤلاء في مهادهم الاصلية ومساقط رؤوسهم يمكن أن يعوّضوه في بلاد الشام وحتى في مصر . هذا ناهيك عما كان هؤلاء النبلاء الفرسان يجدونه في ممارسة الحرب والطعان من رياضة لفروسيتهم .

ولم يقلّ النبلاء مُلاّك الاقطاعات حرصاً عن اخوانهم النبلاء المفلسين في الإسهام في الحملات الصليبية نشداناً إلى الحصول على مزيد من الثروة ، ومزيد من الاقطاعات ومزيد من الشهرة العسكرية . وبكلمة ثانية ، وكما ذكر المؤرخون ، وجد أولئك النبلاء الاقطاعيون في المشاركة في الحملات الصليبية ظرفاً مواتياً للحصول على مزيــد من الثروة (ويذكر الانكليز في أقوالهم المأثورة : أن الكثير يتطلب المزيد) ومجد أكبر وجاه أسمى . لا سيما وكان للنبيل الاقطاعي في مجتمع غربي أوروبة في العصور الوسطى من النفوذ والجاه والأهمية بقدر ما يملك أو بقدر ما بحوزته من الارضين . بينما سَلبَ النبلاء المفلسون في نفس المجتمع أي نفوذ وأهمية لانهم لا يملكون الاراضي ولا يمارسون سلطتهم على أحد ولا يتفيأ ظلال حمايتهم أحد ، بمعنى أنهم كانوا ثانويي الاهمية ، ان لم يكونوا فاقدين لتلك الاهمية تماماً في ذلك المجتمع .

لم تفت هذه الملاحظات على الاستاذ الدكتور سعيد عاشور فعالجها في كتابه الآنف الذكر وقال بشأنها ما يلي : « ولا أدل على تغلب النزعة السياسية عند الامراء الغربيين الذين أسهموا في الحركة الصليبية من الخلافات التي كثيرا ما دبّت بينهم وبين بعض ، مما أنزل بالغ الضرر بالصالح الصليبي . وسنرى بين صفحات هذا الكتاب كيف أن أمراء الحملة الصليبية الاولى أخذوا يقسمون الغنيمة وهم في طريقهم الى الشام ، أي قبل أن يستولوا على الغنيمة فعلا ، وكيف استحكم النزاع فيما بينهم أمام انطاكية من أجل رغبة كل منهم في الفوز بها ، وكيف أن من استطاع منهم أن يحقق لنفسه كسباً في الطريق قنع بذلك الكسب وتخلى عن مشاركة اخوانه الصليبيين في الزحف على بيت المقدس ، وهو الهدف الاساسي للحملة . كذلك سنرى أن الصليبيين بعد أن استقروا في بلاد الشام كثيراً ما دبّ الخلاف فيما بينهم حول حكم إمارة أو الفوز بمدينـــة . وعبثاً ما حاولت البابوية أن تتدخل لفضّ بعض تلك المشاكل وتذكّر الأمراء الصليبيين بالشام أن المسلمين يحيطون بهم ، وأن الواجب يستدعي تضامنهم لدفع الخطر عن أنفسهم . ولكن تلك الصيحات ذهبت مع الريح لان هدف الامراء كان ذاتياً سياسياً ، ولم يكن يهمّهم كثيراً رضاء البابا أو سخطه . بل ان بعض الامراء الصليبيين بالشام لم يحجموا — كما سنرى — عن محالفة القوى الاسلامية ضد اخوانهم الصليبيين ، مما يدل على أن الوازع الديني كثيراً ما ضعف عند أولئك الامراء أمام مصالحهم السياسية »[1] .

هذا ويجب ألا يسها عن بالنا ونحن في معرض دراسة أسباب الحروب الصليبية الاشارة ولو بصورة عابرة الى سبب جزئي وهو أن الاشتراك في الحملات الصليبية كان بمثابة الميدان العملي الذي أتاح للفرسان الفرصة لإظهار مهارتهم وكفاءتهم العسكرية . وقد أكسبهم اشتراكهم فيها مراناً وكان كرياضة لهم مما أتاح لهم زيادة خبرتهم في فن الفروسية .

(١) الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر عينه ، ج ١ ، الباب ١ ، الفصل ٢ ، ص ٤٢ — ٤٣ .

وعلاوة عن جميع ما ذكر فهناك المثوبة من الله التي منّاهم بها الحبر الأعظم ، وقبول هذا الاخير توبتهم وأن تُحَطَّ عنهم خطاياهم أي منحهم غفرانه لها .

تنظيم الحملة الصليبية الاولى : انه مهما كان في الحملة الى تلك البلاد البعيدة والتي بدأ البابا أوربان/٢ يعدّها من إغراء بالنسبة الى النبلاء الذين سيشتركون فيها ، فقد كان ضرورياً لحمل هؤلاء على ترك أسرهم وقصورهم وأملاكهم طوال أشهر ولربما طيلة سنين عديدة ، أن يقوم هذا الحبر الأعظم بدعاية قوية ومغرية جداً لهذه الحملة لا سيما بعد أن وقف الملوك ونبلاء أي رؤساء الامارات الاقطاعية الكبرى من هذه الحملة موقفاً متحفّظاً . ولم يقرر أحد من نبلاء الدرجة الأولى الاشتراك فيها سوى أولئك الذين كانوا يرون أن مستقبلهم في أوروبة تكتنفه الصعاب وتقوم على طريقه العقبات ، وأن أملهم بحياة مستقرة ضعيف . فهؤلاء النبلاء قرّروا معظمهم أو كلهم الاستجابة إلى نداء البابا . وعلى الرغم من حماس الجمهور الذي كان يستمع إلى خطبة البابا أوربان/٢ في مجمع كليرمونت الديني ذلك الحماس الذي ساده التحفّظ فإن مشروع الحملة كاد أن يخفق لولا نشاط هذا الحبر الأعظم الذي لا يكلّ ولا يملّ والذي ضاعف البابا البراهين عليه خلال الاشهر القادمة ، ولولا التأييد القوي الذي لم ين الاساقفة في تقديمه ، ولولا إسهام بعض الوعّاظ وبنية حسنة في السعي الدؤوب الى نجاح مشروع الحملة ، ومن هؤلاء الوعّاظ بطرس الناسك الشهير . وقد رزق أوربان/٢ مزية أخرى نادرة ، حيث عرف كيف يفرض على النظام الاقطاعي نفسه ذلك النظام الذي كان مفتقراً الى الاستقرار ، احترام بعض المبادىءالعامة التي صارالمشروع الصعب الذي كان يحلم به بفضلها ممكناً في النهاية . وبناء على هذه المبادىء فانه طلب الى كل من قبل بمشروعه أن يخيّط على ثيابه صليباً من قماش كرمز للتعهد الذي لا يمكن أن يلغى أو أن يتساهَل به والذي قطعه من قبل الاشتراك في الحملة على نفسه بصورة علنية ، والذي سَيُعَرِّض غير المتقيّد بتعهده الى عقوبة الحرمان . واستناداً

الى تلك المبادىء نفسها فإن من سيعلن اشتراكه في هذه الحملة الصليبية سيوضع قريباً وبصورة رسمية هو وأفراد أسرته وأملاكه في ظل حراسة ورعاية البابوية التي تتعهد بحماية أملاك الذاهبين الى الحرب بنفس درجة الرعاية وبنفس درجة القوة التي تحمي بها أملاكها الخاصة • وعلاوة عن ذلك وللحيلولة دون قيام منافسات أو خصومات خطيرة بين البارونات وخشية أن تتحول الحملة منذ البداية الى حرب اقطاعية توسعية فإن الباب أصمّ أذنيه عن سماع الطلبات التي قدمت اليه لتعيين قائد عسكري لتلك الحملة الصليبية ، لكنه رغب في أن توسد قيادتها الى ممثل أو مندوب رسولي (بابوي) ووقع اختياره على أسقف پوي Puy آديمار دو مونتي Adémar de Monteil الذي كان يعرف الاراضي المقدسة ويبدو أنه كان قد حجّها سابقاً • وكان أثناء انعقاد مجمع كليرمونت من أوائل من التمسوا من البابا السماح لهم بوضع شارة الصليب •

تحدث الأستاذ أوغوستان فليش عن المخطط الذي وضعه أوربان/٢ للحملة وعمن أوسد إليهم قيادتها وعن بعثه الطمأنينة في نفوس الذين سيشتركون فيها من النبلاء الاقطاعيين بضمان الحبرية العظمى أملاكهم فقال فيما يتعلق بهذه القضايا ما معناه !

« ومنذ منتصف تشرين الثاني ١٠٩٥ ، وبعد أن كان الحبر الأعظم قد قتل موضوع توجيه تلك الحملة الى الديار المقدسة بحثاً وتمحيصا ، فإنه أنهى المخطط الذي وضعه من أجلها وعيّن القادة الذين سيوسد إليهم مهمة تنفيذها وفكر بالوسائل القمينة بنجاح مشروعه هذا • فلما افتتح مجمع كليرمونت الديني في ١٨ تشرين الثاني أسفر عن نواياه وكشف النقاب عن مشروعه الكبير وحدّد أبعاده بدقة •

« وبلغ عدد من لبّو النداء من كبار هيئة الإكليروس اثني عشر مطراناً وثمانين أسقفاً وتسعين مقدم دير • وكانت الجلسات الاولى لذلك المجمع مخصصة لمعالجة قضيتي اصلاح الكنيسة وتحديد معالم مؤسسات السلام الجديدة (ومن بينها قضية السلام الالهي أو هدنة الله la Paix de Dieu)•ثم

خرج الحبر الأعظم في السابع والعشرين من تشرين الثاني من الكنيسة حيث كان يتمّ انعقاد جلسات ذلك المجمع وواجه الجمهور المحتشد في احـدى ساحات المدينة • وعلى الرغم من الافتقار الى النص الأصلي للخطاب الذي ألقاه الحبر الأعظم على الجماهير المحتشدة فإن تحـاليل مؤرخي الحروب الصليبية له تكاد تكون مجمعة على مضمونه الى درجة أنه بوسعنا أن نسرد أقسامه وبصورة دقيقة الى حدٍّ ما • لقد وجّه البابا كلامه الى « الفرنسيين المحبوبين والمنتقين من قبل الله » حيث أوقفهم على كنه وفحوى الأخبار التي وصلته من المشرق ، ومفادها ، كما ذكر لهم : أن شعبا طاغيا ملحدا وملعونا اجتاح أراضي المسيحيين واحتلها بالحديد والنار وقد أعمل مقاتلته قتلاً في السكان المسيحيين ، أو أنهم استرقّوا طائفة منهم وقد دمّروا الكنائس أو حوّلوها أماكن لتمارس فيها المذاهب أو الفرق الاسلامية عبادتها وصلواتها • وبعد أن توسّع أوربان/٢ في عرض تلك اللوحة القاتمة على سامعيه فإنه وجّه إليهم نداءً وبصوت مرتجف ومترجـرج ، ذلك النـداء الذي ألهب الجماهير المحتشدة حماساً • وقد رفعت الجماهير عقائرها بالصياح قاطعـة خطاب الحبر الأعظم وهي تصيح : « بذلك قضت مشيئة الله » ذلك الصياح الصادر عن صدور لاهثة نطقت بتلك العبارة التي لم يلبث البابا نفسه أن ردّدها إشعاراً منه لسامعيه أنهم قد أحسنوا تعليل الموقف ، كما وجّه البابا كلامه الى من ينشدون أن يهبوا نفوسهم الى الجهاد في سبيل الله بأن يضعوا على صدورهم شارة الصليب • وبينما كانت توزع على أفراد الجمهور المحتشد قصاصات من الجوخ الأحمر (لتجعل على هيئة الصليب وتخاط على صدور من عزموا الانخراط في القوات التي ستوجّه الى فلسطين) فإن الكردينال غريغوار أعلن وهو جاثٍ على ركبتيه بحضرة البابا وباسم جميع أفراد ذلك الجمع المحتشد وتوكيداً لأيمانهم وكاعتراف منهم بالذنوب التي ارتكبوها • وبعد ترديد ذلك الكردينال وباسم الجميع عبارات الندم والتوبة فإن البابا تسلّم الحديث معلناً قبوله توبة جميع من أعلنوا عن استعدادهم الى التطوّع في القوات التي سترسل قريبا الى الاراضي المقدسة بمنحهم المغفرة الحبرية أي الرسولية ••• » •

وبعد أن أشار المؤلف الى أن عدد المتطوعة لم يكن في بادىء الأمر كبيرا أضاف الى ذلك قوله : « لم تلد الحملة الصليبية وبصورة عفوية بفعل الانتقال المتبادل لحماس كل من الحبر الأعظم والجماهير التي كانت تصغي الى خطابه . هذا بينما بوسعنا أن نعتبر وكمرحلة رئيسية في تهيئة واعداد الحملة التي ستوجّه الى المشرق أن أوربان/٢ كشف النقاب للجماهيروبصورة رسمية عن مشاريعه ليتمكن بعيد ذلك من اتخاذ الخطوات الكفيلة بتحقيقها. ولربما كان يوم ٢٨ تشرين الثاني حاسما وبنسبة أعلى من السابع والعشرين من الشهر نفسه (وهو اليوم الذي القى فيه البابا خطبته) . من حيث أن البابا عيّن في الثامن والعشرين من الشهر نفسه وبالاتفاق مع أعضاء مجمع كليرمونت الديني أسقف إقليم اليوي (ويقع في الحوض الأعلى لنهر اللوار ويبعد حوالي ٥٠٠ كم الى الجنوب الشرقي من باريز) إ يمار دومونتي (لنشر إلى أن الأستاذ لويس هالفين يذكر أن اسم هذا الأسقف هو آديمار وليس إيمار) كمندوب رسولي على رأس الحملة الذاهبة الى الأرض المقدسة، كما وصل الى البابا في التاريخ نفسه وفد مرسل من قبل كونت طولوز ريموند/٤ من سانت جيل Raymond IV de Saint - Gilles حاملين اليه أمنية سيدهم بقبول تطوّعه في الحملة المزمع إرسالها الى الديار المقدسة ، كما أملى في اليوم ذاته التدابير الخاصّة المتعلقة بأملاك النبلاء المتطوعين في الحملة الصليبية والتي ستتنفيأ أثناء غيابهم حماية البابوية ، وأنه لدى عودة أصحابها من الديار المقدسة سينعمون وبكل هدوء بممارسة ملكيتهم لها »[1].

لم يلبث أن زاد والى حدٍّ ما عدد المتطوعين بين كبار رجال الدين والنبلاء الإقطاعيين والفرسان العاديين ورجال الإكليروس والعلمانيين. أما عدد المتطوعة بين صفوف الفقراء فكان عظيما جداً . وقد تجاوز النجاح الذي لا قته الفكرة الصليبية بين صفوف الفقراء والمعدمين التقدير الأشد تفاؤلاً الى درجة أنه غدا مضايقا . وذلك لأن المواعظ المتّقدة حماساً والتي كان يلقيها بطرس

(١) أوغوستان فليش ، مجموعة غلوتز عن تاريخ العصور الوسطى المذكورة ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٥٥٨ ــ ٥٥٩ .

الناسك وزملاؤه وأقرانه وكانت نتيجتها جعل الآلاف من الحجاج من جميع الأعمار ، ومن الجنسين ، ومعظمهم بدون مؤن وبدون مال ولا سلاح يتدافعون علـى الطرائق المؤديـة الى القسطنطينية • وقـد عيل صبر تلـك الجموع أو القوات اللجبة الجرارة الزاحفة وكالسيل لرغبتها في الوصول وبأقصى سرعة الى قبر المسيح ، لذا فإن أفرادها لم ينتظروا تجمّع الجيوش النظامية • وكانت الجماعات الأولى التي سلكت طريقها نحو القسطنطينية عبـارة عن تجمّعات من عناصر بائسة لا تجانس ولا انسجام بينها • وهذا ما حمل الكثير من مؤرخي الحروب الصليبية على دعوة تلك الجموع الزاخرة من العـوام التي سلكت الطريق الى الديار المقدسة بصليبية الرّعاع أو بصليبية الغوغاء بينما دعاها بعضهم : صليبية العوام • وكانت غالبية أفراد صليبية العوام هذه من الفرنسيين • لقد بدأت تلك الجماعات مسيرتها وزحفها في شهر نيسان ١٠٩٦ وكان سلوك أفرادها على طول الطريق سلوك من يعيشون في المناطق التي يمرّون بها فساداً ويعملون فيها سلباً ونهباً أكثر من سلوك حجـاج للأراضي المقدسة • وجعل هذا السلوك الإمبراطور البيزنطي يأخذ فكرة سيئة عن مشروع الحملة • وبمجرد وصول هذه الجماعة الى بلاد السلاجقة أبادها هؤلاء (في تشرين الأول ١٠٩٦) • وثمة جماعـات أخرى بلغت عشرات الألوف ، وغالبية أفرادها من الألمان ، انقسمت الى ثلاث مجموعات بدأت زحفها وبصورة متتالية بعد الجماعات الأولى وقد أعمل فيها ملك هنغاريا قتلاً وذبحاً من جرّاء ما قام به أفرادها في بلاده من سلب ونهب وقتل بعد أن عبّأ للفتك بها جميع قوات بلاده [1] •

أما الجيوش النظامية التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى فقد بدأت تتحرك نحو غايتها وببطء • وكان البابا قد حدّد في مجمع كليرمونت تاريخ السفر في الخامس عشر من آب ، لكن في الأجل المضروب لم يكن قد تجهّز الى السفر سوى نبلاء حوضي نهري الموز والموزيل ، وكانوا بقيادة دوق

---

(١) راجع من أجل فشل صليبية العوام : أوغوستان فليش ، المصدر عينه ، المجلد ٢ ، القسم ٢ ، الفصل ٨ ، ص ٥٦٢ ــ ٥٦٣ .

مقاطعة اللورين السفلى غودفروا دو بويو ّن Godefroi de Bouillon الذي بدأ زحفه على رأس قواته بشكل منظم وباتفاق مسبق في هذه المرة مع ملك هنغاريا • وقد اجتازت هذه القوات النظامية أقاليم أوروبة الوسطى مارّة بمدن نيش وصوفيا وفيليبو پولي وبلغت أخيراً ضواحي القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦ •

وبدأ زحف ثلاثة الجيوش الباقية في خريف ذلك العام • ولعل أقوى تلك الجيوش الثلاثة هو الذي واكب ممثل الحبر الأعظم ، آديماردو مونتي والذي تسلّم قيادته العسكرية ريموند دو سانت جيل كونت طولوز ومركيز مقاطعة پروڤانس الذي غادر فرنسا حوالي منتصف تشرين الأول ليلتقي بقوات اللورين أمام القسطنطينية ، وقد سلكت قوات كونت طولوز طريقها مارّة بمناطق نومبارديا وإيستريا ودالماسيا ومقدونية • ويبدو أن حملة النبلاء النورمانديين قد بدأت زحفها أيضاً في تشرين الأول باتجاه لومبارديا بقيـادة دوق نورمانديا روبير ، وقد انضم الى هذه الحملة كونت مقاطعة الفلاندر • ولكن بدلاً من من أن تقطع هذه الحملة سواحل الآدرياتيك الشمالية لتقفو أثر قوات ريموند دو سانت جيل ، فإن قادتها رجّحوا ، ولعل ذلك لعدم تعقيد مسألة تزوّدهم بالمؤن على طول الطريق ، أن يصلوا مباشرة الى إقليم الپوي Pouille في جنوبي إيطاليا (وكان اسمه قديماً اقليم آپوليا Apulie المطّل على ساحل الأدرياتيكي) وأن يبحروا من باري الى دورازّو ، مما جعلهم يتأخرون فترة طويلة ، وذلك لان هبوب العواصف في بحر الادرياتيك جعلهم يرجئون عبوره حتى الى نيسان ١٠٩٧ لدرجة أنهم لم يصلوا القسطنطينية إلا في شهر مايس ، أي مؤكدا بعد عدة أسابيع من وصول اللانغدوكيين والپروڤانسيين وبعد أكثر من شهر من وصول قوات صليبية كبرى من نورمانديّي جنوبي إيطاليا الذين سلكوا الطريق بواسطة دورازّو وڤالونا وكانوا بقيادة بوهيموند بن روبير غيسكار[1] •

---

(١) راجع من أجل ذلك : لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٤ ، ص ٦٦ — ٦٧ .

وأشار الأستاذ أوغوستان فليش ونقلاً عن المؤرخ آلبيرت من مدينة إكس Aix الى أن الصليبيين في القوات النظامية التي تألفت منها الحملة الصليبية الأولى ضمّت صفوفهم والى جانب النبلاء الورعين الأتقياء عدداً كبيراً من فاسدي الأخلاق فذكر بالنسبة الى هذه القضية ما يلي : « ومع ذلك يجب ألا نبالغ في الاعتقاد ان جميع أولئك الفرسان كانت تحدوهم رغبة واحدة وهي أن يهبّوا الى نصرة المسيحيين المضطهدين في الشرق الادنى والى استخلاص القبر المقدس • وقد أشار المؤرخ آلبيرت من مدينة إيكس الى أنه وجد بين ظهرانيهم زناة وقتلة ولصوص وحانثون بأيمانهم • وقد استهوى القيام بالمغامرات وإغراء تلك المناطق المجهولة لهم والتي كان جميع من حجّها يطري ثراءها ، الكثيرين من الفرسان الذين تطوعوا في تلك الحملة الصليبية الى جانب الحافز الديني الصليبي• لكن حملة جنوبي فرنسا والتي كان على رأسها المندوب الرسولي (البابوي) وكونت طولوز (وهو ريموند/٤ سانت جيل) بقيت أشد وفاء وتمسكاً بالفكرة الصليبية التي حملت أوربان/٢ على التفكير بتوجيه تلك الحملات الى ربوع الشرق الأدنى ، ثمت فإن المندوب الرسولي إيمار دو مونتي (ذكرنا أن مصادر أخرى تدعوه آديمار) كان في أبرشيته داعية ومبشراً بالإصلاح الغريغوري ، وليس بوسع أحد سواه الحفاظ على التفكير الديني بين أولئك الفرسان الإقطاعيين الذين ينتمي إليهم بمولده ، والذين يعرف ، لشعوره بنفس الشعور ، سجاياهم السمحة الكريمة وغرائزهم الجشعة • وقد شدّ ريموند سانت جيل وبصورة تستدعي الإعجاب أزره خاصة وهو ذلك الفارس النبيل الذي تجمّعت فيه الخصال الكريمة الواجبة التوفرّ في الفارس المسيحي الكامل من عفّة وإيمان ، والذي تناسى إقطاعه الذي حصل عليه منذ فترة وجيزة وأنه وتبعاً لذلك يستدعي وبحكم الضرورة بقاءه فيه ، وعلى الرغم من كل ذلك فإنه أقسم أثناء تطوّعه تحت راية الصليب أنه لن يعود إطلاقاً الى إمارته • وبالنظر الى صفاء وطيب سجايا هذا الفارس فإن النبلاء الإقطاعيين الذين كانوا في الحملة الأولى ذاتها وعند العثور على الرمح المقدس عند أسوار أنطاكية فإنهم عهدوا إليه بالحفاظ على ذلك الأثر

المقدس الثمين . وهكذا فان حملة جنوبي فرنسا (ويطلق المؤرخون الفرنسيون هذا النعت على الحملة الصليبية الأولى حيث كانت جمهرة المشتركين فيها من الفرنسيين) والتي كان على قيادتها رئيس من هذا النوع بدت وكأنها الحملة التي تمثل العقيدة والإيمان المسيحي والتي كان كل من المندوب الرسولي ومساعده يقودانها ، وقد كانا يبدوان ، كما أشار الى ذلك أحد الحوليين ، بمثابة نبي الله موسى وأخيه هارون »[1] .

ويحمل كل شيء على الاعتقاد أنه على الرغم من انفصال الكنيستين الشرقية والغربية عن بعضهما فإن الحبر الأعظم كان قد تفاوض مع الإمبراطور البيزنطي الكسي كومنين وتمّ بينهما الاتفاق على الخطوط العامة بصدد مرور الصليبيين في أراضي الإمبراطورية البيزنطية ، وتجمعهم أمام أسوار القسطنطينية وعبورهم مضيق البوسفور الى آسيا الصغرى وتموينهم . لكن تنفيذ هذا الاتفاق الذي نجهل تفاصيله ووقائعه أدّى الى ظهور صعوبات لا حصر لها ، من حيث أن قادة الصليبيين لم يوفّقوا دائماً في كبح جماح جنودهم الذين كثيراً ما اعتبروا البلاد الصليبية بلاداً عدوّه . كما وأنه حرصاً من الإمبراطور الذي ذاقت بلاده الويلات من جراء مرور عصابات بطرس الناسك في ربوعها على ألا تعاد الكرّة فانه اتخذ بعض الاحتياطات حتى ولو كان من شأنها الضغط على حرية الصليبيين أو استفزاز مشاعرهم كأن يعهد الى فرق غير نظامية من الجنود البرابرة (أي من غيررعايا البيزنطيين) الذين كانوا أجلافاً قساة بمراقبة القوات الصليبية وحملها على الهدوء .

ومع ذلك لم يكن لهذا العمل وقع سيء جداً لو لم تظهر عقبة كأداء منذ أول احتكاك بين القوات الصليبية والبيزنطية أوشكت أن تؤثر على طبيعة مشروع الحملة . لقد أهمل البابا أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين الإمبراطور البيزنطي البحث في مصير الأقاليم التي سيحتلها الصليبيون سواء أكان ذلك سهواً منه أم كان متعمّداً حيث رأينا أنه لم يشأ أن يكسو أغراضه

---

(١) أوغوستان فليش ، المرجع المذكور ، المجلد ٢ ، القسم ٢ الفصل ٨ ، ص ٥٦١ — ٥٦٢ .

الدينية البحتة بطلاء مادي . وكنا ذكرنا من قبل أنه لم يكن راغباً في أن تكون الحملة الصليبية مجرد حرب توسعية استعمارية إنما حرب من أجل غايات أنبل وأسمى . ومهما يكن فان قضية مصير المناطق التي سيحتلها الصليبيون في سورية والأراضي المقدسة لم تثر إلا منذ أن وطئت أقدام الصليبيين تربة البلاد البيزنطية ، وقد دهش قادة القوات الصليبية عندما سمعوا من فم العاهل البيزنطي أنه مزمع الاحتفاظ بحقوقه في السيادة على جميع المدن والأقاليم التي كان المسلمون قد احتلوها من البيزنطيين والتي سيقوم الصليبيون باستردادها من السلاجقة . وتبعاً لذلك فإنه طلب الى كل منهم أن يقسم ومقدماً يميناً بالولاء والتبعية تحفظ للإمبراطور البيزنطي حقوقه على الأراضي التي سيتم انتزاعها . وأنه لن يقدم دعمه العسكري الى الحملة أو يسمح بنقل الجنود والمؤن عبر البوسفور إلا إن ربط القادة أنفسهم بهذا القسم . وقد استجاب معظم النبلاء القادة الى اشتطاط الإمبراطور ولو أنهم احتدموا غيظاً معتقدين أن يميناً انتزعت منهم بهذا الشكل ليست لها أية قيمة وأن مخالفها لا يعتبر خائناً وأنه « ليس على مكره يمين ... » .

ارتداد القوات السلجوقية عن آسيا الصغرى عند وصول الصليبيين اليها :

إنه ولو اقتصر دور البيزنطيين على تزويد قادة الحملة الصليبية بما لديهم من معلومات عن عالم السلاجقة الذي سيخوضون صراعاً مريراً ضده وذلك بحكم جوارهم لهذا العالم ، فان ذلك الدور سيكون بالنسبة الى الصليبيين ذا أهمية قصوى وذلك لأن عيون الإمبراطور البيزنطي المنتشرين في جميع بقاع آسيا الغربية والذين أخذوا منذ عشرات السنين يذكون الفتن ويحبكون المؤامرات ويثيرون الأمراء الحاكمين ، الذين كانوا من جميع الأجناس ومن جميع المذاهب ، على بعضهم بعضاً مما كان ذا أثر في إضعاف قوة السلاجقة غداة أوج ظفرهم .

كان السلاجقة مقاتلين مهرة وفرسان حلبة لا يشق لهم غبار ولا يجارون في مضمار لكنهم لا يتمتعون إلا بمركز متوسط فيما يتعلق بالتنظيم حيث لم يجيدوا تحويل تلك الاقاليم الفسيحة الرحاب التي أخضعوها بحد السيف

الى دولة منسجمة متجانسة • وكان لأمرائهم الذين يمارس كل منهم حكم إقليم من هذه الأقاليم مستقلين في الواقع عن بعضهم بعضاً وتفصلهم عن بغداد حاضرة الخلافة بواد مقفرة • وكان السلاجقة لا يقرّون فكرة الخضوع الى سلطة مركزية والائتمار بأمرها والعمل بتوجيهاتها ، إنهم كانوا يؤثرون العيش في ظل الفوضى • وسرعان ما كفّ حكام الأقاليم أو الأمراء المعيّنون من قبل السلاطين السلاجقة عن التقيّد بتوجيهات وإرشادات رؤسائهم ليمارس كل منهم وداخل نطاق المنطقة التي أوسد حكمها إليه السياسة الملائمة لأذواقه وطموحه وأطماعه الشخصية •

وقد بدا هذا الواقع حقيقياً ولا سيما منذ وفاة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الذي تمكّن بقوته الجبّارة من إيقاف التيار الذي كان سيؤدي بإمبراطورية السلاجقة الى الانهيار ولمّا تنجز بعد وحدتها • إنه نجح وبصورة مُدَوِّية وتسترعي الانتباه في استرداد آسيا الصغرى من البيزنطيين تلك المنطقة التي كان العرب والمسلمون يدعونها « بلاد الروم » والتي انفصلت منذ مستهلّ عهده عن كتلة البلاد الخاضعة الى حكمه لتشكل سلطنة أخرى أوسد حكمها الى ابن عمه سليمان بن قتلمش ، وصارت تعرف باسم سلطنة سلاجقة الروم • وقد تخلّص ملكشاه وفي الوقت المناسب من ابن عمه ، ذلك المنافس الخطير الذي قتل في معركة خاضها سنة ١٠٨٦ • فلم يأل ملكشاه ومنذ ذاك جهداً وحتى آخر رمق من حياته في إعادة وحدة الدولة السلجوقية بشتى مناطقها وأجزائها تلك المناطق والأجزاء التي لم يتمكن الخلفاء العباسيون ، الذين كان السلاجقة يحكمون في ظلّهم وباسمهم ، حتى في أوج عزّهم وقوتهم إلا بشقّ الأنفس من الحفاظ على وحدتها مع باقي أجزاء إمبراطوريتهم •

وبمجرد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ عادت التجزئة الى بلاد السلاجقة أعنف وأقوى مما كانت عليه من قبل • وتمكن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش من العودة الى قونية حاضرة سلطنة أبيه (سلطنة سلاجقة الروم) • وقد حالفه الحظ وللمرة الثانية في انتزاع بلاد الروم كلها (آسيا الصغرى) من سلطة خليفة بغداد العباسي ومن سيطرة السلطان السلجوقي المستأثر بالسيطرة

على الخلافة العباسية وعلى حاضرتها بغـداد نفسها وهو السلطان برقيارق الابن البكر لملكشاه الذي تحوّل عن آسيا الصغرى ليقوّي قبضته وسيطرته على بلاد فارس والعراق وسورية بدون أن ينجح في الوقت نفسه في بسط سيطرة مماثلة على مصر • وقد عادت البلاد التي خضعت الى النفوذ السلجوقي الى ظل الفوضى التي كانت ترين عليها قبل تواليّ طغرل بك وألب أرسلان حكمها أي مجرد خليطة معدنية أو لوحة فسيفساء ، وذلك بالنسبة الى العدد الذي لا حصر له من الإمارات التي تقوم في ربوعها ، وهي إمارات متنافسة وتعيش كلها على الشهرة التي كان جنودها يتمتعون بها كمقاتلة شجعان وفرسان أشاوس • بيد أن هذه الإمارات لم تهتم إطلاقاً ، وفي هـذا الظرف الحرج بالذات ، بالصالح العام • ونظراً الى أن البلاد الخاضعة الى سلاجقة الروم حصينة منيعة ، وبما أن عيون البيزنطيين لم ينوا في جعل سلاطين هذه البلاد ينفصلون عن مجموعة كتـلة السلطنات السلجوقية الأخرى لذلك لم يعتّم سلاجقة الروم أن فقدوا أي شعور بالتآزر والمساندة مع باقي المجموعات السلجوقية • ولم يتردّد بعض حكام مـدن سلاجقة الروم عن الاستنجاد بالقوات البيزنطية ، وعندما كان بوسعهم اللجوء الى تلك الوسيلة ، ليتغلبوا على خصومهم • وقبيل مجيء الحملة الصليبية كانت المناطق الغربية من آسيا الصغرى غارقة في بحر من دماء حيث تآمر السلطان قليج أرسلان وبالاتفاق مع الإمبراطور البيزنطي ألكسي كومنين ، على عمّه والد زوجته سلطان مدينة إزمير • فتلك السياسة الخرقاء والرعنـاء (التحالف مع الإمبراطور البيزنطي) التي انتهجها إذ ذاك قليج أرسـلان ساعدت الحكومة البيزنطية على الصمود في وجه أمير إزمير وهجومه على جزر بحر إيجة لاسيما وكان من شأن النجاح الذي حقّقه هـذا الأمير في تلك الجـزر أن يعتبر وعلى الصعيد السلجوقي العام انتصارات مؤزّرة رائعة • وفي الوقت الـذي كان فيه الصليبيون يعبرون مضيق البوسفور كان سلطان سلاجقة الروم منهمكاً في قتال الملك غازي الدانشمندي على ضفاف الفرات وكان غازي هذا راغباً في أن يؤسس على تخوم سلطنة سلاجقة الروم إمارة واسعة تتمتع باستقلال فعلي

عن هذه السلطنة ، لاسيما وأن سياسة الملك غازي هذا غالباً ما كانت معارضة لسياسة سلطان سلاجقة الروم •

وفضلا عن جميع ما ذكر يجب ألا يغرب عن بالنا أن عـمّال السلاجقة في مختلف الأقاليم سواء في سورية أم في العراق أم في بلاد فارس أم في آسيا الصغرى كانوا لا يقدمون ولاءهم وتبعيتهم التامة الى السلطان السلجوقي إنما كانوا شبه خارجين على سلطته • وسعياً من هذا السلطان الى أن يبقي الولايات الآنفة الذكر في ظل تبعيتها التامة فإنه عيّن لحكمها وإدارتها أفراداً من أسرته وفضّل الشباب الصغار منهم واضعاً كلاً منهم في عهدة رجل من ثقته لرعايته وتوجيهه ، ومنح كلاً من هؤلاء الرجال المحنّكين الذين عركهم الدهر لقباً مشـرّفاً **« الأتابك »** فكان أحدهم يقوم بدور المستشار والمربّي في الوقت نفسه لأولئك الأمراء الصغار الذين كان مفروضاً فيهم ممارسة الحكم بأنفسهم • بينما كان كل من أولئك الأتابك في الواقع حريصاً على استخلاص السلطة لنفسه وممارستها لحسابه الخاص وتأمين انتقال مناصب الحكم الى أنساله الخاصّين من بعده •

وهكذا كانت الفوضى منتشرة في جميع الولايات التي كان يجب عليها الخضوع ، ولو على الصعيد النظري ، الى السلطان السلجوقي • وندر أن وجدنا بين هؤلاء الأمراء الحكام من كان ملتزماً الخضوع التام للأوامر الصادرة إليه من بغداد حاضرة الخلافة • وقدمت ثورة حاكم دمشق السلجوقي تتش أخي السلطان ملكشاه على ابن أخيه برقيارق سنة ١٠٩٤ لنا مثلاً آخر على جو الفوضى الذي كان يخيّم على البلاد قبيل الغزو الصليبي لها • كما بدأت سلطة برقيارق في العراق تهن وتضعف من جرّاء دسائس أخيه محمد الذي سيقود منذ سنة ١٠٩٩ الثورة الأهلية ضد أخيه محاولاً إثارة أفراد الحاشية والبلاد لمصلحته • فكيف نعجب إذاً أن الأمراء حكام الأقاليم قد تُرِكوا منذئذٍ الى مجابهة مصائرهم ولمقارعة الخطوب التي تنزل بهم ، وأنه إذا ما داهمهم الخطر فسيبرمون وبصورة خاصة الاتفاق مع من يهتم من الأمراء جيرانهم بمصيرهم • لكن المفاوضات من أجل إبرام تلك الاتفاقات كان يطول أمدها وقد تكون متابعتها دقيقة للغاية ومحرجة لدرجة قد تفقدها

الغاية التي نشدت من وراء عقدها من جراء التأخير الذي يؤدّي إليه تبادل وجهات النظر ، وحتى المساومة نفسها • وقد شعر بوطأة ذلك حاكم أنطاكية السلجوقي ، وكان ذلك لغير مصلحته ، فعنـدما بدأ الصليبيون يهدّدون حاضرته ظنّ أن من واجبه أن يستنجد بأمير الموصل ((**كربغا**)) فلم تصـل قوات هذا الأخير لنجدته إلا غداة سقوط المدينة بيد الصليبيين بعد مقاومتها طوال سبعة أشهر •

وعلاوة عن ذلك تجب الإشارة الى العداء الخفي غير السافر الذي كان يكنّه قسم من عناصر السكان الى السلاجقة وللمسلمين عامة الذين عاشوا بين ظهرانيهم وبدون أن يؤدي تسامح هؤلاء بإزائهم الى التخفيف من حدّة كراهيتهم لهم ، وتلك حال السكان الأرمن بصورة خاصة الذين كانت جماعاتهم قد غادرت موطنها الأصلي عندما غمرته عناصر المدّ العربي الإسلامي • وقد أخذت تلك الجماعات التي بدأ عددها بالازدياد وباطراد تبحث عن مأوى لها الى الجنوب الغربي من بلادها الأصلية منتشرة في المناطق التي كان البيزنطيون وما يزالون محتفظين بها بين وادي الفرات وسلسلة جبال طوروس الداخلية وحتى الى كيليكيا لا بل الى جنوبي سورية • وبعـد انتشار الإسلام في هاتيك الربوع عامل المسلمون هؤلاء المهـاجرين من أرمينيا معاملة سمحة كريمة • وبلغ من حسن معاملة المسلمين لأولئك الأرمن أنهم أسندوا إليهم مناصب هامة في ممارسة شؤون الإدارة ، لا بل فإنهم أسندوا إليهم حكم بعض المدن كمرعش والرّها (وهي أورفة الحالية) وغيرهما ظانين أن معاملتهم السمحة أو نظام حكمهم القائم على حرية ممارسة العقيدة أي ليبراليتهم الحرّة ستلقى تجاوباً في نفوس أفراد تلك العناصر ولكن حدبهم ورعايتهـم لتلك العناصر ذهبا أدراج الرياح حيث سينضم الكثيرون منهم الى الصليبيين[1] •

استيلاء الصليبيين على آسيا الصغرى وموالاتهم الزحف على بيت المقدس :

ــ لم تجد الجيوش الصليبية مشقة كبرى في الواقع في التغلّب على القوات

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في لويس هالفين ؛ مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ؛ المجلد/٦ ، القسم/١ ؛ الفصل/٤ ؛ حتى ٦٨ ــ ٧١ •

التي حاول الحكام السلاجقة مجابهتهم بها • وكانت أقوى مقاومة صادفوها أمام أسوار نيقية حيث كان العاهل البيزنطي حريصاً على الإفادة من سنوح فرصة مقدم الصليبيين لاسترداد البلاد التي كان المسلمون قد استخلصوها من البيزنطيين • وبعد أن دام حصار نيقية مدة أربت على الشهر ذلك الحصار الذي اشتركت فيه القوات البيزنطية ، ولو أنها كانت متراخية في هجماتها ولم تصدق القتال ، سقطت تلك المدينة في أيدي محاصريها • وبعد احتلال البيزنطيين لهذه المدينة توجهت قواتهم مباشرة الى سواحل بحر إيجة لتسترد ّ وعلى مراحل متتالية مناطق إزمير وليديا وفريجيا وبثنيا • هذا بينما أوغلت القوات الصليبية في زحفها متحدّية الجو القائظ مجتازة وبصورة نظاميـــة هضبة الأناضول بدون أن تتمكن قوات السلاجقة التي انهارت معنوياتهـــا منذ الاشتباكات الأولى ، ولا في موقع من المواقع ، من الحيلولة دون موالاة الصليبيين لزحفهم خلال فترة طويلة • ثم دخلت القوات الصليبية مدينـــة اسكي‌شهر (وكان اسمها دوريليه) في أول تموز ، واحتلت بعد ستة أسابيع مدينة قونية ووصلت في حوالي منتصف ايلول الى كيليكيا •

لكنه ومنذ تلك الفترة وبعـــد تغلّب الصليبيين على أكأد العقبات فإن قواتهم بدأت تتراخى وأخـــذت عزائم النبلاء تهن وبدأ الاستقرار في تلك المناطق يغري بعضهم • ولم يعدم أولئك الذين بدؤوا يميلون الى الاستقرار والمقام في هاتيك الربوع الحجج والذرائع وذلك لأنه بعد اجتياز الصليبيين شعاب طوروس الصعبة السلوك وجدوا أنفسهم بين ظهراني العناصر الأرمنية التي تركها السلاجقة تستقرّ في تلك الرحاب • ونظراً لكون تلك العناصر مسيحية فإنها استقبلت الصليبيين كَمُحَرِّرين • وكانت تلك الفرصة ممتازة بالنسبة الى بعض قادة الصليبيين الذين قاموا ببعض المغامرات وبالعمل من أجل مصلحتهم وخدمة لأغراضهم الشخصية بدون أن يأبهوا بصالح الفكرة الصليبية •

وهكذا بدأت قوات هذه الحملة الصليبية تتوزّع وفي غضون عدّة أسابيع على بعض المناطق • وأخذ أحد بارونات الحملة النورماندية الإيطالية

الشهيرين ، وهـو تنكريد حفيـد روبير غيسكار من جهة أمه ، وأكبر نبلاء قوات إقليـم اللورين وهـو بودوان دو بولوني Baudoin de Boulogne (أخو غودفروا دو بويّون) يتسابقان ليبلغ كل منهما وقبل زميله مدينة تارس Tarse ليستولي عليها لحسابه الخاص • وبعد نقاش حادّ عنيف كاد أن يتحول الى قتال أخوي فإن بودوان وقواته اللورينية زحزحوا النورمانديين الذين كانوا أقلّ عَدَداً وأسوأ عتَدَاً وأبعدوهم (ايلول ١٠٩٧) ، هذا وإن يكن تنكريد وصحبه قد عوّضوا عن خسارتهم بالاستيلاء على مدن عديدة بينها أضنة والإسكندرونة• كما استولى الفرسانالپروڤانسيونواللانغدوكيون المنضمون الى قوات ريموند دو سانتجيل على كثير من الحصون المشيّدة على الطريق ما بين أنطاكية وحلب • وثمة صليبيون آخرون لحقوا بالأمير بودوان دوبولوني ، فاتح مدينة تارس ، الى ما وراء مجرى الفرات ، وحتى مدينة الرّها (أورفة) التي سيطروا واستولوا عليها •

ومع ذلك فقد وصل القسم الأعظم من قوات الصليبيين أمام أسـوار أنطاكية ، في ٢١ تشرين الأول ، تلك المدينة الجميلة التي كان أكثر من أمير من أمراء الحملة يمنّي نفسه بالاستئثار بها لنفسه من دون الباقين ولا سيما بوهيموند رئيس نورمانديّي إيطاليا• لقد طال حصار هذهالمدينة ، ولم يكن أحد القادة المحاصرين لها راغباً في مضاعفة جهوده لأنه لم يكن واثقاً من أنه سيجني شخصياً ثمار تلك الجهود • وأخيراً فإن بوهيموند الذي حسب أنه يجب على باقي أمراء الحملة أن يعتبروا أنفسهم مرؤوسيه والذي نجح في استمالة بعضأفراد حامية المدينة الى جانبه ، تمكّن في الثالثمنحزيران١٠٩٨ من الاستيلاء على مدخل المدينة • ونظراً لأمل بقية قادة الحملة في أن يستولوا في هذه المدينة على غنائم وفيرة فإنهم زادوا من عنف هجماتهم ، ولم تسقط أنطاكية فقط بأيديهم وبدون كبير عناء إنما تمكنوا وبعد ثلاثة أسابيع منالقتال الشديد الذي احتدم بينهم وبين قوات أمير الموصل كربغا التي وصلت في ٤ حزيران لنجدة حامية أنطاكية من دحر هذه النجدة وردّها على أعقابهـا في ٢٨ من الشهر نفسه مما أدى الى عدم بقاء أية قوة مرابطة على الطريق

المؤدّية الى الجنوب لصد الصليبيين[1] .

لكن ازدياد حدّة القيظ من جهة وازدياد جشع النبلاء في الحرص على الاستيلاء على ممتلكات جديدة من جهة ثانية أعاقا الحملة عن موالاة زحفها بسرعة الى الجنوب . وقد تنافس كبار قادة الحملة من أجل الاحتفاظ بأنطاكية ، بينما كان النبلاء الأقل أهمية منهمكين في سلب ونهب المناطق المجاورة لهـا أو أن يقيموا في تلك المناطق إقطاعات جديرة بمركزهم . وكان الإعياء قد استولى على الكثيرين من الصليبيين أثناء حصار أنطاكية لأنهم لم يكونوا قد فكّروا أن الحملة ستطول فترتها الى هذه الدرجة ولا أن يتعرضوا الى آلام مُبَرِّحة وعذاب كالذي ذاقوه . ومنذ حلول عام ١٠٩٨ بدأ الكثيرون من النبلاء والأشخاص العاديين بدون استثناء أفراد الإكليروس المرافقين للحملة يفرّون منها . لا بل فإن بطرس الناسك نفسه فكر في برهة ما قبل سقوط أنطاكية بالفرار بمعية ڤيكونت مولان Melun . وقد أوقف هذا الأخير وحيل بينه وبين تنفيذ فكرته لكنه لم يلبث أن عاود المحاولة مجدّداً وقلّده الكثيرون من أفراد الحملة . ثمت ألم نر في شهر حزيران من العام نفسه واحداً من القادة الرئيسيين للحملة وهو إيتيين (كونت مقاطعتي بلوا وشارتر) يتذرّع بمرض أصابه ليفر الى ميناء الإسكندرونة الذي أبحر منه وبأقصى سرعة ؟

هذا ويجب أن نعترف في الواقع أنه من جراء النّصب والتعب ، ومن جرّاء شدة وطأة القيظ ، ونتيجة لمعيشة الحرمان وحياة التَبَلُّغ التي كان مقاتلة هذه الحملة يحيونها فان المرض بدأ يفتك بهم فتكاً ذريعاً . وقـد توفّي المندوب البابوي آديمار في مطلع آب وتركت وفاته الساحة خالية وبصورة أكثر أمام جشع القادة الزمنيّين كي يُرْجِئوا الزحف على بيت المقدس الى بداية فصل الشتاء . وعندما تم الاتفاق في الايام الاخيرة من

(1) راجع تفاصيل حصار أنطاكية والمناطق المجاورة لها ومشروع التحالف الذي فكّر في عقده بين الصليبيين والفاطميين في كتاب الدكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ... ، ج/1 ، الباب ٣ ، الفصل ٥ ، ص ١٨٨ — ١٩٦ ثـم بالنسبة الى مشروع التحالف المذكور ، وسقوط أنطاكية وفشل نجدة كربغـا التي وصلتها ، المصدر عينه ، ج ١ ، الباب ٣ ، الفصل ٥ ، ص ١٩٧ — ٢١٨ .

تشرين الثاني على استئناف زحف القوات الصليبية أجّلوا في ذلك الظرف الراهن مسألة تنظيم البلاد المجاورة لأنطاكية والتي فتحت بصعوبة الى المستقبل • وقد قطعت الحملة بعد ذلك مسافة ثمانين كيلو متراً لتغور أقدام أفرادها في الرمال وفي الوحل مجدّداً وذلك في مدينة معرّة النعمان الصغيرة حيث تم جمع الغنائم وانتهى مقاتلة الحملة من إرواء ظمئهم الى سفك الدماء فلم يعد أحد يفكّر إلا بالعمل لحسابه الخاص • وقد قدّر بعض رجالات الحملة أنهم أسهموا فيها بما فيه الكفاية فعادوا أدراجهم الى الشمال حيث قصد بعضهم مدينة الرّها وبعضهم مدينة تارس وآخرون توجّهوا الى أنطاكية • وتلك كانت حال بوهيموند الذي سرّه كثيراً أن رأى ابتعاد منافسيه فعاد على جناح السرعة الى تلك المدينة في نهاية كانون الاول عندما تأكّد تماماً أن ريموند دوسانت جيل لن يأتي لمزاحمته على امتلاكها • ثمت فإن ريموند نفسه والذي كان في تشرين الثاني قد رفض مغادرة أنطاكية إذا بقي فيها بوهيموند لم يقبل مواصلة زحفه في شهر كانون الثاني ١٠٩٩ ، إلا بعد أن ضُغِطَ عليه وأُجْبِر من قبل رجال متديّنين أتقياء على ذلك لا سيما وكان يأمل أن ينال في موعد مقبل عرش بيت المقدس مكافأة له على خدماته •

ثم نشط ريموند مجدّداً ولم يعد يحلم منذ ذاك إلا بموالاة الزحف • ولم يحجم عن تكبّد تضحيات مالية كبيرة ليذكي حماس بقية البارونات وليستميلهم الى جانبه حيث منحهم مبالغ باهظة • وقد وصل الجميع الى وادي العاصي ثم سلكوا طريق ذلك الوادي وصعداً نحو الشمال ثم انحرفوا بعيد فترة نحو الغرب باتجاه ساحل البحر بدون أن يتعرّضوا الى أقل مقاومة• وقد نصبت الحملة في ٢٢ كانون الثاني خيامها في مصياف • وبعد عدة أيام سارت قوة من الحملة الى الساحل لتحتلّ ميناء طرطوس •

وقد حدث تأخّر جديد يعزى الى رغبة ريموند سانت جيل الواضحة في أن يضمن لنفسه الاستيلاء ولحسابه الخاص على طرابلس وضواحيها فدخل القسم الاعظم من الحملة هذه المدينة في ١٣ مايس ، كما دخلت تلك القوات

بيروت في التاسع من الشهر نفسه . ثم والت الحملة طريقها وبسرعة فلم تتوقف أثناء الطريق وللراحة إلا خلال برهة وجيزة . وكانت أول مرحلة قطعتها الحملة هي ما بين بيروت وصيدا ، ومن ثم الى صور وبعدها الى عكا وهرقلة فالرملة فعمواس التي وصلها الصليبيون في السادس من حزيران حيث بدت مدينة بيت المقدس صبيحة ذلك اليوم لناظريهم . وقد أذكى منظر المدينة المقدسة الشعور الديني لدى مقاتلة الحملة فاستثار عواطفهم ولم يعد أحد منهم يفكر بحياة الحرمان التي عاشها والعذاب والشقاء اللذين تحمّلهما . كما أذكى الشعور نفسه حماس هؤلاء المقاتلة لتحقيق الهدف الاسمى الذي بات منهم قاب قوسين أو أدنى بعد أشهر طويلة من الانتظار . لكن لم يبق من الجيوش اللجبة والجحافل الجرارة من القوات الصليبية التي غادرت أوروبة الغربية يحدوها الأمل سوى عدد قليل من المحاربين وقفوا الآن ليمتعوا أنظارهم بذلك المنظر الذي لا يمكن أن ينسى فلم يبق من تلك الحملة سوى ١٢٠٠ ــ ١٣٠٠ فارس مع أتباعهم كما يؤكد ذلك أحد شهود العيان أي بين ١٠٫٠٠٠ ــ ١٥٫٠٠٠ مقاتل بينما قُدِّر عدد القوات التي غادرت أوروبة بمائة وخمسين الف المقاتل وفق التقدير الاكثر اعتدالاً .

وكانت المدينة المقدسة مزوّدة بوسائل دفاع قوية وترابط فيها حامية وفيرة العدد منذ أن سقطت بيد خليفة القاهرة الفاطمي ، كما اختزنت فيها كميات كافية من المؤن والماء ومع ذلك فانها لم تصمد في وجه محاصريها سوى شهر واحد . وكان تموين المحاصرين لا سيما تزوّدهم بالماء يتمّ بصورة رديئة . وقد أنهكت شدة قيظ فصل الصيف في سورية قوى الصليبيين وبدأ يسيطر عليهم اليأس من جرّاء عجزهم عندما بذل جهد أخير عنيف في أيام ١٣ و ١٤ و ١٥ تموز أدى الى نجاحهم في النهاية . وبدأ الهجوم العام في الخامس عشر من الشهر نفسه من جهتي الشرق والجنوب في نفس الوقت وأخذ المهاجمون يدمّرون جميع ما وجدوه في طريقهم معملين قتلاً في سكان المدينة ومستولين على كل ما عثروا عليه فيها ومشعلين الحرائق داخلها متسلقين سطوح المنازل ليتاح لهم قتل سكانها مريقين الدماء

التي جرت في الطرق كالسيل حتى داخل هيكل سليمان . ونجحت الحملة في استرداد قبر المسيح من المسلمين في ١٥ تموز ١٠٩٩[1] .

استقرار الصليبيين في بلاد الشام (٢) : أنجز أفراد الحملة حجّهم الاكبر الاراضي المقدسة وصار بوسع كل واحد منهم أن يعتبر أمانيه قد تحققت . وفعلاً فان الكثيرين من مقاتلة تلك الحملة الصليبية قد أبحروا عائدين الى بلادهم ونفوسهم تطفح بالبشر وتغمرها السعادة هذا بينما لم يكن وعلى صعيد الواقع قد حُلّ شيء بعد . لا بل فإن استرداد القبر المقدس لم يتوطّد بعد وحتى ذلك الظرف مادام يخشى من عودة القوات الفاطمية الى مهاجمة مدينة القدس مجدداً لا سيما وأن تسلّم الافضل للوزارة الفاطمية في مصر معناه أن القاهرة تخلّت عن موقفها السلبي ، زد على ذلك كله أن الأسباب الجغرافية والسياسية (المتعلقة بعدم تمكّن الحكومات المتعاقبة على مصر من الدفاع عن حدودها الشمالية الشرقية الصحراوية لعدم إمكانية إقامة تحصينات فيها) التي دفعت حكام مصر وفي جميع حقب تاريخ ذلك القطر الى تغطية دفاعهم عنها من جهة الشمال باحتلال فلسطين على الاقل إن لم يكن جميع أقاليم بلاد الشام . فتلك الاسباب نفسها هي التي حدت بالوزير الفاطمي الافضل في شهر آب ١٠٩٨ الى إرسال جيوشه الى فلسطين التي استخلصت من أيدي السلاجقة . فتلك الاسباب كانت من القوة بحيث جعلت الفاطميين لايرضخون الى الامر الواقع ويقبلون الانتصارات الاخيرة التي أحرزها الصليبيون كحقيقة راهنة . وهكذا فبمجرد سقوط بيت المقدس توجّه جيش فاطمي مدعوم من قبل الاسطول الى ميناء عسقلان . وقد واتى الحظ الصليبيين بإحرازهم النصر في المعركة العنيفة التي خاضوها ضد تلك القوات الى الشمال الغربي من عسقلان في ١٢ آب ١٠٩٩ حيث لقّنوا

---

(١) راجع تفاصيل هذا الموضوع المكثّف في لويس هالفين ، مجموعة الشعوب والحضارات المذكورة ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٤ ، ص ٧٢ — ٧٥ .

(٢) راجع تفاصيل هذا الموضوع في المصدر عينه ، المجلد ٦ ، القسم ١ ، الفصل ٤ ، ص ٧٥ — ٨٠ .

الفاطميين درساً قاسياً منعهم من القيام بأية محاولة لغزو فلسطين في المستقبل القـريب .

ومهما كان النصر الذي أحرزه الصليبيون في فلسطين مؤزّراً فإنه لم يكن كافياً لتقرير مصير هذه البلاد . إنهم أفادوا لتحقيق هذا الغرض من تدفّق النجدات من أوروپة الغربية التي أخذت تترى على سواحل فلسطين ومن الاساطيل الايطالية التي كانت شديدة الحرص على انتقال السيطرة على هذه البلاد الى أيدي الغربيين (وذلك لتأمين ازدهار تجارة جمهوريات إيطاليا مع الشرق الاقصى) فكل ذلك أدّى في فلسطين الى توالي سقوط المدن الرئيسية الداخلية والساحلية الواحدة إثر الاخرى بأيدي الصليبيين . وقد مَرّ ربع قرن قبل أن يَنْتهيَ احتلال هؤلاء لمدينة صور سنة ١١٢٤ استيلاءهم على الاراضي المقدسة .

وحتى قبل إنجاز الصليبيين تلك المهمة كاملة فانهم وضعوا حلاً للقضية الدقيقة للغاية وهي إيجاد كيان سياسي للمناطق التي أمكنهم إجلاء المسلمين عنها . أما فلسطين بالذات فإنه منذ الوقت الذي تمّ فيه إقصاء كل مـن السلاجقة والفاطميين عنها غدت مسألة هذا الكيان بالنسبة الى الصليبيين مسألة داخلية بحتة ، لأن الحكومة البيزنطية لم تبد أية رغبة في المطالبة بتلك الولاية النائية والتي كانت قد فقدتها منذ فترة تقرب من أربعة القرون وحيث لم يكن ثمة ما يُبَرِّر إيجاد سبب للخصام مع الفاطميين من أجلها . لكن الحال تختلف بالنسبة الى سورية وملحقاتها حيث احتفظ الإمبراطور البيزنطي لنفسه وبشكل قطعي بما يدّعيه من حقوق فيها ، وحيث كانت الغالبيـة العظمى إن لم يكن مجموع القادة الصليبيين قد أقسموا وبحضرة الإمبراطور نفسه على أن يكون سلوكهم وبالنسبة الى الفتوح في سورية وبإزاء هذا الإمبراطور ، حسب كل حالة على حدة ، كحلفاء شرفاء وكأوصال تابعـين أوفياء مخلصين له . واضطروا بَرّاً بأيمانهم إما الى تسليم المواقع المستردّة الى الضباط البيزنطيين وذلك بعد القيام باقتسام ما استولوا عليه مـن غنائم ، وإما ، في حالة بقاء القوات الصليبية محتلة أحد المواقع بصورة دائمة

أن تعترف بالسيادة البيزنطية على هذا الموقع وبتبعيته الـى الامبراطور البيزنطي ثم يطلب قائد الصليبيين المرابطين فيه من الإمبراطور أن يوسد إليه حكم هذا الموقع كوالٍ أو كحاكم بيزنطي •

وتمسكاً من الصليبيين بالعهود التي قطعوها فقد بقوا حتى استيلائهم على منطقة كيليكيا يتنازلون وببساطة عن جميع الاقاليم التي استخلصوها من السلاجقة الى الإمبراطور ويسلمونها الى قوات هذا الاخير التي كانت تواكبهم • ثم تغير موقفهم هذا • ونحن مانزال نذكر أن القادة الصليبيين كانوا منذ احتلالهم لمدينة تارس وحتى بعد احتلالهم لأنطاكية يعملون لحسـابهم الخاص • لذلك فقد أزفت الآن ساعة تصفية تلك الحسابات وقد بدت هـذه التصفية صعبة الحلّ جداً وذلك لانه لضمان الصليبيين بقاء سيطرتهم على فلسطين كان عليهم أن يراقبوا وعن كثب ما ستؤول اليه حال سورية • ولم يعترض الامبراطور البيزنطي على موقفهم هذا ، لا بل فانه اقترح أن يدعمهم بأسطوله وبقواته البرية لينهوا في هذه الولاية المهمة التي غالباً ما لم تتمكن قوات أوروبة الغربية وأثناء زحفها السريع على بيت المقدس سوى البدء بها • علماً أنه كان يطالب بأن يُعتَرَفَ بسيطرته وبسيادته على كل منطقة تمّ الاتفاق بصددها بينه وبين القادة الصليبيين ولا سيما بالنسبة الى منطقتي كيليكيا وأنطاكية • وقد جرّ ذلك مناقشات عقيمة وطويلة ومثيرة بينه وبين أولئك الذين كان طلبه التقيّد بتلك الوعود يفسد خططهم وخاصة قـائد نورمانديّي إيطاليا بوهيموند الذي استقرّ في أنطاكية ، والذي ذكّـر الإمبراطور ألكسي كومنين بالدور الذي كان قام به أثناء احتلال روبـير غيسكار لمقاطعتي دالماسيا وإيبيراوس • لذلك فمهما حاول هذا العاهل نسيان موقف بوهيموند بإزائه فانه لم ير فيه سوى عدوّ لدود الى بيزنطة • وبمقابل ذلك فإن قادة المعسكر الصليبي الغربي لم يلبثوا أن رفعوا عقائرهم باعتراضات حادّة مفادها أن النجدات الإمبراطورية الموعودة لم تظهر إطلاقاً في الساعات الحرجة وأنه كان على الصليبيين أن يجابهوا وحدهم جيـوش المسلمين وأن الاتفاق الذي كان أُبرِم بهذا الصدد بين الصليبيين والبيزنطيين بقي حبراً على ورق •

وكان لتعارض وجهتي النظر هاتين ذلك التعارض الذي لم يمكن التغلّب عليه أثر في زيادة الخصام والخلاف بين قادة الصليبيين أنفسهم حدّة ، فكان بعضهم متمسكاً بوجوب تمتّعهم بالاستقلال التام في البلاد التي ستخضع الى حكمهم (بينما كان من رأي الإمبراطور أن يدين هؤلاء له بالولاء) على حين مال الآخرون الى التساهل وذلك ضد مصالح الصليبيين أو ميلهم أو عواطفهم الشخصية • كما قاد هذا التعارض الإمبراطور البيزنطي الى اتخاذ موقف عدائي صريح ضد فئة من النبلاء الذين غدوا من بين حكام منطقة الشرق الادنى ومعاملة أفرادها كخصوم وأن يهبّ وبواسطة السلاح الى طلب الحصول على ما اتفق أن يعطى اليه ، لا بل فمن المحتمل أنه لجأ الى طريقة أسوأ بأن أثار ضدّ من اعتبرهم اعداءه بعض الحكام السلاجقة • وفي الوقت الذي كان ضروريا أن يقف فيه الصليبيون والبيزنطيون صفّاً واحداً متراصّاً لمجابهة المسلمين الذين انتشر عقد قواتهم فإن أولئك الصليبيين والبيزنطيين شجعوا باختلافهم وتفرّقهم المتفاقم والمتزايد المسلمين على جمع شملهم والتفكير جدياً باسترداد ما فقدوه •

لذلك كله فنحن لا نعجب أن طالت الفترة التي تمكّن الصليبيون خلالها من تذليل صعابهم الداخلية ذلك التذليل الذي مكّنهم بعد ذلك من ترسيخ حكمهم في البلاد التي احتلوها • لا بل فإن بعض المناطق التي سقطت بيد الصليبيين صارت بعد فتح القدس تتناقلها الأيدي فصار الصليبيون والسلاجقة والبيزنطيون يتنازعون عليها بحماس الى درجة أنه لم يعد يعرف من كان يحكمها في فترة معينة • وقد استشرى القتال بين هذه الفئات الثلاث في كل من كيليكيا وضواحي أنطاكية واللاذقية وجبيل وستكون الفئة المنتصرة من بينها في يوم من الايام مهزومة في غد ذلك اليوم • فالسلاجقة الذين تضايقوا بعد أن تبدّد شمل فالتّهم بدؤوا يُوَحّدون صفوف قواتهم ويستردّون روعهم • وحتى في آسيا الصغرى حيث حاول ألكسي كومنين مجابهتهم سنة ١١٠١ ببعض الفرق الصليبية التي وصلت حديثاً وفي الوقت المناسب من أوروبة الغربية فإن السلاجقة بدؤوا يتخذون موقفاً هجومياً بعد أن كانوا

لزموا جانب الدفاع • وقد أحرز هؤلاء السلاجقة وفي نفس عام ١١٠١ انتصارات متتالية ثلاثة لم تفصل بينها سوى عدة أسابيع سواء في الشمال حول آماسيا بالقرب من دوقية طرابزون (في حزيران) حيث تمكن البيزنطيون من الثبات والصمود في المعركة ، وفي الجنوب بجوار مدينة هرقلة على السفح الغربي من سلسلة جبال طوروس في كيليكيا (في شهري آب وأيلول) مما أعاد الثقة الى نفوس مقاتلة السلاجقة فأخـذوا ينقضّون بين الفينـة والأخرى على الجيوش البيزنطية واستأنفوا طريقة الغارات والغزوات الخاطفة التي تلقي الرعب في نفوس الأعداء وتفسد تنظيم خطوط دفاعهم وتمهـد السبيل الى احتلال المناطق التي أغاروا عليها • أما في سورية وفلسطين فقد جعلت السرعة المتناهية لجماعات السلاجقة قوات غربي أوروبة التي استقرت في بعض المناطق تلوذ منها بالفرار • ولم تعد هذه الجماعات الإسلامية مجرد أداة تهديد مباشر بالنسبة الى سلامة المواصلات الصليبية ولكنها غدت عندما تتحد فيما بينها وينضم بعضها الى بعض خطراً مميتاً بالنسبة الى الإمارات الصليبية التي كانت منهمكة في تنظيم شؤونها • ولقد اختطفت هذه القوات سنة ١١٠٠ بوهيموند من أنطاكية واحتفظت به في أسرها حتى سنة ١١٠٣ ، وألحقت في سنة ١١٠٤ هزيمة نكراء بالصليبيين في حرّان جنوبي الرّهـا جعلتهم يفرّون وهم لا يلوون على شيء • ووالى السلاجقة تقدمهم حتـى وصلوا أبواب أنطاكية أو الى القرب منها • وقد بلغت الجرأة بهذه القوات حدّاً جعلها تصل في غاراتها حتى مدينة بورصة في آسيا الصغرى ثم حتى ضفاف مضيق الدردنيل لتعود بعد ذلك الى أقصى الشمال الغربي من الأناضول مارة بكوتاهية وأسكي‌شهر وغيرهما من المدن • ومع ذلك لم يلبث مستقبل الإمارات الصليبية في آسيا الصغرى ومن الناحية العسكرية البحتة أن توطّد تقريباً • وستجبر قوات السلاجقة على أن تبقى بعيدة عن الساحل سواء في آسيا الصغرى حيث تمكن البيزنطيون من تطويقها بإعادة احتلال المناطق ما بين القوقاز والإسكندرونة ، أم في سورية حيث ردّها الصليبيون الى شرقي وادي العاصي وجبال لبنان ووادي الشريعة • وبذلك خضّدت

شوكة السلاجقة ، ومنعوا من إلحاق الأذى ولو بصورة موقتة بالصليبيين وبالبيزنطيين • واضطر الرؤساء الصليبيون وتحت وطأة الحوادث الى الكف عن مهاتراتهم وحل خلافاتهم والاتفاق فيما بينهم لينظموا معاً الدفاع عن حدودهم فاضطر السلاجقة منذئذ الى التريث والتفكير قبل المغامرة بشن هجوم على احدى المناطق التي احتلها الصليبيون •

وحتى بالنسبة الى الناحية السياسية فإن الوضع أخذ يزداد وضوحاً بمرور الزمن • فالصليبيون الذين درج المؤرخون العرب المعاصرون على دعوتهم بالفرنجة كما لو شكل هؤلاء وحدة جنسية فيما بينهم ، أبدلوا في المناطق التي احتلوها الطابع الآني الموقت وهو طابع الاحتلال العسكري بإقامة كيان مدني أضفى وبشكل تدريجي على المناطق هيئة بلدان غربي أوروبة • وصارت **منطقة أنطاكية** التي آلت الى بوهيموند، رئيس النورمانديين الإيطاليين، ثم الى ابن أخيه تنكريد **تدعى امارة أنطاكية** • وقد امتدت رقعتها بين الإسكندرونة في الشمال وبانياس في الجنوب مغطية منطقة ساحلية يبلغ طولها ٢٠٠ كم ، وكانت بمثابة واجهة أمام جزيرة قبرص ، وتضم في الجنوب الشرقي كلاً من آفاميا ومعرة النعمان وتتصل حدودها التي تمر بالقرب من حلب التي استمرت بيد السلاجقة بحدود كونتية **أو إمارة الرها** • وكان العنصر الأرمني هو الغالب على هذه الإمارة الى درجة أن مؤسس دولتها وهو بودوان أخو غودفروا بويون رأى من واجبه الزواج بأرمنية • وكانت هذه الإمارة قارية بحتة ولا تصل بالبحر وتحتل موقعاً ممتازاً فهي ترقب عن كثب حوض الفرات وتضم في الغرب مدينة مرعش وفي الجنوب عنتاب ومنبج وحران وتوغل حدودها شرقاً حتى ماردين مكملة بذلك عزل إمارة حلب عن بلاد سلاجقة آسيا الصغرى وعن أرمينيا •

هذا بينما تقع كونتية **أو امارة طرابلس** على ساحل البحر الابيض المتوسط وقد آلت الى ريموند سانت جيل كونت طولوز الذي أقصي تباعاً عن تملك أنطاكية والقدس • ونظراً الى أنه لم يعد ثمة إمارات أحسن منها فإنه قنع بها • وتصل أقاليم طرابلس بين إمارتي أنطاكية وبيت المقدس وتتصل بحدود

هذه الاخيرة عند منتصف الطريق المتجهة من جبيل الى بيروت وتحول بين السلاجقة المقيمين في دمشق وحمص وحماة وبين السهل الساحلي الـذي تفصله سلسلة لبنان الغربية عن المناطق الداخلية • وكانت هذه الإمـارة آخر الدويلات الصليبية التي تأسست في سورية • ولم يتمّ انتزاع مدينة طرابلس نفسها من أيدي المسلمين إلا سنة ١١٠٩ على يدي الكونت برتراند وهو ابن غـير شرعي للكونت ريموند وذلك بعد أربع سنين من وفـاة هذا الاخير •

وشكّل ما بقي من المناطق السورية والفلسطينية التي استولى عليهـا الصليبيـون **مملكة بيت المقدس** التي انتخب غودفروا دوبويّون في ٢٢كانون الثاني ١٠٩٩ ، أي بعد عدة أيام من احتلال الصليبيين هذه المدينة ، أميراً عليها رغم ممانعة واستياء كونت طولوز • وقد أمكن وبسهولة تنظيم هذه الإمارة وجعلها دولة حقيقية مستقلة وسادها طابع دول غربي أوروبـة اللاتينية الكاثوليكية • ولم تـدْعَ مملكة بيت المقدس إلا بعد وفاة أميرها غودفروا (١٨ تموز ١١٠٠) ولم يتمكن هذا الامير من اتخاذ لقب ملك مراعـاة للبابوية فاكتفى بلقب **القائد الحامي للقبر المقدس** Avoué du St. Sépulcre . لكن إمارة بيت المقدس هذه دعيت منذ السنوات الاولى من عهد أخيه ووريثه بودوان مملكة وصارت شديدة الشبه بملكيات غربي أوروبة • إنها قسمت الى ولايات يحكمها كونتات والى مقاطعات يحكمهـا نبلاء أسياد Seigneurs وغصّت رحابها بالحصون التي شيّدت في ربوعها وهي على نمط الحصون القلاع المشيدة في فرنسا • ومارس النبلاء الذين عاشوا في هذه الحصـون القلاع نفس طراز الحياة الذي عاشه نظراؤهم في ظل النظام الإقطاعي • وصار سكان ضواحي القدس يشبهون ، من قريب أو من بعيد ، وبالنسبة الى النواحي والنظم العقارية والمالية والقضائية القرويين المقيمين في أحواض نهر اللوار والسين والموز •

وفضلاً عن ذلك فقد نشد ملك بيت المقدس أن يبسط سيادته عـلى إمارات طرابلس والرّها وأنطاكية فجوبه هذا الادعاء وبقوة بالنزعة الاستقلالية

الموجودة لدى ثلاثة البارونات الحاكمين لتلك الإمارات وبمطالب الإمبراطور البيزنطي الذي لم يكفّ عن المطالبة بولاء أمير أنطاكية له وفق الاتفاقات الاولى . وأراد أن يعترف له بحقوقه وسيادته على إمارة الرّها لوصول حدودهـا الى الضفة الشرقية للفرات أي بعد الحدود القديمة للإمبراطورية البيزنطية ، وعلى إمارة طرابلس التي ساعدت وحدات الاسطول البيزنطي الصليبيين في احتلالها ، والذي أعلن له وبصورة أصولية الكونت ريموند حاكمها وأميرها ومن أجل تمتعه بحكم هذه الإمارة ولاءه .

وصفوة القول أنه لافتقار العاهل البيزنطي الى الوسائل العسكرية فانه لم يتمكن من تحويل تلك الادعاءات الى أفعال وواقع . وبقيت الامارات الصليبية في سورية وفلسطين مُشَكِّلة مجموعة كبرى من الولايات التي تتشابك وتتداخل شؤونها ولو بصورة غير تامة ولكنها في الوقت نفسه ، ومع إيصالها حدود المناطق التي آلت الى الصليبيين الى مصر أظهرت استرداد أوروپة الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ابتداء من بلاد اليونان وتراقيا ، هذا الحوض الذي كان العرب المسلمون قد طردوها منه منذ قرون عديدة[1] .

---

(1) إنه بانهائنا دراسة الحملة الصليبية الاولى نكون قد أنهينا هذا الجزء الاول بدراسة القرن الحادي عشر وسَنُتِمُّ دراستنا للفترتين الثانية والثالثة من العصور الوسطى ، أي حتى نهاية القرن الخامس عشر في الجزء الثاني الذي سنبدأه إن شاء الله بدراسة القرن الثاني عشر بالنسبة الى أهم أحداثه السياسية وحضارته .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	الصـــــواب
٣	٩	أوربا	أوروپة (١)
١١	٢١	ميلان	ميلانو
١٣	١٧	قي	بقي
١٤	١٦	تدخل	يتدخل
١٥	٧	نيقيا	نيقية
٢٣	٨	لموظف	الموظف
٢٣	١٣	هذه	هذا
٢٤	٢٥	قصد	تقصد
٢٥	١٩	الرومانبة	الرومانية
٢٦	١٦	لعدد	العدد
٢٧	٢٣	Ages	Age
٢٧	٢٦	بايو	پايو:
٢٨	١٥	تدو	تبدو
٣٠	١٠	لهر	نهر
٣١	٨	حيون	يحيون
٣١	٢٢	Skries	Skires
٣٣	٢٤	صحارها	صحاراها

(١) نستميح القارىء معذرة الى أنه وردت كلمة **أوروبا** الى حوالي الصفحة ١٥٨ من هذا الجزء من الكتاب وقرابة الستين مرة مكتوبة بهذا الشكل ثم بنتيجة ما أقرته المجامع العلمية العربية من وجوب كتابتها « أوروپة » فإننا صرنا نكتبها بعد تلك الصفحة أوروپة لذلك يرجى من القارىء الكريم تصحيحها . هذا بينما بقينا نثبتها أوربا وأوروبا إن كانت موجودة في نص عربي نقلناه وأثبتناه .

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	الصـــــواب
٣٤	٧	نراجعوا	تراجعوا
٣٦	٦	أنههم	أنهم
٤٠	٦	لأوروبا	لأوروبة
٤٣	٢٥	استقرار	لاستقرار
٥٧	١٨	الامبراوطر	الإمبراطور
٥٧	٢١	Eudoxi	Eudoxie
٥٩	١	ببقي	بقي
٦٠	٣	ڤالانيتنيان	ڤالانتينيان
٧٣	٢٣	القويم	القديم
٧٤	٢٥	ومبدا	ومبدإ
٧٦	١	أن تخرج	ألا تخرج
٨٢	١١	القوية	القومية
٩٢	١٨	علبه	عليه
٩٣	١٣	سدّة	سدّة
٩٤	٢	البيزنطبة	البيزنطية
٩٤	٨	الإمبراطوريتين	الإمبراطوريين
٩٤	١٢	الشرقي	الغربي
٩٥	٢٠	وجدها	وجدها في
٩٥	٢٦	(٢)	(٣)
٩٩	١٤	يجعل	يجعل من
١٠٢	١	Donotistes	Donatistes
١٠٥	٥	شخصاً	شخصياً
١٠٥	٢٣	استراد	باسترداد
١٠٨	١٩	خليفتمها	خليفتهما
١٠٨	٢٠	زعمائههم	زعمائهم
١٠٩	١٤	اللومبارديين	اللومبارديون

الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصـــواب
١١٠	٢	الجيبيدين	الجيبيديين
١١٠	٢٢	آقاقاً	آفاقاً
١١٣	٩	الاصل ، لا بل فان	الأصل فإن
١١٥	١٤	إجماع	إجماعاً
١١٧	٦	فإن جماعات	فإن أفراد جماعات
١١٧	٧	من افرادها رسائل	منهم رسائل منه
١٢٣	١٠	دانة	ديانة
١٢٣	١٧	للديانة	الديانة
١٢٤	١٦	ملاحظة	ملاحظته
١٣١	٨	المسحية	المسيحية
١٣٣	١١	المرحو ممحمد	المرحوم الدكتور محمد
١٣٤	٤	الاجتماعي	اجتماعي
١٣٤	٢٥	بارز	باريز
١٣٦	١٧	والمنفطعين	والمنقطعين
١٣٦	٢٥	زادة	زيادة
١٣٨	٦	خلبطة	خليطة
١٣٨	١٩	النهيرين	النهرين
١٣٨	٢٠	القدس	القديس
١٣٨	٢٣	الباخونية	الباخومية
١٣٩	٤	يو قفه	بو قفه
١٣٩	٥	سنين بهذا	سنين على التحاق سمعان العمودي بهذا
١٤٠	٦	الامبراطورية	الإمبراطورية
١٤٠	١٣	اقامنه	اقامته
١٤٠	١٤	مقرية	مقربة
١٤٢	٧	régulier	régulier
١٤٢	٢٢	(من اكليروس)	(أي الإكليروس)

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
١٤٢	٢٥	لمناقشه	لمناقشة
١٤٥	٩	أن قدم لنا	أن تحدث
١٤٥	١٠	الكهنوتي لوحة	الكهنوتي قدم لنا لوحة
١٤٦	٦	ونظر	ونظراً
١٥٥	٤	تكون من الصورة	تكون الصورة
١٥٦	١٤	كراهبة	كراهية
١٥٩	١٧	Anges	Angels
١٦٠	١٠	الأسرة	الأسر
١٦١	١٦	وبمعيته	وبمعيته أربعون منأعوانه حيث
١٦١	١٧	أنا غريت	أسس سنة ٥٩١ دير أناغريت
١٦١	٢٠	ديريه في	ديريهالسابقين ثم تأسيسه ديراً في
١٦١	٢٤	الذي صادفه دير	الذي كان صادفه ديره في
١٦١	٢٥	من الأسقف	من أسقف بورغونديا
١٦٢	٨	شمالى	شمالي
١٧١	٦	ويكتفنها	ويكتنفها
١٧٢	٦	بين نهر الرين الأدنى	بين الحوض الأدنى لنهر الراين
١٧٢	١١	طول نهر	طول حوض نهر
١٧٧	٦	الصغرى .	الصغرى ،
١٧٧	٧	ثم أخذت	أخذت
١٧٧	٢٣	لإتاحتها	لإتاحتها
١٧٨	٢٤	وترجمها	وترجمه
١٨٦	٤	فضول	فصول
١٨٨	٢	الاحعاد	الأحقاد
١٨٨	١٠	ينح	يتح
١٨٨	١٣	اسنرد	استرد
١٩٠	٢٦	. وكان	.

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠٧	١٤	يورغونديا	بورغونديا
٢١٠	١٩	داخله	داخلة
٢١١	١٩	إيطالية	إيطاليا
٢١٣	١٩	غريغوار/٣	غريغوار/٣
٢١٤	٢٠	بيبن	پيپن
٢٢٦	١٩	وبسير	ويسير
٢٣٣	٢٦	Social	Sociale
٢٣٤	٣	طفي	موظفي
٢٣٧	٢٥	شفاؤه	شفاؤه »
٢٤٤	٢٠	يتكمن	يتمكن
٢٤٧	٢٠	الملكبات	الملكيات
٢٤٧	٢١	domanales	domaniales
٢٤٩	١٨	مفروءة	مقروءة
٢٥٠	١٥	أمراد	أفراد
٢٥٠	٢٠	يّدّعي	يدعي
٢٥٣	٥	ميرنجيتي	ميروڤنجيتي
٢٥٧	٢٣	ذلق	ذلك
٢٥٦	١٥	پيپن	ببيپن
٢٥٨	٢٣	بشدّة	بشدة
٢٦٤	١	والحق	وإلحاق
٢٦٥	٩	قيها	فيها
٢٦٦	١٦	من	في
٢٧٠	٢٤	سكونيا	سكسونيا
٢٩٤	٢٤	فيه	بـه
٢٩٩	١٢	. حيث	حيث
٣٠٠	١	مُجِدٌ	مُجِدٌ

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصــواب
٣٠٠	٨	نموذج القديس	نموذج كنيسة القديس
٣٠٩	٢٦	البحث	البحت
٣١٦	١٨	اويس	لوثير
٣١٧	٩	الألب	الآلب
٣٢٨	١٢	نمة	ثمـة
٣٤٠	١٠	بتنافسان	يتنافسان
٣٤٩	٢٥	حذور	جذور
٣٥١	٨	الجهار	الجهاز
٣٥١	٢٥	وفتلاً	وقتلاً
٣٥٢	١٥	عن ملجأ	عن ملجإ
٣٥٧	١٩	تمتدّ	تَمتّت
٣٥٩	١٧	المسنبدة	المستبدة
٣٦١	٢	الإمبراطورة	الإمبراطورية
٣٦٣	٢٠	سنتي	سنتي
٣٦٥	٤	ورتته	ورثته
٣٦٥	٦	المرة	المرة
٣٦٦	٦	بازاء	بإزاء
٣٧٧	٨	حيث طغت	فطغت
٣٧٩	١٨	ذلك : سبَّبَ	ذلك سبَّبَ
٣٨٩	٦	من الفرار	سوى الفرار
٣٩٤	١٨	أورد المؤرخ	أورد هذا المؤرخ
٣٩٩	٧	وأسياد	وأسياد ألمان
٤٠٣	١٦	لكن هذا	« لكن هذا
٤٠٧	١٥	أخيته	أختيه
٤١٢	٢٤	الملجد	المجلد
٤١٣	٢	عنها هؤلاء	عنها ؛ هؤلاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤١٤	٥	بافاريا	باڤاريا
٤٢٤	٢٠	ولا الأوتون	ولا لأوتون
٤٢٥	٢٦	الى هذه	إليها
٤٢٦	١	الحركة والتي أخذت	والتي أخذت
٤٢٩	٥	العصرين	العصريين
٤٢٩	٢٥	الحضارة البربرية	الحضارة والبربرية
٤٣٠	١١	ولئن لم تظهر	ولم تظهر
٤٣٠	١٧	علك	على
٤٣١	٨	سيؤدي	سيؤدي
٤٣٧	٦	وان	وإن
٤٣٨	١	محمييهم	محميّوهم
٤٥٩	٤	ابنه	الابنة
٤٥٩	١٨	الإجر	الأجر
٤٦٧	١٢	الموجّهة	الموجّهة
٤٦٨	٦	من في	في
٤٧٠	١٦	آ	آ ـ
٤٧٤	١١	علاني	علماني
٤٨٦	٢٣	الإمبراطوري	نفسه
٤٩٣	١٩	بأن	على أن
٥١١	١	وماتون	وماكون
٥١٢	٥	أول	أولى
٥١٩	١	بونت	مونت
٥٢٣	٤	Bohèmond	Bohémond
٥٢٤	٤	ابنه	ابنة
٥٢٥	١	يعقب	يُعقّب
٥٢٥	٤	المهدّدين	المهدّدين

الصفحة	السطر	الخطـــــأ	الصـــــواب
٥٢٧	١	ما نصه « كان	ما نصه : « كان
٥٣٢	١١	سياسة	سياسية
٥٣٥	٢٤	دُعمت	ُدعِمت
٥٣٦	٣	بالسيادة	السيادة
٥٣٨	١١	غدو	غدوا
٥٤١	٢	فانه بعد أن	بعد أن
٥٤٢	٢٦	أن يهبّ	أنه هبّ و
٥٤٣	٢٥	لتي	التي
٥٥٠	٨	دون	ومن
٥٥٢	٥	والكسي دو	والكسي
٥٥٤	٥	في الحروب	في الحروب الصليبية
٥٥٩	١٩	والتخلّص	وللتخلّص

فهرست الموضوعات[1]

---

(١) إننا نرجىء إيراد ثبت المصادر ، وفهرست الاعلام ، والخرائط الى نهاية الجزء الثاني من كتابنا الحالي والذي سيتضمن بحث دراسة الفترتين الثانية والثالثة من تاريخ العصور الوسطى اي بين مستهل القرن الثاني عشر ونهاية القرن الخامس عشر ونرجو أن يتم صدور هذا الجزء الثاني في العام الجامعي القادم ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ .

منحدرين منه ؛ ٣ ــ تأييدالكنيسة الكاثوليكية للميروفنجيين منذ اعتناق كلوفيس النصرانية على المذهب الكاثوليكي ؛ ٤ ــ العلائق الحسنة التي ربطت عواهل الميروفنجيين بأباطرة الدولة البيزنطية . (ص ١٩٦ ــ ٢٠٤) . عهد رؤساء البلاط (ص ٢٠٥ ــ ٢١٠) . زيـادة التقرب بين شارل مارتل والبابويةوالقضاء علىالدولةالميروفنجية (ص٢١٠ ــ ٢١٤). قيام الدولة الكارولنجية (ص ٢١٤ ــ ٢١٩) ، الحضارة الميروفنجية : الملكية الميروفنجية ونظام الحكم والقضاء (ص ٢١٩ ــ ٢٢٩) . الحياة الاجتماعية والاخلاق والعادات . اختلاط أفراد قبائل الفرنجة بالسكان المحليين ذلك الاختلاط الذي ساعدت أسباب ثلاثة على حدوثه : ١ ــ الاحترام الذي كان الفرنجة يشعرون به نحو الامبراطورية الرومانية ونظمها وحضارتها بصورة عامة ، ٢ ــ اعتناق الفرنجـة النصرانية وفق المذهب الكاثوليكي ؛ لم يجعل الفرنجـة المناصب الحكومية وقفاً على أفراد قبائلهم . (ص ٢٢٩ ــ ٢٣٢) . ازدياد أهمية وقوة حكام المقاطعات بنتيجة ضعف السلطة المركزية في عهد الميروفنجيين الأواخر مما اعتبر بداية لنظام الاقطاع (ص ٢٣٢ ــ ٢٣٨) . الأسس التي قامت عليها القومية الفرنسية : ١ ــ وحدة المذهب بين الفرنجـة والغاليين الرومان ؛ ٢ ــ لم يصادر الفرنجة المحتلون أراضي الغاليين الرومان ؛ ٣ ــ عدم تمييز الميروفنجيين الفرنجة عن سكان غاليا ؛ ازدياد روابط الزواج بين الفرنجة والغاليين الرومان (ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩) . أسباب التقارب بين الشعبين الفرنجي والغالي (ص ٢٣٩ ــ ٢٤٢) . الرقعة التي قامت فيها فرنسا في العصور الوسطى (ص ٢٤٢) . ظهور فرنسا (ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣) . النظام المالي عند الميروفنجيين (ص ٢٤٣ ــ ٢٤٥) . الحياة الاقتصادية . أولاً : التجارة ؛



مطبعة الانشا